





الْبَيْتُ الْفَتَى

في القرن الرابع

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس وتوقش أمام الجمهور في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جدًا]

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع حد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

(حقوق الطبع محفوظة للأولف)

الإهداء.

- الى أستاذى الدكتور منصور فهمى .
- والى صديقى المسيرى كامين .
- أهدى هذا الكتاب .
- تحية وداود وإعزاز وإخلاص ما

زكى مبارك

مصر الجديدة، أول يناير سنة ١٩٣٤

(١) فهرس

صفحة		صفحة	
١٧١	الوصف	٧	فاتحة الكتاب
١٨٠	المتبذل والطريف في التعاير الأدبية ...	١٧	نقد النثر الفنى
	الباب الثالث		الباب الأول
	كتاب الأخبار والأفاصيص		تطور النثر الفنى من عصر النبوة
١٩٧	المقامات		الى القرن الرابع
٢٠٦	مقامات بدیع الزمان		النثر الجاهلى... ..
٢٢٧	أحاديث ابن دريد	٣٣	نشأة النثر الفنى
٢٣٤	روايات الأة فى	٤٤	النثر الفنى فى العصر الاسلامى... ..
٢٤٦	أخبار ابن دريد... ..	٥٧	أطوار السجع
٢٥٤	حكايات ابن الأنبارى	٦٤	
٢٥٨	التوايح والزوايح		الباب الثانى
٢٧١	الانسان والحيوان أمام محكمة الجن ...		خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع
٢٨١	أخبار التوحيدى		خصائص ثرية... ..
٢٨٦	قصص البيضاء	١٠٥	السجع والأزدواج
٢٩٤	أحمد بن يوسف المصرى	١١٣	تصوير الحياة العقلية
٣١٢	عبد الله بن عبد الكريم	١٢٦	المكاهات
٣١٥	المحسن التنونى	١٣٢	النسب
٣٣٨	حكاية أبى القاسم البغدادى	١٤٨	الاخوانيات
٣٥٣	الفهرس المفصل	١٦٣	

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١ -

هذا كتاب "النثر الفني في القرن الرابع" وهو كتاب شغلت به نفسي سبع سنين، فإن رآه المنصفون خليقا بأن يتمر قلب مؤلفه بشماع من نشوة الاعتزاز فهو عضارة لجهود عشرين عاما قضاهها المؤلف في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي، وإن رآوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليذكروا أني ألفت في أعوام سود لقيت فيها من حنت الأيام ما يقصم الظهر، ويقصف العمر : فقد كنت أشطر العام شطرين، أقضى شطره الأول في القاهرة، حيث أودى عملي، وأجنى رزقي، وأقضى شطره الثاني في باريس، كالطير الغريب، أحادث العلماء، وأستلهم المؤلفين، إلى أن ينفد ما أديره أو يكاد، ثم سمحت على أن أنقطع إلى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت، وكانت العاقبة أن أنعم على الله - عز شأنه - بالنصر المبين .

ولكني أحب أن أكون في طليعة المنصفين لمؤلف هذا الكتاب، وهل من العدل أن أخلم نفسي وأنصف الناس ؟

إن هذا الكتاب أول كتاب من نوعه في اللغة العربية، أو هو - على الأقل - أول كتاب يُصنّف عن النثر الفني في القرن الرابع، فهو بذلك أول منارة أقيمت لهداية السارين في غياهبات ذلك المهدي السحيق .

ولن يستطيع أي مؤلف آخر - مهما أعز بقومه، وتماهى عن جهود من سبقوه - أن ينسب أني رفعت من طريقه ألوف من العقبات والأشواك .

وهل يمكن الأرتياب في أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من كشف النقاب عن نشأة التراث في اللغة العربية، وقهر المستشرقين ومن لَّفَّ لَفَّهُم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور التراث الجاهلي، وأنه دليل على أن العرب كان لهم ترفُّق قبل عصر النبوة بأجيال؟

وهل يمكن الشك في أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من رَجَّع الصور الفنية في تراثنا العنمة والزعرى الى أصول عربية صميحة، وكان الباحثون يظنونها أثرًا من اتصال العرب بالفرس واليونان؟

وهل يمتري منصف في أن ما كتبه عن أطوار السجع والنسيب في التراث الفنى باب من البحث جديد؟

وهل يتردد أريب في الاعتراف بأن الفصول التى كتبتها عن نشأة المقامات وعن الأخبار والأقاصيص فصولٌ مبتكرةٌ كتبت لأول مرة في اللغة العربية؟

والفصول التى أنشأتها عن كتاب النقد الأدبي؟ لقد جلوت في تلك الفصول طوائف من الحقائق الأدبية لم يهبها أحدٌ ما تستحق من العناية قبل اليوم .

والمؤلفون المسلمون الذين بشتم هذا الكتاب؟

لقد مرت أجيال طوال نسي فيها أبو المنيرة بن حزم نسيانا تاما حتى كاد يطوى من صفحة التاريخ، الى أن كشف عنه مؤلف هذا الكتاب .

وكان أساتذة الأدب العربى في الشرق والغرب يستقدون أن (رسالة الغفران) أول مسلاة في اللغة العربية، ويطنون أن ابن شهيد حاكاه حين ألف رسالة (التوايح والزوايح) فجاء مؤلف هذا الكتاب وأثبت أن رسالة ابن شهيد ألقت قبل رسالة المعرى بنحو عشرين عاما، وأن المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد .

وكان تخب أبى محمد بن حزم في (فن الحب) مجهولا في الشرق، فلما جاء مؤلف هذا الكتاب وأظهره حده المصريون أعجوبة، وتألقت لجنة من علماء الأزهر برئاسة الشيخ

محمد عرفة وكل كلية الشريعة لثبوت ابن حزم مما نسب إليه ! ثم أفضت المجنة وأزوى
أعضائها الفضلاء ! أليس ذلك دليلا على أن هذا الكتاب فاجأ الشرقيين نبأ عظيم ؟
وما كتبت عن ابن دريد ؟ هل كان ينتظر أحد أن يكون هذا الرجل هو واضع الأفضوة
في اللغة العربية ، والملمم الأول لبطل المقامات بديع الزمان ؟
تلك ملاح من شمائل هذا الكتاب ، أقف عندها ولا أزيد !
ومعاذ الأدب أن أمن على لغة العرب التي أعزنى بها الله . وإنما هي ثورة نفسية أنطلق
بها ما أراه في زمانى من غدر وعقوق . والله المستعان ، على إفك هذا الزمان !

- ٢ -

وأنا ، بعد ذلك ، مسعول عن عرض المؤاخذات التي وجهت الى هذا الكتاب .
وأذكر ، أولا ، أن في هذا الكتاب عيا بجله الأساتذة في جامعة باريس ، وهو غلية التزعة
الوجدانية ، وقد احتضر عنى المسيو ماسينيون يوم أداء الامتحان في السوربون ، فذكر أنى
شاعر ، والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان .
وأذكر ، ثانيا ، أنى قصرت تفصيلا ملموسا في عرض الشواهد ، ولم أذكر شاهدا كاملا
غير مناظرة الخوارزمي والهمذاني ، واكتفيت بالإشارة في الهوامش الى مراجع الشواهد .
وعذرى في ذلك أن هذا الكتاب لم يؤلف إلا لغواص ، ومن السهل عليهم أن يرجعوا الى
الشواهد في مصادرها حين يشاؤون . يضاف الى هذا أن الشواهد لو ذكرت كاملة لوصل
حجم الكتاب الى أكثر من أربعة مجلدات . وأين الناشر الذى يتفق على نحو ألفى صفحة من
هذه الصفحات الطوال المراض^(١) ؟ !

وأذكر ، ثالثا ، أن منهج العرض والتأليف يختلف في هذا الكتاب بعض الاختلاف .
والسبب في هذا أن الكتاب لم يؤلف في عام واحد ، وإنما كتبت فصوله كما أسلفت في خلال
سبع سنين ، وهى مدة طويلة يقول فيها العقل والنطق من حال الى حال .

(١) تردد الحاج مصطفى محمد أولا في نشر هذا الكتاب لطوله وخطأه ثقفا ، ولم تصح حزمته على نشره إلا بعد
أن علم أن حضرة صاحب المعالي الأستاذ محمد طه عيسى باشا وعد بطله على ثقة وزارة المعارف السومية .

وأذكر ، رابعا ، غلبة الاستطراد في صلب الكتاب ، وهو عيب لا منى عليه الأستاذة في باريس . وعذرى في ذلك أنى أميل الى هذا النحو الموروث في التأليف ، لأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك ، والقارئ هو الغانم على أى حال ، والفهرس المفصل الذى ألحقته بالجزء الأول والجزء الثانى سيمكّن القارئ من تعقب ما في الكتاب من شتيت الفوائد الأدبية والتاريخية .

- ٣ -

عُنيّا في هذا الكتاب بدرس التراث الفنى ، أما الزمان فهو القرن الرابع ، وأما المكان فهو الأمصار الاسلامية لذلك العهد . فهل كان يمكن أن يتفق العرب والمستعربون في القرن الرابع على اصطناع أسلوب واحد أو مقارِب في التعبير عن مختلف المعانى والأغراض ؟ ذلك سؤال وجهه الينا المسيو ديمومين ، وأجبتا عنه في النص الفرنسى ، ونعرض له في هذه المقدمة بشئ من البيان .

لا جدال في أن الموضوعات كانت تختلف كثيرا أو قليلا ، فالمشاكل العقلية والوجدانية التى كانت تعرض لكتاب الأندلس تتباير بعض المفايرة ما كان يعرض لأمثالهم في مصر والشام وفارس والعراق .

أما اللغة والأسلوب فالاختلاف فيما قليل . لأن العرب الذين هاجروا فاتحين الى مصر والمغرب والأندلس نقلوا تقاليدهم الأدبية الى تلك البلاد ، وكان من هم المؤلفين في المغرب والأندلس أن ينقلوا الى مواطنهم أدب أهل المشرق . والتاريخ يحثنا " أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد غرض حتى حصل عنده ، فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا رَدّت الينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شئ من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه " .

(١) الفهرس المفصل هو الترجمة المحيرة لمبارة Table analytique

(٢) ص ٢٢١ و ٢٢٢ - (٣) سم الأديب ج ١ ص ٦٧

ولهذا انجذب الصغير وجهان على جانب من الأهمية : فالصاحب كان يتشوف الى أدب أهل الأندلس، لأنه لم يكن منشورا في المشرق، وكان يرى أن أول ما ينبغي أن يشغل به رجل كأحمد بن عبد ربه هو تدوين أدب أهل الأندلس . أما ابن عبد ربه فكان أعرف بحاجة بلاده من الصاحب، فأجتهد في أن ينقل اليهم أدب أهل المشرق، وكانوا يرونهم اساتذة في الشعر والبيان . وأهتمام أمثال ابن عبد ربه بجمع الآداب المشرقية يؤيد ما نراه من محافظة أهل الأندلس على الأساليب العربية التي كان يصطنعها كتاب الشام وكتاب العراق . وما وقع في الأندلس وقع مثله في المغرب، فان مؤلف زهر الاداب يحثنا في مقدمة كتابه أن العباس بن سليمان أرتحل الى المشرق في طلب الكتب " باذلاً في ذلك ماله، مستعذبا فيه تعب، الى أن أورد من كلام بقاء عصره، وفصحاء دهره، طرائف طريفة، وغرائب غريبة " وسأله أن يجمع له " من مختارها كتابا يكتبني به عن جملتها " فالف كتاب زهر الآداب .

وكما خلا العقد الفريد من أدب أهل الأندلس خلا زهر الآداب من أدب أهل المغرب .
 أيكون معنى ذلك أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يستخفون بأثرهم الأدبية ؟
 لا، ولكن معناه أنهم كانوا يرون المثل الأعلى عند أهل المشرق، فكانوا يحثون في نقل ما أثير عن أهل المشرق من القصائد والرسائل والحكم والأمثال .
 وكذلك كان زهر الآداب المرجح الأول الذي اعتمدت عليه في أكثر الشواهد المشرقية مع أنه لرجل تونسي من أهل القيروان .

— ٤ —

ويمكن الحكم بأن حظ بغداد في الأيام الخالية كان شبيها بحظ القاهرة في هذه الأيام ألستا نرى العرب والمستعربين في مختلف الأقطار الإسلامية يتأثرون ما يحث في القاهرة من ضروب الآداب والفنون ؟ ألستا نرى مناهج النشر والتأليف التي يبدعها أهل القاهرة تنتشر في أكثر الأمصار الإسلامية بشيء من التنوير قليل ؟

والمسيو ديموسين يحدثنا أن زرياب حين رحل الى الأندلس أستطاع أن يؤثر في الأغاني الأندلسية و يصنفها بصيغة شرقية، أفيرتاب أحد في أن أغاني محمد عبد الوهاب تعطر الأغاني الشرقية بنفحة مصرية، وتنقل الى أكثر البلاد العربية أسرار الفناء في وادي النيل ؟

يضاف الى هذا نظام الرحلة في طلب العلم، وكان أهل الأندلس معروفين بذلك، وكان الأخذ عن علماء المشرق مما يرفع رأس الرجل حين يعود الى بلاده موفور العلم والعقل، وكان يتفق لأهل الأندلس أن يقيموا زمنا بمصر في طريقهم الى المشرق، ليأخذوا عن علماء مصر ما يرون في أخذه فضلا وعائدة . وقصة المنذر بن سعيد البلوطي معروفة، وهي لا تخلو من فكاهة، فقد حضر مجلس ابن النحاس في مصر وهو على هذه الأبيات :

خليلي هل بالشام عينٌ حزينةٌ تُبكي على ليلٍ لمسى أعينها
قد أسدها الباكون إلا حمامةٌ مطوقةٌ باتت ويات قرينها
مجاوبها أخرى على خيزرانيةٍ يكاد يدينها من الأرض لينها

فقال ابن سعيد : يا أبا جعفر ! ماذا ، أعزك الله ، باتا يصنعان ؟ فقال ابن النحاس : وكيف قوله أنت يا أندلسي ؟ فقال : باتت وبان قرينها .

وبالطبع ما كان يتفق لجميع من وفد على مصر من أهل الأندلس ما اتفق لابن سعيد مع ابن النحاس ولكن المهم أن نشير الى أن ابن النحاس أستقبل ابن سعيد بعد ذلك حتى منعه كتاب العين وكان يذهب فينسخ من نسخته ، فأنصرف عنه الى الانسحاق من نسخة أبي العباس بن ولاد^(١) .

وفي أمثال هذا انطبع ما يدل على أن الأندلسيين والمغاربة في رحلتهم الى المشرق كانوا يجمعون بين فائدتين : الاستماع الى الرجال وأنساق ما يظفرون به من نادر المصنفات ، حتى إذا عادوا الى بلادهم آشتفوا بالوراقة والتدريس ، أما الوراقة فلكسب الرزق ، وأما التدريس فطلب المجد .

وبعض هذا كافي لصيغ أدواقهم بالصيغة المشرقية في الشعر والبيان .
 أيكون عجيبا بعد هذه الأدلة أن نحكم بأن أساليب الكتاب في القرن الرابع كانت متقاربة
 في السمات والخصائص وإن أفرقت مساكنتهم بين المغرب والمشرق ؟

- ٥ -

مررت المناقشات هادئة في هذا الكتاب ، ولم يستمرّ ضربيها إلا حين اتصلت برجلين
 من كرام الرجال ، هما المسيو مرسيه والدكتور طه حسين .

أما المسيو مرسيه فعالم واسع الاطلاع ، وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد ،
 وكانت له آراء مدقونة عن نشأة التراث الفنى عند العرب . وما كدت أصل الى باريس حتى
 هممت بمهاجمته ، فنصحني المسيو ماسينيون وأفهمني أنه رجلٌ صعب المراس ، وأن مترته
 في المعهد العلمى عظيمة ، وأن المستشرقين جميعا يحلونّه أعظم الإجلال . ولكن كتب الله
 أن لا أنتصح برأى المسيو ماسينيون ، فابتدأت رسالتى التى قمتها للسوريون بفصلين
 فى نقض آرائه من الأساس ، فضرب الرجل وثار ، وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما
 لولن من الاستطراد لا يؤايم الروح القرنينى فى البحث ، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة
 أنهما الهاد الذى تمهض عليه نظريتي فى نشأة التراث الفنى .

وكأنما عزّ على الرجل أن أهاججه فى عُقر داره فضى يمايدنى عداءً خفيا كانت له آثار
 بشعة لا اتذكرها إلا أنتفضت رُعباً من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدردتهم على قوبيض
 دعائم الإنصاف .

وقد قابلت خصومته بلدي أقسى وأعنف ، ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص
 على رضاه ، فابقيت الفصلين اللذين أغضباه ، وأضفت الى البحث الذى قمته الى مدرسة
 اللغات الشرقية فصلا كان أشار بحذفه لأنى هاجمته فيه ، وأتيتنا الى عاقبة أفصح عنها المسيو
 ماسينيون كل الإنصاح إذ قال حين لقينته أخيرا فى باريس :

”إن المسيو مرسية لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينساك“ .

أما أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل ، لأنه من خيرة الأساتذة الذين تلقيت عنهم في باريس ، ولأنه كانت رئيس لجنة الامتحان الذي ظفرت فيه بدبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية . والله سبحانه هو القادر على أن ينسني ما لقيت على يديه من ظلم وإجحاف !

أما الدكتور طه حسين فما أدرى والله ما ذنبه حتى يهاجم أعنف الهجوم في هذا الكتاب !

إن هذا الرجل تربطني به ألوف من الذكريات، يرجع بعضها الى العهد الذي كنت فيه طالبا بالجامعة المصرية القديمة، يوم كان يصطنع العدل الذي يلبس ثوب الظلم في امتحان الطلاب، فقد ساعد مرة على إسقاطي في امتحان الجغرافيا ووصف الشعوب ، وأسقطني مرة ثانية في امتحان تاريخ الشرق القديم . والسقوط في الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف .

ويرجع بعض الذكريات الى العهد الذي كنت فيه مدرسا بالجامعة المصرية الجديدة ، حين كنت أحمل اليه على أكتاف الأسياف لرفع القواعد من كلية الآداب .

وأدق ما يصل بيننا من الذكريات ما وقع في ربيع سنة ١٩٢٦ يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلي ، وتارت الأمة والحكومة والبرلمان ، وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يتربص ، وحاسد يتربص، وكنت وحدي صديقه الذي لا يهاب، وزميله الذي لا يخون .

ولكن حماسي للفكرة التي أداغ عنها ، وغرام الدكتور طه بنقضها في رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كان مما حملني على مقاومته بعنف وقوة ، حتى ليحسب القارئ أن بيننا عدواة سقيت لأجلها القلم قطرات من الدم الزعاف حين عرضت لدحض آرائه في فصول هذا الكتاب .

أكتب هذا وقد شَرَّق الدكتور طه وغرَّبت ، ولم يبق بيننا إلا أطْيافُ من كرائم
الذكريات، قلبي بها ضنين .

— ٦ —

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة وستة أبواب ، أما المقدمة فيبحث عن نصيب النثر
الفني من عناية النقاد ، وتبين الفرض من تأليف هذا الكتاب ، وفي الباب الأول يتكلم
المؤلف عن النثر الجاهل والنثر الاسلامي وأطوار السجع والأزدواج ، وكان من الضروري
في نظر المؤلف أن ينشئ هذا الباب ، وهو أصل الخصومة بينه وبين أستاذه المسيو مرسيه .
وحجة المؤلف أنه من الواجب تعرف مذاهب النثر من عصر النبوة الى القرن الرابع لتظهر
خصائص النثر في العصر الذي ألف عنه الكتاب ، وفي الباب الثاني يدرس المؤلف خصائص
النثر في القرن الرابع فيبين ما فيه من الظواهر الفنية والعقلى ، ثم يمضى فيتكلم في الباب الثالث
عن كُتَّاب الأخبار والأفاصيص ، ويتحدث في الباب الرابع عن كُتَّاب النقد الأدبي ، ويشرح
في الباب الخامس بعض الجوانب المهمة من كُتَّاب الآراء والمذاهب ، ويختم الكتاب بالباب
السادس عن كُتَّاب الرسائل والمهود .

والمؤلف مطمئن الى صحة هذا التقسيم ، ويسترف بأنه لم يتكلم عن البلاغة الدينية إلا قليلا ،
فقد حملته الأثرة على أن يستبقى هذا الجانب لكتابه "أثر التصوف في الأدب والأخلاق" الذي
يرجو أن يوفق الى إتمامه بعد قليل .

— ٧ —

راعينا روح العصر في تأليف هذا الكتاب ، فتجنبنا ألفاظا وتماير كانت تستساغ في القرن
الرابع ولا تستساغ اليوم ، ولكنا في الوقت نفسه لم نهمل واجب الدقة في التأليف فاشرنا الى
نوازع اللهو والمجون ، ودققنا القارئ على مصادرها إن كان يهجم استقصاء الظواهر الاجتماعية
التي حفظها التاريخ . والأدب في رأينا أصدق مصدر للدراسات الفلسفية والتاريخية ، ومثل
هذا الكتاب يقدم لخواص الذين يُدُّ الحفظ في مخاطبتهم ضربا من الجمود .

- ٨ -

بين الأصل الفرنسى وبين هذا الكتاب اختلاف قليل ، ففى النسخة الفرنسية أشياء تكتب لأهل الغرب ولا يحتاج اليها أهل الشرق ، وفى هذه النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج اليها أهل الغرب وتتفع أهل الشرق ، ويمكن القول بأن فى النسخة العربية حرية لم تكن فى النسخة الفرنسية ، لأن الأصل الفرنسى كتب لأداء امتحان الدكتوراه فى جامعة باريس ، تحت إشراف أستاذين فيما صرامة وقسوة ، وهما المسيو مرسيه والمسيو ديوميين ، فالأصل الفرنسى وجهه العلم الصرف ، أما هذا الكتاب فوضع لفرض التعليم والتخفيف .

- ٩ -

أيرانى الفارئ أحسنت التمهيد لهذا الكتاب ؟

قد يكون ذلك وقد لا يكون ، ولكن مما لا ريب فيه أنى رفعت عن كاهل عبثاً ثقيلاً باخراجها الى الناس ، فقد كان من الواجب أن ينشر بالعربية بعد نشره بالفرنسية . وقد فضيت طاماً فى طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية ، وأستوجب تحقيقه وتصحيحه جهوداً لم تكن تخطر بالبال ، وصبر ناشره الحاج مصطفى محمد صبراً جليلاً ، وأحتمل عمال المطبعة ضجر الإفراط فى المراجعة والتصحيح .

وأرى من الواجب أن أشكر صاحب العزة الأستاذ براءة بك على التسهيلات التى أخصنى بها فى تسير طبع هذا الكتاب على الطرفة الفنية التى أستطعت بها ربط أصول الكتاب بعضها ببعض ، وأن أسدى الثناء الى صديقى المفضل عبد افندى نديم على معونته فى إنجاز الطبع على أحسن حال .

واقه أسأل أن يقبلى شر الفتنة ، فتنة النفس والقلب والفلسل ، وأن يهدينى الصراط المستقيم ، وأن يمنح هذا الكتاب من القبول ما يكافئ ما أضحت فى تأليفه من العمر والمافية . إنه قريب مجيب ما

محمد زكى عبد السلام مبارك

مسرا بلديفة فى ١٦ شوال سنة ١٣٥٢
٢٢ يناير سنة ١٩٣٤

نقد النثر الفنى

١ - ينبغي أن نقيد في صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية : فلما نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التي يراد بها ردّ معاني الكتاب الى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر وبيان المبكر منها والمقول . فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد في بيت من الشعر فيذكرون أجديداً هو أم قديم ، ثم يذكرون من أخذ عنه إن كان قديماً ، وبينون الفرق بين المعنى في صورته الأولى وبينه في صورته الثانية . وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التي مر بها المعنى منذ عُرف عن الجاهليين وبينون درجات من تناوله من الشعراء . وهذا الذي نقوله بين وجهها من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية : فالشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حظاً من الفن وأولى بالنقد والوزن . والنثر مهما احتفل أصحابه باتقانه وتجويزه لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر . ولذلك قلّت العناية بتقيد أوابده والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والأبتكار أو دلائل الضعف والجلود^(١) . وليس في اللغة العربية كتاب مشور شغل به النقاد غير القرآن ، على أن شغل النقاد بالقرآن لم يكن عملاً فنياً بالمعنى الصحيح للنقد الأدبي : فقد كانت مفروضا في كل من يكتب عن القرآن أن يظهر عبقريته هو في إظهار ما خفى من أسرار ذلك الكتاب المجيد . وليس هذا

(١) ومع هذا نجد في مطالعاتنا إشارات الى سرقات الكتاب فقد كان أحمد بن أبي طاهر يقول في سعيد بن جريد « لوليل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهك لما بقى منه شيء » - الفهرست ص ١٧٩ - و(الكلام) هنا هو النثر الذي يسمى أيضا (الكافية) وقد سمي النثر (كلاما) في لغة مواطن منّا قول بدیع الزمان « البليغ من لم يقصر قلبه عن قرئه ، ولم يزد كلامه بشعره ... »

وعرض الصابي لبعض المعاني التي وردت في ترصايع صاحب بن عباد مسروقة من شعر المتنبي - القيمة ص ٨٧ ج ١
وعرض الصابي كذلك لآسدى رسائل الصابي فيبين أن بعض أقوالها مأخوذة من فصل كتبه جعفر بن محمد بن نوابه
عن المتخذ الى ابن طولون - القيمة ص ١٩١ ج ١
وفي روفايات الأعيان - ج ١ ص ١٥ و ١٦ - كلام لابراهيم الصولي مما أضاف الى ترثه من معاني الشعراء .

من النقد في شيء . إنما اتقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف المتحن للمحسن واليوب . من أجل ذلك وُسم أكثر ما كتب عن القرآن باسم الإعجاز لأن القاد أطمأنوا الى أن القرآن هو المثل الأعلى الذي تقف عنده حدود الطبيعة الانسانية في البلاغة والبيان .

٢ — فإذا خيلنا القرآن جانباً وانتقلنا الى غيره من غرر النثر وجدنا البدائع النثرية قليلة الحظ من عناية القاد : فنحن نستطيع أن نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبي تمام والبحرئ ومسلم بن الوليد وأبي نواس وشار والمتنبي، بحيث نستطيع أن نجزم بأن الشعراء الكبار الذين شغل بهم الناس كانوا سبباً في نشاط النقد الأدبي وإمداده بتلك الحيوية العظيمة التي ظهر أثرها في مثل مؤلفات أبي هلال البكري وابن الأثير وابن رشيق وأبي الحسن الجرجاني وغيرهم من فحول القاد الذين شغلوا بالموازنة بين الشعراء . ولكن قلّ أن نجد أثراً لمثل ذلك الاهتمام اذا شئنا أن نعرف ما صنع النقد في الموازنة بين كاتين كالبديع والنوارزى، أو صاحب والصابي، أو عبد الحميد وابن المقفع، أو الصولي وابن الزيات، أو ابن زيدون وابن شهيد، وغيرهم من الكلاب الذين شغلوا معاصريهم من المتأدين والنقادين^(١).

(١) ولا نكرع هذا أنه وضعت كتب كثيرة في قد النثر أشهرها كتاب قدامة بن جعفر الذي نشرته الجامعة المصرية بتحقيق الدكتور طه حسين والاساذ عبد الحميد الميادى . وكتاب (المذهب في البلاغات لابن الميبد) — ١٩٤ فهرست — وكتاب (غرد البلاغة) أورد منه صاحب صح الأضئ شواهد — ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٩ — و (تحفة الكتاب في الرسائل) — ٢٧٤ ج ٦ ياقوت — و (كتاب الكتاب) — ٢٧٩ ج ٦ ياقوت — و (نظ أدب الكاتب) و (مصايح الكتاب) — ٢٨١ ج ٦ ياقوت — و (الاخبار من الرسائل) و (نقد البقاء) — ١٣٠ ج ياقوت — و (علم النثر) — ٢٥١ ج ١ ياقوت . و (أنواع الأبحاح) — ٧٥ ج ٤ ياقوت — و (الرسائل السلطانيات والاخباريات) و (الفرق بين القزل والشاهر) — ٢٥٧ ج ٢ ياقوت .

وفي مطالعنا نجد كتباً كثيرة ألفت في النثر : لا نعرف أى من قبيل المجموعات أم من باب القدام من علم البيان، لأن أسوأها لم تصل إلنا . وهي تدل على أن المتأدين احتوا بالدراسات النثرية . ولكلا نزال نرى أن النثر استبد بهجود أكثر القاد ولم يخلص لثمن من عنايتهم إلا القليل .

ولنجد أن قد النثر الذي انصرف عنه أكثر الباحثين هو فن غير الفن الذي عرف بأدب الكتاب ووضعت فيه أبحاث كثيرة منها « الرسالة المذراء » التي قدناها مع مقدمة بالفرنسية الى مدرسة اللغات الشرقية في باريس ونشرناها في سنة ١٩٣١ و (أدب الكتاب) للصولي و (كتاب الكتاب) لابن درستويه، وما الى ذلك من الدراسات التي تصل =

٣ - وإيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة في البينات العربية، فهذا أبو بكر الخوارزمي الذي كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه آتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هي كتاب الصاحب إلى ابن العميد جواباً عن كتابه عليه في وصف البحر^(١). وللواقع أن الشعر أقرب إلى النفس من هذه الناحية، وهو بالذاكرة أعلق، وعلى الألسنة أسير، بفضل القوافي والأوزان.

٤ - ولندكر هنا أن في كتاب القرن الرابع من نظري في هذه المسألة وقاضٍ بين الشعر والنثر وبين مقام الكتاب ومقام الشعراء. وأهم ما لفت نظري في تحرير هذا الموضوع ما كتبه الثعالبي في تفضيل النثر وما كتبه ابن رشيقي رداً عليه في تفضيل الشعر. والثعالبي يبنى حكمه على أن طبقات الكتاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء «فإن الكتاب وهم السنة المملوك إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سد نفق، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى الفسدة، أو نهى عن فرقة، أو تهينة بعلية، أو تمزية في رزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاطم الشئون، التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة، ومعارف مفتنة»^(٢).

وهذا حق من جانب وخطأ من جانب آخر: هو حق من حيث تنويه بفضل النثر في المصالح المعاشية والسياسية والإدارية، لأن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم في شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة وما إلى ذلك من شئون العمران، ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هي أقرب إلى الشعر: فالدعاء إلى الألفة والنهي عن الفرقة والتأني بالعطايا والتمازى في الرزايا من الموضوعات التي كان الشعر فيها أصلح أداة من النثر وأقدر على تسجيل المواطن والأحاسيس، وأمتلاك القلوب والنفوس.

== في الألباب بحوال الكتاب من الوجهة الأدبية والاجتماعية. وأهم كتاب في هذا الباب هو (صبح الأعشى) الذي صنفه أقمع ما صنف في أدب الكتاب. على أن هذا النوع من التأليف ساهل بالملاحظات الفنية التي تقربه من (النقد الأدبي) وإن لم تسم به إلى الصفات المنهية التي قصرها أصحابها على دراسة آثار الشعراء.

(١) ص ٨٧ ج ٣ تر من قيمة القدر. (٢) ص ٣ ترالظم.

والتمالي صدق في نصح على أن ما يشتغل به الكتاب يقضي بأن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفتنة : فانه يكاد ينطب على جمهور الشعراء في اللغة العربية فراغ الأكتلة وفقر الرسوم . والشعراء المتفوقون عند العرب هم الشعراء المثقفون الذين أستطاعوا أن ينافسوا كبار الباحثين من أصحاب المذاهب وأرباب الأقلام . فأبو نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومي وأبو تمام والبحتري والشريف الرضي والمتنبي، كل أولئك كانوا من أهل العلم الوافر العميق، وكانوا فوق ذلك أصحاب مطامع وأهواء في الملك والسياسة، وكانوا لا ينأمون إلا على سر مبيت أو غرض ذفين .

ونظرة إلى شعراء العصر الحاضر تطينا ما يؤيد هذه الفكرة، فالشعراء الناهيون في عصرنا هم الذين لباسوا رجال الملك وأتصلوا بالجماهير اتصال أستثار وأستغلال : فقد كان شوقي شاعر القصر، وكان حافظ شاعر الشعب، كما كان البارودي شاعر السيف، وقد حمل من حمل من الشعراء الذين تعدت بهم تقاطعهم ووقفت بهم همهم عند الاكتفاء بمضغ الكلام الموزون !

٥ - والتمالي بعد كلماته تلك يذكر في أسباب تقديم الشعر على الشعر أن الشعر تصون عنه الأنبياء وترفع عنه الملوك . وهى حجة واهية وسبب ضعيف ، فالشعر أقرب الفنون الى أرواح الأنبياء، وأنا لا أتصور الأنبياء إلا شعراء، وإن جهلوا القوافي والأوزان، لأن الشعر الحق روحٌ صرف، والنبوة الحقة شعرٌ صراح . أما الملوك فترفعهم عن الشعر لا يحيط من قدره، ولا ينض من شأنه، والملوك لو أستطاعوا أن يضموا إلى قواهم المادية تلك القوة الروحية لكان حظهم أوفى الحظوظ . ولكن شواغل الملك وتكاليف السياسة اليومية تصرف العقل والحس والتخيل عن إجادة الشعر الذى يتطلب صفاء النفس وجلاء الوجدان .

٦ - وربما كان أظرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصه التمالي إذ قال : وقد أنصح عبد الصمد بن المعتز عن حقيقة الحال في انحطاط رتبة الشاعر لأشتغاله بخلاف المرشد حيث قال لأبي تمام وقد قصد البصرة وشارفها :

أنت بين آتئين تبرز لنا س وكلهما بوجه مُدالٍ

لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لتوال
أى ماء الحسّ وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال
فلما بلغت الأبيات أبا تمام قال : صدق والله وأحسن ! وثنى عنانه عن البصرة وحلف
أن لا يدخلها أبدا^(١).

وهذه الأبيات التى قالها ابن المعتز تصور حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير . وقد
رأيت أن أرجع بمناسبة هذه الأبيات الى وصية أبى تمام للبحترى لأرى الأغراض التى كان
يتم بها مثل ذلك الشاعر البليغ ، فلم أجده نص على غير النسيب والمدح إذ قال :
”وإن أردت التشبيب فأجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر من بيان الصباغة
وتوجع الكتابة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . فاذا أخذت فى مدح سيد ذى أيدٍ فأشهر
مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالاه ، وشرف مقامه“^(٢).

فالشاعر على هذا الوضع لا يريح دماغ العين فى سبيل الحب ، أو قلق النفس فى سبيل
المال ، وحياته إذن مقسمة بين ذلّين : ذل الهوى وذل السؤال .

٧ — غير أنه ينبغي أن لا نفتن بهذا الكلام فتنة باقية ، وأن نفهم أن جماله يرجع الى
أنه سخرية تدل على براعة وذكاء ، فانه إن جاز لنا أن نلوم الشعراء على إسفافهم حين يطعمون
فى عطايا الملوك فانا لا نستطيع أن نأخذ عليهم أن تُفَتّن عيونهم بالحسن ، وأن تحفّق قلوبهم
بالوجد ، فان للشاعر رسالة يؤدّيها الى العالم هى فهمه العميق لأسرار الجمال ثم غناؤه الساحر
فى تقدّيس الحسن المصون . والشاعر الملهم حين يفهم المعاني الروحية لصباحة الوجوه
وأسالة الخلدود ، ورشاقة القدود ، يسود وهو قيثارة إلمية يمضى رنينها ساحرا أخاذا لا يملك
النفث منه إلا صمّ المسامع أو غلّف القلوب .

٨ — أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر لأسباب فنية ، وهو يذكر أن كلام العرب
نوطان : منظوم ومثثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة وردية ، وفى رأيه

(١) ص ٤ من نثر النظم . (٢) ص ١٠١ ج ١ زهر الآداب .

أنه اذا أخفى الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية : لأن كل منظوم أحسن من كل مثور من جنسه في معترف العادة ، فالدر — وبه يشبه اللفظ — اذا كان مثورا لم يؤمن عليه ولم ينفع به في الباب الذى كسب له وأنتخت من أجله ، وكذلك اللفظ اذا كان مثورا تبدد في الأسماع ، فاذا أخذ سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشناته وأزدوجت فرائده .

وهذا كلام متعيب لا يتناسب مع عقل مثقف كعقل ابن رشيق ، لانه اذا سمع أن يشبه الشعر بالعقد المنظوم فانه لا يصح أن يشبه النثر بالدر المثور : لان النثر منظوم أيضا ، والكاتب يؤلف بين الكلمات ويزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التى يعنى بها ناظم العقد ، واللؤلؤ المثور له قيمته دائما ، لأن اللؤلؤة هى فى قيمتها وفاسادها ، ولن يضيرها أن تسقط من بين حبات العقد وأن تقع حيث يشاء الإغفال . أما اللفظة فتفقد قيمتها الأدبية وهى مفردة إذ كان يحضرها يرجع الى موقعها من التركيب بلافق بين الشعر والنثر . وقد نص عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإيجاز على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وانما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملامة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، وذكر أننا نرى الكلمة تزوق وتؤنس في موضع ، ثم نراها تتقل وتوحش في موضع آخر ، وأننا قد نرى رجلين أستمعلا كلما بأعيانها ثم نرى هذا قد فرغ السَّماك ، ونرى ذاك قد لصق بالحضيض .^(٢)

٩ — على أنه يغفل الى أن تقديم الثعالبي للنثر كان أثرا لفرض شخصي ، فلا يبعد أن يكون خوارزمشاه الذى قدم اليه "نثر النظم وحل العقد" كان من هواه أن يقدم النثر على الشعر إشارا لبعض الكتاب ، أو حقا على بعض الشعراء . وهذا الذى تقوله ليس بغير من كتاب ذلك العصر ، فهذه هم يصوّرون الحقائق حسبما توحى الأهواء ، حتى أننا نجد ابن رشيق الذى فضل الشعر على النثر يقول : "ولم أهم بهذا الرد وأورد هذه الجملة لولا أن السيد إجماع الله

قد جمع النوعين، وحاز الفضيلتين، فهما نقطتان من بحره، وتوارتان من زهره^(١)، فهذه الفقرة صريحة في أن أحكامه تتأثر بأهواء من يعاشر من الرؤساء .

١٠ - وأبو هلال العسكري أكثر دقة من الثعالبي في الكلام على الشعر والنثر، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، فالفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تجمل خطبة، والخطبة تجمل رسالة، في أيسر كلفة، ولا يتبهاً مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالة إلى الرسائل إلا بتكلف، وكذلك الرسالة والخطبة لا يعلنان شعراً إلا بمشقة^(٢) .

١١ - هذا فهم أبي هلال للنثر والشعر من الوجهة الفنية، أما من الوجهة الاجتماعية فالنثر في رأيه عليه مدار السلطان، والشعر يطلب عليه الزور والبهتان، وليس يراد من الشاعر إلا حسن الكلام، أما الصديق فيطلب من الأنبياء^(٣) .

وفضل الشعر على النثر - عند أبي هلال - يرجع إلى استفاضته في الناس، ويؤيد سيره في الآفاق، وإلى تأثيره في الأمراض والأنساب، وإلى أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، وإلى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس

(١) ص ٦ الصفحة . (٢) ص ١٠٢ - وهذا صريح في أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد أوفان متقاربان يقابلهما الشعر . فالكلام ينقسم إلى قسمين منظوم ومثثور، والنثورة الخطب والرسائل . وقد عرض النقاشندي تطبيق على كلمة أبي هلال في صبح الأعشى - ج ١ ص ٢٢٦ - فقال : "إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج الكتاب إليها في صدور بعض المكاتبات وفي البيئات والمهور والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناسبات" . ومن هذا يتبين أن المسيو مرسيه تكلف شططا حين زعم أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أصول أساسية : هي النظم والنثر والخطب، ليصح له أن يحكم بأن الجاهلين عرفوا فن الشعر وفن الخطبة ولم يعرفوا فن النثر . والمقول أن الذي يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة إنشاء الرسالة . وقد بين صدق خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لا تطلق عادة إلا في الحوائس أو عند كبريات المحادثات . أما الرسائل فكانت تغفل من قيمة إلى قيمة على أيدي الرسل وكانت في الأغلب مما يتكلمه المرسلون . (٣) أنظر الصائغين ص ١٠٣

إلا باتشاد الأشعار، وإلى أن الشعر أصلح للألحان التي هي أخصى اللذات، ولا تنمياً صحتها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لما بمنزلة المسادة القابلة لصورها الشريفة^(١) .

قال أبو هلال : ومن صفات الشعر التي يختص بها دون غيره أن الإنسان إذا أراد مدح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتاً من الشعر أحتمل . ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحُنينه إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله لاستهجن منه ذلك وتنقص به فيه ، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً^(٢) .

١٢ - وهذا كلام يحتمل النقص ، فإن مدح الرجل نفسه، إن جرى مجرى المدح والمفانرة، صح وقوعه في النثر، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم، فليست خطب علي بن أبي طالب في جملتها إلا إشادة بشرفه وتنويعاً بقربه من الرسول . أما الفخر الذي يجري مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود في الشعر والنثر . وإن كان الشعر أصلح للفنين للتغنى بكرم الأعراق وضرب الأحساب .

أما الغزل فمن الحق أن الشعر أولى به، لأن الغزل غناء، والشعر أقرب إلى الأثين والرنين، ولكنا لا نجد بداً من الإشارة إلى أن من الكتاب من اتخذ النثر أداة تشبيب فوق تشبيهه موقع القبول ، وفي رسالة الجاحظ إلى إبراهيم بن المديبر ورسالة اسحق بن إبراهيم إلى علي بن هشام^(٣) وما نقله صاحب زهر الآداب في الجزء الأول والثالث من وصف النساء والفنان ورسائل الشوق دليل على أن النثر يصلح أيضاً للعاني الغرامية . ولا معنى لتضييق المجال أمام الكتاب بمثل ذلك الاصطلاح ، ولكن هيئات أنثى تجبر الحياة الأدبية أو الاجتماعية من أنقال التقاليد التي تسيطر على الذوق، وتجعل مقياس القبح والحسن تابعاً لما ألف الجمهور من ملائسات الحياة .

(٢) ص ١٧ ج ٦ فهرست .

(٣) ص ١٠٤

(١) ص ١٠٣

(٤) ص ٢١٩ ج ٢ فهرست .

١٣ - بعد هذا البيان أحب أن أدون رأيي في الفرق بين مترلة الشعر ومترلة النثر وهو رأي لم أسبق إليه : رأي أن الموضوعات هي التي تتحدّد نوع الصياغة ، فليس ينبغي أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع ، ولا أن النثر صالح لكل موضوع ، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر . والبلغ الموقف هو الذى يفهم سياسة الفطرة في مثل هذه الشؤون . ففى بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعا من العى ، كما يكون أحيانا أسى أنواع البيان . وقد أذكر أنى كنت أطور المسبو مرسية في تطوّر السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة :

”إن معاوية مع تحفقه عن مراتب أهل السابقة أمل كتابا الى رجل فقال فيه : لمو أهون على من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة) ثم قال : اع (من كلاب الحرة) واكتب (من كلاب) كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس في موضعه“^(١) وكان المسبو مرسية يظن أن في هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع ، فوجهت نظره إلى أن لهذه العبارة معنى آخر : ذلك أن السجع فن رقيق ، لا يصلح في مثل ذلك المقام وهو مقام تهديد ووعيد .

وفهم الظروف وما تقتضيه من شعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهم القول . فكم موطن يظهر فيه الشعر غريبا ، وكم موطن تظهر فيه الرسائل والمخطب وكأنها بعيدة عما يجب أن يقال . ولو تبيّنا آثار الكتاب الذين منحوا موهبة الشعر لأيناهم يمنحون إلى القريض في مواضع لا يفتى فيها النثر شيئا . فبدع الزمان يمضى في رسائله ومقاماته ناثرا ، ثم ينتقل إلى الشعر بقاء حيث يرى الشعر أقرب إلى ما يريد . وقد رأينا عبد العزيز بن يوسف يرأس الصاحب بن عباد فيبدأ خطابه ناثرا ثم يميل إلى النظم ولا يفوته أن يمل ذلك الميل فيقول : ”ابتدأت أطال الله بقاء مولاي الصاحب بكتابي هذا وفي نفس إتمامه ثرا ، فال طبعي إلى النظم ، وأمل خاطري على يدي منه ما كتبت ، ونم العرب عن الضمير مضاف القريض“^(٢) .

١٤ - قلنا إن الموضوعات هى التى تتحدّد نوع الصياغة فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول : إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والمواقف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لفته أقدر على التأثير والإمتاع ، وإذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والادراك كان النثر أوجب ، لأن لفته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع ، ومن أجل ذلك نرى الفقهاء واللغويين والنحويين ورجال العلوم الصرفة كالفلكيين والرياضيين لا يحميدون الشعر إلا قليلا ، لأن اتجاهاتهم العقلية تصرفهم عن تلقى الوحي والإلهام إذ كان الشعر فى صحيحه ينفر من النفوس المعقدة ويأنس بالنفوس الصافية التى تسيطر عليها القوة أو الوداعة وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون ، ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخافة التى تصرخ بالعظمة البالغة أو ترى بالقلب فى سفير الحب وقتنة الجمال .



١٥ - ونعود فنذكر أن كتاب القرن الرابع كان يطلب عليهم الشعر ، فكانوا يلجأون إلى القريض فى المواقف التى لا يحسن فيها غير القريض . وحرص كتاب القرن الرابع على إجادة الشعر بدلا على مقالتهم فى الصنعة فان الشعر أدخل فى الفن من النثر . ولكن ليس معنى هذا أنهم كانوا جميعا من الشعراء المتفوقين . كلا ! فان عبد العزيز بن يوسف الذى كان يقرنه صاحب إلى الصابى لم يكن جيد الشعر ، والقطع التى وصلت إلينا من شعره باردة الألفاس ، والتوحيدى أثر عنه شعر قليل ، وهو مع قلته ضعيف . وهناك كتاب كان شعرهم أجود من ثرهم وكانوا من المبرزين فى الصناعتين ، منهم أبو العلاء المعرى صاحب اللزومات وسقط الزند وهما من دواوين الشعر المتنازة فى اللغة العربية ، وصاحب رسالة الغفران التى تمدّ من آيات النثر العربى ، ومنهم الشريف الرضى وهو من أفذاذ الشعراء ، وينسب إليه جزء كبير من نهج البلاغة ، ومنهم أبو عامر بن شهيد أحد كتاب الأندلس وشعرائها وهو من أفراد المحيدين فى المنظوم والمتنوع ، والشعر عليه أغلب .

أما الكتاب الذين غلب عليهم النثر وكان لهم مع ذلك شعر جيد فهم حديدون منهم كل ابن عبد العزيز الجرجاني ، وأبو بكر الخوارزمي ، وأبو الفضل بن العميد ، وأبو إسحق الصائبي ،

وبديع الزمان الهمذاني، وأبو اسحق الحصرى،^(١) وأبو الفرج البيهقي، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر
إجادة تامة في موضوعات لا يحسن فيها غير القريض .

١٦ — ولندكر ناذج من شعر هؤلاء الكتاب لندل على تفوقهم في الصناعتين تفوقاً
يصل مترلهم فى الشعر الفنى أعلى وأرفع؛ إذ كان الشعر عند هؤلاء فناً خالصاً لا يفصله الشعر
بغير القوافى والأوزان .

لئن ذلك قول ابن العميد فى مشوقه وقد قصد :

ويج الطيب الذى جست يدها يدك ما كان أجهله فيما قد أعتدك
بأى شئ، تراه كأن متذراً من سه بحديد مؤلم جسدك
لو أن الحماظه كانت مباضمه ثم أتحاك بها من رقة فصدك

وقال الصاحب بن عباد فى رجل كثير الشرب بطلى السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما توالى عليه من نداماه قرقف
فقلت سبيل الخمر أن تنقص الحجا فان لم تجد عقلاً فإذا تحيّف

وقال بديع الزمان فى طبائع الناس :

كذلك الناس خداع إلى جانب خداع
يمشون مع الذنب ويكون مع الراعى

١٧ — والقليشندى من الذين رجحوا الشعر : فقد ذكر فى كتابه (صبح
الأعشى) أن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرده بأعتدال أقسامه وتوازن
أجزائه، وتساوى قوافيه، مع طول بقائه على تعاقب الأزمان، وتداوله على ألسنة الرواة لمسهولة
حفظه، وجمال إنشاده يجالس الملوك، فإن الشعر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقاماً،
وأحسن نظاماً^(٢) .

(١) الحصرى نقل فى كتابه وشعره، ولكن الفقرات التى نقلها له أحياناً فى (زهر الآداب) ثم مزجها فى الإنشاء.
وأما ما أدب القرن الرابع هو القى أرسى الفكرة تأليف هذا الكتاب . (٢) صبح الأعشى ص ٥٨ ج ١

والنظام الذى يظهر حسنه فى النثر غير واضح، ولكن الفلقشندى يفسره فيذكر أن الشعر محصور فى وزن وقافيه يحتاج الشاعر معهما الى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود، ومد المقصود، وصرف ما لا ينصرف، ومنع ما ينصرف من الصرف، الى غير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه، والكلام المنشور لا يحتاج فيه الى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه.

وتفسير الفلقشندى لرأيه غير كاف ولا سديد، فان الشعر الذى نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذى تكون معانيه تابعة لألفاظه، وإنما هو الشعر المحكم الذى تكون فيه الألفاظ دائماً تبعا لمعانيه، والنظم الجيد يفرض ذلك فى الشعر والنثر على السواء.

وما تلبه له الفلقشندى خطر الموضوعات التى يمرض لها النثر حيث يراه مبنيًا "على مصالح الأمة وقوام الرعية" لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسراة الناس فى مهمات الدين وصالح الحال، وما يلتحق بذلك من ولايات السيوف وأرباب الأقلام^(١).

وقل الفلقشندى عن "مواد البيان" أن العرب كانت أحست بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنشور، كما حكى أنبأ أمراً القيس بن حجرهم أبوه بقتله حين سمعه يترنم فى مجلس شرابه بقوله :

إسقى حجراً على علامه من كُتبت لونها لون العالق^(٢)

وما روى أن النابغة الجعدي كان سيداً فى قومه لا يقطعون أمراً دونه وأن قول الشعر نقصه وحط رتبته^(٣).

ونحن نرى مسألة أمريئ القيس تحتاج الى تأويل، أما مسألة النابغة الجعدي فصحيحة من حيث دلالتها على بعض التقاليد الاجتماعية. وقد تحدثت مرة مع الأستاذ إبراهيم مصطفى

(١) ص ٥٩ (٢) الكتيب المنقول لونها كفة دعى حجره فى سواد، والعلق بالصر بلك الدم الشديد الحمره.

(٣) ص ٦٠ و ٦١

في مثل هذا الموضوع وكما تتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغزالي باشا ، وكان الأستاذ ابراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغزالي باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسى ، ولم اطلع في إقناع صديق ابراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال^(١) .

١٨ - وخلاصة هذا الفصل أن التأليف في نقد الثر كان قليلا بالإضافة الى التأليف في نقد الشعر، ويرجع ذلك الى أن القدماء كانوا يرون الشعر أرفع فنون الجمال ، أما الثر فكان في نظرهم أداة من أدوات التعبير عن الأغراض العلمية والسياسية والدينية ، ولذلك كانوا حين يتقدونه يتوجهون في الأغلب الى ما فيه من معان وأغراض قبل أن ينصوا بالنظر في أساليب الإنشاء، ظنا منهم أن النقة لا تطلب إلا من الشعراء .

١٩ - ونحن نرى أن الوقت حان للعناية بالثر ونقده وإحلاله المحل الأول من جهود الباحثين والناقدين ، فان النثر اليوم هو صاحب السلطان في المشرق والمغرب ، والكتاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسأى اليها الشعراء ، لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والمقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة في كل شيء ، والشعر - كفن دقيق متقل بالقوافي والأوزان - غير خليق بتقديم ما تحتاج إليه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلي والوجداني ، وهو حين يحود يظل مقصورا على بعض النوازع القلبية والنفسية التي لا تستريح اليها الجماهير إلا في لحظات الفراغ . وليس معنى هذا أن الشعر دالت دولته ، لا ، فانه لا تزال لدينا جوانب وجدانية نقشوف الى النقى بالشعر البالغ ، لأن الطبيعة لا تزال تتألق في خلق دواى الشعر ، ولا يزال في الدنيا نجوم تتألق ، وأزهار تفتتح ، ولا تزال الأرض تذلل خدما لمن يمشى عليها من أسراب الظباء .

(١) وقد صادقت مرة مع الأستاذ عبد العزيز البشري بمناسبة ما كتبت أثرة في جريدة البلاغ عن شرح نهج البردة فقال الأستاذ وهو غاضب : « إن أبى أجل قدرا من أن يشرح قصيدة لشاعر » وهذا شاهد جديد على فهم العلماء لقيمة الشعر . وقد بما زعموا أن الشافى قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزدى لصكت اليوم أشمر من ليد

وإنما نريد أن تقدّر النثر حق قدره، وأن نبين مناهجه ومذاهبه ممثلة في كتاب القرن الرابع، لأنه في رأينا أول عصر في اللغة العربية أراد فيه الكتاب أن يستبدوا بمعنى الشعراء وألفاظهم وتعايرهم، وأن يروضوا القلم الطليق على التحليق في جميع الأجواء .

٢٠ — ولعلم الناظر في كتابنا هذا أن أول ما يهتما هو المعاني والأغراض، وليست الألفاظ والتعابير إلا وسائل لتجلية المعاني وكشفها وتوضيحها بحيث يستطيع القارئ أن يشارك الكاتب في حسه وشعوره، وذوقه ووجدانه، وضلاله وهذاه . ومن أجل هذا آهتمتنا اهتماما بالفا بتحليل آراء الكتاب ومذاهبهم الاجتماعية، واتجاهاتهم العقلية، وثوراتهم النفسية والوجدانية، ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب كاتباً (écrivain) أى رجلاً فديراً على تلوين أفكاره وخواطره تلويحاً يستهوى العقول والألباب، فليس كل مفصص عن غرضه بقادر على جذبنا إليه، وإنما يستمينا الكتاب الفنانون الذين يجمعون بين جودة المعنى وجمال الأداء .

الباب الأول

تَطَوُّرُ النَّثْرِ الْفَنِئِ
مِنْ عَصْرِ السُّبُوءَةِ إِلَى الْقِرْنِطِ الْهَرَجِ

١ - النثر الجاهلي

١ - هل كان للعرب ترفق في عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بشعر الشعر والخطب والأمثال ؟

لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبي ولا سيميائي قبل عصر النبوة، وأن الإسلام هو الذي أحياهم بعد موت ونهبهم بعد نهمول .

وهذا الاتفاق يرجع إلى أصليين : فهو عند مؤرخي الإسلام من المسلمين تأييد لزعمة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذي خلق العرب خلقاً وأنشأهم إنشاءً : فقلهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلم إلى الوجود . وهو عند مؤرخي اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك في كثير من النصوص الأدبية التي أثرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأصباح وأمثال .

٢ - وقد وقع للأستاذ خليل مطران وهو يحاور الدكتور محمد هيكمل في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ أن أشار إلى أن مجموعة الأدب التي أثرت عن الجاهليين لم تكن تزيد عن كراس، وأنها على ضآلتها كانت مغنية في تنقيف الأدباء لذلك العهد أمثال علي بن أبي طالب وعمرو بن الخطاب . وهذا خطأ من الأستاذ مطران فإن الثقافة التي ظهر أثرها في خطباء العرب لعهد النبوة كانت تشهد بوجود مجموعات كثيرة جيدة من الشعر والنثر والخطب والأمثال .

٣ - وهناك رأى مقبل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأى المسيو مرسيه ومن شابهه كاللاكور طه حسين . وذلك الرأي يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية (Primitif) والحياة الأولية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال . وهذا الرأي أعلنه المسيو مرسيه في المحاضرة التي أفتح بها دروسه

في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام، ثم أذاعه مطبوعاً في كراس^(١). وقد أخطف الدكتور طه حسين هذا الرأي وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبتته في كتاب (المجمل) الذي أشترك في وضعه للدارس الثانوية^(٢). وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه وشايبه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذي وسموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد. وفي ذلك العصر كان النثر الفنى موجوداً عند أكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان، وليس بمقول أن يكون لتلك الأمم ترفنى قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب ترفنى بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال.

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب في العصر الجاهل، ويتكبر إنكاراً مطلقاً أن يكون هناك ترفنى كالذي يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة، أو دفع شبهة، أو إيضاح مشكلة. وفاته وفات أشياحه أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي عليه السلام حتى يثبتهم بأنه لفق القرآن مما قيل إليه من علوم الأولين. وما كنت تملو من قبله من كتاب ولا تحطه بميتك إذا لأرتاب المبتلون^(٣).

وكانت حجة المسيو مرسيه التي واجهني بها في صيف سنة ١٩٢٧ أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدؤنت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن في آثار الهند والفرس والروم. وقد أجبته يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكتفى لإنكار أنه كان لها نصيب من الوجود. على أن في القرآن الكفاية وهو أثر جاهلي كما سنبينه بعد قليل.

٤ — وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الاسلام ترفنى يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام ودونها القرآن.

(١) يمكن الرجوع الى نص هذه المحاضرة في

(Revue Africaine—N^{os} 330 & 331 (1^{er} & 2^e trimestres 1927)

(٢) المجمل ص ١٥ و ١٦ (٣) سورة القصص.

وما قله الرواة من النصوص لا يكفى لتحين أساليب النثر فى العصر الجاهل، وبين الانجذابات العقلية التى كان يرى اليها الكتبتون إذذاك، وهو على قتله مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية، وهو لهذا لا يمين مدرسة نثرية، ولا مذهباً اجتماعياً، ولا رأياً عاماً، وإنما يمين أذواق واضعيه، ومذاهبهم السياسية، واتجاهاتهم الدينية.

ومن أمثلة ذلك حديث خنافر الحميرى، وهو منقول عن ابن الكلبي، ومثبت فى الجزء الأول من الأمانى^(١) وهو حديث غثاق وضع بعد الاسلام. وقد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهل مع أنه قيل - على فرض صحته - فى عصر النبوة: لأننى أدخل تلك الفترة فى الجاهلية، إذ لم يكن الاسلام استطاع أن يحو الآثار التى سبقته فى الشعر والكتابة وأن يبدع مناهج جديدة للانشاء والتفكير تغاير مذاهب الجاهليين.

والذى وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبي إلى الجن، وهى مسألة لا تعرض لها برفض ولا قبول، وإنما تقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعيناً فى سبيل الوصول إليها بمحاكاة اللغة اليمنية، فذكر "الزخبيخ" و"الهوب" بدل النار، و"الواهر" بدل الساكن و"الجمعتين" بدل العينين، ليوقع فى رُوع القارئ صحة الرواية، مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية فى ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لا تخالفها إلا فى بعض الألفاظ.

وكل ما يمكن استخلاصه من مثل هذا الحديث هو أطمئنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة، وأنه كان من المألوف أن يتبع النثر بشيء من الشعر. ولهذا قيمته فى تصور حالة النثر الفنى فى العصر الجاهل، وإن لم يصل بنا إلى تحديد ما كان عليه من قوة أو ضعف ووضوح أو غموض.

٥ - والحكم الذى أجريته على حديث خنافر هو الحكم الذى قضى به فى تقدير خطبة قس بن ساعدة الإريادى، وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول، وهى بلا

شك خطبة وضعت لإياد الجمهور أن نبوة محمد كانت مما يجري على ألسنة الخطباء الموقنين من أصحاب الحكمة في عهد الجاهلية . وهي كذلك خطبة مسجوعة ختمت بقطعة من النثر على نخط الحديث المنسوب إلى خنوفر بن التوأم الجيري .

٦ - ومن أهم ما نسب إلى العصر الجاهلي من آيات النثر الفني خطب وفود العرب عند كسرى . وهي خطب طويلة فصيحة مثبتة في الجزء الأول من العقد الفريد . وأنا أرى أن هذه الخطب منحولة وضعها الرواة بعد الاسلام لأغراض سياسية ، حين أرادوا أن يشبها فضل العرب في الجاهلية ، وانهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف واللسان . وأكبر الظن أنها وضعت في العصر الإسلامي ، فان لفتها تشابه تمام المشابهة للغة التي كتبت بها مشاورة المهدي لأهل بيته في بغداد سنة ١٧٠ . ويكفي أن يرجع الباحث إلى نصوص تلك الخطب وهاته المشاورة ليقنع بأن التشابه بين الاثنين ^(١) بين واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسلوب . وتدلنا خطب الوافدين على كسرى على تصور العرب بعد الاسلام لما كان عليه أسلافهم من المنعة وقوة الجانب ، وما أحبوا أن يصفوهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومته والخروج على سلطانه . وهي في حملتها صورة لشمال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتفسير لما أخذ عليهم من الشنود في بعض الأوضاع الاجتماعية .

ويؤيد ما ذهب إليه من أنها كتبت بعد الاسلام أننا نجد الكلام الذي فاه به كسرى موضوعا في لغة تماثل تمام المسألة لغة أولئك الخطباء ، مما يدل على أن بدا تعمدت تحرير ما جرى في تلك الواقعة . ولست نستطيع إثبات أن ذلك كان في الجاهلية ، فليس لدينا ما نصرف به كيف كان التهان ينظم ديوان التحرير في قصره ، ولكننا نعترف أن العرب بعد الاسلام

(١) ص ١٠١-١٠٦ ج ١ (٢) نجد نص هذه المشاورة في العقد ص ٥٧-٦٤ ج ١

(٣) هذا لا يمنع انه كان في قصر التهان ديوان الانشاء : فان أجرة الملك توجب ذلك ، وكان أولئك السامعين على مجازاة من يعملون بهم من الفرس والروم في التحل بالمظاهر الرسمية ، وأخصها تنظيم دواوين الملوك .

نظموا دواوين الرسائل ، وأعدوا لكل فن من فنون الكتابة رجالا إخصائيين ، ولذلك نجد مشاورة المهدي لأهل بيته مثلا ختمت بهذه العبارة :

”وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد“

٧ — والذي قلناه في خطب الوفود يمكن أن نقوله في أكثر القصص والمحاورات التي نسبت إلى أهل الجاهلية ، وتكلف واضعوها أن ينشئوا لها من الشعر وأن يضيفوا إليها من الأمثال ما يتناسب مع الغرض الذى وضعت له والظرف الذى قيلت فيه .

والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطي التراث الفنى في العصر الجاهلى لونا نطمئن إليه . لأن أكثر ما نسب إلى الجاهليين غير صحيح . ومؤرخو الآداب مطمئنون إلى أن الشعر بقى منه أضعاف ما بقى من النثر : لأن الشعر موزونٌ مقفىٌ يسهل حفظه ، ولأن أكثره قيل في حوادث مشهودة ساعدت على تزيده ، ولأن التدوين كان قليلا جدا فلم يحفظ به من النثر إلا اليسير .^(١) على أن في القصداء من آرتاب في حصة أكثر الشعر الجاهلى مثل محمد بن سلام ، وفي المحدثين من يكاد يرفضه كله كالذكرور طه حسين .

وإذا كان الشعر الجاهلى مهددا بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع عناية الرواة والحفاظ والتأحين ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الرواة به كانت قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلة التدوين ، وكانت لهم شهرة مستفيضة جدا مثل سحبان وغيره من الخطباء الذين حدثنا عنهم الجاحظ وغيره ممن عتوا بتدوين أصول الآداب .

٨ — قلنا إنه كان للعرب ترفنى في الجاهلية ، ثم عدنا فأثبتنا أن شواهد ذلك النثر ليست صحيحة لأنها في جملة ما صنع الرواة ، فكيف يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب ترفنى قبل الاسلام ؟

(١) في حديث لعبد الصمد بن الفضل الرقاشى : ”ما تكلمت به العرب من جيد المتروك أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون : فلم يحفظ من المتروك عشره ولا خاع من الموزون عشره“ راجع البيان والتبيين ص ١٥٨ ج ١

فليعلم القارئ أن لدينا شاهدا من شواهد النثر الجاهل يصح الاعتماد عليه وهو القرآن .

ولا ينبغي الأكدهاش من عدّ القرآن أثرا جاهليا ، فانه من صور العصر الجاهلي : إذ جاء بلغته وتصوّراته وتقاليده وتمايزه ، وهو — بالرغم مما أجمع عليه الماسمون من تفوّده بصناعات أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهل ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء .

وقد قدّمت هذا الشاهد للسبب الذي يرى أن النثر الفني يتدبّر بآب المقفع ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يبتدأ إلى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد أهدى إلى مخرج لطيف ، وذلك إعلانه أخيرا في دروسه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر ، وإنما هو قرآن^(١) .

وقد بلغتني عنه هذه الكلمة وأنا في باريس ، فحسبته يمزج ، والمزاج مما يباح ! فلما عدت راجعته فوجدته يصّر على أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وقد حسب الدكتور طه أنه ينبغي بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من قديم النثر الفني عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن ننقض بعض ما يرى المستشرقون ، وهم يرون بلا حرج أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفني عن الفرس واليونان^(٢) .

(١) وهي متاجمة غير موفقة للسبب الذي يرى أن القرآن ليس خليقا بأن يسمى نثرا ويقول :

On est donc fondé à refuser à la langue du Coran le nom de prose au sens plein et strict du mot.

وذنب القرآن عند المسير مرسيه أنه في الأغلب مسجوع وموزون rimé et cadencé ولا يمر من فيه إلا ليقيم في فيه ، ولو صح رأى المسير مرسيه لأنكرنا أن يكون في آثار كتاب القرن الرابع والخامس ما هو خليق بأن يسمى نثرا : لأن أغلب كلام أولئك مسجوع وموزون .

(٢) الدكتور طه لا يفتقد عند العصر الجاهل في فن النثر الفني ، فقد صرح في إحدى محاضراته بالجامعة الأمريكية — مارس سنة ١٩٣٢ — أن القرن الأول بعد الهجرة لم يكن فيه نثر يستد به ولم تكن للكتاب أهمية اجتماعية . وإنما كان الشأن للشعر والشعراء . وسرى القارئ أن هذا الرأي قليل الحظ من الصواب .

٩ — القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ، ولو كره المكابرون ، فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ أنضعه فى العهد الاسلامى ؟ وكيف الاسلام لم يكن موجودا قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب !

فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهلين ، وهم لا يخاطبون بشئ ما يفهمون . والنبي جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعروف ونههم عن المنكر فى الحدود التى رسمها الدين الحنيف ، ولم يكن القرآن إلا أداة لنشر تلك الرسالة الكريمة التى أعزت العرب بعد ذل ، وهدهم بعد ضلال .

وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل : ﴿ إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ . وتلك إشارة تلوح بها لمن لا يكفهم المنطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبي قومه بما ينبو عن أدواقهم وأفهامهم ، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد الى الإغراب فى الألفاظ والتعابير ، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان .

إنه لواضح أن اللغات يتميز بعضها عن بعض بشيئين اثنين : اللفظ والتعبير . وقد نتحد طائفة من الألفاظ فى بعض اللغات كما يقع ذلك فى العربية والتركية والفارسية والعبرية والهندية . ثم لا يقال إن وحدة الألفاظ تقتضى وحدة اللغات ، لأن سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا فى أعيان الألفاظ ، ومن هنا صح لك أن تنظر فى صفحة من كتاب تركى فتجد ثلاثة أحاسيس مفردات عربية ثم لا يفتيك ذلك فى فهم ما أفصح عنه الكاتب من المعانى والأغراض .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم ، ووصل الى قرارة نفوس المؤمنين ففلاها روحا وبقينا ، وأستثار الدفائن من صدور المشركين فأعلنوا ما فى قلوبهم من غيظ وما فى دوسهم من عناد . أفكان شئ من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية ؟

١٠ — القرآن ليس بشعر ، لأنه خال من القوافى والأوزان ، وهذا موضع آفاق .

ولكن أيمن القول بأنه ليس بنثر أيضا كما يتوهم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعري لمن يقال هذا الكلام ! يقال لرجال الدين ؟ وكيف وهذه مسألة لغوية لا دينية ، وليس في أصول الدين ما يقهرنا على القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات ! يقال لمؤرخي اللغة العربية ؟ وكيف وهم متفقون على أن القرآن كلام متور وإن تفرد ببعض الخصائص والمميزات . يقال إن الكتاب العزيز لا هو شعرو ولا هو ثرو إنما هو قرآن لتصدق أوهام من يقولون بأن العرب لم يمكن لهم ترفعي قبل الإسلام ، لأن النثر الفني لغة العقل ، وأولئك قوم كانوا يحيمون حياة أولية لا تبيح لأمتهم غير التنغي بمواطف الأطفال ؟

إذا كانت ميزة النثر الفني أنه أداة لشرح الحقائق التي توحى بها العقول ، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المضللات العقلية والاجتماعية والروحية التي كانت تغزو أفئدة العرب في الجاهلية ؟ أو من ذا الذي يرتاب في أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال ؟

ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلمة قرآن الى أصلها في اللغة السريانية ، فهي هناك معناها الجهر ، وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون في الصدر الأول يجهرون بتلاوة القرآن .

وهذا منطوق لا قيمة له ، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون في أعقاب الصلوات ، وكيف والقرآن لم يكن مما أنشئ للتسبيحات والتهللات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية ، وإنما نزل لدفع عادية المشركين وتقض أوهام النصارى واليهود ، وإن كان هذا لا يمنع أنه أشقل على سور قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة في سبيل الدماء والابتهاال .

١١ — وأنا مع هذا أقرر أن القرآن — بالرغم من وضوح لغته وقربها أشد القرب من الآثار الأدبية لعهد الاسلام — يمتد أثرها أدبيا يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التي جاءت بعده ، ويتفرد بالصفات الآتية :

(أولا) خلقه من الشعر الموزون خلقوا تاما ، بخلاف ما كان قبله وبده من الشعر :
فقد كان يمزج غالبا بأبيات من الشعر تأتي في أثناء الرسائل ، وقد تكون فاتحة أو خاتمة .
(ثانيا) نظام الآيات الذى يسمح فى الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفس القارئ ،
وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذى أزعج الجاهليين وشاع بعد الاسلام .
(ثالثا) ضرب الأمثال وسوق القصص . وهى طريقة لم تعرف إلا قليلا فى الآثار
الأدبية لتلك العصور . والقرآن يستريح تكرر القصة الواحدة كلما دعت مناسبة ، فى تصرف
قد يكون قليلا فى كثير من الأحيان .

رابعا — الابتداء بالفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق .
الى آخر تلك الفوائج التى اختلف فى تأويلها المفسرون ، والتي لم يمتد أحد إلى المراد منها
بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده فى النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .^(١)

(١) كنت أخذت من فوائج السورع حديق وأستاذى المسيو بلانشو (Blanchot) فرض على تأويلها جديرا
بالدرس والتحقيق ، وفى رأيه أن الحروف (الم . الر . سم . طسم) هى كالحروف (A O I) التى توجد فى بعض
المراتل من (Chansons de geste) فهى ليست إلا (Neumes) أى إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرثلون
وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكانت ذلك كافيا لتوجيه النغنى
أو المرثل الى الصوت المقصود .

وفى الكنائس المسيحية بأوروبا ، حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le chant grégorien) وفى
أثيوبيا مثلا ، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك : فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تذكر (الم) فى القرآن
أو (A O T) فى نشيد رولان .

ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن (الم) تنطق هكذا عند الترتيل : (ألف . لام . هم) فهى ليست زمرا كتابيا ،
ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن
القرآن لم يكن من هذه أن يخالف الجاهليين فى كل شئ . حتى فى الأصوات الموسيقية : فليس يستبعد أن تكون فوائج
السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون متاحة لبعض ترانيم الجاهليين .

ونحن مع اعتداده بقيمة هذا رأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية ، مع تلوههم
بمرض كثير من القروض . ولو أنه كان معروفا فى الصدر الأول لما تعرض لخلل هذا الإغفال .

ومن بدى ظلم دراسة أصول الموسيقى فى الكنائس الحبشية والثامية فى العهد الذى سبق الاسلام تعود على هذا
الرأى بشئ من التوضيح والتعديد . وإلى أن تظهر هذه الدراسة تحق أمام هذا رأى بين الشك واليقين .

خامسا — يظهر أن القرآن نُظم نظماً غنائياً، وأن ترتيله كان ملحوظاً في أوضاعه الثرية، بدليل أن كثيراً من الآيات ينتهى قبل أن يتمنى المعنى المطلوب . وترتيل القرآن والتغنى به كان معروفاً في صدر الاسلام، ولكننا لا نعرف كيف كانت قوانين التغنى به من الوجهة الموسيقية . لذلك ندهش حين نرى في سورة المدثر مثلاً أن الآية الحادية والثلاثين تزيد عن الآية الثلاثين والثانية والثلاثين أكثر من عشرين مرة . ولا حل لهذا الإشكال إلا ما نلمحه في الآيات الطوال من الاشارات التي تتيح الوقف القصير . على أن في هذا نفسه دلالة على أن المعنى هو الأساس في نظم القرآن ، وأن الغناء لا يقع إلا نافلة في صياغة الآيات .

سادسا — لا يلتم القرآن السجع ، فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة ، وقد نجد مصحفاً مسجوعاً من السور الكبار . ولكن ذلك لا يطرد فيه . وكثيراً ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل . وأكثر ما يكون ذلك حين يُعنى بالمشاكل الدينية والاجتماعية التي لا يراد بها مخاطبة القلوب حتى توضع وضعاً موسيقياً، وإنما يراد بها مخاطبة العقول ودعوتها إلى ترك ما درجت عليه من بعض أوضاع الاجتماع .

سابعا — يتدنى القرآن السور بالبسملة ، وهي صفة إسلامية أريد بها مخالفة ما كان عليه المشركون . وقد أراد فريق من الفقهاء أن يتخذوها فاتحة للرسائل والمؤلفات فوجدوا لذلك حديثاً يقول "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" .

١٢ — وهذه الخصائص ليست كل شيء في متن القرآن ، فهناك سمات يمتاز بها بعض السور عن بعض، وهناك فروق دقيقة تميزها أساليب السور المدنية من السور المكية . ولكنه لا يمكن الفصل فيما يميز به أسلوب القرآن في جلته تميزاً جوهرياً إلا إذا ظفرنا بنصوص كافية من نصوص النثر الذي عاصر القرآن أو سبقه بنحو جيل .

وهناك ميزة خطيرة للقرآن من الوجهة المعنوية : تلك تصوريه للحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية التي كان يعرفها العرب قبل الاسلام، وتصوريه لبعض ما كان يعرف العرب عن

أسلافهم الأولين ، و بعض ما سمعوا به من أخبار الأمم الأجنبية التى سامها ملوكها الخسف
وسوء العذاب .

١٢ — والخلاصة أن القرآن نثر ، وأنه دليل على أن العرب كان عندهم ترفنى قبل
الاسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبى متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان .

وقى هذا قضاء على أوهام من زعموا أن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى
الأصيل^(١) ، وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأمجاد والأمثال .

(١) هو رأى المسير مرسيه وتابسه الدكتور طه حسين فى بحث نثره فى المقتطف ثم أعاد نشره فى كتابه عن
(شوقى وحافظ) .

٢ - نشأة النثر الفنى

هل الزنرف عنصر أصيل فى اللغة العربية ؟ — الصور الفنية فى القرآن — وجوب الاهتمام بدروس عصر النبوة — خطب الرسول والخلفاء — نشأة العلوم العربية — الحياة السياسية والأدبية فى عصر النبوة — آثار المعارضين من المشركين واليهود — كيف ضاعت آثار أولئك المعارضين — كيف ضاع أكثر ما تركه النبي وأصحابه من الآثار الأدبية — ضياع الأدب الجاهل — رأى أين فارس فى قدم النحر والعروض — رأى فى قدم علم البديع

١ — بينما أن النثر الفنى وجد عند العرب فى الجاهلية . وهو يفرض نوعاً من الزنرف يهتم به علماء البلاغة . فلننظر أكان ذلك الزنرف فى طبيعة اللغة العربية ، أم وصل إليها من الخارج حين اتصل العرب بالقرص واليونان .

يرى المسيو مرسيه أن الزنرف الفنى وصل إلى العرب من القرص ، وكان الدكتور طه حسين يشايه فى ذلك ، ثم تغير بخانة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان^(١) . وكانت مجته وحمية المسيو مرسيه أن المؤلفين بالزنرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من القرص المستعربين . وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها إلى رينان (Renan) ، وهى ترى إلى الحكم بأن المدنية العربية غريبة عن العرب ؛ وأن العرب مدينون فى علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى القرص واليونان . والدكتور طه حسين متأثر بهذه المدرسة إلى حد بعيد : فهو يقول بأن البلاغة العربية أخذت حرفياً عن البلاغة اليونانية حتى فى الشواهد والصور والتمايز^(٢) . وأذكر أنه أوصافى بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط من هم الكتاب القرص الذين أوحوا إلى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس .

(١) إشارة إلى آراء متنافسة أظنها المكتوبة فى سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ (٢) قال ذلك فى محاضرة ألقاها فى مسرح حديقة الأركية فى ربيع سنة ١٩٢٩ ثم أُنجزه فى البحث الذى نترجم كتاب (نقد النثر) لتقديمه بن جعفر (راجع نقد النثر ص ١٤) .

٢ - وأنا لا أنكر أن العرب أثروا بالفرس في حياتهم الأدبية، فإن من الطبعى أن تسخل في اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والاعتراق والأطلاع على آداب الناس في مختلف الأنظار . فكل أمة في الأرض تتأثر حضارتها وآدابها وقنونها بالنماذج الجديدة التى تصل إليها عن طريق المعارض الدولية، وعن طريق السياحات وتبادل الآراء والأفكار في العلوم والفنون والآداب .

ولكنى - مع هذا - أقرر أن الزخرف عنصر أصيل في اللغة العربية . وعندى لذلك شاهد لا يحصى وهو القرآن .

٣ - أليس القرآن آية فنية؟ بلى، فلننظر إذن أهو كتاب طبعى أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحمكة التى تدل على أنه أنزل على قوم يعرفون ما هو الكلام الجيد وما هو الأسلوب المتين . وإننا لنرى المؤلفين في علوم البلاغة من رجال القرن الثالث والرابع والخامس يرجعون إلى القرآن فيأخذون منه الشواهد المتنوعة التى قد يعز وجودها أحيانا في الشعر والنثر عند الكتاب المتأخرين .

وأنا لا أعرف حتى الآن باحثا رجع في تدوين الصور الفنية للنثر إلى القرآن وأهتم ببيان الحفنة والروعة التى يحتويها ذلك الكتاب الفذ، فن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولموا بالجرى فيه وهو عصر الدولة العباسية، وأن يعملوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه ، وأن يحدّثونا ما هى الصلات الأدبية والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت ثمرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين زاهما مجسمين في القرآن . هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقريّة أم تقليدية . ولكن مثل هذا العمل في رأى خطر على الباحثين المسلمين في الوقت الحاضر : لأن الرأى العام في مصر والشرق الإسلامى لا يسمع بدرس القرآن درسا تحليليا يبين ما فيه من العناصر العربية الصميعة والعناصر الدخيلة . والمستشرقون أيضا لا يهتمون بمثل هذا البحث لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبى قبل الإسلام، والعرب بعد الإسلام في رأيهم متأثرون بالفرس والروم . كافة العرب

لم يكن لهم من طبيعتهم الصافية ، وعقولهم القويّة ، وأذواقهم السليمة ، ما يكتفى لأن تكون لهم اتجاهات فلسفية وأدبية وفنية تغلب عليها صبغة البقرية أكثر مما تغلب نزعة المحاكاة .

٤ — ولنغرض جدلا أن المسلمين المعاصرين يسمّحون لكاتب مثل بمعالجة هذا البحث وأن المستشرقين كذلك آتَمُوا به فستظل المسألة في رأي معقّدة صعبة الحل : لأنه لا يمكن الوصول الى يقين في تحديد العناصر الأدبية التي يحتويها القرآن إلا اذا أمكن الوصول الى مجموعة كبيرة من النثر الفنى عند العرب قبل الاسلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون ، فانه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هي الصفات الأصلية في النثر العربى ، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة ، أم هو فُت من الكلام جديد .

ومفهوم أنه من المستحيل في الوقت الحاضر الوصول الى نماذج أدبية تمثل من الأدب العربى ثلاثة قرون أو قرنين قبل الاسلام ، وإذن يبقى القرآن وحده يتقدّم الينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لا تعرف لها شبيها موثوقا به قبل الاسلام كما يعتقد المسلمون . والخطب والوصايا والرسائل التي نقلت الينا على أنها جاهلية هي موضوع شك ، وهي على فرض مصحتها منسوبة الى القرن الذى يباشر الاسلام . ولا يمكن معرفة طبيعة لغة من اللغات بعدد قليل من النصوص وجد في مدّة قليلة لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .

٥ — ونحن مع هذه الحيرة لا نستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن أثر عربى صرف ، لأن الرسول الذى تلقاه وبلغه عربى ، ولأنه نشأ في بيئة عربية ، ولسان عربى مبين ، وليس أمانا أى دليل على أنه متأثر تأثرا محسوسا بأدب أخرى أجنبية ، وإن كان هذا ممكنا ، لأن العرب قبل الاسلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاوهم من الأمم ، وكانت لهم مع جيرانهم الأقربين والأجسدين علاقات تجارية . وهذا كله لا يفيد غير الظن وهو لا يفتنى عن اليقين .

أفاستطيع بعد هذا البيان أن أقول من جديد : إن صور النثر العربى لا ينبئ البحث عن أصولها في القرن الثانى والثالث ، وإنما ينبئ الرجوع إليها في القرآن ، وإذن لا يصح الحكم

بأن الزخرف الفنى فى النثر العربى جاء عن طريق الفرس ، وإنما هو طابع أصيل فى اللغة العربية تطوّر مع الزمن وأخذ لونا بعد لون وانتقل من حال الى حال . وإن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت فى قوّة هذا التطوّر وأضافت اليه قوّة جديدة خيلت إلى الباحثين أن النثر العربى مدين للفرس فى تطوّره ونمّوه . وهذا يفسر جانباً من أسباب التطوّر ولكنه لا يرجعها إلى سبب واحد هو العلة الأولى كما ظن كثير من المستشرقين .

٦ — والخواص الفنية الموجودة فى القرآن توجد كذلك فى الآثار الأدبية التى عاصرتها كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والولاة والقواد الذين شهدوا عصر النبوة أو جاءوا بعده بقليل . ففى خطبة الوداع للنبي عليه السلام وكتب عمر بن الخطاب وخطب على وزباد والحجاج روح أدبية تقارب الروح السائد فى القرآن .

٧ — ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبقت الاسلام لم تكن تختلف كثيراً لغةياً ، لأن التطوّر الكبير الذى ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح إلى روح لا يتم فى خمسين سنة مثلاً . وإنما يتطلب مدة طويلة . خصوصاً فى أمة بدوية محافظة قليلة الاختراع والتبدّل فى لغتها وأسلوبها . ولكن هذا محض افتراض إلى أن توجد نصوص كافية موثوق بها تبيّن أن لغة القرآن كانت موجودة بروحها وأسلوبها ووضعها قبل الاسلام بقرن أو قرنين .

٨ — بعد هذا ينبغى أن ننظر فى نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض . وهى أيضاً فى رأى قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الاسلام فى القرن الأول والثانى كما يظن مؤرّخو الآداب العربية . لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن فى أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا فى الفصاحة والعروض والتقيد وطرائق التعبير . وظهور كتاب كالقرآن فى أى لغة يدل على أنها تمتدّت طور الطفولة منذ أزمان . واللغة حين تصل إلى عهد القوّة

والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقيد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والفوضى^(١).

والدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر حين اشتدت الخصومة بين علماء الكلام، والجاحظ في رأيه أول من أهتم بالبلاغة اهتماماً جدياً. وأنا أرى أن نشأة البلاغة قديمة سبقت القرآن وتطورت من بعده. ولكن ذلك كان يجري ببساطة وسهولة لا توقع في الزعر، ومن أجل ذلك لاحظ مؤرخو الآداب أن بشارا هو أول من كلف بالبدع في شعره، وتبعه في ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس، وأن أبا تمام تأثر مسلماً، وأولئك من شعراء القرن الثاني، فهل نشأ البدع في يوم وليلة، أم كانت موجودة وتطور على السنة أولئك الشعراء؟

٩ — ولتقيد هنا أن القرآن في بلاغته إنما كان يخاطب قوما يفهمونه ويتذوقونه. وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن أن يقع أخفاً ولا استعداداً، بل لا بد من أن تكون عند الجماهير التي سمعته وتأثرت به وأعنتت دينه ثقافة أدبية خاصة. وأنا لا أفترض أن هذه الثقافة كانت كالثقافة التي ظفروها العرب بعد الإسلام. ولكنها على كل حال كانت تناسب قليلاً أو كثيراً ما في القرآن من فصاحة وعمق. وهذا الذي أقوله يحملنا على الشك في التقاليد التي جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أمتين بدرجة خطيرة وأنهم لذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم. بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الإسلام كان ناجاً لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية (١) يذكر أبو حلال في كتاب الصائغين — ص ٣٥١ — أن أكرم بن سفي كان إذا كتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: (إصبروا بين كل مقضى مني، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بفضه بيض) وأن الحارث بن شمر اللساني كان يقول لكتابه المرقش: (إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بنسب ما أنت فيه فافصل به وبين تبعه من الألفاظ، فانك إن فعلت أفعالكم بنسب ما يحسن أن تتفق فترت القلوب عن وصفها وطبها الأصماع واستغلتها الزيادة). وفي أمثال هذه الكلمات دليل على أن الرواة نقلوا عن الجاهليين أحكاماً في صناعة الكلام. وفي ذلك ما يصلح للاستشهاد به في هذا الموضوع. وليشك من شاء في صحة هذه النصوص فهي على كل حال صورة تفهم قناد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية.

فى الحدود التى كان يستطيعها العرب ، لأنه لا يمكن رجلا فردا مثل النبى محمد عليه السلام أن يتغل أمة كاملة من العدم الى الوجود ومن الظلمات الى النور ومن العبودية الى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها بحيث أستطاع رجل واحد أن يكون منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاهلها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوروبا فى زمن وجيز . ولو كان يكفى أن يكون الانسان نبيا ليفعل ما فعله النبى محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا : لأن أهمهم لم تكن صالحة للبحث والنهوض .

١٠ - بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقول أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية فى عهد النبى لم تصوّر الى الآن بصورتها الحقيقية : فهذا رجل غير أمة كاملة فى عشرين عاما ولقيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبرى وغيره من المؤرخين ؟ وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التى قامت فى وجهه وأضطرتة الى الهجرة ؟ وأين أسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟

أفيقل أن تمزج حركة كهذه من دون أن تهب فى وجه صاحبها أسنة الخطباء وأقلام الكُتاب وشياطين الشعراء ؟

وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلا كمحمد يقضى أعمارهم بين خواصه ، وأيامه فى ميادين الحروب ، من غير أن تكون له ولرجاله مساجلات قوية يتناولون فيها جميع خصومهم هذا وتحليلها ويعرضون فيها للسياسة العامة بأراء لها من القيمة ما شهدنا آثاره فى الرسالة الإسلامية ؟

وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبى وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر بالشر والمدون بالمدون فيطيلوا القول فى النفع

عن دياناتهم والقدح في الديانة الجديدة التي تهاجمهم في عقور دارهم ، وتدعوهم إلى تحطيم أصنامهم وترك أبحارهم وريهاتهم؟ هل يعقل أن يزد ذلك كله من دون أن يكون لهؤلاء ألف خطبة وألف رسالة، وألف قصيدة؟

١١ - أضيف إلى ذلك أن الحركة الإسلامية لم يعرف فيها من الخطباء والشعراء إلا عدد قليل لا يتناسب مع خطورة ذلك الموقف ، أفكان حقا أن الاسلام لم يرق إلا على أكاف ذلك العدد القليل ؟

إن الحياة العقلية في عهد النبي لم تنقل إلينا بصورتها الحقيقية، ويرجع ضياع صورتها في رأي إلى سببين :

أولا - ضياع آثار حزب المعارضة معقول، لأنه آتزم ولم يعد في الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقدزة والرسائل اللاذعة التي هوجم بها النبي وأنصاره . خصوصا إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون من الإجم والحرَج أن يبدوا الشائم والقذائف التي رُمى بها النبي وجرَّح بها الاسلام، ولو بقيت آثار حزب المعارضة لاستطعن أن تفهم إلى أى حد كان خصوم النبي يفهمون آراءه الاجتماعية والمزلية، ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذي كان يستريح مهاجمة النبي ورسائله في عنف وإفذاء .

ثانيا - ضياع آثار النبي وأصحابه معقول أيضا فقد شعر المسلمون بأن واقعة الإمامة أضاعت جمهور الحفاظ بحيث أصبح القرآن نفسه مهتدا بالضياح، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات غثفلة لا تظمن إليها النفس كما هو الحال في الأحاديث التي دققت أخيرا، بعد إذ مات الحفاظ الأولون .

١٢ - وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للسرب بأن يدقوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة فانه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية قوية تصور ميولهم وأذواقهم وعواطفهم ومشاعرهم وكفرهم وإيمانهم ووقائعهم وضرهم، إلى آخر الألوان النفسية التي يقتضها عصر التحول والانتقال في جميع الأمم بلا استثناء .

وانما ينبغي أن تعتقد أنه كان لم أدب قوى متين يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه : فان البيئة واحدة واللغة واحدة والمصر واحد، ولم يكن محمداً بشراً أظم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة، لا سيما إذا تذكرنا أن القرآن نفسه وصف العرب في عتة مواعظ بأنهم أهل فصاحة وجدل وخصومة وعناد ، ولم تكن فصاحتهم صمتاً ، ولا جيلهم سكوتاً، ولا خصومتهم فراراً ، ولا عنادهم آتزاماً ، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول والسيف بالسيف نحو ثلاث قرن إلى أن انتصر الإسلام، ولم تبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحروب .

١٣ - والواقع أن تسمية ذلك العصر بالجاهلى تسمية دينية صرفة، فان العرب لم يصنفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية . ولكنهم فيما يرجع الى الأدب كانوا يرونه من أرق المصور ، وكانوا يتأثرون شعره وخطبائه وحكمائه في كثير من أبواب القول^(١) .

وقد آسَمَك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلى وعدوه وحده المرجع في ضبط أساليب اللغة العربية . ولم يفتنوا شواهد من الشعر الإسلامى إلا في الحدود التى حسبوها قريبة أشد القرب من التزعة الجاهلية ، فكان الشعراء لذلك يمتهدون في تذوق الأدب الجاهلى وفي رباضة أنفسهم على محاكاته والصدور عن وحيه وأخيلته وتعايره وألفاظه . وقد نفق ذلك الأدب ذاقاً عظيماً حتى رأينا من الرواة من يصنع القصائد والخطب والأمثال في لغة جاهلية ليبعها في الأسواق وفي قصور الأمراء والوزراء والخلفاء . فكان مثل ذلك الشعر الجاهلى مثل الآثار المصرية التى يخلقها التجار خلقاً ليبعوها للأغنياء من عشاق العاديات . وقد نشأ عن

(١) ومن الخبر أن نبيه القارئ الى أن العصر الجاهلى لا يمثل أماناً في براده ، فان البوادر العربية كانت ولا تزال بعيدة من الفنون الأدبية التى تعتمد على العقل والمنطق . وانما قصص الحواضر العربية لعهد الجاهلية ، وتلك الحواضر كان فيها شمر وتر وقصص لأن هذه الفنون توجد حيث توجد الحضارة . والمداين الكيرة في العصر الجاهلى كانت فيها حضارة تمثل في مظاهر مادية من المنازل والقصور، ومظاهر معنوية من الملك والجلاء والمال، وهذه وتلك توجب ثروة من الترف العقل والوجدانى . والشعر الفنى مظهر من ترف العقل والوجدان .

هذا فنٌ من النقد برج فيه الأقدمون، فكان منهم من يهتم بتمييز الأدب الجاهل الصحيح من الأدب الجاهل المصنوع، نكايه بالرواة الملقين، أو حبا في تصفية الأدب الجاهل من الزيف المدخول .

وفى ذلك مقنع لمن يجب أن يطمئن الى أن العصر الجاهل لم يوصم بالجهل إلا فيما يختص بالدين . أما فى الأدب فكان عصر نور وعلم وعرفان، كما تشهد آثار القدماء .



١٤ - هناك ناس يستقدون أن الشعر الجاهل منقول وهناك أفراد ينكرون أن يكون العرب الجاهليون عرفوا من الأدب شيئا آخر غير الشعر والأمثال، وأحب أن أيبس أنه لا تمارض بين القول بنفى ذلك الأدب والقول بإثباته : فانا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهل واسع النطاق ، وأنه كان للعرب الجاهلين ألسنة فصيحة وعقول ناضجة وآراء حكيمة قادرة على قيادة تلك الجماهير الحية التى تفرقت فى الحواضر العربية . يقولون : وأين آثار ذلك الأدب الجاهل ؟

وأجيب بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره حتى ليصعب أن نتخذه منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية . وهنا ينقسم المتكرون قائلين : ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع !

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب : لأن الأدب الجاهل لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثاني والثالث فقد عرفوه وتدارسوه . فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن المجموعة الشعرية التى جمعها المفضل الضبي فى القرن الثانى بمجموعة صحيحة؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تلك المجموعة تدل على أنه كان هناك شعر جاهل كثير جدا اخيرت منه المفضليات ؟

١٥ - أضيف الى هذا أن من رجال الأدب الموثوق بهم من جمع كتباً كثيرة من آثار العصر الجاهل ، وأن تلك الكتب قد ضاعت أصولها ضياعاً تاماً ، وفى ذلك ما يشعروا بأن المتأخرين تقلدوا ذخائر كثيرة من أصول الأدب القديم .

إننا نعرف أن أبا تمام جمع كتاب الحماسة من مكتبة أحد الأمراء ، والجمع هنا معناه التخير، ونعرف كذلك أن ديوان الحماسة يشتمل على غنارات نفيسة من الأدب الجاهل . فهل نجد من يدلنا على مصادر أخرى لا أكثر ما آخاؤه أبو تمام غير ديوان الحماسة ؟

فإن لم توجد تلك المصادر فلن يكون معنى هذا أن أبا تمام خلق ديوان الحماسة خلقا ، ولكن معناه أن الحياة ككتبت لتلك الديوان . وليس أبو تمام وحده هو الذى غنى باختيار الشعر القديم فهناك مؤلفون عديدون أحتموا بذلك النوع من الاختيار ثم ضاعت غناراتهم ولم يبق إلا ذكرها فى كتب التراجم . ومع هذا فن الثرور أن نحكم على قيمة الأدب الجاهل بما قرأناه منه فن ذلك الأدب مجموعات قيمة جدا لم يكتب عليها الفناء وغفل عن استغلالها أكثر الباحثين . وفى دار الكتب المصرية مخطوطات لم يفكر أحد فى الانتفاع بها ، مع أن دار الكتب المصرية من المكاتب الفقيرة التى جمعت ذخايرها أخفاها ومصادفة بدون أن يكون عند مؤسسها فكرة الاستقصاء . وفى مكاتب اسبانيا والمغرب آثار جليلة للأدب الجاهل لم يستغلها أحد، ولعلها لو فهرست ونظمت ودرست لكشفت لنا نواحي مجهولة من الأدب القديم ... ولكن أين من ينتظر نتيجة البحث ؟ إن المتأدبين عندنا يحكون على الغائب بلا بيئة ولا شهود !

١٦ — أنا أقول بأن الأدب الجاهل لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه ويروونه ويقبحون به فى الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك .

ولكنى مع هذا أقرر أن هناك شطرا من الأدب الجاهل قبره المسلمون عمدا فى القرن الأول، وإلى القارئ اليان :

كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الإسلامية اختلافا شديدا . ففى الأعوام التى سبقت الاسلام كانت فى الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أو نصرانية أو يهودية ، فلما جاء الاسلام تبدلت تلك التقاليد وصار من اللائق تسمى ما يسمها من الأدب الجاهل وصفا أو شرجا أو تليلا . ورأى العرب المسلمون أن فى ذلك الأدب جوانب خطيرة يجب

إسقاطها والقضاء عليها صوتا للوحدة الإسلامية . وليس في هذا شيء منكراً، لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شائيل مرضية أو طباع ذميمة ، وفي حياته حياة لما وصف أو شرح أو علل من الأخلاق والسجايا والمعتقدات . وقد يتفق أن يكون في العرب المسلمين من تناول شعراء الجاهلية وكُتّابهم وخطبائهم بالقدح والثلث والتحقير ، وقد يتفق كذلك أن تكون هناك قبائل تهاجت وتحاربت في الجاهلية ثم ألّف بينها الاسلام . أفيمكن من الحزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيرووه ويمجوه وفيه إثارة لما سكن وهذا من قديم الأخقاد ؟

١٧ - إن العرب في الصدر الأول من الاسلام تناسوا طامدين أبواباً كثيرة من الأدب الذي كان محفوظاً قُبيل الاسلام حيانة للوحدة الإسلامية من عبث الأهواء . وليس هذا الذي نقوله مجرد افتراض : ففي التاريخ الإسلامي شواهد كثيرة تقنعنا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتشائمون من رواية الأدب الجاهلي . وهم بالطبع لا يتشائمون إلا من الأدب الذي يصور ما كان عند الجاهليين من ترات وعداوات وحزازات . وهم فيما عدا ذلك كانوا يدعون إلى رواية الشعر وحفظه لأنه كما قال عمر بن الخطاب ديوان العرب . والذي قضى به في الشعر هو نفس ما قضى به في الرسائل والخطب والأشعار . فمن عسى أن يكون ذلك المسلم الذي يستبجح رواية خطب الكهان ورسائلهم وأشعارهم وهي تفيض بالروح الوثنية ؟ ومن عسى أن يكون ذلك المسلم الذي يروي ما أترعن النصارى واليهود قُبيل الاسلام ، في حين أن الدين الجديد كان يروضهم على تناسي جميع الآداب التي ساقى أدب القرآن .

(١) نستطيع فهم ذلك بصورة أوضح إذا تذكرنا الأدب المصري قبل الحرب العالمية التي ثارت سنة ١٩١٤ فان رسائل الشيخ عبد العزيز شاذلي ضد الأقباط ورسائله في مهاجمة سعد باشا زغلول ، وقصائد حافظ بك إبراهيم في حادثة دنشواي والمطالب التي طلق بها على إبراهيم بك الملبأى ، كل ذلك لا يمكن روايته اليوم : لأن فيه إثارة لعداوة التي كانت بين المسلمين والأقباط . وفيه تحقير للناس وضع عنهم الجمهور . وقد كتبت مرة رسالة عن الأدب المصري قبل الحرب فأبأت أن تنشرها بجريدة (البلخ) فوافقت ذلك اختتاماً بصحة هذا المثال . ومن هذا الباب ما وقع بعد وفاة سعد باشا فقد جمع كاتبه الخاص محمد إبراهيم الجزيري خطبه السياسية ونشرها كاملة فكتب رئيس تحرير جريدة السياسة محمد

١٨ - من أجل هذا كله أستبعد أن يكون العرب ظلوا خالى الذهن من العلوم الأدبية الى أن اتصلوا بالفرس والروم . وإذا كان المستشرقون ومن لَّفَ لَقَّهم من أدباء مصر يستكثرون أن يكون أبو الأسود الدؤلى هو أول من فكر فى النحو ويرجحون أن يكون النحو أثرًا من اتصال العرب بالمرىان والروم، فانا أستقل أن يكون أبو الأسود أول من فكر فى النحو، وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم يتنبهوا الى وقوع الفن فى لغتهم إلا بعد الاسلام، وأن اتصال العرب بالأعاجم هو الذى رماهم بالفن، كأن لفظة العرب بدع من اللغات لا يلحقها تغيير ولا تبدل . وذلك رأى واضح البطلان . وإنما أرجح أن يكون العرب فى جاهليتهم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبية . أسنا زى القرآن يجرى على نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف روايته من القبائل المختلفة ؟ ولغة القرآن هى لغة قريش ، وهى التى تهمننا، فإذا كنا نجعل إلى الآن كيف تطورت وكيف نشأت علومها وفنونها، فن الأمانة العلمية أن نقف على الأهل محايدين وأن لا نجزم برأى ستقصه الأيام .

وهذا الذى أقوله أنا مستعد لتحمل تبعته والدفاع عنه ، وأرجو أن يكون له أثر فى فهم البيئة القديمة التى نزل فيها القرآن ، والتى تستحق أن تدرس من جديد درسا علميا يكشف اللثام عن ذلك العصر الذى سمّوه خطأ عصر الجاهل ، وهو فى رأى أهل لأن يسمى عهد معرفة ونور .



١٩ - على أننى وقفت على نص مهم يدل على أن من نقاد العرب من أرتاب فى نشأة العلوم اللغوية ، إذ رأيت ابن فارس يلاحظ فى قصيدة الخطيئة التى أولها :

== مقالين فيه أن فى نشر خطب سعد باشا كاملة خطرا على ائتلاف الأحزاب، لأن فى المجموعة التى نشرها الجزيرى خطبا جارية فى مهاجمة ثروت باشا ، وكان من أسدقاء حزب الأحرار الدستوريين . ولا ينس القارئ أننا اليوم أشد تسامحا مما كان عليه العرب فى صدر الاسلام ، فلو تركه نحن كان حتم إما وضوفا .

(١) علم اختلاف الأوضاع النحوية لا يدل على أن العرب تلك العهد كانوا عرفوا النحو، ولكنه دليل على أن اللغة كانت موحدة فى طرائق التصير، وهذا كاف للاحتجاج بأنهم فكروا فى ربطها بقواعد النحو أصول البيان .

شافتك أظلمان ليلى على دون ناظرة بواكر

أن قوافيها كلها عند التزم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بالرفع لاختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكون ، وهذا برهان على فهم الحطيئة لقواعد النحو والعروض .^(١)

وكذلك يرى ابن فارس أن معرفة القدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والحمة والمدة والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغة وقواعد الكتابة^(٢) . وهو على الجملة يرى أن العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام .

٢ - والذي قضى به ابن فارس في نشأة النحو والعروض هو الذى تقضى به نحن في نشأة البديع ، بل نشأة البديع أظهر وأوضح ، فان القرآن سجل مظهراً من مظاهر الزنبر والسجع ، فهو إذن كان موجوداً قبل الاسلام ، وليس السجع فقط هو الذى قيده القرآن ، بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهداً من آيات القرآن .

ونتيجة ما سلف أن العرب في جاهليتهم أهتموا بالنثر الفني اهتماماً ظهر أثره وعرفت خواصه في خطب الخطباء ورسائل الكتاب ، ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقيد والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضاع علينا معرفة من أهتموا اهتماماً جدياً بتدوين البديع ، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكتاتين في هذا الفن الجميل^(٣) .

(١) الصاحبي ص ٩ (٢) الصاحبي ص ١١ (٣) جـ . في زهر الآداب (ص ١١٤ ج ٤) بانه : "قال أبو بكر الصولي : اجتمعت مع جماعة من الثمراء عند أبي الباس عبد الله بن الحر ، وكان يتحقق بسلام البديع تحقفاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكراته : فلم يبق مسلك من مسالك الثمراء إلا سلك بنا شعباً من شعبه ، وأرانا أحسن ما قيل في باب" .

فالمسألة إذن هي أن ابن المعتز كان يدعى التفوق في علم البديع . فلم البديع كان معروفاً . ومن الصعب أن تقبل سكوت كتاب العرب وأدبائهم نحو فرحين عن هذا الفن حتى يجيء هذا الأمير المترف فيؤلف فيه .

وملاحظنا في ابن المعتز قوله في مقدمة ابن جعفر الذي عدوه من أرائل المؤلفين في البديع . وفي حديث خنافر الحموي — المحدث في الأمالي ص ١٣٣ ج ١ — وصف القرآن بأنه "ليس بالنثر الخلف ، ولا السجع المتكلف" وهذا الحديث موضوع بلا شك ، ولكن فيه إشارة إلى أنه كان مفهوماً عند الرواة أن الناس لهذا النية كانوا يميزون بين السجع المخلوع ، والسجع المصنوع . والسجع من فنون البديع .

٣ - النشر الفنى فى العصر الاسلامى *

١ - جاء الإسلام فأيقظ العرب وأثار ما سكن من نشاطهم وحياتهم وجذب إليهم القوة والجاه والملك، فأطلقت ألسنتهم، وظهر فيهم الكتاب والخطباء والشعراء . وكان من دواعى ذبوع البلاغة عندهم حاجتهم إلى الدفاع عن صدق النبوة، ثم اشتجار الفتن بينهم : فتن الصحب والاختلاف والانقسام التى كانت أهم باعث على شيوع الكتابة والخطابة فى تلك الأمة التى توارت فى الصحراء زمناً غير قليل . وأول مظهر لقوة الخطابة والكتابة هو التنافس الشديد الذى قام بسبب الخلافة، فقد كان كل حزب من المهاجرين والأنصار يدعو لنفسه مرا وعلائية عن طريق الخطب والرسائل والمجادلات التى كانت تنور فى المجالس والمساجد والأسواق . ثم كانت الفتنة بين علي بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة وأشدت الرغبة فى نشر الدعوة فى الأمصار الإسلامية . ولم يكن حظ هذه النهضة الأدبية كحظ النهضة التى سبقتها فى الجاهلية، لأن العرب شرعوا يتحضرّون ويسلكون سبيل الأمم المتمدنة فى التدوين ، فكان من أثر ذلك أن حفظت آثار الكتاب والخطباء بحيث يستطيع الباحث أن يعين مظاهر النثر وخواصه فى عصر بنى أمية وصدر عصر بنى العباس .

٢ - وأول ما ينبغى إثباته من خواص النثر هو عمقه وقوته بفضل تأثره بالأدب الأجنبية التى عرفها العرب حين آتبنوا بفضل الإسلام فى المسالك التى فتحوها واكتسبوا بالمعايشة والمصاهرة روحاً جديداً ظهر أثره فى الخطب والرسائل والمحاورات ، حتى يمكن أن يقال : إن الفتح والملك أعطاهم من قوة الملاحظة ودقة التفكير ما لم يكن يعطيهم القرآن وحده

(*) هذا الفصل ليس إلا نظرة سريعة إلى مذاهب النشر فى العصر الإسلامى يمكن القارئ من تصور اليهود التى سبقت القرن الرابع ، وكل جزء من هذا الفصل يحتاج إلى درس مطول . ولكنا وقفنا عند حدود الإشارة لأن الفصل برته نوع من التمهيد . وأهم ما نحتاجه هو الكلام عن السجع ، وسفرده بفصل خاص .

لو ظلوا محصورين في أرجاء الجزيرة العربية^(١)، ولا عربة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة، فإن هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربي عن فهم المدنيات الأجنبية، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التي كانت تعيب الأرستوقراطية العربية، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه.

٣ - ومن خواص الكتابه عدم التأتى في البدء وانتهاء فقد كانت الجاهلية تكتب في أول كتبها « باسمك اللهم » ثم تكتب من فلان إلى فلان، ويمضون في الغرض، وكان النبي يفتح كتبه بالبسملة ثم يقول : من محمد رسول الله إلى فلان، ويبتدىء صدورها غالباً بالسلام عليكم، أو السلام على من أتبع الهدى ويثنى بالتعميد بعد السلام فيقول : إني أحمد الله إليك الذي لا إله الا هو، ويختلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بآما بعد وأخرى بغيرها، وكان يختمها في الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله، أو السلام على من أتبع الهدى^(٢).

٤ - والذي يهتما تهيد في هذا الفصل هو المنهج العام الذي جرى عليه النثر في ذلك العصر، ويظهر مما أطلعنا عليه أن مسألة الإيجاز والإطناب كانت تجري في الغالب على مقتضى

(١) ليس معنى هذا أننا ننكر أثر القرآن في إحياء البلاغة العربية، لا، فمن يؤمن بأن القرآن كان من أقوى البواعث على النشاط الأدبي، وزاد مصدر الدراسات الأدبية والفنية والنحوية التي ازدهرت في الفواخر الإسلامية. وحسب القارئ أن يذكر أن عمل علماء اللغة والنحو والصرف والبيان كان دعوة إلى غاية : هي الإيمان بالعجز القرآن. ولم يقف أثره عند إحياء العلوم الأدبية، وإنما أثر تأثيراً بيناً في أساليب الكتاب والتخطيب حتى لوحظ أن ابن نباتة الخليل كان يسلك في تثره سلك الأساليب القرآنية رضى دؤن المتخذون أن الريح القرآني كان يظهر على لسان الصابي وعلى سنان قلبه البليغ، فمن المجازة أن توافق المسير مرسيه حين يقول في انكار أثر القرآن في النثر الفني :

L'influence du livre saint sur le developpement de la plus ancienne prose littéraire arabe est infiniment moins considérable qu'on ne serait tenté de la croire (Revue Africaine 1^{re} & 2^e trimestres 1927. P. 19).

ولا فية لما أشار إليه المسير مرسيه عقب كله هذه من أن العرب كانوا ينجبون عما كاة القرآن، فإن ذلك لا يناق تأثرهم به وتأثيره فيهم، فإن هناك عدوى روحية تمس القلب والفعل وتصنع الآثار الأدبية بصبة ما قرأ المرء أو سمع وإن تكلف الحرب وحسب نفسه بمنجاة من المأكاة والتقليد.

(٢) رابع خطاب النبي محمد وكتاب أبي بكر السجين يهده إلى عمر بالخطبة وخطاب حذاف إلى حل يستجده ص ١٢٨ و ١٢٩ من كتاب الوسيط.

الحلل فكان الكتاب يوجز تارة ويطنب أخرى وفقا للظروف التي يكتب فيها رسالته، وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز، ولا يرجعون في ذلك الى قاعدة غير المناسبات التي توجب الكلام، فتقضى مرة بالاطناب وتقضى حينا بالايجاز . وسبحان وائل الذي عرف بالتطويل وبأنه كان يخطب أحيانا نصف يوم أثرت عنه الخطبة القصيرة الموجزة . وذلك يدل على أن القطرة كانت غالبية على ذلك العصر وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئا آخر غير مراعاة الظروف .

ورسائل علي بن أبي طالب وخطبه ووصاياه وعهوده الى ولاته تجرى على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهدا يبين فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي يراه، ويوجز حين يكتب الى بعض خواصه في شأن معين لا يقتضى التطويل^(١) .

٥ - غير أنه لا يمكن الحكم بأن الكتاب والخطباء كانوا جميعا موقنين في ترك الفضول، بل يظهر أنه في أوائل العصر العباسي وقع اضطراب في تقدير الظروف والمناسبات ونهم أقدار المخاطبين، فلما نجد ابن قتيبة يدعو في مقدمة كتابه أدب الكاتب الى وضع الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب اليه بحيث لا يعطى الكاتب خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضع الكلام، ونراه يلاحظ أن الكتاب لا يفرقون بين من يكتب اليه "أنا فعلت ذلك" ومن يكتب اليه "نحن فعلنا ذلك"^(٢) .

وقد ساعدنا ابن قتيبة على تحديد النمط الذي ساد في العصر الاسلامي حيث ناقش كلمة أبرويز في الايجاز "وأجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" فيبين أن الايجاز ليس محمودا في كل موضع، ولا يختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، وأنه لو كان الايجاز محمودا في كل الأحوال لجرى عليه القرآن، ولكنه لم يفعل ذلك، بل أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للايجاز، وكرر تارة للإفهام، ثم أندفع ابن قتيبة فذكر أنه ليس يجوز لمن قام مقاما في تخفيضه على حرب أو جمالة بدم أو صلح بين عشائرا أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن

(١) راجع فصول نهج البلاغة . (٢) ص ١٥ من أدب الكاتب .

كتب إلى عامة في فتح أو استصلاح أن يوجز، وأنه لو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من العصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكه في بيعته: "أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت ، والسلام".

لم يعمل هذا الكلام في انفسها عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ، ويحذر وينذر .

وقد توهّم الأستاذ أحد الزيات أن كلمة ابن قتيبة هذه دليل على أن النثر في الصدر الأول كان موسوماً بالايجاز وأن ابن قتيبة دعا أهل ذلك العصر إلى عدم الاكتفاء بما كان يكتب به أمثال يزيد بن الوليد . وهذا خطأ في الاستنتاج فان ابن قتيبة ذكر أن القرآن كان يطيل ويكرر حسبما تقتضي الظروف . والقرآن أساس المنهج الكتابي لذلك العصر بلا شك . والذي لا يمكن نكرانه أنه حصل تطوّر في النثر في المصور الاسلامي الأولى ، ولكنه كان تطوراً بطيئاً لم تظهر آثاره إلا في طرائق التعبير عن الشؤون الخاصة بتدبير الملك ومخاطبة الخلقاء ، وهذا التطور متأثر باتصال العرب بالفرس ، فقد كان هؤلاء تعاليد ملكية رغب العرب في محاكاتها حين أطلّموا على ما عندهم من الفنون والآداب .

(١) أدب الكاتب ص ١٦ و ١٧ (٢) تاريخ الأدب العربي ص ١٢٥

(٣) المعروف أن عبد الحميد بن يحيى هو أول من نقل تعاليد الفرس إلى الكتابة العربية (راجع الصائغ ص ٥١) ومعنى هذا كانت العرب تعاليد كتابية أصناف إليها عبد الحميد زيادات فنية في الفواحي والنوام . فهو لم ينشئ فناً جديداً ، ولكنه أصلح فناً قديماً ، وهذا يؤيد رأينا في نشأة النثر الفني ، فهو فن قدم عبره العرب في الجاهلية ، وتم نضجه في العصر الاسلامي .

ومن مظهر ما يحسن تقييده أن المستشرقين كانوا يرتابون في شخصية عبد الحميد بن يحيى فلم يمتصوا به اهتماماً يذكر في دائرة المعارف الاسلامية ، ورأى الدكتور طه حسين أن يقدم فرعم أن شخصية عبد الحميد شخصية نرافية كشخصية امرئ القيس !! وتحدّثنا أن ثبت أن الجاحظ ذكره في كتبه ، فهالنا هذا التحدي ، وهذا إلى كتب الجاحظ نساها أخبار عبد الحميد ، فأرأينا الجاحظ تحدّث عنه في رسالته وكتبه غير مرة ، وأقبلنا على الدكتور طه نحبره بنتيجة البحث ، فبادرنا إلى تلخيصه بأن عبد الحميد بن يحيى كان يعرف اليونانية !! ثم أثبت ذلك في بحث قدمه إلى مؤتمر ==

٦ - وهما فوق ما تقدم أن ننص على أن النثر في العصر الإسلامي لم يؤخذ عليه التزام السجع ، وإنما كان يقع السجع حين يقع بسيطاً مقبولاً لا تكلف فيه ، ولا نكاد نجد في القرن الأول والثاني وأوائل الثالث كتاباً يتخذ السجع طابعاً ملازماً لثره ، خصوصاً الكتاب المشاهير الذين أغنوا تلك العهود بأدبهم كأبن المقفع وعبد الحميد بن يحيى . والسجع في الأصل حلقة يزداد بها النثر ، وهى مقبولة ما دامت تجرى في حدود الاعتدال والقصد ، كما وقع في القرآن ، فإن القرآن يسجع أحياناً ولكنه لا يلزم السجع ، لذلك نجأ من التكلف والابتذال . والصنعة التي أثرت عن ذلك العصر تدل على أن الكتاب كانوا يفهمون أن الكتابة فن له قواعد وأصول ، وأن الكاتب يجب أن يصنى كتابته من أوشاب الخطأ والضعف ، لذلك رأينا واصل بن عطاء مثلاً يتجنب الرأى في خطبه إذ كان ألغى ، بالرغم من أن هذا الحرف كثير الدوران في الكلام^(١) . وتجنب مثل هذا الحرف من باحث كبير مثل واصل يتكلم ويخطب بلا أقطاع يدل على أن إجادة النثر أصبحت مقصودة عند كتاب ذلك العصر وخطبائه ، ومثل هذا القصد كاف للدلالة على فهم أولئك الناس لأهمية الإقنان .

٧ - والذي يتأمل آثار ذلك العصر يرى اهتمام الكتاب والخطباء ببسط المعاني وتأكيدها بتكرير الجمل المتقاربة في مغزاها ومدلولها . وهذا يسطينا فكرة واضحة عن تصور الكتاب والخطباء لنفسية من يراسلونهم أو مخاطبونهم . وهذا التكرير الذي أشير إليه ليس كالتكرير الذي سأنكره فيما بعد على كتاب القرن الرابع ، وإنما هو تكرير خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا يشغله كالذي وقع في رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز :

” وأذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياحك عنده وأنصارك عليه ، فتروده ولما بعده من الفرع الأكبر . وأعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير متزك الذي أنت به

المستشرقين... ويظهر أن المذكور له نسي أن يبحث تلاميذه وقراءه عن دله على مكان عبد الحميد في كتب البلاط .
طبعنا لنا أن نحفظ لأقتنا هذا الحق ، ورحم الله ابن الرومي إذ قال :

وعزير على مدحى لقضى غير أنى جشسته قدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل من يريد يظهر حاله

(١) البيان والبيان ص ١٠ ج ١ طبعة سنة ١٣٣٢ هـ .

يطول فيه ثؤاؤك، و يفارقك أحياءك، يسلموك فى قعره فريدا وحيدا، قروؤ له ما يصحبك يوم يضر المرد من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنه^(١) .

وهذا التكرير قد يزيد عند بعض الكُتاب ولكنه يظل مقبولا أيضا كالذى وقع فى مشاورة المهدي لأهل بيته فى مثل هذه التماير :

”أيها المهدي ! إن فى كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة أستفرغت رأيهم واستفرغت أشغالهم وأستفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وصرفت بهم، ولهذا الأمور التى جعلتنا فيها غاية وطلبت معونتنا عليها أقوامٌ من أبناء الحروب وساسة الأمور وقادة الجنود، وفرسان المزاخر وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتم بحملها وقيامهم ظلالها وقرمتم نواحيها، فلو عجمت ما قيلهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر يرد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوى قلبك ، فأما نحن مفاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسن بنا وكثير منا أن نقوم بشغل ما ملتنا من عملك، وأستودعنا من أمانتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، وإفاد ححك، وإظهار حقك“ .

وقد شاع هذا الأسلوب فى القرن الثانى والثالث، واتخذته الجاحظ خاصة أسلوبا غطاوا لا يحيد عنه، يظهر ذلك فى مقدمة كتبه مثل البيان والتبيين والحيوان ، وفى رسائله الأدبية والاجتماعية . وفى رأى أن الجاحظ وصل إلى درجة الفلو والإملال ، ولولا أنه كان يخطط فى كتابته بين الجذ والمزحل والحلو والمر لا تصرف الناس عنه ، ولكنه كان رجلا عالمًا بطباع الناس وغرائزهم فاستطاع بذلك أن يخلق أهوامهم وأذواقهم وأن ينسجم برفقة دمايته وحلاوة استطراده إسرافه فى أسلوبه وتطويله الذى عرف به واضطر للدفاع عنه فى مقنمة كتاب الحيوان .

٨ - ومن مظاهر الصنعة فى ذلك العصر تعدد الخيال، وتلك صفة نجدها عند أكثر الكُتاب والمطباء، فنجد الجاحظ مثلا يقول :

(١) نهاية الأرب ص ٣٨ ج ٦ (٢) راجع القدر الجديد ص ٥٧ - ٦٤ ج ١

”يا أهل الكوفة ! إني لأرى رموساً قد أئتمت وحان قطافها ، وإني لأصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء تترقق بين العظام والقي“ .

ويقول :

”إن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ! — كبّ كئنته بين يديه فصبح عيدانها فوجدنى أمرها صوداً وأصلبها عموداً ، فرماكم بى ، لأنكم طالم أوضعتم فى الفتنة ، وأضطجعتم فى مراقدة الضلال ... أما والله لأخونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(١)“ .

وإتثار الخيال فى النثر ظاهر فى خطب علي بن أبى طالب وزياد ورسائل عبد الحميد^(٢)، وحكم الواعظين والنسائك فى تلك الأيام ، ومنشورات الخوارج التى هاجموا بها الخلفاء . وهذا الأسلوب مظهر من مظاهر الفن لا يبنى تجاهله عند تقرير الخواص التى أمتاز بها النثر فى ذلك الحين .

هذه المظاهر الفنية التى طبع بها النثر فى عصر بنى أمية وصدر دولة بنى العباس كانت مقدمة لنوع من الاسراف فى الزخرف أفسد النثر فيما بعد ، وأثقله بالوان من السجع والأزدواج .

(١) البيان والتبيين ص ١٦٤ و ١٦٥ ج ٢ (٢) أظهر أثر لعبد الحميد بن يحيى هو رسائله التى وجهها إلى الكتاب يوصيهم فيها بحفظ الكرامة واحترام المهة ومواساة الأئمة . — راجع صبح الأعشى ص ٨٥ — ٨٩ ج ١

٤ - أطوار السجع

١ - لهذا البحث أهمية عظيمة . وقد جمعنا له مذكرات عديدة تصلح مادة لكتيب خاص . ثم رأينا إجمالها في هذا الفصل^(١) . وترجع أهمية هذا البحث الى مايجب من تبديد الشبهة التي تاملت في أنفس كثير من الباحثين الذين يظنون أن التزام السجع لم يقع إلا في القرن الرابع . فقد حدثني المسيو مرسيه مرة أنه وجد كتابا لمؤلف قديم اسمه الأخضري ، وأن المؤلف منسوب الى القرن الثالث . وبصر المسيو مرسيه على ضمه الى رجال القرن الرابع : لأنه يلزم السجع . وأستطرد المسيو مرسيه فذكر أنه عرض هذه المسألة على الدكتور طه حسين فوافقه على استبعاد أن يكون من رجال القرن الثالث من يلزم السجع . وفي هذا الفصل نُبِّدُ أمثال هذه الشبهات ، ويعرف القارئ أن السجع حلية قديمة أولج بها الكتاب والمخطباء قبل القرن الرابع بأجيال ، وأنه لا يكتفى أن يكون الكتاب مسجوعا ليطرد من حظيرة القرن الثالث كما حكم ولم مرسيه وطه حسين^(٢) .

٢ - ولندكر أولا أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية : فهو في أكثر اللغات يجري بأطراف في الحكم والأمثال . ويمكن الحكم بأن أمثال العامة تقع غالبا مسجوعة ، وقد يبنى السجع على المعنى أحيانا في تمايز الفطريين من أهل البادية والريف ، وفي ذلك دلالة على أن المحسنات اللفظية مما يقصده العوام ، وليست مما ينفرد به الخواص . والقارئ يستطيع بسهولة أن يجمع عشرين مثلا في لحظة واحدة من أجميعام العامة فيما سارع على ألتهم من مختلف

(١) عرضنا لهذا الموضوع في الأصل الفرنسي ، ثم عدنا تفصلا بعض التفصيل في المقدمة الفرنسية التي نشرناها
 (٢) (الرسالة الفراء) . من الانصاف أن نذكر أن رأى هذين الباحثين قد تغير في كثير من موضوعات
 الذر التي بعد الأبحاث البلجيكية التي قدمناها الى السوربون ومدرسة اللغات الشرقية في باريس .

الحكم والأمثال^(١) . ولو رجع القارئ الى احدى اللغات الأوروبية ، كالفرنسية مثلا ، لوجد السجع يجرى بأطراد في هذا الضرب من القول ، مثل :

(Qui va à la chasse, perd sa place)

ومثل :

(Qui se ressemble, s'assemble)

ومثل :

La nuit, tous les chats sont gris

وكلمات السائر :

Vouloir, c'est pouvoir

وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع ، تخطيطه قس بن ساعدة الإيادى وخطبة النابغة الذبياني^(٢) . ومع أننا نرتاب في صحة تلك الخطب فاننا نرى في وضعها مسجوعة — على فرض صحة الوضع — دليلا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية ، وفهم الرواة له قيمته : لأنهم أقرب منا بمراحل طويلة الى ذلك العهد ، ولأنهم كانوا يملكون من أصول الأدب الجاهلى الصحيح ما يمكنهم من الحكم على طرائق أهله في التعبير .

٣ — ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ، وعدنا الى نص جاهلى لاريب فيه وهو القرآن لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية . والقرآن ثر جاهلى ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان . ولا يتكر متعنت

(١) أجماع الصائغ كثيرة ، ومن طرفها ما جرى في وصف الشهور المصرية مثل : " كياك ، صباحك مساك " يريدون وصفه بقصر النهار . و " برمهات ، روح الفيط وهات " لأن برمهات موسم ظهور البقول . و " برمودة ، دق السمودة " لأنه موسم الحصاد والدرس ، درس القمح والقول والشعر . ويقولون في موعد انصرام الشتاء " اذا اخضر الثوب البرد يموت " ، ومن فكاهتهم : " عيشك كريس يا خالى ! من سوء بختي ، يا بنت اخي ! " وأذكر بمناسبة السجع في الشهور المصرية أن هناك مجاميعه عند عوام القريتين مثل :

En Avril, n'enlève pas un fil

ومثل :

En Mai, fais ce qu'il te plait

(٢) تجد هذه الخطبة في ص ٣٨ من مجموعة النسخة البنية .

أن القرآن وَصَّحَ للصَّلوات والدَّعوات ومواقف التَّناء والخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما كان يرثله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين . ولا تنس أن الوثنية كانت ديناً يؤمن به أهله في طاعة وخشوع، وكانت لم طقوس في هياكلهم . وكانت تلك الطقوس تؤدى على نحو قريب مما كان يفعل أهل الكتاب من النصارى واليهود . والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب في صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات . والفرق بين المتدينين يرجع الى المعانى ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال . ولو دخلت كنيسة في باريس ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة لتذكرت الصورة التى تتلى بها الدعوات بعد الصلاة في مساجد القاهرة : ذلك بأن الديانات الثلاث الاسلام والنصرانية واليهودية ترجع الى مهد واحد هو الجزيرة العربية . فاللون الدينى واحد ، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة ، فلا تحسب أن القرآن غير مناجى الناس في يوم وليلة ، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم الى الله وأن يروضهم على فكرة واحدة هي التوحيد .

ومعنى هذا أن القرآن يسجع لأن السجع كان فناً من فنون القول والدعاء عند الجاهلية ، والصلوات بطبيعتها تحتاج الى لون من الفن يتمثل في السجع . لأن فيه استجابة للموسيقا الوجدانية في قلوب المتجملين . وإليك أمثلة من صيغ القرآن .

”وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فاهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهنَّ العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهجداً وجعل لكم فيها سبيلاً لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمه ربكم انا آستويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرين . وانا الى ربنا لمقلبون“^(١) .

”والسابقون السابقون، أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . باكراب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلا سلا سلا . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة“ .^(١)

وعند ملاحظة جميع القرآن نراه يتخلف بجملة في بعض الأحكام : كأن تكون القافية نونية فصحية، في وسط السباق فاصلة ميمية . وفي هذا برهان على أن المعنى هو الأصل، وأن السجع لا يراد به مطلق التوافق في الحرف ، وإنما يقصد به التلحين والتنظيم ، لأن تغير الحرف مع بقاء الوزن لا يغير من الرنة الموسيقية^(٢) .

٤ — وفي الأحاديث النبوية جميع مقصود، خلافا لما ظن المسيو ماسينيون، ومن أمثله :

”أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام“ .

ونقل الغزالي في باب الاستعاذات المأثورة عن الرسول :

”اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي الى طبع، ومن طمع في غير مطعم، ومن طمع حيث لا مطعم . اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يحشع ، ودعاء لا يسمع ، وقس لا تسبح . وأعوذ بك من الجوع ، فانه يفسد الضجيع ، ومن الخيانة ، فانها تبست البطانة ، ومن الكسل والبلبل والجبن ومن الهرم ومن أن أرد إلى أرذل العمر“ .^(٣)

(١) موزونة : منسوجة بضبان من الذهب والبراهم . (٢) سورة الواقعة . (٣) الباقلائي

ينفي ورود السجع في القرآن وقد قضنا رأي من الأساس . راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٧٧ — ٨١

(٤) في ملاحظته التي أيداعها يوم مناقشته الرسالة في السوربون . (٥) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٣٠

ولتقيد أن السجع لا يطرد في الحديث كما لا يطرد في القرآن، فهو حلية تقصد، ولكنها لا تلتزم، لما في التزامها في قهر المعاني على متابعة الألفاظ .
وقد نجد في الأحاديث عبارات تجرى مجرى السجع من حيث مراعاة الوزن وإن لم تراعى فيها التافية، كقوله عليه السلام :

”اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملی، وتلم بها شعبي، وترد بها الفتي، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائي، وترفع بها شأهدي، وتركي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهي بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء“^(١) .
وهذا النوع من ”الوزن“ قريب من السجع من حيث بناء الجملة، وسنعود إليه بعد قليل .

٥ — ولو مضينا نستقرئ خطبة الصباحة والخلفاء الراشدين لرأينا السجع يلتم في كثير من الأحيان . وإلى القارئ خطبة منسوبة إلى علي بن أبي طالب :

”دار بالبلاء محفوفة، وبالفنر معروفة، لا تلوم أحوالها، ولا يسلم زلها، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم . وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة : ترميهم بسهامها، وتغنيمهم بحمامها . وأعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعمارا ، وأعمر ديارا ، وأجد آثارا ، أصبحت أصواتهم هامة، ودياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية : فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والفارق المهددة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة الملمدة^(٢) التي قد بنى بالخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فحلها مقرب، وساكنها مغترب، بين أهل حلة موحشين ، وأهل فراغ متشاغلين ، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودق الديار، وكيف يكون بينهم تراور وقد طحنهم بكلكلة الليل، وأكلتهم الجنادل والثرى، وكأن قد صرتم إلى ما صاروا

اليه، وأرتهنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لوتناهت بكم الأمور، وبشرت القبور^(١) .

وقد أراد المسبو ديوميين (Demombynes) أن يفض من قيمة ما نسب الى على بن أبى طالب من خطب ورسائل، امتنادا الى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضى هو واضع كتاب (نهج البلاغة) أما نحن فتحفظ في هذه المسألة كل التحفظ؛ لأن الجاحظ يحدنا أن خطب على وعمر وعثمان كانت محفوظة في مجموعات^(٢). ومعنى هذا أن خطب على كانت معروفة قبل الشريف الرضى . والذين نسبوا نهج البلاغة الى الرضى يحتجون بأنه وضعها لأغراض شيعية، فلم لا نقول من جانبنا بأن تهمة الوضع جاءت لتأيد خصوم الحملات الشيعية^(٣) ؟

ولو فرضنا أن أمثال ما آستشهدنا به من خطب على ليس له فإن ذلك لا يمنع أن السجع كان من مزايى ذلك الخطيب، لأن من يقلد خطيبا يحرص على تمثيل مذهبه في الأداء والأسلوب . وقد رأينا التوحيدى يخترع حديث السقيفة ويرى من الفن أن ينطق الصحابة بكلام مسجوع، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك، فيقول على لسان عمر وهو يخاطب أبا عبيدة:

”قل لعل: الرقاد محلبة، والهوى مقصحة، وما منا إلا له مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبا ظاهري أو مكتوم، وأن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا، وقارب البعيد تلفا، ووزن كل شيء بميزانه، ولم يخطئ خبره ببيانه، . . ما هذه الخترانة التي في فرواش رأسك؟ ما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك؟ ما هذه القذاة التي قششت ناظرك؟ وما هذه الوحة التي أكلت شراسيفك؟ وما هذا الذى لبست بسبه جلد النمر، وأشملت عليه بالشحناء والنكر... الخ“^(٤) .

(١) نهج البلاغة ص ٤٨١ - ٤٨٣ (٢) البيان ج ١ ص ١٤٧ (٣) الواقع أن اتهام الشريف الرضى بوضع (نهج البلاغة) قديم وقد أشار اليه ابن أبي الحديد في شرحه ثم أقاض في قهر ذلك الاتهام - راجع ص ٤٦٠ من المجلد الثانى . (٤) صبح الأمل ج ١ ص ٢٤٢

ومن دقة المحاكاة ما رأينا التوحيدى يحرص عليه في حديث السقيفة من التسامح في الترام السجع في بعض الفقرات ليوافق المنهج الذى عرف في نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

٦ فاذا تخطينا عصر النبوة وصدر الاسلام إلى العصر الأموى رأينا الخطباء كذلك يسجعون، ورأينا مثلاً هشام بن عبد الملك يقول :^(١)

”وإنالعرف الحق إذا نزل، ونكره الإصراف والبخل، وما تعطى تبذيراً، وما تمنع تقتيراً. وما نحن إلا خزائن الله في بلاده، وأمانؤه على عباده، فإن أذن أعطينا، وإذامنع أبينا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق، ما جئنا قائلًا، ولا رددنا سائلًا“ .^(٢)

روى هذا الكلام على أنه مرتجل في الرد على خطيب وفد أهل الججاز . وفي روايته كذلك دليل على أنهم كانوا يفهمون أن الكلام يقع مسجوعاً حين يحتفل به القائلون .

وقد أثير عن الخلفاء والقواد كلام مسجوع في مواطن لا يتنظر فيها تأتى في التعبير، كأن يكون الكلام جواباً على سؤال . من ذلك ما روى أن عقاب بن شبة دخل على هشام وأراد أن يقبل يده فقال : لا يفعل هنا من العرب إلا هُلُوع ، ولا من الهجم إلا خُضُوع . وقالت امرأة لأبى مسلم : ناوأتى يدك أقبليها فقد نذرت . فقال : عليك بالهجر الأسود تصيين أجراً، وتقضين نذراً .^(٣)

(١) ولا ننسى أن نشير إلى أن لغة الزهاد والنسك في العصر الأيو كانت في الألب مسجوعة، ومن شواهد ذلك قول الحسن البصرى يومى عمر بن عبد العزيز :

”وأذكر يا أمير المؤمنين إذا يثر ما في القبر، وحصل ما في الصدور... وأنت في مهل، قبل حلول الأجل، واقطع الأمل، لا تحكم في عباد الله بحكم الماهلين، ولا تسلط على المستكبرين على المستضعفين، لأنهم لا يرقون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك، وأوزارك مع أوزارك، وبحمل أمتك وأمتك مع أمتك، ولا يترك الذين يسمون بما فيه بؤسك، ويا تكون الطيبات من دينهم بأذهاب طيباتك في آخرتك“ راجع نهاية الأوب ص ٣٨ ج ٦ (٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٥ (٣) محاضرات الأصفهاني

وكان المسيو مرسية (Marçais) يظن أن الناس بدأوا يكرهون السجع في العصر الأموي . وكانت سمته ما حدثت بالمحظ أن معاوية أملى كتابا إلى رجل فقال فيه : "لموأمون على من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة" ثم قال لكتبه : "امح من كلاب الحرة . واكتب : من الكلاب" كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس في موضعه^(١) .

وقد راجعنا المسيو مرسية في هذا وأبنا له أن معاوية تحمى السجع في هذا الموطن لأنه فح يشعر بأن الكاتب هادئ النفس ، وهو لا يصلح لمقام التهديد والوعيد .

والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتم السجع ، وبالح المسيو مرسية فحدثني في أحد أيام سبتمبر سنة ١٩٢٩ أنه لا يعرفه على الإطلاق ، ولو أنه استقصى أخباره لراه يذكر أن من البلاغة " ما يكون مجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل " فآين المقفع يقرر أن السجع فن من القول يقابل الشعر والرسائل ولعله يريد به الأمثال ، وإن كان قرنه بالخطب فبهمنا أنه يقصد به الخطب المسجوعة . ولا سيما إذا لاحظنا أن الحمصى يذكر أن بشار بن برد كان "مجبجاً خطيباً"^(٢) وأن المختار بن أبي عبيد كانت له "أجمايع بصنمها" ، وألفاظ يتدعها ، وزعم أنها تنزل عليه ، وتوحى إليه^(٣) وفي هذه العبارة ما يذكر بأن الإلهامات الدينية ، حتى المفقاة ، كانت تتخطر صورة مسجوعة ، لأن السجع كان من تقاليد الكهان ، وكان الكهان حملة راية الدين في عصر الجاهلية .

٧ — ولو حللنا أساليب المشاهير من كتاب العصر الأموي لرأينا كتاباتهم "موزونة"

على طريقة السجع ، وإن لم تلتم فيها القافية ، وأنظر قول عبد الحميد بن يحيى :

- (١) رسائل المحظ ص ١٥٥ (٢) ص ٦٤ ج ١ البيان والتبيين — وهذا الذى رواه المحظ عن فهم ابن المقفع لقية السج ومعه بابا من البلاغة كاف في الرد على من يشك في نسب كتاب إلى ابن المقفع بسبب ما يقع فيه من تعدد السج أحيانا كأفضل مؤلف ضحى الاسلام — ص ٢١٥ ج ١ — حين ارتاب في أحد كتب ابن المقفع .
- (٢) زهر الآداب ج ٢ ص ١٢١ — وللاحظ أن «مجبجا» رواها الحمصى بالسين المهملة - ووصف المحظ في الجزء الثالث من البيان ص ٩٦ مسلة بأنه كان «مجبجا خطيبا وبارع اللسان جوادا» فأثبت «مجبجا» بالثين المضممة . و «مجبجا» و «مجبجا» وردتا مفرقتين إلى «خطيبا» ونحن نرجح أن التعريف وضع في كتاب المحظ .
- (٣) زهر الآداب ج ٢ ص ٥١

”ثم إياك أن يقاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي التي يستخف بها أهل البطالة ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويحذرها أهل الحسد مقالا لميب يرفعونه، ولطعن في حق يصعدونه، مع ما في ذلك من نقص الرأي، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل الفسلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كون النار في الجمر الصلد، فاذا قدح لاح شرره، ولهب وميضه، ووقد تضرمه . وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدا، وأعلى كونا، وأسرع اليه باليب منها الى من كان في سنك من أغفال الرجال^(١) .

وفي مثل هذا التحررية ظاهرة، ولكن بناء الجمل مطبوع بطابع السجع في كثير من الفقرات . ورويت لعبد الحميد أجماع كقوله : ”الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون، فمنهم علق مضغة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا يتنازع“^(٢).

وابن المقفع أكثر كتاب العصر الأموي حرية في صوغ الجملة، ولكن يتفق له أحيانا أن يصرح كلامه على منبج الوزن في السجع فيقول مثلا :

”وليس كل ذي نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى في ذوى الألياب ... فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلا فليأخذ له عتاده، وليمد له طول أيامه، وليؤثره على أهوائه، فانه قد رام أمرا جسيما لا يصلح على النفلة، ولا يدرك بالمعجزة، ولا يصير على الإثرة“.

وما نسميه الوزن نريد به توافق الفواصل الذي يحصل به هدوء النفس عند تلاوة الكلام المرصوف .

٨ - وما يمين ميل الأذواق العربية الى إنبات السجع غلبة هذا الفن على أكثر ما أترعن الاعراب . حدث الأصمعي أنه سمع أعرابيا يذكر قومه فقال :

”كانوا إذا اصطفوا تحت القتام، ومطرت بينهم السهام، يشربون الحمام . وإذا تصالحوا بالسيف، ففرت فاها الحنوف“^(٣).

(١) رسائل البهاء، ص ٢٤ (٢) الصداقة والصديق ص ٢٨ (٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٩٠

وعذلت أعرابية أباهما في إلتلاف ماله بالجود فقالت :

”حبس المال، أضع الليال، من بذل الوجه في السؤال، فقد قل النوال، وكثر البخل، وقد أتلقت الطارف والتلاد، وبقيت تطلب ما في أيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أوشك أن يسى قيا يضره^(١) .

وقال بعض الأعراب :

”أنا وسمى^(٢)، وخلفه ولى^(٣)، فالأرض كأنها وشى عبرى^(٤)، ثم أتنا غيوم جراد، بمناجل حداد، غفرت البلاد، وأهلك العباد، فسبحان من هلك القوى الأكل، بالضعيف المأكول^(٥)“ .

ووعظ أعرابي رجلا وهو يقول :

”ويعك ! إن فلانا وإن ضحك إليك، فانه يضحك منك، ولئن أظهر الشفقة عليك، إن عقابه تسرى إليك . فان لم تتخذ عدوا في ملايتك، فلا تجعل صديقا في سريتك^(٦)“ .

ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسرى فقال :

”أصلح الله الأمير ! شيخ كبير، حذمه إليك بارية المقام، ومؤرمة الأسقام، ومطولة الأعوام، فنحبت أمواله، وزعدت^(٧) آباله، وتغيرت أحواله . فان رأى الأمير أن يحبه بفضله وينمسه بسجله، ويرده إلى أهله^(٨)“ .

والسجع في كلام الأعراب كثير جدا فلا تشغل أنفسنا بالتدليل على كثرتة، ولندكر أن هناك أحاديث كثيرة وضعت على ألسنة الأعراب وأهمل الموضوعون بصوغها مسجوعة لتسهل نسبتها إليهم، وسنعود إليها عند الكلام عن ابن دريد .

(١) زهر الأدب ج ٤ ص ١٤٢ (٢) الوسمى : المخر الأول . (٣) الول : المخر الثاني .

(٤) زهر الأدب ج ٤ ص ١٤٣ . (٥) زهر الأدب ج ٣ ص ٢٥٦ (٦) فطمت : فرقت .

(٧) أمال : التال ج ٢ ص ٤٩ .

٩ - وهناك فن من القول ألتم فيه السجع على نمط كلام الأعراب وهو وصايا الآباء للأبناء . وهو فن قديم عرفه أهل الجاهلية ، ومن شواهد في العصر الإسلامي قول عبد الله بن شداد :

” أي بني . لا ترهطن في معروف ، فإن الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نوايب ، على الشاهد والغائب ، فكمن راغب قد كان مرغوباً إليه ، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه ... وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكمن كأنك لست بالشاهد ... وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال : فإن الكريم يحتال ، والدنيء عيال ، وكمن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً ، أقل ما تكون في الباطن مالا^(١) .“

وقال علقمة بن ليلى لأبيه :

” يا بني ، إذا نزلت إلى حجة الرجال حاجة فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدّها ، وإن رأى منك حسنة عتّها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكت عنه أبعداك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات آسأك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإن حاول حويلاً أمرك^(٢) ، وإن تازعتما مضى أمرك^(٣) .“

١٠ - وزعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع كأن الخطيب نوع من القصيد . قال عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه البجاج ” يا عجبا ! بلغني أنك لا تقدر على الهجاء . فقال يا أمير المؤمنين ! من قدر على تشيد الأبنية ، أمكنه إحراق الأخية .“

قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلم ، وإن لنا حلماً يمنعنا من أن نَظلم ، فلام الهجاء ؟ فقال : لكلماتك أشعر من شعرك . فأتى لك عز يمنعك من أن تُظلم ؟

(١) الأملال ج ٢ ص ٢٠٥ (٢) أمرك : شامرك . (٣) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤

قال : الأدب البارع ، والفهم الناصح . قال : فإ الحلم الذى يملك من أن تعظم ؟ فقال :
الأدب المستطرف والطبع الثالث^(١) .

وروى أن على بن أبى طالب أرسل الى معاوية بالشام كتابا محبة صمصمة بن صوحان
فساربه حتى أتى دمشق فأتى باب معاوية فقال لأذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن
أبى طالب ، وبالباب جماعة من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله "أمير المؤمنين"
وكرثت عليه الجلبة ، فاتصل ذلك بمعاوية فأذن له فدخل عليه فقال : السلام عليك يا بن
أبى سفيان . هذا كذب أمير المؤمنين . فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تُقتل في جاهلية
أو إسلام لتقتل ! ثم اعترضه معاوية في الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف طبعاً أو تكلفاً ، فقال
له بمن الرجل ؟ فأجاب : من زار قال : وما زار ؟ قال : كان إذا غزا انحوش^(٢) ، وإذا أنصرف
انكش ، وإذا لقي اقترش . قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة ؟
قال : كان يفرز بالليل ، ويغير بالليل ، ويمجد بالنيل . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من
أمهر ، قال : وما أمهر ؟ قال : كان إذا طلب أفضى ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى .
قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جديلة . قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل التجاد ،
وبعد الجياد ، ويميد الجلال^(٣) . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من دعى . قال : وما
دعى ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشراً قاطعاً ، وخيراً نافعاً . قال فمن أى ولده أنت ؟ قال :
من أفضى . قال : وما أفضى ؟ قال : كان يتزل القنارات ، ويكثر الغارات ، ويحى
الجارات . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما عبد القيس ؟ قال : أبطال
ذادة ، بحاجمة سادة ، صناديد قادة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفضى . قال :

(١) الأمالى ج ٢ ص ٤٩ . (٢) انحوش : أسرع ، وسطها انكش . (٣) رواية صبح الأضى
تصف جديلة بأنه « كان في الحرب سيفاً قاطعاً ، وفي المعارك غيثاً نافعاً » وفي اللقاء لباً ساطعاً » وبين رواية صبح
الأضى والأمالى خلاف ملوس ، وهو دليل على التصرف في أصل هذا الحديث . وقد اعتمدنا على رواية الأمالى

وما أفضى؟ قال : كانت رماحهم مُشرعة، وقُدُورهم مُترعة، وجفانهم مفرغة . قال : فن أي ولده أنت؟ قال : من لُكْزٍ . قال : وما لُكْزٌ؟ قال : كان يباشر القتال، ويساقق الأبطال، ويبتد الأموال . قال : فن أي ولده أنت؟ قال : من عِجَلٍ . قال : وما عِجَلٌ؟ قال الليوث الضراغة ، الملوك التفاقة ، القروم القشاعة . قال : فن أي ولده أنت؟ قال : من كعب . قال : وما كعب؟ قال كان يسعر الحرب ، ويحيد الضرب ، ويكشف الكرب . قال : فن أي ولده أنت؟ قال : من مالك . قال : وما مالك؟ قال : هو المهام للمهام ، والقمقام للقمقام .

فقال معاوية رحمة الله : ما تركت لهذا الحى من قريش شيئا ! قال : بل تركت لهم أكثره وأحبه ! قال : وما تركت لهم؟ قال : تركت لهم الوبر والمدر، والأبيض والأصفر، والصفاء والمشرع، والقبعة والمفخر، والسرير والمنبر، والملك الى المحشر .

قال معاوية : أما والله لقد كان يسوءنى أن أراك أميرا .

فقال صعصعة : وأنا والله لقد كان يسوءنى أن أراك أميرا ! « .

تلك رواية الأمامى . أما رواية صبح الأعشى فقصيرة وتتم هكنا بالسؤال عن عبد القيس : فن أي أولاده أنت؟ قال : من عبد القيس . قال وما كان عبد القيس؟ قال : كان حسنا أبيض وهابا، يقدم لضيفه ما وجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق . يقوم للناس مقام الفيت من السماء .

ولنلاحظ أن هذا الحوار يشتمل على ثلاث قواف في كل جواب ، ويطول في الجواب الأخير لأنه بيت القصيد . ومن الواضح أن هذه الصنعة تسرع على الأرجح ، فن المرجح أن يكون هذا الحوار لحقه شيء من الترتيب ، ولا سيما إذا تذكرنا أنه منسوب

(١) هي كذلك بالعين المصححة في الأصل ، وهو خارج على السجع وإن لم يخرج على الموازنة، ولعل الصواب « مفرقة » بالعين المهملة ، يريد وصف الجفان بالامتلاء . والمادة تسمح بذلك . ولنلاحظ القارئ أن (أفضى) ذكر مرهين في هذه الرواية ، ولعل هناك خطأ في الوضع . (٢) صبح الأعشى ص ٢٥٥ ج ١ .

الى خطيب كان مضرب المثل في البيان المطوّل وهو ابن صوحان، فلا يبعد أن يكون نظمها
نظماً جديداً بعد تروجه من قصر معاوية بن أبي سفيان^(١).

وهنا أيضا لا يحتاج الى كثير من الشواهد : لأن السجع في حضرة الخلفاء والأمراء والوزراء كان من الذبوع بحيث لا يحتاج في إثباته الى تدليل .

١١ - ومن طريف ما هدانا إليه الاستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة، فهو عندهم فنٌّ من القول كالقصيد يتقربون به إلى قلوب الأغنياء . وتحت أيدينا شواهد بعضها خشن متوعر، وبعضها سهل مقبول، وهي في مجملها تبثنا بأن السجع كان يزيد الكلام رونقا وبهاء، وينظم قائله في سلك أهل البيان .

قال صاحب الأمالي : «حدثنا أبو بكر رحمه الله . قال أخبرنا أبو حاتم . قال أخبرنا أبو زيد قال : بنا أنا في المسجد الحرام اذ وقف علينا أمرأى فقال : يا مسلمون ! إن الحمد لله والصلاة على نبيه . انى أمرؤ من أهل هذا المخطط الشرق المواصى أسيف تامة . عكفت علينا سنون محش فاجتبت الذرى ، وهشمت العرى ، وجشت النجم ، وأعجت البهم ، وهمت

(١) هذا النقط من الأجوبة المسجوعة كثير جدا في هذه الرواة ، وجزء منه منسوب إلى أنس شيرازي . ويكنى الحكم بـأن هذا النوع من أداها ناعما بذاته يجد القارئ مواد مفرقة في كتب الأخبار والأقاصيص . ومن المقامات التي ظهر ظهورها قريبا في القرن الرابع متأثر بهذه الأساليب ، فالقصة حديث مطول يرتكز على الحوار ويلتزم فيه السجع . ويفترض عند مطالع القامة ذكاء ، مماثل الذكاء الذي يظهر في أساليب الأعراب والوافدين على الخلفاء .

(٢) يؤيد هذا قول أبي العلاء المخرى في رسالة المنج :

”وقد كان في معنى قوم جسر الراسل، كالواسل، وتزينا بالسجع، تزين الحول بالرجع“ راجع لحول البلاغة ص. ٢٠٠ (٣) الحظاظ : كل شقيق نهر أو واد. (٤) المواصي والمواصل واحد، يقال قواصي التبت اذا اصل يهض يهض. (٥) الأسياف جمع سيف بكسر السين وهو ساحل البحر. (٦) عكفت : أقامت : محش جمع محوش وهي التي تحش الكلال، أى تحرقه. (٨) اجبت : انقضت من الجب وهو القطع. (٩) هشت : كسرت. (١٠) المرى جمع عروة وهي هنا القطعة من الشجر لا يزال باقيا على الجذع. (١١) جهشت : احتظت. (١٢) النجم ما يحتمل من التبت ولم يستقل على ساق. (١٣) أجمت : صلبتها بما. والسين الموهول من سوء الغذاء. (١٤) هت : أذابت.

الشحم ، والتجبت اللحم ، وأجمجت العظم ، وغادرت التراب مورا ، والماء غورا ، والناس
أوزانا ، والنبط قناعا ، والضل جزعا ، والمقام جمبعا ، يصبحنا الهاوى ، ويطرقنا الهاوى ،
نفرجت لا ألتفع بوصيدة ، ولا ألتقوت هيدة ، فالبخصات وقعة ، والزبكات زلعة ، والأطراف
قفعة ، والجسم مساهم ، والنظر مدرهم ، أعشو فأعطش ، وأضفى فأخفش ، أسهل ظالما ،
وأخرن راكما ، فهل من أمر بيمر ، أوداع بخير ؟ وفاكم الله سطوة القادرة ، وملكة الكاهر ،
وسوء الموارد ، وقضوح المصادر^(٢٤) .

وهذا النوع من الكلام كثير أيضا . فلا نشغل أنفسنا بإيراد الشواهد . ولندكر أننا
نفترض أن بديع الزمان أقبس هذا المنهج في مقاماته ، فان صاحبه أبا الفتح الاسكندري
يسأل الناس في المساجد والأسواق على هذا المنوال . وهذه الطريقة في الاستجداء لا تزال
معروفة : ففي مضاييف القرى المصرية وأسواقها يشهد الأغنياء أفواجا من السائلين يتوسلون
اليهم برقى من الكلام المسجوع : بعضه في المدح وبعضه في الدعاء .

ولنعبد أيضا أن ما روى في صحيح المغاة يرجع الى باين : باب تغلب فيه الصنعة حتى تليل
النفس لنسبته الى صانعي الأخيار والأفاهيص ، كالكمة التي قلناها آفا ، فان أغلب الظن
أنها من وضع بعض اللغويين .

(١) التجبت اللحم : عرته عن العظم . (٢) أجمجت العظم عوجته ضجرة كالصحن . (٣) المور : الذي
يذهب ويحيى . (٤) القور : الفائر . (٥) أوزاع : فرق . (٦) النبط الماء الذي يستخرج من
البر أول ما تخضر والقناع الماء المالح المر . (٧) الضل القليل من الماء ، والجزاع أشة المياه مرارة .
(٨) الجنباع : الذي لا يطمئن من قد طبعه . (٩) الهاوى : الجراد . (١٠) الهاوى : القتب .
(١١) الوصيدة : كل منسوج . (١٢) الهيدة : حب المختل . (١٣) البخصات جمع بخصة وهي لم
باطن القدم ، والوقعة من قولم وقع الرجل اذا اشتكى لم بطن قدمه . (١٤) زلعة : مشقة . (١٥) قفعة :
مقعة وهي التي تقيض ويشت . (١٦) مساهم : مغير . (١٧) المدرم : الضعيف البصر الذي
ضغف بصره من جوع أو مرض . (١٨) أعشو : أنظر ، فأعطش أى أصبح عطشا ، ولنطش ضغف البصر .
(١٩) الخفش : فساد في الجفون . (٢٠) يقول : اذا مثيت في السهول ظلت أى غزت . (٢١) أى اذا
علا الحزن نكح وكأ لوجه . (٢٢) المير : البطية . (٢٣) القاهرة والكاهر واحد ، وقرا بعضهم
«فاما البني فلا تكهر» . (٢٤) راجع هذه القطعة ونشرها في الأملال ج ١ ص ١١٣ — ١١٦ طبع بولاق .

وباب تغلب عليه الفطرة كالأصبيح التي يفيض بها المتفنون حين تقع بينهم وبين من يسألونهم مراجعة أو ملاحظة . من ذلك ما روى أن أعرابيا وقف يسأل فعبث به فقى فقال: من أنت؟ فقال الأعرابي: من صعصعة . فقال الفقى: من أيهم؟ فقال: إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكنك هذا المقدار من المعرفة: فليس مقامى بمجادلة ولا مفاخرة . وأنا أقول: فإن لم أكن من هاماتهم، فلست من أعجازهم . فقال الفقى: ما رويت من فضيلتك إلا النقص فى حسبك . فامتص الأعرابي لذلك . فجعل الفقى يتندر ويخلط المزمل والدعابة باعتذاره، وأطال الكلام، فقال له الأعرابي: "يا هذا إنك منذ اليوم آذيتنى بمزحك، وقطعتنى عن سألتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك . ويحك! إن الجاهل إن مزح أخطأ، وإن أعذر أفرط، وإن حدث أسقط، وإن قدر تسلط، وإن عزم على أمر توطأ، وإن جلس مجلس الوقار تبسط . أسقط^(١)، ومن حال أضطرتنى الى مثلك!" .

ووقف أعرابي على قوم فتموه فقال:

"اللهم أشغلنا بذكرك، وأغذا من سخطك، وأولجنا الى عفوك، فقد ضن خلقك برزقك، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك، وآتانا من الدنيا الصنعان . وإن كان كثيرها يسخطك، فلا خير فيما يسخطك"^(٢) .

(١) زهر الآداب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ج ٢ (٢) الصنعان: القناعة . (٣) البيان والبيان ج ٣ ص ٢٢٤ — وبمناسبة هذا الدعاء تذكر أن الأعراب رويت لهم دعوات كثيرة مسجوعة، منها قول أحدهم عبثة عرفة: "اللهم إن هذه المشية من عشايا منعتك، وأحد أيام زلفتك... أشك الضوامر من الفجح العميق، وجاءت إليك المهارق من شعب المضيض، تريحو ما خلف له من وطك، ولا مترك له من عظيم أجرك، أبرزت إليك وجوهاها المصونة، صابرة على لقح السائم، ويردليل السائم، ليدركوا بذلك رضوانك" ثم قال: "والهى! إن كنت مدت يدي إليك داعيا، فظانما كفتي ساهيا، نصنف تظاهرها على عند القلفة، فكيف آياس منها عند الريبة... فهب لي، يارب، الصلاح في الولد، والأمن في البسلة، ونعافى من شر الحسد، ومن شر الدهر النكس، واجمع الأمالى ص ٢٢٣ ج ٢

ولا يفيض من قيمة هذه الأصباح أن يظن أنها موضوعة، فقد أشرتا غير مرة إلى أن الواضعين يعاودن الدوق المعروف عند أعراف الأحاديث .

وأطرف ما قرأت في سؤال الأعراب هذه الكلمات :

”أين الوجوه الصُّباح، والقول الصُّباح، والألسن الصُّباح، والأنساب الصُّباح،
والمكارم الرياح، والصدور الفِصاح - تميزني من مقامى هذا“^(١).

١٢ - وأصرح من كل ما سلف في إثبات السجع ما قاله عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي وقد سئل : ”لم تؤثر السجع على المتشور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟“
فأجاب : ”إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك . ولكني أريد الغائب والحاضر، والزاهر والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذن لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المتشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المتشور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة“^(٢).

وهو جواب صريح الدلالة على أن الكلام المسجوع كان ينظر إليه نظرة تقدير وإعجاب، وأنه خليق بأن يحفظ ويروى، وأن الكلام المتشور الخالي من الوزن والقافية يراد به في الأغلب إقناع المخاطبين . أما التفكير في الحاضرين والغائبين فيوجب كلاماً مصنوعاً يستأهل البقاء، وكانت الصنعة أظهر ما تكون في القوافي والأوزان .

وفي هذا الكلام أيضاً دلالة صريحة على أن النثر المرسل لم يحفظ منه إلا قليل . أما النثر المسجوع فحفظ معظمه بفضل الوزن والقافية . والأمر كذلك، فيما نظن، في سائر اللغات :
لأنه يرجع إلى طبيعة يتساوى فيها جميع الناس .

(١) البيان ص ٢٣٢ ج ٣ (٢) البيان ص ١٥٨ ج ١ - وعبد الصمد هذا من رجال القرن الثاني وله كلام طريف مع شبيب بن شعبة الحميري في الصاعين (ص ٣٥٠) وسرد له ذكر في كلام الملاحظ بعد صفحات من هذا الفصل في الدفاع عن السجع . (٣) كلمة الرقاشي تدل على أن النثر الموزون لم يضع عشرة، فالنثر من باب أول لم يضع منه إلا قليل، أي أن معظمه كان موجوداً عند أهل القرن الثاني .

ولنشرها الخطأ وضع فيه صاحب (الريحان والريمان) فيما نقله عنه الفقهشي في صبح الأعشى - ج ١ ص ٢١٠ -
إذ قال : ”إن ما تكلمت به العرب من أهل المد والوبر من جيد المتشور مزجج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يحفظ من المتشور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة“ ثم مضى في أن المتشور هو الخطب وأن الموزون هو الشعر . وإنما كان هذا خطأ لأنه اعتمد على كلمة الرقاشي وأساء فهمها، فإن كلمة الرقاشي كانت جواباً على من سأله كيف يترك الكلام المرسل ويؤثر الكلام المسجوع . ولا ننسى أن المتشور والمزجج من ضربين الترفيقي - فصاحب «الريحان والريمان» على هذا الخطأ مرتين حيث فهم كلام الرقاشي على غير وجهه وحيث ظن أن المتشور والمزجج مقصور على كلام الخطباء .

١٣ — عرفنا إلى الآن أن السجع كان كثيرا فى الجاهلية، وكان يطلب على الشعر فى عصر النبوة، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلا فى العصر الأموى، وإن حرص عليه القصاص والخطباء ونقلوا أحاديث الأعراب، فلذلك الآن أنه عاد يسترد قوته فى أواخر القرن الثانى وبدأنا نرى رسائل يكاد يلتم فيها السجع . كقول كلثوم بن عمرو العتاتى فى مخاطبة صديق^(١) :

”أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه فى الجنة — فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نغفها من النجمة : استئاما لزهرتها ، وشفقة على خضرتها ، وأدخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف ، وأشد علينا كلبها ، وغابت قطتها ، وكذبنا غيومها ، وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فأنتجتك وأنا باتجباى إليك شديد الشفقة عليك . مع علمى بأنك موضع الرائد ، وأنت تغطى عين الحاسد . والله أعلم أنى ما أهلك إلا فى حومة الأهل . وأعلم أن الكريم إذا استحيانا إعطاء القليل ، ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ، ولم تظهر همته“ .

والعتاتى لا يقف عند السجع ، بل يكلف أحيانا بالبديع ، وهو أدخل فى الصنعة من السجع ، وأنظر قوله لمالك بن طوق :

”أيها الأمير ! إن عشيرك من أحسن عشرك ، وإن ابن عمك من عمك غيره ، وإن قريبك من قرب منك نفعه ، وإن أحب الناس إليك ، من كان أخفهم ثقلا عليك“^(٢) .

١٤ — فإذا جاء القرن الثالث رأينا السجع يظهر فى الكتابة وفى التأليف ، ورأينا أبا العيلاء مثلا ، يؤلف كتابا فى ذم أحمد بن الخصب يحكى فيه أن جماعة من الفضلاء اجتمعوا فى مجلس وكل منهم يكره أبن الخصب لما كان فيه من القدماء والجهالة والتففل ، فتجادبوا أطراف الملح فى ذمه فقال أحدهم — وهنا يبدأ الشاهد — : كان جهله غامرا لعقله ، وسفهة قاهرا لحلمه . وقال آخر : لو كان دابة لتعاقص فى عنائه ، وحرن فى ميدانه . وقال

(١) الأملال ج ٢ ص ١٣٦ . (٢) باقوت ج ٦ ص ٢١٤ وأنظر (الصناعين) ص ٢٥٢

آخر : كنت اذا وقع لفظه في سمى ، أحسست النقصان في عقلى . وقال بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بما لا يصيب ، ولو نطق لنطق بَنوك عجيب ^(١) .
وأظهر من هذا في إقامة الشاهد قول ابن المعتز يمدح سر من رأى ويصف خرابها ويذم بغداد :

” كتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها : فشاهد اليأس فيها ينطق
وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكان عمراتها يطوى وخرابها ينشر ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما
يجب فيها حق جوار ، فما لها نصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، على أنها وإن
جفت معشوقة السكنى ، رغبة المئوى ، كوكبا يقظان ، وجوها عربان ، وحصباءها جواهر ،
ونسيمها معطر ، وترابها أذفر ، ويومها غداة وليلها بحر ، وطعامها هنىء ، وشرابها مرءى ،
لا تكبدكم الوسخة السماء ، الومدة المساء والهواء ، جوها غيار ، وأرضها خبار ، وماؤها طين ،
وترابها سرجين ، وحيطانها نزوز ، وتشربنها تموز ، فكم في شمسها من محترق ، وفي ظلها من
غرق ، ضيقة الديار ، وسيئة الجوار ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سياب ، وسائلهم محروم ، والمهم
مكتوم : لا يجوز إغافه ، ولا يحمل خناقه . حشوشهم مسابل ، وطرقهم مزابيل ، وحيطانهم
أخصاص ، وبيوتهم أففاف ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج
البؤس بالنعيم ^(٢) .

ولابن المعتز من كلمة ثانية يثلب عليها السجع والأكزدواج :

” لا يزال الاخوان يسافرون في المودة حتى يلبغوا الشقة ، فاذا بلغوا ألقوا عصا التسيار ،
وأطامت بهم الدار ، وأقبلت وفود النباح ، وأمنت خبايا الضائر ، فخلوا عقد التحفظ ،
وزعوا ملابس الخلق “ .

وقال من كلمة ثالثة :

” سار في جيوش عليهم أودية السيوف ، وأقصه الحديد ، وكان رماحهم قرون الوعول ،

وكان دروعهم زبد السيول ، على خيل تاكل الأرض بجوافرها ، وتمتد بالفتح سرادقها ، قد نشرت في وجوهها غرر كأنها صحائف الرق ، وأمسكها تحجيل كأنه أسورة الجبين ، وقطعت عذرا كأنها الشنف ، شتائف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليهم وقار الصبر وهبت معهم ريح النصر^(١) .

وفي هذه الشواهد الثلاثة لكاتب واحد ما يدل على أن التزام السجع لم يثقل غلبة مطلقة ، كما سنرى عند تلخيص القرن الرابع ، وإنما هي طلائع لهجوم السجع نراها عند تلخيص القرن الثالث من حين إلى حين ، والفنون الأدبية لا تتخلق مرة واحدة ، أو لا تبعث مرة واحدة ، ولكنها تأخذ في الظهور والانتشار على نحو ما فعل تباشير الصباح .

١٥ — ومن أظهر الدلائل على ذبوع بدعة السجع في القرن الثالث ما رأيناه من حرص ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة في كتاب الزهرة ، وفي هذا أصدق شاهد على أن السجع عاد فنا يؤلف ويستطاب . وإلى القارئ نماذج من تلك العناوين :

” من كثرت لحظاته ، دامت حسراته — العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهم أمير — من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه — ليس بليبي ، من لم يصف ما به لطيب — إذا سمع الظفر ، وقعت الغير — التذلل للحيب ، من شيم الأديب — من طال سروده ، قصرت شهوره — من كان ظريفا ، فليكن عفيفا — سوء الظن ، من شدة الضن — من منع من كثير الوصال ، قبح بقليل النوال — بعد القلوب على قرب المزار ، أشد من بعد الديار — من الديار — ما عتب من اغتفر ، ولا أذنب من اعتذر — إذا ظهر القدر ، سهل الهجر — من راحه الفراق ، ملكه الاشتياق — ما خلق الفراق ، إلا لتحذيب العشاق — من غاب قريته ، كثر حنينه — من قدم هواه ، قوى أساه ” .

ورأى في هذا الشاهد مقنعا لمن يتوهمون أن التزام السجع نشأ فجأة في القرن الرابع ، ففى هذا الشاهد وحده دليل على أن من الممكن أن نرى كتابا مسجوعا لرجل من كتاب القرن

الثالث بدون أن يكون في ذلك ما يحملنا على زحزحته إلى خطية القرن الرابع؛ كما فعل بعض الناس^(١).

ولنقيد هنا أن السجع في عناوين فصول الكتاب الذي شرعه ابن داود — وقد يكون سبق إليه — هو أصل السجع في عناوين الكتب، وهو فن يجده المطالع في المصور التالية، حتى لنجد عهداً بأكلها يطرد فيها السجع في العناوين. ومن أغرب ما رأيته أن كتاب (من غاب عنه المطرب) للتمالي كتب كاتبه على أصله ما نصه :

”كان ينبغي المؤلف رحم الله أن يلحق اسم هذا الكتاب بلفظة وهو أن يقول : كتاب العرب، فيمن غاب عنه المطرب“.

وكانت عناوين الرسائل الخاصة توضع أحياناً مسجوعة، ومن أقربها إلى الفكاهة هذا العنوان :

”إلى المخالف الشاق، السيئ الأخلاق، الظاهر النفاق، محمد بن إسحاق“^(٢).

وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر مع ما أفرطنا في الدعوة إلى ترك السجع : فلا مبر شكيب أرسلان كتاب حديث جداً نشره أولاً في جريدة الشورى واسمه :

”الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف“^(٣).

١٦ — وقد حذا حذو ابن داود في جميع فصول الكتاب مؤلف آخر عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وعاش صدراً من القرن الرابع وهو محمد بن أحمد بن إسحاق المعروف بالوشاء، وإلى القارئ نماذج من مجيئه في عناوين الفصول :

(١) جاء في كتاب (خصي الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ما نصه : ”نحن نعلم أن هذا العصر — عصر الملاحظة — لم يتكلف فيه سجع، ولم توف فيه كتب مسجوعة كلها، وإن تكلف فيه سجع فقررة أو فقرتان، أما كتاب كه سجع فهذا ما لا تفره في هذا العصر“ راجع ص ٢٢٦ ج ١

ودراسنا لأطوار السجع نقضنا بأن حكم الأستاذ غير صحيح، وأنه لا مانع أن توجد في القرن الثالث مؤلفات مسجوعة، لأن السجع بدأ يكثر في هذا القرن حتى في لغة التأليف كما في الفقرات التي قلنا هنا عن أبي العلاء، ولأن القرن الرابع كثرت فيه المؤلفات المسجوعة ثم شاعت بدعة السجع في التأليف في القرن الخامس. ومن المقول أن يكون لطفان السجع في التأليف بواكير ظهرت في القرن الثالث. (٢) ياغوت ص ٢٥٢ ج ٦ (٣) وأظرف من هذا ما يصنع المستشرقون في عناوين ما يطبعون من المصنفات : فقد سمي طرول كتابه في فهرس الألفاظ القرآنية :

”تجويد القران، في أطراف القرآن“

”باب النهي عن مازحة الأخلاء، والنهي عن مفاكهة الأوثاء — باب الحث على محبة الاخوان، والإغراء على مودة الخللان، والرغبة في أهل الصلاح والإيمان — باب ما جاء في قبح خلف المواعيد، وما يلحق صاحبه من اللوم والتفنيذ — باب الحث على كثبان السر، والترغيب في حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر — باب ما سئل عنه أهل الصدق، من تحام خلات العشق — باب صفة ذم القيان، وغزو حيلتين في الفتیان — باب زى الظلوف، في التكلل والتمال والخلفاء — باب زهم المخصوص، في الخلوام والفصوص^(١) — “ . . .
والقارئ يرى هذا السجع في المتناوين أقل جودة من جميع ابن داود .

وأهم من هذا وأدل على الفرض ما رأينا من إيتار هذا المؤلف للسجع في كثير من مواد كتاب ”الموشى“ وفي هذا دليل واضح على أن السجع دخل في لغة التأليف عند كتاب القرن الثالث . وانظر قوله في وصف الأديب :

”خفيع على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يرسله في خرقه، وأن ينطق بحلم، وينصت بحلم، ولا يسجل في الجواب، ولا يحجم على الخطاب، وإن رأى أحدا هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والفاط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم ينظر فيما لا يفهم، فانه ربما أخرجه ذلك الى الاقتطاع والاضطراب، وكان فيه قصه عند ذوى الألباب“^(٢) .

وحديثنا هذا المؤلف عما كان ينقش على الخلوام والفصوص فرأيناه أجماعا في أجماع !

لما كان ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم :

”الفنائة، خير من الضراعة — التقل، خير من التذل — السلامة، خير من الندامة —
بادر الفرصة، قبل أن تكون النصبة — الحرب، قبل الطلب — الفرار، قبل الحصار —
الرجوع، قبل الوقوع“^(٣) — “ .

ومما كان ينقشه أهل الهوى على الفصوص :

”الحين، خير من البين — القبر، أفسح من الحجر — الموت، خير من الفوت —
كأس الحجر، أمر من الصبر — طول الجفاء، يكدر الصفاء — آفة الحبيب، نظر الرقيب —
الهوى، ثوب الضنى — ذهب الفراق، بحيلة المشاق“^(١).

فهذا ”الجو“ من الكلف بالسجع في الرسائل والمؤلفات وأحاديث الناس كان تمهيدا لما
سنراه من التزام السجع في القرن الرابع . ولا ننس أن أكثر ما كان يكتب في الغزل والوصف
والهجاء وقع في الأكثر مسجوعا، كأن السجع هو الفن الملائم للوضوعات التي كانت في الأصل
بما يتخلل عنه الشعراء، والسجع فيه خواص من الشعر، أظهرها الوزن والثقفة، وإن كان
يحتاج إلى رياضة نفسية تبعد بعض البعد عن الرياضة التي يوجبها القريض .

ولا ينبغي أن نستبعد — كما استبعد الأستاذ أحمد أمين — أن توجد مؤلفات مسجوعة
في القرن الثالث، فإن عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار، ويراه ضربا
من التكلف المحقوت، ومع هذا وجدت في عصرنا مؤلفات مسجوعة مثل (صهاريج اللؤلؤ)
و (حديث عيسى بن هشام) وأبواب من (ليالى سطح) ولا يزال عندنا كتاب مطبوعون على
السجع، لا يتحاملونه إلا كارهين، ليسا يروا الذوق الحديث . ومن هذا يتبين أن الصبغة الفنية
التي تغلب في بعض المصور لا تسود سيادة مطلقة وإنما تعيش بجانبها مذاهب تناقضها بعض
المنافضة وترفع رأسها في غير خوف ولا إشفاق . ولولا ما صنعت الصحافة في رياضة الكتاب
المعاصرين على تجنب السجع والطباق والجناس لبقيت من البديع فنون تسيطر على أكثر الكتاب.

١٧ — ولناخذ في محاولة أخرى جزيلة النفع، وهي درس آراء علماء البيان الذين
تكلموا عن السجع، ففي كلامهم تحديد لأهمية السجع في البلاغة العربية . ولنبدأ بالملاحظة،
وهو كاتب لا يسجع إلا قليلا، ولكنه يرى السجع من خصائص لغة العرب . وأنظر قوله
في الرد على الشعوبية :

”نحن — أبقاك الله ! — إذا آدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المشور والأجتماع، ومن المزدوج وما لا يزوج^(١)، فعنا العلم على أن ذلك لم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرواق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في السير والتبذ القليل“^(٢).

وزاء يخص الأجتماع بأبواب من كتابه (البيان والتبيين) فيتخير من بدائنها فرائد بعضها تليد وبعضها طريف، فيقول :

قال عمر بن ذر : (واقه المستمان على السنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخاف) ولما مدح عتية بن مرداس عبد الله بن عباس قال : (لا أعطى من يعصى الرحمن، ويطيع الشيطان، ويقول البهتان) وفي الحديث المأثور : (يقول العبد : مالي ! وأمالك من مالك ما أكلت فأفريت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فألبيت) ووصف أعرابي رجلا فقال : (صغير القدر، قصير الشبر، ضيق الصدر، لثيم النجر، عظيم الكبر، كثير الفخر) وسأل بعض الأمراء رسولا قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : (ماؤها وشل، ولصها بطل، وتمرها دقل، إن كثرا لجند بها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا) ونظر رجل من العباد إلى باب بعض الملوك فقال : (باب جديد، وهوت عتيد، وزرع شديد، وسفر بعيد) وقيل لبعض العرب : أى شيء تمنى وأى شيء أحب إليك ؟ فقال : (أواء منشور، وإجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!) وقيل لآخر — وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أمر بقتله — :

(١) المزدوج في كلام الجاحظ باب من السجع فإنا زناه في كتاب البيان بمقد بابا لزودج الكلام — ص ٥٨ و ٩٥ ج ٢ — يستشهد فيه بأمثال هذه الكلمات : ” اللهم عليه الحساب والكاتب، ووه الذاب “ وقال رجل من بني أسد لشيخ مات ابنه : ” أسير، أيا أمانة، فانه فرط أفرطه، وخير قدومه، وذنرا أقرته “ فقال بجيا له : ” وقد دفنته، وتكل تميلك، وغيب وندته “ وكان مالك بن الأتطل قد بشه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق فسأله أبوه عنها فقال : ” جرير يترف من بحر، والفرزدق يفتح من صخر “.

وسرى أن علماء البديع لا يشترطون القافية في الازدواج، وبها يتم السجع، وإنما يشترطون أن تنفق الكلمات في الوزن مثل ” المستقيم “ و ” المستين “ . (٢) ص ١٣ ج ٣ من البيان والتبيين .

(٣) البحر : الأمل . (٤) القتل : أردأ البحر .

أجزعت من الموت ؟ قال : (إن أجزع فقد أرى كفتا منشورا ، وسيفا مشهورا ، وقبرا محفورا)^(١) .

وعقد الجاحظ فصلا آخر للأصابع جاء فيه :

ومن الأصابع قول أيوب بن القُرَيْبَةِ وقد كان دعي للكلام فحس عليه القول : (قد طال السم ، وسقط القمر ، وأشد المطر ، فإذا ينتظر ؟) فأجابه قبي من عبد القيس : (قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق^(٢) ، فليطلق^(٣) من نطق) .

ولم يقف الجاحظ عند رواية الجيد من الأصابع ؛ بل أضاف الى ذلك الدفاع عنها ومناقشة من كرهها ، فحدث أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل : فقد قيل للذي قال : " يا رسول الله ، أريت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يُطل " فقال رسول الله " أصبح كسجع الجاهلية " فقال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه بأس . ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق تشادق في كلامه .^(٤)

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعرا ، قليلا كان ذلك أم كثيرا ، وسمعوا وأستشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحمل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل^(٥) .

قال الجاحظ : وكان الذي كره الأصابع بينها — وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكون إليهم ويدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم ريثا من الجن مثل (حاذي جهينة) ومثل (شق) و (سطيج) و (عزري سلمة) وأشباههم كانوا يتكهنون ويمكسون بالأصابع ، كقوله (والأرض والسما ، والمقاب والصقما^(٦) ، واقمة ببقما^(٧) ، لقد نهر المجذ بنى العشراء ، للجد والسناء) وهذا الباب كثير . ألا ترى

(١) البيان ج ١ ص ١٦٣

(٢) اللثق : اللقي .

(٣) البيان ج ١ ص ١٥٧

(٤) البقاء : السة الجدية .

(٥) الصقما : القمس .

(٦) البيان ج ١ ص ١٥٨

أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس وفيل بن عبد العزى كانوا يحكون وينفرون بالأمم وكذلك ربيعة بن حذار . قالوا : فوقع النقي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم .

ثم قال الجاحظ : وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أمم كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا . وكان الفضل بن عيسى الرقاشي يجمعا في قصصه وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبي عياش يأتون مجلسه^(١) .

١٨ - ونستخلص من كلام الجاحظ ثلاث حقائق : الأولى أن السجع عنصر كريم في بلاغة العرب ، الثانية أن ناسا من أهل القرن الأول والثاني كرهوا السجع لأنه كان يذكر بأساليب الكهان ، الثالثة أن جهود الخطباء والقصاص والوعاظ كان يسجع ، وأن الخلفاء لم ينكروا على أحد أن يتكلم بين أيديهم بكلام مسجوع .

ومن الواضح أن شبهة من كرهوا السجع ساقطة : لأن القرآن يصح . وما نظن الرسول تجنب أساليب الكهان ، فإن الكهان لم يخلقوا السجع ، وإنما كان حلية قديمة في اللغة العربية وكانت قوية الصلاحية لمن يخاطب القلوب . وكذلك أنتفع بها القسيسون والكهان في الجاهلية ، وقبلها القرآن ، وآثرها النبي وأصحابه ، وظلت أثيرة لدى خطباء المساجد إلى اليوم . وهي في الواقع أساس البلاغة عند رجال الدين .

١٩ - ومن الباحثين الذين فصلوا في مسألة السجع الخفاسجي في كتابه " سر الفصاحة " وقد تكلم عن السجع في غير موضع ، وحدّثنا " أن السجع الواقع موقعه كثير لمن طلبه " ^(٢) ونقل نموذجاً من سجع الأحنف بن قيس ، وخطأ الرامني في قوله إن السجع عيب ^(٣) والفواصل بلاغة على الإطلاق ، لأن الرامني إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للنقي وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له وهو

(١) البيان ج ١ ص ١٥٩ (٢) كتاب مخطوط من نسخة ابن الكلب المصرية رقم ٤٣٩ و ٤٤٢ بلاغة .

(٣) سر الفصاحة ص ٩٢

مقصود متكلف فذلك عيب، والفوصل مثله . وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف . وقال :

”أظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم . فأما الحقيقة فما ذكرناه : لأنه لا فرق بين مشاركة القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً وعربياً ومؤلفاً ... ولا فرق بين الفواصل التي تماثل حروفها في المقاطع وبين السجع . فإن قال قائل : إذا كان عندكم أن السجع محمود فهلاً ورد القرآن كله مسجوعاً ؟ وما الوجه في ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع ؟ قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم وكان الفصحى من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع سيما فيما يطول من الكلام . فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم^(١) .“

وأشار الخفاجي إلى جماعة من زعماء الكتاب في القرن الثاني والثالث فينب أن السجع فيما وقف عليه من كلامهم قليل . ”لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في اليسير من المواضع“ .

ومعنى هذا أن الذين لم يلتزموا السجع من كتاب القرن الثاني والثالث كانوا يحرصون على ألوان من الفن في كتاباتهم . وتلك الألوان الفنية ظاهرة كل الظهور لمن يقرأ آثار أولئك الكتاب .

ولنضيف إلى ما أسلفناه من رأى الخفاجي أنه وإن كان يميل إلى إشار السجع حين يوجبه المعنى والفرض فإنه يكره أن تجمل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد : ”لأن في ذلك تموضاً للتكرار وميلاً إلى التكلف^(١)“ .

٢٠ - ولنوجه نظر القارئ الى حقيقتين في كلام الخفاجي : أولاها حكمة بأن القرآن " أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم " فان لهذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة إذ كانت تؤيد رأينا في أن القرآن من جنس كلام العرب وعلى أساليبهم ، ولا يتنازع إلا بقسوة المعنى وقوة الروح . وثانيتهما حكمة بأن القصص من كلام العرب لا يكون كله مسجوعا لما في ذلك من أمارات التكلف ، فقد رأينا شواهد ذلك في كلام الرسول وخطب الصحابة والخطباء والقواد والوزراء . وأكثر ما رأيناه يخرط في سلك قول قطري بن النجاء في وصف الدنيا :

" من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ، ويطيل حزنه ، ويكسر عينه . كم واثق بها قد بلغت ، وذى حلم تلبه اليها قد صرخته ، وذى أحتيال فيها قد خدعته وكم ذى أبهة فيها قد صبرته حقيرا ، وذى نخوة قد رذته ذليلا ، ومن ذى تاج قد كبته للدين والقيم ! سلطانها دول ، وعيشها رقي ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سمام ، وأسبابها رمام ، وقطانها سلح ، حيا يمرض موت ، ومحييها يمرض سقم ، ومينمها يمرض اهتضام ، ملكها مسلوب ، وعززها مغلوب ، وسلمها منكوب ، وجارها محروب ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل ^(١) " .

وقول خطيب من آل صوحان يمارض عبد الملك وقد أغلظ القول :

" مهلا مهلا يا بني مروان ! تأمرون ولا تأمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتمظنون ولا تنظنون ! ! أفقتدى بسيرتك في أنفسكم ، أم تطيع أمركم بالسكتم ؟ فان قلم : اقتدوا بسيرتنا . فأنى وكيف ؟ وما الهبة وما المصير الى الله ؟ أفقتدى بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة ، الذين اغتصوا مال الله دولا ، وعبيد خولا ؟ وإن قلم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالتهم ؟ وإن قلم : خفوا الحكمة من حيث وجدتموها ، وأقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فسلام وليناكم أمرنا ، وحكمناكم في دعاتنا وأموالنا ؟ أما علمت أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح

بالعظاات؟ فخلوا عنها، وأطلقوا عقابها، وخلوا سبيلها، يتدب إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتهم في البسلاء، ومن قتموم في كل واد، بل تثبت في أيديكم لأقتضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المهنة. إن لكل قائم قدرا لا يسدوه، ويوما لا يخطوه، وكابا بعده يتلوه“.

ففي هذا الشاهد والذي قبله سجع مقبول جدا، ولكنه لا يلزم، وإنما يريد من فقرة إلى فقرة بلا قاق ولا التواء. وقد يكون الشاهد الثاني من وضع بعض العلويين: لأن راويه يذكر أن الخطيب “الثمس فلم يوجد“ ومن السير أن يحفظ كلام ألفاء صاحبه في فورة غضب وفي مقارعة ملك ثم لاذ بالفرار. ولكن القارئ مرجو أن يتذكر ما أسلفناه من قبل من أن الرواة كانوا — حين يضمنون كلاما — يجهلون في محاكاة لغة المصور التي ينسبون إليها ما يضمنون من خطب وأحاديث^(١).

٢١ — ومن دافعوا عن السجع أبو هلال العسكري في كتاب (الصناعتين) ويمتاز أبو هلال في كتابه بالحرص على رد أصول المحسنات البديعة إلى القرآن، ومن أمثلة ذلك مارواه من الشواهد في باب (التجنيس) من مثل:

”وأسلمت مع سليمان — فأتم وجهك للدين القيم — ستقلب فيه القلوب والأبصار — والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق — وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض — ثم كل من كل الثمرات“ وعرض أبو هلال للشاهد الذي عرض له الرافضي فيما نقل الجاحظ. ووقف عند قوله عليه السلام ”أجمعا كسجع الكهان“ وعلل الاستدكار بما عرف في سجع الكهان من التكلف. ثم قال: ”ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه

(١) ومن السجع المقبول عند خطباء القرن الأول قول زياد:

”إن للشيطان طيفا، وللإمام سيفا، فن سقمت مريرة، صحت حقوبه، ومن وضعه ذنبه، وضع عليه، ومن لم تسمع العافية، لم تنق عنه الخلة، ومن سبته يادرة لله، سبق يده بسفك دمه، إلى أخذر، ثم لا أنظر، وأحذر، ثم لا أنظر“ صبح الأعشى ص ٢٢٠ ج ١ (٢) ص ٢٥١

سجما لقال : أسيما ؟ ثم سكت . وكيف يذمه ويكرمه وإذا سلم من التكلف وبزى من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه^(١) .

ويمحشا أبو هلال أن النبي كان ربما غير الكلمة عن وجهها للوازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها كقوله : "أعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة" وإنما أراد ؟ مامة . وقوله عليه السلام : "ارجعن مأزورات، غير مأجورات" وإنما أراد : موزورات ، من الوزر، فقال (مأزورات) لمكان (مأجورات) قصدا للتوازن وصحة التسجيع^(٢) .

٢٢ - وشدد أبو هلال في الحرص على الازدواج . وهو فن ظاهر في كلام من لا يقرمون السجع من أقطاب القرن الأول والثاني والثالث، ومن أمثلة الازدواج قول بعضهم : "أصبر على حر اللقاء، ومضض التزال، وشدة المصباح، وملاومة المراس"^(٣) . فلو قال : (على حر الحرب، ومضض المنازلة) لبطل رونق التوازن^(٤) .

(١) ص ٢٠٠ (٢) الموازنة التي غنى بها أبو هلال كانت مما عرض له الحويرى في (درة النواص) وكلام الحويرى هناك أظهر في الدلالة على أن الموازنة فن أصيل في العربية تغير به الكلمات من وضع إلى وضع رغبة في الوزن : فهم يقولون (حدث وقدم) فيضمون الدال من (حدث) لتوازن (قدم) فإذا أفردوها ضحوا الدال، ويقولون "الضدايا والشايبا" إذا فردوا بينها فان أفردوا (الضدايا) ردوها إلى أصلها فقالوا الندورات . ويقولون (هاتى الشيء ومرأتى) فان أفردوا (مرأتى) قالوا أمرأتى . وقالوا : "فعلت به ما ساءه وقاءه" فان أفردوا قالوا (أناه) وقالوا في الشجاع الذى لا يزال مكانه "أهيس أليس" والأصل فى الأهيس الأهوس لاستغفانه من هاس يهوس اذا دق صدولوا به الى الياء ليواضى لفظة (أليس) وفى الحديث من "حننا أوردنا فليقتصر" أى من خدنا أراطلطنا . وكان الأصل أنحننا فأتبع حننا رفا . ويرى فى تصايا على أنه قضى فى القارصة والقامصة والواقصة بالدية، والواقصة هى الموقومة وإنما قال الواقصة للوازنة مع القارصة والقامصة . وأشد الفراء :

هناك أهمية ولاج أوبرية

لجمع باب على أوبة ليزاوج لفظة أخية (راجع درة النواص ص ٣٠ و ٣١ وراجع الشرح ص ٧٩ - ٨٢) والازدواج كثير التفرع فى اللغة العربية وله شواهد عديدة ، فكتف هذه الأمثلة فى الدلالة على ذوق العرب فى هندسة الألفاظ والتأثير . ومن طريف التوافق أن اللغة العامية تسير اللغة الفصحى فى هذا الجواب . سمعت مرة تليدة تقول وهى تملل : "النبح زى السقوط" فقلت "النجاح" الى "النبح" ليوازن "السقوط" وأحسب أن ذلك جرى على لسانها بدون أن قصد إليه ، لأن حاسة الموازنة بين الكلمات تأصلت عند الناطقين بالضاد .

(٣) المصاح : القتال . (٤) ص ٢٠٣

وقد يتفق السجع والازدواج مثل :

”حتى صار تمر يضك تمر يحما، وتمر يضك تمر يحما“ .

فالتعريض والتعريض جميع ، والتصریح والتصحیح جميع آخر : فهو جميع في جميع .

قال أبو هلال : وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع .^(١)

ويحدثنا أبو هلال أن العرب فتنوا بالسجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما في منظوم وبجمعا في جميع ، وهذا النوع من الشعر اسمه ”المرصع“ ومن أمثله :

فتور القيام قطيع الكلا م يفتقر عن ذى غروب خصر

وقول كعب بن زهير :

• هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة •

وقول أوس :

• جُثًا حابرها علما مشافرها •

وقول النمر :

• من صوب ضارية علّت بشادية •

وقول ثابت شرا :

حمال ألوية شهاد أندية هباط أدوية جؤاب آفاق

وقول الأفوه الأزدى :

• سود غداثها بلج عابرها •

وقول عامر بن الطفيل :

ولكنني أحمى حماها ، وأتقى أذاها ، وأرى من رماها بمنكب

وقد أرتقى أبو هلال بالتصریح الى العصر الجاهلي وصدر الإسلام فدلنا على أنه فن قديم

أترع من النثر وأضيف الى الشعر رغبة في وفرة الأتنام والألحان .

٢٣ - ومن أظهر من أهتموا بالكلام عن السجع صاحب (المثل السائر) وهو ينازع عن سبقوه الى الدفاع عن السجع بأنه عاش في عصر كان أهله جميعا يسجعون^(١) . وهو يهتم خصوم السجع بالعجز عن أن يأتوا به "وإلا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم فإنه قد أتى منه بالكثير حتى أنه يؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كمسورة الرحمن ومسورة القمر وغيرها . وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور"^(٢) ثم سرد أمثلة من الآيات المسجوعة . وأنتقل الى الحديث فذكر شواهد من جميع الرسول . ثم تحدث عن نهى النبي عن سجع الكهان بمثل ما تحدث به صاحب الصناعتين ثم قال :

"وأعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء ، والنفس تميل اليه بالطبع ، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ القواصل على حرف واحد ، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا ، وما من أحد منهم ولو شدا شيئا يسيرا من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتي بها في كلام ، بل يبنى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة ، لا غثة ولا باردة . وأعني بقولي غثة وباردة أن صاحبها يصرف نظره الى السجع نفسه من غير نظر الى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ، ولا الى تركيبها وما يشترط له من الحسن ، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكسوف أو ينظم عقدا من الخرف المثلون . وهذا مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا . فاذا صنى الكلام المسجوع من الفتاة والبرد فان وراء ذلك مطلوبا آخر : وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ ، فانه يحىء عند ذلك كظواهر مموءة ، على باطن مشوءة ، ويكون مثله كغمدة من ذهب ، على فصل من خشب"^(٣) .

(١) ولد ابن الأثير سنة ٥٥٨ هـ وتوفي سنة ٦٣٧ هـ وهو نضار بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني . وأبنا.

الأثير ثلاثة : مؤرخ ومحدث وأديب ، وهو صاحب المثل السائر . (٢) المثل السائر ص ١١٤

(٣) المثل السائر ص ١١٦ و ١١٧

وقد اقترح ابن الأثير أن يقال : إذا كان السجع أعلى درجات الكلام فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعا ، وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع وغير المسجوع .
وقال في الجواب : " إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتي كلها مسجوعة .
وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مملك الإيجاز والاختصار . والسجع لا يؤدي في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب " ثم قال : " وههنا وجه آخر هو أقوى من الأول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع مسجواً أبلغ في باب الإيجاز " .

ومنى هذا أن السجع بعض أسرار الإيجاز عند ابن الأثير .

٢٤ — وحديثا في مكان آخر أنه تصفع القرآن فوجدته " لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة " (١) والواقع أن الموازنة كثيرة في القرآن ، مثل : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ فالمستبين والمستقيم على وزن واحد . وكذلك قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضلأ ، ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تجيل عليهم إنما نعد لهم عثا ﴾ . فالعز والضد على وزن واحد ، والأز والعذ على وزن واحد .

٢٥ — وكلام ابن الأثير يؤيد ما آتينا إليه في أثناء هذا الفصل من أن بناء الجملة لم يخرج في جوهره عن السجع طوال القرن الثاني والثالث . والقرن الثالث يسميه صديقا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) وينسب عنه السجع ، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الأرواج ، ومن كلامه في وصف إنك الحاسد :

(١) ص ١١٨ هذا عرض ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة إلى مناقشة من أنكروا السجع على ابن أبي طالب وبين أن كثيرا من كلام الرسول مسجوع ، وعرض لسجع الكهان بكلام قريب مما ذكره الجاحظ والسكري وابن الأثير — وأجيب شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ٤١ و ٤٢ ثم راجع ما كتبه عن الموازنة في ص ٢٧٣ من المعجم الأول . (٢) المثل السائر ص ١٧٠

” وإن كان المحسود عالماً قال مبتدع، ولأبيه متبع، حاطب ليل، وتابع نبيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، وقد أقبل وجوه الناس إليه، وما أحقهم إذ مالوا عليه، فقبّعه الله من عالم ما أعظم بيته، وأقل رعيته، وأساء طعمته، وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع ينزوي ليوحي إليه، ويحج ليقى عليه، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره أبنته، ويعضر الجنائز لتعرف شهرة“ ^(١).

وأنظر قوله في مقدمة الجزء الثاني من البيان والتبيين :

” ولكنا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجملة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحل الدنيا، والتجوز التي لا يضل معها السارى، والمار الذي يرجع إليه الباغي، والحزب الذي كثّر الله به القليل، وأعز به الذليل، وزاد الكثير في عدده، والعز يزى أرغفاع قدره . وهم الذين جلّوا بكلامهم الأبصار العالقة، وشحنوا بمنطقهم الأذهان الكليلة، فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها من سوء عادتها، وشفوها من داء القسوة، وغبّوا الغفلة، ودأبوا من المي الفاضح، ونهجوا الطريق الواضح ... الخ“ .

وهذا يدلنا على أن الجاحظ لا يحمل السجع إلا حين يسوقه أطراد القول في لغة التأليف، ولكنه حين يحتفل بالكاتب يسجع ويزوج، كأن لغة النثر الفني تنتظر ملاكا من السجع والازدواج ^(٢).

٢٦ — وقدامة بن جعفر ^(٣) — من كتاب القرن الرابع — يرى السجع من أوصاف البلاغة، على شرط أن يكون في موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام

(١) معنى هذا أن حضور الجنائز لشهرة كان من عيوب الناس في القرن الثالث . وهو اليوم لا يزال كذلك !!

(٢) لمّا حظ رسائل الإخوانية التزم فيها السجع سجد منها نموذجاً عند الكلام على القول المشهور في الباب الثاني من هذا الكتاب ص ١٥١ ج ١

(٣) أهم قدامة بالكلام من النقد والبلغة وأنت في ذلك (قد لثرت) و (قد لثرت) و (جواهر الألفاظ) ومن أحكامه التي تهت ما قضى به من أن المشور (ليس يخلو من أن يكون خطابة أو ترسلاً أو احتجاجاً أو حديثاً) ص ٨٢ من (قد لثرت) . وهذا يرد ما أشرت إليه من قبل في هامش صفحة ٢٣

لا في جميعه " فان السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومتألفاته فذلك جهلٌ من فاعله ، وعيٌ من قائله " وتحدث قدامة عما كره الرسول من السجع بمثل ما تحدث الجاحظ وأبو هلال وآبن الأثير ثم قال : " وإنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان . وأما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافي مختلفة متكلفة ، ولا متحملة مستكرهة ، وكان ذلك على سجيبة الانسان وطبعه ، فهو غير منكرو ولا مكروه ، بل قد أتى في الحديث : " يقول العبد مالى مالى ، وما له من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو ليس فأبلى ، أو أعطى فأمضى " .

ثم عرض لأهل عصره ، وهم رجال القرن الرابع ، فقال :

ومما تكلم به أهل هذا المصرف أتى بالسجع فيه محمودا ، ومن الاستكراه بعيدا ، قوله :
 " والحمد لله الذى ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد الى الاحسان إلى " ،
 ولم يحاضك أحد في الانعام على " ، ولم تنعم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تتلقى المنن وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل فداى مضاعا حتى رعيته ، وحتى مبخوسا حتى قضيته ،
 ورفعت من ناظرى بعد تخفاضه ، وبسطت من أملى بعد آقباضه ، فليس اعتد يدا إلا لك ،
 ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رضىتى إلا إليك ، ولا أنكل فى أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صنتنى عن شكر من سواك " .

ثم قال :

ومما يبين هذا مما وضع في غير موضعه قول صديق لنا في فصل من رقعة له :
 " ورزقنى عدلك ، وصرف عني خذلك " . وقوله أيضا : " ولقد جلت عندى بآبن فلان المصيبة ، وعظمت الشعية " . وقول آخر في صدر رقعة : " أطال الله بقاءك لى خصيصا ، ولأودائك فيصوبا " — الى أن قال :

ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالهما في كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم والائمة

المهديون قد استعملوها ولزموا سيلهما وسلكوا طريقهما . فأما ولستا واجدين فيما في أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يقتدى بهم ، ويحتذى بمنهجهم ممن قد ثبت في هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها ، ولا من الخطابة إلا التحل باسمها ^(١) .

٢٧ — وقد لاحظنا أن الكتاب كانوا يسجعون ويأوجون حين يترجمون ، لأن الترجمة القوية لونها من الإنشاء توجب ما يوجب الكلام المبتكر من قوة الرصف ، والتألق في الصوغ . وقد حدثوا أنه قيل لبزرجهر : أى الاكتساب أفضل ؟ فقال : (العلم والأدب كثران لا ينفدان ، وسراجان لا يطفآن ، وحلتان لا تبيان ، من نالها أصاب الرشد ، وعرف طريق المعاد ، وعاش رفيقا بين العباد) ^(٢) وقيل لكسرى : أى الملوك أفضل ؟ فأجاب : " الذى إذا حاورته وجدته عليا ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شكى إليه وجد رحيما " ^(٣) .

فهذه فقر نقلت عن الفارسية وروى فيها السجع ، وسرى في الجزء الثانى من هذا الكتاب فقرات منقولة عن اليونانية وروى فيها السجع ، ونقلت صحائف من لغات أخرى وروى فيها السجع ، من ذلك ما حدث ابن قتيبة بسنده أن يوسف عليه السلام لما لبث في السجن سبع سنين أرسل الله عز وجل إليه جبريل عليه السلام بالبخارة فوجهه فقال له : أتعرفنى أيها الصديق ؟ قال له يوسف : أرى صورة طاهرة وروحا طيبا لا يشبه أرواح الخاطئين . قال جبريل : أنا الروح الأمين ، ورسول رب العالمين . قال يوسف : فما أدخلك مداخل المذنبين ، وأنت سيد المرسلين ، ورأس المقربين ؟ قال جبريل : أو لم تعلم أيها الصديق أن الله يظهر السيوت بظهر النبيين ، وأن البقعة التى يحملون بها هى أطهر الأرضين ،

(١) راجع ص ٩٣ — ٩٥ من كتاب (نقد النثر) .

(٢) زهر الآداب ص ١٨٩ ج ٢ (٣) ص ١١٧ و ١١٨

وأنه قد طهر بك السجع وما حوله يا ابن الطاهرين! قال يوسف: كيف تشبهني بالصالحين وتسميني بأسماء الصديقين، وتسدني مع آبائي المخلصين، وأنا أسير بين هؤلاء المجرمين؟ قال جبريل: لم يكلم قلبك الجزع، ولم يغير خلقك البلاء، ولم يتعاطمك السجع، ولم تطأ فراش سيدك، ولم ينسك بلاء الدنيا بلاء الآخرة، ولم تنسك نفسك أباك، ولا أبوك ربك، وهذا الزمان الذي يفك الله به عتوك، ويعتق به رقلك، ويبين للناس فيه حكتك، ويصدق رؤياك وينصفك ممن ظلمك، ويجمع اليك أحبتك^(١).

ولسنا نريد أن نتثبت أن كل ما ترجم روعى فيه السجع والازدواج، لا، ولكنا نقول إن فريقاً من المترجمين جرى على الطبع المكتسب بطول الألفة في مذاهب الإنشاء فسجع وزواج فيما نقل إلى العربية من اللغات الأجنبية. وفي هذا تأييد لما حاولنا إثباته في هذا الفصل من غلبة السجع والازدواج على موائد المنشئين.

٢٨ — أما بعد فقد أسهبنا في هذا الفصل إسهاباً نخشى أن ينتهي إلى الإملال. ولكنه فصل ضروري جداً في بناء هذا الكتاب. ذلك بأن السجع صار خصيصة أساسية عند كتاب القرن الرابع، ومن الناس من ظن أنه كان كذلك لأن كتاب ذلك العهد أسرفوا في آتخاب المحسنات اللفظية من اللغة الفارسية، فأردنا أن نتثبت أن السجع كان حلية أصيلة في اللغة العربية، وأنه أخذ أطواراً مختلفة حتى وصل إلى القرن الرابع.

وسنرى بعد قليل أن السرف في إقبال كتاب القرن الرابع على السجع يرجع إلى حرصهم على آتخاب طرائق الشعراء في المعاني والأساليب.

ونعذ القارئ أن يتوهم أننا كتبنا هذا الفصل للدعوة إلى إيتار السجع. لا، فنحن نرى السجع قيذا يعطل حركة الفكر والعقل في كثير من الأحيان، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغة مدنية تعبر عن جميع الشئون في طلاقة وحرية، بحيث لا يصدها سجع، ولا يحدها ازدواج. وسيرى المتأمل حين يجاوز القرن الرابع — الذي سلم فيه السجع من أضرار التكلف

المقوت — أن لغة الرسائل والتأليف وقعت تحت نير من السجع ثقیل، حتى وجدنا السجع يلتمز في موضوعات بعيدة عن الأدب . وكان الأدب هو الذي يوحى بالتأنيق والافتنان .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر قد آنصروا انصرافا تاما عن السجع فان ذلك منشؤه أنهم ملأوا هذا الزحف، وضحوا منه، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الفطر بالحلية الجوهرية : حلية المعنى الرائع والغرض النبيل .

ولا ينس القارئ أننا تؤدي في هذه الدراسة مهمة المؤرخ : فليس من شأننا أن نقبح أو نحسن فنا من طرائق البيان، وإنما نرمز المجهود الأدبية رسما واضحاً قد يظهر عليه التشيع في بعض الأحيان، وما بنا أن نتشيع، ولكن الحرص على إلتقان الصورة التاريخية قد يظهرنا متشيعين من حيث لا نريد .

ونحن في العصر الحاضر نهرب من السجع والمزاوجة عامدين، حتى في المواطن التي يفرض فيها المعنى أن نسجع أو نزواج، وليس خطأنا في هذا بأقل من خطأ من يحنون على المعنى بالتزام السجع . ولكل عصر آفته : فالتأنيق المغرّب آفة ، والتحرر المسرف آفة ، والصواب أن تكون السيادة للمعنى وأن يكون له السلطان المطلق في فرض ما توجبه الألوان النفسية من مختلف الصور والأساليب ^(١) .

(١) من أجل ما قرأنا في الدفاع عن السجع قول ابن أبي الحديد في الرد على من يرون السجع باسا من التكلف : « المذموم هو التكلف الذي يظهر مما يجته وتقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا يذم فيه من تكلف إثابة الوزن ، وليس لطاعن أن يعلن فيه بذلك » راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢ ج ١ وفي هذا المعنى قال شوقي طيب الله ثراه :

« كل موضع لشعر الرصين يحل السجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فأنما يوضع السجع النافع فيما يصلح مواضع لشعر الرصين : من حكمة تتجرج ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ووصفت به القصائد من فقر البيان المحض . وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعدوه عيبا فنيا ، وظلوا الجليل المنفرد بالقيح المردول منه يوضع عنوانا لكاتب ، أو دلالة على باب ، أو حشوا في رسائل السياسة ، أو زخرفة في المقالات الطبية . فإناشء العربية إن لتكم سرية مثرية ولن يصيرها عائب ينكر حلالة القوافل في الكتاب الكريم ، ولا جميع الهام في الحديث الشريف ، ولا كل ما عورخه من كلام السلف الصالح . » (أسواق الذهب ص ١٠٩) .

الباب الثاني

مَخَصَّاتُ الصَّلَاةِ وَالْفَقْرِ
وَالْفَرْزِ وَالْبَرِّ

١ - خصائص ثرية

١ - نريد أن نبين في هذا الباب بعض خصائص الثرائف في القرن الرابع، ونحب مع هذا أن نوجه نظر القارئ إلى أنه من المتعذر أن نطمئن إلى أن هنالك خصائص يتفرد بها ذلك العصر، فقد رأى القارئ كيف تطورت الفنون الثرية من عهد النبوة إلى العهد الذي ندرسه في هذا الكتاب، ورأى كذلك أننا موقنون بأن الثرائف لمهد النبوة نفسه لم يخلق خلقاً، وإنما نشأ وتطور في عدة أجيال .

٢ - وكل ما يمكن الاطمئنان إليه في تقدير الخصائص الثرية لهذا العهد هو بروز العناصر الفنية التي ظهرت تباشيرها منذ القرن الأول، فليس في القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدة، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتاب القرن الأول والثاني والثالث، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والحوارزمي وبديع الزمان .

٣ - وأولى هذه الخصائص إظهار البديع، فقد كان الكتاب السابقون يميلون إلى المحسنات البديعية ولكن في غير إسراف، فلما جاء كتاب القرن الرابع قصدوا إليها قصداً، وأسرفوا في توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والمطابقة والجناس .

وآية ذلك أن مؤلفي البلاغة في القرن الثالث ما كانوا يحرصون كل الحرص على المحسنات اللفظية، بل كانوا يأمون بها إلى السامة خفيفة، فلما جاء مؤلفو البلاغة في القرن الرابع حرصوا عليها أشد الحرص حتى أستطاع أحدهم أن يقول :

وقد ألف للألفاظ غير كتاب فقيل : "أصلح الفاسد، وضم النشر، وسد الثلم، وأما الكلم" فوزن أصلح الفاسد مخالف لوزن ضم النشر، وكذلك سد وأما . ولو قيل : "أصلح

الفاسد، وألف الشارد، وأصلح ما فسد، وقوم الأود^(١) أو قيل "صلح فاسده، ورجع شارده"
لكان في استقامة الوزن واتساق السجع عوض من تباين اللفظ وتوافي المعنى والسجع^(٢).

٤ — ويمكن تحديد ما أخص به النثر في القرن الرابع بالصفات الآتية :

أولاً — التزام السجع في جميع الرسائل، حتى الرسائل المطولة التي يراد بها تعيد مناظرة
أو شرح مسألة كالذي وقع فيما كتبه بديع الزمان الهمداني عن المناظرة التي كانت بينه وبين
أبي بكر الخوارزمي^(٣)، وكالرسالة التي كتبها الخوارزمي إلى الشيعة بنيسابور^(٤). وكان الكتاب قبل
ذلك يسجعون، ولكنهم لم يكونوا يلتزمون السجع في جميع الموضوعات ، ومن كُتب هذا
العصر من جانب التزام السجع كالشريف الرضي وأبي حيان التوحيدي ، ولكنهم كانوا
يسودون إليه من حين إلى حين .

ثانياً — الحرص على تضمين الرسائل أطايب الشعر وغنار الأمثال . فمن الكتاب من
يبدأ رسالته بيت أو بيتين يتقدم بهما كلامه كما كان يفتح الأولون رسائلهم بحمد الله والصلاة
على نبيه، ومنهم من يختتم الرسائل بالشعر كما كان يختتمها المتقدمون بعبارة « والسلام على من
اتبع الهدى » أو « والسلام عليكم ورحمة الله » وهم مع ذلك يخفرون من الأشعار والأمثال
ما يحلون به تضاعيف الرسائل ، يذكرون اسم الشاعر تارة وينقلونه أخرى ، والخوارزمي
يحرص على تعيين اسم الشاعر وإن كان لا يلتزم ذلك .

وفي رسائل البديع الهمداني رسالة رسمها بالشعر لم أجد لها نظيراً عند غيره إذ يقول :

« أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه :

” كما طرب النشوان مالت به النجر “

ومن الارتياح للقائه :

” كما أنتفض المصفور بلله القطر “

(١) راجع مقدمة جواهر الألفاظ لقدادة بن جعفر . (٢) راجع رسائل بديع الزمان ص ٣٨

(٣) راجع رسائل الخوارزمي ص ١٢٥

ومن الأمتراج بولائه :

”كما التفت الصبأ والبارد العذب“

ومن الأمتراج بمرآه :

”كما أهرتحت البارح الفصن الرطب“^(١)

وهذا النمط جميل ، ويدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ ، ولكن الكاتب لم يلتزمه بالرغم من إسرارهم في الصنعة لأنه متعب يضطر الكاتب الى الإكثار من البحث عن الشطرات المناسبة ، خصوصا اذا راعى القافية كما زواج البديع بين الرأه والباء .

ثالثا - ألف كتاب القرن الرابع الكتابة في بعض الموضوعات التي كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والمجاء والفخر والوصف ، وذلك لأنهم نقلوا الى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال . والنثر اذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلقه من قيد الوزن والقافية . وكذلك أصبح النثر في القرن الرابع أداة لتفريد الخطوط النفسية ، والملاحظات الفنية ، بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير في قصائد الشعراء الذين سبقهم هؤلاء الكتاب الى تصيد ما يقضى به العقل ، أو يوحى به القلب ، أو يشير اليه الخيال .

ولو بحثنا في الشعر العربي عن قصيدة في المجاء لما وجدنا ما يساوى ما قاله البديع الحمذاني في ذم أحد القضاة :

”وهذا الحيرى رجل سفلة طلب الرياسة بنير تحصيل آلاتها ، وأعجله حصول الأمانة

عن تحمل أدواتها :

والكلب أحسن حالة وهو النهاية في الخساسة

ممن تصدق للزيامة قبل إبان الرياسة

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعلم مقدارها ، والأمانة عند الفاسق ، خفيفة الحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، وتحملها الجهال ، فبيعه الله من

حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلطة والجاه ، يدلى بها الى الحكام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بوفائه من خبيثة الذيل ، وجمال الليل ، ولا كفيل أعز عليه من المتدبل والطبق ، في وقى النسق والفاق ، ولا حكومة أبغض اليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس . ثم الويل للفقير إذا ظلم ، فما يفتنه موقف الحكم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يبحره مجلس القضاء ، إلا بالنار من الرضاء . وأقسم لو أن اليتيم وقع بين أياب الأسود ، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيايات هذا القاضي وأغاريه . وما ظن القاضي يقوم يعملون الأمانة على متونهم ، وياكلون الناس في بطونهم ، حتى تفلظ قَصَراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفالمهم من مال الأيتام ؟ وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك في رجل يصادى الله في الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السميت ، وباطن أصحاب السبت ، فصله الظلم البحت ، وأكله الحرام السحت ؟ وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومغارب لا ينهب مال الله إلا بين المهود والشهود ؟ وما زلت أبغض حال القضاء طبما وجبلة ، حتى أبغضتهم ديناً وملة ، وألغيتهم دربة ، حتى لغيتهم قرابة ، بما شاهدت من هذا الخيرى وقاسيت ، وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت ” .

وهذه الرسالة ليست إلا قصيدة مشورة . وهذا النظم من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع ، وهو أسلوب من أساليب الهجاء يكثر في ترديد همدان .

ومن أغزف ما كتبه رسالته التي بعث بها الى شاب كتب اليه بعد أن عزل عن ولاية حسنة يستميل فزاده ، وهي رسالة مشهورة عارضها كثير من الكتاب ، وأنظر كيف يقول :

« وردت وقعتك — أطلال الله بقاءك! — فأعرتها طرف التحرز، ومددت إليها يد التفزز، وجمعت عنها ذيل التحرز، فلم تند على كبدى، ولم تحظ بناطرى وىدى، وخطبت من مودقى ما لم أجده لك كفوًا، وطلبت من عشرقى ما لم أرك لها رضى، وقلت : هذا الذى رفع عنا أوجافان طرفه، وشال بشعرات أعضه، وتاه بحسن قدّه، وزها بورده، ولم يسقنا من نوّه، ولم نسر بوضوئه . والآن اذ نسخ الدهر آية حسنه، وأقام مائد غصنه، وقتا غرب عجبّه، وكف زهو زهره، وآتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله، واكسفت باله، ومسخت جماله، وغيّرت حاله، وكدرت شرعته، جاء يستقى من جرفنا جرفا، ويفرف من طيننا غرفا، فهلا يا أبا الفضل مهلا .

أرغبت فينا إذ علا لك الشعر فى خدّ قـل
ونرجت عن حدّ الظبا ِ وصرت فى حدّ الإبل
الآن تطلب عشرقى مد للعداوة يا نجـل

وتناسيت أيامك اذ تكلمنا نورا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، وفسترق اليك النظر، ونهتر لكلامك، ونهش لسلامك .
ومن لك بالعين التى كان مدّة اليك بها فى سالف الدهر يُنظرُ

أيام كنت ثنابل، والأعضاء تنزابل، وتنابيع، والأجساد تتفالج، وتسلّفت، والأجساد تنفتت، وتخطر وتزفل، والوجد بنا يعلو ويسفل، وتدير وتقبل، فتنى وتقبل، وتصد وترض، فتنى وترض،

وتبسم عن ألى كأن منورا تخال حرّ الرمل غرض له ندى

فأقصر الآن، فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودولة عرضت، وأيام آفقت،

وعهد تفاق مضى وخطب كساد نزل
وخد كأن لم يكن وخط كأن لم يزل

ويوم صار أمس، وحمرة بقيت في النفس، وثغر غاض ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يجب، وثخن لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحافظها، وشفة لا تفتن ألفاظها . نغتم تمل وإلام؟ ولم نحتمل وعلام؟ وأن أن تدعن الآن ! وقد بلغني ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء في الفسق، وتشويه يقتضيه عند ذوى البصر، وإفناك تلك الشرعات حقا وحصا، وإشباعك لها تنفا وقصا، وسيكفيها الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك ! فاما ما أسأذنت رأيي فيه من الاختلاف الى مجلسي فا أقل نشاطي لك، وأضيق بساطي عنك ، وأشبع قلبي منك ، وأشد استغنائى عن حضورك ! فان حضرت فانت كفاش نروض عليه الحلم، وتعلم به الصبر، وتكلف فيه الاحتمال، ونفضى منه الجفن على قذى، ونطوى منه الصدر على أذى، ونجعل له العيون تأديبا، وللقلوب تأنيبا .

”مالك يا أبا الفضل تعاض من الرغبة عنا رغبة فينا، ومن ذلك التذلل علينا تذلالنا ومن ذلك التعالى تبصيصا، ومن ذلك التغالى ترخصا ، وما بال الدهر أبداك من الترايد تنقصا، ومن التسحب على الإخوان تمصما ؟ ! ولئن أعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا ، لقد أعتضنا عن هذا التراع نزوعا، فانا برحلك وجانبك، ملق حبلك على غاربك، لا أوثر قربك ولا أندك سربك، ولو أحببت أن أوجحك لقلت :

ما يفعل الله باليهود ولا يعاد ولا تمسود
ولا يفرعون إذ عصاه ما يفعل الشعر بالحدود^(١)

رابعا — غدم التقيد بصيغة خاصة في بداية الكتب ، فقد كان القدماء يحرصون على الابتداء بحمد الله والصلاة على نبيه ، بعد عبارة من فلان الى فلان التي كثروا ردها في القرون الأولى، ولكن كتاب هذا العصر أخذوا يحرون على فطرتهم في تخيير البدايات ، فمنهم من يتبدئ

(١) رسائل بدیع الزمان ص ٨٤ ، ٨٨ وقد عارضها عبد الوهاب بن حزم رسالة طريفة (الذخيرة ص ١٦٦ ج ١) .

بيت من الشعر أو بحكمة مأثورة أو مثل معروف، أو قصة صغيرة^(٢)، ثم يدخل فى الموضوع . ومنهم من يكتب فى الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه شئ ، وهم فى ذلك كله يحجرون على خطة مقبولة، ولا يراعون القواعد إلا إذا خاطبوا الوزراء أو الأمراء أو الملوك ، فعند ذلك يسدعون بالعبارة المملوءة بالمجاملة والرفق كقول البديع فى بداية خطاب كتبه الى الوزير أبى نصر الميكالى :

” قد عرف الشيخ الجليل آتسأى بعبوديته ، ولو عرفت مكانا بعد العبودية لبلغته معه “^(٣) .

وبدع الزمان بالرغم مما درج عليه من البساطة فى بداية الكتب يبالغ فى مخاطبة الرؤساء بمبالغة ملموسة تظهر فى الجمل الدعائية التى يختص بها من يكتب اليهم ، وكذلك يفعل أبو بكر الخوارزمى ، والصابى ، وآبن عباد . ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن العميد الى عضد الدولة حينئذ بولدين :

” أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة — دام عزه وأبىده ، وعلوه وتميده ، وبسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزيد “^(٤) .

على أنه لا تزال بقية من البده بجد الله والصلاة على نبيه تجرى فى رسائل الخوارزمى يحدها القارئ فى عدة مواطن كقوله مخاطب ابن عباد :

” كآبى الى الوزير وأنا على بعد الدار سالم فى جملته ، مستظهر على الامام بدولته ، والحمد لله على سلامى فى سلامته ، وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه “^(٥) .

وكذلك قوله فى كتابه الى كاتب خوارزم شاه :

” سخاى وأنا بين محنة قد أدبرت ، ونعمة قد أقبلت ، وولى قد ملك ، وعدو قد هلك ، والحمد لله الذى أبتهى ثم أبلى فأنعم ، وصلى الله على سيدنا محمد وصلى آله الأكرمين “^(٦) .

(١) راجع رسائل الخوارزمى . (٢) انظر ص ١٢٢ من رسائل بديع الزمان . (٣) رسائل البديع ص ٣٤٤ (٤) زهر الآداب ج ٤ ص ١٨٠ (٥) رسائل الخوارزمى ص ١٥٢ (٦) رسائل الخوارزمى ص ٢٠١

وهذه الفقرات ليست بداية خالصة بحمد الله والصلاة على نبيه، وإنما هي عبارات أُريدَ بها مراعاة التقاليد الدينية .

أما ختام الرسائل فقد درج أكثرهم في الأغلب على الاكتفاء بعبارة "والسلام" وهي اختصار لكلمة "والسلام عليكم ورحمة الله" التي كانت تختتم بها الرسائل غالباً في القرن الأول.

٥ - ونعبد ما قلناه من أن هذه الخواص التي أمتازت بها الكتابة في القرن الرابع لم تنشأ في يوم وليلة حتى صارت من سمات هذا القرن، وإنما هي صفات تربية تطورت على مدى القرون التي سبقت هذا القرن، ثم ظهرت فيه ظهوراً قوياً لأن كتابه أرادوا متعمدين أن تكون لهم شخصية فنية تظهر في تجسيم ما كان أسلافهم يشيرون إليه من أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية، فالسجع مثلاً لم يخلق في القرن الرابع وإنما هو حلية قديمة التزمها كتاب هذا العصر، وكذلك تضمين الرسائل أبياتاً من الشعر ليس يهدف، فقد وجد منه شيء في خطاب عثمان بن عفان الذي كتبه إلى عليّ يستجده، وفي بعض خطب علي بن أبي طالب أبيات من الشعر وردت لتأييد ما كان يقوله في مناقضة خصومه . وأنا أرتاب في صحة خطاب عثمان، ولكنه مع ذلك دليل على أنه كان مفهوماً أن تضمين النثر شواهد من الشعر كان من التقاليد التي درج عليها المتقدمون . ومثل هذا يقال في أخذ النثر لبعض أغراض الشعر، فقد كانت للمتقدمين جولات فنية في النثر لا تقل في طرافة موضوعاتها ورقة حواشها عن الشعر، ولكن كتاب القرن الرابع ظهوراً في هذه الناحية ظهوراً جعلها من خواصهم من حيث القرض والأسلوب .

٢ - السجع والازدواج

١ - بينا في فصل سلف أطوار السجع في الشعر الفنى ، ورأى القارئ كيف كان كتاب القرن الأول والثانى والثالث ينتقلون بين لونين من الصياغة الفنية : هما السجع والازدواج . فلنذكر الآن أن التزام السجع صار من خصائص الشعر الفنى في القرن الرابع ، وأن كتابه لا يتحررون من السجع إلا الى فن قريب منه هو الازدواج ، ولم يخرج من كتاب هذا العصر الى الحرية في الصياغة الفنية إلا عدد قليل .

٢ - وكتاب هذا العصر ينقسمون الى ثلاث طوائف : طائفة تلتزم السجع التاماً مطلقاً ولا تخرج عنه إلا في قليل من الأحيان ، ومن أشهر هذه الطائفة بدیع الزمان والحوارزى والتمالى والصابى والميكالى وابن عباد وابن دريد وابن نباته وابن شمكير ، وطائفة تؤثر الازدواج وتسجع من حين الى حين ، وعلى رأسهم ابن العميد والتوحيدي والامدى والرضى والباقلانى والعسكرى والحامى وابن شهيد . وطائفة تؤثر الحرية في الصياغة الفنية فلا تسجع ولا تراوح إلا قليلاً ، ومن هؤلاء ابن مسكويه والمرزبانى وابن فارس والجرجاني والأصفهاني والتنوخي وأحمد بن يوسف المصري .

٣ - والطائفة الأولى لا تترك السجع في جد ولا هزل . وقد رأيت أن أفتح رسائل بدیع الزمان وأن أنقل منها شيئاً بدون بحث ولا تحجير ، فلما فتح الكتاب على هذه الحال رأيت الكاتب يقول :

” عافاك الله ! مثل الانسان ، في الإحسان ، مثل الأشجار ، في الإثمار ، سبيل من آت بالحسنة ، أن يرقه الى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدی ، وهما فؤادی

(١) ومع ذلك رأيتا التمايلي صفحات في كتاب (غار القلوب) تمثل النثر المرسل أجمل تمثيل حتى كدنا نحسبه لرجل آخر غير مؤلف البيتة وسحر البلاغة ، وقد تعذب لفظ التمايلي وسلس في ذلك الكتاب فتذكرنا بالطمع المنع من أساليب البيان .

ويردى ، أما الفؤاد فيعلق بالفؤود ، وأما اليد فتولع بالجدود ، ولكن هذا الخلق النفيس ، لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع العكريم ، ليس يحمله الغريم ، ولا قرابة بين الأدب ، والنهب ... والأدب لا يمكن سرده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، ولى مع الأدب نادرة ، جهدت في هذه الأيام بالطباخ ، أن يطبخ لونا من جيمية الشماخ ، فلم يفعل ، وبالقصا ، أن يسمع أدب الكتاب ، فلم يقبل ، وأحتج في البيت ، الى شئ من الزيت ، فأنشدت شيئا من شعر الكيت ، ألفا ومائتي بيت ، فلم يفر ، ولو وقعت أرجوزة المجاج ، في توابل السكاج ، ماعدمتها عندى ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ فان كنت تحسب آخلافك الى ، إفضالا الى^(١) ، فراحتى ، أن لا تطرق ساحتى ، وفرجى ، أن لا تجى ، والسلام .

ولأنفل مثل هذا مع الخوارزمى . ولقد فتحت ديوان رسائله عفوا فرأيت يقول :

”فأما الآن ، وقد كان ما كان ، فاني أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوبا من الصبر ثغينا ، ويولى حوادثه ركا من التماسك ركيئا ، وأن تجده الأيام حرا ، وأن تصيبه الحوادث اذا ذاقته مرًا ، وأن يدارى مع ذلك سلطانه ، ويصفر بلسانه إسمائه ويكبر إحسانه ، ويروض لسانه في الخلوة على شكره ، لتلا يجمع به في البلوة الى غيره ، فأما أيام الحنة موج من تطااله تحطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه ، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته ، ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيرا ، ومن حاسب على قليل من العنت لقي كثيرا^(٢)“ .

٤ — وما يؤيد إثبات هذا الفريق للسجع أن نرى المؤلفين منهم يهتمون بجمع ما يجرى من المقرات المسجوعة بجرى الأمثال ، وقد صنع هذا التعالفي غير مرة في كتابه (يتممة الدهر) فاختر مثلا للصاحب بن عباد :

”من نبت لحمه على الحرام ، لم يحصد غير الحسام — من لم يهز يسير الإشارة ، لم ينفعه كثير العبارة — الشمس قد تغيب ثم تشرق ، والروض قد يذبل ثم يورق — الضمائر الصحاح ،

(١) رسائل بدیع الزمان ص ٢٢١ و ٢٢٢ وقد كتبت هذه الرقة الى «مستبح عارود مرارا» .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٩٨ .

أبلغ من الألسنة الفصاح — متن السيف لين، ولكن حله خشن، ومتن الحية أئين، ولكن ناهبا أخشن — عقد المتن في الرقاب، لا يبلغ إلا يركوب الصعاب — بعض الحلم مذلة، وبعض الاستقامة منزلة — إنجاز الوعد، من دلائل المجد، وأعتراض المطل، من أمارات البخل، وتأخير الإسعاف، من قرائن الإخلاف — بعض الوعد كنقع الشراب، وبعضه طمع السراب — قد يبلغ الكلام، حيث تقصر السهام — ربما كان الامساك عن الاطالة، أبلغ في الابانة والدلالة — إن نفع القول الجميل، وإلا نفع السيف الصقيل — تلقى الاحسان بالجمود، تعرض النعم للشرود — قد يقوى الضعيف، وبصحو التزيف، ويستقيم المائد، ويستيقظ الهاجد — قد يصل البرئ بالسقيم، ويؤخذ البرّ بالآثم — ما كل طالب حق يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاه^(١) .

٥ — وإذا نظرنا في ثراين العميد وجدنا الحرية غالبية عليه، ولكنا نراه يلتم السجع أحيانا كأن يقول :

”أنا أشكو اليك — جملتي الله فداك! — دهرنا خؤونا غدورا، وزماننا خدوعا غرورا، لا يمنع ما يمنع إلا ريث ما يسترع، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث ما يرتجع، يبدو خيره لمعائهم ينقطع، ويطلو ماؤه جرحا ثم يمتنع، وكانت منه شمية مألوفة، وبهيبة معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتفاض، ويهدى لما يسطه وشك أنقباض، وكنا نلبسه على ما شرط، وإن حاف منه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه، ونستم بقصده وظلمه، ونعقد من أسباب المصرة أن لا يبعث مخذوره مصمتا بلا أنفراج، ولا يأتي مكروهه صرفا بلا مزاج، وتتمثل بما تختله من غفلاته، ونسترقه من صاعاته ... أن^(٢)“ .

٦ — والتوحيدي يمزج بين السجع والمزاوجة — كما كان يفعل الجاحظ الذي آرتضاه إماما في حياته العقلية والأدبية — ولندكر مثالا من ثمره الذي يعدّ من أبلغ التمازج في اللغة

العربية ، وليكن ماكتبه في سبب القبض على أبي الفتح بن العميد فانه من أروع آيات
البيان^(١) .

” لما مات ركن الدولة سنة ٣٦٦ اجتمع ذو الكفائتين أبو الفتح وعلى بن كامه أحد
أمراء الديلم والأعيان ، وتماهدا وتواقفا وتخالفا وبذل كل واحد منهما الاخلاص لصاحبه
في المودة في السر والعلائية ، والذب والتوقيف ، عند الصغير والكبير ، واجتهدا في الإيمان
بالفاسية ، والعقود الموقفة ، وديرا أمر الجليش ، ووعدا الأولياء ورقا النار ، ورجا الخطر
الحاضر ، وعاقبا الخطب العاقر ، وياشر كل ذلك أبو الفتح خاصة بمجد من نفسه ، وصريمة
من رايه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ربه . فلما ورد مؤيد الدولة الرى من أصحابه
وصادف الأمر منسقا ، ولحق كل فتح مرتقا ، بما تقدم من الحزم فيه ، ونفذ من الرأى
الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة لجنود فكرها ، ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها
نظمت لك الملك وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فان خالفت هذه الزيادة هوائك
فأسقطها : فالبد الطولى لك . وكان ابن عباد قد ورد وحطبه رطب ، وتورّه بارد ، وأمره
غير نافذ . هذا في الظاهر . فاما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوشيه على أبي الفتح بما
يجد السبيل اليه من الطعن والقدح فأحس بذلك ابن العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر
الشغب ، وعظم الخطب ، وهم بقتله ، وقال للأمير : ليس من حق كفايتي في الدولة وقد
استثقت حبليها وقويت أطماع المفسدين فيها ، أن أسام الخسف ، والأحرار لا يصبرون

(١) آتينا أن تقدم هذا الشاهد على طوله لأنه مثال لقلاعة القوية التي تمثل صفات الرجال وأحقادهم أشع تمثيل ،
وفى هذا الشاهد تظهر براعة الكاتب في سرد الحوادث بطريقة أخاذة تبدو طبيعية ، على حين يلبس اللاد فيها آثار الصنعة
الخفية والتكلف المدفون . وفى احتفال التوحيدى بهذه الصورة دليل على أنه كان يجتهد في مكافئة خصومه عن طريق
سرد التاريخ . فان لم يقين القارى خطر ما فى هذا الشاهد من المناسن فليقرأ ما كتبناه من التوحيدى والصاحب
في باب « الراسائل واليهود » بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

وأبو الفتح بن العميد هو ابن الكاتب المدعى أبى الفضل بن العميد ، وكان شابا أدبيا ناسع البيان ، ولكنه لم يرق
ما رزق أبوه من أحالة الرأى ووجاعة العقل ، وكان طيشه من شر ما قاسى أبوه من مهموم الحياة .

على نظرات الليل ، وغمرات الموان . فقال له فى الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذى يرد فورتك عنه ؟ قال ينصرف الى اصفهان موفورا ، فواءه لو طالبته منصفاً برفع الحساب لما نظرفيه ليعرفن جيئته ، واتن أحس الأولياء ، الذين أصطعتهم بمالى وأفضالى ، بكلامه فى أمرى ، وسعيه فى فساد حالى ليكون هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا تلف . فقال له : لا تخالف لرأيك ، والنظرك ، والزمام بيدك . وتلفظ ابن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أنظلم منك إليك ، وأتمهل بك طيك ، وهذا الاستيحاش سهل الزوال : إذا تألفت الشارد من حامك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولئى ديوان الانشاء وأستخدمنى فيه ، ورتبى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونبيك ، ومعنى برضاك ، فانى صنيعة والدك ، وأتمخذنى بهذا صنيعة لك ، وليس يعمل أن تكثر على ما بنى ذلك الرئيس قهدهم وتقصه . ومتى أجيئنى الى هذا ، وأمتنى ، فانى أكون خادمك بمحضرتك ، وكتابيا يطلب الزفة عندك ، فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء النار التى قد ثارت يسوء ظنك وتصدىقك أمدائى على- فقال فى الجواب : والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، وبمحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك أذن على- ولا عين عندى ، وليس لك منى رضى الا بالمود الى مكائك من أصهبان ، والسلو عما تحبث به نفسك . فخرج ابن عباد من الرى ، على صورة قبيحة متكرراً بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والقبلة ، وبلغ أصهبان وألقى عصاه بها ، ونفسه تغلى ، وصدره يفور ، وانخوف شامل ، والوسواس غالب . وهم أبو الفتح بانفاذ من يطالبه ، ويؤذيه ويميته ، ومسفه ، فأحس هو بالأمر . فحدثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المفازة الى نيسابور ما ضاق عطشه ، واختلف على نفسه ظنه ، وإنه لى هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت اللوف إليهم وتساورت فى الإطلال عليهم . فقال الأمير لأبى الفتح : ما الرأى وقد نعى إلينا ما تعلم من طمع خراسان فى هذه الدولة ، بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح : ليس الرأى إلى ولا إليك ، ولا الهسم على ولا عليك ، ههنا من

يقول لك أنت خليفتي ويقول لى أنت كاتب خليفتي . يدبر هذا بالمال والرجال وهو الملك عضد الدولة أخوك، قال فاكتب إليه وأشعره، وأشع ما قد متينا به وأشهره، وسله يداوى هذا الداء . فكتب أبو الفتح وتلطف فصدر في الجواب ، إن هذا لأمر عجيب، رجل مات وخلف مالا، وله أبن، فلم يجعل إليه من إرثه شئ «زويًا عنه، واستثنى دونه، ثم يخاطب بأن يفرم شيئًا آخر من عنده ، قد كسبه يجهد ، وجمعه بسعيه وكده ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن استفتى الفقهاء في هذا لم يكن عندهم منه بنة إلا التعجب والاستطراف، ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث، والآخر أنه يطالب بانخراج ما ليس عليه، وإن شاء حاكمت كل من سام هذا الى من يرضى به . فلما سمع مؤيد الدولة هذا، قال لأبي الفتح : ما ترى ؟ قال قد قلت، وليس لى قول سواء، هذا الرجل هو الملك والمدير، والمال كله ماله، والبلاد بلاده، والجند جنده، والكل له، والأسم والجلالة عنده، وليس ههنا إرث قد زوى عنه، ولا مال أستؤثر به دونه ، والتادرة لا وجه لها في أمر الجند، وفيها لا تماق له باللعب . أما نراسان فكانت منذ عشرين سنة تطالبنا بالمال ، وتهتدنا بالمسير والحرب، ونحن مرة نحارب، ومرة نسلم ، وفي خلال ذلك نفرق المال بعد المال ، على وجوه مختلفة ، فأحسب أن ركن الدولة حى باق، هل كان له إلا أن يدبر بماله ورجاله ، وذخائره وكنوزه، أفليس هذا الحكم لازما ، لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقى اليه زمام الملك، وأصدر عنه كل رأى ؟ وهل علينا إلا الخدمة، والنصرة، والمناحمة، وكل ما سهل وصعب كما كان عليه ذلك بالأمس، من جهة الماضى، فقال مؤيد الدولة : إن الخطب في هذا أراه يطول، والكلام يتردد، والمناظرة تريب، والفريضة تسول، والفرصة تفوت، والعدو يستمكن وأرى في الوقت أن نذكر وجهًا لئال، حتى نحتج به ، ثم نستمد في الثاني منه، ونرضى الجند في الحال، ونحتزم في الأمر، ونظهر المראה والشكيمة، بالاهتمام والاستعداد، حتى يطير الخبر الى نراسان يجيئنا واجتهادنا، وحرمتنا واعتادتنا، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم، وحسبنا لأطباعهم، وابتاعنا على تجديد القول في الصلح ورد الحال الى العادة المؤلوفة . فقال : نسال الله بركة

هذا الأمر فقد نشأت منه رائحة منكزة، ما أعرف لئال وجهها ، أما أنا فقد خرجت من جميع ما عندى مرة، بما خدمت به الماضى تبرعا حدثان موت أبى ومرة بما طالبنى به سرا وأودعنى بالعزل والاستخفاف من أجله، ومرة بما غرمت فى المسير الى العراق، فى نصرة الدولة، وهذه وجوه استغلت قلبى وكثرى، وأنت على ظاهرى وباطنى . وقد غرمت الى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كأتى ممتن على أولياء نعمتى، وإن سكت كنت كاللتم عند من يتوقع عثرى، فهذا هذا، وأما أموال النواحي، فأحسن أحوالنا فيها أنا نرجئها فى نواحيها مع النفقة الواسعة فى الوظائف والمهنات التى تنوبنا . وأما العامة فلا أحوج الله اليها، ولا كانت دولة لا تثبت إلا بها، وبأساخ أموالها ! فقال مؤيد الدولة، وكان ملقنا هذا ابن كامه وهو صاحب الفخار والكنوز والجبال والحصون وبيده بلاد وقد جمع هذا كله فى دولتنا، وحازه من مملكتنا وأيامنا وبدولتنا وهو محتوم ما فاض مذ كان . ما نقول فيه ؟ قال : مالى فيه كلام . فان بينى وبينه عهدا ما أخيس به ، ولو ذهبت نفسى ! فقال : اطلب منه القرض . قال : إنه يستوحش ويراه بابا من الفضاضة ، وقدر القرض لا يبلغ قدر الحاجة . فان الحاجة ماسة الى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه أفجع لنا ، وأرد علينا ، وأحصن لنا ، والينا من موقع ذلك المال وبعد رأيه وتديره وأسمه وصيته فوق المطلوب منه . قال : وإذ ليس ههنا وجه فليس بأس أن يطالع الملك بهذا رأى ليكون نتيجه من ثم قال : أنا لا أكذب بهذا فانه غدر . قال : يا هذا فأنت كاتى وصاحب سرى والزام فى جميع أمرى ، ولا سبيل الى إخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله . فان أنت لم تتول حازه وقازه، وغنه وسميته، ومحبوبه ومكرهه ؛ فن ؟ قال : يا أيها الأمير ! لا تسمى الخيانة ! فأتى قد أعطيته عهدا يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد، ولعن الله طجلة تفسد الآجلة ! قال : انى لست أسومك أن تقبض عليه، أو أن تسيء اليه، أشرب هذا المعنى الى الملك عضد الدولة وخلاك ذم ! فان رأى الصواب فيه تولاه دونك، وإن ضرب عنه أعاضنا رأيا غير ما رأيناه،

(١) حدثان الأمر بالكرأله وابتدأه، والمراد هنا عقب موت أبيه .

وَأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبتلعها، وإنا الذي يجب عليك في هذا الوقت بين يدي
كتب حرفين أنه لواجه لهذا المال إلا من جهة فلان، ولست أتولى مخاطبته عليه ولا
مطالبته به، وفاء له بالعهد، وثباتا على اليمين، وجريا على الواجب، ولا أقل من أن تمجيب
إلى هذا القدر، وليس فيه شيء مما يدل على التكت والخلاف والتبديل. وما زال هذا
وشبهه يتردد بينهما حتى أخذ خطه بهذا على أن يصدره إلى أخيه عضد الدولة بفارس.
فلما حصل هذا الخط عنده وجئ عليه الليل أحضر ابن كاهمه وقال له: أما عندك حديث
هذا المحدث فيما أشار به على الملك في بابك وأورده عليه في حقل وأمرك وإطاعه في مالك
وتفكك وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك؟ فقال ابن كاهمه هذا الفتي يرتفع عن
هذا الحديث ولعل عدوا قد كاده به وبني وبينه مالا متفذا لسحر فيه ولا مساح لظن
سبي به. قال ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلت. ودع هذا كله في الرجع هذا كتابه
إلى الملك بما عرفتك وخطه بيده فيه. قال على بن كاهمه أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كتابي
فأحضر كتابه الخشعي فشهد أن الخط خطه لخال على بن كاهمه عن سمجته ونرج من مسكنه
وقال ما طننت بعد الأيمان المظلة التي بيننا أنه يستجير مثل هذا. قال الأمير أيها الرجل
إنما أطلعت الملك على سر هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك وما هو عليه من هتات آخر
وأفات هي أكبر فإنه هو الذي حرك من بخراسان وكتب صاحب جرجان وألقى إلى أخينا
بهمدان - يعني نغر الدولة - أخبارنا وهو عين لبختيار ههنا. وقد أعتقد أنه يعمل
في تحصيل هذه البلاد ويكون وزيرا بالعراق فقد ذاق من بنسداد ما لا يخرج من ضرره،
إلا بترع نفسه، وكان أبو نصر المجوسي قد قدم من عند الملك عضد الدولة وهو يقتل الجبل
ويرم، ويهاب مرة ويقدم، وكان الحديث قد يئ بليل وأهت به قبل وقته بزمان،
فقال على بن كاهمه: فما الرأي الآن؟ قال: لا أرى أمثل من طاعة الملك في القبض عليه،
وقد كنا على ذلك قادرين، ولكن كرهنا أن يظن بنا أننا هجمنا على ناصحتنا، ومريب نعمتنا،
وناشئ دولتنا، فهذهنا عنك العذر، وأوضحنا لك الأمر. قال: فانا أكفيكوه!

ثم قبض عليه وكان منه ما كان، وأستدعى ابن عباد من أصفهان، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق .

٧ — وعند تأمل هذه الرسالة نجد التوحىدى يضى على الفطرة فى الإنشاء، ثم يسجع ويوازن من سطر الى سطر حين يطيب له ذلك . والى القارئ ما ورد فى هذه الرسالة من الإسجاع .

”رذا النافر، وربكا الخطر الحاضر، وعاقبا الخطب الماقر“ .

”صادف الأمر متسقا، ولحق كل فتق مرتقا“ .

”كلامك مسموع، ورضاك متبوع“ .

”ليكون هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف، ومن المزن اذا نطف“ .

”واقه لا تجاوزنى فى حضرة السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة الأمير“ .

”ليس الرأى إلى ولا إليك، ولا ألم على ولا عليك“ .

”لست أسومك أن تهبط عليه، أو أن تنسئ إليه“ .

”ذاق من بندق مالا يخرج من ضره، إلا بزع نفسه“ .

”ولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق“ .

وما وقع فى هذه الرسالة من المزوجة واضح يدركه القارئ بأبصر مراجعة .

٨ — والشريف الرضى يسلك هذا المسلك فيسجع قليلا، ويزوج كثيرا، وهو كاتب غل لم تبق لنا من ثره بقايا كافية لتعيين مذهبه فى أساليب الإنشاء . والى القارئ فقرات من مقدمة (نهج البلاغة) الذى دقن فيه خطاب الامام على رضى الله عنه :

«أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه، ومعاذا فى بلائه ... فاقى كنت فى عفوان السن، وغضاضة الفصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى محاسن الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حدثانى عليه غرض ذكرته فى صدر الكتاب ... وعاق عن إتمام بقية الكتاب محاجرات الزمان، ومماطلات الأيام ... ومن عجائبه عليه السلام أن كلامه

الوارد في الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواجر ، اذا تأمله المتأمل ، وفكر فيه المتفكر ، وخلع من قلبه أنه كلام مثله بمن عظم قدره ، وفخذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك في أنه من كلام من لاحظ له في غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، قد قبح في كسر بيت ، أو أقطع في صفح جبل ، لا يسمع الا حسه ، ولا يرى إلا نفسه ، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلتا سيفه : فيقط الرقاب ، ويحقل الأبطال ، ويعود به ينطف دما ، ويقطر مهجا ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبذل الأبدال» .^(١)

٩ — وأحمد بن عبد ربه لا تظهر آثار قلبه الا في المقدمات القصيرة التي يمهدها لأبواب العقد الفريد ، وهو في تلك المقدمات لا يلتم السجع ، ولكنه لا يكاد يحل بالأزدواج .^(٢)

١٠ — أما الطائفة الأخيرة فتكتب في حرية وطلاقة ، وإن لم تخل آثارها الثرية من السجع والمزاوجة ، ومن أشهر هؤلاء أبو الفرج الأصفهاني الذي يرسل في بعض فقرات (الأغانى) ترسلا سهلا مقبولا لا يصح فيه ولا ازدواج ، وأبن مسكويه الذي ينطلق الى غرضه انطلاقا السهم الى رميته ، والتنوخى الذي رقت على أسلة قلبه لنة القصص المسلسل ، وأحمد بن يوسف المصرى الذى دَوَّن مشاهداته في لنة لا تعتمد في جمالها الا على دقة المعنى وصفاء الأسلوب .

وأهم كتاب هذا الفريق إخوان الصفاء الذين دونوا ما عُرف لمهدهم من الآراء والمذاهب في أسلوب طلق خال في جملته من التصنع والزخرف والغموض .

(١) كان الشريف الرضى جدرا بأن يعقد له فصل في هذا الكتاب ، ولكن الشرط طلب عليه ، وضاعت جملة ثره ، ولنا من الملمنين الى ما قبل من أن أكثر نهج البلاغة من فيض قلبه ، بالرغم من قدم هذه الشبهة ورواجها في أسواق المستشرقين .

(٢) كلام ابن عبد ربه في الترتيل ، ولهذا لم نعقد له فصلا في هذا الكتاب ، ولكن تمهيداته لأبواب العقد الفريد بركة متممة ، وفيها دلالة على أن قلبه كان حرا من قيود المحسنات البديعية ، بالرغم من غلبتها على كتاب المشرق والمغرب لتلك العهد .

ويمكن القول بأن كآب المذاهب والآراء هم أخلص الناس من أوضار الصنعة بين كآب القرن الرابع ، لأن حرية الفكر تفرض حرية القول ، والكاتب المفكر فى شغل فكره العميق عن تلمس أسباب الترويق والتحويل .

١١ - ولتبيين القارئ الفرق بين كاتب يتأق كالتوحيدى وكاتب يرسل كآب مسكويه نعرض نموذجاً مما قصه صاحب تجارب الأمم عن أبى نصر كآب عضد الدولة إذ قال :

”كان بالقصر جماعة من العلمآن تحمل اليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة ، فلما كان فى آخر شهر قد بقى منه ثلاثة أيام استدعانى وقال لى : تقسّم الى الخازن فى بيت المال بأن يزّن كذا وكذا ألف درهم ويسامها الى أبى عبد الله بن سعدان ليحملها الى نقيب العلمآن بالقصر . فقلت : السمع والطاعة . فأنسيت ذلك وسألنى عنه بعد أربعة أيام فاعتذرت بالنسيان فخطبى بأغلظ خطاب ، فقلت : أمس كان آسبّلال الشهر ، والساعة تحمل المادة . وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الأمر . فقال : المصيبة بما لا تعلم ما فى فعلك من الغلط أكثر منها فيما آستعملته من التريط ! ألا تعلم أنا اذا أطلقنا هؤلاء العلمآن ما لهم وقد بقى فى الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، واذا آتقضى الشهر وآسبّلال الشهر عند عارضهم فاذا كروه فيعلمهم ، ثم يحضرونه فى اليوم الثانى فيعتذر اليهم ، ثم فى الثالث قبسط فى آقتضائه ومطالبته آستهم ، فتضيق المنّة ، وتحصل الجرأة ، ونكون الى الخسارة أقرب منا الى الربح؟“ .

والقارئ حين يوازن بين الخبر المطول الذى نقلناه عن التوحيدى وبين هذا الخبر القصير الذى نقلناه عن ابن مسكويه لا يترى فى أن التوحيدى كان خليقاً بأن يجعل من هذا الخبر القصير قصة طويلة يبدئ فيها ويميد .

ولكن هذا اليسر فى رواية الخبر لم يمنع ابن مسكويه من التأق فى التعليق عليه اذ قال :
”ولعل عضد الدولة نظر فى هذا الوقت الى ما وجد فى سيرة المتعم رضوان الله عليه . وهى ينكر لى هاشم أن يقتدى بأقوالهم ، أو يتسدى بأفعالهم ، وهم الأصديقون أقوالا ،

والأكرمون أفعالا، والأشرفون أنسابا، جبال الحلوم، وبحار العلوم، وأعلام الهدى، وساسة الدين والدنيا، وفوسان الحروب والمخاض، وأملاك الأسرّة والمنابر، الى مكارهم يتبى الكرم، وبما ثمم تحيل الظلم، المعتصم بينهم المعتصم“ .

ويمكن المضي في استقراء الفصول الجيدة مما كتب ابن مسكويه في التاريخ : فهو يسرد الأخبار في سر ملبوس ثم يعقب عليها بتأني مقبول . وأنظر قوله في خواص الملوك : ”ومن حسن سياسة الملوك أن يجعلوا خاصتهم كل مذهب الأفعال، محمود الخصال، موصوفاً بالخير والفعل، معروفاً بالصلاح والعدل، فإن الملك لا تتخالطه العامة ولا أكثر الجند، وإنما يرون خواصه : فإن كانت طرائقهم سديدة، وأفعالهم رشيدة، عظمت هبة الملك في نفس من يبعد عنه، لاستقامة طريقة من يقرب منه ... وإذا كان خواص الملك من يُقدّح فيهم، وتذكر مساوئهم، قلت الهبة في النفوس، فإظهار الجند استقلالاً لأمره، ثم صار الاضمار نحوى بينهم، ثم زادت الحيرة فصارت التجوى إعلاناً، فعند ذلك تقع المجاهرة، وترتفع المراقبة، ويحكمون عليه تحمك الأمر لا المأمور، والقاهر لا المقهور“ ^(١).

١٢ — ومن أحرار الأساليب بين كتاب القرن الرابع إخوان الصفاء — وفي رسائلهم

فقرات تمتاز بوضوح المعاني وبسطها، من ذلك قول أحدهم في وصف الرسول :

”قال النمر للأسد : ما تلك الخصال التي ذكرت، أيها الملك، أنها يجب أن تكون في الرسول ؟ بينها لنا . قال الملك : نعم . أولها يحتاج أن يكون رجلاً عاقلاً حسن الأخلاق، بليغ الكلام، فصيح اللسان، جيد البيان، حافظاً لما يسمع، محتزراً فيما يجب ويقول، مؤدياً للأمانة، حسن المهاد، مراعياً للحقوق، كئوباً للسر، قليل الفضول في الكلام، لا يقول من رأيه شيئاً غير ما قيل له، إلا ما يرى فيه صلاح المرسل، ولا يكون شرهاً، ولا يكون حريصاً إذا رأى كرامة عند المرسل إليه مال إلى جهته وخان مرسله وأستوطن البلد لطيب عيشه هناك، أو كرامة يحدها أو شهوة يتألمها هناك، بل يكون ناصحاً لمرسله وإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ويلين الرسالة ويرجع بسرعة إلى مرسله فيعرفه جميع ما جرى من أوله

الى آخره، ولا يخاف فى شىء منه فى تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله : فانه ليس على الرسول إلا البلاغ^(١) .

وهذه القطعة تصور المعنى الذى وضعت له تصويراً صحيحاً ، ولكن التزعة العامة تغلب عليها، وينقصها ما يسميه علماء البقد " قوة الأمر " وهذا المأخذ تجده أئى مرتحت بصرك فى رسائل اخوان الصفاء ، فهم يقدمون اليك الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية فى أسلوب يغلب عليه التخلخل . ولعل السر فى ذلك يرجع الى آعدام الشخصية : فالكاتب يعبر عن روح إخوانه وكأنه يلخص آراهم ، ولو كان يعبر عن نزاعاته الذاتية لرجحوا أن تكون حماسته أقوى وروحه أظهر ، وعند ذلك تستطيع إغواء عقله ووجدانه فيصطبغ أسلوبه بالوان الخيال . وسترى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب^(٢) كلاما كثيرا عن الأسلوب ، وسترى أنه يتكون من عنصرين : المعنى والروح ، فاذا وجد المعنى وحده كانت الكتابة علمية . وإذا أضيف اليه الروح كانت الكتابة أدبية . وذلك ما نعينه بالنثر الفنى .

١٣ — ولك أن تتظرفيا كتب الفارابى أو ما كتب آبن حزم فى الفلسفة لترى كيف تكون الكتابة العلمية التى يراد بها تقرير الحقائق ، وشرح المذاهب ، وعرض البراهين ، فهى كتابة خالية من السجع والأزدواج ، الا فى أحوال قليلة ، والكاتب مشغول بسرد الحقائق لا تميق الإنشاء . وهذه الكتابة صالحة كل الصلاحية للموضوعات العلمية والفلسفية ، وليس خلوها من الفن الا دليلا على توفيق الكاتب ، فليس كل موضوع بصالح للزخرف والتهويل . وقد يكون من الخير أن نذكر الفرق بين كاتبين يستغلان بالموضوعات الفلسفية ويختلفان فى الأسلوب ، فيكتب أحدهما كتابة علمية ، ويكتب ثانيتها كتابة أدبية ، كالفارابى والثوحيدي والفرق بين مثل هذين الرجلين أن الأول كان مفكرا قبل أن يكون كاتباً ، والثانى كان كاتباً قبل أن يكون مفكراً : فلما كتب الأول عجز عن التلوين والترتين ، ولما كتب الثانى وثقى الفكرة فنون من التصاور والتهويل ، والأول أتقى فى عالم الفكر ، والثانى أخلد فى عالم البيان ، وكلا الإسلووين ضرورى^٣ فى حياة العلوم والآداب .

(١)

٣ - تصوير الحياة العقلية

١ - ان الكُتّاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفنى فى القرن الرابع قد آهتموا آهتماما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التى شملت ذلك العصر، فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير ولم يشتركوا فى الأزمت العقلية والمجادلات الحزبية والدينية فى الحدود التى سمحت بها قوتهم الأدبية، وسيرى القارئ كيف شغلوا بالبلاغة ودراسة الشعر والنثر، فلننظر هنا كيف شغلوا بما كان يمرى لعهدهم من الفتن السياسية والاجتماعية، من ذلك أننا نجد أثر قوة الحزب الشيعى ممثلة فى رسائل بديع الزمان ورسائل الخوارزمى وفى المقتطفات التى جمعها صاحب زهر الآداب عما قيل فى آل البيت مدحا ورتاء مما يدل على أن الشيعة كانت لهم قوة صاخبة فى ذلك العصر. وربما كانت رسالة الخوارزمى التى بشها الى الشيعة بنيسابور لما قصدهم اليها محمد بن ابراهيم تمثل مأساة الشيعة أصدق تمثيل، ولننظر كيف يقول :

”وأتم ونحن -أصلحنا الله وإياكم! - عصابة لم يرض الله لنا ثواب العاجل، فأعد لنا ثواب الآجل، وقسمنا قسمين قصبا مات شهيدا، وقصبا عاش طريدا، فالخى يحسد الميت على ماصار اليه، ولا يرغب بنفسه عما جرى اليه، قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام: ”الحن الى شيعة أمرع من الماء الى الحدور“ وهذه مقالة أسست على الحن وولد أهلها فى طالع الهزاهن والفتن، فحياة أهلها تنص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متعاملة والدنيا عليهم مائلة، فاذا كنا شيعة أئمتنا فى القرائض والسنن، ومتبجى آثارهم فى كل قبيح وحسن، فينبى أن نتبع آثارهم فى الحن: غصبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آلهما

(١) هذا الفصل القصير لا يبنى عن مراجعة الفصول المطلوبة فى باب (الآراء والمذاهب) بالجزء الثانى. ويمكن

القول بأن الأدب فى كل عصر صورة هياة العقلية، غير أن قوة الحيوية فى كتاب القرن الرابع ميزته بطابع خاص.

ميراث أيها — صلوات الله عليه وعلى آله — يوم السقيفة، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة، وسمّ الحسن رضى الله عنه سرا، وقتل أخوه كرم الله وجهه جهورا، واصلب زيد بن على بالكاسية، وقطع رأس زيد بن على فى المعركة، وقتل ابنه مجد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العباسى، ومات موسى بن جعفر فى حبس هارون. وسمّ على بن موسى بيد المأمون، وهزم إدريس بن فسخ حتى وقع الى الأندلس فرينا ومات عيسى بن زيد طريدا شريدا "انط وفى هذه الرسالة تفاصيل مزجعة عما لقيه العلويون من المحن والمصائب يتلقونها صابرين من خصومهم الذين أصروا على إبادتهم من الوجود، والذي يقرؤها كاملة فى رسائل الخوارزمى يدرك جيدا كيف كانت العصبية للشيعه قوية حادة فى ذلك العصر؛ وكيف تشبعت عقول بعض الكلاب بالمعانى البديسة فى محاوراتهم العقلية، فن الرابع حقا أن يقزر الخوارزمى أن على بن أبى طالب شتم على المنابر ألف شهر فما شك أنصاره فى وصيته، وأن النبي محمدا كذب بضع عشرة سنة فما أنهموه فى نبوته، وأن إبليس عاش مدة تزيد على العدد فلم يرتابوا فى لعنته. وفى رأى أن مثل تلك الرسالة يوضح كثيرا مما غمض من تاريخ الأمم الإسلامية فإن الكلاب الذين ينسبون الى أحزاب يداغون عنها قد ستاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفى من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم وإن كانوا متهمين فى مدح من يرضون عنه وذم من يخرجون عليه.

٢ — ويحارب الجدل العنيف الذى كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين والعداوات التى كانت تقوى وتشتد كلما أثيرت ذكرى الخلافة والخلفاء وزاها ممثلة فى الآثار الثرية فى ذلك العهد، كانت تقوم فتنة أخرى هى الخلاف بين العرب والعجم وأقسام الأدباء الى فريقين فريق يفضل العرب وآخر يفضل العجم، وهى فتنة قديمة شبت منذ كان للوالى وأنصار الفرس أطماع فى دولة الخلافة، وظلت تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التى كان يبذلها الوزراء الفارسيون لكبح النفوذ العربى راجين أن يتقل إليهم النفوذ الادبى والسياسى والمادى جميعا.

وليدع الزمان الممذاني رسالة جيدة تمثل تلك المناوشات يميل فيها الى تفضيل العرب على العجم وعلى سائر الأمم إذ كانوا في رأيه أوفى وأخبر وأعلم وأحلم وإن لم يكونوا أحسن ملابس وأنعم معاش، ويرى أن فضل العرب لا ينكره إلا وقع وأن الله قدم ملك العجم ليحتج عليها وأنكر ملك العرب ليحتج بها، وأن العجم ما ملكت حتى تواصلت، والعرب ما ملكت إلا حين تواصلت، وأن العجم ما تواصلت إلا بأسا من نفوسها، وأن العرب ما تواصلت إلا لمسا في رعوسها من النخوة، وهذا طبيعي فلا تكاد السباع تأتلف كما لا تكاد البهائم تختلف. ثم بمعنى بديع الزمان فيتحث عن أعياد الفرس وعبادتهم للنار وهو في ذلك يسخر منهم ويفضل العرب عليهم .

٣ — والذي همنا من ذلك كله هو تقرير ما يمثلته الشر في ذلك العهد من الشقاق الذي كان يشور بين العرب والفرس من حين إلى حين، أما حجج بديع الزمان في تفضيل العرب على الفرس وحجج خصومه في تفضيل الفرس على العرب فتلك أشياء لا همنا بتحقيقها الآن . وذلك الخلاف له قيمته في تقدير الحيوية التي كانت يحسها رجال الأدب لذلك العهد فقد كانوا يمثلون طوائفهم ودولهم بذلك الدفاع الذي كان يفيض حياة وقوة، وكان يحتوى أحيانا على مباحث جيدة في بيان الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التي تمتاز بها الأمم والشعوب .

٤ — وما يتصل بتصوير الحياة العقلية طريقة أولئك الكتّاب في شرح حقائق الحياة . ويظهر أنهم كانوا يميلون الى الصراحة المطلقة فيما يختص بنعيم العقل والحواس، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرمز والاشارة وإنما كانوا يصرحون بما يجيئون الخوض فيه، فكان من ذلك أن أكثروا من الرسائل في تهادى الخمر وأن وصفوا مجالس الشراب واللهو وصفا مغريا لا يترك هفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير، وعرضوا للجهل الحسى في الغلمان فوصفوه وصفا جارحا لا تكاد تسيغه اليوم، فقد حذف الشيخ محمد عبده طائفة من مقامات بديع الزمان لما فيها من الصراحة المفرطة في تصوير الشهوات . وللبقاء الشاعر رسالة جميلة

في وصف ليلة أنس ذكرها الثعالب في الجزء الأول من البيعة لا يقرؤها القارئ بدون أن يدهش من حب أولئك الكتاب تصوير لذات الحياة . وما نحب أن نطيل في بيان هذه النقطه لأن لها مكانا غير هذا . وانما نقرر أن الذي يراجع آثار الكتاب في ذلك العصر يقتنع بأنهم لم يكونوا في الأغلب رجال حشمة ووقار ، وانما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون^(١) .

٥ - ومن أهم الجوانب التي تمثل الحياة العقلية في ذلك العصر الخصومات العنيفة التي قامت بين الكتاب ، فقد كانت بينهم مناقشات ومجادلات نشأت من أطماعهم في الحياة المادية ، وكانوا يمثلون غالبا طوائف من الأفكار الدينية والحزبية يقومون في الدفاع عنها بما تقوم به الجرائد المغرضة في العصر الحاضر ، وكان لهم من القوة ما كان للشعراء ، فلم يكن بد من أن يتنافس أصحاب الملك في تزيينهم ، ولم يكن بد كذلك من أن يتنافس هؤلاء في الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك .

(١) وقد رأينا بعد البحث أنهم يؤثرون الأدب الصريح ، فيحدثون عن الهبات والموارات في عبارات مريضة لا تسترها كناية ولا تلويح ، وأكثرهم يمزج الجدل بالفن في أساليب مكشوفة يفرسها الطبع في بعض الأحيان . ولا نملك هنا إيراد الشواهد ، لأن الفرق في عصرنا بأبي ذلك . وحسبنا أن نشير إلى ما كتبه الثعالب عن بعض الموارات فقد شعر بشئ قليل من الحرج اضطره إلى أن يستدوينه الكلمات :

”ذكر الأعضاء لا يؤثم ، وانما الاتم في ذكرها شتم الأعراض وقول الزفت في أكل لحوم الناس وقذف

المخصنات“ ثمار القلوب ص ١٨٠

وهذه مشكلة قديمة في اللغة العربية ، فقد تحدث ابن قتيبة في مقامة عيون الأعبار عن هذا الأسلوب في التعبير ودافع عنه في حاشية بكلام طويل نكتفي به بالأسطر الآتية :

”واعلم أنك ان كنت مستغنيا — عن المزاج — بتشكك فان غيرك عن يترخص فيما شددت فيه يحتاج اليه . وان الكتاب لم يصل لك دون غيرك فنيأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقيق المزينين لذهب شطريهاته ، وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحيينا أن يقبل اليك منك . وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختف فيها مذاقات الطعم لأختلاف شهوات الآكلين . واذا مر بك حديث فيه لمصباح بذكر عورة أوفرج أو وصف فاحشة فلا يملك انتمشع أو التناشع على أن تصرخ عندك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وانما اللطم في شتم الأعراض وقول الزور والكتاب وأكل لحوم الناس بالنيب“ .

راجع مقدمة عيون الأخبار .

وفي الرسالة التي كتبها بديع الزمان الى أبي نصر بن المرزبان فقرات مرة تمثل ما كان عليه كتاب ذلك العصر من الطمع في المناصب الرسمية ومن ضعف الخلق عند الفنى، ومن النبل عند الفقر، إذ "تسليم أيام اللدونة، أوقات الخشونة، وأزمات المذوبة، ساعات الصعوبة" وقد كانوا كما قال : " ما آسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم، ولا أوقدت نارهم إلا أنطفأ نورهم، ولا زاد مالهم إلا نقص معرفتهم، ولا ورمت أكلهم إلا ورمت أنوفهم، ولا صلحت أحوالهم إلا فسدت أعمالهم، ولا فاض جاههم إلا غاضت مياههم، ولا لانت برودهم إلا صلبت خدودهم" وفي تلك المناقشات الشديدة، وتلك الدسائس المملونة، التي كانت تقع بين الكتاب دليل على جشعهم في حب الحياة وفهمهم لما فيها ماديا يتناسب مع تلك العبقريات الفنية التي ظهرت في فقرهم ورسائلهم وأبحاثهم . ومن المؤلم أن تظل قوة الحقد ويقظة الأثرة، وشدة المداوة، في كل عصر، من الساعات الغالبة على كبار الكتاب، فمن النادر أن نجد كتابا كريما يعطف على زملائه ويجب لهم الخير ويتقى لهم السداد . وقديما أفزعت هذه الظاهرة عبد الحميد بن يحيى - وكان رجلا نبلا - فكتب وصيته المعروفة يدعو بها الكتاب الى التعاون ونبذ الأحقاد . وفي أيامنا تبعت تلك الشوائب من جديد فلا نجد كتابا في العالم العربي يجب لأخيه ما يجب لنفسه، بحيث نظن أن شوب العبقرية يوحى بالطمع والاستبداد بالفضل والاستئثار بالجاه .

٦ - وأهم الخصومات التي وقعت بين كتاب ذلك العصر خصومة الهمداني والخوانساري وخصومة التوحيدى والمصاحب بن عباد .

أما خصومة الهمداني والخوانساري فنرجع الى رغبة الهمداني في الظهور وطمعه في الاكتراف بالشهرة، وأهم مصدر لهذه الخصومة الرسالة المطولة التي كتبها الهمداني في وصف المناظرة التي قامت بينه وبين الخوانساري، وهي رسالة مفرضة معلومة بالتعاطل والتهاوت، وليس فيها أفكار جديّة تجعل خصومة الرجلين خصومة بين عقليين، إنما هي محاورات لفظية تدل على

غلبة الزخرف وتمكنه من السيطرة على عقول أهل ذلك الجيل . ولو أن الخوارزمى دون بنوره تلك المناظرة لأبنا وجهين فى بسط ذلك الحادث الأدبى وأستطعنا أن نستخلص من مقابلة النصين قس الرجلين ، ولكن الممذانى تكلم وحده فعرفنا فقط مبلغ زهوه وكبريائه وطعمه فى فهر كاتب كان يومئذ على رأس الكتاتين .

أما خصومة التوحيدى لأبن عباد فترجع فيما ذكر كتاب التراجم الى سبب مادى ، وذلك أن التوحيدى رغب فى مال ابن عباد وجاهه فضاق عنه صدر هذا ، فكتب التوحيدى كتابه « مثالب الوزيرين » وهو كتاب جارح كشف به عورات ابن العميد وابن عباد . ثم عاد إليهما بالتهريج أيضا فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأسلوبه فى الهجاء أسلوب خطر فظيع إذ يختلق من الحوادث والإشارات وينطقهما برسائل ومقطوعات تهوى بهما الى الحضيض . ويعدُّ التوحيدى من الوجهة الفنية رجلا خصب الذهن ، غنى اللغة ، وافر المحصول ، قوى الخيال .

وقد تنبه المتأدبون الى تحامل التوحيدى وإسرافه فى التعصب ضدّ دينك الوزيرين وشاع الاعتقاد بأن كتابه مثالب الوزيرين كتاب مشعوم لا يملكه أحد إلا انكست أحواله ، ويذكر ابن خلكان أنه جرب هذا وجربه من يتق به !^(١) فاذا مع هذا الوهم كان التوحيدى قد عوقب على بشيه وظلمه وأقرانه : فقد أنطقى صاحب بن عباد ببيارات خجلة يندى لها وجه القارئ ويفتر منها الطبع والنوق ، وإن كانت نظمت فى أسلوب شائق خلاب .

٤ - انفضاضات

١ - ليست الفكاهات النثرية مما أبدته كتاب القرن الرابع ، ولكنها ظهرت فيه ظهورا واضحاً ، وصارت فنا واضح الرسوم ، بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصداً ، ويتنافسون في تزويرها وتعبيرها . ومن أشهرهم في هذا الباب بديع الزمان ، فقد كتب في الفكاهة عدة مقامات ، منها المقامة الشامية التي أطلق فيها « زوج الاثنين » أمام قاضي الشام ، وكانت إحداها تدعى صداقا ، والأخرى تلمس طلاقا .

القاضي : ما تقول في الملتمة صداقها^(١) ؟

الزوج : أعز الله القاضي ! صدق عن ما ذا ؟ وأنا غريب من أهل الإسكندرية ، فوالله ما أثقلت لي وتدا ، ولا أشبعت لي كبدا ، ولا عمرت خرابا ، ولا ملأت جرابا .

القاضي : إنك تبطلتها !

الزوج : نعم ! لكن فإ غير بارد ، وثديا غير ناهد ، وبطنا غير والد ، وعينا غير واجد ، وريقا غير ريق ، وطريقا غير ضيق .

القاضي - للزوجة - : ما تقولين ؟

المرأة : أيد الله القاضي ! هو أكذب من أمه ، وأكث في اللؤم من حيله ، وأفسد عشرة من أسفله . والله لقد صادفت من فمه صقرا ، ومن يده صخرا ، ومن صدره سم خباط ، لا يرشح بغيراط ، ولقد زففت إليه بدنا كالديباج ، ووجهها كالسراج ، وعينا كعين النعاج ، وثديا كحق العاج ، وبطنا كظهر الهملاج ، وحتي ضيق الزناج ، خشن المنهاج ، حار المزاج ، صعب العلاج ، ولكن كيف ألد ، وهو لا ينجز ما وعد؟ وكيف ينجز ولا يبعد؟ وهو يجتهد ، لو لم يمنه الوتد !

(١) حوّل هذه المقامة والتي بعدها الى الحوار بصرف قليل .

القاضى : أيا الرجل، قد رمتك بالعتة !

الزوج — وقد مال الى المرأة محتثا — :

ألم أجعل تسعينك ثلاثين؟ ألم أعرك فى ليلة عشرين، حتى أسقطت الجنين؟

المرأة : إشهد أيا القاضى على هذا الإقرار !

الزوج : خدعتنى يا دقار !

٢ — والمقامة المضيرية من أنضر ما كتب فى الفكاهات ، وأنظر كيف يتحدث عيسى

ابن هشام :

”كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندرى رجل الفصاحة والبلاغة ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار، فقدمت اليها مضيرة تنى على الحضارة؛ وتؤذن بالسلامة، وتشهد لماوية رضى الله عنه بالإمامة، فى قصعة يزل عنها الطرف، ويموج فيها الطرف، فلما أخذت فى الخوان مكانها، ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعبها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، وبثلبها وطاينها . وظنناه يمزح، فاذا الأمر بالصد، وإذا المزح عين الجحد، وتبقى عن الخوان، وترك مساعدة الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتجلبت لها الأفواه، وتلمظت لها الشفاه؛ وأتقتت لها الأكباد، ومضى فى أثرها القواد^(١) .

ولكننا ساعدناه على هجرها، وسألناه عن أمرها، فقال :

قصبت معها أطول من مصيبتى فيها، ولو حدثتكم بها لما أمنت المقت، وإضاعة الوقت .

قلنا هات .

فقال :

دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة النعيم، والكلب لأصحاب الرقيم، إلى أن أجبته إليها . وقتنا، فجعل طول الطريق يتنى على زوجته، ويضربها بهجته، ويصف حذقها فى صنعتها، وتأقها فى طبخها، ويقول :

(١) القارئ أن يلاحظ الفكاهة فى هذا الموضع .

يامولاي، لو رأيتها، وانخرقة في آستها، وهي تدور في الدور، من التنور إلى القدور،
ومن القدور إلى التنور، تنفث فيها النار، وتدفق بسديها الأبرار، ولو رأيت الدخان
وقد غبر في ذلك الوجه الجميل، وأثر في ذلك الخلد الصقيل، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون، وأنا
أعشقها لأنها تمسقني، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته، وأن يسعد بظلميته،
ولا سيما إذا كانت من طيبته، وهي ابنة عَمَى لحًا طيبتها طيقي، ومدينتها مديني، وعمومتها
عمومي، وأرومتها أرومتي، لكنها أوسع مني خُلقًا، وأحسن خُلقًا .
وصدحتي بصفات زوجته، حتى آتيتها إلى محله، ثم قال :

يامولاي ! ترى هذه المحلة ؟ هي أشرف محال بغداد، يتنافس الأخيار في تزولها،
ويتفاير الكبار على حلولها، ثم لا يسكنها غير التجار، وإنما المرء بالجار، وداري في السلطة^(١)
من قلاتها، والنقطة من دائرتها .

كم تقدر يامولاي أنفق على كل دار منها ؟
قله تخمينًا، إن لم تعرفه يقينًا .
أبو الفتح : الكثير !

التاجر : يا سبحان الله ! ما أكبر هذا النسل ! يقول الكثير فقط ؟
(وتنفس الصعداء ، وقال سبحان من يعلم الأشياء !)

قال أبو الفتح : وآتيتها إلى داره .

التاجر : هذه دارى . كم تقدر يامولاي أنفقت على هذه الطاقة، أنفقت والله عليها
فوق الطاقة، ووراء القاعة . كيف ترى صنمها وشكلها، أرايت باقة مثلها ؟ أنظر إلى دقائق
الصنعة فيها، وتأمل حسن تمريرها فكأنما خط بالبركار . وأنظر إلى حذق التجار في صنعة
هذا الباب، اتخذه من كم ؟ قل .

(١) السلطة : الرأسة، وهي كلمة يكثر ورودها في كلام بدیع الزمان في مثل هذا المنى قد جاء في القامة
السجانية ما نصه :

« آتيت من دائرة البلد إلى قلعها، ومن قلعة السوق إلى سعتها » .

أبو الفتح : ومن أين أعلم ؟

التاجر : هو ساج من قطعة واحدة ، لا ماروض ولا عفن ، اذا حرك أت ، واذا قرط . من آتخذة يا سيدى ؟
أبو الفتح : ؟

التاجر : اتخذة أبو اسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأنواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد فى العمل . لله دزد ذلك الرجل ! بيمأتى لا أستعت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ؟ تراها ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية . وكم فيها ياسيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دقورها ، ثم أقورها وأبصرها ، وبيمأتى عليك لا اشتريت الحلق إلا منه ، فليس يبيع إلا الأعلاق .
قال أبو الفتح : ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال :

التاجر : عمرك الله يا دار ، ولا تخربك يا جدار ، فإأمن حيطانك ، وأوق بياتك ، وأقوى أساسك ! تأمل بالله معارجها ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلتها ، وكم من حيلة آحتلتها ، حتى عقدتها ؟
أبو الفتح : ؟

التاجر : كان لى جار يكتنى أبأ سليمان يسكن هذه المحلة ، وله من المال ما لا يسمعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف خلفا أغلفه بين التمر والزمر ومزقه بين الترد والقمر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يبعها عرضة لمخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فأقطع عليها حمرات ، إلى يوم المات ، فعمدت إلى أنواب لا تنض تجارتها ، فحملتها إليه ، وعرضتها عليه ، وسامته على أن يشتريها نسيّة ، والمذبر يجب النسيّة عطية ، والمتخلف بمتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال فقبل ، وعقدها لى ، ثم تفاقت عن اقتضائه ، حتى كادت حاشية حالة ترق ، فأتيته ، فاقتضيت ، وأستهلنى فانظرت ، وأتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يحمل داره

رهينة لدىّ، ووثيقة في يديّ، فعل ، ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها فحصلت لي مجد صاعد، وبخت مساعد ، وقوة ساعد، ورب ساع لقاعد ! وأنا بحمد الله مجدود في مثل هذه الأحوال ، وحسبك يا مولاي أني كنت منذ ليال نائما في البيت مع من فيه إذ قُبِرَ علينا الباب ، فقلت من الطارق المتاب ، فاذا امرأة معها عقد لآل ، في جلد ماء ورقة آل ، تعرضه للبيع ، فأخذته منها بإخذة خلس، واشتريته بجن بنجن، وسيكون له نفع ظاهر، ورجح وافر، بسون الله تعالى .

وانما حدثتك بهذا الحديث لتحلم سعادة جدي في التجارة ، والسعادة تنبئ الماء من البحارة، الله أكبر! لا يتركك أصدق من نفسك، ولا أقرب من أمسك، اشتريت هذا الحصير في المناداة، وقد أخرج من دور آل الفرات، وقت المصادرات، وزمن الفارات، . وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطون فلا أجد ، والدهر حُلّي ليس يُدرى ما يلد ، ثم أخفق أني حضرت باب الطاق، وهذا يعرض في الأسواق، فوزنت فيه كذا وكذا دينارا . تأمل بالله دقته ولينه وصنعتة ولونه، فهو عظيم القدر، لا يقع مثله الا في الندر، وإن كنت سمعت بأبي عثمان الحصري فهو عمله ، له أبن يخلفه الآن في حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده، فيحياتي لا اشتريت الحصر الا من دكانه، فالمؤمن ناصح لآخوانه ، لا سيما من تحزم بخوانه “ .

الى هنا يتصور القارئ جبر أبي الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة .

ولكن التاجر يستأنف الحديث فيقول :

” ونعود الى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظهيرة “ .

يا غلام! الطست والماء .

أبو الفتح — في سره — الله أكبر! ربما قرب الفرج، وسهل المخرج .

(ويتقدم الغلام بالماء) .

التاجر : ترى هذا الغلام ؟ إنه رومى الأصل ، عراقى النشء ، تقدم يا غلام وأحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وأنض عن ذراعك ، وأقر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر .

(ويفعل الغلام ذلك) .

التاجر : بالله من أشتراه ؟

أبو الفتح : ؟

التاجر : اشتراه والله أبو العباس ، من الناس ، ضع الطست وهات الابرى .

(يضع الغلام الابرى ويأخذه التاجر فيقلبه ويدبر فيه النظر ثم ينقره) .

التاجر : أنظر الى هذا الشبه كأنه جذوة الذهب ، أو قطع الذهب ، شبه الشام وصنع العراق ، ليس من خُلقان الأعلاق ، قد عرف دور الملوك . تأمل حسنه وعلنى : متى أشتريته ؟

أبو الفتح : ؟

التاجر : اشتريته والله عام المجاعة ، وأذنرت له هذه الساعة ، يا غلام الابرى .

(يقدم الغلام الابرى فيأخذه التاجر وقلبه) .

التاجر : وأنبوه منه ، لا يصلح هذا الابرى الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يصلح هذا الدست الا فى هذا البيت ، ولا يجمل هذا البيت الا مع هذا الضيف ، أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام .

(ويصب الغلام الماء فيتأمله التاجر ويقول :) .

التاجر : ترى هذا الماء ؟ ما أصفاه ! أزرق كمين السور ، وصاف كفضيب البلور ، استقى من الفوات ، وأستعمل بعد الليات ، بغاء كلمان الشمعة ، فى صفاء الدمعة ، وليس الشأن فى السقاء ، الشأن فى الإناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه ... وهذا المنديل ؟ سلى عن قصته فهو نسج جرجان ، وعمل أوجان ، وقع الى فاشترته ، فاتخذت بعضه أمراًتى سراويل ، واتخذت بعضه مندبلا ، دخل فى سراويلها عشرون ذراعاً ، وأتقرعت

من يدها هذا القدر انزعاجاً ، وأسلمته الى المطرز حتى صسنه كما تراه ، وطوزه ثم رددته من السوق ، ونزنته في الصندوق ، وأذخرته للطراف ، من الأضياف ... يا غلام ! الخوان ، قد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع ، والطعام ، فقد كثر الكلام .

(ويأتى الغلام بالخوان فيقلبه التاجر وينقره ببنانه ويسجمه بأسنانه) .

التاجر : عمر الله بقداد ! فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها ، تأمل بالله هذا الخوان وأنظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله .

أبو الفتح — وقد ضاق صدره — :

هذا الشكل ، فتي الأكل ؟

التاجر : عجل يا غلام ، لكن الخوان قوائمه منه .

أبو الفتح — وقد جاشت نفسه — :

يقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة أين أشتريت أصلاً ، وكيف اكرتت لها حملاً ، وفي أي رحى طحن ، وإجانة عجن ، وفي أي تور سحر ، وخباز استؤجر ؟ .

ويقي الحطب ، من أين أحتطب ، ومتى جلب ، وكيف صفف ، حتى جفف ، وحبس

حتى يس ؟ ؟

ويقي الخباز ووصفه ، والتابيض ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته .

وبقيت السكرجات من أخذها ، وكيف آتفتها ، ومن آستعملها ، ومن عملها ؟ ؟

وأنخل كيف آتنق عنه ، أو آشتري رطبه ، وكيف صهرجت معصرته ، وآستخلص له ،

وكيف قيرجه ، وكما يساوي دنه ؟

ويقي البقل كيف آحتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ؟

وبقيت المضيرة ، كيف آشتري لحمها ، وفي شحمها ، ونصبت قدرها ، وأجمت نارها ،

ودقت أبرزارها ، حتى أجيد طبخها ، وعقد مرقها ؟ وهذا خطب يعظم ، وأمر لا يتم !

(ويقيم أبو الفتح) .

التاجر : أين تريد ؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !

التاجر : يامولاي ! تريد كنيفا يزرى برىعى الأمير، وتعرفى الوزير، قد جُصص أعلاه، وصُهرج أسفله، وسطّح سقفه، وفُرشت بالمرمر أرضه، يزل عن حائطه اللد فلا يلقا، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق، عليه بابٌ غير أنه من خليطى ساج وعاج، مزدوجين أحسن أزدواج، يتجنى الضيف أن يأكل فيه .

أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكتيف فى الحساب !

(ويمضى أبو الفتح فيقول) .

وتخرجت نحو الباب، وأسرعت فى الذهاب، وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح (ياأبا الفتح، المضيرة، ياأبا الفتح) وظن الصبيان المضيرة لقبا فصاحوا صباحه، ورمت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقى رجل الحجر بهامته، ففادى فى هامته، فأخذت من النعال بما قدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت الى الجبس، فأقمت عامين فى ذلك التحس، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت، فهل أنا فى ذا يا آل همدان ظالم ؟

قال عيسى بن هشام :

فقبلنا عذره، ونذرنا نذره، وقلنا : قديما جنت المضيرة على الأحرار، وقدمت الأراذل على الأخيار !

٣ - ومن الفكاهات التى صيغت صياغة فنية ما كتبه أبو الخطاط الصابى فى صفة

حمل أهله اليه أبو العباس بن سابور :

« وصلت رققتك ففضضتها عن خط مشرق، ولفظ موقوف، وجارة مصيبة، ومعان غريبة، وأنساع فى البلاغة يعجز عنه عبد الحيد فى كتابته، وسبحان فى خطابه، وتصرف بين جذ أمضى من القدر، وهزل أرق من نسيم السحر، وتقلب فى وجوه الخطاط، الجامع

للصواب، إلا أن الفعل قصر عن القول : لأنك ذكرت حلا، جعلته بصفتك جملا، فكان المعيدى الذى تسمع به ولا أن تراه . وحضر فرايت كبشا متقادما الميلاد، من نتاج قوم عاد، قد أفته الدهور، وتماقت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح فى سفينه، وحفظ بهما جنس النعم لذريته، صغر عن الكبر، ولطف عن القدم، فبانت دمايته، وقاصرت قامته، وعاد فاحلا ضئيلا، باليا هزىلا، بادی السقام، عارى العظام، جامعا للعائب، مشتتلا على المثالب، يجيب الماقل من حلول الحياة به، وتأثى الحركة فيه، لأنه عظم مجلّد، وصوف ملبّد، لا يجد فوق عظامه سلبا، ولا تلق يدك منه الا خشبا . لو ألقى الى السبع لأباه، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه، قد طال للكلأ فقده، وبعد بالمرعى عهده، لم ير القت إلا نائما، ولا عرف الشعور إلا حالما . وقد خيرتني بين أن أقتنيه فيكون فيه غنى الدهر، أو أذبحه فيكون فيه خصب الرجل، فلت إلى استبقائه لما تعرف من محبتي فى التوفير، ورغبتي للتشير، وجمعي للولد، وأدخاري للعتد، فلم أجد فيه مستمتعا للبقاء، ولا مدفعا للفناء، لأنه ليس بأثنى فتحمل، ولا بقوى فينسل، ولا بصحيح فيرى، ولا بسليم فيبقى، فلت الى الشانى من رأييك، وعولت على الآخر من قوليك، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للبيال، وأقيمه رطباً مقام قديد الغزال، فأنتسدتنى وقد أضمرت النار، وحدثت الشفار، وشمر الجزار :

أعيانها نظرات منك صادقة أن تحسب الشعير فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائدة لك فى ذبجى، وأنا لم يبق منى إلا نفس خافت، ومقلة إنسانها باهت، لست بذى حلم فأصلح للأكل، لأن الدهر قد أكل لحمى، ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمى، ولا لى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصّت وبرى !! فان أردتني للوقود فكف برأيتى من نارى، وإن نعى حرارة جمرى برىح قنارى ! فلم يسق إلا أن تطلبني بنخل، أو بنى وبينك دم ! فوجدته صادقا فى مقالته، ناصحا فى مشورته، ولم أعلم من أى أمره أعجب ؟ أمن ملاحظته الدهر بالبقاء ؟ أم صبره على الضرر والأواء ؟

أم قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم تأهلك الصديق به مع خسارة قدره ! وبأيت شعرى إذ كنت وإليك سوق الغنم ، وأمرأك ينفذ فى الضأن والمعز ، وكل كبش سمين ، وحمل بطين ، مجلوب إليك ، مقصور عليك ، تقول فيه قولاً فلا تردّ ، وتریده فلا تصدّ ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر من القبور ، أو قائم عند النفخ فى الصور ، فما كنت مهدياً لو أنك رجل من مرضى الكتاب ، كأبى على وأبى الخطاب ، ما كنت تهدي إلا كلباً أجرب ، أو قرداً ^(١) أحذب ! !” .

٤ — وكتب أبو إسحاق الصابى يمزى أبا بكر بن قريصة عن نور أبيض جلس للزء عليه ترافعا وتحمافا .

”التعزية على المفقود — أطال الله بقاء القاضى ! — إنما تكون بحسب محله من فاقده ، من غير أن تراعى قيمته ، ولا قدره ، ولا ذاته ، ولا عينه ، إذ كان الغرض منها تبريد الغلة ، وإخماد اللوعة ، وتسكين الزفرة ، وتنفيس الكربة ، فربّ ولد حاق ، وأخ مشاق ، وذى رحم أصبح لما قاطعاً ، وقريب قوم قد قلدهم عارا ، وناط بهم شتارا ، فلا لوم فى ترك التعزية عنه ، وأحر بها أن تكون تهينة بالراحة منه . ورب مال صامت غير ناطق ، قد كان صاحبه به مستظهِراً ، وله مستثمراً ، فالفجعة به إذا فقد موضوعة موضعها ، والتعزية عنه واقعة منه موقعها . وقد بلغنى أن القاضى أصيب بشور كان له بجلوس للزء عنه شاكياً ، وأجهش عليه بايكاً ، وللندم عليه والها ، وحكى عنه حكايات فى التأين له ، وإقامة الندبة عليه ، وتعدد ما كان من فضائل البقر التى تفرقت فى غيره ، وأجتمعت فيه وحده ، فكان كما قال أبو نواس ، فى مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

لأنه يكرب الأرض مغمورة ، ويشيرها مزروعة ، ويدور فى الدواليب ساقياً ، وفى الأرحاء طاحتاً ، ويمجمل الغلات مستقلاً ، والإنقال مستخفاً ، فلا يؤوده عظيم ، ولا يسجزه جسيم ، ولا يجرى فى الحائط مع شقيقه ، ولا فى الطريق مع رفيقه ، إلا كان جلداً لا يسبق ، ومبرزاً

لا يلحق، وقاتنا لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته. ويشهد الله أن مأساه ساعى، وما آله لكفى. ولم يميز غنسى في حق وده، استصغار خطب جل عنده فأرضه وأرقه، وأحضره وأقلقه؛ فكثبت هذه الرقة فأصابها من الجوى في مصابه هذا بقدر ما أظهر من إكباره إياه، وأبان من إعظامه له، وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر، عن البقر، وأن يفرد هذه البيعة السجاء بأثرة من الثواب، يضيفها إلى المكلفين من ذوى الألباب، فانها وإن لم تكن منهم، فقد استحقت أن لا تفرد عنهم، بأن مس القاضي سبها، وصار إليه منتسبها، حتى إذا أنجز الله ما وعد به من تجميع سيئاتهم، وتضيف حسنتهم، والإفضاء بهم إلى الجنة التي رضى لهم دارا، وجعلها لجماعتهم قرارا، وأورد القاضي أيده الله تعالى موارد أهل النعم، مع أهل الصراط المستقيم، جاء وثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به! وكأن الجنة لا يدخلها الخبيث، ولا يكون من أهلها الحدث، ولكنه عرق يجرى من أعراضهم؛ كذلك يعمل الله نور القاضي مريكا من العنبر الشجرى، وماء الورد الجورى، فيكون له جونة عطرونور! وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر، ولا مستعجب ولا متعذر، إذ كانت قدرته بذلك محيطة، ومواعيده لأمثاله ضامنة، بما أعده الله في الجنة لعباده الصادقين، وأوليائه الصالحين، من شهوات أنفسهم، وملذات أعينهم، ما هو منحة من غامر فضله، وفائض كرمه، عاقبة ذلك مع صالح مساعيه، ومجود شيمه، وقلبي بمعرفة خبره — أدام الله عزه! — فيما أدرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من إيتار الأجر، ورضع إليه من السكون لأمر الله تعالى في الذى طرقه، والشكر له فيما أنعمه وأقلقه، فليرغنى القاضي من ذلك ما أكون ضاربا معه بهمهم المساعدة عليه، وأخذنا بقسط المشاركة فيه^(١).

٥ — ومن أطرف ما كتب على طريق المزمل والفكاهة "عهد التطفل" وهو عهد أنشاه أبو إسحاق الصابى على لسان طفلى اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه. والظريف في هذا العهد أنه يجرى على نمط اليهود السلطانية فيبدأ بمرض خصائص المهود إليه، ويعين المهمات التي كتب من أجلها العهد فيقول:

(١) راجع جواب هذا الخطاب في زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٣

”هذا ماعهد به عليّ بن أحد المعروف بعلিকা إلى عليّ بن عرس الموصل، حين استخلفه على إحياء سنه، وأستانبه في حفظ رسومه، من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكافها، ويجرى معها في مصادها وأطرافها، لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة المضغ، وراه أهلا له من سدّ مكانه ...“ .

ثم يأخذ الأمر بالجد فيقول :

”أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكاثفة، والجنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد ... وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ويراقبه في قوله وفعله ...“ .

وبعد كلام طويل في هذه النصائح الجدية ينتقل إلى صدر الموضوع فيقول :

”وأمره أن يتأمل أسم التطفل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنعاه ... فان كثيرا من الناس قد استجبهم ممن فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله منه على الشفه والقرم، ففهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله، ومنهم من شخ على ماله، فدافع عنه بأحبياله، وكل الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم، ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان، فهي تتدله إذا كان لها، وتندلي عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنية في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد الواغل، وهي أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية ... وقد عُرِفَ بالتطفل، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل، لأنه مشتق من الطُفْل وهو وقت المساء، وأوان العشاء، فلما كثر استعمل في صدر النهار وعجزه، وأوله وآخره، كما قيل للشمس والقمر : قران وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر : العمران وأحدهما عمر، وقد سبق إمامنا (بيان) (رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقا أوجب له خلود الذكر، فهو باق بقاء الدهر، ومتجبد في كل عصر، وما نعرف أحدا نال من الدنيا حظا من حظوظها فبق له منه أثر ينفقه وصوت يستبد به

(١) لا نذكر أنا المصنف على شيء من نوادر (بيان) هذا، ولكن يظهر أنه كان من الشخصيات المشهورة بالفضل في الأزمان الماضية .

إلا هو وحده ، فيأبى رضوان الله عليه يذكر بتفطيله كما تذكر الملوك بسيورها ، فمن بلغ إلى نهايته ، أو جرى إلى فائته ، سعد بضارة عيشه في يومه ، ونباهة ذكره في غده . جعلنا الله جميعا من السابقين إلى مداه ، والمذكورين كذكره ! ” .

ويقول فيمن يجب أن يشاهم المتطفلون :

” وأمره أن يستمد موائد الكبراء والعطاء بفزاياه ، وتُحط الأُمراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفر منها بالفنيمة الباردة ، ويصل عليها إلى التربة النادرة ، وإذا استقرأها وجد فيها من طرائف الألوان ، المذلة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائفة في الحلقوم ، مالا يحده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لئيمهم ، لحققت صناعتهم ، وجودة أدواتهم ، وأزياع علمهم ، وكثرة ذات بينهم ، وانه يوفر من ذلك حظنا ، ويستد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا ” .

ويقول في أخلاق الموسرين من التجار :

” وأمره أن يعرض لموسرى التجار ، ومجهزى الأمصار ، من وكيرة الدار ، والعرس والإعذار ، فانهم يوسعون على نفوسهم في النواثب ، بحسب تضيقهم عليها في الزائب ، وربما صبروا على تطفيل المتطفلين ، وأغضوا على تجهيم الواغيلين ، ليتحدثوا بذلك في مجالسهم الرذلة ، ويمتنعوا في مكالم أخلاقهم السذلة ، ويقول قائلهم الباج باتساع طعامه ، المباهى بكثرة حطامه : إننى كنت أرى الوجوه الغريبة فاطعمها ، والأيدى الممتدة فأماؤها . وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعة ، وإنما أرادت المَن والسحمة ، فإذا أهدى الأرب إلى طرائقها وصل إلى بقيته من إعلان قضيتها ، وفاز بمراده من ذخائر حستتها ، إن شاء الله ” .

ويقول فيما يجب على المتطفل من مصادقة المدبرين والطباخين والحمالين :

” وأمره أن يصادق قهارة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحمالها ، فانهم يملكون من أمهاتهم أزمنة مطاعهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل مودقاتهم

(١) تأمل الفكاكة في حارة (رضوان الله عليه) . (٢) الكوكبة طعام يصل إبتهاجا بالقرع من بناء البيت .

(٣) الاضادار : الختان ، وهو أيضا تقديم طعام الختان . (٤) القهارة جمع قهرمان وهو رئيس الخدمة المنزلية .

ومعارفهم . وإذا عدت هذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانتها ، واتخذته أبا من إخوانها ، سعد بمرافقتها ، ووصل إلى محابه من جهاتها ، ومآربه فى جنباتها “ .
وأوصاه بسد ذلك أن يتعهد الأسواق ليتوسم من يتهاون لإقامة الولائم . ونصحه بأن ينسحب الأرصاد على منازل المغنين والمغنيات ، وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرعاع المقترين ، لأن التطفيل على المعوزين إجحاف ، وفيه إضرار بمروءة المتطفلين !
ثم قال فى سياسة الأكل :

”وأمره أن يميز الخوان إذا وضع ، والطعام إذا نقل ، حتى يعرف بالحدس والتقريب ، والبحث والتتقيب ، عدد الألوان فى الكثرة والقلة ، وأقناتها فى الطيب واللذة ، فيقدر نفسه أن يشبع مع آخرها ، ويتبى منها عند انتهائها ، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليها ، ولا يخطئه الخط من دقيقها وجليلها ، ومتى أحس بقلة الطعام ، وعجزه عن الأقوام ، أمعن فى أوله إمعان الكبس فى سعيه ، الرشيد فى أمره ، المائى لبطنه ، من كل حار وبارد ، وخيث وطيب ، فانه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تطرفا ، ويُقلون تادبا ، ويظنون أن المادة تبلتهم فى آثر أمرهم ، وتتهى بهم الى غاية سميمهم ، فلا يلبثوا أن ينجسوا بنجاسة الوائب ، وينقلبوا بحسرة الخائب . أعاذنا الله من مثل مقامهم ، وعصمتنا من شقاء جدودهم ، إن شاء الله ! “

ثم قال يوصيه بأحوال الضيم فى سبيل البطن :
”وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفعا ، ويطوى دونه كشعا ، ويستحسن الصمم عن الفحشاء ، وإن أنهت الذكرة فى حلقة ، صبر عليها فى الوصول الى حقه ، وإن وقعت به الصفعة فى راسه ، صبر عليها لموقع أضراره ، وإن لقيه لاقى بالهفاء ، قابله باللطف والصفاء ، اذ كان قد ولىح الأبواب ، وخالط الأسباب ، وجلس مع الحضور ، وأمرج بالجمهور ، فلا بد أن يقصاه المنكر لأمره ، ويمر به المستغرب لوجهه ، فان كان حرا حيا أمسك وتذم ، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم ، ويتجنب عند ذلك المخاشنة ، وأستعمل مع المخاطب له الملاينة ، ليبرد غيظه ، ويقل حده ، ويكف غريبه ، ويأمن شغبه ، ثم اذا طال

المدى تكررت الألفاظ عليه صرف، وأنست النفوس به فآلف، ونال من الحال المجتمع عليها،
منال من حشم وسئل القهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من المصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفل على وليمة،
لرجل ذى حال عظيمة، فرمقته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون، فقال له
قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى الى هذا الحق ، قليل له :
وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : اذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسى . فبقي
به إليه . فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك أن يصنع طعاما زائدا على عدد
الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين ؟ قال : نعم ! قال : فانما تلك الزيادة لى ولأمتالى .
وبها يستظهر لمن جرى مجرى ، وهى رزق لنا أنزله الله على يدك وبك . فقال له : كرامة
ورحبا، وأهلا وقربا ! والله لا جلست إلا مع طيبة الناس ووجوه الجلساء ، إذ أظرفت
فى قولك، وتغننت فى فعلك . فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به، إن شاء الله ! “
وأوصاه بعد ذلك أن يكثر من تصاهد الأشياء المقوية للعدة المشهية للطعام “فانها عماد
أمره وقوامه، وبها آتتظامه والثباته” إذ كانت تعين على حضور دعوتين، وتنهض المتطفل
لأن يأكل فى اليوم الواحد أكلتين !

وختم عهد التطفل بهذا الختام الطريف :

”هذا عهد طيكان أحمد اليك، وحجته لك عليك، لم يالك فيه إرشادا وتوقيفا، وتهنئيا
وتثقيفا، وبيتا وتبصيرا، وحقا وتذكيرا، فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزجرا، ولرسومه
متبعا، وبمحفظها مضطعا، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته“ .

٦ — وفوق الفكاهة يطلب على كلب القرن الرابع، ولكن المهم فى هذا الفصل أن
يعرف القارئ أنهم كانوا يعمدون الى هذا الفن . وعهد التطفل الذى نلصناه يدل أوضح
الدلالة على أن الفكاهة صارت فنا من فنون القول . وكان يودنا أن نكثر من الشواهد، ولكن
هذا الباب فى جملة لا يراد منه الا عرض النواحي البارزة فى الأساليب والأغراض .

٥ - النسيب

١ — النسيب من الموضوعات التي أحكرها الشعر عند العرب . وتلك نزعة طبيعية : فإن النسيب والنزل من أرق ألحان الغناء ، وذلك يفرض أن تؤدى تلك المعاني في كلام مقفى موزون . ولم نجد في المجموعات الأدبية مختارات ثرية في النسيب ، لأن مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن النزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية .

غير أننا نجد في النثر لأقدم عهد عهده نماذج غزلية ، كالذى وقع في القرآن وصفا للهود والولدان . نحو :

”وَحُورٌ عِينٌ ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ“^(١)

ونحو :

”ويطوف عليهم ولدان مخلدون ؛ بأكواب وأباريق ، وكأس من معين“ .

وكما جاء في سورة الواقعة :

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً : فَلَئِنَّ أَكْبَارَهُنَّ عُرْبًا آثِرَاتٌ﴾^(٢) .

فهذه كلها أوصاف تدخل في باب النسيب . ونسب الى إحدى النساء حديث في وصف الرسول هو أيضا نسيب لأنها تكلمت عن أوصافه الحسية التي تعين أنه إنسان جميل ، ووصف الجمال من ألوان النسيب .

٢ — ثم جاء القصص الغرامى الذى شاع في عصر بنى أمية وأول عصر بنى العباس .

(١) الحور جمع حواء من الحور بالتحريك وهو أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها . والبن جمع عينا . وهى سوداء العين فى سعة . (٢) العرب جمع عروب وهى العاشقة لزوجها أو المنحبة اليه .

وهو قصص كثير تجد أطايه مبعثرة في صكتب الأدب هنا وهناك ، وفيه فقرات من
الغزل الصرف تؤدي ما يؤديه الشعر من ملج الأوصاف . والى القارئ شاهدا من تلك
الأقاصيص :

” نخرج أناس من بني حنيفة ينتهون الى جبل لهم ، فبصر قى منهم يقال له عباس
بجارية فهويا ، وقال لاصحابه : والله لا أنصرف حتى أرسل اليها ، فطلبوا اليه أن يكف
وأن ينصرف معهم فأبى ، وأقبل يرأسل الجارية حتى وقع في نفسها ، فأقبل في ليلة إجماعه^(١)
متكبيا قوسه وهي بين إخوتها نائمة ، فأيقظها فقالت : انصرف ، وإلا أيقظت إخوتي
فقتلوك . فقال : والله لآوت أيسر مما أنا فيه . ولكن لله علىّ إن أعطيني يدك حتى أضعها
على فؤادي أن أنصرف . فأمكنته من يدها ، فوضعها على فؤاده ثم أنصرف . فلما كان من
الغابة أتاها وهي في مثل حالها ، فقالت له مثل مقاتلها ، وردّ عليها وقال : ان أمكنتني من
شفتيك أرفشهما أنصرفت ثم لا أعود اليك . فأمكنته من شفتيها فرشهما ثم أنصرف . فوقع
في قلبها منه مثل النار . ونذره الحى فقالوا^(٢) : ما لهذا الفاسق في هذا الجبل ! انهضوا
بنا إليه حتى نخرجه منه . فأرسلت إليه : ان القوم يأتونك الليلة فاحذر . فلما أمسى قعد
على مرقب ومعه قوسه وأسمه . وأصاب الحى من آخر النهار مطر^٣ وندى فلهوا عنه ،
فلما كان في آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجت وهي تريده وقد أصابها الطل
ففتشت شعرها وأعجبت نفسها ومعها جارية من الحى ، فقالت : هل لك في عباس ؟
فخرجتا تمشيان ، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما عن يطلبه ، فرى بهن فمأ أخطأ
قلب الجارية ففلقه ! وصاحت الأخرى فاحمدر من الجبل وإذا هو بالجارية في دمها فقال :

نعب الغراب بما كرهت ولا إزالة للقدر
تبكى وأنت قتلتها فاصبر وإلا فأنتحمر

(١) اضيافة : مقبرة .

(٢) نذره الحى : علوا به .

”ثم وجأ فى أوداجه بمشاقصه، وجاء الحى فوجدوها مقتولين“^(٣).

فى هذه الأقصوصة تماير غزلية لا تخفى على فطنة القارئ .

٣ — ويتصل بهذا الفن ما جاء فى وصف المخطوبات كقولهم أحدهم لصاحبه :

”ابنى امرأة بيضاء البياض، سوداء السواد، طويلة الطول، قصيرة القصر“^(٤).

وقول آخر :

”ابنى امرأة لا تؤهل داراً، ولا تؤنس جاراً، ولا تفت ناراً“^(٥).

وقول أعرابى لابن عمه :

”أطلب لى امرأة بيضاء، مديدة فرءاً،^(٨) جعدة فرءاً^(٩)، جعدة فرءاً^(١٠)، فلا يصيب قميصها منها الا مشاة^(١١)

منكبها، وحلمتى تديها، ورانفتى أليتها^(١٢)، ورضاف ركنيتها^(١٣)، اذا استقلت فرميت تحبها^(١٤) بالأتربة العظيمة تغدت من الجانب الآخر“.

فقال له ابن عمه : وأنى يمثل هذه إلا فى الجنان !^(١٥)

٤ — وأثرت عن الأعراب كلمات غزلية كقول أحدهم فى وصف الهوى :

”هو أعظم ملكا فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النفس ؛ يظهر

ويظن، ويكتف ويلطف، فامتنع عن وصفه اللسان ، وعى عنه اللسان ، فهو بين السحر

والبحفون ، لطيف المسلك والكفون“^(١٥).

(١) وجأ : ضرب . (٢) المشاقص جمع مشقص وهو نصل السهم اذا كان طويلاً غير عريض .

(٣) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ١٣٣ و ٣٤٠ . (٤) يريد : كل شئ، منها أبيض فهو شديد البياض ، وكل شئ، منها أسود فهو شديد السواد . وكذلك الطول والقصر — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ .

(٥) لا تجمل دارها أهله بدخول الناس عليها . (٦) لا تؤنس الجيران بدخولها عليهم .

(٧) أى لا تم ولا تقرب من الناس — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ . (٨) طويلة .

(٩) الفرء : ذات الفرع وهو الشعر . (١٠) جعدة : مجتمعة الخلق . (١١) المشاة : رموس العظام . (١٢) مشى رافقة وهي أسفل الآلية التى على الأرض عند القنود . (١٣) الأتربة : تفرج من جنس الليمون . (١٤) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ و ٦ .

(١٥) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٢ .

وسمع الأصمى - امرأة من العرب تصف امرأة وهي تقول :

”بيضاء غضة^(١)، وذمء رخصة^(٢)، قباء طفلة، تنظر بعيني شادن ظمآن، وتبسم عن مشور الأخوان، في غب التهان، بأساريج الكتبان، خلقها عمى، وكلامها رخم“.

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال :

”هي زينة الحضور، وباب من أبواب السرور، ولَّد كرها في المغيب، والبعد من الرقيب، أشهى إلينا من كل ولد ونسيب، بها عرف فضل الحور العين، وأشتق بها اليهن يوم الدين“.

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت :

”لامع الهوى بملكه، ولا ملئ بسلطانه ! وقبض الله يده، وأوهن عضده ! فانه جائر لا ينصف في حكم، ولا يقصر في ظلم، ولا يرعوى للذم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقى على عقل وفهم . لو ملك الهوى وأطيع رذ الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها“.

وقال أعرابي :

”دخلت بنداد فرائت فيها عيوننا دججا، وحواجب زججا، يسبحن الثياب، ويسلبن الأكباب“.

وقال رجل من فزارة لرجل من بنى حذرة : تعدون موتكم في الحب مزية، وإنما ذلك من ضعف البنية، وبجز الروية .

فقال العذرى : أما أنكم لو رأيتم المحاجر البلج^(٧)، ترشق بالأعين الدجج، فوقها الحواجب الزجج، وتحتها المباسم الفلج^(٨)، والشفاه السمر، تفتقر عن التنايا الغر، كأنها برد الدر، لجمتموها اللات واليزى، ورفضتم الاسلام وراء ظهوركم“.

(١) غضة : بيضة . (٢) وذمء : جسمها ريان . (٣) رخصة : لينة .

(٤) الأساريج جمع أسروع وهو نوع من دود الرمل تشبه بالأنامل . (٥) الدجج جمع دججا . من الدجج

بالتحريك وهو سواد العين مع سمتها . (٦) نرجع أزعج من الزجج بالتحريك وهو دقة الحاجبين في طول .

(٧) البلج جمع أبلج وهو الأبيض . (٨) الفلج جمع أفلج من الفلج بالتحريك وهو تباعد ما بين الأسنان .

وذكر أعرابي نساء فقال :

”ظلمان فى موالفهن طول، غير قبيحات المطول^(١)، اذا مشين أسبلن الذبول، وإن ركبنا
أنهالن الجمول“ .

ووصف آخر نساء فقال :

”يتلشن على السباك، ويتشحن على النيازك^(٢)، ويقرن على العوانك^(٣)، ويرتفنق على
الأرائك، ويتهادين على الدوانك، ابسامهن وميض، عن ثفر كالاغريض، وهن عن الصبا
صور^(٤)، وعن الحيا حور“ .

٥ — ولم نجد فيما طالعناه رسالة غرامية لأحد كتاب القرن الأول، أما القرن الثانى
فتجد فيه شواهد، من ذلك ما حدث مخارق المغنى إذ قال :

”لقبى أبو احماق اسماعيل بن القاسم^(٥) قبل نسكه فقال: أنا والله صب بك، ولوع اليك،
مغمور القلب بشركك، واللسان بذركك، منشوف الى رؤيتك ومفاوضتك، وقد طالت
الأيام على ما أعد به نفسى من الاجتاع معك، ومن قضاء الوطر منك، فما عندك، أنا الفداء
لك! أتورنى أم أزورك؟ قلت: جعلنى الله فداك! ما يكون عند من هو منك بهذا الموضع،
وفى هذا المحل، الا الاتقياد الى أمرك، والسمع والطاعة لك، ولولا أن أسيء الأدب فى أمر
بدأت فيه بالفضل لقلت إن كثير ما ابتدأت به من القول يقل عما عندى من الشوق اليك،
والشغف بك، فوجبت لك به المنة على“، وأنا بين يديك : فائن عاتى الى ما أردت، وقدنى
كيف شئت“ .

وكان أبو المناهية من المفتوتين ببناء مخارق، سمعه يوما يبنى فجعل يبكى، ثم قال :

”يا دواء المجانين ! لقد رقت حتى كدت أن أحسوك^(٦) !“ .

وهذه العبارة جذوة من جذوات التشبيب .

(١) أى أن الطل من الحلى لا يغير من حسن . (٢) النيازك : جمع نرك وهو الرمح القصير .

(٣) العوانك : جمع عاتك وهو الرمل المقد . (٤) صور : منحرفات . (٥) هو أبو المناهية .

(٦) نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٣٤

وقال علي بن عبيدة الريماني وقد رأى جارية يهاوها :

”لولا البقيا على الضائر ، لبحثت بما تجتبه المرائر ، لكن يران الحب شدارك بالإخفاء ،
ولا تعاجل بالإبداء ، فان دوامها مع إغلاق أبواب الكتان ، وزوالها في فتح مصارع الاعلان“ .
وقال :

”لولا حركات من الابتهاج أجد جسمها عند رؤيتك في نفسي لا أعرف لها مثيلا من
مظانها الا مؤانستك لي ، لأجبت طيك من العناء ، وخفت عنك مؤونة اللقاء . لكني أجد
من الزيادة بك عندى أكثر من قدر راحتك في تأخرك عني ، فأضيق عن احتمال الخسران
بالوحدة منك “ .

والكلمة الأولى غزل خالص ، والثانية بين الغزل والاخوانيات ، ولكنها تفيض بروح
النسيب .

وكان علي بن عبيدة رقيق الاحساس يتحول الودّ عنده الى عشق ، وهو صاحب هذه
الحكمة الغالية :

”اجعل أنسك آحرما تبذل من وذك ، ومن الاسترسال منك ، حتى تجده له مستحقا .
فان الأنس لباس العرض ، وتحفة الثقة ، وحياء الأكفاء ، وشمار انخاصة ، فلا تخلق جدته
الا لمن يعرف قدر ما بذلت له منك “^(١) .

وكتب إسحاق بن ابراهيم الموصلي الى علي بن هشام القائد :

”جعلت فداك ! بحث إلى أبو نصر مولاك بكتاب منك إلى يرتفع عن قدرى ، وبصر
عنه شكرى ، فلولا ما أعرف من معانيه ، لظننت أن الرسول غلط بي فيه ، فانا ولك
يا أبا عبد الله ، تدعنا حتى اذا نسيتا الدنيا وأبغضناها ، ورجونا السلامة من شرها ، أفسدت
قلوبنا ، وعلقت أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ! .
وما ذكرته من شوقك الى لولا أنك خلقت عليه لقلت :

يامن - شكا عبثا إلينا شوقه شكوى المحب وليس بالمشتاق
لو كنت مشتاقا إلى تريدنى ما طبت فمسا ساعة بفراق
وحفظتنى حفظ الخليل خليله ووفيت لى بالمهد والميثاق
هيات قد حدثت أمور بعدنا وضغلت باللذات عن إصباح

قد تركت، جعلت فداك، ما كرهت من التائب فى الشعر وغيره وقلت أيباتا لا أزال
أخرج بها الى ظهر المردب وأستقبل الشمال وأنسم أرواحكم فيها ثم يكون ما الله أعلم به، وإن
كدت تركها تركتها إن شاء الله :

ألا قد أرى أن الشواء قليل وأن ليس يبق للخليل خليل
وإني وإن ملئت فى العيش حقبة كذى سفر قد حان منه رحيل
فهو لى الى أن تنظر العين مرة الى آبن هشام فى الحياة سبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة وفى النفس منه حاجة وغليل

وأما بعد فانى أعلم أنك وإن لم تسأل عن حالى تحب أن تعلمها، وأن تأتنيك عنى سلامة
فأنا يوم كتبت اليك سالم البدن، مريض القلب ... الخ^(١) .

والشعر فى هذه الرسالة أغلب، وفقا للتقاليد الأصلية فى النسب .

وقال أحمد بن يوسف : كتب غلام من ولد أنوشروان ممن كان أحد غلمان الديوان
الى آخر منهم وكان قد طاق به وكان شديد الكلف به والمحبة له :

”ليس من قدرى ، أدام الله سعادتك، أن أقول لملكك جعلت فداك، لأنى أراك فوق
كل قيمة نفسية، وثمن معجز، ولأن نفسى لا تساوى نفسك، فقبل فى فديتك على كل
حال، بخلنى الله فداء ساعة من أيامك ! أعلم أيها السيد العلى المتزلة أنه لو كان لعبدك من
شدة الخطب أمر يقف على حده التعت لأجته أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به
زمام قلبك ، وتعنو على الرقة والتحنى أثناء جوارحك، ولكن الذى أصبحت وأمسيت ممتحنًا

به فيك منع من كل بيان، وزرع عن كل لسان . واحب، أيها الملك، لم يشبه قذى رية، ولم يخطط به قلب معاب، فلا ينبغي لمن كرمت أخلاقه أن يعاف مقاربه صاحبه المدلل بمحزم نيته . والذي أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك ، ثم أبوح بما أضنى جسدي، وقتت كبدي، فإن خف ذلك عليك، ورأيت نشاطا من نفسك إليه، كنت كن فك أسيرا، وأبرا عيلا، وسلك من الخير سبيلا يتوعر سلوكها على من كان قبله، ويكون بعده، ثم أضاف إلى مئة لا يطبقها جبل رأس ولا فلك دائر . فرأيتك أيها السيد المعتمد الإسماعيل قبل أن يتذرف الموت فيحول بيني وبين ما خدعت إليه النفس مواصلا برا . إن شاء الله تعالى .

فأجابه :

”تولى الله ما جرى به لسانك بالزبد، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة، ولا حافر تشنت، وضنا وإياك في أوتق حبال الأنس، وأؤكد أسباب الألفة . وقفت على ما خصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك، وأنطوى في ضميرك، من الشغف المقلقل، والهوى المضرع، ولعمري لو كشف لك عن معشار ما عليه مضر صدرى، لأيقنت أن الذي عندك إذا نسبته إلى ما عندي كالمتلاشي الزائل . ولكك بفضل الإنعام سبقتنا إلى كشف ما في الضمير . وأما طاعتي لك، وذمائي إليك، فطاعة العبد المقتنى، الطائع لما يحكم له وعليه موله ومالكه . وأنا سائر إليك وقت كذا، فتأهب لذلك بأجهد عاقية، وأتم عاقبة، وأسعد نجم جرى بالألفة إن شاء الله تعالى“ .

وهذا، كما يرى القارئ، غزل غفيف يفيض بأرق أنفاس الوجدان .

وفي نسبه إلى غلمان من أولاد أنوشروان دليل على أن هذا القرن وصل إلى العرب من الفرس، والفرس المستعربون نقلوا إلى اللغة العربية فنونا من القول كان يخرج منها العرب، فهم الذين أذاعوا غزل المذكر في الشعر، وهم كذلك الذين أذاعوه في النثر، لأن هذه

العواطف الرقيقة كانت مما يتحاماها العرب فى بداوتهم ، فلما تحضروا أقبلوا على هذه الفنون الناعمة التى سبقهم اليها الفرس واليونان بأزمان طوال .

٦ — وفى القرن الثالث نجد النزل أخذ يظهر فى الشعر ، ونرى الجاحظ يكتب الى إبراهيم بن المدبر :^(١)

« ما ضاء لى نهار ولا دجا ليل ، مذ فارتك ، إلا وجدت الشوق إليك قد حرّ فى كبدى ،
والأسف عليك قد أسقط فى يدى ، والتزاع غموك قد خان جلدى ، فانا بين حشا خافقة ،
ودمعة مهراقة ، وقص قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بليت بما تكابد ، وذكرت وأنا على
فراش الإرتعاض ، ممنوع من لغة الأغماض ، قول بشار :

إذا هتف القمريّ نازعنى الهوى بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كياه المزن يشيب مع الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها كما كان بين المسك والعبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتماش عليه ، ونجربى فى مودتنا اليه ، فى شعره هذا . وذكرت أيضا ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ، ويمتحنى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويمرّعني من مرارة نأيم ، وبعد لقاءهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أوبتك ، وقلت أبيتا تقصرن عن صفة وجدى ، ولكنه ما يتضمنه قلبى ، وهى :

بجدى من قطر الدموع ندوب وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفؤاد مذبذب
ولى شاهد من ضر نفسي وسقمه يخبر عني أنى لكيب
كأنى لم أبلغ بفرقة صاحب ولا غاب عن عيني سواك حبيب

(١) راجع أخبار هذه الرسالة فى ياقوت ص ٦٧ و ٦٨ ج ٦

وقد قرئت هذه الرسالة في مجلس آبن المدبر فقال أحد الحاضرين : هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم، ورقعة غائب لا رقعة حاضر ! فضحك آبن المدبر وقال : نحن نتوسط مع أبي عثمان الى ما هو أدق من هذا وألطف .

وقال آبن المعتز : كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة الى قينة فأجابت ، فلما مررت في الطريق وجدت فيه حارسا فرجعت ، فأرسلت اليها أعاتبها فكتبت إلىي :

” لم أتخلف عن المسير الى سيدى فى عشية أمس لأرى وجهه المبارك، وأجيب دعاءه، إلا لاملة قد عرقها فلاة، ثم خفت أن يسبق الى قلبه الطاهر أنى قد تخلفت بغير عذر، فأحببت أن تقرأ عذرى بخطى، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شئ أسر إلى من رؤيتك، والجلوس بين يديك، وأنت يا مولاي جاهى وسندى، لا فقدت سندى ! ولك رأيك فى بسط العذر موقفاً “ .

وكتبت فى أسفل الكتاب :

أليس من الحرمان حظُّ سُبْتِهِ وأحوجنى فيه البلاء الى المذر!
فصبراً فما هذا بأول حادث رمتنى به الأقدار من حيث لا أدرى

فأجابها آبن المعتز :

” كيف أردّ مذر من لا تسلط التهمة عليه، ولا تهتدى الموجدة اليه ؟ وكيف أعلمه قبول المعاذير، ولا آمن بعض جواهره الى يسير الى انتهاز فرصة فيما عاد الى الفرطة . فان سامت من ذلك فمن يميز من توكله على تقديم المذر، ووقوعه موقع التصديق فى كل وقت ، فتصل أيام الشغل والملة ، وتتقضى أيام الفراغ والصحة ، فتطول مدة التيبس ، وتدرس آثار المودة “^(١) .

وكتب آخر الرقعة :

إذا غيت لم تعرف مكانى لئلا ولم يلق نفس لهوها وسورها

وبدلت سمما وأهيا غير ممدك لقول وعينا لا يراى ضميرها

٧ - وفي القرن الرابع يظهر النزل في النثر ظهورا رائعا بحيث يمكن مقارنة الرسائل الفرامية بأقوى قصائد التشبيب ، ولا يمكن الأرتياب في قدرة كلاب القرن الرابع على إجادة هذا الفن وتفوقهم فيه وتصرفهم في ضروبه تصرف المبدعين .

وأى حسن فأت أبى العميد إذ يقول :

”سألتنى عن شغفى وجدى به ، وشغفى حبي له . وزعمت أنى لو شئت لنهلت عنه ، أو لو أردت لأعترضته ، زعما لعمر أيبك ليس بمزعم ! كيف أسلوعته وأنا أراه ، وأنساه وهو لى تجاهه ، هو أغلب على ، وأقرب الى ، من أن يرمى لى عتافى ، أو يخلطنى وأختيارى ، بعد اختلاطى بملكه ، وأختراطى فى سلكه ، وبعد أن ناط حبه بقلي ناطه ، وساطه بدمى ساطه ، وهو جار مجرى الروح فى الأعضاء ، متنم تنم الروح للهواء ، إن ذهبت عنه رجعت اليه ، وإن هربت منه وقمت عليه ، وما أحب السلوعته مع هناته ، وما أوتر الخلق منه مع ملاته . هذا على أنه إن أقبل على بهنى إقباله ، وأن أعرض عنى لم يطرقنى خياله ، يبعد عنى مثاله ، ويقرب من غيرى نواله . ويرد عنى خاسية ، ويثنى يدي خالصة ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصنق مراعى الظنون الكاذبة . وصله ينذر بصده ، وقربه يؤذن ببعده ، بدنى عند ما ينزع ، ويأسو مثل ما يجرح ، خالفه أحوال ، وخلته خلال ، وحكمه بحال ، الحسن فى عوارفه ، والجمال من مناعه ، والبهاء من أصوله وصفاته ، والثناء من نموته وسماته ، اسمه مطابق لمعناه ، وغواه موافق لتجواه^(١) .

وأرسل قابوس بن شمسكى الى بعض أودائه :

”كتهت ، أطال الله بقاء مولاي ، وما فى جسمى جارحة إلا وهى تود لو كانت يدا تكتبه ، ولسانا يحاطبه ، وعينا تراقبه ، وقريحته تماثبه ، بنفسى ولمى ، وبصيرة ورهى ، وعين

عبري، وكبد حري، مازعة الى ما يقرب منه، وتمسكا بما يتصل عنه، ومنابرة على أمل هو غايته، وتعلقا بجبل عهد هو نهايته، وخاطري يميل نحوه، ونفسي تأمل دتوه، وترجو وتقول: أتراه، بل لعله وعساه، يرق لنفس قد تصاعد نفسها، ويرحم روحا قد فارقتها روحها ومؤنسها، وكيف بقلبه لو أين صورة هذه صورتها، وشاهد مهجة هذه جملتها، فيرفق — جعلت فداه! — بمن عاند برسا عظيما، وكابد قرحا أليما، وليرق لكبد منقها البعاد، وعين أرقها السهاد، وأحشاء عرقه بنار الفراق، وأجفان مقروحة بدمعها المهرق، وقلب في أوصابه متقلب، ولب في عذابه معذب، فلو أني أسعدت فأعطيت الرضى، وخيرت فأخترت المنى، لتمتيت أن أنصوّر صورتك، وأطالع طلعتك، وأمثل لها مثالي لتراه، فأخبرها بكنهه حالي ومعناه، لترفق لازالة ما أزاله الدهر الى، ولتلتطف لإمالة ما أمامه على، وأشكو بعض ما نابى من نوائبه، وأطلقني من أشراكه وحباله^(١) .

٨ — وأمثال هاتين الرسالتين مما يكثر وجوده في ثلث القرن الرابع، وهو فن وسط بين الفزل والاخوانيات . وهناك نماذج عديدة من الفزل الصريح، كالذى تخيره التعالي مما جاء في رسائل معاصريه وصفا لمحاسن النساء ومحاسن الغلمان . وإلى القارئ شواهد تميّن منحهم في هذا الباب :

— هي روضة الحسن، وضرة الشمس، وبدر الأرض .

— هي من وجهها في صباح شامس، ومن شعرها في ليل دامس، كأنها فلقه قر على برج فضة، بدر آلم يضي تحت نقابها، وغصن البان يهتر تحت ثيابها .

— ثمرها يجع الضرب والضرب، كأنه ثل الر .

— قد أنبت صدرها ثمر الشباب .

— خرطت لها يد الشباب حقين من عاج .

— كأنها البدر قرط بالثرى، ونيط بها عقد من الجوزاء .

- أعلها كالنصن مبال، وأسفلها كاللصص منال .
- لما عتق كابرئى البئين، ومرة كدعن الماى .
- نطافها مجذب، وإزارها مخصب .
- مطلع الشمس من وجهها، ومنبت الدر من فها، وملقط الورد من ختها، ومنيع السحر من طرفها، ومبايد الليل من شعرها، ومغرس النصن من قلها، ومهيل الرمل من ردفها .
- شادن فاطر طرفه، ساحر لفظه .
- غلام تأخذه العين، ويقبله القلب، وترتاح إليه الروح .
- تكاد القلوب تأكله، والعيون تشربه .
- جرى ماء الشباب فى عوده فتايل كالنصن، وأستوفى ماء الحسن، وليس دياحة الملاحه .
- كان البدر قد ركب على أزواره، لا يشيع منه الناظر، ولا يروى منه الناظر .
- شادن منتقب بالدر، ومكتحل بالسحر .
- ما هو إلا نزهة الأبصار، ومجمل الأفكار، وبدعة الأمصار .
- غمزات طرفه، تخبر عن ظرفه، ومنطقته تنطق عن وصفه .
- تحال الشمس تبرقت غرته، والليل ناسب أصدائه وطرته .
- الحسن ما فوق أزواره، والطيب ما تحت لزاره .
- شادن يضحك عن الأخوان، ويتنفس عن الريحان .
- له عيتان حشو أجفانهما السحر، كأنه قد آغار الطيب جیده، والنصن قد، والزاح ريمه، والورد خده .
- الشكل فى حركاته، وجميع الحسن بعض صفاته .
- قد ملك أزيمة القلوب، وأظهر حجة الذنوب، كأنما وسمه الجمال بنهايته، ولحظه الفلك بمنائيه، فصاغه من ليله ونهاره، وحلاه بنجومه وأقماره، وقشه ببدايح آثاره، ورمقه بنواظر سموده، وجعله بالكال أحد جنوده .

- قد صيغ الحياء غلالة وجهه، ونشر لؤلؤ العرق عن ورد خده .
 — له طزة كالنسق، على غرة كالفلق .
 — جاءنا في غلالة تنم على ما يستره، وتحنو مع رقننا على ما يظهره .
 — وجهه بماء الحسن مفصول، وطرف بمروء السحر مكحول .
 — السحر في ألحظه، والشهد في ألفاظه، كأنه خاصم الولدان، ففارق الجنان .
 — اختلس قامة الفصن، ووشع بمطارف الحسن، وحكى الروض غب المزن .
 — لجنة مجتناة من قربه، وماء الجمال يترقق في خده، ومحاسن الربيع بين تحره ونحوه .
 — ماهو إلا خالٌّ في خد الطرف، وطراز على علم الحسن، ووردة في غصن الدهر، ونقش على خاتم الملك، وشمس في فلك اللطف^(١) .

٩ — وأوضح ما يكون النسيب المتثور إذا اتصل بأهل الفنون، كقول أحد الكتاب في وصف جارية كاتبة :

”كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها،
 وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بنانها صخر مقلتها، وكأن سكينها غنج لحظها، وكأن مقطعا
 قلب عاشقها“^(٢) .

١٠ — هذا، ولعل الفارئ لاحظ أن أكثر مامرته به في هذا الفصل يرجع الى غزل المذكر، وهو كذلك، فقد تحول النسيب في العصر العباسي الى هذا الفن، وقل التشبيب بالنساء أو كاد، وخفف خطاب المذكر على ألسن الشعراء، حتى رأينا من يصف محبوبه، وهو يعنى محبوبته، كأت خطاب المذكر أخف في اللغة وأسهل في توجيه الضائر والإشارات أو كأنه متاجرة لما يقع من هذا النوع في اللغة الفارسية .

(١) راجع زهر الآداب ج ٣ ص ١٤٧ — ١٤٩ وسحر البلاغة ص ٢٩

(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٩٣

وقد وضع الراغب الأصفهاني في محاضراته هذا العنوان :

” الاستحياء من المعبود بظهر الغيب لذكره “

ثم جاء بشواهد من شعر جميل ، وأشيع ، ومجنون لى ، وكلها في المحبوبة لا في الم محبوب .^(٢)

ولنذكر أن غزل المذكر في النثر نوع من الثورة على التقاليد الأدبية ، فإن أبا هلال يتحدثنا أن صاحب الرياسة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحبيته إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله لاستهجن منه ذلك ، ولو قال في ذلك شعرا لكان حسنا . فكأن غزل المذكر في الشعر مستحسن مقبول ، ولكنه في النثر مستهجن مردول . فكيف يتفق هذا مع ما رأيناه من الغزل المنشور في رسائل ابن العميد ؟ الجواب سهل ، وهو أن أبا هلال يقول : ” لو خطب “ ولم يقل ” لو كتب “ ومن الواضح أن من يلقي خطبة في الحين الى معشوق يعدّ متخفيا ، ولا كذلك من يمن الى محبوبه بأوتار القصيدة .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرخ ، وليس في مقدورنا أن نحكم ذوق اليوم ، ذوق القرن الرابع عشر ، في ذوق القرن الرابع ، فكاتب عصرنا لا يتفزلون بالنثر ، ومنهم

(١) ص ٢٥ ج ٢ (٢) وكتاب العصر الحاضر ، على عكس ذلك ، يفتون من خطاب المذكر في الغزل ، ويمزجون الكلم عن مواضع أحيانا : فقد كتب الدكتور طه حسين فضلا عن شعر الأستاذ عباس العقاد تعرض فيه لتحليل إحدى مقطوعاته فقال : « أحسن العقاد وصف صاحبه » مع أن العقاد كان يصف صاحبه لا صاحبه . وكتب الأستاذ الشيخ عبد الله عفيفي فضلا عن شعراء مصر فكان يتفق له كثيرا أن يقول : « وغال في وصف محبوبه » على حين يتحدث الشاعر عن محبوبه لا محبوبه . وهذا وذاك نوع من التجميل المقبول . والذي حسنا هو تنقيح هذه الظواهر الأدبية لئلا تلبس على تطوّر المعايير وفقا لتطوّر الأذواق .

وعما يحسن ذكره هذه المناسبة أن المستشرقين الذين اهتموا بترجمة بعض القصائد الفارسية والعربية الى الفرنسية يفتلون الخطاب من المذكر الى المؤنث وفقا لتعاليم الأدبية فإن الكلام عن المعشوق بالنذكر كبير غير مقبول في لغة الفرنسيين ، وقد اتفق لى وأنا أنكتب هذا الكتاب بالفرنسية أن أجارى ذلك النوق فظهرت بعض الضائير وقلتها من المذكر الى المؤنث وفقا لتقاليد الفرنسية . والهرف يطلق أحيانا فيأخذ قوة القانون .

(٣) الصناعتين ص ١٠٤

من يلون عواطفه في شعره وفقاً لتقاليد العصر الحاضر فيخاطب المؤنث وهو يريد المذكر، كما كان يتفق لبعض القدماء أن يخاطب المذكر وهو يريد المؤنث . ومؤرخ الأدب يفرض عليه الأمانة العلمية أن يصور الأدب كما كان، لا كما توجب تقاليد عصره أن يكون .

ومما سلف يتبين أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أخطأ حين قرر في مقدمة كتابه (أوراق الورد) أن العرب لم تؤثر عندهم رسائل الحب ، لتصح له دعوى التفرد بالسبق إلى هذا الفن الجميل ، وهو يقف عند ما كتبت في الشوق إلى المحبوبة ، وذلك خطأ من الوجهة التاريخية ، فإن أقطاب الفن وجهوا غزلهم إلى المحبوب . وللاستاذ الرافعي أن يظن في هذا باسم الأخلاق ، أما نحن فنؤرخ الأدب في حيدة مطلقة ، ونسأله أين سار، والأدب لا يفرق بين الخير والشر، ولا يميز بين الحقد والمحجون .

٦ - الاخوانيات

١ - هذا الفن لا يحتاج الى تمهيد مطول في بيان أطواره الثرية ، كما صنعنا في النسيب ، فانه فن قديم في اللغة العربية ، وجد في التركيا وجد في الشعر ، غير أنه في النثر يسمى العتاب .

ومن المؤلفين من يطلق الاخوانيات والعتاب ، بدون تمييز ، على ما يقال شعرا أو نثرا في مناجاة الأصدقاء .

وقدم هذا الفن في اللغة العربية لا يمنع أنه صار في القرن الرابع فنا قويا يحيل إلى القارىء أنه فن جديد ، لكثرة ما جث فيه من الصور والتماير . وهو في جوهره قريب من النزل لا يفرق بينهما الا اختلاف ما يردان عنه من أحوال النفس . وقد أنصح عن ذلك التوحيدى إذ قال :

«الصداقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأزهر عن آثار الطبيعة ، ... فاما العلاقة فهي من قبل العشق والمحبة والكلف والشغف والهوى والصبابة... الخ» .

٢ - وقد بلغ من ذبوع هذا الفن في القرن الرابع أن عقد له التعالبي فصولا في بحر البلاغة جمع فيها ما تخيره من عبارات الكتاب ، كما آتم في يتيمة الدهر يجمع الفقرات الخاصة بالاخوانيات ، وإلى القارىء شذرات من تلك التماير الإخوانية :

— مودة سكنت الصدر ، وحلت سواد القلب .

— ود سلم الصفحة ، أجلس الجلدة ، مشرق السحنة ، واضح الجبهة .

- مودة أدين بها عن خالصة النفس، وأودعها واسطة القلب، وأجمع عليها نواحي الصدر، وأجرسها من لواحق الدهر .
- قد آخذنا المودة بيننا ديناً وخلقاً، ورأيناها بين الناس مجازاً فأعدناها حقيقة .
- لا أحول عن عهدك وإن حالت النجوم عن مآزها ، ولا أزول عن ودك وإن زالت الجبال عن مقارها .
- عهدك صبير فكري، وودك صبير ذكري .
- صدرى وعاء ودك، ولسانى ناشر فضلك، وضميرى وقفٌ على عهدك .
- الحال بيننا أربت على المودة والحمة ، وأرمت على المشاركة والخلقة، وعُدَّت في شواجر الرحم واللحمة، ومنجت الدم بالدم والمهجة بالمهجة .
- محبة لا تتميزعها الأرواح ، أنا ميزت الأشباح، ومخالصة لا تتباين بها النفوس والمهج، وإن تباينت الأشخاص والصور .
- نحن كالنفس الواحدة : لا تجزؤ ولا أقسام، ولا تميز ولا انفصام .
- لا أعظم حق مودته حقاً، ولا أرى بين النفسين فكيف بين المسالين فرقا .
- أنت جار منى مجرى أبعاض جسمى ، وأحشار قلبى ، وأنت جزء من نفسى ، وناظم شمل أنسى .
- أنت منى كالعين الناضرة التى تصان عما يهذيها ، واليد الباطشة التى تحفظ مما يدويها .
- هو شقيق روحه، وعديل حياته، وشريك دولته، وقسيم نعمته .
- ما زال مستودع سرى وجهى، ومشتكى بلى وحزنى .
- هو منى بمثلة الولد، والعضو من الجسد .
- العشرة رضاع تثبت حرمة، والمودة لبان تزم ذمته ،
- قد تقلبنا فى أعطاف المعش، بين الوفاق والطيش .

— إخوان تطابقوا في الآراء ، وتآلفوا في الأهواء ، وتخالجوا في الطعام ، وتراضعوا بالمدام .
— أنا أنهم عليك عيني ، وإن كنت لا أنهم قلبي ، وأرضي لمودتك نيتي ، وإن كنت لا أرضي لما طاقتي .

— لا مرحبا بعيش أنفرد به عنك ، ويوم لا أكتحل فيه بك .
— وددت أن أضرب بمحضرتك أطناب عمري ، وأتفق على خدمتك أيام دهري .
— لا أزال أحن إليك ، وأحنو عليك . ياليت قلبي يقرأ لك فترا في سطور ودي ، وتقف منها على رأيي فيك !

— إني لأسف على كل يوم فارغ منك ، وكل لحظة لا تؤنسها برؤيتك .
— أنت من لا يسافر ودي إلا إليه ، ولا يفرغ طير محبتي إلا عليه .
— قد ملت إليك فاعتدل ، ونزلت بك فارتحل ، ووقفت عليك فاستقل .
— أنا أنصيح بأهلك ، وأتفاهل بذكرك ، وأحلم بوجهك ، وأحتلب ضرع الشعر بذكرك .
— ما في نفسي جمعة أعمر من محلك ، وأنضر من مسلكك ، ولا في قلبي مكان إلا موثقي بذكرك ، مطرز بأسمك .

— عهدتي لك أكرم المهود ، ووفائي لك وفاء العرق للمود .
— شوقي إليك زادي في سفرى ، وعنادي في حضرى .
— شوقى لو خوف المجرمون بحره ، وتوعد المشركون بحره ، لما عُد صنم ، ولا نقلت في الضلال قدم .

— فرحة الأديب بالأديب ، كفرحة المحب بالمحبيب ، والعليل بالطبيب .
— حالى بعدك حال عود ذوى بعد آرتوائه ، ونجم هوى بعد اعتلائه .
— ودعت بوداعك العافية ، وفارقت مع فراقك العيشة الراضية .
— يا أسنى على غفلات العيش ، ولحظات الأندس ، إذ ظهائرتنا أسبحار ، وليالينا نهار ، وشهورنا أيام ، وسنواتنا قصار .

— سبق الله أياما لو كان دهرى عقدا كانت واسطته ، أو كانت عمرى جيذا كانت قصادته .

— أيامٌ حسنت فكانها أعراس ، وقصرت فكانها أنفاس .

— سلامٌ كأنفاس الأحباب ، وأيام الشباب .

— صرت عندك بمن عا النسيان صورته من صدرك ، وأسمه من صحيفة حفظك .

— أنت معنىً بمالك على من يطالبك ، بجيلٍ بكاتبك على من يكتبك ، تسوع في ألوف ، وتضايق في حروف^(١) .

٣ — وهذه فقرات قليلة تخيرناها مما تخير الثمالي لأقطاب عصره ، ويجب أن نشير إلى أن هذه الثروة الأدبية ليست ملكا خالصا لكتاب ذلك العهد ، فبعضها أُنْتُهَبَ من ألقاظ الشعراء ، فنقول أحد أولئك الكتاب :

” في الأرض جمالٌ إن ضاقت ظلالك ، وفي الناس واصلٌ إن رثت حبالك “

مأخوذ من قول معن بن أوس :

وفي الناس إن رثت حبالك واصلٌ وفي الأرض عن دار القلي متحولٌ

ولا يقدح في هذا المأخذ أن يحدّثنا الثمالي في مقدّمة سحر البلاغة أنه حلّ بعضه من نظم أمراء الشعر في زمانه ، فإن ألقاظ الشعراء تواجه القارئ في أكثر ما ترك كتاب القرن الرابع ، وعمل الثمالي نفسه شاهد على ذلك .

٤ — وأفضل من كتب في الاخوانيات أبو حيان التوحيدي ، وكتابه عن (الصدقة والصديق) من أنفس ذخائر اللغة العربية ، وقد تكلمنا عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب^(١) وتجنبنا المحاورات التي أنشأها في تحليل معاني الصدقات والملاقات والمودات . وأسمع كيف يقول :

(١) راجع سحر البلاغة ص ١٢٤ — ١٣٤ (٢) هوديع الزيدان . (٣) ص ١٤٠ — ١٤٣

”قلت للهائم أبى على : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يطعننى اذا جمعت ، ويكسوفنى اذا عريت ، ويحملنى اذا كالت ، ويفقرنى اذا زلت . فقال له على بن الحسين العلوى : أنت انما تريد انسانا يكفيك مؤونتك ، ويكفك فى حالك ، كأنك تمنيت وكلا فسميته صديقا . فما أجاز جوابا .

”وقلت للبنوى — ولقيته بالسكرة سنة خمس وميتين — من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يقبلنى اذا عثرت ، ويقومنى اذا أزوورت ، ويهدينى اذا ضللت ، ويصبر على اذا مللت ، ويكفينى ما لا أعلم وما علمت .

”وصحبت أبا عامر النجدى يقول : الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضا عك لتكون على مثله ، لأنك تهتمان أحوالك بالأخذ والعطاء ، فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فليس لكما فرحة ولا ترحه إلا وأنما تحتاجان فيما الى الصديق والانكاش والمساعدة على اجتلات الحظ فى طلب الماش^(١)“ .

٥ — ويمتاز التوحيدى بتاريخ أكثر ما ينقل من الإخوانيات ، فهو بهذا أفضل من الثعالبى الذى يحمل التاريخ حتى حين يترجم للشعراء والكتاب ، من ذلك ما حدثنا أنه لما استوزر أبو محمد المهلبى سنة أربعين بعد وفاة أبى جعفر الصيمرى كتب الى أبى الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل :

”بسم الله الرحمن الرحيم .

إنى — حفظك الله وحفظنى لك ، وأمتك بى وأمتنى بك — قد بلوتك طول أيام أبى جعفر ، قدس الله روحه ، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل اليك ، كئوما للسرا اذا استعطفته ، حسن المساعدة فيما يحمل بك الوفاق عليه . وقد حدانى هذا كله على اجتباتك وتهريك ، وإدناك وتقديمك . وغالب ظنى أنك تبتغى على ذلك بيمينون نقيتكم ، ومأمون ضريتكم . وجملت دعامه هذا كله أنى أجريكم بجرى الصديق

الذى يفاوض في الخير والشر، ويشارك في الفس والسمين، ويستأنم اليه في الشهادة والغيب .
ولى معك عيان إحداهما مغضوبة عن كل ما ساء في منك، والأخرى مرفوعة الى كل ما سرى
فيك، فان كنت تجد في نفسك على قولى هذا شاهدا صدوقا، وأتارا نطوقا، فمرقنى لأعلم أن
فراستى لم تغل، وحدى عن طريق الصواب لم يمل . والحالة التى قد جددها الله لى هى
محروسة لك ، ومفرغة عليك ، ومستقلة بك، فأشركنى فيها بخالصة الوفاء، أو تفرد بها إن
شئت بحقيقة الصفاء . فلك الأمانة من حيلولة الاعتقاد ، والسكون الى عفو الاجتهاد .
وثق بأن الذى خطبته منك ، إنما أريده لك ، فلا يقعن فى وساوس صدرك أن لكاشح لنا
فيما نحن عليه طريقا لنقص ، أو لمحج لنا فيه بابا الى الزيادة . وأكتف بهذا القدر الذى
دللتك عليه ، وأستقبل أخرى وأمرك بالذى أرشدتك اليه . وإياك أن تستشير فيه غير
نفسك فانك بمرض حسد يكون عقالا لحظك . والله يهديك لحسنى ، ويقينى فيك غوائل
العيون المرضى . والسلام^(١) .

وهذا كلام أنصح من أن يحتاج الى تعليق ، واليك ما هو أحلى منه وأعذب :

”قلت لأبى الأبرى : من الصديق ؟ قال : من سلم سره لك ، وزين ظاهره بك ،
وبذل ذات يده عند حاجتك ، وعف عن ذات يده عند حاجته ، يراك منصفا وإن كنت
جائرا ، ومفضلا وإن كنت ممانعا ، رضاه منوط برضاك ، وهواه محوط بهواك ، إن ضللت
هداك ، وإن ظلمت أرواك ، وإن عجزت آدأك^(٢) . يبين عنك بالجسم والرم ، ويشاركك
فى القسم والوسم “ .

”قلت : أما الوصف لحسن ، وأما الموصوف فعزير “ .

قال :

”إنما عز هذا فى زمانك ، حين خبثت الأعراف ، وفسدت الأخلاق ، وأستعمل التفاق
فى الوفاق ، وخيف الملاك فى الفراق . والله لقد شاهدت لشيخنا أبى طاهر أصدقاء يتطوون

له على مودة أذكى من الورد والعنبر ، اذا لحظهم بطرفة تهللوا ، واذا ناظرهم بغظه تدللوا ، واذا تحكّم عليهم تسجلوا ، واذا أمسك عنهم تولوا وخولوا ، وكانوا يحسبون به ما لا يحسبون بأهلهم وأولادهم . رحمة الله عليهم ! فقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخلوص ، وإنى لأذكركم فأجد فى روى روى من حديثهم^(١) .

والكلام فى إخوانيات التوحيدى يطول اذا شئنا ، فلنكتف بهذه الكلمات الطيبات .

٦ — ومن الذين أكثروا من الإخوانيات بديع الزمان الهمداني ، وكلامه فى ذلك

موصول بباب العتاب . كقوله من رسالة ابتدأها بهجاء خصومه الواشين :

”أنا أطال الله بقاء الشيخ الإمام بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة ببنى وبنهم أن يفسدوا الصنيع على صانعه ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويرموا فى الحكاية ، سهم الشكاية ، ويحيلوا فى الشكاية ، قندح النكاية ، ثم لا يرون النكاية ، إلا السعاية ، وإن أعوزهم الصديق مالوا الى الكذب ، وإن حلم لهم الحد عرضوا باللعب . ومن علاماتهم ، قبح مقاماتهم ، وإيراد غلاماتهم ، مورد النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جنائياتهم على الفضلاء ، وشدة حقهم على من لا يخطئهم بئاله ، ولا يحطهم فى حباله ... والذى فاضنى القاضى فى معناه ، جلى فى باب ما حكاه ، يجمع هذه الخصال وقيادة ، وينظم هذه الأوصاف وزيادة . فلم يعد الشيخ عن مثله أن يكذب ؟ الطهارة أصله ، أم نجابة نسله ، أم حصانة أهله ، أم رجاحة عقله ، أم ملاحه شكله ، أم غزاة فضله ؟ ! ولم يجوز على ما حكاه ؟ ألم يؤونى طريدا ، ويلمنى حصيدا ، ويؤنسنى وجيدا ، ويصطنعنى مبيدا ومعيدا ؟ وكان بقدرى أنه اذا رأتى أفضل شيئا ، أو سمع أنى ألفظ بنكر ، لم يأل فى تحسين أمرى ، فعل الوالد بولده . ونظر المولى لصديقه أقرب“ .

”والآن ، إذ عاد الأمر الى العتاب ، فهلم الى الحساب ، إن كنت أخالت بطرف من طاعتى من جهة فقد قصصنى ما عؤدنى من وجوهه : وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يفرينى عنده ، فقد صار يفرينى ويرئى جلده ، وكان يقوم فتاتى ، فقد صار يحبط حساتى ،

وكان يثمر مالى، فقد صار يبطل آمالى، وكان يحشد لأمرى أحشاده لأمره، فقد نبذت وراء ظهره، وقد كان يحمل فصار يحمل، وكان لا يضايقنى فى الألف والدنانير، فقد ضايقنى فى الشعر، فى حمل يغير... أنل^(١) .
وله من رسالة ثانية :

” ليسوا سواء : فئة بالباب تسعد بالحضرة، وأخرى بالمنيب تكبد بالحسرة، والله ما للساعة من ولئى النعمة ثم، ولا كالأعتياض من لقائه غبن وغبن، فليت كتاب الإذن شفى مما نجد، وليت هنذا أنجزتنا ما تعد! معاذ الله أن أشتاق الى حضرة، لكنى أفتقر اليها أفتقر الجسد الى الحياة، والحوط الى القرات، وانما مثل العبد مع الأصحاب، مثل الأرض مع السحاب، أفيستى الفطح شوقا، أم يكون الموت وجدا؟ انى عبد الشيخ وأسمى أحمد، وهذان المولد، وتقلب المورد، ومضر المختد^(٢) . وعبد بهذه الصفة غريب نادر، وللصدر والملك بغير الأعلق ولوع... أنل^(٣) .

٧ — وأبو نصر العتي له رسائل جيدة فى الاخوانيات، تختار منها قوله فى الاستشارة :
” هذا يوم رقت غلائل صحوه، وخنثت شمائل جوه، وخنثت ثغور رياضه، وأطرد زرد الحسن فوق حياضه، وفاحت مجامر الأزهار، وأنتشرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار، وقام خطباء الأطياف، فوق منابر الإنشجار، ودارت أفلاك الأبدى بشموس الراح، فى بروج الأقداح، وقد سبنا العقل فى مرج المحبون، وخلعنا العذار بأبدى الجنون . فنن طائعا بين هذه البسامين، وأنواع الرياحين، طالع فتيانا كالشياطين، ونصارى يوم الشعانين، فيحق الفتوة التى زان الله بها طبعك، والمروءة التى قصر عليها أصلاك وفرعك، إلا تفضلت بالحضور، ونظمت لنا بك عقد السرور^(٤) .

وقد ترقى الرسائل الإخوانية حتى تعود وكأنها رسائل حب، كالذى آتفق لأبى الفضل الميكالى وأبى الفضل بن العميد، وقد أشرنا الى بعض ذلك فى ترجمة هذين الكتاتين فى الجزء الثانى فليرجع اليه القارئ هناك .

(١) رسائل بدیع الزمان ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) فى هذا رد على من يظنون بدیع الزمان قارى الأصل .

(٣) ص ٩٨ (٤) البنية ج ٤ ص ٢٨٤

٧ - الوصف

١ - أظهر ميزة في ذلك المصريح إجادة الوصف : فقد أهتم كتابه اهتماماً عظيماً بوصف ما رآه أعينهم ، أو جرى في خواطرهم ، أو آرتأت فيه عقولهم . ولم يكن الوصف عندهم مما يأتي عفواً عند المناسبات الطارئة - كما كان الحال في أوائل العصر الإسلامي - لا ، بل عمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية : فاطالوا الحديث عن الأزهار والرياح والنبات ، والليل والنجوم ، والجداول والتفردان ، والأنهار والبحار ، والبرك^(١) والأحواض ، والمنازل والقصور ، ومطارج القصف ، ومجالس الشراب ، والنساء والغلمان ، والجواري السود ، والقيان ، وآلات الطرب ، وعجاس الشباب ، وأحوال المشيب ، والرعذ والبرق ، والنسيم والريح ، والمطر والتلج ، والصحو والنجوم ، والبلاغة والشعر والنثر ، والخيل والسيوف ، والنار ، والأفاعي والثعابين ، والطيور والأطعمة ، والقواكه ، والسكاكين ، والكؤوس ، والخواتم ، والحلى والقلائد ، والمحابر^(٢) والأقلام ، والسفن ، والدواب ، والجيش والأساطيل ، وأيام الصيف والشتاء والربيع .

٢ - وأطنبوا في وصف المعاني الوجدانية - كما أطنبوا في وصف المرميات - فتكلموا عن أهواء النفوس وتزعاتها ، كوصف الحب والوجد ، والحقد والبغض ، والكرم والنبل ، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهنات والعورات .

(١) البرك جمع بركة ، والبركة صارت كلمة مبنلة ، ولكنها كانت طريقة ، ومعناها الحوض «القسية» وكانت مما تزدان به حصون القصور ، والصحن ابتدل أيضاً ، ويبدون عنه بالقنا - بكسر القاف - وفي لغة التناطب يقولون (الحوش) وهي لفظة عراقية كما في القاموس . وفي بركة قصر المتوكل يقول الجعري :

يا من رأى البركة الحسناء وزينتها والآنسات إذا لاحت مفاها

(٢) أكثر كتاب القرن الرابع من وصف المحابر والأوراق والأقلام وذلك يدل على فهمهم لطرف هذه الأدوات وأثرها في قسبة الكاتب . وقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلاً في البحث الذي نشرناه بالقرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب في القرن الثالث . وقد طبع هذا البحث مع (الرسالة الغراء) .

كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسلافهم . ولهذا المذهب عيوبه ومزاياه : فعبه أنه حملهم على التكلف والإسراف، ومزيتة أنه دفعهم إلى تنظيم أفكارهم، وترتيب أغراضهم، فإن القارئ يرى لهم قوة في تصوير المراتب والمعنويات لا يجدها إلا قليلا عند من سبقهم من الكتاب . وذلك بفضل هذا الاتجاه الذي جعل من عصرهم (مدرسة وصفية) لا نراها في عصر الخلفاء، ولا عهد بنى أمية، ولا أوائل أيام بنى العباس . ولا ننكر أن الكتاب السابقين أجادوا الوصف في كثير من الموضوعات، ولكننا نقرر أن كتاب القرن الرابع عمدا إلى كل ما يقع عليه الحس، أو يجري في الخاطر، أو ينقده العقل، فوصفوه وصفا مفصلا مقصودا بطريقة لم يفكر في مثلها المتقدمون .

٣ — ولقد مكنتنا الثعالي في كتابه (بحر البلاغة) من تمايز كثيرة عن الأوصاف التي عني بها كتاب ذلك العصر، ثبت شيئا منها في هذا الفصل ليرى القارئ صدق ما نراه من قصد كتاب ذلك العهد إلى إجادة الوصف .

• من ذلك قولهم في وصف الماء :

”ماء كالزجاج الأزرق — غدير كعين الشمس .

— ماء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة، يسبح في الرضراض، سبح النضاض .

— ماء أزرق كعين السُّنور، صاف كقضب البلور .

— غدير ترقرت فيه دموع السحاب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب .

وقولهم في وصف النثر والنظم :

”تركز الورد، ونظم كنظم العقد — تركالسكر أو أدق، ونظم كالماء أو أرق .

— رسالة كالروضة الأنيقة، وقصيدة كالخندرة الرشيقة .

— تركما تفتح الزهر، ونظم كاتفس السحر“ .

وقولهم في وصف سكين :

”سكين كأن القدر ساقها، والأجل ساقها، مرهفة الصدر، مخططة الخصر، يحول

عليها فيرد العتيق، ويموج فيها ماء الجوهر، كأن المنية تبرق من حلقها، والأجل يلعب من

منها، ركبت فى نصاب أبوس، كأن الحلق نقضت عليه صبحها، وحب القلوب كسته لباسها، أخذ لها حديدنا الناصع يحظ من الروم، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج، فكأنها ليل من تحت نهار، أو فجر أبدى سنا ناره، ذات غرار ماض، وذباب قاض .

— سكين أحن من التلاق، وأقطع من الفراق، تفعل فعل الأعداء، وتنفع نفع الأصْدقاء^(١) .

٤ — وقد ظلت أمثال هذه التمايز الوصفية منبعا يستقى منه الكتاب والشعراء الى العصر الحديث . والنقاد فى مصر يعجبون بقول حافظ إبراهيم فى وصف الصبياء :

نخسة قيل لهنم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

وقد حسب الدكتور طه حسين أن هذا الخيال من مبتكرات حافظ وناله بشئ من الملام لأن عصير الخدود فى زعمه مما تمافه النفوس ، فليقل اللوم إن شاء الى كتاب القرن الرابع : لأن هذا الخيال مُرق من هناك !^(٢)

ويعجب النقاد كذلك بقول توفيق البكرى فى وصف النساء :

” صدور كالإغريض، أو صدور البزاة البيض ” .

وهى عبارة مأخوذة من قول التمايلى فى وصف آثار السرى الرفاء :

” كأنها أطواق الحمام، وصدور البزاة البيض، وأجنحة الطواويس، وسوائف الفزلان، ونهود العذارى الحسان، وغزرات الحلق الملاح ” .

وقول توفيق البكرى :

” فم كأنه أحوانة لم تُصوّح، ووردة لم تُفتح، يضحك عن جان، ويتنفس عن ريمان، وينطق عن الحان، وخدود، كآر أخدود، أو فتاح، أو ماء وراح، أو الشفق فى الصباح ” .

(١) زمر الآداب ج ٢ ص ١٤١ (٢) ورد هذا المعنى أيضا فى شعراين خفاجة الأندلسى ورد

قيل ذلك فى شعر ديك الجن .

ماخوذ أيضا من كتاب ذلك العهد .

وقوله في وصف كبر أحد الرؤساء :

”كأنه جاء برأس خاقان ، أو أدال دولة بنى مروان ، أو أن الايوان داره ، والمهرمين آثاره ، وعصام بن شهر حاجبه ، وعمرو بن بحر كاتبه ، والنجاش غلامه ، والحامسة كلامه “ .
 ماخوذ من قول أحد كتّاب القرن الرابع :

”قد أسكرته نجرة الكبر ، وأسفرفته لفة التيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، وبلقيس إحدى داياته ، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعته ، ودادود لم ينطق إلا بنغمته ، ولقيان لم يتكلم إلا بمحنته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والفهم لم يسد إلا من يمينه “ .

وكذلك يمكن رد أكثر التعابير الوصفية التي كان يفرغ بها فريق من كتّاب الصنعة في العصر الحاضر أمثال المبكى على أدهم الرفيع : محمد المولحي ومحمد السباعي ومحمد هلال .

٥ — وكان القرن الرابع يؤدي للقرن التي تليه ما أخذه عن القرون التي سبقتها ، فقد كان كتّابه مولعين بحمل الشعر القديم : لا يرون معنى بديعا ولا خيالا طريفا إلا اقتبسوه وأضافوه الى ثروتهم الثرية ، يشهد بذلك ما أشار اليه التالي في مقدمة (مصر البلاغة) من أنه ضمن كتّابه بعض ألفاظ الملاحظ وآبن المعتز ، وما نجمده في مقامات بدیع الزمان من حل بعض الأبيات الجاهلية . وكانوا كذلك يغيرون على شعراء عصرهم فيأخذون معانيهم الجيدة ، كما فعل الصاحب بن عباد حين أغتصب بعض معاني المتنبي وأدخلها في رسائله ، وكذلك فعل الصابي والخوازمي وابن العميد .

٦ — وقد أشاع كتّاب القرن الرابع نظرية ” الفن للفن “ فقد عودوا القراء تذوق الكتابة البليغة ، وجبوا اليهم النثر المصنوع ، فأصبح المتأدبون يتأملون مواقع الألفاظ ، وقرار التراكيب ، وصارت فنون البديع من تورية وجناس وطباق أصولا فنية يجد القارئ لذة ومتعة حين يراها وقعت موقعا حسنا ، وأصاب الغرض الذي وضعت له ولو كان غرضا لفظيا لا يتوقف عليه تمام المعنى المراد .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر لا يستطيعون أكثر آثار ذلك العصر، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية، فلا أنهم أسرفوا فى مهاجمة التراث الفنى الذى غلبت عليه الصنعة، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا مجيها أو جتاما أو طباقا، أو أى محسن وقع عن قصد، مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية، وتلك الطبايع السليمة، التى سمحت لأولئك الناس بالتعمق فى وصف ما شهدته أعينهم، وأحسسته أنفسهم، من غرائب العوالم المحسوسة والمقولة، بطريقة فنية هى وحدها تتطلب دقة فى الفهم، وقوة فى العقل، وسلامة فى الذوق.

٧ - ومن أظهر الدلائل على ميل كتاب ذلك العصر الى الإغراب فى الوصف ما جاء فى نعت البلاغة بصور مختلفة على ألسنة جماعة من أرباب الصناعات :

(١) لم تعرف واضع هذا الحديث، ولم يزد صاحب زهر الآداب على نسبه الى "بعض من ولده عقائل هذا المتور، وأنت فواصل هذه الشذور" وقد رأيت صورة منه فى كتاب اسمه "الفرائد والقلائد" منسوب الى التالهي، ومن المحتمل أن يكون من وضعه، وكتاب (الفرائد والقلائد) طبع على هامش "تر النظم وحل المقد" للتالهي أيضا - المحلطة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هجرية .

وملاحظة كلام أهل المهن والصناعات مما تنبه له الإحاطة قال : قلت للملاح لى - وذلك بعد العصر فى رمضان - أنظر، كم بين عين الشمس وبين موضع غروبها من الأرض ؟ قال : "أكثر من مردين ونصف" - والمردى عود يدفع به الملاح السفينة - وقال آخر : وقع علينا العصوص ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان فى طول هذا المردى ، وكانت نغذه أظلم من هذا السكان ، وأسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سوادا من هذا القير . وأردت الصعود مرة فى بعض القناطر وشيخ ملاح جالس ، وكان يوم مطر ورائى ، فزلق حمارى فكاد يلقى بجيئى ، لكنه تمالك فألقى على عجزه ، فقال الشيخ الملاح : "لا إله إلا الله ! ما أحسن ما جالس على كرتة ! " - والكوكيل : مؤخر السفينة .

وفى دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة (رقم ٨٢ م أدب) يتحدث فيها أربصة ونحسون وجلا (فشرط كل منهم أنه لا يكلم رفيقه إلا بآبارة تناسب حرفه ، وكما فرغ من تثره أتبعه بيتين من شعره) وهى رسالة جات بعد القرن الرابع بزمان طويل وتظهر طبا لآبارة المصرية فى الألفاظ والتأثير ، وفيها أحيانا نزعة شامية .

ومن طريف ما فى هذه الرسالة ما جاء على لسان الجزائر :

"دجمنونى ذبح ، ونحرتونى بحمر ، انو عندكم منى أحسن من خروف ! بالله استغنوا أيام البدارى قبل انسلخها عنكم ، وانت يا ساقى ، يافك الصبة وكيش المراح ، ما لك عكك مراح " .

قال الجوهري : أحسن الكلام نظاما ما تقبسه بد الفكرة ، ونظمته الفطنة ، ووصل جوهر معانيه في صموط ألفاظه ، فأحتمله نحر الرواة .

وقال العطار : أطيب الكلام ما عجن عن ألفاظه بمسك معانيه ، ففاح نسيم نشقه ، وسطعت رائحة عبقه ، فتملقت به الرواة ، وتمطرت به المرأة .

وقال الصائغ : خير الكلام ما أحمينه بكبر الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر ، وخلصته من خبث الإطباب ، فبرز بروز الإبريز ، في معنى وجيز .

وقال الصيرفي : خير الكلام ما نقدته يد البصيرة ، وجتته عين الروية ، ووزنته بميزان الفصاحة ، فلا نظريزه ، ولا سماع يهرجه .

وقال الحنّاد : أحسن الكلام ما نصبت عليه منفضة الفريجة ، وأشعلت عليه نار البصيرة ، ثم أخرجته من غم الإلغام ، ورقفته ببطيس الإنفهام^(٢) .

وقال النجار : خير الكلام ما أحكت نجر معناه بقدم التقدير ، ونشرته بمشار التدبير ، فصار بابا لبيت البيان ، وعارضة لسقف اللسان .

وقال النجاد : أحسن الكلام ما لطفت زفاف ألفاظه ، وحسنت مطارح معانيه ، فتزفت في زرابي^(٣) محاسنه عيون الناظرين ، وأصاحت لنم^(٤) ريق بهجته آذان السامعين .

== وما جاء على لسان البراهمي :

” أنا مكم كل ساعة في مفلة ، وكل في بردتي منك مسلة ، أنا أخيش وأنعب ، وغيري ينط ويركب ، فأ أقبح حشوكلامك ، قطع الله حزامك ، وأنت يا ساقى ما بتكرنا ، اسقينا حتى تلجنا :

عدت عليك ما حيت تجهدي وقد ضاع عمرى فيكو وتصرما

وحل حزام الصبر منى ولم يزل فى فيكو عن شرح حالى ملجما

والرسالة طويلة وفيها شواهد على البراعة فى التكة اللفظية .

(١) السموط جمع سميط بالكسر وهو الخيط الذى تنظم فيه القلادة . (٢) الإلغام : العجز عن

الانصاح . (٣) البطيس ، على وزن سكت ، المطرقة الطويلة . (٤) الزرابي جمع وهي

الأبسة أو كل ما بسط واتك على ، الواحد زرب بالكسر ، و يضم والزرابي من البيت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .

(٥) انشارق : الواسد الصغيرة ، والقرود تمرق وتمرة بالثنية .

وقال المسامح^(١) : أبين الكلام ما عقلت وذم ألفاظه ببيكة معانيه ، ثم أرسلته فى قلب الفطن ، فتحت به سقاء يكشف الشبهات ، وأستنبطت به معنى يروى من ظلمة المشكلات . وقال الخياط : البلاغة قميص : لجربانه^(٢) اليا رب ، وجيه المعرفة ، وكياه الوجازة ، ودخار بصة^(٣) الإنهام ، ودروزه^(٤) الحلاوة ، ولايس جسده اللفظ ، وروحه المعنى .

وقال الصباغ : أحسن الكلام ما لم تنض بهجة إيجازه ، ولم تكشف صبغة إيجازه ، وقد صقلته يد الروية من كمود الإشكال ، فراع كواعب الآداب ، وألف عذارى الألباب . وقال الحائك : أحسن الكلام ما اتصلت ألفاظه بسدى معانيه ، نفرج مغفوا منيرا ، وموشى محبرا .

وقال البراز : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن نشر معانيه ، فلم يستجم عنك نشر ، ولم يستهم عليك على .

وقال الرائض : خير الكلام ما لم يخرج عن حد التخليص^(٥) ، إلى منزلة التقريب^(٦) ، إلا بعد الرياضة ، وكان كالمهر الذى أطمع أول رياضته ، فى تمام تهافته .

وقال الجمال : البليغ من أخذ بنظام كلامه ، فأناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عقالا ، والايجاز له جمالا ، فلم ينذ عن الآذان ، ولم يشذ عن الأذهان .

وقال المنحت : خير الكلام ما تكسرت أطرافه ، وتشت أعطافه ، وكان لفظه حلة ، وممناه حيلة .

(١) من مع الماء زبه . (٢) الودم بالتحريك الميورين آذان الدلو . (٣) القلب : البرز . (٤) الجربان بتشديد الباء القميص ، اذا كسرت الجسم والراء ، فاذا ضممتها فهو الجلب ، كما فى القاموس ، وظاهر من نص هذا الحديث ان جربان القميص شئ غير الجلب . (٥) الفخاريس طيات القميص . (٦) دورز الثوب طراش المحيط فيه . ومه — ولا مؤاخذه ! — قيل لقتل نبات الدورز . وأولاد دورزة : هم السفرة ، وهم أيضا الحاككة والخياطون . (٧) التخليص نوع من سر القصر تطلع فيه الأليان . (٨) التقريب ضرب من الدلو . أو هو أن يرغ الحصان يديه معا ويضمهما معا .

وقال الخمار : أبلغ الكلام ما طبخته مراحل العلم ، وصفاه راووق الفهم ، وضمته دنان الحكمة ، فتمشت في المفاصل عنوبته ، وفي الأفكار رفته ، وفي العقول حذته .
وقال الفقاع ^(١) : خير الكلام ما أزاحت ألفاظه غباوة الشك ، ودققت رفته فظانلة الجهل ، فطاب حساء فطته ، وعذب مص جرعه .

وقال الطبيب : خير الكلام ما اذا باشر دواء بيانه سقم الشبهة استطلقت طبيعة النبوة فشفى من سوء التفهم ، وأورث صحة التوهم .
وقال الكحال : كما أن الرمد قذى الأبصار فكذا الشبهة قذى البصائر ، فأكحل عين اللكنة بميل البلاغة ، وأجل رمص الغفلة بمرود اليقظة .

٨ — وقد يقال : إن هذا حديث يدل على ذوق واضع : فلا يكون دليلاً على الاتجاهات الوصفية في عصره ، ونجيب بأن نجد هذا الاتجاه في عدة مواطن من آثار ذلك العصر في الموضوع نفسه وهو وصف البلاغة . مثل :
”البلغ من يحتمل من الألفاظ أنوارها ، ومن المعاني ثمارها .
— فلان يعبث بالكلام ، ويقوده بالين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق الى خواطره ، والمعاني تتفايرق في الانثيال على أنامله“ .

ونجد مثل هذا الاتجاه في الرسائل التي تبادلها كتاب ذلك العصر ، كقول أبي الفضل الميكالي يخاطب الثعالبي :

”وصل كتاب سيدى ومولاي أبداع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وأعجازا ،
فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصنى قطرا وديمة ، وممانيه در السحاب ، بل أوفى قدرا
وقيمة“ . ^(٢)

(١) الفقاع : باع الثراب . (٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٤ (٣) الهادي جمع هاد ، وهو السق ، والأعجاز جمع عجز ، والمراد بالهوادي والأعجاز وصف الكتاب القوامع والخوام . (٤) الدوافتح هو في الأصل اللبن ، ومنه : قد دوافتح : تمتح الأصل التي تبت منه . (٥) السحاب ، على وزن كتاب : ثلاثة من قرنفل . (٦) زهر الآداب ج ١ ص ١١٤

٩ — ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة في فهم ذلك العصر؟

بل . إنه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معرفة جيدة ، ووقفوا على أسرارها ، وطرائق تعبيرها ، وكان من مهمهم أن يرتبوا الألفاظ والمعاني والتعابير والأخيلة حتى أستطاع كاتبهم أن يحشر أبواب الصناعات في صعيد واحد ، ثم ينطقهم بأسرار البلاغة ، فيتحدث كل واحد على طريقته وبأسلوبه الذي يختاره في مقتر مهته ، وموطن عمله . وما نحسب كتاب القرن الأول مثلاً كانوا يفكرون في جمع شتات اللغة لتصبح طوع أفكارهم وأفلامهم على هذا النحو الفضفاض ، وإنما كانوا يكتفون في الوصول إلى أغراضهم بالعبارة الواضحة الموجزة التي يفهمها خاصة الناس وعامتهم بلا عناء . أما كتاب هذا القرن فقد أصبغوا في حاجة إلى صفوة من المتأدين تقرأ لهم ، وتفهم عنهم ، وتنقل إلى الجماهير أسرار ما يكتبون ، لأن لغتهم أصبحت من القوة بحيث لا يفهمها الجمهور بلا دليل ، فليس كل قارئ ولا كل سامع بمستطيع أن يتذوق تشبيه الحظ الجميل بأزهار الربيع ، والألفاظ بقلائد النحور ، والمعاني بالآلئ ، ولا أن يدرك كيف تنتهي كل جارية أن تكون أذنا تلفظ ددر الكلام وجواهره ، أو عينا تجتلي مطالعه ومتناظره ، أو لسانا يدرس محاسنه ومفانحه .

إنذ فالصنعة التي عرف بها كتاب القرن الرابع لها وجهان : وجه جميل يدل على حذقهم وبراعتهم ، ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهي الوضوح ، فإن الإغراق في الصنعة باب من التموض .

٨ - المبتذل والطريف في التعابير الأدبية

١ - نكتب هذا الفصل رداً على الأستاذ ديمومين الذي يرى أن التعابير الأدبية عند العرب أكثرها مبتذلات . ولنشر أولاً إلى أنه يذكر كلمة « كليشيه » وقد بحثنا فيما يقابل هذه الكلمة في العربية فرأينا كلمة "مبتذل" تؤدي معناها أفصح أداء . وهي كلمة استعملها علماء البلاغة حين قسموا التشبيه باعتبار الوجه إلى مبتذل وغريب، وعرفوا المبتذل بأنه ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به من غير احتياج إلى شدة نظر لظهور وجهه، وعرفوا الغريب بأنه ما احتاج في الانتقال من المشبه إلى المشبه به إلى فكر ودقة نظر لخفاء وجهه . وفي هذا التفسير بعد قليل بين كلمة مبتذل وكلمة كليشيه ، لأن الكليشيه هو الصورة التي تقع لأول وضعا جميلة ثم تسخف بكثرة الاستعمال ، فلتقرر إذن أن كلمة "مبتذل" كلمة اصطلاحية أردنا وضعها مقابل كلمة كليشيه لأنها أصلح الألفاظ لأداء المعنى الذي نريده في وصف التعابير التي هيها طول الاستعمال .

٢ - والحق أنه توجد في اللغة العربية - كسائر اللغات - مبتذلات . فقد يقع التعبير موقع القبول عند ظهوره ثم لا يزال الناس يلحون في استعماله حتى يسمج وييوخ . من ذلك "منحط النوى" و "شط المزار" وهي كلمات كثر ورودها في قصائد الشعراء ورسائل الكتاب حتى أبتذلت ، وكان من ذلك أن لا يحش لها النوق في قول ابن زيدون :

شحننا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

(١) ارسلت الى المسيو ديمومين - وكنت في باريس وكان في هوتوت Hantot - فعولا من رسالي ، فأرسل الى كتابا فيها في ثلاث صفحات عن ملاحظاته ، وجاء فيه قوله عن التعابير في اللغة العربية :

La Littérature arabe est par essence une littérature de jolis clichés.

وقد رددت عليه في الأصل الفرنسي ، وعدت الى الموضوع في هذه الطبعة بهذا التفصيل .

وكلمة "عَبْلُ الشوى" يحدها الفارئ فى أكثر ما جاء فى وصف الخيل بحيث تصح
إضافتها إلى المبتذلات . وعجزة "أنشبت المنية أطفارها" استجدها الناس فى قول الهذلى :
وإذا المنية أنشبت أطفارها ألفيت ككل تيمة لا تنفُ

ثم عادت مبتذلة بكثرة الاستعمال بحيث تحامها الشعراء والكلاب ، ومثلها عبارة
"استشعر الندم" وعجزة "حنوك النمل بالنمل" مع أن العبارة الثانية كانت مستجدة جدا
فى قول عمر بن أبى ربيعة :

قلبا تلاقينا عرفت الذى بها كئيل الذى بى حنوك النمل بالنمل

وقد وقعت مرة على لسان خطيب من خطباء الثورة المصرية فقابلها السامعون
بالسخرية والصفير^(١) . وعجزة "بكرت تلومك" كثر ورودها فى الشعر الجاهلى والأموى حتى
ابتذلت وتساهاها الشعراء . وكلمة "تؤوم الضحى" كانت من أجل ما توصف به المرأة، وهى
اليوم من سقط المتاع . وكان القدماء يستجيدون قول امرئ القيس :
وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريج ظلي أو مساويك إصبل

والأساريج دواب ظهورها ملساء تكون فى الرمل أو فى الحشيش وتشبه بها أنامل الحسان
وكان هذا التشبيه مستملا لأول ظهوره ثم أخذ ينقل بكثرة الاستعمال حتى كاد يضاف إلى
القبيح المردول فى قول أبى تمام :

بسطلت اليك بناة أسروا تصف الفراق ومقلة ينبوعا

ومن المبتذلات أيضا قولهم "نسج على منواله" وقولهم "لا يفرق بين الثت والسمين"
وهناك مبتذلات ماتت موتا لا نشور بعده كقولهم : "كثير الزماد" و "جبان الكلب"
و "مهزول الفصيل" مع أنها كانت من أطيب الصفات فى شعر من قال :
وما يك فى من عيب فانى جبان الكلب مهزول الفصيل

(١) كان ذلك فى خطبة ألقاها الدكتور محبوب ثابت على قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد .

٣ - على أن بعض التعابير قد تستعمل لسبب آخر غير كثرة الاستعمال ، وذلك حين يخفف التعبير عما كان يراد به بعض الانحراف ، فقد كان القدماء يستحسنون وصف المرأة بطيب الأنياب ، كالذي يقول :

وما أنشد الرعيان الا تملأ^١ بواضحة الأنياب طيبة النش^٢
أو الذي يقول :

لئن كان يهدى برد أنيابها العلى لأفقر منى إننى لفقير^٣
ولو أن أحد شعراء اليوم وصف فتاة يبرد الأنياب لمد من السخفاء ، لأن "الأنياب" أخذت معنى أخشن وأقرب الى الوحشية . وكذلك لفظة "النسوان" كانت حلوة في قول بعض الشعراء :

فوائه ما أدرى أزيدت ملاحه^٤ وحسنا عن النسوان أم ليس لى عقل^٥
ولكنها اليوم في مصر كلمة "هجاه" ولا تؤدي في الذوق ما تؤديه كلمة "نساء" .
وكذلك وصف اللمع وتسيبه العين الباكية بالقرية المخروقة في قول ذى الزمة :
ما بال عينك منها المياء ينسكب كأنه من كل مغرية سرب^(١)
وقوله من كلمة ثانية :

وما شتا خرقاء واهية الكلى سقى بهما ساق ولما تبللا^(٢)
بأضيق من عينيك للدمع كلما تذكرت ربعا أوتوهمت منزلا

ويلحق بهذا قولهم : "نزل المطر كافواه القرب" فانه آبتدل لانهصراف الإذعان عن تلك الصورة البدوية . وكان الشعراء في عصور كثيرة يشبهون مشية المرأة بأنسياب الحية كقول ابن أبي ربيعة :

نرجت تأطر في الثياب كأنها أيم يسب على كتيب أهىلا

(١) الكلى جمع كلمة بضم الكاف وسكون اللام ، وهى من المزايدة رقة مستديرة تحرز عليها تحت العروة ، والمغرية : المشوقة . (٢) الشن والشن : القرية . (٣) تأطرت الحساب : تفتت وتمايلت .

ولكن هذا الخيال عاد مما تلبو عنه الأتواق لبعد ما بين مشية المرأة وأنسياب الحية ، وإن كنت أعجب كيف سرى هذا التشبيه حتى نراه عند الفرنسيين فى شعر بودلير ، وأنا لا أعرف صلة بين المرأة والحية من جهة الحسن ، إلا أن يكون أختافهما فى البنى مما يقرب بينهما فى خيال الشعراء ! والمرأة والحية هما اللتان أخرجنا أبانا آدم من فراديس الجنان !

٤ — ولنقيد هنا أن المبتذلات أو الكليشيات تنتقل من عصر الى عصر ومن بيئة الى بيئة ثم تذوى وتموت ، ومن شواهدنا فى عصرنا ما كانت تختم به أكثر المقالات فى الصحف المصرية قبل سنين من مثل عبارة :

”وقه فى خلقه شؤون“

وقد توسيت هذه العبارة منذ مدّة بمد أن أملت القراء والكتاب . ومن طريف هذا النوع ما كان الدكتور طه حسين يبدأ به محاضراته فى الجامعة المصرية من مثل عبارة ”قلنا فى المحاضرة الماضية“ وقد ألتقى له أن علا المنصة وتأهب للكلام فسمع بعض الطلبة يقول فى همس : ”قلنا فى المحاضرة الماضية“ فأبتم وقال :

”سمعت فى الدرس الماضى“ .

وهو تخلص لطيف !

وهناك تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط كقول المرحوم سعد باشا ”أنجلم تواضعى“ وقوله ”فى ميدان الضحايا متسع للجميع“ فان الكتاب أنصرفوا عن استغلال أمثال هذه التعابير لدلائها على صاحبها دلالة عنيفة قوية بحيث يشعر القارئ أنها لا تقع فى الكلام إلا أنها وأختلاسا . وكذلك قوله ”إنى الوطن غفور رحيم“ وهو تعبير قرأتى نقله سعد باشا من الصيغة الدينية الى الصيغة الوطنية ، فأخذ فى كلامه صورة حية ، ولكنه من التعابير التى تأبى الاقتياد لكثير من الناس ، إلا أن يتفق للماكين ما ألتقى لسعد باشا من علو الكلمة ورهبة الجلال .

٥ — تنقسم المتنزلات الى أقسام : قسم مفهوم هجته كثرة الاستعمال وقد ذكرنا له عدة أمثلة ، وقسم غير واضح لا يفهم إلا في غموض ، ولا يزال الناس يستعملونه بدون أن يتبينوا تماما وضع صورته وإن أدركوا معناه ، كقولهم "جاءوا على بكرة أبيهم" فانهم يفهمون المراد من هذا التعبير وإن كانوا لا يدركون صورته الأولى ، وقولهم "رفع عقيرته وغنى" وهي عبارة ماتت وحاول المتغلوطى إحياءها فتابعه بعض الكتاب ، وإن كانوا لا يدركون الصورة الأصلية ، وقولهم "شالت نعامته" إذا مات ، وقولهم : "الى حيث ألفت رحلها أم قسم".

وهي عبارة لا تزال حية ، وإن كان الجمهور لا يدرك صورتها الأولى على الإطلاق . وقولهم "سبق السيف العذل" وهي كلمة لا تزال تجري على ألسنتنا ، وإن كان الناس لا يلتفتون الى موردتها الأول . وقولهم "لأيا عرفت الدار" وهي عبارة جاهلية توسيت طويلا ثم حاول المتغلوطى إحياءها فلم تنهض إلا قليلا . وقولهم "يتحنون أثلته ويصدعون مروتة" وهي جملة نستجدها أحيانا وإن كان الجمهور لا يتأمل صورتها إلا يجهد شديد .

وهناك قسم ثالث من الكليشيات جهل أصله منذ زمن طويل فأنصرف عنه الكتاب والشعراء كقولهم "يا عبد مالك" و "يا هيئ مالك" و "يا شئ مالك" وقولهم في الإغراء "كذبك كذا" و "كذبك العسل" و "كذب عليك الحج" و "كذبت عليك أوعدونى" وقولهم "عنك فى الأرض" و "عنك شيئا" وقولهم "أعد من سيد قتله قومه؟" أى هل زاد؟ وقول ابن ميادة :

وأحمد من قوم كفاهم أخوهو صدام الأعادى حين فُلت نيوها

وفسره الخليل فقال : "معناه هل زنا على أن كفيئا؟" وهذا لا يفي شيئا في توضيح ذلك التعبير . ومثل هذا قولهم "بين ما أرىك" في موضع "عجل" وقولهم "لما" فى الدواة

(١) ذكره ابن فارس فى المصطلح تفسيره العلماء . انظر الصاحي ص ٣٥ (٢) من قول الشاعر :

كذبت عليكم أروصتى وطورا فى الأرض والأقوام قردان موطا

(٣) ارجع الى الصاحي ص ٣٤ - ٣٧

للعائر، وهي جملة ماتت منذ أزمان وحاول شوقي إحياءها في رواية مجنون ليلى ، وقولم ”غريب ليناع“ وهي عبارة تمامها التكلمون منذ عصور طوال ، وحاول بعض الكتاب أن يمدح صدق باشا فوصفه بها فظنها الناس من الهباء ، وما يدرى أحد أأصابوا أم كانوا من المخطئين ! وكان العرب يستهضون العائر بقولهم ”دعده ولعلع“ ففهم النبي عن ذلك وأستحب لم أن يقولوا ”اللهم أرفع وأنفع“ فما معنى ددعه ولعلع ؟ كانت هاتان الكلمتان مفهومتين بالطبع حتى سمع النبي عنهما ثم أركهما الموت فأندثر ما كان لهما من معنى ومدلول . وكذلك قول الشاعر :

وما كان على الجبيء ولا الهبيء استداجكا

فما هو الجبيء والهبيء ؟ تلك مبتذلات أو كليشيات ضاعت معانيها فسحب عليها الزمان أذيال العفاء .

٦ - وفي اللغة العربية تمايز تفيض قوة وحياة ، ولكن الكتاب والشعراء ينصرفون عنها عامدين ، ومن ذلك عبارة ”والذي قضى يسده“ وهو قسم ظريف انفرد به الرسول عليه السلام ، وقد وقع منذ سنوات في خطاب أذاعه الأستاذ على ماهر باشا وكان وزير المعارف ، فأبسم الناس ، وقيل إنها عبارة تمخها الأستاذ عبد العزيز البشري وكان الكتاب البرلساني لوزارة المعارف حينذاك . ومن هذا الباب الأقسام القرآنية التي تفرق بحرف ”لا“ مثل ”فلا أقسم بالشفق“ و ”فلا أقسم بمواقع النجوم“ وهي أيمان لو عاد إليها المتأدبون لكانت ظريفة ، ولكن القرآن انفرد بها وقصر جالها على آياته اليناث ، بحيث لو وقعت في كلام غيره لشعر القارئ بغيرتها عن مواطنها ، وبذلك قضى عليها أن تظل رهينة المصحف لا يعرفها الناس إلا في الصلوات . وقد يكون من أسباب هجرها وتساها أنها كانت تشير إلى معان أو حوادث كانت معروفة لعرب الجاهلية فكانوا يجدون في تذوقها ما لا نجد بعد أن تطورت العقائد والأهواء والأذواق والميول ، فلسنا ندرك اليوم ما كان يدرك العرب من جلال هذا اليمين ”والتين والزيتون وطور سين“ ولا نسمى هذه مبتذلات ولا كليشيات

لأن الناس أنصرفوا عن استمالتها كل الانصراف، وإنما نسميها الطوايف القرآنية، لأنها تجمل فيه وحده، ولا تنقاد لكلام سواء بعد أن حفظت فيه ما كانت ترمى إليه من دقائق الأغراض.

٧ - لتترك المبتذلات التي ماتت، والتي يحاول بعض المعاصرين إحياها في غير نفع، من مثل "يحرقون الأرم" وما أشبه ذلك من التمايز البالية، ولناخذ في ذكر نوع من الصور لا يبل ولا يموت، لأن الضرورات اللغوية تفرض حياته على اختلاف الأزمان. والضرورات اللغوية هذه مشكلة إنسانية: لأن الناس لا يستطيعون في سبيل الفن أن يحفظوا في كل جيل ألفاظا جديدة يتميزون بها عن سبقوهم في تلوين الخيال. ومن أجل ذلك نرى الشعراء والكتاب في جميع المصور يتلاقون عند تشبيه الخلد بالورد، والعين بالنبل، والثغر بالأخوان، والسن بالبرد، واللفظ بالسحر، والنفس بالرياحان، والقد بالفضن، والعاذة بالنسق، والفتوة بالفلق، والخلل بالمسك، والشفة بالعقيق، والريق بالرحيق، وتشبيه العذراء بطراز المنبر، والنسق بإبريق الخمين، والسررة بمدهن الساج، والوجه بالصبح، والشعر بالليل، ووصف العيون بالدعج، والمباسم بالفلج، وزاهم كذلك يتلاقون عند الكلمات الواضحة الدلالة والتي أقرها العرف والذوق، مثل: أشر الصبا، وسكر الحداثة، وشرح الشبية، وريحان العمر، وعغوان الشباب، وكبد السماء، وقرارة الماء، ومطلع الفلق، وجمع النسق، وأضطراب النفس، وأضطرام الصدر، وصروف النهر، وغدرات الزمان. ونجدهم يتوافقون أيضا عند الصفات الغالبة، كالعقاب الكاسر، والبرج الشاهق، والنجم الناقب، والشعرى العُور، والأسد المصور، والجبل المنيع، والحصن الحصين، والصبح الشامس، والليل الدامس، والقلب الخلاق، والماء الدافق، والهواء العليل، والنسيم البليل، والطرف الكعجل، والخذ الأسيل، والخصر التحيل، والقوام الأهيف، والطرف الأحور، والوعد الخلب، والزم. القلب، والرسم المدارس، والطلل الطامس، والنم الجهام، والسيف الكهام، والبأس الشديد، والمذاب الأليم، والروض الضاحك، والسراب الخادع، والفنن الرطيب، والوادي

الحبيب، والصخرة السماء، والدرة العصماء، والحية الرقطاء، والداء العضال، والموت الزؤام، والروضة الفناء، والجنة الفيحاء .

ولو شئنا لمضينا في سرد ما تداوله الشعراء والكتاب من الأوصاف والتشبيهات، بدون أن يجرؤ ناقد على أخذهم بإعادة ما سبق اليه الأدياء الأقدمون لأنهم في الواقع يلبأون الى صفات وتشبيهات لا يُستغنى عنها إلا بخلي من اللغة جديد، واللغات لا تخلق في أعوام معلودة، وإنما تنمو وتطور في أجيال طوال، فليس من المقول إذن أن نرفض تشبيه الخلد بالورد مثلا بحجة أن هذا كلام معاد درجت عليه القرون . ولو نظرنا لرأينا التقاد في أكثر اللغات يحاكون الكتاب والشعراء الى المصطلح عليه من الألفاظ والتعابير، ويظهر ذلك واضحا عند تقادنا في القديم والحديث، حين نراهم يقولون "العرب لا تقول ذلك" أو "لا تصرف العرب ذلك" وثلاثة أرباع ما كتب الباحثون في النقد والبيان يرجع في جملة الى المقابلة بين القوالب الجديدة والقوالب القديمة في الألفاظ والمعاني والتعابير والأساليب، ومتى راعينا ذلك سهل علينا أن ندرك أن لواجه لاهتمام الأدب العربي بأنه ركام من المبتذلات كما يظن المسيو ديمومين .

٨ — على أن الكليشيه بمعناه المفهوم عند النقاد الفرنسيين لا يوجد عند شعرائنا وكتابنا إلا قليلا، ذلك بأن التعبير لا يسمى كليشيه عند الفرنسيين إلا حين يتبدل ويفقد الحياة مثل قولهم في المستقل من الأشياء أو الأشخاص *Embétant comme la pluie* .

ونحن إذا رجعنا الى الصور الأدبية عند كبار الكتاب والشعراء من العرب وجدناها تتوشب من فيض القوة والحياة، ونستطيع أن نقدم نماذج من الشعر والنثر ليس فيها تعبير مبتكر، ولا يوجد فيها من الصفات والتشبيهات إلا ما ألفه الناس وتناولت عليه السنون، ومع ذلك تبدو طريقة أخاذة وكأنها عذراء لم يمسهما كاتب ولا شاعر ولا خطيب، وإنما كانت كذلك لأنها صدرت عن نفس حية مفعمة بالشعور والإحساس، ومن ذا الذي ينكر أن الكلمة الواحدة قد ينطق بها رجلان فتقابل من أحدهما بالتبليد والجمود، وتقابل من ثانيهما بالثائر والقبول، وكذلك الأغنية الواحدة يغنيها آثنان على أصولها الفنية بحيث لا تسقط منها

نبرة ولا يشذ فيها صوت ، ومع ذلك يكون الفرق بين المغنيين بعيدا ، لأن أحدهما ينقل الصوت نقل المحاكاة ، على حين يشعر ثانيهما بمعنى ما يغنيه ويساير صاحب الصوت فيما يعبر عنه من ألوان المشاعر والأحاسيس ، فلو كانت المعاني تتنزل بمجرد التكرار لوجب أن تنصرف عن أشياء كثيرة عرفها الأولون ، فإن كلمات الحب والعبادة والتقديس قد تكررت وتكررت في مئات الأجيال ، ومع ذلك يقول المحب لحبيته ” أحبك وأعبدك وأقدسك “ فتظهر هذه الجمل على طول العهد بها حارة قوية كأنها موجهة من أول آدم الى أول حواء ، وهذه الجمل بعينها قد يوجهها رجل الى امرأة فتلقاها في محمود ، لا لأنها جمل مبتذلة أضيفت الى الكليشيات ، ولكن لأنها صدرت عن قلب خامد ولسان كذوب !

فالمعول عليه إذن في التمايز الأدبية هو حياتها في أنفاس قائلها ، ولا عبرة بالقدم والحدث في هذا الباب ، وإن كان الأدباء يتفاضلون بما يتكرومون من الصور والأخيلة ، كما يتفاضلون في المعاني والأساليب .

والى القارئ قطعة من شعر ابن هاني الأندلسي في وصف زهرة رمان قطفت قبل عقدتها :

وبنت أيك كالشباب النضر	كأنها بين الفصوص الخضر
جنان باز أو جنان صقر	قد خلقت له قوة بوسكر ^(١)
كأنما صحت دما من نحر	أو نبئت في تربة من جمر
أو سقيت بجدول من حمر	لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت كتل التهذ فوق الصدر	فقطر عن مثل اللثات الحمر

في مثل طعم الوصل بعد الحجر

فالتشبيهات والصفات في هذه القطعة قديمة تداولها الكلاب والشرعاء ، ولكن من الذي ينكر أن هذه القطعة من نواذر الشعر البليغ ؟ فإن سألت ما سر الحياة في هذه القطعة فاني أجيبك بأن سر حياتها هو الحياة في روح من نظم الوصف وهو متأثر بجمال الموصوف .

(١) القوة : بالفتح ، هي المقاب ، ضم العين .

والى القارئ قطعة أخرى من شعر ابن المعتز في ضاحية كانت ملعب صباه ثم غيرها الزمان :

لا مثل متلة الدورية ^(١) متل	يادار جادك وابل ومساك
يؤسا لدهر غيرتك صروفه	لم يجمع من قلبي الهوى ومحاك
لم يحل للعينين بعدك منظر	دُم المنازل كلهن مساك
أى المعاهد منك أنذب طيبه	مساك بالآصال أم مفداك
أم برد تلك ذى النصوص وذى الجنى	أم أرضك المنياء أم رياك
وكانما سعطت مجامر عنبر	أو قُتَّ فار المسك فوق نراك
وكانما حصبا أرضك جوهر	وكان ماء الورد دمع نداك
وكان درعا مفرظا من فضه	ماء الفدير جرت عليه صباك

فأى جديد من التشبيهات والصفات في هذه القطعة ؟ لا شيء ! ومع ذلك لا يتكرأ أحد أنها من الشعر المرقص المطرب الذى ينذر أن تجود بمثله قرائح الشعراء ، فما هو السر في هذه العذوبة التى تسكر أرواحنا كلما أصطبحتنا أو أعقبنا بهذه القطعة الرائعة ؟

السر هو أن الشاعر ينطق عن نفسه في قوة وحياة ، بحيث تبدو تلك التعابير على لسانه وكأنها من فيض روحه ومن صنع بيانه ، وكأن لم يسبقه إليها أحد من صاغة الكلام .

ولنقدم الكلمة الآتية من تتر بدیع الزمان :

"أنا وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول ، وتحامل الأحرار إلا بالتحمل ، أحاسب الشيخ أيده الله على أخلاقه ضنا بما عقدت يدي عليه من الظن به ، والتقدير في مذهبه ، ولولا ذلك لقلت في الأرض مجالاً إن ضاقت ظلالك ، وفي الناس واصلٌ إن رثت حبالك ، فان أعارنى أذنا وإعانية ، ونفسا مراعية ، وزروعا عن هذا الباب الذى يقرعه ، وزلولا عن الصعود الذى يفرعه ، فرشت لمودته خوان صدرى ، وعقدت عليه جوامع خصرى ، وبجامع عمرى ،

(١) الدورية محلة كانت ينفذ .

وإن ركب من التعالى غير مركبه، وذهب من التنالى في غير مذهبه، أخطه خطه أخلاقه وأوليته جانب إعراضه، فاقى وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلت شطرى الدهر، وركبت ظهري البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصالحت يدى النفع والضر، وضربت إبطى السر واليسر، وبلوت طعمى الحلو والمر، ورضعت ضرعى العرف والسكر، فما تكاد الأيام تريق من أفعالها غريباً، وتسمى من أحوالها عجيباً، ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحداً إلا ملائت حافتي سمعه وبصره، وشغلت حيزي فكره ونظره، فالى صغرت هذا الصغر في عينه، وما الذى أزرى بى عنده حتى أحتجب وقد قبصدته، ولزم أرضه وقد حضرته؟ أنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل، أو يبعد فضل العلم، ويمتطى ظهر التيه، على أهليه، وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إعظام إن زلت بى مرة قدم فى قصده، وكأني به غضب لهذه المخاطبة المبهضة، والزينة المتحيفة، وهو فى جنب جفائه يسير” .

وقد تخيرنا هذه القطعة لكثرة ما ورد فيها من الصور والتعابير القديمة لننل القارئ على أن ذلك لم يمنع من ظهور شخصية بدیع الزمان إذ كان ياتب وهو مضطرم الصدر مهتاج الفؤاد . ولتقدم كلمة أخرى من تراوى الفضل بن العميد :

”وصل كتابك فصادفني قريب المهدي بانطلاق، من عنى الفراق، ووافني مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق، فان الدهر جرى على حكمة المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعتقني من غائلك عتقا فلا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدك براءة لا تستوجب معها دركا ولا استثناء، ونزع من عنق ربة النل فى إغائك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميري من نيران الشوق بالسوء، وشن على ما كان يلهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فلام قطورى بحيل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاح صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل فى مسالك أعماصى فعرض عن النزاع اليك نزوعا عنك، ومن النهاب فيك رجوعا دونك، وكشف عن عني ضبايات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفغ عنها غيايات ما سدله الشك دون نظرى، حتى حدر القاب

عن صفحات شيك، وسفر عن وجوه خليفك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستكبرا، فويلت منها فرارا، وملكت رعبا، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت اليك ذم عهدك“ .

وللقارئ أن يتأمل هذه القطعة فسيرى صورها جميعا متبهة من غرر الشعر القديم بحيث لا يبقى لأذن العميد معنى واحد خلا من لباس معروف، ومع هذا فن ينكر أنها من طرائف النثر الجليل؟ إن الكاتب أفاض عليها من روحه كما تفيض الحساء من بحر الملاحة على ما تمحل من دماج وأساور وعقود .

٩ — ونستطيع أن نضرب المثل ببعض ما ظهر من أطايب الأدب الحديث، فهناك كتاب صهاريج المثل للسيد توفيق البكري وهو كتاب نفيس لا يختلف في استجاده اثنان، ولا أقول لا ينطرح فيه عثران، فرارا من الكليشيه! وهذا الكتاب مع جودته قلما يقع فيه تشبيه إلا وهو ممروق من القدماء، وخاصة رجال القرن الرابع، وما نظرت فيه إلا تذكرت ما قاله أحد النقاد المتقدمين في سعيد بن حميد :

”لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقي معه شيء !“

ولكن هذا لا يمنع من أننا نقرأ نثر السيد توفيق البكري مأخوذين بأبداعه وأقنانه حتى لنحسب أنه صاحب ما يبالغنا به من الصور والتشابه، ولنتنظر كيف يقول في شواطئ الأسنانه :

”فأذا رأيت ثم حين دلوك الشمس، وقد شعشع نورها كل بناء وغرم، وقد عكس في المساء، صور ما يحيط به من الأشياء، أبصرت في المساء قبابا من ذهب، وأهلة من لب، وكثباننا من زمرد، ووديانا من زبرجد، وجبالا وأبقاعا، وحصونا وقلاعنا، وسقوفنا من جوهر، وعمدا من مرمر، وصرحنا من قوارير، وتماثيل وتصاوير، ودورا وحورا، ونارا ونورا، وحللا تطوى وتشر، وسيوفا تنمد وتشهر، وأقمارا تصاغ وتكسر، فكأنما نقرأ في البر، قصيدة من شعر، وتنتظر في البحر، فانوما من بحر“ .

أفيعد هذا من المبتذلات؟ هيهات هيهات !

١٠ - لقد آن أن نفهم أن الدأب على إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ورسوخا ويحببها الى أذواقنا وقلوبنا ، ألسنا نشعر أحيانا بالرغبة في وضع بعض الصور الفصيحة في صور عامية ؟ بلى ! وإن ذلك يقع في كل يوم . فما هو سر ذلك ؟ لا شيء أكثر من أن التعابير العامية صقلت الألسنة فأستطابتها الأذواق .

وقد تناقل الناس أن أبا العلاء المعري وضع كتابا في معارضة القرآن ، فقيل له :
إن كتابك لجيد ، ولكن تنقصه حلاوة القرآن ! فأجاب حتى تصقله الألسن في المحارب
أربعائة سنة وعند ذلك أنظروا كيف يكون !

وليس المهم هنا أن نعرض لهذا الرأي برفض أو قبول ، ولكن المهم أن نسجل أثر التريديد والتقليب في حياة البلاغات ، فإن البلاغة كالموسيقا تتنقح صورها في النفس وتقالما يقدر لها من الذبوع . والقلب أكثر ميلا للصوت الذي يداعب أذنيه في الصباح والمساء ، وكذلك كانت الموسيقا القومية ألصق بالقلوب ، وأعلق بالنفوس ، وإن كانت في تأليفها وسطا لا تسمو الى المفاق بكثير من مستجاد الأصوات . وهذا هو أيضا السر فيما يُعرف من استمحاء الشعر على الترجمة في كثير من الأحيان ، لأن المعنى قد يتصل بالفاظه اتصال الروح بما في الجسم الذي يلبسه من أعصاب وحواس . فالألفة لها أهمية عظيمة في استجابة ما تقرأ وما نسمع ، والها يرجع الفضل في استحسان ما ترصع به البلاغات من الحكم والأشعار والأمثال . ولو دققنا النظر في الصلات النفسية لوجدنا لتداعي المعاني دخلا في هذه المشكلة البنيانية ، لأن الصور المختلفة الألوان تهيج الذهن والذوق تهيجة خاصة لاستقبال ما يتقدم به الشعراء والكاتب والخطباء من فنون البيان .

وليس من التعامل في شيء أن نحكم بأن المستشرقين أقل منا إدراكا لما في التعابير الأدبية من قوى الحياة ، لأنهم يرون من التعابير شياتها وأعراضها ولا يدركوها توحى الى النفوس إلا بجهاد شديد ، فاذا وقع لأحدهم فعل "نحيم" مثلا في عدة مواطن ظن تنقله من هنا الى هناك

سمة من سمات الفقر اللغوي، ونفس الصورة الأولى التي أخذت عن عجم العود قبل أن تصنع منه الراح فصعب عليه تبعا لذلك أن يدرك سر البلاغة في مثل قول آبن المعتز :

وكم عاجم عودى تكسر نابه إذا لان عيدان اللثام وخاروا

١١ - بقيت نقطة أخيرة في هذا الموضوع ، وهى تتصل بما نراه من أن حياة التعبير هى التى تمنع من إضافته الى المبتذلات . ذلك أن كتاب اللغة العربية وخاصة رجال القرن الرابع كان من مهمهم دائما أن يرتفعوا عن الجماهير بما يبدعون من المعانى والأساليب ، وكانت وسيلتهم الى ذلك أن يظهروا بالفنى في ثقافتهم الأدبية بحيث لا يتذوق أدهم إلا خواص الخواص ، من أجل ذلك كثرت عندهم الإشارات إلى الحوادث السياسية والاجتماعية ، وبالغوا في تضمين الآيات والأحاديث والأشباع والأمثال ، لينقلوا قراءهم إلى جواء بعيدة لا يتنفس فيها إلا المثقفون . وذلك كله يفرض ادراكهم الحى لما يشيرون اليه من حوادث التاريخ ، وتأثرهم بما يعرضون له من إثارة ما أندفن من قديم الصور في مختلف الأغراض .

وهذا التسامى في خلق بيئة أدبية عالية كان ولا يزال من هموم الأدباء العظام ، فإن الأدب في ذاته نوع من الترف العقلى وهو يفرض وجود أريستوقراطية فكرية يتفيا خلالها الكتاب والشعراء . وكذلك كان رجال الأدب العربى في عصور كثيرة من أصحاب المطامع الكبار ، ومن رجال السياسة والملك ، ومن أقطاب المجتمع الفكرى والعقلى ، بحيث لا يفهم عنهم إلا من يدرك ما كانت ترمى اليه همهم في مطارح الحقائق ، أو مدارج الظنون .

البَابُ الثَّالِثُ

كُلُّ مَا خَبَّرَ الْأَوْصِيَاءُ

١ - المقامات

١ - العرب بجميع الأمم لم قصص وأحاديث وأسماء ونحرفات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون. ففى أى بقعة من البقاع العربية نجد الناس يسمرون تحت ضوء القمر فى ليلى الصيف، أو حول الموافد فى الشتاء. ولو استمعنا إليهم لوجدنا لم على سذاجتهم طرائف من القصص تدل على لباقة وذكاء. وقد أتبع لى فى أحيان كثيرة أن أختبر طبقات العامة من المصريين والسوريين والحجازيين والتونسيين فرأيت لم نوادر غريبة تشوق الخيال. وتلك القصص الطليقة التى تقال فى غير تحفظ ومن غير أن هى المصدر الأول لكاتب ألف ليلة وليلة الذى شغل الأوربيين والأمريكيين بما فيه من المفاجآت المدهشة والأحلام العجيبة التى صورت بها التزعات المكبوتة فى تلك الطبقات التى أضناها الاستعباد واليأس والرق الاجتماعى زمانا غير قليل. ولو أن كاتبها أراد أن يجمع كتابا على طراز ألف ليلة وليلة لوصل إلى ما يريد من غير مشقة ولا عناء، فلا تزال تلك الطبقات تعلم وتخيل وتبتكر ما شاءت لها حياتها الاجتماعية من أنواع القصص الخلاب الذى يمثل ما ترجو وما تخاف. ولكن هذا النوع من القصص ليس هو النوع الذى نريد أن نتحدث عنه فى هذا الباب، إنما نريد أن نتكلم عن القصص الذى وضع قصصدا، والذى أراد أصحابه أن يدونوا به بعض الأوصاف عن طريق الحكايات الصغيرة، أو يذيعوا بعض النوادر والفكاهات، أو يعطوا بعض الجوانب التاريخية صورة مغرضة يخدعون بها بعض الأحزاب، أو يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية أو يصفوا بعض الحوادث الغرامية، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والمقول والأذواق.

٢ - وأظهر أنواع الأفاضيص فى القرن الرابع هو فن المقامات، وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطيرة وجدانية، أو لمحة

من لمحات الدعاية والمجون . وكان المعروف أن بديع الزمان الهمداني هو أول من أنشأ فن المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من أرتاب في سبقي بديع الزمان إلى هذا الفن ، وإنما رأيت من يعلل سبقه بترعته الفارسية ، إذ كان الفرس فيما يظن بعض الناس أحرص من العرب على القصص وأعرف بمصنوع الأحداث .

٣ — وفي رأي أن الحريري هو الذي أفاخ هذا الغلط ، ثم آمن الناس بقوله إذ كان أشهر من أقبل الجمهور عليهم من كتاب المقامات ، وهو في مقدمة مقاماته منسب إلى بديع الزمان فضل السبق إذ يقول :

”وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركبت في هذا العصر ريمه ، وخبث مصايحه ، ذكر المقامات التي أبتدعها بديع الزمان ، وعلامة همدان ، رحمه الله تعالى ، وعزا إلى أبي الفتح الاسكندري نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تعرف . فأشار من إشارته حكم ، وطاعه غم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلوفيا تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالم شأو الفضيل “^(١)

إلى أن قال :

”هكذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يعترف إلا من فضائله ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . وفيه در القائل :

فلو قبل مبكاها بكيت صباية بعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فصح لي البكا بكاه قتل الفضل للثقم^(٢)

٤ — وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وإنما ابتكره ابن دريد لما توفي سنة ٣٢١ وإلى القارئ النص الذي اعتمدت عليه في تحرير هذه المسألة :

(١) الظالم : القى بمنز في مشيه . والفضيل القوي الأخلاق . (٢) راجع مقدمة مقامات الحريري .

قال أبو إسحاق الحصرى حين عرض لكلام بديع الزمان :

”كلامه غَضُّ المكسر، أُنِيقُ الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفًا، والهوَى يشقه ظرفًا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بآربعين حديثًا وذكر أنه استنبطها من يتابع صدره، وأستخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضائير، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية، بغاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع، ولا ترفع له مجبها الإسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربانة مقامة في الكدية تنوب ظرفًا، وتقطر حسنًا، لا مناسبة بين المقامين لفظًا ولا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين : سمي أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الاسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتنافان السحر، في معان تضحك الحزين، وتحسرك الرصين، يتطلع منها كل طريفة، ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية“^(١) .

وقد دهش المسيو مرسيه حين عرضت عليه هذا النص في باريس، وعجب كيف أتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشىء فن المقامات ، ثم سألني : ألا يمكن الأرتياب في قيمة كلام الحصرى في هذا الموضوع ؟ فأجبت أنه تحسنت بأسلوب يدل على أنه كان مفهومًا في أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان إنما عارض ابن دريد وما كاه . فأترضى هذا الجواب ثم قال : يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربي شيء كثير .

وقد واصلت البحث لأرى صدق هذه الفكرة في مؤلفات القدماء فلم أجد من أفردها بمجهود خاص وإن كنت رأيت ياقوت الحموى نقل ما كتبه صاحب زهر الآداب حين ترجم لبديع الزمان، ونقل ياقوت لهذا النص من غير تعقيب مظهر من مظاهر القبول .

وعندى أن من أسباب غفلة مؤرخي الآداب عن كشف هذا الخطأ أن ابن دريد سمي قصصه (أحاديث) في حين أن بديع الزمان سمي قصصه مقامات .

٥ - وقد دهش الدكتور طه حسين أيضا حين أطلته على ما وصلت إليه في تحرير هذه الفكرة ، وقال : إن ابن دريد كان رجل لغة ورواية ، ولم يعرف عنه أنه كان كاتباً ممتازاً ، فكيف آثار بديع الزمان بما آتت من الأحاديث ؟ ثم عاد فقال : أرجع إلى كتاب الأملى للقالي وأنظر الأحاديث التي نقلها عن الأعراب ، فإن رأيته يروي عن ابن دريد - وكان أستاذه - فأعلم إذن أن الأربعين حديثاً التي ذكر صاحب زهر الآداب أنه اخترعها لم تكن شيئاً آخر غير هذه القصص التي حلّ بها القالي كتابه . فلما رجعت إلى كتاب القالي وجدت حقاً أن القصص التي آتواها مروية عن ابن دريد . من ذلك مثلاً حديث البنات اللاتي وصفن أزواجهن^(١) ، وحديث الماشق الجليل^(٢) ، وقصة خنافر الكاهن^(٣) ، والرواد الذين أرسلتهم مذجج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية . وكذلك يمكن المضى في استقصاء ما ذكره القالي من القصص العربية المسجوعة ، وإن كان هذا لا يعين أنها نفس القصص التي عارضها بديع الزمان^(٤) .

٦ - ولكن يظهر مما جاء في « الرسالة العذراء » لابن المدبر أن أهل القرن الثالث كانوا يعرفون نوعاً من المحاورات الأدبية يسمى المقامات إذ رأيناه يوصي المتأدب فيقول :

(١) ج ١ ص ١٧ (٢) ج ١ ص ٣٨ (٣) ج ١ ص ١٣٣ طبع بولاق . (٤) لم يكن أحد تنبه إلى القيمة الص التي نقله آقا عن زهر الآداب ووصلت منه إلى نشأة فن المقامات ، وقد آفق أن المسيو ديموبين وجه نظري أخيراً إلى إشارة وردت في دائرة المعارف الإسلامية تدل على أن المسيو بروكلمان كان تنبه إلى ذلك النص فكتبت في هامش ص ٨٦ من الأصل الفرنسي هذا الاستدراك :

J'ai étudié cette question directement. M. Demonbynes après avoir lu ce chapitre a attiré mon attention sur l'opinion exprimée sur le même sujet par les auteurs de l'Encyclopédie de l'Islam. J'y ai trouvé ceci (pp. 71, Livraison 39) :

(... à savoir qu'Al-Hamadani se serait inspiré des Aḥbām d'Ibn Duraïd, nous ne pouvons porter aucun Jugement, car cette œuvre ne nous a pas été conservée.)

ومعنى هذا الكلام أن المسيو بروكلمان الذي كتب عن المقامات في دائرة المعارف الإسلامية يرتاب في أن يكون بديع الزمان متأثر بأحاديث ابن دريد ، لأن هذه الأحاديث لم تصل إلينا حتى نستطيع أن تصدر حكماً . وسيرى القارئ فيما يكتب عن (أحاديث ابن دريد) كيف ترجع لدينا وجود طائفة من تلك الأحاديث .

”وأنظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب“^(١).

غير أن «المقامات» في كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل في حضرة الخليفة أو الملك، وقد عقد ابن قتيبة فصلاً سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وذكر نماذج كثيرة منها مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي، ومقام عمرو بن عبيد بن يدي المنصور، ومقام خالد بن صفوان بين يدي هشام، ومقام الحسن عند عمر بن هبيرة^(٢). وقد تؤنث كقول بدیع الزمان في أحد الواعظين: «غريب قد طراً لا أعرف شخصه، فأصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينيء بسلامته»^(٣).

وقد انتقلت المقامات بعد ذلك إلى كلام المتعفين الذين يتوسلون إلى الأغنياء بكلام مسجوع، وكثيراً ما نجد عندهم أمثال عبارة «ارحموا مقامي هذا» يريدون الموقف، ثم صار المقام يطلق على ما يقال من الكلام في تلك المواقف. والمقام في الأصل المجلس، ففي القرآن (أي الفريقين خير مقاما وأحسن ندياً)^(٤) وفي شعر زهير:

وفهم مقامات حسن وجوههم وأندية يتأهبها القول والفعل

ومن المؤكد أن بدیع الزمان حين أنشأ المقامات كان يمثل مقامات السائلين في المساجد والأسواق، ولذلك نجد راويته مشرداً في جميع الأحيان^(٥).

٧ - ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فإن عمل بدیع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر، وطريقته في القصص تختلف عن طريقة ابن دريد، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في أذهانهم غير فن بدیع الزمان، فهو بذلك منشئ هذا الفن في اللغة العربية، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد وإنما سميت مقامات كما سماها بدیع الزمان.

(١) داجع ص ٧ من الرسالة العذراء (طبع دار الكتب المصرية) . (٢) ص ١٤٣ من المقامات

(طبع بيروت) . (٣) داجع جيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ - ٣٤٣ (٤) سورة مريم آية ٧٢

(٥) داجع ما كتبه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية ص ١٧٠ (Livraison 39) .

٨ - وأول من تأثر خطواته في القرن الرابع أبو نصر عبدالعزيز بن نباته السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ولم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة كما أشار بروكلمان، ثم جاء ابن نايف عبد الله بن محمد ابن الحسين المتوفى سنة ٨٥٠ هـ فأنشأ عدة مقامات تختلف في أسلوبها عن مقامات بديع الزمان بعض الاختلاف^(١).

ثم جاء الحريري فصور فن المقامات شريعة أدبية، وقد أنشئت مقاماته في جميع الأقطار العربية، وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبيان، ويعد الحريري أشهر من نظم المقامات وإليه يرجع الفضل في ذبوع هذا الفن الجميل.

ومضى الكتاب بعد ذلك يرسلون على هذه الطريقة في جميع العصور حتى اليوم. ولم يمس عصر لم تحفظ فيه مقامات، ونظرة فيما كتب بروكلمان في دائرة الإسلامية، أو مادون في فهرس دار الكتب المصرية، ترينا كيف أفتن الكتاب في تلك الأفاضيل.

٩ - وقد لاحظنا أن كل ما كتب من المقامات يرجع في جوهره إلى بديع الزمان، فالصورة واحدة من حيث السجع والأزدواج، وطريقة القصص واحدة، والافتتان في الموضوعات هو كذلك من مبتكرات بديع الزمان، حتى الطريقة التعليمية التي عرفت في مقامات السيوطي وابن الجوزي والقفقشندي هي أيضا مما ابتكر بديع الزمان، والفرق يرجع إلى صور الثقافات في مختلف العصور، فبديع الزمان صور مشكلات عصره، والحريري مثل معضلات زمانه، والسيوطي فصل أوهام الناس وعلومهم في أيامه، وجاء محمد الموليحي في العصر الأخير فوضع كتابا في نقد الحياة الاجتماعية في مصر تأثر فيه بجميع بديع الزمان وحفظ من رسومه أسم راويته عيسى بن هشام.

١٠ - وفي المقامات الذي نشأ في القرن الرابع لم يعرف وطننا عربيا، وإنما عاش في جميع الأقطار الإسلامية، فكان من أهل فارس والعراق والشام واليمن والجزيرة ومصر

(١) لم يبق من آثار ابن نايف إلا تسع مقامات محفوظة بمكتبة (القاج) في استنبول.

والغرب والأندلس كتاب برعوا في فن المقامات، وتفصيل هذه النقطة يحتاج إلى كلام طويل، على أنها أوضح من أن تحتاج إلى تفصيل .

١١ - ومن طريف ما قرأت ما أشار إليه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية فقد حدثنا أن هذا الفن أنتقل بفضل بديع الزمان إلى اللغة الفارسية، وكان الدكتور أحمد ضيف يظن أنه انتقل من الفارسية إلى العربية، وأشهر أصحاب المقامات في الأدب الفارسي القاضي حميد الدين أبو بكر بن عمر بن محمود البلخي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ وهي تحتوي على مناظرات مختلفة بين الشباب والشيوخ، وبين أهل السنة والشيعة، وبين الطبيب والمنجم، وفيها وصف للربيع والخريف، والحب والجنون، وفيها مناقشات فقهية وصوفية، وهي كالمقامات العربية تصاغ في قوالب فنية^(١) .

وأشار بروكلمان كذلك إلى أن هذا الفن دخل اللغة العبرية بفضل اليهودي الرباني يهودا ابن شلومو الحريري الذي ترجم مقامات الحريري إلى العبرية وأنشأ على نمطها خمسين مقامة سماها (سفر تحيوتي)^(٢) وضمها كثيرا من آيات التوراة^(٣) .

ودخل هذا الفن أيضا إلى اللغة السريانية، فقد نظم أحد السريان من مدينة نصيبين خمسين قصيدة على نمط مقامات الحريري ضمنها جملة من المعاني والأخلاق، في لغة مثقلة بالزخارف والتهاويل، ونشرها جبريل قرداحي في بيروت سنة ١٨٨٩^(٤) .

١٢ - وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريري يتبين لنا أن لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف، ولا كذلك لغة الحريري التي تعد من أغرب نماذج النثر المصنوع وعند الرجوع إلى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم في الأغلب تلامذة الحريري لا تلامذة البديع، فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزعرف، ولم يأنس منهم إلى فطرته إلا القليل .

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية من ١٧٢ و ١٧٣ من (Livraison: 39) .

(٢) كلمة عبرية معناها « كتاب الحكمة » .

١٣ - ونتيجة ما سلف أن القرن الرابع دان اللغة العربية فن من فنون القصص هو فن المقامات ، وذويوع هذا الفن يرجع الى أنه وافق السليقة العربية التي تميل الى القصص القصير، والتي تميل الى الزخرف في الانشاء .

وقد ظن ناس أن فن المقامة هو فن القصة ، وكذلك زاهم يذكرون المقامات كلها أثير موضوع القصة في اللغة العربية، والواقع أن العرب بقطرتهم لم يكونوا يميلون الى القصص المعقد الذي وجد كثير منه فيما أُرعن اليونان القدماء ، والذي ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيين والألمان .

ولا عيب في أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل ، فان الفن الصحيح يرتكز أولاً على الفطرة ، ولم يكن العرب مפתورين على القصة التي تقرأ في أيام أو أسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب .

وليس معنى هذا أن آثار العرب خلت خلوا تاما من القصة، ولكن معناه أن فن القصة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية، وقد يكون لبساطة الطابع العربية أثر في وقوفهم عند القصص القصير، ومثل القصة في ذلك مثل الموسيقى، فقد كانت موسيقاهم بسيطة لأن نفوسهم كانت بسيطة، فلما أخذت العواطف تتعقد وتشبك أخذ القصص والموسيقا في التعقد والاشتباك .

ولهذا السبب عنه لم يفكروا في التمثيل ، ولم ينقلوا عن اليونان شيئا يذكر من القصص التمثيلية ، لأن أسماهم كانت تقنيهم عن التمثيل .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرخ للفنون الأدبية، ونحن من وجهة التاريخ نرى أن إبداع فن المقامات يعد فتحا عظيما في اللغة العربية، ولا بد أن يكون معاصرو بديع الزمان تلفتوا الى فنه تلفت الدهشة والاستغراب وعدوه من كبار المبدعين .

وحسب بديع الزمان من المجد أنه ألهم الحريري مقاماته التي كانت سببا في خلود هذا الفن الجميل، وقد ظلمه شوقي حين قال في رثاء الموليحي :

رب سمح كبرقص الروض لما يختلف لحنه ولا إيقاعه
أو كسج الحمام لو فصلته وتأت به ودقّ أخترعه
هو فيه بديع كل زمان ما بديع الزمان ؟ ما أجماعه ؟^(١)

إن بديع الزمان شخصية نادرة المثال ، وأجماعه أحيانا أرق من الزهر المطلول ، ولكن المنصفين في الناس قليل .

ألم يمرّوا أحد المتحلقين على ادعاء أن شر بديع الزمان لا يقرأ اذا ترجم الى لغة أجنبية ؟
لقد ترجمنا نماذج من مقاماته ورسائله الى اللغة الفرنسية فكانت تحفة في عين من رآها
من الفرنسيين ، ولكن أكثر المحدثين عندنا لا يعرفون أسرار الأدب القديم .

(١) انظر ما كتبه الأستاذ محمد لطفي رحمه في جريدة البلاغ « ٢٨ يونيو سنة ١٩٣٠ » .

٢ - مقامات بديع الزمان^(١)

١ - ألّف بديع الزمان مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة ٣٨٢^(٢) - والمتفق عليه عند كُتاب التراجم أنها كانت أربعاً، ونحن نرجح أنها كانت خمسين، بدليلين :
الأول أنه عارض بها أربعين حديثاً أنشأها ابن دويد ، والمعارضات كانت متقارب دائماً في الكمية .

الثاني أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضع من آثاره خمسون وثلاثمائة مقامة ، مع أن آثاره لم يضع منها إلا القليل .

يضاف إلى ذلك أن الحريري حين عارض بديع الزمان لم ينشئ في معارضته غير خمسين مقامة ، ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب في هذا النوع من الأفاصيص .

٢ - في مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة ، ففيها « العقدة » وتحليل الشخصيات ، والمقامة المضيرية التي تكلمنا عنها في « الفكاهات » تمثل هذا الفن ، وكذلك المقامة البغداية التي أشرنا إليها في الجزء الثاني^(٣) ، وهاتان المقامتان هما أربع ما قص بديع الزمان . وفيما عدا ما وفق إليه في نظم بعض الأفاصيص نراه يقف حيث وقف من قبله ابن دويد ، فيرسل العظة ، أو يسوق الوصف ، أو يمتق الفكاهة ، أو يقضى بأحكام أدبية أو فلسفية ، من دون أن يتم بالعقدة القصصية ، واليك هذا المثال :

حدثني عيسى بن هشام قال : بينا نحن بمرجان في مجمع لنا نتحدث ومنا يومئذ رجل العرب حفظاً ورواية وهو عصمة بن بدر الفزاري . فأفضى بنا الكلام إلى ذكر من أعرض عن خصمه حلماً ، ومن أعرض عنه احتقاراً ، حتى ذكرنا الصلتان العبدى والبعيث وما كان

(١) انظر ترجمة بديع الزمان في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٣٢٥ وما يلحقها من الصفحات .

(٢) راجع بئمة الدهرج ٤ ص ١٦٩ (٣) ص ٣١٥ و ٣١٦

من احتقار جرير والفرزدق لها، فقال عصمة : ساعدتكم بما شاهدته عني، ولا أحدتكم عن غيري، بينما أنا أسير في بلاد تميم مرتحلة نجية، وقائدا جنية، عن لي راكب على أورق^(١) جعد اللغام، فماذا لي حتى إذا صك الشج بالشج، رفع صوته بالسلام عليك، فقلت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ! من الراكب الجهر الكلام، بتحية الإسلام؟ فقال : أنا غيلان بن عقبة . فقلت : مرحبا بالكریم حسبه، الشهير نسبه، السائر منطقته ! فقال : رُحِبَ واديك، وعز ناديك، فمن أنت ؟ قلت : عصمة بن بدر الفزاري . قال حيّاك الله نعم الصديق، والصاحب والرفيق ! وسرنا فلما هجرنا قال : ألا تنور يا عصمة، فقد صهرتنا الشمس ؟ فقلت : أنت وذاك ! فلما إلى شجرات الآء^(٢)، كأنهن عناري متبرجات، قد نشرن غداثرهن، لأتلات تناوحن . فخططنا رحالنا وثلنا من الطعام، وكان ذو الرمة زهيد الأكل، وصلينا بعد، وآل كل واحد منا إلى ظل أئلة يريد القائلة، وأضطجع ذو الرمة، وأردت أن أصنع مثل صنيعه، فوليت ظهري الأرض، وعيناي لا يملكهما غمض، فنظرت غير بعيد إلى ناقة كومااء قد ضحيت، وغيظها ملق، وإذا رجل قائم، يكلوها كأنه عسيف أو أسيف^(٣)، فلهيت عنهما — وما أنا والسؤال عما لا يعنني ! — ونام ذو الرمة غرارا، ثم أنبته وكان ذلك في أيام مهاجته لتلك المرى، فرفع عقيرته وأنشأ يقول :

أمن مية الطلل الدارُس^(١٠) أظ به الماصف الرامُس^(١١)
فلم يبق إلا شيج التذال^(١٢) ومسوقه ماله قابس
وحوض سَلَم من جانبيه ومعتقل دارس طامس
وعهدي به وبه سَكَنه^(١٣) ومية والأنس والآنس

- (١) الجنية الفرس يقودها الريل إلى جنبه . (٢) الأورق من الإبل ما في لونه بياض إلى سواد .
(٣) جعد اللغام : تراكم الزبد . (٤) هجر بالشديد صادف وقت المجير، وهو من الظهيرة .
(٥) التنوير : النور عند العائرة وهي القاعة . (٦) الآلاء : جحرم . (٧) كومااء : عطيفة للسام .
(٨) العسيف الأجير، والأسيف اليد . (٩) قفلا . (١٠) أظ به : لازمه . (١١) من رسم الشيء دفعه . (١٢) الشيج : المكسور . والتذال الرأس، والمراد به هنا الرود الذي كانت تربط فيه الأطناب . (١٣) السكن جفع فكون : الساكنون .

كأنى بمية مستنفر	غزالا تراءى له عاطس ^(١)
إذا جثتها ردى عابس	رقب عليها لها حارس
ستأقى أمراً القيس مأثورة	بغنى بها العابر الجالس
ألم ترأن أمراً القيس قد	ألظ به دائره الناجس ^(٢)
هم القوم لا يألون الهباء	وهل يأل المجهر اليابس؟
فألهم في العلا مركب	ولا لهم في الوغى فارس
ممرطلة في حياض الملام	كما دعى الأدم الهامس
إذا طمح الناس للكرامات	فطرفهم المطرق الناعس
تعاف الأكارم إصهارهم	فكل أياها هم عانس ^(٣)

فلما بلغ هذا البيت تنبه ذلك النائم وجعل يمسح عينيه ويقول : أذو الرمية بمعنى النوم بشعر غير مثقف ولا سائر؟ فقلت : يا غيلان من هذا؟ فقال : الفرزدق، وحى ذو الرمة فقال :

وأما مجاشع الأزدلون^(٤) فلم يسق منهم راجس^(٥)
سيقلهم عن مساعى الكرام^(٦) عقل ويجلسهم حابس

فقلت : الآن يشرق ويثور، وبعم هذا وقيلته بالهباء . فوالله ما زاد الفرزدق على أن قال : قبيحا لك إذا الرمية أتعرض لمشى بمقال متصل؟ ثم عاد في نومه كأن لم يسمع شيئا ، وسار ذو الرمة وسرت معه، وإنى لأرى فيه انكسارا حتى افترقنا ” .

فهذه المقامة ليست أقصوبة، وإنما هى خبر من الأخبار التى كثر اختراعها فى الأدب القديم، والتى تمثل بعض العادات والتقاليد، وتصف ما يقع بين الناس من ألوان الخوصومات

(١) العاطس : الصبح ، وقررة الغزال فى الصباح شديدة لقرب عهده بوحشة الليل .

(٢) الناجس الداء الضال . (٣) ممرطلة : ملطحة . (٤) الأياك جمع أيم وهى التى لازوج لها ، بكرا أرضيا ، والناس التى لم تزوج أصلا . (٥) الراجس : السحاب الزاعد . (٦) يشرق : يضيئ بريقه . كناية عن شدة النعيط . (٧) يسبح .

والإحقاد . وقد يمكن مع ذلك إضافتها الى الأفانيس الوصفية التي لا يراد بها الإغراب في العقدة والشخصيات ، وإنما تجري على نخط الأحاديث .

٣ — ومن مظاهر الضعف عند بديع الزمان ومن حاكاه وقوفه عند شخصية واحدة ، فأبو الفتح الاسكندري ينتقل من قصة الى قصة ، وعيسى بن هشام يتحدثنا في كل مرة عن دهشته من كشف شخصيته ، مع أنه كان يكفى أن يشتبه عليه أمره مرة أو مرتين ، ولكنه في جميع الأحوال يضل عن عرفانه ، ولا يتبينه إلا بعد كشف اللثام . غير أن لعيسى بن هشام مواقف لا يذكر فيها أبو الفتح ، كما وقع في المقامة الأهوازية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الصفرية ، والمقامة الخلفية .

٤ — وبديع الزمان مغرى برسم السوآت ، والمقامة الشامية والرصاصية والدينارية من شواهد ذلك ، وله غرام بالأهائج المقدسات — وكان هذا الفن مما يقصد اليه كتاب القرن الرابع^(١) — فقد اتفق لعيسى بن هشام أن يفكر في التصديق بدينار على أشخذ رجل في بغداد ، ودكر له اسم أبي الفتح الاسكندري فضى اليه فوجده في رقة ، قد اجتمعت في حلقة ، فقال : يا بني ساسان؟ أيكم أعرف بسلته ، وأشخذ في صنعته ، فأعطيه هذا الدينار ؟ فقال الاسكندري : أنا ! وقال الآخر من الجماعة : لا ، بل أنا ! ثم تناقشا وتهارشا ، فقال عيسى ابن هشام : ليستم كل متكأ صاحبه ، فمن غلب سلب ، ومن عزّ بزا ! فقال الاسكندري يهجو صاحبه :

يا برد العجوز ، يا كربة تموز ، يا ووخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ! يا فسوة الثنين ، يا نخيلة
المتين ، يا حديث المغنين ! يا سة البوس ، يا ضربة العروس ، يا كوكب النحوس ، يا وطاة
الكابوس ، يا تمحة الزموس ! يا أم حنين ، يا رمد العين ، يا غداة البين ، يا فراق المحبين ،
يا ساعة الحنين ، يا مقتل الحسين ، يا تهل الدين ، يا سمة الشين ! يا بريد الشوم ، يا طريد

(١) كما سرى في حكاية أبي القاسم البغدادى التي حلناها في آخر هذا الباب . (٢) مخففة عن إليوس .

(٣) دوية كريمة المظهر .

اللوم، يا ثريد النوم، يا دية الزقوم! يا منع الماعون، يا سنة الطاعون! يا بنى العبد، يا آية الوعيد، يا كلام المعيد! يا أفصح من حتى، في مواضع شتى! يا دودة الكنيف، يا فروة الصيف، يا تبحح المضيف، إذا كُسر الرغيف! يا جشاء المخمور، يا نكهة الصقور، يا وند الدور، يا خزونة القدور، يا أرباء لا تدور، يا طمع المقمور! يا سحر اللسان، يا بول انحصان، يا مؤاكلة العميان، يا شفاعة العريان، يا سبت الصبيان! يا كلاب التعازي، يا قرارة الحمازي، يا بجل الأهوازي، يا فضول الرازي! واقه لو وضعت إحدى رجليك على أروند، والآخرى على دماوند، وأخذت بيدك قوس قزح، وتدفت النسيم في جباب الملائكة ما كنت إلا حلاجاً!!

وقال الآخر:

يا قُرَاد الفرود، يا لبود اليهود، يا نكهة الأسود، يا فسوة السود، يا ضرورة في السجود، يا صلما في وجود! يا كلبا في المراهش، يا قردا في الفراش، يا قرعية بماش، يا أقل من لاش! يا دخان النقط، يا صنان الابط، يا زوال الملك، يا هلال المهلك! يا أحب من باء بذل الطلاق، ومنع الصداق! يا وحل الطريق، ياماء على الریق! يا محرك العظم، يا معجل الحضم، يا قلع الأسنان، يا وسخ الآذان! يا أجر من قلس، يا أقل من قلس! يا أفصح من عبرة، يا أبني من إبرة! يا مهب الخلف، يا مدرجة الأكف! يا كلمة ليت، يا وكف البيت، يا كيت وكيت! واقه لو وضعت آسنتك على التجوم، ودليت رجليك في التجوم، واتخذت الشعرى خفا، والثريا وفا، وجعلت السماء منوالا، وحكت الهواء سرايالا، فسدتيه بالنسر الطائر، وألحمته بالفلک الدائر، ما كنت إلا حائكا! » .

(١) الخزوة : الخير والفساد . (٢) نذه ضربه بالمتعة التي يطرُق بها الورد ليرق القطان .

(٣) القرعية طعام يصنع من القرع، والماش حب يقرب من حب الباطل. يقرب في طعمه من العسل فإذا خلط بالقرع كان كره المذاق . (٤) محرك العظم هو الجمى الشديدة المصحوبة بالبرد والقشعريرة . (٥) قلع الأسنان ما يملوها من خضرة أو صفرة . (٦) القلس بفتح فسكون الجبل يحير به المركب .

وهنا يَحْتَسِبُ عيسى بن هشام أنه لم يدر أيهما يؤثر ؛ فها منهما الابديع الكلام ، عجيب المقام ، ألد الخصام .

وهذا النمط من الانشاء لا يراد به الا الظهور بقوة القرينة ، وغنى اللغة ، وخصب الخيال . وهو يمثل هذر الحضريين وسفاهاتهم وميلهم الى شناعة القيل والقال . وعند مراجعة هذه الأهاجى نجد فيها عبارات طريفة تمتضك الى تفر الخزين .

وهل فى الدنيا أبرد من « نَحْنُضُحُ المُضَيِّف ، اذا كَبُرَ الرِّغِيف » ؟ !

وهل فى الحياة أتمل من « شفاعة المريان ، وسيت الصبيان » ؟

٥ — والوصف من الفنون المقصودة فى مقامات بديع الزمان ، وهو يفتن فيه من موضع الى موضع ، وأنظر قوله فى المقامة الأسدية :

« ... الى أن أنفقت لى حاجة بحمص ، فشعذت الحرص ، فى محبة أفراد كنجوم الليل ،^(١)
أحلاس لظهور الخليل ، وأخذنا الطريق نتهب مساقته ، ونستأصل شأقه ، ولم تزل أسمة^(٢)
التجاد ، بتلك الجلياد ، حتى صارت كالصبي ، ورجعت كالقيى ، وتاح لنا واد فى سفع^(٣)
جبل ذى آلاء وأئل كالعذارى يسرحن الضفائر ، وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا اليها^(٤)
وزلنا نفور ونفور ، وربطنا الأفراس ، بالأمراس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا الا صهيل الخيل ،^(٥)
ونظرت الى فرس يمدّ قوى الخيل بمشافره ، ويخذ خد الأرض بمخافره ، ثم اضطربت الخيل
فأرسلت الأيوال ، وقطعت الجبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا الى سلاحه
فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه ، متفخفا فى إهابه ، كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد
ملى صلفا ، وأنف قد حُتِيَتْ أنفا ، وصدر لا يرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا :
خطب والله ! وتبادر اليه من سرعان الرفقة قتي :^(٦)

أخضر الجليدة فى بيت العرب يملأ الولو الى عقد الكرب

(١) الاحلاس جمع حلس بالكسر وهو البردة . (٢) التجاد جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .

(٣) تاح : مرض . (٤) نفور : تزل النفور . (٥) نفور : نام .

(٦) أخضر الجليدة : أمير اللون .

بقلب ساقه قدر، وسيف كله أثر، وملكته سورة الأسد نفحاته أرض قدمه، حتى سقط
ليده وفه، وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه، ودعا الحين أخاه، بمثل ما دعاه، فصار
اليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه، وأقترش الليث صدره. ولكني رميته بهامتي،
وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتي فوجاً بطنه، حتى هلك الفتي من خوفه، والأسد
للوجأة في جوفه. ونهضنا في أثر الخيل قتالنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرقيق
لنجهزه.

فلما حثونا الترب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها، حتى إذا ضمرت المزاد، وتقد الزاد أو كاد يدركه النفاد،
ولم تملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع، عَن لنا فارس فصمدنا صمده،
وقصدنا قصده. ولما بلغنا نزل عن حرِّ فرسه ينقش الأرض بشفتيه، ويلقي التراب بيديه،
وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابي، وتحزيم يجنأ بي، ونظرت فإذا وجه يبرق برق
العارض المتهلل، وقوام متى ما ترقى العين فيه تسهل، وعارض قد أخضر، وشارب قد طر،
وساعد ملائن، وقضيب ريان، ونجاد تركي، وزى ملكي، قفلنا : ما لك، لا أبا لك !
فقال : أنا عبد بعض الملوك هم من قتل بهم^(١). فهمت على وجهي إلى حيث ترائى. وشهدت
شواهد حاله، على صدق مقاله. ثم قال : أنا اليوم عبدك، ومالي مالك. قتل بشري لك
وأذاك سيرك إلى فناء رجب، وعيش رطب! وهتأخى الجماعة، وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه،
وينطق فتفتتنا ألغاطه، والنفس تنازعني فيه بالمحطور، والشيطان من وراء الغرور، فقال :
ياسادة ! إن في سفع الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء^(٢)، نخذوا من هناك الماء، فلوينا الأعنة
إلى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهابجة الأبدان، وركب الجنادب العبدان، فقال :
ألا قبيلون في هذا الظل الرحب، على هذا الماء المذب ؟ قتل : أنت وذلك ! فتزل

(١) أى عن فرسه الحز المتقي . وقع هذا التميز في كلام بدیع الزمان نير مرة وهو في الأصل من
كلام امرئ القيس . (٢) المم : الزم . (٣) حوراء : ظبية البيوت ليس بها ماء .

عن فرسه ونحى منطقته، وحلَّ قُرْطَقَه ^(١). فما أَسْتَرَعَا إلَّا بفلافة تمَّ على بدنه، فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج خطفها، وإلى الأفراس فحشها ^(٢)، وإلى الأمكنة فرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقفت الأبصار عليه ^(٣)، .. وقلت : يا فتى ! ما أَلْطَفَكَ في الخدمة، وأحسنَكَ في الجملة ! فالويل لمن فارقه، وطوبى لمن رافقته ! فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ فقال : ما سترونه مني أكثر ! أتعجبكم خفي في الخدمة، وحسنى في الجملة، فكيف لو رأيتموني في الرفقة ؟ أريكم من حذق طرفا، لتزدادوا بي شغفا ؟ قلنا : هات ! فعمد إلى قوس أحدا وفوق سهما فرماه في السماء، وأتبعه بأثر فشقه في الهواء، وقال : سأريكم نوما آخر، ثم عمد إلى كتاتي فأخذها وإلى فرسي ففلا، ورمى أحدا بسهم أثبتَه في صدره، وطيره من ظهره . فقلت : ويحك، ما تصنع ؟ ! فقال : أَسْكُتْ يَالْكَمَّ ! والله ليشدَّ كل منكم يد رفيقه، أو لأغصنه بريقه ! فلم ندر ما نصنع، وأفراسنا مربوبة، وسروجنا محطولة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجالة، والقوس في يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور، وحين رأينا الجلَّة، أخذنا القِدَّ ^(٤) فشدَّ بعضنا بعضا، وبقيت وحدي، لا أجد من يشدَّ يدي، فقال : اخرج بإهابك، عن ثيابك ! فخرجت، ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر . ويقول : أقمت قضيبك، نخذ نصيبك ! ... إلخ " .

والقصة في جملتها فكاهة . ولكن الوصف ظاهر فيها كل الظهور، وفيها فقرات تعد من آيات الوصف السابغ، والحركة قوية في تلك الأقصوصة، والمناظر تتوارد في حياة وأنسجام . وعند تأمل ما آتته إليه نجد النرض في غاية من التفاهة، فكأن بديع الزمان ما كان يقصد غير هذه الأوصاف .

(١) المنطقة : الخزام .

(٢) القرطعة : مؤنث قرط وهو قبا . ذو طاق واحد وأصله (كوة) بالقاهرة (راجع شرح المقامات للشيخ محمد عبده ص ٣٩) .

(٣) ألن لها الحشيش .

(٤) حذفا من هذا الموضع كلمات فيها مجون . (٥) القد بالكسر سبر من جلد غرمد بوع .

والمقامة المخمرية وضعت قصدا لوصف الصبأ ، فيحدثنا عيسى بن هشام : أنه كان في عنفوان شبته عتل ميزان عقله ، وعدل بين حبه وهزله ، فجعل النهار للناس ، والليل للكاس ، وأنه أجمع في بعض لياليه مع إخوان الخلوة فما زالوا يتعاطون نجوم الأقداح ، حتى نفذ ما معهم من الراح ، ثم دعهم دواعي الشطارة ، إلى حان الخمار ، والليل أخضر السياج ، مغتل الأمواج ، فلما أخذوا في السبح ، توب متادى الصبح ، فغس شيطان الصبوة ، وتبادروا إلى الدعوة ، وقاموا وراء الإمام ، قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة ، وحركات موزونة ، وإمامهم يحث في خفضه ورفع ، ويدعوهم بإطالته إلى صفعه ! حتى إذا رجع بصيرته ، ورفع بالسلام عقيرته ، تربع في ركن محرابه ، وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل أطرافه ، ويدم استنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ! من خط في سيرته ، وأبتلى بقاذورته ، فليسمع ديماس^(١) ، دون أن تحبسنا أفساسه ، اني لأجد منذ اليوم ، ربح أم الكثر من بعض القوم ، فما جزاء من بات صريح الطاغوت ، ثم أبتر إلى هذه البيوت ؟ !

وأشار إمام المسجد إلى عيسى بن هشام وأصحابه فتألبت عليهم الجماعة حتى مزقت أرديتهم ، وأدمت أفقيتهم ، فأقسموا لا عاودوا الشراب ، وأفلتوا وما كادوا يفتنون ، وسألوا من مرة بهم من الصبية ، عن إمام تلك القرية ، فأجابهم الصبية : بأنه الرجل التي أبو الفتح الاسكندردي ، فقالوا : سبحان الله ! ربما أبصر عجميت ، وآمن صغريت ! والحمد لله لقد أسرع في أوبته ، ولا حرمنا الله مثل توبته . وجعلوا بقية يومهم يعجبون من نسكه ، مع أنهم كانوا يعجبون من فسقه ... ثم شرع عيسى بن هشام في الوصف فقال :

”ولما حشرج النهار أوكاد ، نظرت فإذا بإيات الحان أمثال النجوم ، في الليل البهيم ، فتهادينا بها السراء ، وتباشرنا ببللة غراء ، ووصلنا إلى أنغمها بابا ، وأخضمها كلابا ، وقد جعلنا السينار إماما ، والاستهتار لزاما ، قدفنا إلى ذات شكل ودل ، ووشاح منحل ، اذا قلت

(١) الديماس : البيت .

(٢) الشكل : النزول .

أحاطها، أحيت ألفاظها، فأحسنت تلقينا، وأسرت تقبل رعوينا وأيلينا، وأسرع من معها من العلوج، الى حط الرجال والسروج، وسألنا عن نمرها فقالت :

نمر كريق في العذو به واللذانة والحلاوة
تذر الخليم وما عليه له حلمه أدنى طلاوة

كأنما أعتصرها من خدى، أجداد جدى، وسربلها من القار بمثل هجرى وصدى، ودعية الدهور، وخبيثة جيب السرور، وما زالت توارثها الأخبار، وبأخذها الليل والنهار، حتى لم يبق إلا أرج وشعاع، ووهج لذاع، ريحانة النفس، وضرة الشمس، فتاة البرق، عجوز الملقى، كاللهب في العروق، وكبرد النسيم في الخلق، مصباح الفكر، وتراقى سم الدهر، بمثلها عزز الميث فانتشر، ودوى الأكمة فنظر .

ثم ينتقل عيسى بن هشام فيحدثنا بعد هذا الوصف أنهم قالوا :

”هذه الضالة وأبيك، فمن المطرب في ناديك؟ ولعلها تُسمع للشرب، من ريقك العذب!“ .

وأنها أجابتهم بأن لها شيئا طريف الطبع طريف المحبون، مر بها يوم الأحد في دير المربد، فوقعت بينهما الخلطة، وتكررت القطعة، وذكر لها من وفور عرضه، وشرف قومه في أرضه، ما عطفها عليه . وأشتاق عيسى بن هشام الى رؤية هذا الشيخ الذى يجمع بين ظرف الطبع وطرافة المحبون فإذا هو أبو الفتح الاسكندرى إمام المسجد في صباح الأمس !

أكان بديع الزمان يريد بهذه المقامة أن يعرض ببعض الأشياخ الذين يظهرون بسمت مشرق، وينطوون على زيف موبق ؟

لا، إن بديع الزمان نفسه مرتاب، ولذلك نراه ينطق أبا الفتح بهذه الأبيات :

دع من اللوم ولكن أى دكالك ترائى^(٣)
أنا من يسرفه كل تهايم ويمانى

(١) البرق بالتحريك : التزين • (٢) حزر : أعين • (٣) الدكالك : الخبال .

أنا من كل مكان أنا من كل غبار
ساعةً ألزم محمرا بأُوأخرى بيت حان
وكذا يفعل من يد قل في هذا الزمان

ومن المقامات التي أريد بها مجرد الوصف المقامة الحمدانية، وهي في وصف الخليل، وهي مشهورة، وقد شرحها صاحب "زهر الآداب"^(١).

٦ -- أكثر بدیع الزمان في مقاماته من الكلام على الشعر والشعراء، فانطلق أبا الفتح في المقامة العراقية بهذه الأسئلة الطريفة:

هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله؟^(٢)
وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله؟^(٣)
وهل لها بيت سميج وضعه، وحسن قطعه؟^(٤)
وأى بيت لا يرقأ دمه؟^(٥)
وأى بيت يتقل وقعه؟^(٦)
وأى بيت يشج عروضة، ويأسو ضربه؟^(٧)

- (١) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من الجزء الثاني . (٢) مثاله قول الشاعر :
- دراعتنا كلها جيد فلا تحبست بقتادها
فإن هذا البيت كالشعر لا تقدم فيه ولا تأخير .
- (٣) مثاله قول المفضل :
- ولم أدر من ألقى عليه رداؤه عل أنه قد سل عن ماجد محض
- (٤) مثاله قول أبي نواس :
- فبتنا برأنا الله شرعاً نجرر أذيال الفسوق ولا نخر
- (٥) مثاله قول ذي الرمة :
- ما يال صبتك منها الماء ينكس كأنه من كل مغربة صرب
- (٦) مثاله قول ابن الرومي :
- إذا من لم يمت بمن معه وقال لقضى أيا النفس أهمل
- (٧) مثاله قول الشاعر :
- دقت له بأبيض مشرق كما يدنو المصالح للسلام

- وأى بيت يظم وعيده ويصغر خطبه ^(١) ؟
 وأى بيت هو أكثر رملا من يبرين ^(٢) ؟
 وأى بيت هو كاستان المظلوم، والمنشار المثلوم ^(٣) ؟
 وأى بيت يسرك أوله ويسوءك آخره ^(٤) ؟
 وأى بيت يصفحك باطنه ، ويخبطك ظاهره ^(٥) ؟
 وأى بيت لا يخلق سامعه ، حتى تذكر جوامعه ^(٦) ؟
 وأى بيت لا يمكن لمسه ^(٧) ؟
 وأى بيت يسهل عكسه ^(٨) ؟

- (١) مثاله قول عمرو بن كلثوم :
 بخاريق بأيدى لاعيتنا
 كآ ذميونا منا ومنهم
- (٢) مثاله قول ذى الرمة :
 مسرورا رضى الرضا رضى
 والشمس حيرى لها فى الجوى تدوم
- (٣) المثلوم هو الذى كسر ظله أى أستاذة .
 (٤) مثاله قول الأعشى :
 وقد غدوت الى الحافوت يتيئنى
 شاء مثل شليل شلل شول
- (٥) مثاله قول امرئ القيس :
 مصكر مقر مقبل مدبر معا
 بكلود صخر حله السيل من مل
- (٦) مثاله قول الشاعر :
 ما تها فيكث وقالت ياتى
 نجاك رب العرش من عنى
- (٧) مثاله قول طرفة :
 وقوقا بها صعى على مطهم
 يقولون لا تهاك أمى ونجلهم
- (٨) مثاله قول النجدي :
 تقشع غيم الهجر عن قر الحب
 وأشرف نور الصلح من غلة العنب
- وقول أبى نواس :
 نسيم عير فى غلالة ماء
 ويمثال توفى أديم هواه
- (٩) مثاله قول حسان :
 بيض الوجوه كريمة أحاسيم
 شم الأتوف من الطراز الأول

- وأى بيت هو أطول من مثله ، وكأنه ليس من أهله ^(١) ؟
 وأى بيت هو مهين بحرف ، ورهين بمحذف ^(٢) ؟
 وفى المقامة الشعرية ينطقه بهذه الأسئلة :
 أى بيت شطره يرفع ، وشطره يذفع ^(٣) ؟
 وأى بيت نصفه يغضب ، ونصفه يلعب ^(٤) ؟
 وأى بيت إن حرك غصنه ؛ ذهب حسنه ^(٥) ؟
 وأى بيت مدحه دم ^(٦) ؟
 وأى بيت يأكله الشاء ، متى شاء ^(٧) ؟
 وأى بيت حله عقد ، وكله نقد ^(٨) ؟

(١) مثاله قول المتنبي :

عش أبى أحم سدد جد قد مرأته أمره نسل غط أرم صب أحم أغز أسب رع زع دل أن نل

(٢) مثاله قول أبو نواس :

لقد ضاع ثمرى حل بإبكم كما ضاع در حل خالصه

فاذا أنشدت «ضاع» كان هجاء ، وإذا أنشدت «ضاه» كان مدحا .

(٣) مثاله قول الشاعر .

ولله عندى جانب لا أضيعه ولهو عندى والخلاعة جانب

(٤) كقول الشاعر :

كان سيوفنا منا ومنهم مخارق بأبلى لآعيننا

(٥) مثاله قول الشاعر :

لك قتل لولا جوارح عينه لك لفتت عليه ورق الحمام

(٦) مثاله قول الشاعر :

فان قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شئ . وإن هانا

(٧) مثاله قول الشاعر .

فيا للنوى جد النوى قطع النوى رأيت النوى قطاعة القرائن

(٨) مثاله قول الأعشى :

درامتنا كلها جيد فلا تحببنا بتفادها

وأى بيت نصفه مدّ، ونصفه رد؟^(١)

وأى بيت إن أفتناه، أضلّناه؟^(٢)

وأى بيت قام، ثم سقط وقام؟^(٣)

وأى بيت أوله يطلب، وآخره يهرب؟^(٤)

وأى بيت ضاق، ووسع الآفاق؟^(٥)

وأى بيت كاد يذهب فماد.^(٦)

وفي المقامة القريضية ينطق عيسى بن هشام وأبا الفتح الإسكندري بأسئلة وأجوبة تعيّن خصائص الشعراء المتقّمين . وإليك هذا الحوار .

عيسى بن هشام — مخاطباً أبا الفتح — يا فاضل! أدنّ فقد منيت، وهات فقد أنيت .

أبو الفتح — سلوني أجيبكم، واسمعوا أعجبكم !

عيسى بن هشام — ما تقول في أمرئ القيس؟

(١) مثاله قول البكري :

أناك دينار صدق ينقص سيف ظا
من أكرم الناس إلا أصلاً وفرطاً ونفاً

(٢) مثاله قول الشاعر :

ألا إني بال على جبل بال يقود بنا بال ويحنا بال

(٣) كقول الآخر :

ألا أيما النؤام ويحكوه هبوا أسألكم هل يقتل الرجل الحب؟

(٤) مثاله :

يجول بكحل السيف والسيف متضى رحل كحل السيف والسيف مقصه

(٥) كقول أبي نواس :

ليس على الله يستنكر أن يجمع العالم في واحد

(٦) كقول الخنفي :

وما أنا منهمو بالعيش فهم ولكن سعدن الذهب الزمام

أبو الفتح — هو أول من وقف بالديار وعرضاتها، وأغتنى بالطير في وكثاتها، ووصف الخليل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسبا، ولم يمد القول راغبا، ففضل من تفتق للخيالة لسانه وأتبع للرغبة بنائه .

عيسى بن هشام — فما تقول في النايقة ؟

أبو الفتح — يئلب اذا حق، ويمدح اذا رغب، ويستنذر اذا وهب، ولا يرى إلا صابنا .

عيسى بن هشام — فما تقول في زهير ؟

أبو الفتح — يذيب الشعر والشعر يذيه، ويدعو القول والسحر يحيه .

عيسى بن هشام — فما تقول في طرفة ؟

أبو الفتح — هوماء الأشعار وطيتها، وكثر القوافي ومديتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه .

عيسى بن هشام — فما تقول في جرير والفرزدق، وأيهما أسبق ؟

أبو الفتح — جرير أرق شعرا، وأغزر غزرا، والفرزدق أمتن محضرا، وأكثر غفرا، وجرير أوجع هجوا، وأشرف يوما، والفرزدق إذا أفخر أجرى، وإذا أحقر أزرى، وإذا وصف أوفى .

عيسى بن هشام — فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟

أبو الفتح — المتقدمون أشرف لفظا، وأكثر من المصانف حظا، والمتأخرون أطف صنعا، وأرق نسجا .

وهذا وذلك يبين كيف كانت آداب القرن الرابع يمتون بدراسة الشعر وتعقب أخبار الشعراء، وإنما لنجد مصداق ذلك في مكان آخر إذ يحدثنا عيسى بن هشام بأن « البليغ من لم يقصر نظمه عن ثمره، ولم يترك كلامه بشعره » وقد أسلفنا القول بأن مدرسة القرن الرابع الثرية تعتمد في أسسها على المذاهب الشعرية من حيث الصنعة والخيال .

٧ — ولم يكتف بدع الزمان بالخوض في الشئون الأدبية، بل تعداها إلى المضلات الكلامية؛ فرض لمذهب المعتزلة بالتصغير والتسفيه، وأتخذ المتكلم من بين المجانين، إذ حدثنا أن عيسى بن هشام قال :

دخلت مارستان البصرة ومعى أبو داود المتكلم فنظرت إلى مجنون تأخذنى عينه وتدعنى فقال : إن تصدق الطير فأتم غرباء . فقلنا كذلك . فقال : من القوم ، لله أبوهم ؟ قلت : أنا عيسى بن هشام ، وهذا أبو داود المتكلم . فقال : العسكري ؟ قلت : نعم ، فقال : شأته^(١) الوجوه وأهلها ! إن الخيرة لله لالعبد ، والأمور بيد الله لا بيده . وأتم بإجوس هذه الأمة تعيشون جباً^(٢) ، وتموتون صبراً^(٣) ، وتساقون إلى المقدور قهراً ، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . أفلا تنصفون ؟ إن كان الأمر كما تصفون ، وتقولون خالق الظالم ظالم ، أفلا تقولون خالق المالك هالك ؟ أتعلمون يقينا ، أنكم أخبت من إبليس دينا ، قال رب بما أغويتى ، فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم ، وتقولون خير فاختار ، وكلا فان المختار لا يبيع بطنه ، ولا يرى من خالق أبنه ، فهل إلا كراه ، إلا ماتراه ، ولا كراه مرة بالمرة^(٤) ومرة بالدرة ، فليخزكم أن القرآن يفيضكم ، وأن الحديث يفيظكم ، إذا سمعتم «من يضل الله فلا هادى له» ألحدتم ، وإذا سمعتم «زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها» مجدتم ، وإذا سمعتم «عرضت على الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت على النار حتى أتقيت حرها بيدي» أنفضتم^(٥) رموسكم ، ولو يتم أعتاقكم ، وإن قيل عذاب القبر تطيرتم ، وإن قيل الصراط تغامزتم ، وإن ذكر الميزان قلم : من الفرج كفتاه ، وإن ذكر الكتاب قلم : من القيد دفتاه . يا أعداء الكتاب والحديث هم تطيرون ؟ أبا لله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ إنما

(١) يريد : إن تصدق القراءة . (٢) شأته : قبحته . (٣) ودع على المعتزلة الذين يقولون بأن المرء يختار في أخضاله . (٤) أى مقهورين على الحياة . (٥) الموت صبراً أن يحبس الرجل حتى يموت والمراد أنهم محبسون في آجالهم .

(٦) إشارة إلى جواب القرآن في الرد على من قالوا : « لو كان لنا من الأمر شئ ما قلنا هاتنا » .

(٧) المرة بالكسر القتل . (٨) حركتها كالتمجيع .

مرقت مارقة فكانوا خَبَثَ الحديث، ثم مرقت منها فأتى خَبَثَ الحديث . يا عَنَّا يَتِ الخوارج ترون رأيهم إلا القتال، وأنت يا ابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض . سمعت أنك أقترشت منهم شيطاناً^(١)، ألم ينك الله عز وجل أن تخذ منهم بطانة ؟ وياك هلا تحيرت لتطفئك ، ونظرت لمقبك ! ثم قال : اللهم أبدلني هؤلاء خيراً منهم وأشهدني ملائكتك ! »

ثم يتحدث ابن هشام أنه بقى هو وأبو داود لاجئان جواباً ، ويتبين بعد المراجعة أن ذلك المجنون كان أبا الفتح الاسكندرى « ينبوع العجائب »

٨ — ولبدیع الزمان مقامة تدل على نحو من فساد الحياة الاجتماعية في بغداد لذلك الحين هي المقامة الرصافية ، وقد شرح فيها حيل اللصوص ، وهى حيل فيها القبيح والطريف عدتها فرائتها تجاوز السبعين حيلة وما أظن قرائى يتظنون أن أخلص تلك المقامة الشريرة فهم عنها أغنياء ! على أن أكثر تلك الحيل لا ينفع اليوم — فلا يأسف بعض الناس ! — لأن أوضاع اللباس وطرق المعاش تغيرت في الدنيا عما كانت عليه منذ عشرة قرون في بغداد ، ولعل اللصوص المحدثين اخترعوا من الحيل ما لو رآه بدیع الزمان لبدت له حيل بغداده الألعيب صباهية !

وفي المقامة الرصافية قصة ماجنة أنظر المجنون ، ولكنها لا تروى في هذا الكتاب ، وقد أسقطها المرحوم الشيخ محمد عبده من طبعته ، وبقيت في طبعة استانبول ، وخلاصتها أن عيسى بن هشام عز له على سطح البيت سواد فنظر فإذا هو غلام كانت له مع ابن هشام سابقة إدلال . فتحدث مع جاريته حديثاً فهم منه اللص أن في البيت ذخائرهم يمانها العرض . وتمت الخلدية ، ونرج من البيت وهو خزيان ، وصح لابن هشام أن يقول :

« وقفش الغلام البيت ؛ فلم يجد سوى البيت » .

وهو تهكم ظريف !

(١) المراد إحدى نساء المردة ، والاتراش هنا الزواج .

(٢) يريد أن الموت خير من حبة حولا .

٩ - وبدى الزمان مفلطح على الفكاهة، وهى مثورة فى رسائله ومقاماته، وفى هذا الكتاب طُرف مما تخيرناه^(١). فلنشر فى هذا الفصل إلى حديث عيسى بن هشام حين طال شعره، وآتسخ بدنه، فقد سأل غلامه أن يختار له حماما وحماما "وليكن الحمام واسع الرقعة، نظيف البقعة، طيب المسوء، معتدل الماء، وليكن الحجم خفيف اليد، حديد الموصى، نظيف الثياب، قليل الفضول".

ودخل الحمام، فدخل على أثره رجل وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه. ثم خرج ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يدلكه العظام، ويضمزه ضمزا يهدئ الأوصال، ويصفو صفيرا يرش البزاق. ثم عمد إلى رأسه ينسله، وما لبث أن دخل الأول فطمم الثانى لظمة قممعت أنياه وقال: يا كُفَّح! مالك ولهذا الرأس وهو لى؟ ثم عطف الثانى على الأول فضربه ضربة هتكت حجاباه وقال: بل هذا الرأس حتى وملكى وفى يدي. ثم تلا كما حتى عيا. وتحاكما إلى صاحب الحمام فقال الأول: أنا صاحب هذا الرأس، لآنى لطحنت جبينه، ووضعت عليه طينه، وقال الثانى: بل أنا مالكة، لآنى دلكت حامله، وغرزت مفاصله!

فقال الحمامى: إئتونى بصاحب الرأس أسأله، ألك هذا الرأس أم له؟

وأتيا عيسى بن هشام فقالا: لنا عندك شهادة.

الحامى - مخاطبا عيسى بن هشام - يا رجل! لا تقل غير الصدق، ولا تشهد بغير الحق، وقل لى: هذا الرأس لأيهما؟

عيسى ابن هشام - يا عافاك الله! هذا رأسى قد صحبني فى الطريق، وطاف معى بالبيت العتيق. وما شككت أنه لى!

الحامى - اسكت يا فضولى!

ثم مال الحامى إلى أحد الخصمين وقال:

(١) ونوصى القارىء بالرجوع إلى مناظرة بدى الزمان للرواوى المثبتة فى آخر الجزء الثانى من هذا الكتاب فيها شواهد كثيرة على روح الفكاهة عند بدى الزمان.

يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس، بهذا الرأس ! تسَلَّ عن قليل خطره، إلى لعنة الله وحرسقره . وهب أن هذا الرأس ليس، وأنا لم تر هذا التيس !

وكانت النتيجة أن نخجل عيسى بن هشام وليس ثيابه وأنسل من الحمام .
وللقارئ أن يتأمل الدعاية في هذه الأقصوصة فإنها في غاية من الظرف .
أما قوله " اسكت يا فضولى ! " فهو في هذا الموضع من وثبات الخيال .

١٠ — ويحارب الأوصاف والفكاهات وضع بدیع الزمان طائفة من العظات، كأنه أراد أن يودع مقاماته أظهر ضروب البيان ، من ذلك ما حدثنا أن أبا الفتح الإسكندري لما جهز ولده للتجارة أوصاه فقال :

" يا بني ! إني وإن وثقت بمتانة عقلك، وطهارة أصلك، فأني شفيق، والشفيق سيئ الظن، ولست آمن عليك النفس وسلطانها، والشهوة وشيطانها، فاستعن عليهما نهارك بالصوم، وليك بالنوم، إنه أبوسُ ظهارته الجوع، وبطائنه المجوع، وما لبسهما أسد إلا لانت سورته، أفهمتهما يا ابن الخليفة ؟ ! وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصين أحدهما الكرم، وأسم الآخر القرم^(١)، فإياك وإياهما . إن الكرم أسرع في المال من السوس، وإن القرم أشأم من السوس^(٢) . ودعني من قولهم : إن الله كريم . إنها خدعة الصبي عن اللبن . بلى إن الله لكريم، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه، وينفعنا ولا يضره، ومن كانت هذه حاله، فلتكرم خصاله . فاما كرمك لا يزيدك حتى ينقصني، ولا يريشك حتى يبري، فغذلان لا أقول عبقري، ولكن بقرى . أفهمتهما يا ابن المشثومة ؟ ! إنما التجارة، تبطل الماء من الحجارة، وبين الأكلة والأكلة ربح البحر، بيد أن لا خطر، والصين غير أن لا سفر، أفتركه وهو معرض ثم تطليه وهو مموز ؟ أفهمتهما لا أم لك ؟ ! إنه المال، عافاك الله ! . فلا تستفغن إلا من الربح، وملك بالخبز والمسلح، ولك في النخل والبصل رخصة مالم تُدْهِمَا^(٤)، ولم تجمع

(١) القرم، بالتحريك، اشتداد الشهوة إلى الإهم . (٢) امرأة مريّة تارت بسببها الحرب أربعين عاما بين قيتين ضرب بها المثل في الشوم . (٣) منسوب إلى قريظ فتح وهو الداهية . (٤) من أذهه وجده ذميا .

بينهما . واللم لحك وما أراك نأكله ، والحلو طعام من لا يبالي على أي جنبه يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشبع دامية الموت ، ثم كن مع الناس كلابب الشطرنج ، خذ كل ما معهم وأحفظ كل ما مملك !

يا بني قد أسمع وأبلف ، فإن قبلت فائقه حسبك ، وإن أبيت فائقه حسبك ^(١١) .

وهناك المقامة الوعظية وقد رصعها بأبيات من الشعر متحدة القافية والوزن ، وهو فن يجيده بديع الزمان .

١١ - وهناك مقامات كثيرة نجسها آتتبت من رسائله ، وهي بمسدة عن منحنى القصص ، وأغلب الظن أنها رتبته كذلك على أيدي بعض النساخ .

١٢ - وبديع الزمان في مقاماته رجل حرص وحذر وأرتياب ، ولا ينطق أبا الفتح بالحكمة إلا اقتناصا لئال ، ففي المقامة الكوفية يطرق باب عيسى بن هشام فيسأل من المتأب ؟ فيجيب الطارق : « وفد الليل وبريده ، وفل الجوع وطريده ، وحرقة الغمر ، والزمن المر ، وضيف وطؤه خفيف ، وضائه رغيف ، وجار يستمدى على الجوع ، والجيب المرقوع ، وغريب أوقدت النار على سفره ، ونج العواء في أثره ، ونبتت خلقه الحصيات ، وكنتس بعده العرصات ، نضوه طليح ، وعيشه تبريح ، ومن دون فرخيه مهامه فيح » ^(١٢) .

ويش عيسى بن هشام لهذا السائل الأديب فيسقه بالمآل ويقول : زدني سؤالا أزدك نوالا ! فيقول الطارق :

« ما عرض عارف العود ، على أحر من نار الجود ، ولا لقي وفد البر ، بأحسن من بريد الشكر ، ومن ملك الفضل فليواس ، فلن ينهب العرف بين الله والناس » .

(١) وهذه الرصعة أشبه في أدب بديع الزمان ، ورسالة في وصية لابن أخيه معروفة ، وقد ترجمناها إلى الفرنسية « أنظر الأمل الفرنسي ص ١٥٤ و ١٥٥ » .

(٢) المهام جمع مهمه وهو اليداء ، ونج جمع أقيع وقيعاء ، أى واسعة ، والمتمى مأخوذ من قول ابن محم الشيباني : وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراحي مهامه فيح

ويطرب عيسى بن هشام لهذا السجع الجميل ويفتح الباب فيرى السائل أبا الفتح فيقول :
 وشّد والله يا أبا الفتح ما بلغت منك انحصاصة ! :

فينبهم أبو الفتح وينشئ يقول .

لا ينرك الذي أنا فيه من الطلب
 أنا في ثروة تنسّق لها بركة الطرب
 أنا لو شئت لأتخذت سقوا من الذهب
 أنا طورا من التبيط وطورا من العرب

وفي المقامة الفردية يفضل الحق على العقل ويقول :

الذنب الأيام لا لي فأعتب على صرف الليالي
 بالحق أدركت المنى ورفقت في حلل الجمال

١٣ - وخلاصة القول أن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف النثر الفني في القرن الرابع، وقد أردنا أن نطيل بها الطواف ليعرف اليها القارئ، فقد كان مفهوما عند كثير من الناس أنها ألعاب لفظية ليس فيها من المعاني ما يستحق الدرس، ولكننا بمدعوا جهتها مرة ومرة رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يوجب الإعجاب، وكنا نحفظها في الحداثة، غير أننا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا في هذه الأيام .

في تلك المقامات بعض العيوب، ولكن أيّ عمل فنيّ سلم سلامة مطلقة من العيوب ؟
 ونؤكد للقارئ أننا لم نكتشف من محاسنها إلا القليل، فليعد اليها يطالعها في فهم وروية، وليتأمل بصفة خاصة قرار الألفاظ والتراكيب وصوغ الأمثال .

وسرى القارئ في الجزء الثاني لمحات من سيرة بديع الزمان وتحليل رسائله، ولكن ذلك لا يفي عن العسودة إلى مقارنة المقامات بالرسائل واستخلاص صور الحياة الاجتماعيّة لذلك العهد من آثار ذلك الكاتب الشجاع .

٣ - أحاديث ابنه دريد

رأى القارئ أن بديع الزمان الهمداني ليس المنشئ الأول لهن المقامات، وإنما حاكي أحاديث ابن دريد، فن هو ابن دريد؟ وما عسى أن تكون الأربعون حديثا التي أنشأها وفتح بها باب القصص لبديع الزمان؟

١ - ولد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصرة في خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ ثم صار إلى عمان فأقام بها مدة، ثم صار إلى فارس فسكنها مدة، ثم قدم بغداد فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢١

ولسنا هنا بصدد الإفاضة في حياة ابن دريد وما وقع فيها من مختلف الأحداث، وما عُرف به من قوة الحفظ وكثرة الإملاء، وما أخذ عليه من أفعال العربية وتوليد الألفاظ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها،^(١) وإنما يهتأ أن نذكر بعض الجوانب الدقيقة من تلك الشخصية القوية التي حسبها الناس لا تحسن غير رواية اللغة والشعر وتصريف الأفعال. وسنرى أن ابن دريد بالرغم من شغفه باللغة والرواية وكلفه بالبحوث الجافة التي تحتم على القلب، كان رجلا دقيق الحس، عذب الروح، وليس يكبر عليه أن يكون فنانا بارعا يدين له أمثال بديع الزمان ممن طبعوا على جودة الفهم وحسن البيان.

٢ - كان ابن دريد شاعرا. ولكن أي شاعر؟ شاعر مُقِلّ، تحفظ له الأبيات والمقطوعات، وبعض القصائد، ولكنه كان يسكب روحه فيما ينظم من الشعر، قسرى معانيه قوية بمحارة بلا جلبة ولا ضوضاء، كما تفعل الجفون النواعس بالباب الشعراء. خرج مرة يريد عمان فقتل تحت نخلة فاننا فاختان ترغوان في فرعها فقال:

أقول لودقاوين في فرع نخلة^(٢) وقد طفل الإسماء أو جنح العصر

(١) ص ٤٨٦ ج ٦ باقوت. (٢) شتري وشتاء وهي الحماة.

وقد بسطت هاتا لتلك جناحها ومال على هاتيك من هذه النحر
 لينكما أن لم تُراعا بفرقة وما دبّ في تشيت شملكما الدهر
 فلم أر مثلي قطع الشوق قلبه على أنه يحكي قساوته الصخر
 وهي أبيات تفيض بالرفق والحنان، وتمثل أشتلاف الطير أرق تمثيل، ولا يعرف قيمتها
 إلا من ألف مناغاة الطير في ضحوات الربيع وأصائل الخريف .
 ومن شعر ابن دريد هذان البيتان :

عاقبت منه وقد مال النعاس به والكاس تقسم سكرًا بين جلّاسي
 ريحانة ضمخت بالسك فاضرة تمجّ برد الندى في حرّ أنفاسي
 وفي هذين البيتين صورة شعرية جذابة، والبيت الثاني يبدو وكأنه وشة من وثبات الخيال .
 ٣ — فاذنا تجاوزنا أمثال هذه الشواهد من شعر ابن دريد — وفيها وحدها الدلالة على
 التفوق في الاكتنان والابتداع — ثم انتقلنا إلى حياة الرجل الخاصة رأيناها شديدة بدقة فهمه،
 وحلاوة نكته، وجرأته في الخروج على ما ألفت الجماهير . جاءه يوما سائل فلم يكن عنده
 غير دتّ نيز فوهبه له . بقاء غلام وأنكر عليه ذلك، فاحتج بقوله تعالى : ﴿لن تتألوا البرحى
 تنفقوا مما تحبون﴾^(١) . وهي نكتة تدل على خفة الروح ولطف النسيم . وتذاكر جماعة يوما
 المتزهات في مجلس بعض الأمراء وابن دريد حاضر، فقال بعضهم أنزه الأماكن غوطة دمشق
 وقال آخرون : نهر الأبلّة، وقال آخرون بل سفد سمرقند، وقال بعضهم نهروان بغداد، وقال
 بعضهم شعب بؤان بأرض فارس وقال آخر نوهار بلخ . فقال ابن دريد : هذه متزهات
 الميون، فأين أتم من متزهات القلوب؟ قالوا : وما هي يا أبا بكر؟ قال : عيون الأخبار
 لابن قتيبة، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر، ثم أنشد :

ومن نكته قينةً وكأس نُحِت وكأس تصبّ
 فترهتنا وأستراحاتنا تلاقى العيون ودرس الكتب^(٢)

وهذا حديث طريف كانت لفظة ابن دريد فيه لفظة الشاعر الفيلسوف إذ يقول "هذه منتزهات العيون، فأين أتم من منتزهات القلوب" على أن في الشعر الذي أشده كلمة تستوقف النظر، تلك كلمة "تلاق العيون" التي قدمها في متعة القلب على "درس الكتب" فهو رجل يرى الجمال في الطبيعة الناطقة طبيعة الإنسان الجذاب التي يؤثرها على جمال الأنهار والبحار والمروج الفيحاء، والرياض الفناء .

٤ — ومن الدلائل على خفة روحه وحلاوة نكته تلك الرؤيا التي قصها علينا إذ قال :
 "سقطت من منزلي بفارس فأنكسرت رقبتي، فسهرت ليل، فلما كان آخر الليل حملني عيسى فرأيت في نومي رجلا طويلا أصفر الوجه دخل عليّ وأخذ بعضادتي الباب وقال :
 أشدني أحسن ما قلت في النمر . فقلت : ما ترك أبو نواس شيئا . فقال : أنا أشعر منه .
 فقلت ومن أنت ؟ قال أنا أبو ناجية من أهل الشام، ثم أنشدني :

وحمرأ قبل المزج صفراء بصدّه بدت بين ثوبيّ نرجس وشقائق
 حكمت وجنة المشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكنت لون عاشق

فقلت له : أسأت . قال : ولم ؟ قلت لأنك قلت : (وحمرأ) فقدمت الحمرة ، ثم قلت : (بدت بين ثوبيّ نرجس وشقائق) فقدمت الصفرة . فألا قدمتها على الأخرى كما قدمتها على الأولى ! فقال : وما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بنيض ! وقد رويت هذه القصة على نحو آخر في كتاب طبقات النحاة لابن الأثير ص ٣٣٤ فراجع هناك .

٥ — وكان ابن دريد فوق هذه المرونة العقلية جريئا في بيته وفي درسه جرأة جامعة لا يسمو إليها ولا يقوى على تكاليفها إلا من وثق بأنه أمة وحده وأن على الناس أن يسمعوا له طائعين . فإذا سمعت أنه ألف أكثر من عشرين كتابا في اللغة والأدب وأنه كان أعرف أهل زمانه بما ترك الأولون فاذكر بجانب ذلك أنه كان رجلا مرحا طروباً ، وأن نفسه اللعوب

أوحث إليه أفانين من الأدب بهرت معاصريه وأعطته في الثروة بارة تجعله في الصف الأول من صفوف المبدعين .

٦ - ولكن ما هي آثاره الثرية ؟

هي تلك الأربعون حديثاً التي حدثنا عنها الحصري في زهر الآداب ، والتي هاجت بديع الزمان وحلته على أن يكتب في معارضتها أربعمائة مقامة لم يبق منها إلا أربعون . وقد شقيتُ في البحث عن تلك الأحاديث ، ثم عدت أتلسم الصواب فيما أقرضه الدكتور طه حسين وأخذت أتتبع كل ما رواه القائل عن ابن دريد فوجدته روى عنه أكثر من ستين حديثاً بعضها قصير وبعضها طويل . ثم قابلت تلك الأحاديث بالحديث الشائق الذي نقله عنه حمزة الاصفهاني جامع ديوان أبي نواس فصحت لدى النتائج الآتية :

أولاً - حديث ابن دريد في حج أبي نواس حديث تمتع خلاب كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لأن تكون أساساً لفن المقامات . ولست أشك الآن في أن هذا الحديث جزء من الأربعين حديثاً التي أبتكرها ابن دريد .

ثانياً - الأحاديث التي نقلها القسالي عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة تقرب في وضعها من قصته عن حج أبي نواس وتصلح أيضاً أن تكون أساساً لفن المقامات ، فلا بأس من الاطمئنان إلى أنها شطر من الأربعين حديثاً التي عارضها بديع الزمان .

ثالثاً - إذا غضضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جداً التي نقلها القائل عن ابن دريد وعددها مما رواه عن شيوخه أو مما وقع إليه من كلام الأعراب ، كان ما بقي من أحاديثه المتشابهة في القدر والوضع والأسلوب قريباً من الأربعين .

رابعاً - يلاحظ أن أكثر ما روى القائل عن ابن دريد من الأحاديث جرى على ألسنة ناس مجهولين : فاشخاصه يكونون حيناً من الأعراب ، وتارة يكونون من أقبال اليمن الذين لا يعرف لهم أسم ولا يحفظ لهم تاريخ ، وأحياناً يكونون من النكرات التي لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع .

خامسا — لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأريمين حديث التي أبتركها ابن دريد (جاء أكثرها مما تنوع قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبا الاستماع) وأنها وقعت "في معارض عجمية وألفاظ حوشية" ولو أننا لبعتنا ما نقله القالي من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإعراب ظاهرين فيها كل الظهور. وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدرس في أحاديثه بعض الألفاظ التي آتتهم باقتطاعها وتوليدها، فقد آتهم أبو منصور الأزهري في مقممة كتاب التهذيب بادخال ما ليس من كلام العرب في كلامها، فكان من همه إذن أن يجرى ما آتهم باقتطاعه على السنة الاعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق.

٧ — بعد ذلك نرى من المهم أن نتناول بالتحليل بعض أحاديث ابن دريد، ولنذكر أولا أن تلك الأحاديث في مجملها تمثل جانب الدعابة والفن من ذلك الرجل الخليج. وأي نكتة أدق وأرشق من قصة توضع مثلا عن حج أبي نواس؟ إن رحيل أبي نواس إلى بيت الله الحرام هو في نفسه قصيدة من قصائد المحبون، فكان من الحتم أن يُعنى بعض الكتاب المازحين بمرض تلك الشخصية عرضا تلتقي فيه الفكاهة والسخرية بصورة توهم القارئ أن ماتحت عينيه جدُّ صُراح. وكذلك فعل ابن دريد فأنطق أبا نواس بقصة طريفة حقثا فيها أنه لقي في طريقه نصبا إذ أنهمل المطر في أرض بني فزارة ففرغ إلى بعض الخيام فاذا جارية مبرقة ترنو بطرف مريض الجفون سحر النظر، فاستمعها، ففضت تهادى في جسم خصب رشيق، وأحضرت إليه الماء، ثم كان منه حوار مملوء بالسفه واللؤم أراد به الوصول إلى معانينة ماتحت تلك الثياب من أسرار الجمال. ولكن طبل الرحيل صرفه فانصرف، وفي قلبه حسرة كامنة وكرْبٌ دخيل، فلما قضى حجه ورجع مر بتلك الخيام طامعا في الصيد، ولكن مطامعه انتهت بخيبة مخجلة نكتفي في الابانة عنها بهذه الإشارة، ونحيل القارئ على مقممة الديوان ليرى كيف يروج ابن دريد في السخرية من أبي نواس.

٨ — ثم ننظر بعد فترى ابن دريد آهم بتصوير الشائيل العربية وكلف بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء في فهم الرجال، وإعجاب البنات بأعمال

الآباء، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج، والتواصي بين الشباب والكهول. كل ذلك بطريقة قوية أخذة تحمل له مكاناً بين السالين بالفرائز وأهواء النفوس. وتلاحظ أنه يميل إلى الفكاهة حين يمرض للهواجس الجنسية فينطق النساء والبنات بالفاظ وتعاير تغلب عليها التكتة، وبخاصة حين يتكلم عن فتاتين يُبادلان الأمانى أو زوجين يتقارضان الهجاء، فتلك فتاة تصف الزوج المشتبه بأنه إن ضم قضيقض وإن دسر أغمض،^(١) وتلك امرأة تخاصم زوجها فنصمه بأنه يشع ليلته يضاف، وينام ليلته يخاف، وأولئك بنات عظمهن أبوهن قها منس بحيث يسمع بأبيات من الشعر قهرته على أن يجعل لهن بالزواج.^(٢)

٩ — فإذا تحدث ابن دريد عن شجنان العرب وفرسانهم وأجوادهم رأيتهم رجلاً جزل الرأي بعيد النور ينطق بالحكم وفصل الخطاب، فنراه تارة يقول على لسان أوس بن حارثة "المنية ولا الدنيا، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبدل، والقبر خير من الفقر، ومن قلّ ذل، ومن أمر قلّ،^(٣) والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك^(٤)". وزاه أخرى ينطق رجلاً أعمى من أزد المرأة يقوده شاب جميل فيقول "يا ابن أختي! إن اغترارك بالشباب كالتذاذك بسمادير الأحلام، ثم تتقش فلا تمسك منها إلا بالحسرة عليها. ثم تمرى راحلة الصبا وتشرب سلوة الهوى. وأعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قدّم ذخيرة، وأشدّهم اغتباطاً يوم الحسرة من أحسن سريرة^(٥)".

١٠ — وبمراجعة أحاديث ابن دريد نلاحظ أنه يتعقب أعيان الجاهلية فينطلقهم بالوان من الحوار تمثل ما كان يحب العرب أن يُعرف عن أسلافهم من كرم الطباع وشرف الأحساب. ولو يقب لنا مقامات بدیع الزمان كاملة لعرفنا إلى أى حدّ حاكي ابن دريد في هذا الباب. فان قصة بشر بن عوانة التي اخترعها بدیع الزمان نموذج طريف في ابتداع الأفاقيص... إلى هنا عرفنا الفرق بين مقامات بدیع الزمان وأحاديث ابن دريد. وعرفنا من السابق ومن المسبوق، فلنتظر ما ترك معاصروهم من هذا البدع الجديد.

(١) ص ١٧ ج ١ أمال. (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ١٠٧ ج ٢ (٤) أمر الرجل كثر عدده.

(٥) ص ١٠٢ ج ١ (٦) ربما كان الهواب «الحشرة» بدل الحسرة. (٧) ج ٢ ص ٢١٦

نموذج من أحاديث ابن دريد

أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال :

دُفِعْتُ يوماً في تلمسى بالبادية الى وادٍ خلاء لا أنيس به إلا بيت معتز، بفناءه أعتر، وقد
 ظلمت، فيمته فسلمت، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامة رآخم^(١)، فقلت : هل من ماء ؟
 فقالت : أو لبن ؟ فقلت ما كان يفتى إلا الماء، فاذا يسر الله اللين فاني اليه فقير . فقامت
 الى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله، ثم جاءت الى الأعتر فتغيرت^(٢) حتى آحلت
 قُرَاب ملء القعب، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطففت ثمالة كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتني
 إياه فشربت حتى تحببت^(٣) ريا، وأطمانت^(٤) . فقلت إني أراك معتزة في هذا الوادى الموحش،
 والحيلة منك قريب، فلو أنضممت الى جنبهم فأنست بهم . فقالت : يا ابن أمي ! إني لآنس
 بالوحشة، وأستريح الى الوحدة، ويطمئن قلبي الى هذا الوادى الموحش، فأنذكر من عهدت،
 فكأنى أخطب أعيانهم، وأترأى أشباحهم، وتغفل لي أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم،
 ومُنْدَى أموالهم . والله يا ابن أمي لقد رأيت هذا الوادى بشع اللذين بأهل أدواح وقباب،
 وتعم كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالزمام، يبارون الرياح، ويحسون الصباح، فأحال
 عليهم الجلاء^(٥) ثم بقرقة فأصبحت الآثار دارة، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن
 وثق به . ثم قالت : ارم بعينيك في هذا الملا المتباطن . فنظرت فاذا قبور نحو أربعين
 أو خمسين . فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما أنطوت إلا على أخ
 أو ابن أخ أو عم أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمأت عليهم الأرض، وأنا أقرب ما غلهم . انصرف
 راشدا رحك الله !

(١) معتز: مفرد . (٢) الراخ التي تحضن بيضا . (٣) تحببت: امتلأت . (٤) والجمع الحلال :
 وهي بيت الناس . (٥) الجباب : فناء الدار . (٦) بشع : ملان . (٧) اللذين : الجانيان .
 (٨) الأدواح: جمع دوحه وهي الشجرة النظيفة . (٩) الهضاب: الجبال الصغار . (١٠) قا : كفا،
 قمت البيت : كنسة . والفرقة واحدة الفرف وهو شرب من الشجر . (١١) الملا : النضا .
 (١٢) متباطن : متطامن . (١٣) ألمأت عليهم : احتوت عليهم وتغطت عليه الأرض : استوت عليه ووارته .

٤ - روايات الأغاني

١ - من مشاهير الكتاب في القرن الرابع أبو الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ في خلافة المطيع^(١) . والأصبهاني هذا يعد في رأي أكبر مؤلف عرفته اللغة العربية . ولا يوجد في المؤلفين من بعده من لم يعول عليه ، ويندر أن نجد باحثا في تاريخ الأدب أو تاريخ الاسلام لم يتخذ كتاب الأغاني مرجعا له . والأغاني هذا كتاب عظيم في ٢١ مجلدا ألّفه الأصبهاني في خمسين سنة وكتبه مرة واحدة في عمره وأهداه الى سيف الدولة بن حمدان^(٢) .

٢ - وشهرة الأصبهاني وكتابه مستفيضة فلا حاجة لإعادة ما يعرفه الناس . وإنما أريد هنا أن أنص على ناحيتين في الأصبهاني وكتابه لم أجد من تنبه لها من الباحثين . وهاتين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية ، وسيكون لها أثر عظيم في دعوة المؤلفين الى الاحتياط حين يرجعون الى كتاب الأغاني يتلمسون الشواهد في الأدب وفي التاريخ .

الناحية الأولى خاص بالأصبهاني : تلك الناحية هي خلقه الشخصي . فقد كان الأصبهاني مسرفا أشنع الإصراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلق أثر ظاهر في كتابه ، فان كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون . وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويحمل الجوانب الجذبة إهمالا ظاهرا يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدة والزانة والتجمل والاعتدال . وهذه الناحية من الأصبهاني أفسدت كثيرا من آراء المؤلفين الذين أعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جورج زيدان في كتابه تاريخ أدب اللغة العربية ، وما كتبه الدكتور طه حسين في حديث الأربعماء تكشفى للافتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جزهذين الباحثين الى الخط

من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون .

٣ - ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الأصهباني كان يعتمد الاختلاق، وأن الجمهور في العصر العباسي كان مغمورا بالطهر والعفاف، كلا، فقد قلت غير مرة إن الحياة الانسانية مزيج من الشك واليقين، والحلم والجهل، والهدى والضلال، وإن الانسان لا يكون خيرا محضا ولا شرا محضا، وإنما يقاؤه في أن تكون سريره مسرعا لنوازع التي والرشد، والبر والفجور، ولكني أريد أن أقول : إن إكثار الأصهباني من نفع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب، جعل في كتابه جوا مشعبا بأوزار الإهم والفواية ، وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقريّة بالتزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين .

٤ - أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الأغاني : تلك الناحية هي نظم ذلك الكتاب، ففي مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر آهتاه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق : فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ . وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تُغدّي بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغاني الشراب . وإنه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقر إذا تأملها قارئها لم يزل منتقلا بها من فائدة إلى مثلهام ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسر وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وأخبارها الماثورة، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام . وأخبرنا بعد ذلك أنه أهتم بالغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن . وعلى ذلك بقوله : " إذ ليس لكل الأغاني خبر نعرفه ولا في كل ما له خبر فائدة، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع " .

وأحب أن يتأمل القارئ قوله : " رونق يروق الناظر ويلهى السامع " فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما اختار الأصهباني أن يدور عليه كتابه حين أراد أن يقدم ما رافه من أيام

العرب وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام، وخصوصا إذا لاحظنا أن كلامه يشعر بأنه مستعد لإهمال ما فيه بعض الفائدة إذا خلا من ذلك الرنق الذي "يروق الناظر ويلهي السامع". فهو إذن يسير القراء المتطلعين الى التواصي الطريفة من أخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء . ولهذا النحو في التأليف قيمة عظيمة جدا إذا فهمه القارئ على وجهه الصحيح : فهو دليل على خصوبة التصور والخيال، وبرهان على أن كتاب اللغة العربية لم يجرموا من القصص الشائق الخلاب، ولم يفهم أن يقدموا لأوقات اللهو والفراغ ما تحتاج اليه العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الأفاصيص وغرائب الأسرار . ولكن الخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون الى أن روايات الأغاني قيمة تاريخية، وأن ينشأ على أساسها ما يشاءون من حقائق التاريخ . لاسيما وصاحب الأغاني يصارحنا بأن "في طابع البشر حجة الانتقال من شيء الى شيء، والاستراحة من مهود الى مستجد، وكل متقل الى أشهى الى النفس من المتقل عنه، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود"^(١) وأن "انتقال القارئ من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن أخبار قديمة الى محدثة ومليك الى سوقة وجد الى هنز" أدعى الى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح ما في الكتاب من مختلف الفنون .

٥ - ولأضرب المثل بما قصه صاحب الأغاني من أخبار عمر بن أبي ربيعة، وهي أخبار ظنها كثير من الباحثين صورة حياة الحجاز في القرن الأول للهجرة، وقد حدثني المسيو ماسينيون بأن لأشعار عمر بن أبي ربيعة وحوادثه أهمية عظيمة من هذه الناحية . وأنا قد اعتمدت بالفعل على كتاب الأغاني حين فصلت أحداث من عرف ذلك الشاعر من الملاح في الطبعة الثالثة من كتابي "حب ابن أبي ربيعة وشعره" ولكنني دعوت القارئ الى الاحتراس وبينت له أنني أريد أن أرسم من ابن أبي ربيعة صورة جذابة تشبه صورة ميسيه عند الفرنسيين وجوت عند الألمان ويرون عند الانجليز . وأنا أستطيع هذا النحو من استغلال كتب الأدب والتاريخ، فإن الأدب يقصد به إمتاع القلوب كما يراد به إقناع العقول . ومتى نص الكاتب

على أن وجهته فنية محضة وأن منعه أدبي - صرف فقد أبرأ ذمته عند من يريد أن يتخذ من أفانيص الأدب صورة صادقة لحياة الأشخاص وما أحاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف . وكذلك فعلت حين قلت :

”إن كثيرا من حوادث ابن أبي ربيعة الفرامية من صنع الخيال . وقد قبلناه على علامته واكتفينا بتلك الإشارة عند التهديد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التي أضيفت إليه تدلنا على شيئين : فهي أولا علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه وأسلموا قلوبهم لوجيه فابدعوا في ظلال ذكره ما شاء الخيال من أحاديث الحب الطافر والهوى الغلاب ، وهي ثانيا دليل على أنه كان للمتقدمين ميل إلى القصص الفرامية وحظ من الإجادة فيه ، فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القصصية ونحن نتحدث عن هوى ذلك الشاعر من حسان النساء^(١) .“

لكن صاحب الأغاني لم يفعل شيئا من ذلك ، وإنما ساق أخبار ابن أبي ربيعة كلها على أنها حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالسند شيء سحرقت به كثير من الناس وظنوه علما دقيقا له آداب وشروط ، واعتادا على هذا العلم الدقيق آطمان أكثر الباحثين إلى روايات الأغاني فضلوها وأضلوا في حقائق التاريخ .

٦ - قلت إن صاحب الأغاني كان يهتم بالنواحي الطريفة من السير والأخبار . فلا ذكر من أملة ذلك أنه حدثنا بسنده عن ابن أمي زرقان عن أبيه قال : أدركت مولى لعمر بن أبي ربيعة شيخا كبيرا فقلت له : ”حدثني عن عمر بحديث غريب“ وكلمة ”حديث غريب“ هذه لما معناها فيما نحن بسبيله من أخذ الرواة بالتفريق والاختلاق ، فإن البحث عن الأوضاع الغريبة من أحاديث عمر بن أبي ربيعة يدل على ظمأ تلك النفوس إلى النادر المستطوف من القصص والأحاديث . وما عسى أن يكون ذلك الخبر الغريب ؟ هو خبر يشبه من أكثر نواحيه قصة حج أبي نواس التي اخترعها ابن دريد . فأبو نواس حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من

(١) راجع كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » ص ٢٩٥ من الطبعة الثالثة .

حسان النساء . وما كاد يطمئن الى ظفره بما كان يشتهي من جميل الصيد حتى دخل عليه جماعة من العبيد في حالة جارية بددت ما نظم من ساحر الأحلام . وأبى ربيعة في حجة تعرض للنسوة من جوارى بنى أمية نخلينه ووعده بتذكرة طيبة تكون تحفة له كلما تذكر أنسه بهن في أيام الطواف ، فلما بعث غلامه ليتسلم التذكرة عاد ومعه صندوق لطيف مقفل مخشوم كان يظن أنه أودع طيبا أو جوهرا ، ففتحه فإذا هو مملوء من المضارب وهي الكبريجات وإذا على كل واحد منها اسم رجل من مجان مكة وفيها اثنا عشر كبريان على أحدهما الحارث بن خالد وهو يومئذ أمير مكة وعلى الآخر عمر بن أبي ربيعة . وإذا كانت المضارب والكبريجات هي آلات السفاد فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة أبي نواس .

ويجد صاحب الأغاني في مكان آخر يروي بسنده عن عثمان بن إبراهيم الخطابي أنه قال :
 ” أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بستين وهو في مجلس قومه من بنى مخزوم فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منه ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نهبجه على ذكر الغزل فننظر هل بقى فى نفسه منه شىء؟ فقال له صاحبي : يا أبا الخطاب ، أكرمك الله ! لقد أحسن العذرى وأجاد فيما قال ، فنظر عمر إليه ثم قال له : وماذا قال؟ قال حيث يقول :

لو جُدد بالسيف رأسى فى موتها لم يهوى سريعا نحوها رأسى

ثم مضى يهبجه بالشعر حتى طرب ، وحدثهما بحديث وُصف بأنه ” حديث حلو ” وتلك الخلاوة لها معناها أيضا فهي نص على أنه وضع ليكون فكاهة طريفة يتنقل بها السامعون فى مجالس الشراب . ويتلخص الحديث فى أن خالدا الخزيم صاحب عمر حدثه عن نسوة مررن به قبيل العشاء لم ير مثلهن فى بدو ولا حاضر ، فهن هند بنت الحارث المريية ، وأشار عليه بأن يأتى متنكرا ليسمع من حديثهن ويتمتع بالنظر اليهن ولا يملن من هو . فقال له عمر : ويحك ! وكيف أخفى نفسى ؟ فأشار اليه بأن يلبس لبسة أعرابى ثم يجلس على قعود فلا يشمرن إلا به وقد هم عليهن : فاطاع عمر ثم وقف بقرب النسوة وأشدنهن ما سألن إنشاده

من شعر كثير وجميل والأحوص وتُصَيَّب . وبعد لحظات تنامز النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأننا نعرف هذا الأعراي ! ما أشبهه بممر بن أبي ربيعة ! ثم مدت يدها فالتزمت عمامته وألقته عن رأسه ثم قالت : هيه يا عمر ! أترك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعتك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى ! ثم قالت بعد أن أخذت في الحديث : ويحك يا عمر ؟ اسمع مني ، لو رأيته منذ أيام وأصبحت عند أهلي فأدخلت رأسي في جيبي فنظرت الى جري فإذا هو ملء الكف ومنية المثنى فناديت يا عمر يا عمر ! فصاح عمر : يا ليكاه يا ليكاه ! ومد في الثالثة صوته ، الى آخر الحديث .

ونحن نجد لهذه القصة أشباها كثيرة من حيث الغرض والأسلوب . فقد حدث ابن دريد أن رجلا جلس الى مجنون ليلي في ظل شجرة فقال : ما أشعر قيسا حيث يقول :

بيت ويضحى كل يوم وليلة على منهج تبيكى عليه القبائل
قتيلٌ للتي صدع الحب قلبه وفي الحب شغلٌ للحين شاغل

فقال المجنون أنا أشعر منه حيث أقول :

سلبت عظامي لحمها فتركها معرّفة تضحى لديك وتُخَصَّرُ
وأخليتها من مخها فكأنها قوارير في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت ذكر الفراق تقطعت علاقتها مما تخاف وتُحَذِرُ
خذى يدي ثم آتھضى بي تبقي بي الضر إلا أنى أتستَرُ^(١)

ولحديث بقية ، وفي هذا ما يكتفى لبيان الأسلوب الذي كان يجري عليه الرواة في تصوير العشاق الذين تسلا أو يسوا ، وما كان يعمل أرباب القبول في تهيج ما كانوا يكتمون من أسرار الوجد الدفين ...

ويشبه هذين الحديثين ما رواه محمد بن خلف بسنده عن علي بن عاصم إذ قال :

”قال لي رجل من أهل الكوفة من بعض اخواني : هل لك في عاشق تراه ؟ لمضيت معه فسرأيت فتى كأنما نزعت الروح من جسده وهو مؤزر بإزار ومرد بأخر وإذا هو مفكر وفي ساعده وردة فذكرنا له بيتا من الشعر فتهيج وقال :

جعلت من وردتها تيممة في عضدى
أشمتها من حيا إذا علاني كدى^(١) — أبلغ

وما روى عن هند بنت الحارث في استدراجها لعمر واستقدامه بأسوأ هيئة يشبه ما روى عن الثريا بنت علي حين دست من يخبره بأنه سمع عند رحيله عن الطائف صوتا وصياحا عاليا على امرأة من قريش أسمها أسم نعيم في السماء وقد ذهب عنه أسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم ، وكان قد بلغ عمر قبل ذلك أنها عيلة ، فوجه فرسه الى الطائف يركضه ملء فوجهه وسلك طريق كداد وهي أخشن الطرق وأقربها حتى انتهى الى الثريا وقد توقفته وهي تتشوف له فوجدها سليمة . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأختبر مالى عندك ! ومن أحلى القصص التي رواها صاحب الأغاني عن محمد بن خلف قصة عمر مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وخلاصتها أن امرأة أقبلت عليه وهو في فناء مضر به وغلماؤه حوله فسلمت عليه وسأله : هل لك في محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلفا وأكلمهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحب ذلك الى ! فاشتريت عليه أن تمكنه من عيني فقتلتهما وتقوده حتى إذا توسط الموضع الذي تريد حلت الشدة ثم فعل به ذلك عند إخراجها حتى تنتهي به الى مضر به . فقبل عمر ، ثم قادته الى امرأة لم ير مثلها قط جمالا وكالا ، فسلم وجلس ، ثم كان بينهما حوار انتهى بطرده ، فباد الى مضر به كاسف البال ، ثم عادت المرأة في اليوم التالي فقادته مرة ثانية آتته بمثل ما آتته به المرة الأولى من الإخفاق ، وظلت الحال على ذلك أياما حتى أهدى عمر الى أنها فاطمة بنت عبد الملك ، في حديث شائق طويل .

(١) ص ٧ مصارع العشاق وقد وردت هذه الحكاية في الأمال ج ٣ ص ١٤٥ مروية عن عبد الله بن خلف .

وقد استقر صاحب الأغاني ينقل من أخبار عمر بن أبي ربيعة ما طاب له من غير نقد ولا تمحيص . ولكنه فطن في بعض ما رواه الى تليق الرواة حين عرض الى ترويح الثريا ونزولها الى مصر وعمر غائب ، فقال : « وهذا الخبر عندي مصنوع ، وشعره مضعف يدل على ذلك . ولكنني ذكرته كما وقع الى^(١) » .

٧ - هنا دلنا صاحب الأغاني على ترتيبه في بعض الأخبار، ولكن لماذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع اليه ؟ يذكره لأنه يريد أن يقدم ما يروق الناظر ويلهى السامع، كما أشرتنا من قبل . ولكن لا يفوتنا أن نشير الى أن هذا الخبر الذي حدثنا الأصبهاني بأنه مصنوع هو كذلك منقول عن جماعة من الرواة ، كان يصح أن يحتج بروايتهم من يصدقون كل شيء روى بأسانيد، لو لم ينص الأصبهاني على أنه مدسوس .

وفي رأيي أن أكثر أخبار عمر بن أبي ربيعة وضع تفسيراً لشعره، لأن كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغرامية ، وقد صنع الرواة مثل هذا الصنع في أخبار أبي نواس ، فقد لفقوا حديثاً يشرح قوله في جنان :

يا ذا الذي عن جنان ظل يحسبنا	بالله قل وأعد يا طيب الخير
قال أشتكك وقالت ما أبليت به	أراه من حيث ما أقبلت في أثرى
ويعمل الطرف نحوى إن مررت به	حتى ليخجلني من حدة النظر
وان وقفت له ككيا يكلسني	في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه	حتى لقد صار من همى ومن وطرى ^(٢)

واخترع الرواة كذلك قصة طريقة لتفسير أبيات أبي نواس التي مطلعها :

أسال القادمين من حكايا كيف خلقتنا أبا عثمان^(٣)

(١) ٢٢٦ ج ١ "وما قيمة تضعيف الشعر في هذا الخبر ؟ كان ينبغي تحقيقه من وجهة تاريخية إن أمكن" .

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٤ طبع السامى . (٣) ج ١٨ ص ٥

وقد تنبه كثير من الباحثين إلى ما دُسَّ على أبي نواس، ولم أجد من أشار إلى ما دس على عمر ابن أبي ربيعة، مع أن الرجلين يشتركان في أن كلا منهما قضى معظم حياته في اللهو والعبث والمجون. وإذا جارينا صاحب الأغاني في الاستدلال على وضع الشعر بضعفه، فإن في شعر ابن أبي ربيعة قصائد كثيرة يغلب عليها الضعف والاخلال، حتى ليبعد معظم شعره عن المثانة التي عرفت في عصره وطبع عليها عدد من قصائده الطَّوال.

هذا. ولو مضينا نحصى ما في روايات الأغاني من التلفيق لطال بنا القول، فلنكتف بهذا، ولنسجل مرة ثانية أن الأصبهاني أراد أن يكون كتابه معرضاً لما تجتمع بين أيدي معاصريه من طرف الأفاصيص، فليعتبره القارئ كتاب أدب لا كتاب تاريخ.

٨ — بقيت مسألة لما خطر في هذا الباب: قد يتوهم القارئ أننا نجزم بأن صاحب الأغاني اخترع ما دونه من أخبار عمر بن أبي ربيعة، فلتنف هذا الوهم، ولنذكر أننا رأينا في ارشاد الأريب لياقوت أن ابن بسام كانت ألف كتاباً في أخبار عمر، وقد روى فيه عن الزبير بن بكار وعمر بن شبة وحساد بن الصمق ومحمد بن حبيب ويعقوب بن أبي شيبة وأحمد ابن الحارث الخراز.

وبعض من روى عنهم ابن بسام يكثر النقل عنهم في كتاب الأغاني، وخاصة عمر بن شبة والزبير بن بكار. وابن بسام هذا من رجال القرن الثالث. وفي كتابه عن عمر دليل على أن أخبار ذلك الشاعر كانت معروفة قبل الأصبهاني بنحو قرن أو يزيد، وكانت موضع عناية المؤلفين.

ولو وصل إلينا كتاب ابن بسام لعرفنا الفرق بين طريقته وطريقة أبي الفرج في صياغة الأخبار، ولكننا على أي حال نرجح أن أبا الفرج له يد في تلوين تلك الأخبار ووضعها في قوالب يغلب عليها اللهو والمجون، فهو لم يخلقها كلها، لأن عبث ابن أبي ربيعة كان مشهوراً قبل ذلك، ولكنه نفخ فيها من روحه، وصاغها بلباقة وأختان.



ولو خلتنا الأخبار المروية جانباً، ونظرتنا فيما حدث به أبو الفرج عن نفسه، لعرفنا مبلغ
حذقه في وضع الأفانيص .
والى القارئ هاتين النادرين :

١ - قال أبو الفرج : خرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه
الله ماضيين الى دير الثعالب في يوم من سنة ٣٤٥ للهجرة، ومشاهدة أجتاع النصارى هناك،
والشرب على نهر يزجره الذي يجري على باب هذا الدير، وفيه جماعة من أولاد كتاب
النصارى من أحداثهم، واذا بضاعة كأنها الدينار المنقوش تماثيل وثني كفنن الریحان في نسيم
الشمال . فضربت بيدها الى يد أبي الفتح وقالت : يا سيدى ! تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب
على حائط هذا الشاهد، فضينا معها ، وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحه منطقها ما الله به
عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومات الى الموضع فاذا فيه مكتوب :

خرجت يوم عيدها في ثياب الزواهي
فكنت بأختيالها كل جاءٍ وفاهي
لشفاى رأيتها يوم دير الثعالب
تهادى بنسوة كاعب في كواعب
هى ففهم كأنها الـ جدرين الكواكب

فقلت لها : أنت والله المقصودة بهذه الأبيات . ولم تشك أنها كتبت الأبيات ،
ولم تفارقها بقية يومنا . وقلت لها هذه الأبيات وأتدنتها إياها فخرت :

مررت بنا في الدير تحصانه ساحرة الناظر فثانه
أبرزها الذكران من خدرها تعظم الدير ورجانه
مررت بنا تخطو في مشيها كأنما قامت باه
هبت لنا ريح قالت بها كما تثنى غصن ريحانه
فتمت قلبي وهاجت له أحرانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها وبين أبي الفتح عشرة بعد ذلك ، ثم نرج الى الشام وتوفى بها ،
ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك .

٢ - وقال في كلمة ثانية : كنت في أيام الشيعة والصبي ألف فتي من أولاد الجند
في السنة التي توفى فيها معز الدولة ، وولّى بختيار ، وكانت لأبيه حال كبيرة ومزلة من الدولة
ورتبة ، وكان الفتى في نهاية حسن الوجه ، وسلاسة الخلق ، وكرم الطبع ، ممن يحب الأدب
ويميل الى أهله ، ولم يترك قريحته حتى عرف صدرا من العلم وجمع خزانة من الكتب حسنة .
فضئت لي معه سير لو حفظت لكنت في كتاب مفرد من مكاتبات ومعاتبات ، وغير ذلك
مما يطول شرحه . منها أنى جتته يوم جمعة غدوة فوجدته قد ركب الى الحلبة . وكانت عاداته
أن يركب إليها في كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة . فجلست على دكة على باب دار أبيه في موضع
فسح كان عمرها وفرشها . فكان يجلس عليها للحادثة الى ارتفاع النهار . ثم ندخل اذا اقت
عنده الى حجرة لطيفة كانت مفردة له لتجتمع على الشراب والشرطي وما أشبههما . فطال
جلوسى في ذلك اليوم منتظرا له ، فأبطأ وتصبح من أجل رهان كان بين فوسين لبختيار ، فعرض
لى لقاء صديق ، فقامت لأمضى ثم أعود إليه ، فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنا
نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أطل بياب داره ويطول حبسى لانتظاره

وحياة طرفك وأحوراره وبجال صدغك فى مداره

لأحلت عمري من هوا لك ولو صليت بحسرة ناره

وقت . فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لثلا يقف عليه من يمتشمة . وكان
شديد الكتان لما بنى وبينه مطالبا بمثل ذلك مراقبة لأبيه ، إلا أن ظرفه ووكيد محبته لى
وميله إلى لم يدعه حتى أجاب بما كتب تحتها . ورجعت من ساعى فوجدته فى دار أبيه
فاستأذنت عليه فخرج إلى خادم لم فقال : يقول لك : لا التينا حتى تحف على الجواب
عن الأبيات ، فانه تحتها . فصعلت الذكة فاذا تحت الأبيات بخطه :

” ما هذه الشناعة ؟ ومن فسَّح لك في هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة ؟ ولكن أنا جنيت على نفسي وعليك : ملكك فطفنت ، وأطعتك فتعدت ، وما أحشتم أن أقول : هذا تعرض للإعراض عنك . والسلام “ .

فعلمت . أنني قد أخطأت ، وسقطت — شهد الله — قوتي وحركتي ، فأخذتني الندامة والحسرة ، ثم أذن لي فدخلت فقبلت يده فتمنى ، وقلت : يا سيدي ! غلطة غلطتها ، وهفوة هفوتها ، فإن لم تجاوز عنها وتغف هلكت . فقال لي : أنت في أوسع العذر بعد أن لا يكون لما أخت . وعاتيني على ذلك عتابا عرفت صحته . ولم تمض إلا مُدبدة حتى قبض على أبيه وهرب . فاحتاج الى الاستئثار فلم يأنس هو ولا أهله إلا بكونه عندي . فأننا على غفلة إذ دخل في خف وإزار ، وكادت مرارتي تنفطر فرحا ، فلقينته أقبل رجله وهو يضحك ويقول : يا بنيما رزقها وهي نائمة ! هذا يا حبيبي بخت من لا يصوم ولا يصلي في الحقيقة — وكان أخف الناس روحا وأقلهم لبادة . وبتنا في تلك الليلة عروسين لا نعقل سكرًا ! وأصطبغنا وقلت هذه الأبيات :

بتَّ وبات الحبيب ندماني من بعد نأي وطول هجران
تسرب قفصية معتقة بجانة الشط منذ أزمان
وكلمسا دارت الكؤوس لنا أثمفي فاه ثم غشاني
الحمد لله لا شريك له أطلعني الدهر بعد عصيان

ولم يزل مقبلا عندي نحو الشهر حتى استقام أمر أبيه ، ثم عاد الى داره .^(١)

فهذه الأخبار التي رواها أبو الفرج عن نفسه تعين اتجاهاته النوقية في الحياة . ومن هنا جاء غرامه بتعقب أخبار الخلاعة والمجون فيمن ترجم لهم من الشعراء .

٥ - أخبار ابنه دريد

١ - لقد تكلمت عن ابن دريد في فصل سبق، وإني لعاثد إليه لاستقصي أمره، إذ كنت أول من كشف النطاء عن محولاته في الشر الفنى، ولأذكر أولاً أن الذى كان يريب الدكتور طه حسين من ابن دريد هو روايته عن عبد الرحمن ابن أمي الأصمعي، وكان يرى في كلمة "ابن أمي الأصمعي" مثارا للشك. وقد رأيت أن أتعقب هذه الفكرة فوصلت الى أن رواة العرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير، فالتناجد الأصهباني ينقل "حدثني أبو مسلم عن ابن أمي رزقاً"^(١).

وفي معجم ياقوت "قال أبو حيان: وكان يختلف الى مجلس أبي سعيد حل بن المستير وكان هذا ابن بنت قطرب" وكلمة "ابن بنت قطرب" تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصلون بكبار العلماء اتصال قرابة. ومثل هذا ما نقل ياقوت: "حدث يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ"^(٢). وفي الأغاني: "أخبرني محمد بن جعفر صهر المبرد"^(٣). وكان مثار الشك أن عبد الرحمن هذا لم يذكر أحد من أبوه، وقد وصلت بعد البحث الى أنه عبد الرحمن بن عبد الله وقد ذكره ابن الأثير في طبقات النحاة بين من أخذ عنهم ابن دريد^(٤). لكن بقيت مسألة تثير الشك: ذلك أن هناك رواية أدعى أنه ابن أخت الأصمعي وهو أحمد بن حاتم وأنكر عليه ذلك^(٥). وأحد هذا الذى أستباح لنفسه أن ينسب الى الأصمعي كذباً كان أثبت من عبد الرحمن فيما نقل ياقوت. فعبد الرحمن إذن متهم في روايته، وهذا الاتهام له خطره فيما نقله عنه ابن دريد.

(١) ص ١٦٩ طبع دار الكتب المصرية، وفي معجم ياقوت ص ٩٨ ج ١ (٢) ص ٧٨ ج ٦ -

وفي نبتة الرواة أخذ عبد القاهر بن عبد الرحمن النعمان «ابن أخت» القاسري ولم يأخذ عن غيره - ٣١٠

(٣) ص ١٨ ج ١٨ (٤) وفيات الأعيان ص ٣١٠ ج ٢ (٥) ص ٣٢٢ (٦) ياقوت ص ٤٠٥ ج ١

٢ - وقد وصلت الى نصوص مهمة تين أختلاق ابن دريد وتلفيقه وثبت أنه راع معاصره بكثرة ما يروى من الأخبار حتى اضطروا الى الارتياح في أماته . ولننظر ما نقل ياقوت من خط أبي على المحسن : سألت القاضي أباسعيد السيرافي رحمه الله عن الأخبار التي يرويها عن ابن دريد، وكنت أقرؤها عليه، أكان يعلمها من حفظه ؟ فقال : لا، كانت تجمع من كتبه وغيرها ثم تقرأ عليه، وسألت أبا عبد الله محمد بن عمران المرزباني - رحمه الله - عن ذلك ، فقال : لم يكن يعلمها من كتاب ولا حفظ ولكن كان يكتبها ثم يخرجها إلينا بخطه فإذا كتبناها نرق ما كانت فيه ^(١) .

وعبارة " لم يكن يعلمها من كتاب ولا حفظ " عبارة خطيرة الدلالة على آثام ابن دريد بالتلفيق وأخذ بوضع الأفانيص .

وقال ابن خلكان في أخبار ابن دريد : " سئل عنه الدارقطني : أتق هو أم لا ؟ فقال : نكلوا فيه، وقيل إنه كان يتساع في الرواية فيسند الى كل واحد ما يحطه له " ^(٢) .

وهذا النص صريح في أن ابن دريد كان متهما بين معاصره، وأنهم أطالوا القول فيه، وأنه كان مأخوذا بعدم الثقة فيما ينسب الى الرواة، فإذا أضيف هذا الى ما حدثنا به الحصري من اختراعه الأحاديث عرفنا ان له يدا في صنع ما نسبته الى العرب القدماء .

٣ - وهناك جانب عقل من ابن دريد لابد من الإشارة إليه : ذلك أنه مع سعة علمه وقوة ذكائه كان يطمئن الى بعض الحقائق المزيفة التي يتداولها الناس، فكان يذكر أن أول من أقوى في الشعر أبو نوح آدم عليه السلام في قوله :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح ^(٣)

وهي سذاجة مطبقة أن يظن أن آدم كان يتكلم العربية حتى يؤخذ عليه أنه أول من وقع في الإقواء .

(١) ص ٢٤٨ ج ٢ (٢) ص ٣١٠ ج ٢ وفيات الأعيان . (٣) ص ١٠٢ ج ٣ ياقوت .

٤ — وهناك قصة نقلها ابن دريد عن العكلي قال :

كان لقمان بن عاد الذي عمر عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء، وكان يتزوج المرأة فخذونه ، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم تهر لها بيتا في سفح جبل وجعل له درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد ، فاذا خرج رفعت السلاسل ، حتى عرض لها فتى من العمايق فوقعت في نفسه فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنبنَّ عليكم حربا لا تقومون لها . قالوا : وما ذاك ؟ قال : امرأة لقمان بن عاد هي أحب الناس إلى . قالوا : فكيف نخالها ؟ قال : اجعوا سيوفكم ثم اجعلوني بينها وشئوها حزمة عظيمة ، ثم آتوا لقمان فقولوا : إنا أردنا أن نساقر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ، ومسمو له يوما ، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان فوضعها في ناحية بيته وخرج ، وتحرك الرجل لخلت الجارية عنه ، فكان يأتيها ، فاذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف حتى آنقضت الأيام . ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم ، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فاذا نخامة تنوس في سقف البيت ، فقال لأمرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . أنا . قال : فتنخمي ، ففعلت فلم تصنع شيئا ، فقال : يا ويلاته ! والسيوف ذهني ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فقطعت قطعاً وأخمد مفضبا ، فاذا أئنة له يقال لها صحر فقالت له : يا أبتاه ، ما شئت ؟ قال : وأنت أيضا من النساء ؟ فضرب رأسها بصخرة فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر^(١) .

ولقمان بن عاد الذي عمر عمر سبعة أنسر من الشخصيات الخرافية ، والقصة مخترعة يراد بها إثبات أن كيد النساء عظيم وأنه لا ينجو من مكرهن مخلوق . وقد تكون القصة وضعت نفسها لذلك المثل : ” ما أذنبت إلا ذنب صحر ” فهناك أمثال كثيرة جهلت موارها فاحتال الرواة وألبسوها أقاصيص جديدة تتم بها العبرة ويفهمها الناس موصولة بأسباب الحياة .

٥ — وهذا المصراع الذي دهش فيه المتأدبون من الأخبار التي كان يرويها ابن دريد كانت تجري في أشياء أخرى تدل على أن الرواة كانوا ألفوا التلفيق ، ففى ترجمة السيرافي

أن نصر بن نوح وكان من أدباء ملوك آل ساسان كتب إليه كتابا سأل فيه عن أمثال مصنوعة على العرب شك فيها ^(١) .

ولو وقفنا على تلك الأمثال المصنوعة لاستطعنا أن نفهم ما بينها وبين الأخبار التي أقتلها ابن دريد من قرب أو بعد، ولكن ذلك الكتاب ضاع كما ضاع ما قلله السيرافي من أخبار ابن دريد وفي معجم ياقوت إشارة إلى إن المحسن بن الحسين أملى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه ^(٢) . وابن خالويه هذا من تلامذة ابن دريد ، أفنستطيع أن نفترض أن تلك الحكايات قيمة أدبية، وكان ابن دريد يتخير لأخباره وأحاديثه أدق الأساليب ؟

وتعقب روح العصر له أهمية في فهم هذا الموضوع، وقد كان ابن فارس يقول : سمعت أبا أحمد بن أبي التيار يقول : أبو أحمد العسكري يكذب على الصولي مثلما كان الصولي يكذب على الفلابي مثلما كان الفلابي يكذب على سائر الناس ^(٣) ، وقد يمكن أن نقول على أساس هذه النكتة : ابن دريد يكذب على عبد الرحمن بن عبد الله مثلما كان عبد الرحمن يكذب على الأصمعي مثلما كان الأصمعي يكذب على سائر الناس !

٦ - وقد عاصر ابن دريد رجل ملفق هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد راوية ثعلب، بلغ من شهرته بالاختلاق أن قيل فيه : "لو طائر طار في الجوف لقال أبو عمر الزاهد حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي ويذكر في معنى ذلك شيئا" ^(٤) . وله حادثة عجبة دهش لها معاصروه : ذلك أن معز الدولة بن بويه قلد شرطة بندگان غلاما تركيا من مماليكه اسمه خواجا فيلح ذلك أبا عمر الزاهد وكتب على كتابه اليواقيت في اللغة فقال للجماعة في مجلس الإملاء : اكتبوا "ياقوتة خواجا : الخواجة في أصل اللغة الجوع" ثم فرغ على هذا بابا وأملأه عليهم فاستمظموا كذبه وتبعوه ^(٥) . وقد أخذ على السيرافي أنه كان يشهد كذبا إذ يكتب بخطه في ذيل

(١) ص ١٠٠ ج ٣ ياقوت . (٢) ص ٢٢٩ ج ٦ (٣) ص ٣٨٣ طبقات الصعدي

(٤) ص ١١ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٢٦ ج ٧ ياقوت .

(٦) ص ٢٧ ج ٧ ياقوت .

الكتب أنه راجعها وأنها صحيحة لشترى بأكثر من ثمن مثلها^(١) . وهذا نوع من التهاون له خطره في تقدير أمانة العلماء .

٧ — وأكبر مجموعة باقية من أخبار ابن دريد هي ما نقله عنه أبو علي الفاي في أماليه . وهذه المجموعة منقولة بصيغ مختلفة فبعضها يصل إلى ابن الكلبي وبعضها إلى الأصمعي ، وجزء منها مروى عن أبي حاتم السجستاني . والجزء الذي وصله إلى ابن الكلبي يتحدث في الأغلب عن شئون يمنية . منها ذلك الحديث الذي يصف كيف كان قيل من أقال حيرم مئيع الولد دهرًا ثم ولدت له بنت فبنى لها قصرًا مئيفًا بعيدًا من الناس وكنل بها نساء من بنات الأيال يظمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشأ وأتمه في عقلها وكلمها فلما مات أبوها ملكها أهل خلافتها فاصطنعت النسوة اللواتي ربيها وأحسنن اليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرًا دونهن ، فقلن لها يوما : ” يا ابنة الكرام لو تزوجت لثم لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضيت لطف . قالت : نعم هذا الشيء ! فقالت الثانية : الزوج شمارى حين أصدر^(٢) ، ومتكنى حين أرقد ، وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال العيش ! فقالت الثالثة : الزوج لما عانى كاف ، ولما شقى شاف ، يكفيني فقد الألف ، ريقه كالشهد ، وعناقه كالخلد ، لا يمل قرانه ، ولا يخاف حرائه . فقالت : أمهلني أنظر فيما قلتن ، وأحتجبت عنهن سبعة ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتني أملكه رقي ، وأبشه باطل وحق ، فان كان محمود الخلاق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بئيتي ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتي ، على أنه لا ينبغي إلا أن يكون كفؤًا كريمًا يسود عشرته ، ويرب نصيبته ، لا أتقنع به حارًا في حياتي ، ولا أرفع به شئارًا لقومي بعد وفاتي . فليكن قابضه ، وتفوقن في الأحياء ، فإني أمتني بما أحب فلها أجل الحياء ، وعل لها الوفاء^(٣) .

وقد عاد النساء بعد البحث فوصفت كل واحدة منهن الزوج الذي فضله في عبارات جميلة أراد بها الكاتب أن يلدن أخلاق الرجال .

(١) ص ١٥٥ ج ٣ ياقوت . (٢) من المردود هو الولد . (٣) ص ٨٠ ج ١ أمال .

٨ — وهناك أخبار أراد بها الكاتب أن يوجه قراءه وجهة علمية صرفة كحديث الرواد الذين أرسلتهم مذج حين أجذبت فقد وصف كل رائد واديا وصفا يمتاز من وصف غيره ، في عبارات مصنوعة أنيقة تؤدي ما رمى اليه الكاتب من جمع الأوصاف الحسية للوديان المعشبة^(١) . ويشبه هذا الحديث من الوجهة التعليمية ما نقله ابن دريد بسنده عن أبي عبيدة من أنه آجتمعت عند يزيد بن معاوية أبو زيد الطائي وجميل بن معمر المذري والأخطل التليي فقال لهم : أيكم يصف الأسد في غير شعر ؟ فوصفوه بالتعاقب وصفا فنيا في عبارات جزلة مسجوعة تذكركم بما رواه ابن دريد مقسوبا الى الأعراب^(٢) .

٩ — أما ما وصله ابن دريد بالأصمعي فهو في جملته يتحدث عن أهل البادية ، ومن طريقه هذه الأقصوصة التي حكاهما الأصمعي إذ قال :

”مررت بجى الربة فإذا صبيان يتقامسون في الماء ، وشاب جميل الوجه ملوح بالحجم قاعد . فسألت عليه فرد على السلام . وقال من أين وضع الراكب ؟ قلت من الحمى . قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا . قال : وأين كان بيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشافر^(٣) . فالتقى نفسه على ظهره وتنفس الصعداء ، فقلت : تفسأ^(٤) حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلدا أمسست سليعى تحله^(٥) من المزن ما تروى به وتسم^(٦)
وإن لم أكن من قاطنيه فانه يحلّ به شخص على كريم
ألا احبذا من ليس يعدل قربه لدى وان شط المزار نعيم
ومن لامنّى فيه حميم وصاحب فرد بغيط صاحب وحيم

ثم سكت سكته كالمنفى عليه فصحت بالأصبية فأتوا بماء فصبته على وجهه فافاق وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعى وأقامنى تزين بالخشوع

(١) أنظر ص ١٨٣ ج ١ أمال . (٢) راجع ص ١٨٣ ، ١٨٤ ج ٢ .
(٣) يتقامسون : يتناطون . (٤) المشافر : متابع العرج . (٥) تفسأ : تنفق .

ولى عيّن أضربها التفاتى الى الأجرع مطلقه الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسى كما أنس الوحيد الى الجيع^(١)

وفيا وصله ابن دريد بالأصمى أخبار تحبه وجهة تعليمية كحديث الأعرابي الذى وصف^(٢) بنيه والأعرابي الذى وصف قومه^(٣) والأعرابي الذى وصف المطر^(٤). وهناك حديث وصله بالأصمى وردت فيه القصة المشهورة التي روت كيف مات الشاعر الجاهل عبيد بن الأبرص وهى فى رأينا قصة موضوعة أريد بها شرح المثل المعروف « حال الجريض دون القريض » وقراءة هذه القصة تعطى فكرة عن أحتيال الكلاب والقصاصين فى إحياء اليهود الجاهلية^(٥).

أما ما ينقله ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني فهو فى الأكثر من كلام الأعراب الذين ينفذون على الحواضر كحديث الأعرابي الذى وقف بالمسجد الحرام يصف ما وقع فيه قومه من القحط ويطلب الاحسان، وهو حديث منقح يمرى بنفس اللغة التي كتبت بها أحاديث ابن دريد^(٦) وهناك حديث وصف به ما وقع من الملاحاة بين الوليد بن عقبة وعمرو بن سعيد فى مجلس معاوية وهو كذلك حديث مصنوع^(٧).

١٠ - وهناك حديث احتفل به ابن دريد ليسبق عليه ثوب الجلال، إذ ذكر أن أبا حاتم كان يرضن به ويقول « ما حدثنى به أبو عبيدة حتى آخلفت اليه مدة، وتجلت عليه بأصدقائه من التقيين وكان لهم مواخيا » وسرى مثل هذه العبارة حين ينقل التوحيدى حديث السقيفة، فالجوز واحد، وطريقة التشويق تكاد تكون واحدة عند أولئك الكلاب. وهذا الحديث مهم من حيث دلالاته على تصور كاتبه لطائفة من الأخلاق الاجتماعية فى ذلك الحين، والحديث يقع بين عامر بن الظرب السدوانى وحمة بن رافع الدوسى وقد اجتمعا عند ملك من ملوك حدير، فقال الملك تساءلا حتى أصبح ما تقولان، فقال عامر لحممة : أين تحب أن

(١) ص ٣٨ ج ١ أمال . (٢) ص ٥٣ ج ١ (٣) ص ١٣٩ ج ١ (٤) ص ١٧٢ ج ١

(٥) ارجع الى هذه القصة فى ص ١٩٩، ٢٠٠ ج ٣ من الأمال . (٦) راجع ص ١١٣ ج ١ أمال .

(٧) أنظر ص ٤٠ ج ٢ أمال .

تكون أباديك ؟ قال : عند ذى المرض العديم ، وذى انقلا الكرم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف المهضم . قال : من أحق الناس بالمت ؟ قال : الفقير المحتال ، والضعيف الصوال ، والعي القوال . قال : فن أحق الناس بالمت ؟ قال : الحريص الكاند ، والمستميد الحاسد ، والمخف الواجد . قال : من أجدر الناس بالصنعة ؟ قال : من اذا أعطى شكر ، واذا منع عنر ، واذا موطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إن قرب منع ، وإن بعد منح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمع . قال : من ألأم الناس ؟ قال : من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع . قال : فن أحلم الناس ؟ قال : من عفا اذا قدر ، وأجل اذا انتصر ، ولم تظنه عزة الظفر . قال : فن أكرم الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبد التيب درأذنيه ^(١) .

وللحديث بقية ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر . وقد لفت نظرى قوله بعد ذلك :

”قال : فن أبلغ الناس ؟ قال : من جلى المعنى المزير ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحيز“ .

فى ذلك إشارة الى أنه كان مفهوما عندهم أن الجاهلين كانوا يدركون ماهية البلاغة ويتساءلون عن الكلام البليغ .

(١) الكاند : الجاحد . (٢) نتع انقبض . (٣) راجع ص ٢٨٠ ج ٢ أ مال .

٦ - مطبات ابنه الأتباري

١ - ابن الأتباري هو أبو بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ ببغداد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر وعلوم القرآن . والذين ترجموا له ذكروا أنه كان صدوقاً ثقة^(١) . ومن شعره :

إذا زيد شرا زاد صبرا كأنما هو المسك ما بين الصلاة والفهر
لأن فئت المسك يزداد طيبه على السحق والحرأصطبارا على الضر

وأنا لا أتهمه بالاختراع . ولكنه روى أحاديث قصيرة تلوح عليها علامات الصنع ، من ذلك ما رواه أنه مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان ، فلما حمل على النعش صرّ على أعتاق الرجال ، فقال رجل في الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونهُ ولكنه أعتاق قوم تَقْصُفُ
وليس فتيق المسك ما تَجِدُونهُ ولكنه ذاك الثناء المَخْلَفُ

وعبارة : « مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان » صريحه في خلق هذه الحادثة للإشادة بنبل الاخلاق العربية .

٢ - وقد روى عن أبيه قصة طريفة فقال : كان بمكة رجل سفيه يجمع بين الرجال والنساء فشكا ذلك أهل مكة إلى الوالي فغربه إلى عرفات فاتخذها منزلاً ، ودخل مكة مستترا ، فلقى حُرّقاء من الرجال والنساء فقال : ما بمنعكم ؟ قالوا وأين بك وأنت بعرفات ؟ فقال : حار بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والتزّهة ! قالوا : نشهد أنك صادق ، وكانوا يأتونه ، وكثر ذلك حتى أقصد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم وحواشيهم ، فسادوا بالشكاية إلى أمير مكة فارسل إليه فأتى به ، فقال : أي عدوّ الله ! طردتك من حرم الله فصرت إلى

(١) وفيات الأعيان ص ٣١٩ ج ٢ و ٩١ بنية الوعاة .

المشعر الأعظم تنسد فيه وتجمع الفساق، فقال : أصلح الله الأمير يكذبون على- ويحسدوني ! قالوا : بيننا وبينه واحدة، قال : ما هي ، قالوا : تجمع حير المكارين وترسلها بعرفات ، فان لم تقصد الى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء إياه فالقول ما قال . فقال الوالى : إن فى هذا لدليلا . وأمر بحجر بجمعتم ثم أرسلت فقصدت نحو منزله فأناه بذلك أمناؤه ، فقال : ما بعد هذا شيء ، جردوه ، فلما نظر الى السياط قال : لا بد من ضربى أصلح الله الأمير ؟ قال : لا بد منه ! قال : اضرب ، فوالله ما فى هذا شيء ، أشد علينا من أن تسخر منا أهل العراق فيقولون : أهل مكة يميزون شهادة الحير ! فضحك الأمير وقال : والله لا أضربك اليوم ، وأمر بتفلية سبيله .^(١)

ولتقيد أن ما يرويه ابن الأثير لا صنعة فيه فهو يجرى فى لغة مقبولة لا يلتزم فيها السجع ولا الازدواج . ويمكن الاطمئنان الى أنه كان يتحدث عن أخبار كانت معروفة فى عصره بشئ يسير من الترتيب لم يصل قط الى مثل ما صنعه ابن دريد .

٣ - وفى مجموعة (التحفة البهية والطرفة الشمية) المطبوعة فى الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ مانصه :

ومن غرائب هذا الأسلوب وعجائبه ما أورده محمد بن القاسم الأثيرى رحمه الله قال : إن سوارا صاحب رجة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدي فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى . فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جارية أحبتها وأشتل بها فلم تطب نفسى ، فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببغلة لى فأمرجت وأحضرت فوكبتها فلما خرجت أستقبلى وكيل لى ومعه مال ، فقلت ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم جئت بها من مستغلك الجديد ، قلت أمسكها معك ، وأتبعنى . فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ، ثم مضيت فى شارع الرقيق حتى انتهيت الى الصحراء ، ثم رجعت الى باب الأثير وأتيت الى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت

فقلت للخادم : أعدك ماء تسقيني؟ قال نعم ، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها مندبل فناولني فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت ما تريد يا هذا؟ قال : إياك أريد ، قلت : فما حاجتك؟ بغاء حتى جلس إلى جانبي وقال : شمت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعم فأردت أن أحدثك بشيء ، فقلت قل ، قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت نعم ، قال هذا قصر كان لأبى فباعه ونحرج إلى نمراسان ، ونحرجت معه فزال عنا النعم التي كنا فيها وعيمت ، فقدمت هذه المدينة ، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلني به فأتوصل إلى سوار فانه كان صديقا لأبى ، فقلت ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته ، وإذا هو كان أصدق الناس إلى ، فقلت له يا هذا إن الله تبارك وتعالى قد أتاك بسوار ومنعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعد بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدرهم منه فدفعها إليه وقلت إذا كان غد فسر إلى منزلي ثم مضيت وقلت ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت إليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمرني بألف دينار فأحضرت فقال : ادفعها إلى الأعمى ، فقبضت فقال : اجلس ، فجلست ، فقال : أعليك دين؟ قلت نعم . قال : كم دينك؟ قلت خمسون ألفا ، فخذني ساعة وقال : امض إلى منزلك ، فقبضت إلى منزلي ، فإذا بخادم معه خمسون ألفا وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اقض بها دينك ، قال : فقبضت ذلك منه ، فلما كان من الغد أبطل على الأعمى وأنا في رسول المهدي يدعوني بفتته فقال : قد فكرت البارحة في أمرك ، قلت يقضى دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضا . وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى ، قال : فقبضتها وانصرفت ، فغافى الأعمى فدفعتم إليه الألف دينار ، وقلت له : قد رزق الله بكرمه وكافأ على إحسان أبيك وكافأني على إسداء المعروف إليك . ثم أعطيته شيئا آخر فأخذه وأنصرف .

وهذه القصة أطول من سابقتها ، وهي خالية من الشعر الذي حُلّيت به الأولى والفكاهة التي بنيت عليها الثانية ، وتضمن الدعوة إلى البر والمعروف بما اشتملت عليه من حسن الجزاء .

وهذا النمط من القصص الأخلاقي كان كثير القبول في القرن الثاني والثالث والرابع، ومن أشهر من كتب فيه أبو جعفر أحمد بن يوسف أحد كتاب الدولة الطولونية، وسنعود إليه في بحث خاص .

٤ — وتلك القصص المتفرقة في كتب الأدب منسوبة إلى ابن الأثيرى تدل على أنه كان مغرماً بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقي والوصفي والفكاهي، وهو منحنى طريف كما نود لو ظفرنا بما يميزه من الشواهد الواقية، ولكن في ذلك القليل المبعثر هنا وهناك ما يكفي للاطمئنان إلى أن ابن الأثيرى كانت له يد فيما نسب إلى الخلفاء والوزراء والقضاة والأعراب من طرائف القصص وروائع الأحاديث .

(١) ص ١٩٦ — ١٩٧

٧ - التواضع والزواضع

مياحة شاعر في وادي الشياطين

منى التواضع والزواضع - متى ألف ابن شهيد رسالته - متى ألفت رسالة الغفران - التشابه بين موضوع الرسالتين - كيف اتصل ابن شهيد بعالم الجن - هل كان للكتاب والمخطباء شياطين ؟ - الفكاهة في رسالة التواضع - يقال الجن وحيرهم يتناقشون ويتزنون - بنو أبي عيسى تباكم مع ابن شهيد ورسالته عن حاله وعن إخوانه - أوزة من أهل العلم والأدب تناظر ابن شهيد - حقه ابن شهيد في قتل آراء الكتاب - رأى ابن شهيد في لغة معاصريه من أهل الأندلس - توجع ابن شهيد من حقد معاصريه وحسدهم - شكواه من زمانه - غرامه بمسارعة كتاب المشرق وشماله - ملاحاة ابن شهيد لشیطان أنف الناقة - حرصه على إظهار فضله وتفوقه - إجازة الجن إياه وقد بهم له - رآه في أن البيان قطة سماوية لاصقة لها بالنور والتصرف - ابن شهيد عند قهه أشمر الناس وخاصة في الزمان .

١ - التواضع جمع تابع وتابعة وهو الجني والجنبة يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، والزواضع جمع زويدة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمي الإعصار زويدة إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء في القاموس المحيط .

٢ - والتواضع والزواضع اسم رسالة نفيسة - لم يبق منها إلا شذرات في كتاب غطوط هو النخيرة - ألّفها أبو عامر ابن شهيد الأندلسي^(١) ، ولم نجد لها صدى يذكر في كتب القدماء ، وأول من وجه نظرنا إليها هو المرحوم الأستاذ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية سنة ١٩١٥ ثم عاد الدكتور أحمد ضيف فحَقَّقَنا عنها في سنة ١٩٢٢ ومن رأى الدكتور ضيف أن التواضع والزواضع محاكاة لرسالة الغفران وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبي العلاء كانت نائمة في المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء . وأعزى حجة عند الدكتور ضيف أن عصر ابن شهيد يتدرج في عصر أبي العلاء ، فقد عاش من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٤٢٦ وعاش المعري من سنة ٣٩٣ إلى سنة ٤٤٩^(٢)

(١) انظر ترجمة ابن شهيد في الجزء الثاني ص ٣٠٢ وانظر تحليل ثره ص ٣١٠ وراجع آراءه في النقد

الأدب ص ٤٨ (٢) راجع بلغة العرب في الأندلس ص ٤٨

٣ - وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذي وضعت فيه رسالة التوايح والزوايح فلم نهند، ولكنا رأينا في الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهيل: فقد جاء على لسانه ما يشير إلى أن من إخوانه (من بلغ الإمارة وأنهى إلى الوزارة) ^(١) وألقى إليه على لسان أوزة جنية هذا السؤال:

”ما أبقت الأيام منك؟“ ^(٢)

وفي هذا السؤال إشارة إلى أنه كان ودع نصارة الشباب.

ولكن لا ينبغي أن نتخذنا هذه التماير، فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب، فقد حدثنا في (التوايح والزوايح) أن الجن قالوا له: ”قد بلغنا أنك لا تجارى في أبناء جنسك، ولا يمل من الطعن عليك، والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك؟“ وأنه أجاب ”جاران دارهما صعب، وثالث نابتة نوب، فأمتطى ظهر النوى، وألقت به في سر قسطه العصا، انتضى على لسانه عند المستعين، وساعدته زرافة من الحاسدين ... الخ“ ^(٣)

وهذا الكلام يشعر بأنه كتب هذه الرسالة في عهد المستعين. والمستعين هذا هو سليمان ابن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى، الذى بويج بقرطبة منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ بعد مقتل عمه هشام بن سليمان وجئدت له البيعة سنة ٤٠٣ ثم مات مقتولا سنة ٤٠٧ ^(٤)

ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة (التوايح والزوايح) كتبت بين سنة ٤٠٣ وسنة ٤٠٧ هذا جانب من المسألة، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وضعت فيه رسالة الغفران. وقد بحثنا طويلا في كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعزى رسالة الغفران فلم نهند، ولكنا وصلنا بعد التأمل إلى تقريب التاريخ، ذلك أن رسالة الغفران جواب على

(١) القسيرة ج ١ ص ١٥٢ (٢) القسيرة ج ١ ص ١٣٨ (٣) في القسيرة تفاصيل مزينة

لما وقع بين المستعين وبين هشام بن سليمان، وصور شعبة لما كان يجرى في الأندلس من اشتغال الفتنة واعتلاء الصبية

لذلك العهد - أنظر ص ١٧ - ٢٤ ج ١

رسالة ابن القارح، وقد عدنا الى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى انتهينا الى قوله :
 "وكيف أشكو من قاتني وعاتني نيما وسبعين سنة"^(١). فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين،
 ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فإذا أضفنا الى هذا الرقم - ٧٠ - وجدناه كتب رسالته
 حوالي سنة ٣٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالي سنة ٤٢٢ ؛ وإذا قدرنا
 أن ابن القارح قال نيما وسبعين، وللتيف دلالة، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الاجابة
 بأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٢٢ و ٢٤^(٢)

ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التواضع والزواضع بنحو عشرين سنة،
 وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين أقترض أن ابن شهيد قلد أبا العلاء،
 وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلد ابن شهيد، وكما كان الأندلسيون يقلدون
 أهل المشرق في كل شيء كان أهل المشرق يحرمون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية
 في الأندلس، بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت في الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن
 يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران .

٤ - والواقع أن التشابه تام بين الرسالتين ، فالموضوع واحد وهو عرض المشاكل
 الأدبية والعقلية بطريقة قصصية ، والخلاف في جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين :
 فأبو العلاء يحرص أولا وقبل كل شيء على عرض المعضلات الدينية والفلسفية، وأبن شهيد
 يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية، ويتفق كلا الرجلين على التعمير بمعاصريه
 وشرح ما أخذ على المتقدمين من أساطين العقل والبيان . والمشرح واحد تقريبا : فهو عند
 ابن شهيد وادى الجنى في الدنيا، وهو عند أبي العلاء وادى الإنسان في الآخرة : أى الفردوس

(١) رسائل البلاء ص ١١٢ (٢) بعد تحرير هذه المسألة وصلنا الى نص في رسالة الغفران يدل على أنها
 كتبت سنة ٤٢٤ إذ يقول المعري : " ولا يجوز أن يغير غير مائة سنة أنت أمير طرب حرمها الله في سنة
 أربع وعشرين وأربع مائة اسمه فلان ابن فلان " راجع ص ٤٨ ج ٢ من الطبعة الثانية لرسالة الغفران شرح الأديب
 كامل بكلاحي .

والجهم . فالمثلون عند ابن شهيد جن يسخرون الناس ، وعند أبي العلاء إنس تسخروهم الملائكة والشياطين ، وكان لكل إنسان في عرفهم ملك وشيطان .

٥ — وجه ابن شهيد رسالته الى أبي بكر بن حزم فين في فاتحتها أنه كان في حدائته يمن الى الآداب ويصبو الى تأليف الكلام ، فأبتاع الدواوين وجلس اني الأساتيد فنبض فيه عرق الفهم ونزله شريان العلم وأنه كان له في أوائل صباه هوى أشد له كلفه ثم لحقه ملل في أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كان يهواه مدة ذلك الملل بفزع وأخذ في رثائه فقال :

تولى الجسم بظلي انحدور وفاز الردى بالفرزال الغرير

الى أن انتهى الى الاعتذار من الملل الذى كان فقال :

وكنت مللتك لا عن قل ولا عن فساد ثوى في الضمير

ثم أرتج عليه فاذا هو بفارس بباب المجلس على فرس أدهم قد آتكا على رعجه وصاح به :
”عجز ياتى الإنس؟“ .

فاجاب : ”لا وأبيك ! للكلام أحيان وهذا شأن الإنسان“ فقال : قل بعده :

كثل ملال الفتى للنعم اذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته وقال : ”وأي من أنت؟“ قال : ”زهير بن نمر من أشجع الجن ، تصورت لك رغبة في أصطفائك“ .

فقال ابن شهيد : ”أهلا بك أيها الوجه الواضح ! صادفت قلبا اليك مقلوما ، وهوى تحرك مجنونا“^(١) وهنا يتلقى ابن شهيد فيقص علينا أنهما تعادتا وتذاكرا أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يالفهم من التوايح والزواج وأنه سأل صاحبه زهير بن نمر أن يمثال له في لقاء من اتفق من الشياطين ، فيمضى زهير ليستأذن شيخ الجن ويعود وقد أذن له فيركب ابن شهيد مع صاحبه على متن الأدهم ويسيران كالطير يمتاب الجن فالحق ، ويقطع الدوفالذو ، حتى يلما

أرضاً لا كأرضنا، ويشارقوا جواً لا بجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر . وهناك يقول الجن مخاطباً ابن شهيد :

”حلت أرض الجن، أبا عامر؟ فبمن تريد أن -بأ-“ .

فيجيب ابن شهيد :

”الخطباء أولى بالتقديم، ولكنى الى الشعراء أشوق“ .

ومن هنا نفهم أنه كان للخطباء والكتاب شياطين، كما كان للشعراء شياطين، وهذه أول مرة أرى فيها أن العرب كانوا يعتقدون وجود شياطين للكتاب والخطباء، وقد حدثنا ابن شهيد أنه صادف في أرض الجن شيطان الجاحظ، وشيطان بديع الزمان، وشيطان عبد الحميد . فهل كان العرب يرون ذلك أم هو اختراع ابن شهيد^(١) ؟

٦ - رسالة التوايع قيمية جداً ومؤلفها خفيف الظل الى حد بعيد، وقد وقعت له فيها فكاهات تبث الأناث الى النفس، من ذلك ما قصه علينا من أنه أشرف بأرض الجن ”على قرارة عيناء، تغتر عن بركة ماء، وفيها عانة من حمر الجن وبغالها قد أصابها أولق^(٢) : فهي تصطك بالحوافر، وتتفخ من المناسخ، وقد أشدت ضراطها، وعلا شحيجها ونهاقها“ . فلما بصرت بهم أجفلت اليهم وهي تقول :

”جاءكم على رجلية“ .

فأرتاع ابن شهيد وبسم زهير وقد عرف القصد وقال له : تها للحكم . قال ابن شهيد : فلما لحقت بنا بدأتني بالتفدية، وحيثى بالسكينة . فقلت : ما انخطب، حى حماك أيتها العانة وأخصب مرعاك ! قالت : شران لبغل وحمار من عشاقنا أختلفنا فيهما وقد رضىناك حكماً . قلت : حتى أسمع ! فتقدمت الى بقلة شبها عليها

(١) في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٥٩ ما يفيد أنه كان للكهان شياطين، وكان فيهم الكتاب والخطباء..

(٢) الألق : الجنون .

جلها وبرقها لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء البجلة ومخف الحركة — فقالت :
الشعر ليفل من بغالنا وهو :

على كل صبّ من هواء دليل	سقام على جدّ الهوى ونحو
وما زال هذا الحب داء مبرحا	إذا ما أعتري بتلا فليس يزول
بنفسي التي أما ملاحظ طرفها	فسحر وأما خدها فأسفل
تعبت بما حملت من ثقل حبها	واني لبفل للثقال حمل
وبا نلت منها نائلا غير أني	إذا هي بالث بلت حيث تبول

والآخر للذين الحمار وهو :

دهيت لهذا الحب منذ هويت	وراثت إراداتي فلست أريث
كلفت ببالتي منذ عشرين حجة	يجول هواها في الحشا ويعيث
وغير منها قلبها لي نيممة	نماها أحم النخصيتين خيث
وما نلت منها محرما غير أني	إذا هي راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : فاستضحك زهير وتماسكت وقلت للنشدة : ما هويت ؟ قالت :
هويت بلغة الحمير ! قلت والله إن اللوث لأرحمة كريمة ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم
في الشعرين ! فقالت : فهمت عنك ، وأشارت الى العانة أن ركبنا مغلوب . وأنصرفت
قائمة راضية ^(١) .

٧ — وسفر عن هذه الفكاهة نكتة أبدع وأظرف إذ يقول ابن شهيد :

”وقالت لي البجلة : أما تعرفني ، أيا عامر ! قلت : لو كان ثم علامة ! فأماطت لثامها
فإذا هي بجلة أبي عيسى . والحال على خدها ، قبا كينا طويلا ، وقد أخذنا في ذكر أيامنا
فقالت :

ما أبقت الأيام منك ؟ قلت : ما ترين ! قالت شبَّ عمرو عن الطوق ! وما فعل الأُحبة ؟

قلت : شبَّ الغلمان ، وشاخَ الفتيان ، وتكرت الأخلاق ، ومن إخواننا من بلغ الإمارة ، وأتتهى إلى الوزارة . فتفتت الصُّعداء وقالت : سقام الله سبيل العهد ، وإن حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود ! بحمرة الأدب إلا أفرأتهم سلامي ! قلت : كما تأمرين .

٨ - وهناك فكاهة من مبتكرات ابن شهيد تدل على فهمه لعالم الطير كما دلت الفكاهات الماضية على فهمه لعالم الحيوان ، ذلك أنه يتحدثنا عن أوزة كانت في البركة بالقرب منهم :

” أوزة بيضاء شحلاء في مثل جثان النعامة ، كأنما نُزَّ عليها الكافور ، أولست غلالة من دمقس الحرير ، ... في ظهرها صفاء ، ثلثي سالفها وتكسر حدقتها ، وتلولب قُعدوتها ، فترى الحسن مستعاراً منها ، والشكل مأخوفاً عنها “ .

وقد صاحبت تلك الأوزة بالبخل :

” لقد حكمت بالهوى ، ورضيت من صاحبكم بشير الرضى “ .

فيسأل ابن شهيد صاحبه : ما شأن هذه الأوزة ؟ فيجيبه : ” هي تابعة لشيخ من مشيختكم تسمى العاقلة ، وتسمى أم غفيف ، وهي ذات حظ من الأدب فأستعد لها “ .

فيقول لها ابن شهيد : ” أيتها الأوزة الجميلة ، المريضة الطويلة : لجمال صفتك باعتبار منكبك ، واستقامة جناحك ، وطول جديك ، وصغر رأسك ، تقابلين الضيف بمنزل هذا الكلام وتلقين الطائر الغريب بنسبه هذا المقال ، وأنا الذي همت بالأوزة صباية ، وأحتملت في الكتاب بها غرض كل مقالة ، وأنا الذي استرجعتها للوطن المألوف ، وجبته إلى كل غطريف ، فاتخذتها السادة بأرضنا ، وأستهلك عليها الطرغاف منا ، ورضيتُها بدلاً من المصافير ، ومتكلمات الزرازير ، ونسيتُ لذة الحمام ، وتغار الديوك ، ونطاح الكباش “ .

عند ذلك داخلها العجب من كلام ابن شهيد ، ثم تدفعت وقد أعترتها خفة شديدة في مائها ، فمرة ساجحة ، ومرة طائرة ، تنطس هنا وتخرج هناك ، وهذا الفعل معروف في الأوز عند الفرج والمرح . ثم مكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها وقالت لابن شهيد :

”أيها الغار المغرور! كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول؟ ما الذي تحسن؟“
ثم يلاحها وتلاحه حول الشعر والخطابة والنحو والغريب إلى أن يسألها : يا أم عفيف !
بالذي جعل رداءك ماء ، وحشا رأسك هواء ، أيهما أفضل؟ الأدب أم العقل؟ فتجيب :
بل العقل . فيقول ابن شهيد : وهل تعرفين في الخلائق أحق من أوزة؟
فتجيب : لا !

فيقول : فتطلي عقل التجربة إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة !^(١)

٩ — وابن شهيد في رسالته التواضع مغرم بأن ينطق الجن بالآراء التي كان يحرص عليها من يُسبون اليهم . من ذلك أنه حين اتصل بابي عينية عتبة بن أرقم شيطان الجاحظ سمع منه هذا الملام :

”إنك خطيب وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرم بالسجع فكلامك لا تُثر“ . وهذا هو مذهب الجاحظ الذي كان يؤثر الكلام المرسل على المسجوع ويميل في ثره إلى المقابلة والأزدواج .

١٠ — وقد ساق هذه المناسبة ابن شهيد إلى أن يعلن رأيه في لغة معاصريه من أهل الأندلس فيقول :

”ليس هذا — أعزك الله ! — مني جهلاً بأن السجع ، وما في الماثلة والمقابلة من فضل، ولكنني علمت بيلدي فرسان الكلام، ودهيت بضاوة أهل الزمان، وبالخرى أن أحدثهم

(١) رابع ص ١٥٢ و ١٥٣ (٢) ص ١٣٥ (٣) في الأصل ”بأن“ وهو تحريف ، والأفنى سناء العيب ، وهي لفظة يستعملها ابن شهيد . رابع ص ١٣٨ من الفخيرة .

بالأزدواج . ولو فرشت للكلام فيهم طوله ، وتحركت لم حركته ، لكأن أرفع لى وأوج في قلوبهم^(١) .

فيدهش الجنى ويقول :

”أهنا على تلك المناظر، وكبير تلك المحابر، وجمال تلك الطيالس ؟“ .

فيجيب ابن شهيد : ”نعم ! — أنا يعني الشجر، وليس له ثمر ولا عتر“ فيقول الجنى : كيف كلامهم بينهم ؟ فيجيب ابن شهيد ليس لسببويه فيه عمل ولا للفراهدى إليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، إنما هي لكنة يؤدون بها المعاني تأدية المحوسى والنبطى^(٢) .

فيصيح الجنى : إنا لله ! ذهبت العرب كلامها، إرهمم بسجع الكهان فمضى أن ينفعك عندهم ، وبطيرك ذكرًا فيهم ، وما أراك مع ذلك إلا تقيل الوطأة عليهم كرية المحبى^(٣) !

١١ — وفي تضاعيف الرسالة فقرات تشعر بأن ابن شهيد كان مبتلىً بمحمد معاصريه وحسداهم وإسرافهم في الكيد له والنقض من شأنه ، فقد حدثنا أنه قرأ على الجن رسالة في وصف الحلواء فاستحسنوها وقالوا :

”إن لسجعت موضعا من القلب، ومكانا من النفس، وقد أعمرت من طبعك، وحلاوة لفظك، وطلاوة سوقك، ما أزال أفنه، ورفع غبته، وقد بلغنا أنك لا تجارى في أبناء جنسك، ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك، فمن أشدتم عليك“ ؟

”وهنا يجيب ابن شهيد بأن أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره، وثالث امتلأ ظهر النبى، فألقت به في سرقسطه : حيث يتفضى عليه لسانه عند المستمين ، وتساعده على إفكه زرافة من الجاسدين“ وأنه أنشد في أولئك الأعداء :

وبلّغت أقواما تجيش صدورهم على ولانى منهمو فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فاستمعت مُعجزا وغطصوا على سرى فأعياهمو أمرى^(٣)

١٢ - ولا يكفى ابن شهيد بإعلان حزنه لتحامل معاصريه، بل يضيف الى ذلك صرخته من عدوان زمانه فينطق الجن - وقد أستجدوا شعره - بهذه الكلمة الموجهة :
 "ما أنت إلا محسنٌ على إساءة زمانك!"^(١)

١٣ - وابن شهيد مغرم بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه، حريص على التفوق عليهم، فقد حدثنا أنه قابل بأرض الجن "زبد الحقب" شيطان بدیع الزمان فقال له : اقترح علي وصف جارية فوصفها، فقال له الجنى : أحسنت! فقال له ابن شهيد : أسمى وصفك للاء . فقال الجنى : ذلك من العمم "يريد أنه معنى لا تمكن معارضته" ثم أطلق يقول : "أزرق كمين السُّنور، صاف كقضب البلور، انتخب من الفرات، وأستعمل بعد البيات ، فكان كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة"^(٢) .

ويعارضه ابن شهيد فيقول :

"أظفر يا سيدي كأنه عصير صباح، أو ذوب قرلياح، ينصب من إنائه، إنصباب الكوكب الدرى - من سمانه، العين كأنونه، والقمر عفرينه ، كأنه خيط من غزل فلق، أو مخرصة ضربت من ورق، يرفع عنك قروى، ويصدع به قلبك فتعياً"^(٣) .

عندئذ ضرب شيطان بدیع الزمان الأرض برجله فانفجرت له عن عين تدهدى إليها فاجتمعت عليه وغاب وهو نخيل خزيان !

١٤ - ولم يقف الزهو بابن شهيد عند إعلان التفوق على كتاب المشرق ، بل مضى يحدثنا أنه ناوش شيطان أنف الناقة وأتصر عليه بحيث علت أنف الناقة كآبة ، وأخلط كلامه ، وبدت منه ساعثذ يواد في خطابه رحمه لما من حضر، وأشفق عليه منها من نظره، فشمر له عن ساعد قتي من الجن كان الى جنب أنف الناقة وقال :
 "وهل يسوء قريحتك، أو ينقص من بديتك، لو تجافيت لأنف الناقة وجُدت له، فانه على علاته زى علم، وزنيل فهم، وكنف رواية ؟"^(٤) .

فقال ابن شهيد لصاحبه زهير : من هذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحب أبي إسحاق ابن حمام جارك .

فقال له ابن شهيد : رقا على أخيك بغرب لسانك ! وهل كان يضر أنف الناقة ويتقص من علمه ، ويقل شفر فهمه ، أن يصبر لي على زلة تزبه في شعر أو خطبة : فلا يتف بها بين تلاميذه ويصطليها طرمضة من طراميده !

فقال الفتى الجنى : إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم في الندرة .

فيقول ابن شهيد : إنها المرة بعد المرة ^(١) !

ثم يحنثها وهو مزهو مفتون أن أساطين الجن حاروا في أمره فلم يدروا : أشاعر هو أم خطيب ، وأنهم أنصروا والأبصار إليه ناظرة ، والأعناق نحوه مائلة .
ومثل ابن شهيد في عبقرته يسخر في مثل هذا الفتون !

١٥ - ويتصل بحرص ابن شهيد على إظهار تفوقه وفضله ما نراه في غير موطن من التواضع من النص على أن زعماء الجن أجازوه ، وبلغ الأمر بأحدهم أن قن بيت من شعره فقام يردده ويرقص ، قال ابن شهيد :

ثم أفاق وقال : " والله هذا شيء لم تلمحه نحن ، ثم أستدثاني فدنوت منه فقبل بين عيني وقال : اذهب فانك مجاز على بظر أم الكاره ^(٢) ! " .

وأولئك الكارهون هم بالطبع من عالم الإلص ، يضاف إليهم من نالوا من زعماء الجن .
١٦ - وفي رسالة التواضع إشارة لطيفة إلى رأى ابن شهيد في اليان وهو يعتقد أن البيان نعمة سماوية لا صلة بينها وبين معرفة الصو والتصرف ، فليس يكنى أن يختلف الإنسان إلى الأساتذة يتلقى عنهم ، وليس ينبغي أن يراجع الكتب والنوادر ، وإنما يجب أن تكون هناك فطرة سمحة وطبيعة نجيحة يصدر عنها الثر الجيد والشعر البليغ ^(٣) .

(١) راجع ١٤١ و ١٤٢ ص (٢) ١٣٣ (٣) مجد آراء ابن شهيد في النقد الأدبي مبسطة بالجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٤٨ - ٥٨

وفي هذا يحدثنا ابن شهيد أنه أصطدم في وادي الجن بشيطان أنف الناقة وأنه أستطال على ذلك الشيطان وقال له : طارحنى كتاب الخليل وشرح ابن درستويه . فقال الجنى :
 ”دع عنك هذا، أنا أبو اليان“ .

فقال ابن شهيد لأهأ لله ! إنما أنت كفن وسط لا يحسن فيطرب، ولا يحى، فليحى .
 قال الجنى :

”لقد علمته المؤذّبون“ .

فقال ابن شهيد .

”ليس هو من شأنهم، إنما هو من تعليم الله حيث يقول : ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ . ليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، حتى يكون نفسك من أنفاسك، وقلبك من قلبك، وحتى نتناول الوضع قترضه، والرفع قترضه، والقيح فتحسنه“^(١) .
 ومعنى هذه الفقرات أن اليان شيء آخر غير الكلام المفيد، فمن الناس من تقرأ له فلا تحمده ولا تثمه، وشرك الكلاب من يبرون على القراء فلا يكون لهم قاذح ولا ماذح ولا عدو ولا صديق .

ولا عيب فيما رآه ابن شهيد إلا أنه قدّم له شواهد في وصف الثعلب والبرغوث تدل على ذكاء ولكنها بعيدة عن سحر اليان^(٢) .

١٧ - في رسالة التوايح إشارات كثيرة تدل على رأى ابن شهيد في شعره، وهو عند نفسه أشعر الناس وخاصة في باب الرثاء، فإن الجن حين يطارحوته الشعر يسألونه عن مرثيته، وإلى القارئ نموذجاً مما اختاره من شعره في الرثاء :

أف كل عام مصرعٌ لعظم

فكيف لقائي الحادثات إذا سطت

أصاب النجا حادثي وقدي

وقد قل سيفي منهمو وعزبي

(١) ص ١٣٩ (٢) راجع أوساه لثعلب والبرغوث في الخزنة ص ١٣٩ ج ١ وخبة الهرم ص ١٣٩ ج ١

وكيف أعتدائي في الخطوب اذا دجت وقد فقدت عياني ضوء نجومى
مضى السلف الوضاح إلا بقيّة كفرة مسودّ القميص بهيم
أما وأبى الأيام لولا اعتداؤها لظاهرتُ في ساداتها بقروم
وقارعت من بينى قراعى منهمو بأحلام بطش أو بطيش حلوم
أنا السيف لم يتمب له كف ضارب صروم اذا صادفت كف صريم
سعت بأحرار الرجال نفائى رجال ولم أنجد يجد عظيم
وضيعنى الأملاك^(١) بدما وعودة فضضعت بدار منهمو وحریم^(٢)

(١) الأملاك : الملوك . (٢) في قيمة الدهر طائفة صالحة من شمر ابن شيبه تجدها في الصفحات

٨ - الانسان والحيوان أمام محكمة الجبه

١ - تلك رسالة كتبها جندى مجهول من رجال الفكر والبيان الذين كتبوا رسائل إخوان الصفاء . وكاتبنا هذا رجل متفوق في علم الحيوان ، ورسائله عن محاكمة الانسان أمام محكمة الجن لبطشه بالحيوان تجرى مجرى القصص الطريف . ولكن هذا القصص يدور حول محور واحد هو شرح طبائع الطير والحيوان ، ولذلك نرى الكاتب يبدئ ويبيد في الكلام عن خواص الكائنات الحية التي آسبت بها الانسان ، وينطلق فيسرد طبائعهما جلوسا جلوسا ، ثم يمضى فينطقها بما أودعت غرائها من ضروب الأسرار ، ولا يزال يمعن في الدرس والبحث حتى يمكن القارئ من معارف جمة طريقة تشوق العقل والخيال .

٢ - وكاتب هذه الرسالة متأثر بكاتب كلية ودمنة ، وآبة ذلك أنه أختار كلية رئيسا لوفد السباع^(١) . ووصفه بأنه " كلية أخو دمنة " وهنا أخطأ الكاتب خطأ فنيا ، فإن الخرافة تحدثنا أن كلية مات حزنا على دمنة بعد أن أودع دمنة السجن زمنا رهن المحاكمة جزاء بما كسبت يدها من الدس لشربة الذي راح فريسة لدسائسه ومكايد . وكان ذلك قبل الاسلام بآماد طوال ، على حين وقعت محاكمة الانسان أمام محكمة الجن بعد أن ظهر الاسلام وخضع الجن لتعاليم القرآن .

٣ - وقصة المصومة بين الانسان والحيوان نتلخص في أن بنى آدم كانوا في بداية الحياة قلقين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش في الأرض ، وكانوا يأوون في رءوس الجبال والتلال ، وفي المغارات والكهوف ، وكانوا يأكلون من ثمر الأشجار وبقول الأرض وحب النبات ، ويسترون بأوراق الشجر من الحر والبرد . ثم تحضرنا فبنوا المدن

والقرى والحصون . ثم سحروا من الأنعام البقر والغنم والجمال ، ومن البهائم الخيل والبقال والحمير ، وقيدوها وأججوها وصرفوها في مآربهم من الركوب والحمل والدراس ، وأصبوها في استخدامها ، وكلفوها أكثر من طاقتها ، ومنعوها من التصرف في مآربها ، بعد ما كانت مُحَلَّة في البرارى والآجام والفياض تذهب وتجي ، حيث أرادت في طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها . ونفرت منهم بقيتها من حر الوحوش والفزلان والسباع والطيور بعد ما كانت مطمئنة في أوطانها وأماكنها ، وهرت من ديار بني آدم الى البرارى البعيدة ، والآجام والدَّحَال^(١) ورءوس الجبال ، وشمر بنو آدم في طلبها بأنواع من الحيل والقصص والشباك والفتخاخ ، وأعقد بنو آدم أنها عبيد لهم هربت وخلعت الطاعة وعصت . ومعنى الأمر على ذلك الى أن ظهر الاسلام وخضع له فريق من بني الجان .

٤ - وأتفق أن ولي أمر المسلمين من الجن ملك يقال له " يراست الحكيم " ولقبه " شاه مردان " وكانت دار مملكته مردان في جزيرة يقال لها " صاغون " في وسط البحر الأخضر مما على خط الاستواء ، وهي جزيرة طيبة الهواء والترية ، فيها أنهار عذبة ، وعيون جارية ، وهي كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياح والأشجار والرياحين والأشجار . وحدث أن طرحت العاصفة في وقت من الزمان مركبا من سفن البحر الى ساحل تلك الجزيرة ، وكان في المركب قوم من التجار والصناع وأهل العلم وأغنياء الناس ، فخرجوا الى تلك الجزيرة وقُتوا بما فيها من الفواكه والبقول والرياحين ، وصادقوا ما فيها من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوام والحشرات في أفقة لا يشوبها تنافر ولا شقاق . وأستطاب القوم المقام في تلك الجزيرة وبنوا هناك وسكنوا ، ثم أخذوا يتعضون لما فيها من البهائم والأنعام ليستخروها فيركبوها ويحملوا عليها أمتاعهم على المنوال الذي كانوا يفعلون في بلدانهم ، ففقرت منهم وهرت ، وشمروا في طلبها لاعتقادهم أنها عبيدٌ خرجت عن

(١) الدحل جمع دحل بالفتح ويضم ، وهو قبة ضيق ته ، منح أسفل حتى يمشي فيه . (٢) هكذا أتيها الكتاب . والفرنسيون ينطقونها سيجون Saigon وسألت أحد الصينيين فأخبرني أنهم ينطقونها " سيكون " .

طاعتهم . فلما رأت تلك البهائم رغبتهم في استعبادها جمعت زعماءها وخطبائها وذهبت الى يراست الحكيم ملك الجن وشكت اليه ما لقيت من جور بني آدم ، فبعت ملك الجن رسولا الى أولئك القوم ودعاهم الى حضرته ، فذهبت طائفة من أهل ذلك المركب الى هناك ، وكانوا نحو من سبعين رجلا من بلدان شتى . وبذلك تبدأ قصة الحكيم ^(١) .

٥ — وأول ما ينبغي ملاحظته في هذه المحاكمة هو روح الفكاهة الذي يظهر من فصل الى فصل . ومن أمثلة ذلك أن زعيم الإنس استدل على حقهم في تسخير الحيوان بهذه الآيات ﴿ وإلنا نعم خلقها لكم فيها دنف ومانافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... وعليها وعلى الفلك تحملون ... وانخليل والبقال والحسير لتركبوها وزينة ... لتستوها على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ﴾ .

فلما طلب ملك الجن من زعماء الحيوان أن يجيئوا على هذه الآيات قام البغل فقال :
” ليس في شيء مما قرأ هذا الإنسي من آيات القرآن ، أيها الملك ، دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم ، إنما هي آيات تذكر بإنعام الله عليهم وإحسانه فقال : ﴿ سخرها لكم ﴾ . كما قال : ﴿ سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح ﴾ . أفقرى أيها الملك أنها عبيد لهم وأنهم أربابها ؟ “ .

ومن ظريف الفكاهة أن الثعبان وقف يتحدث عن مصير الحشرات والموثمات في المحاكمة فبدأ له أن أكثرها صم بكم عى بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا متقار ولا مخلب ، ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صوف ، وأن أكثرها امرأة حفاة ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوة .

وهنا يحدّث المؤلف أن الثعبان أدركته الرحمة والشفقة والرأفة ورّق قلبه فدمعت عيناه

من الخزن !

(١) راجع ص ١٧٣ — ١٧٦ ج ٢ .

(٢) ص ١٧٧

٦ - وفي الرسالة فقرات تدل على أن المؤلف مأخوذ بفلسفة اليونان، وأنظر هذه الكلمة فهي تذكر بنظرية المثال التي شرحها أفلاطون :

”ثم أعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والمياكل والصفات التي تراها في عالم الأجسام وجواهر الأجرام هي مثالات وأشياء وأصباغ لتلك الصور التي في عالم الأرواح ، غير أن تلك نورانية شفافة وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه الى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التي على وجوه الألواح وسطوح الجيطان الى هذه الصور والأشكال التي عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور التي في عالم الأرواح محرركات وهذه متحركات ، والتي دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات ، وتلك ناطقات معقولات وروحانيات غير مرنثبات بأقيات^(١) .

٧ - وفي الرسالة أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ، ويستطيع الباحث أن يستخرج منها ضروب الملابس والعادات إن بدا له أن يضع قصة تمثيلية تقع حوادثها في القرن الرابع ، فالهندي لذلك المهد كان ”طويل القبة ، موفور الشعر ، متوشحاً بazar أحمر على وسطه“^(٢) والعبراني من أهل الشام كان ”يرتدى برداء أصفر ويده مدرجة ينظر فيها ويرمزرم“^(٣) والسرياني من آل المسيح كان ”يلبس ثياباً من الصوف وعلى وسطه منطقة من السيور“^(٤) والقرشي كان ”يلبس ثوبين : رداء وإزاراً ، شبه المحرم“^(٥) واليوناني ”كانت على رأسه مشدنة“^(٦) ولم يمين المؤلف ثياب الفارسي وإن كان وصفه بحسن الهندام^(٧) ، وكذلك وصف مندوب العراق^(٨) .

٧ - أطلق المؤلف زعماء الوفود بحامد أهمهم ، ثم أطلق صاحب العزيمة من وزراء الحق بمساوى تلك الأمم . فندوب الهند يفتخرون بأن الله بعث في بلاده الأنبياء وجعل أكثر أهلها الحكماء ، وخصهم بالسحر والعزائم والكهانة ، فيقول الجن وهو يحاوره : ”لو أعمت

(١) ص ٢٢٢ (٢) ص ٢٢٦ (٣) ص ٢٢٧ (٤) ص ٢٢٨ (٥) ص ٢٢٩

(٦) ص ٢٤٠ (٧) ص ٢٤٢ (٨) ص ٢٢٤

الخطية وقلت : ثم بلينا بحرق الأجساد وعبادة الأصنام والقردة وكثرة أولاد الزنا وأسوداد الوجوه ! ^(١) .

والعبراني يفاخر بأن الله أصطفى إسرائيل ومن ذريته موسى بن عمران الذي فلق البحر وأغرق فرعون ، وأن الله أنزل على بني إسرائيل المن والسلوى وجعلهم ملوكا وأعطاهم ما لم يعط أحدا من العالمين . فيقاطعه الجني : "نسيت ولم تقل : وجعل منا القردة والخنزير وعبدة الطاغوت ! " ^(٢) .

ويفاخر السرياني بأن الله أخذ من العذراء البتول جسد الناسوت ، وقرن به جوهر اللاهوت ، وأبده بروح القدس ، وأظهر على يده المعجائب ، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطيئة ^(٣) .

فيضيف الجني : "قل أيضا : فما رعايتها حق رعايتها وكفرنا وقتلنا ثالث ثلاثة ، وعبدنا الصليبان ، وأكلنا لحم الخنزير في القربان ، وقتلنا على الله الزور والبهتان ؟ " .

ويتكلم القرشي فيذكر أن الله خص أمته بخير الأديان وأكرمها بتلاوة القرآن ووصوم شهر رمضان . فيقول له الجني : "قل أيضا : إنا رجعنا بعد وفاة نبينا مرتدين ، وقتلنا الأئمة الخيبرين ، طلبا للدنيا بالدن" .

وفي هذه الفقرة يعبر المؤلف عن نزعة دينية كان يناصرها إخوان الصفاء .

ويخطب مندوب العراق فيذكر أن الله خص قومه بأوسط البلاد مسكا وأطيبها هواء ، وأكثرها أنهارا وأشجارا وثمارا ، وأن الله فضلهم على كثير من خلقه : فمنهم نوح وإدريس وإبراهيم ، ومنهم كان الملوك الذين سيطروا على العالم القديم . فيقول الجني : "ومن عندكم خرج الطوفان ، ومنكم كان نمرود الجبار ، وبخت نصر محرق التوراة وقاتل أولاد سليمان وآل إسرائيل" ^(٤) .

ويتقدم مندوب اليونان فيفانر بأن الله خص بلادهم بكثرة البقول ، وخص قومه برحمان العقول ، ودقة التمييز ، وجودة الفهم ، وكثرة العلوم والصنائع والطب والهندسة والنجوم وعلم تركيب الأفلاك ، ومعرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصد والطلسمات ، وعلم الرياضيات والمنطقيات والطبيعات والإلهيات .

وهنا ينهض الجنى فيقول :

”من أين لكم هذه العلوم والحكمة التي ذكرتها وأفتخرت بها؟ لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس ، وبعضها من أيام مسيطوس ، فنقلتموها إلى بلادكم ، ونسبتموها إلى أنفسكم“^(١) .

وفي هذه النقطة يحاول المؤلف أن يثبت أن العلوم قديمة أخذها بعض الأمم عن بعض ، وهو بهذا يدفع طغيان الثقافة اليونانية التي كان أشياؤها يتزودون إذ ذاك في الأقطار الإسلامية . وإنه ليدكر أن ملك الجن نظر إلى اليوناني وسأله : ماذا تقول؟ وأن اليوناني أجاب :

”صدق الحكم فيما قال؛ فإذا أخذنا عنهم فإن علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض ، ولو لم يكن كذلك فنحن أين للفارس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصد ، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند ؟ ومن أين كان لبني إسرائيل علم الحيل والسحر والعزائم ونصب الطلسمات واستخراج المقادير ، لولا أن سليمان عليه السلام أخذها من خزائن علوم سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغة العبرانيين وإلى بلاد الشام وكانت مملكته في بلاد فلسطين“^(٢) ؟

٩ - وقد أجاد المؤلف إنطلاق زعماء الشعوب فوضع على لسان كل خطيب تعابير تميز ما لقومه من الأنفاق في العلوم والفنون ، ومن أعطف ما جاء من ذلك قوله على لسان مندوب اليونان :

”الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي كان قبل الميولي ذات الصورة والأبعاد ! الحمد لله الذي أفاض من جوده العقل الفعال ! الحمد لله الذي أنتج من نوره العقل في جوهر

النفس الكلية ! الحمد لله الذى أظهر من قوة النفس عنصر الأكوان ذوات الهوى والكبان !
الحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات، الموكل بدورانها النفوس والأرواح، والملائكة
ذات الصور والأشباح .

١٠ - وفى المحاورة فقرة تدل على أن العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس
حتى القرن الرابع، فقد جاء على لسان مندوب الفرس ما نصه : ”ومنا من يقرأ القرآن ويلجئه
ولا يعرف معناه ويؤمن بهمده ويصدق به وينصره“^(١) .

١١ - وعرض المؤلف لأمة بأجوج وماجوج التى تحدث عنها القرآن فذكر أنهما
”أمتان صورتهما آدمية ، ونفوسهما سبعة ، لا تعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع
ولا الشراء ولا الحرفة ولا الحرث ولا الزرع ، بل الصيد من السباع والوحوش والسملك
والنهب والغارات بعضها على بعض“^(٢) .

وهو شئ من التفصيل لما أجمله القرآن فى سورة الكهف ، وإن لم يحدد موقع هذه
الأمة من التاريخ .

١٢ - ومن فلسفة كاتب الرسالة أن الطبيعة يأكل بعضها بعضا ، ومن فساد شئ
يكون صلاح شئ آخر ، لحيوانات البحر تنزع من التين وتهايه ، وهو لا يفزع إلا من دابة
صغيرة تلتسه ، فإذا لسعته دب سمها فى جسمه فمات وأجتمعت عليه الحيوانات البحرية
تأكله فيكون لها عيشا رغدا أياما ، كما تأكل كبار السباع صغارها مدة من الزمان ، وكذلك
حكم الجوارح من الطير : فالعصافير والقناوير والخطاطيف تأكل الجراد والنمل والذباب ،
والبواشق والشواهين تصطاد العصافير والقناوير . وهكذا سيرة بنى آدم : فانهم يأكلون لحوم
الجدى والجلان والغنم والبقير والطير، ثم إذا ماتوا أكلتهم فى قبورهم الديدان والنمل والذباب^(٣) !

١٣ - وتحدث الكاتب عن النقل بالعرابات، وحديثه هنا طريف ، لأن العربية
موجودة من قديم الأزمان ، وليكأنجد أثرها قليلا فى المدينة الإسلامية ، بحيث يظن أن

أن المسلمين الأولين لم يتفعوا كثيرا بهذه الأداة في حل الأختال ، وقد وردت في كلام الكاتب كأنها أعجوبة ، وفي ذلك دلالة على أنها كانت قليلة الاستعمال ، فقد قرنها بالحيلة في النصوص إلى قاع البحار لاستخراج الدر والمرجان والصمود إلى رموس الجبال لإزالة النسور والمقبان ، فقال : ” وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويستوثونها في صدور الثيران وأختافها ، ثم يحملون عليها الأحمال الثقالة وينقلونها من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق ، ويقطعون البراري والقفار والمفاوز^(١) ” .

١٤ — ويحدثنا الكاتب أن زعماء الحيوان اجتمعوا لينتخبوا رسولا منهم يحادل زعماء الإنسان ، ثم اختاروا أحد الحكماء من بنات آوى ، فتلطف ابن آوى في الاعتذار وقال : ” وكيف أصنع مع كثرة أعدائي هناك من أبناء جنسنا ؟ ” فقال الأسد : ” من هم ؟ ” فقال : ” الكلاب ؟ ” فقال الأسد : كيف يصير الكلاب أعداء للسباع وأصدقاء لبني آدم ؟ فقال ابن آوى : أليس قد آستأمنت إلى بني آدم وصارت معينة لهم علينا معشر السباع ؟ فيسال الأسد عن ملة ذلك فلا يعرفها أحد غير الذئب .

وهنا ينطلق المؤلف فينتطق بالأسباب التي جمعت بين الإنسان والكلب فيقول : ” إنما دعا الكلاب إلى مجاورة بني آدم ومداخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق ، وما وجدت عندهم من المرغوبات واللذات ومن المأكولات والمشروبات ، وما في طباعها من الحرص والشره والظوم والبخل ، وما في جبلتها من الأخلاق المذمومة الموجودة في بني آدم ، مما السباع عنه بعزل : وذلك أن الكلاب تأكل اللحم ميتا وجيفا ومذبوحا ، قدينا ومطبوخا ومشويا ، وما لحا وطريا ، وجيدا وردينا ، وثمارا ويقولا وخيزا ، ولبنا وحليا ، وحامضا وجبنا وسمننا ودمنا ، ودبسا وشربجا ، وناطفا وعسلا ، وسويقا وكاعحا . وما شاكلها من أصناف ما كولات بني آدم التي أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها ” .

ويضيف الخيط إلى هذا التميل الطريف للتشابه بين الكلاب والناس في التوافق والتوارد على مختلف الألوان من الطعام والشراب أن الكلاب لا تترك أحدا من السباع يدخل

قرية أو مدينة مخافة أن ينازعها في شيء مما هي فيه ، حتى أنه ربما يدخل أحد من بنات
أوى أو بنات أبي الحصين قرية بالليل يسرق منها دجاجة أو ديكاً أو سَنُوراً ، أو يمزج جيفة
مطروحة ، أو كسرة مرمية ، أو ثمرة متفجرة ، فتحمل عليه الكلاب وتطرده وتخرجه من القرية .
ولا يكتفى الخطيب بذلك بل يلج في فرض المشابهة بين الإنسان والكلب ، فيذكر أن
الكلب إذا رأى في يد أحد من بني آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفاً أو كسرة أو ثمرة
أو لقمة طمع فيها وتبعه ، وأخذ يصنصص بذنبه ، ويمزك رأسه ، ويمد النظر إلى حديقته حتى
يستحي أحدهم فيرمي بها إليه ! وعندئذ يمدو إليها بسرعة ، ويأخذها في عجلة ، مخافة أن يسبقه
إليها غيره ! ويقول الخطيب — ولا تنس أنه الذئب ! — :

”وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة في الإنسان والكلاب ، فجائسة الأخلاق ومشاكلة
الطباع دعت الكلاب إلى أن فارقت أبناء جنسها من السباع ، وأسأفت إلى الإنسان ،
وصارت معيتهم على أبناء جنسها من السباع“ .

١٥ — وعرض المؤلف لمسألة دقيقة ثار من حولها الجدل أزماناً طويلاً ، وهي خلق
الجن ، وأصل العداوة بينها وبين الإنسان . فقد تخوف أحد زعماء الجن من عاقبة التدخل بين
الإنسان والحيوان ، فإن الإنسان أم قوية ، ومن المحتمل أن يشوروا على الجن فتقوم بينهم حروب
يخسر فيها الغالب والمغلوب .

وقد تأتى الكاتب في عرض أدوار الخصومة بين الإنسان والجن والظروف التي كان يقع
فيها صلح أو قتال . والذي تجب الإشارة إليه هنا أن إخوان الصفا يمتقدون بما يسمى
”القران“ وهو عندهم تحول حظوظ الأنواع من حال إلى حال : فقد خشي أحد خطباء الجن
من أن تعجز البهائم عن مقاومة الإنسان في الخطاب لقصورها عن الفصاحة والبيان ، وأن يحد
الإنسان من ذوابه ألتسهم وجود عباراتهم ما يقضي بأن تظل البهائم أسيرة في أيديهم
يسومونها سوء العذاب . وكان جواب وزير الجن أن ذلك إن وقع فستكون النتيجة أن

”تصير البهائم في الأمر والعبودية الى أن ينقضى دور القرآن ويستأنف نشوء آخر ويأتى الله لها بالفرج والخلص، كما نجى آل إسرائيل من عذاب فرعون، وكما نجى آل داود من عذاب بخت نصر، وكما نجى آل حمير من عذاب آل تُبَّع، وكما نجى آل ساسان من عذاب اليونان، وكما نجى آل عمران من عذاب أُرْدَشِير^(١)“.

و ”القرآن“ هذا أمل جميل، ولو تأخر الزمن للمؤلف لرجونا أن يقول :
”وكما نجى أهل مصر من عدوان الانجليز!“.

١٦ - ولم يقف المؤلف عند حدود درس الحيوان، ولكنه استطرد فشرح كثيرا من الظواهر الاجتماعية، وتحدث عن الملوك والوزراء والعلماء والفقهاء، وأفاض في ذكر الأسباب التي قوضت المروءة وحولت الأعرسة الى أذلة صاغرين، ولم يشهد الكاتب لأحد من الملوك بالعدل إلا للملكين اثنين : ملك الجن وملك النحل^(٢).

ويطول القول لو مضينا ندرس ما عرض له الكاتب من المعضلات العلمية والفلسفية والاجتماعية، فليرجع القارئ الى أصل الرسالة إن شاء^(٣).

١٧ - وقد يسأل القارئ عن نتيجة المحاكمة التي فصل أخبارها الكاتب في خمسين ومائة صفحة، وهو سؤال لا بد أن يخطر بالبال.

ونجيب بأن المحاكمة لم تنته الى شيء : لأن زعماء الحيوان فكروا في الوصول الى الحرية عن طريق المفاوضات، ولو استمعوا لتوصية الأسد حين صم على أن يصدع القوة بالقوة، ويقفل الحديد بالحديد، لما أحتاجوا الى محكمة الجن في جزيرة صاغون !

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

(١) ص ١٩٨ ج ٢ (٢) وصف المؤلف ملك الجن بالحكمة والعدل، أما ملك النحل فوصفه بالاشفاق على رعيه والرحمة ثم والتحق طيسم (ص ٢٥٢) ويحسن بالقارئ أن يرجع الى ص ٢٥٠ و ٢٥١ ليرى كيف طعن المؤلف كثرة الملوك عند الناس : فقد هدأ الى صميم الحياة عند تخلف الشعوب، وفهم كيف تخلف العقول والطباع والأهواء باختلاف الأقاليم . (٣) لم يكن من هنا أن نخلل الرسالة التي عرضنا لها في هذا الفصل تحليلًا واقعيًا، وإنما قصدنا إلى إعطاء القارئ فكرة عن أسلوب الكاتب في عرض المسائل العلمية من طريق القصص، وهو أسلوب له قيمة فنية، وله أثر في تشويق الجمهور الى تتبع النقاط في مثل علم الحيوان - ولقشرها الى أن أسلوب هذه الرسالة خال من الكلف وهو في جملة ممتاز بالوضوح والصفاء .

(٥١)

٩ - أخبار التوحيدى

١ - يختلف عمل التوحيدى عن أعمال كتاب الأخبار والأفانيس أشد الاختلاف: فهو لا يهتم بأهل البادية ، ولا يسلك مسلك الرواة الذين يُعنون بتقييد الغريب من الأخبار والأشعار ، وإنما يهتم بالنواحي التاريخية والأدبية من حياة الرجال : فهو الذى دَوَّن المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس^(١) فى المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى . وهذه المناظرة تدل على قوة عجيبة فى التوحيدى ، وهى مثل أعلى فى لغة الجدل والحوار بين المتناظرين . ولا يتسع المقام لتحليل هذه المناظرة فليرجع إليها من شاء فى معجم ياقوت^(٢) .

ولكن لا بد أن نشير هنا إلى أن التوحيدى يصريح بأن أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية ، ويقول على لسان السيرافى فى محاوره متى :
 " أنت لا تصرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا الى لغة لا تقي بها ، وقد عفت منذ زمن طويل وباد أهلها ، وأنقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها ؟ على أنك تتقل عن السريانية ، فأتقول فى معان متحوّلة بالنقل من لغة يونان الى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه الى لغة أخرى عربية ؟ " ^(٣)

٢ - ولعل هذا هو السر فى أن العرب ظل محبوسهم الفلاسفة غامضا : لأنهم اضطروا الى العناية بدرس ما وصل إليهم عن اليونان فى إبهام وغموض . وقد واجهت هذه

(*) فى هذا الكتاب فصل عن أبى حيان التوحيدى فى الباب الخامس ص ١٢٣ - ١٢٤ ج ٢

(١) توفى السيرافى فى سنة ٣٦٨ وكان من كبار النحاة . (٢) متى بن يونس باحث من رجال

القرن الرابع كان مشغولاً بشرح علوم اليونان . (٣) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٥ - ١٢٤

(٤) ص ١٠٨ ج ٢

المشكلة وأنا أدرس فلسفة الغزالى فوصلت بعد الدرس إلى أن الفلاسفة المتفوقين من العرب هم الرجال الذين بنوا فلسفتهم على أساس العقيدة العربية ، وكان اتصالهم بالفلسفة اليونانية اتصال ثقافة لا اتصال قل وعماكة ، وكذلك نجح ابن رشد ونجح الغزالى : لأنهما ابتدأ من نقطة مفهومة : هى النفس العربية أو الإسلامية ، ثم مضيا يتعقبان ما يقضى به العقل أو ما يوحى به الدين ، وأستطاعا بذلك أن يخلقا الحماسة للفلسفة فى اليناث الإسلامية ، وأن يخلقا لها ألوفا مؤلفة من الأصدقاء والأعداء .

٣ - ومن أهم ما أبدع التوحيدى حديث السقيفة، وهو حديث عجيب مهد له بالكلمة الآتية^(١) :

”سمرنا عند القاضى أبى حامد ليلة بينداد بدار ابن جيشان بشارع الماديان : فتصرف بنا الحديث كل متصرف . وكان والله غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له فى كل جو متفنى ، وفى كل نار مقتبس . بفرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فقال كل فنا ، وقال قولا ، وعرض بشي . فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى عل وجواب عل له ومبايعته إياه عقيب تلك الرسالة ؟

فقال الجماعة : لا ، والله ! فقال : هى والله من درر الحقائق المصونة ، ومخبات الصناديق المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للهلي فى وزارته ، فكتبها عنى فى خلوة بيده وقال : لا أعرف فى الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحلم ، وفصاحة وفقاهة ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضى ! فلو آتممت المنة طينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلي وأوجب ذمما عليك“ الخ .

٤ - وحديث السقيفة حديث مجمع ، والذي يهتأ قبل تحليله هو إيراد ما كتبه ابن أبى الحديد فى التعقيب عليه ، لأن لذلك أهمية عظيمة فى إعطاء ما نحن بصده من إنشاء

(١) ورد حديث السقيفة فى شرح ابن أبى الحديد انبح البلاغة ص ٩٢ ج ٢ رآته القفندى فى صبح الأعشى ص ٢٢٧ ج ١ وبين الصين اختلاف قليل .

الفصل التاريخي صيغة واقعية، ويتلخص نقد ابن أبي الحديد في أن حديث السقيفة هذا شبه بكلام التوحيد ومذهبه في الخطابة والبلاغة، وأن خطب عمر وأبي بكر ورسائلهما خالية من البديع ومن صناعة المحدثين الظاهرة في ذلك الحديث، وأن الذي يتأمل كلام التوحيد يعرف أن ذلك الحديث خرج من معدنه، ويدل عليه أنه أسند إلى القاضي أبي حامد المروزي وهذه عادته في كتابه (البصائر) يسند إلى أبي حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه إذا كان كاريها لأن ينسب إليه، وما يؤيد أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية. ولقد كان الرضى يلتقط من كلام عليّ اللفظة الشاردة والكلمة المفردة الصادرة عنه في معرض التأم والتظلم فيحتاج بها ويعتمد عليها وكأنما ظفر بملك الدنيا وبودعها كتبه وتصانيفه، فابن كان الرضى من هذا الحديث؟ وكان الباقلاني شديدا على الشيعة عظيم المصيبة على عليّ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث لملا الكتب والتصانيف بها وجعلها حججاً ودأبه، ثم قال: "والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق في علم البيان ومعرفة كلام الرجال، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير وأقل أنس بالتواريخ".

هـ — وخلاصة الحادث الذي وضع من أجله هذا الحديث أن أبا بكر لما استقامت له الخلافة بين المهاجرين والأنصار بلغه عن عليّ تلكم وشماس فكره أن يتأدى الحال فتبدو العودة وتتفرق ذات البين، فدعا إليه أبا عبيدة في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب، وأوصاه بأن يتلطف في دعوة عليّ إلى مبايعة أبي بكر وإعلان الرضا عن خلافته، فلما هم أبو عبيدة بالانصراف لمعالجة الأمر الذي نذب له تبعه عمر فزوده بآيات من التلطف يلقي بها ابن أبي طالب، فلما وصل إليه بثه ما تلقاه من أبي بكر وعمر: فرق قلب عليّ واعتذر عن تحلفه بحزبه البالغ على فقد الرسول. ثم عاد أبو عبيدة فيلق عمر نجاح مسماه. وفي اليوم التالي ذهب عليّ إلى

المسجد فاحترق الجماعة وبيع أبا بكر، ثم استأذن للقيام وتبعه عمر مكراً له مستأثراً لما عنده .

تلك خلاصة القصة . ولكن أهمية الحديث ترجع الى ما فيه من الصور الفنية التي تأتى التوحيدى في صوغها كل التأتى . وأنظر ما وصف به أبو بكر بوادر الشر المخوف الذى يهدد كيان المسلمين لو طال الشقاق^(١) :

”امض الى على وأخفض له جناحك ، وأغضض عنده صوتك ، وأعلم أنه سلالة أبى طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم ! — مكانه . وقل له : البحر مفرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، والليل أغدق ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رهوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قذاحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة تقوب العداوة . وهذا الشيطان مكش على شماله ، متحيل يمينه ، ناغ خصيبه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، وينب بين الأمة بالشحناء والعداوة ... يوسوس بالفجور ، ويدل بالفرور ، وبغنى أهل الشرور ... ولا بد الآن من قول ينفع إذا أضر السكوت وخيف غبه . ولقد أرشدك من أفاء ضالك ، وصافاك من أحيا مودته بتالك ، وأراد لك الخير من آمر البقاء معك . ما هذا الذى تسول لك نفسك ، ويدوى به قلبك ، ويتوى عليه رأيك ، ويتناول دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك ، ويرتد معه نفسك ، وتكثر عنده صعدائك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعجمة بعد إضصاح ؟ أتليس بعد إضصاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ ... إنك والله جذ عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا هجرة لله عز وجل ، ونصرة لدينه ، في زمان أنت فيه في كين الصبا ، وخدر القرارة ، وعنفوان الشبية ، غافل عما يشيب ويريب ، لا تقى ما يراد ويشاد ،

(١) خدع جماعة من رجال وزارة المعارف المصرية فظنوا هذه المحادثة صحيحة النسب فاختاروا منها قناعة نسبوها الى أبى بكر في كتاب المحفوظات للدارس الثانوية .

ولا تحصل ما يساق ويفاد، سوى ما أنت جار عليه الى غايته التي اليها عدل بك، وعندها
 حظ رسلك، غير مجهول القدر، ولا مجهود الفضل . ونحن في أثناء ذلك نماني أحوالا تزيل
 الرواسي، وقامى أهوالا تشيب النواصي، خاضعين غمارها، راكين تيارها، تتجزع صعاها،
 ونشرج عياها، ونحكم أسامها، ونهرم أصراسها، والعيون تحدج بالحسد، والأنوف تعطس
 بالكبر، والصدور تستمر بالفيظ، والأعناق تتطاوّل بالقصر، والشفاه تشمد بالمكر، والأرض
 تميد بالخرق، لا تنظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع في نحر أمر
 إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نبليغ مرادا إلا بعد الا بعد الإياس من الحياة عنده“ انخ.
 وهناك صفحة في غاية من الجودة كتبت على لسان عمر، رضى الله عنه، أوصى أبا عبيدة
 أن يواجه بها عليا كرم الله وجهه، وصفحة أخرى خاطب بها عمر عليا حين تلاقيا بعد البيعة،
 وهذه وتلك من آيات اثر الفنى .

والحديث طويل . ولا حاجة الى الافاضة في تحليله فليرجع اليه القارئ إن شاء .

وهذا النمط من تنسيق الأخبار معروف عن التوحيدي، وما نحسبه ألف كتابا إلا أنطق
 الناس فيه بفنون من الأحاديث فيها متعة للعقل والتذوق والإحساس .^(١)

(١) حاق المجال من تحليل المناظرات التي دونها التوحيدي، و يكتفى أن يعرف القارئ أن تدوين المناظرات
 كان من أهم ما يتنازبه القرن الرابع، ونحن نرشد الى هذا المنصر من اثر الفنى لينتقبه من شاء، فقد يطول القول ان
 مضيفا ندوس كل ما اهتم به كتاب ذلك العهد من فنون البيان .

(١١)

١٠ - قصص البقاء

١ - أما البقاء فكاتب شاعر، كان في ريعان شبابه متصلاً بسيف الدولة، ثم تنقلت به الأحوال بعد وفاة صاحبه، فورد الموصل وبغداد ونادم بهما الملوك والرؤساء . وظل ينعم تارة ويشقى تارة أخرى حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

وليس لدينا من النصوص ما يكفى لبيان الاتجاهات الفنية التي كانت تغلب على البقاء في القصص . ولكن يظهر أنه كان معروفاً بهذا الفن، حتى أستطاع الصابي أن يخاطبه بقوله :
غوشيت يا قس الطيور فصاحةً إذا أنشد المنظوم أو درس القصص^(٢)

٢ - وقد بقي لنا من قصصه حكاية ذكر الثعالي أنه لم يسمع أطرف منها في فنها، ولا الطلف ولا أعذب ولا أخف^(٣) . ونحن كذلك نشهد بأننا لم نقرأ في الأدب العربي أطرف من تلك الحكاية، وهي تمثل الحزنية التي كان يمزج في ظلها رجال الأدب في ذلك الحين . ولغة البقاء في تلك القصة سهلة مقبولة لا يظهر فيها تصنع ولا تكلف، وهو لا يستعمل السجع الا حيث يقضى السياق بالتأنق والتمنيق، فالسجع عنده حلية فنية يلجأ إليها حين يريد تصوير سمة من سمات الجمال، أو نزعة من نزعات الوجدان . ولو سلك الأدباء مسلك البقاء في ذلك القصص الثعالي لسانت اللغة العربية من الخفاف الذي غلب عليها في التثرووقف به موقف الجلود . والشعر من هذه الناحية أسلس وأرق، فقد كان للشعر ما يشبه التقاليد المرسومة التي تبيح التحدث عن هفوات الصبا ونزوات الشباب . ولعل هذا كان من أسباب ظهور الشعر على النثر في البلاغة العربية، فأننا نرى للشعر المكان الأول في الأندية والمحافل

(١) راجع ترجمة أبي الفرج البينا وتحليل رسالته في الجزء الثاني ص ٢٢٦ - ٢٤٢ من هذا الكتاب .

(٢) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة الدهر . (٣) ج ١ ص ١٧٤

والمواسم . ونراه كذلك أول ما توجه إليه عناية الناقلين ، إذ كان أقرب ألوان الأدب إلى النفوس ، وأحبها إلى القلوب ، لأهتمام أصحابه بالحديث عن أهواء الناس وشهواتهم وظنونهم في عالم الجسد وعالم المحبون ، ولكن الثرلثا قصّر قديما على الشئون الجذبية من علم وأدب وسياسة ودين كان نصيبه أن يجهّس على فئة قليلة هي الجمهور المحدود بجمهور الساسة والعلماء والهداة ، وهو جمهور له قيمته وخطره ، ولكنه لقلته لم يستطع في أى عصر أن يذيع فنا من الفنون الأدبية التي يموت أصحابها إن لم تنفّ في وقت واحد ساكني القصور والأكواخ .

ومن أجل هذا كانت الأقاصيص في النثر من أهم ما يمتاز به الأدب في القرن الرابع ، ففي كتابات بدیع الزمان والتوحیدی والتونخی والبيضا والأزدی نماذج فنية فيها فن للمعقول والقلوب والأهواء والأحاسيس ، لا تقل أثرا في أنفس قارئها وسامعها عما يقدم الشعر البليغ من صنوف اللذة والإمتاع .

قال أبو الفرج . تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرها وقد سار عنها في بعض وقائعهم . وكان الخطر شديدا على من أراد الحساق به من أصحابه ، حتى أن ذلك كان مؤذيا إلى النهب وطول الاعتقال ، واضطرت إلى إعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ، وكان سنى في ذلك الوقت عشرين سنة ، وكان أقطاعي منهم إلى أبي بكر بن علي بن صالح الرزبازي لتقدمه في الرئاسة ومكانه من الفضل والصناعة ، فأحسن تحييل وبالغ في الإحسان بي وحصلت تحت الضرورة في المقام فتوفرت على قصد البقاع الحسنة والمتزهات المطرفة تسليا وتسللا ، فلما كان في بعض الأيام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر . واستصعبت بعض من كنت آنس به وتقدّست لجل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه أخذنا في شأنا وقد كنت آخرت من رهبانة لشرتا من توسعت فيه رقة الطبع ، وبسجاجة الخلق ، حسبما جرى به الرسم في غشيان الأعمار وطرق الديرة من النظرف بشرة أهلها والأنس بسكاتها ، ولم ترل الأقداس دائرة بين مطرب الفناء وزاهر المذاكرة إلى أن فض اللهو ختامه ، ولوّح السكر لصحبي أعلامه ، ووحانت

منى نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطاى متوثبا ، ولنظرى إليه مترقبا . فلما أخذته عني أكب يزغني بزغني الغمز ، ووصى الإيماء ، فاستوحشت لذلك وأنكرته ونهضت عجلا واستحضرت ، فأنرج الى رقصة غثومة وقال لي : قد لزمك فرض الأمان فيما تهتفيه هذه الرقصة ، وسقط زمام كاتبها في سترها بك عني . فقصفتها فلما فيها بأحسن خط وأملحه وأقرأه وأوضحه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) لم أزل فيما تؤديه هذه الخطاطبة يا مولاي بين حزم يحث على الاقتباس عنك ، وحسن ظن يحض على التسامح بنفيس الحظ منك . إلى أن أستزني الرغبة فيك ، على حكم الثقة بك ، من غير خيرة ، ووقعت بيني وبينك بحجب الحشمة فأطعت بالانبطاح وأوامر الأنسة وأتهزت في التوصل إلى مودتك فأتت الفرصة . والمستأح منك جعلي الله فداك زورة أرجح بها ما أختصبتنيه الأيام من المسرة مهنة بالانفراد إلا من غلامك الذي هو مادة مسرتك ، وما ذاك عن خلقي يضيق بطارق ، ولكن لأخذى بالاحتياط على حالي . فإن صادف ما خطبته منك أيلك الله قبولا ولديك نقا فنية فغل الدهر عنها أو فارق منعه فيما أهدها إلى منها . وإن جرى على رسمه في المضايقة فيما أوتره وأهواه ، وأتقبه من قربك وأتمناه ، فندمام المروءة يلزمك رد هذه الرقصة وسترها وتسايبها وأطراح ذكرها . وإذا بأبيات تلتوا الخطاب وهي :

يا عامر العمر بالفتوة والقصد	ف وحث الكؤوس والطرب
هل لك في صاحب تناسب في الـ	خبرة أخلاقه وبالأدب
أوحشه الدهر فاستراح الى	قربك مستنصرا على الشوب
فان تهبت ما أهلك به	لم تشن الظن فيه بالكتب
وان أتى الزهد دون رغبتنا	فكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج : فورد على ما سيرني ، وأسترد ما كلت الشراب حازه من تميزي ، وحصل لي في الجملة أن أغلب الأوصاف على صاحبها الكتابة خطأ وترسلا ونظما ، فشاهدته .

بالفراسة من ألقاظه ، وحدت أخلاقه قبل الاختبار من رقبته ، وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه ؟ فقال أما ذكر حاله فاليه اذا اجتمعنا . وأما السبيل الى لقائه فتمسهل إن شئت . قلت : دلني . قال : تظهر فتورا وتصب عذرا فتأرق به أصحابك منصرفا ، وإذا حصلت بياب الدير عدلت بك الى باب خفي تدخل منه . فرددت الرقعة عليه وقلت : ارضها ليتأكد أنه بي وسكونه إلي ، وعرفه أن التوفر على إعمال الحيلة في المبادرة الى حضرته على ما آثره من التفرد أولى من التشاغل بإصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته . ومضى الراهب وعدت الى أصحابي بغير النشاط الذي نهضت به فانكروا ذلك ، فاعتذرت اليهم بشيء عرض لي وأستدعيت ما أركبه ، وتقدمت الى من كان معي ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم ، وقد كانوا على الميت فأجمعوا على تسجيل السكر والانصراف ، وخرجت من باب الدير ومعي صبي كنت آنس به وبخدمته ، وتقدمت الى الشاكري برد الدابة وستر خبري ومباركتي . وتلقى الراهب وعدل بي الى طريق مضيق وأدخلني الى الدير من باب غامض وصار بي الى باب قلّاية^(١) متميز عما يحاوره من الأبواب نظافة وحسنا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة ، فابتدرت منه غلام كان البدر ركب على أزراره ، مهفهف الكشح خطفه ، معتدل القوام أهيفه ، تحال الشمس برقت غرته ، والليل ناسب أصداعه وطرته ، في ظلاله تم على ما تستره ، وتجموع رقبها عما تظهره ، وعلى رأسه مجلسية مصمت فيهر عقل ، وأستوقف نظري ، ثم أجفل كالظي المذخور ، وتلوته والراهب الى صحن القلّاية فإذا أنا بيت فضي الحيطان ، رخامي الأركان ، يضم طارقة خيش مفروشة بمصير مستعمل ، فوثب إلينا منه قتي مقتبل الشيبة ، حسن الصورة ، ظاهر النبل والهيئة ، مثر من اللباس برزى غلامه ، فلقيني حافيا بستر بسرويله ، وأعتقني ثم قال : انما أستخدمت هذا الغلام في تلقيك ياسيدي لأجمل ما لملك أستحسنه من وجهه مصانعا عما ترد عليه من مشاهدتي ، فاستحسن أختصاره الطريق الى بسطلي وأرتجاله النادرة على نفسه ، حرصا في تأنيبي ،

(١) القلّاية : بناء كالدير .

وأفاض في شكرى على المسارعة الى أمره ، وأنا أوصل في خلال مسكاته المبالغة في الاعتدال به . ثم قال : يا سيدى أنت مكود بمن كان معك ، والاستمتاع بمجادتك لا يتم إلا بالتوصل الى راحتك - وقد كان الأمر على ما ذكر - فاستلقيت يسيرا ، ثم نهضت فقيمتُ في حالى النوم واليقظة الخدمة التى ألقيتها في دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء . وأحضرنا خادم له ، لم أر أحسن منه وجها ، طبقا يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف . فقال : الأكل منى ياسيدى للحاجة ، ومنك للمالحة والمساعدة ، فلتنا شيئا . وأقبل الليل فطلع القمر ففتحت ، ناظرا ذلك البيت الى فضله أدى الى محاسن القوطة وحبانا بذخائر باضها من المنظر الجانى والنسيم العطرى ، وجاءنا الراهب من الأشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ، ثم أقصصنا غارب اللذة ، وجريتنا في ميدان المفاوضات ، فلم يزل يناهين نواذر الأخبار وملح الإشعار ، ويخطئ ذلك من المزح بأظرفه ، ومن التودد بالطفه ، الى أن توسطنا الشراب فالتفت الى غلامه وقال له : يا مترف إن مولانا ما أذخر عنا المرور بحضوره ، وما يجب أن نذخر ممكنا في مسرته ، فامتنع وجه الغلام حياء وخفرا ، فأقسم عليه بحياته وأنا لا أعلم ما يريد ، ومضى فساد يحمل طنابورا وجلس فقال لى : يا سيدى تأذن لى في خدمتك ؟ فهممت بتقيل يده لما تداخلى من عظم المسرة بذلك ، فأصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكى وهو ملكى وسالى ثوب نسكى
زّه يقين المسوى فيه لك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكى الى الصباح وأبكى

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت أن الشعر له ، فككت والله أطير طربا وفرحا بملاحة خلقه ، وجودة ضربه ، وعذوبه ألفاظه ، وتكامل حسنه ، فاستدعيت كيزا فاحضرتا انضمام عتة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورا بوجهه ، وشرب بمثل ما شربت ، ثم قال لى : أنا والله ياسيدى أحب ترفيك وأن لا أقطعك عما أنت متوفر عليه ، ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد أن تنى ليلتنا بشيء يكون لها طرازا ، ولذكرها معلما ، فغذبت الدواة وكبت أرجعالا وقد أخذ الشراب منى :

وايلاً أوسعتي حسنا ولها وأنا
ما زلت ألتئم بدرًا بها وأشرب شمساً
إذ أطلع الدبر سعداً لم يبق مذ بان نحساً
فصّار للروح مني روحاً وللنفس نفساً

فطرب على قولي (ألتئم بدرًا وأشرب شمساً) وجذب غلامه فقبله وقال : ما جهلت ما يجب لك يا سيدي من التوقير وإنما آعتمدت تصديقك فيما ذكرته ، فبحياتي إلا فعلت مثل ذلك بقلامك ، فأتبعت إشارته خوفاً من آحتشامه ، وأخذ الأبيات وجعل يرددها ثم أخذ الدواء وكتب إجازة لها :

ولم أكن لفرجي والله أبذل فلما
لو آرتضى لي خصمي بدير مرّاف حبسا

فقلت إنَّ الله ما كان أحد يؤذى حقاً ولا باطلاً ! وداعبته في هذا المعنى بما حضره ، وعرفت في الجملة أنه مستتر من دين قد ركه وقال لي : قد خرج لك أكثر الحديث فإن عذرت وإلا ذكرت لك الحال لثعرفها على صورتها ، فتبينت ما يؤثره من كتمان أمره ، فقلت له يا سيدي كلُّ ما لا يتعرف بك نكرة ، وقد أغنت المشاهدة عن الاعتذار ، وثابت الخبر عن الاستخبار ، وجعل يشرب ويحب على من غير إكراه ولاحت ولا استبطاء إلى أن رأيت الشراب قد دبَّ فيه ، وأكب على مجاذبة غلامه ، والفطنة تنبيه في الوقت بعد الوقت ، فأظهرت السكر وحاولت النوم ، وجاء الغلام ببردعة ففرشها لي بازاء بردعته فنهضت إليها وقام يتفقد أمرى بنفسه ، فقلت له إن لي مذهبا في تقريب غلامي مني ، وآعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذه الحال في غلامه ، فتبسم وقال لي بسكرة : قد جمع الله لك شمل المصرة كما جمعه لي بك . وأظهرت النوم وعاد يحاذب غلامه بأعذب لفظ ، وأحل معاتبه ، ويخلط ذلك بمواعيد تمل على مسعة وأنبساط يد ، وغلامه تارة يقفل يده ، وتارة فمه ، وغلبتني عياني إلى أن أيقظني هواء السحر فانتهت وهما متماثلان بما كان عليهما من اللباس ، فأردت توديعه ، وحاذرت أنبأه وآزعاجه ،

تفرجت ولقيت الخادم يريد إيقاظه وتعرفه أنصرف ، فأقسمت عليه أن لا يفعل ووجدت غلامي قد بخر بما أركبه كما كنت أمرته ، فركبت متصرفا وعاملا على العود إليه ، والتوفّر على مواصلته ، وأخذ الحظ من معاشرته ، ومتوهم أن ما كنت فيه منام لطيبه وقرب أوله من آخره ، وأعرضتني أسباب أدت الى الحاقق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتني من معاودة لقائه . ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة وأشدّ تأسفي على ما سلبته من فراق القتي ، لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة علم ولا يقين خيرة يؤديني الى الطمع في لقائه الى أن ناد سيف الدولة الى دمشق وأنا في جملة فبدأت بشئ قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج الى مرعوبا وهو لا يعرف السبب فلما رأى استطار فرحا وأقسم لا يخططيني إلا بعد التزول والمقام عنده يومئذ ذلك ، ففعلت فلما جلست للحادثة قال : مالي لا أراك تسأل عن صديقي ! قلت والله مالي فكري تصرف عنه ، ولا أسف يتجاوز ما حرمته منه ، ولا مررت بعودي الى هذه البلدة إلا من أجله ، ولذلك بدأت بقصده فاذكري خبره ، فقال لي : أما الآن فنعم ! هذا قتي من المادرائين جليل القدر ، عظيم النعمة ، كان ضمن من سلطانه بمصر ضياعا بال كثير ، فغاش^(١) به ضمانه لعمود السمر ، وأشرف على الخروج من نعمته ، فاستتر ، ولما أشدّ البحث عنه خرج متخفيا الى أن ورد دمشق برى تاجر فكان استناره عند بعض إخوانه ممن أخذته فأتى عنده يوما إذ ظهر لي وقال لصديقه إني أريد الانتقال الى هذا الراهب إن كان على ما مونا فذكر له صديقه مذهبي ، وأظهرت السرور بما رغب فيه من الأتس بي وأنا لا أعرفه ، غير أن صديقي قد أمرني بخدمته وحصل في قلّاتي فواصل الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقتنا ومعه التلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفانج^(٢) وعليلهما ثياب رثة فلما نظر الى التلام قال : يا راهب قد حل القطر ، وجاء العيد !

(١) أسقطنا من هذا الموضع قصيدة رائية تلمّحها اليها ما سلف من حوادث هذه القصة . فراجعها القارئ

في ص ١٨٠ ج ١ من بنية القمر .

(٢) غاش : من انلوش وهو القص ، وقد يكون الأصل "خاص بضائه" أي غدر .

(٣) السفانج سندات مالية .

و وثب إليه فاعتقه وجعل يقبل عينه ويكي، ووقف على السفائح فأخذها مع درج رقعة منه الى صديقه .

فلما كان بعد يومين حمل إليه ألتي دينار وقال له ابتع لنا ما نستخدمه في هذه الضبعة فابتاع آلة وفرشا، ولم يزل مجا على ما رأيت الى أن ورد عليه بالغال والآلات الحسنة، وكتب أهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعرفهم إياه الحال في بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يطالب به، والتوقيع بحطية المال عنه مقترن بالكتب، فلما عمل على المسير قال لخلامه سلم جميع ما بقى معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه في مصالح الدير الى أن نواصل نفقده من مستقرنا. وسار وماله حسرة ولا أسف إلا عليك قطع الأوقات بذكرك ولا يشرب إلا على ما يئنيه الخلام من شعرك . وهو الآن بمصر على أفضل الأحوال وأجلها ما يجمل بتفقدى ولا يضرب برى .

فتمجلت بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره . وأتممت يومى عند الراهب وكان آخر المهد به .

١١ - أحمد بن يوسف المصري

١ - في أوائل سنة ١٩١٥ أرشدنا الأستاذ حسين مخلوف الى قراءة كتاب المكافاة لأبي جعفر أحمد بن يوسف المصري، فاقنيتيه وقرأته، ولكني وجدته كتاباً عادياً لا روح فيه. ثم عدت إليه في هذه الأيام، صيف سنة ١٩٣٠، وأنا في باريس، فدهشت لبعده ما بين الإحساسين: شعوري بتفاهة الكتاب سنة ١٩١٥ وشعوري بنفاسته سنة ١٩٣٠، ورجعت أختبر نفسي وأمتحنها لأعرف السر في هذا البعد المائل بين تقديرين مختلفين أشد الاختلاف نحو كتاب واحد، فانتهيت الى أن الكتاب هو هو بالطبع لم يتغير لا في وضعه ولا في أسلوبه، ولكني أنا الذي تغيرت، ففى سنة ١٩١٥ كنت من المحججين المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوازمي والصابي وآبن العميد، وكان كتاب الصنعة المتأقنون أقرب الناس الى نفسي، وأحبهم الى، وأبعدهم تأثيراً في تكوين مشاعري الفنية والأدبية، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريري ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جداً من مختار ما كتب الخوارزمي والصاحب بن عباد وآبن زيدون ومن إليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون اثرهم خالصاً صامياً الشعر وبياريه في الزخارف والتهاويل، والوزن والقافية، لأن أكثر اثر المصنوع مقفى موزون، وإن لم يجر وزنه وتخفيفه على وتيرة واحدة، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما في زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وقرائهم المأثورة في الأوصاف والتشبيهات، فأطمأنت نفسي الى أن اثر الجليد هو النثر الذي يعنى الكاتب ويشقيه في اختيار الألفاظ والتعابير، وأن الكاتب البليغ هو الصنّيع الفنان الذي ترى جهده وصنعه وفنه في كل لفظة وكل جملة بحيث ترى في رسالته أو خطبته ما تراه في الأعمال الفنية الدقيقة من مظاهر البراعة والحسنة ودقة النظم ومتانة التركيب. من أجل ذلك رأيت في كتاب المكافاة يوم ذاك أثراً يتقصه الفن ويدو هامداً لا حص فيه ولا روح.

٢ — ثم شاء الله أن أتعلم في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي، وأن أقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطلوا القول في دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتّاب وسرائرهم وضمائرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وألوان حياتهم، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التي تهيج الحواس، هناك جمال النفوس الصافية، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة، التي تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل، وتسكب على الوجدان ما يوقظه ويحييه من غير العطف والحنان. وعرفت أن الثرقدي يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والحناس والتورية والمطابقة والأزدواج، وأن ما يسمى بالمحسنات البديعية ليس كل شيء في صناعة الكتابة، فقد يشق الكتّاب في وضع الجملة وصياغة الأسلوب من غير أن يحس القارئ أنه أمام أثر مصنوع. وهذا النوع من الصنعة أدل على الحدق والمهارة وقوة الطبع وعبقريّة الخيال، إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارئ بأنه أمام أثر مطبوع لا أثر فيه للجهد والمنت في تخير الألفاظ ورصف التراكيب، ومثله مثل المناظر الطبيعية، فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والتصاوير، أو تُعرض عليه سمكة ملونة تلويناً دقيقاً يزيغ البصر ويثير الحس، ثم لا يحسب الإنسان أن في هذه السمكة أو تلك الزهرة فناً وصنعة، لأنه يظنها هكذا خلقت، ولا يدري أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء. وكذلك نقرأ الآثار الأدبية التي تقصصها الصنعة الظاهرة فتعجبها مطبوعة، وذلك خطأ مبین، فكل شاعر يصنع قصيدته، وكل كاتب يصنع رسالته، وكل خطيب يصنع خطبته، والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيه أثر التكلف ومحاولة الإبداع، أما الثاني فيصدر عن طبيعة سخية لينة تعودت الإتقان والإجادة، بحيث يظن أنها تبذل ما تبذل بلا كلفة ولا عناء.

٣ — غير أنه ينبغي أن نعيد أن هناك جمهورين من القراء: جمهور المبتدئين الذين تروقههم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين والترتين والتهويل ممتلئ مثل الباعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف

التياب المخططة المبرجة وهي ثياب ظريفة خلابة لا تكلف صانعيها جهدا كبيرا، ولكنها تروق العامة وتضئهم وتبذل لم غاية في التجويد والإبداع . وهناك الجمهور الثاني جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية، وهؤلاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية، ويفرقون بين الصنعة السطحية والصنعة الخفية التي لا يبيدها إلا الأفاضل من فنون الكتاب . هذا الجمهور المثقف هو الذي يُسقى الكاتب المثقوق ويحمله على مراعاة النوق الأدبي والحاسة الفنية، لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة، وكيف تزدى الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا تقص فيها ولا إسراف . والكاتب البليغ حقا هو الذي يضع الألفاظ على قدود المعاني وضما رشيقا مهندما يفتن العقل والنوق بحيث لا يود القارئ المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة، ومثل هذا الكاتب يمثل الصيقل البارِع الذي يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح ضارا أو غير مفيد . ومثل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف ممثّل التاجر المتأنق الذي يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا ، فقد تبدو بضاعته عادية لا رويق فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط . ولكنها تظهر نفيسة قيمة عند من ألفت عيونهم وأذواقهم دقائق النسيج ، وغرائب الصنع . ومثل هذا التاجر خليق بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والأعلاق ، فإن فهم النفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لا تتاح لكل مخلوق . وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذي يدق فنه وتسمو صناعته على كثير من العقول والأذواق يجب أن يطمئن الى أن جمهوره محدود الأفراد فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق له وتستبيده وتشيد بذكه في الأندية والأسواق، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء له ولا عزة ولا كبرياء، فإن الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه ملايين العقود لن يصل في أي ذهن الى مساماة اللؤلؤ المكنون الذي كتب عليه الخمول وظل يحجب الأصداف، وفي ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم، وأقصتهم عن الجماهير، فماشوا في أوطانهم غرباء .

٤ — كتاب المكافاة طبع سنة ١٩١٤ بمطبعة الجاهلية بالقاهرة بعناية الأديب الفاضل أمين عبد العزيز أفندي الذي ظفر بنسخة منه من أحد باعة الكتب بتابلس وقد أهداه الى أستاذنا

البجائة أحمد زكي باشا، وهو يقع في ١٢٨ صفحة بالقطع الكبير وعليه بعض تعليقات وفيه أعلام كثيرة يمكن استدراكها لو طبع مرة ثانية. أما المؤلف فهو أبو جعفر أحمد بن يوسف المصري، وكان أبوه يوسف بن إبراهيم يكنى أبا الحسن. وكان من جلة الكتاب بمصر، قال ياقوت: ولا أدري كيف كان انتقاله إليها عن بغداد. مات أحمد بن يوسف نحو سنة ٣٤٠ هـ وله من التصانيف: سيرة أحمد بن طولون وسيرة هارون ابن أبي الجيش، وأخبار غلطان بن طولون، وكتاب المكافأة، وكتاب أخبار الأطباء. الخ. وكان حسن المجالسة، جيد الكتابة، حسن الشعر، قد خرج من شعره أجزاء. حشأنا عن نفسه قال:

”كان أبو الفياض سوار بن شراة الشاعر صديقاً لي، ومائلاً إليّ. فلما أعظم على الرجوع إلى العراق سألني أن أكتب له شيئاً من شعري فكتبته له مقدار خمسين ورقة. وكان يستحسنه ويعجب به، فصار إلى بغداد وعرضه على جماعة الأحرار، وأحسن وصفي لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته. ودخل محمد بن سليمان مصر وقد ردّ البريد بها إلى أبي عبيد الله أحمد بن صالح، فسأل عند دخوله أياها عن أحمد بن يوسف فأحضر أحمد بن يوسف، كاتباً كان لأحمد ابن وصيف ولائاً بن الحصاحص بعده، فقال له: تعرف أبا الفياض؟ قال: لا. فقال لم: ليس هذا الرجل الذي طلبت، فأحضرت، فلما رأيته استشرفتني وقال: تعرف أبا الفياض؟ فقلت: ذكرك الله وإياه بكل صالحة! نعم، وكان خلّياً. فقال: هل أنشدك من شعره: فطلبنا بها نستزل الدن صفوه فيستزل أقباساً بغير لمبي

فقلت: لا ياسيدي! ولكني أنشدته إياه من شعري، فضحك وقال: واقع لقد آشتفت إلى الدخول إلى مصر من أجلك“^(١).

ونحن نأسف لأن ضاع شعر أحمد بن يوسف الذي كان ينقل إلى مصر سكان العراق. هـ — كتاب المكافأة مصدر عظيم من مصادر الأدب والتاريخ، تعرف منه اتجاه العقول وسيرة الناس في مصر في أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع. والمصريون

لذلك العهد، كما وصفهم صاحب المكافأة، كانوا يفاضون ألوانا من الظلم والاضطهاد. وكانوا في أنفسهم مزيجاً من العرف والتكر، والخير والشر، والقدرة والوفاء، فقد كان فيهم المحسنون والمتصفون، كما كان فيهم اللصوص وقطاع الطريق. وهذه الحال تذكر بما كنت أسمع في طفولتي من أخبار المناسير التي كانت تبيت الناس فتزل عليهم في هدأت الليل وهم يديرون السواقي في أطراف الحقول. واللص المصري في كتاب المكافأة هو نفسه اللص المصري الذي كانت أخباره متعة السامعين إلى عهد قريب، فهو رجل فائنك جرى نهاب سفاك، ولكنه مع ذلك رجل ذو مروءة وشهامة يفي بالعهد ولا يتقض الميثاق. واللصوص في مصر كانت لهم تقاليد تشبه تقاليد الصعاليك من عرب الجاهلية. فالصعاليك كانوا فتياناً ذوي بأس شديد يسوهم أن تقسم الأرزاق بين الناس فسة جائرة، وأن تكثر الفروق بين الأغنياء الذين يمدون ولا يشتهون، وبين الفقراء الذين يشتهون ولا يمدون، فكانوا لذلك ينظمون جهودهم، وينثرون على ما يملك الأغنياء البخل، من إبل وشاء. وصاحب المكافأة نفسه يطلق على اللصوص كلمة صعاليك، كأنه كان يلمح مافي طباع المصريين الناهيين من معنى الثورة على توزيع الأملاك. ولنتظر كيف يقول :

”حدثني محمد بن صالح الغوري قال : كانت لي بضاعة أعود بفضلها على شمل، فافتقرت في معاملات في الصعيد ونجرت إلى من عاملته بجمعتها، وكان مقدارها خمس مائة دينار، ونجرت أريد الفسقاط في رفقة كثيرة الجمع، فلما كان منتصف طريقنا وافي جمع من الصعاليك فسلب الناس جميعاً ودهشت، فرأيت منهم شاباً حسن الصورة فقلت له : وأنت ما أملك غير هذا الكيس فارقه لي عندك . فقال : وأين يتك بالفسقاط ؟ فقلت في دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد النوري . قال امض لشائك . وجاء منهم من قلع ثيابي وسراويلي، وأنصرفوا عنا، ولم أزد أن سوغت واحداً منهم جميع ما كان معي، ودخلنا إلى الفسقاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم إلى ما تخلف له وبقيت ليس معي درهم أشفقه . وإني لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلاً قد

وقف بي، فقال لي : هاهنا منزل محمد النوري ؟ قلت أنا هو . ولا والله ما أهديت الى الرجل الذي أعطيته المال لأنه كان عندى أول مال ذاهب ، فقال لي : عنيّني ! وأخرج الكيس فدفعه الىّ ، فردّدت علىّ جدّتي وتطعمت الحياة^(١) .

وتنتهى القصة بأن النوري دعا اللص الى المبيت عنده، وأنه مضى في الصباح الى بعض القواد يخبره بحديث ذلك اللص الشريف، وأن القناد قال له : الطف لي فيه، فوالله لأنوّهن باسمه، ولا كافنته عنك، قال : ”فرجعت اليه فأخبرته، فوالله ما أرتاع ولا اضطرب، ومضى ممي، فأحسن تلقيه، وخلع عليه، وصيره سيارة لعمله، وضم اليه عدّة وافرة“ .

وللقارئ أن يعبّر المعاني النفسية في الفقرة الأخيرة، خصوصاً عبارة ”فرجعت اليه فأخبرته فوالله ما أرتاع ولا اضطرب ومضى ممي“ فانها تدل على شهامة ذلك اللص، وإيمانه بقوة شخصيته، وجدارته بالتقدّم الى من يدعوّه من كبار القواد .

٦ — أسلوب أحمد بن يوسف يستحقّ الدرس والتقدّر، لأن هذا الكاتب كان فناناً يضع اللفظة في الموضع الذي لا يليق بها غيره ولا تستقر في مكان سواه . وهو كاتب مقصد لا يسجع، ولا يوازن بين الكلمات، ولا يزاوج بين الجمل، كأكثر معاصريه . ولكن هذا الاقتصاد كثير التكاليف : فمن الصعب أن يصل الكاتب إلى غرضه في عبارات موجزة خالية من شوائب الإسهاب والإطناب، وأسلوبه مع هذا الاقتصاد شائق أخذ يعلب عليه الفن الجليل . ومن العجيب أن هذا الرجل أمكّ الناس لنفسه وأكثرهم سلطاناً على قلمه ، فهو يتحدث عن أبيه، ويتحدث عن وقائه الشخصية، بنفس الأسلوب والروح الذي يتحدث به عن قوم آخرين . وكان في مقدوره — لو كان ممن يأخذهم الرهو والعُجب والكبرياء — أن يطيل القول حين يعرض لما وقع له ولأبيه من حوادث أنتصرت فيها المروءة والشرف وكرم المنصر وسماحة النفس . ولكنه ظل في جميع ما أودعه كتاب المكافأة رجلاً عبقرياً مالمالكاً لزمام قلمه وكابحاً لجساح هواه، فلا تراه يستطيل ولا يتريد حين يتكلم عما أسدى من

المروف إلى بعض من عصره من سلاسل الخلفاء والوزراء . وله مع قصده وإيجازه عبارات بارعة تمضي كأروع ما يكون في التريض والتلميح ، وإليك قوله في بعض قصصه يتحدث عن واقعة أنتصر فيها الخلق النبيل :

”ونزل في حارثا غلام أمرد تأخذه العين، وكنت أسلم عليه إذا أجترت به كما أفضل هذا بغيره من جيرى . فأنصرف يوما إلى منزل فوجده قائما على يابه، فدفع إلى رقة يذكرونها أنه عباسى من ولد المأمون ويسألنى بره، ودخل من كان معى بدخولى، قضيت شغل بالجماعة حتى أنصرفوا، ووضعت المائدة بينى وبين العباسى . فاكلنا وهو يتأملنى فلا يجد فى شيئاً قدره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنائير ، وأعذرت إليه من قصصى فى حقه ، وأنصرف وقد رأيت تجيلى فى حالقى عينه“^(١) .

فى هذه الأسطر القلائل عرض الكاتب مسألة خلقية دقيقة عرضا لا إخلال فيه ولا تطويل . وللقارئ أن يتأمل قوله : ”أمرد تأخذه العين“ فأنى أستعيد هذا التعبير وأفضله على قول التهامي فى نمار القلوب ”أمرد تأكله العين“ الذى أخذه أحد الشعراء فقال :
ولقد شربتك بالمنى ولقد أكلتك بالضمير

وجملة : ”فاكلنا وهو يتأملنى فلا يجد فى شيئاً قدره“ من الجمل العجيبة التى تؤدى فى قصيد وإيجاز ما تؤذيه الكنايات الباردة التى تصل بالكاتب إلى غرضه من دون أن يخرج على قوانين الأدب والحياء . وقوله : ”وأنصرف وقد رأيت تجيلى فى حالقى عينه“ من العبارات الرائعة القوية التى لا تحق لنير الكلاب الموقنين .

٧ — وفى القصة التى رواها عن أحمد بن أيمن تفاصيل جيدة، وذلك أن أبى أيمن دخل البصرة إلى أحد التجار فرأى بين يديه أبنين له فى نهاية من النظافة، فقال للتاجر : استجعت الأم لحسن نسلك . فقال التاجر : ما بالبصرة أقبح من أمهما ولا أحب إلى منها . ولتلك الأم خير عجيب خلاصته أن أباهما كان عضلها وتمرض لمدواة خطبائها، لسرخى^(٢) هو أن أبنته كانت

(١) مر ٢١٩: ٢٢ . (٢) ضلها : منها من الزواج .

دمية محرومة من كل سمات الجمال ، وكان يخشى لو زفت أن تطلق ليومها ، فلما تقدم ذلك التاجر يخطبها رأى والد الفتاة أنه أهل للخير وأنه قد يقبلها على دمامة وجهها . فلما دخل بها واجهته بالكلمة الآتية :

” ياسيدى ! إني سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أهلا لستره عليه ، فلا تخف ظنه فيك ، ولو كان الذى يُطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تديرها وعفافها لعظمت محنتى ، وأرجو أن يكون معى منها أكثر مما قصرى فى حسن الصورة “ .

ثم وثبت بغامت بمال فى كيس وقالت :

” ياسيدى ! قد أحل الله لك معى ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء ، وقد سوغت تزويج الثلاث وأبناج الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا سترى فقط “ .

وهنا يقول التاجر وقد حلف :

” إنها ملكت قلبي ملكا لم تصل إليه حسنة بحسنها ، فقلت لها جزاء ما قدمته ما تسميه منى : والله لا أضبت من غيرك أبدا ! ولا جعلتك حظى من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة . وكانت أشفق الناس وأضبطهم وأحسنهم تديرا فيما تتولاه بمقرى ، فتينت وقوع الخيرة فى ذلك ، ولحقتنى السن : فصارت حاجتى الى الصواب أكثر منها الى الجماع . وشكر الله لى ما تلقيت به جميل قولها ، وحسن فعلها ، فرزقنى منها هذين الابنتين الرائعتين لك ، ونحن منقطعون الى جوده فينا ، وإحسانه إلينا “ .

والتقاررى حين يتأمل هذه العبارات يعدها بسيطة ، ولكنها قوية الأثر فى النفس ، وأية دقة ، أم أية بلاغة فانت هذا الكاتب فى مثل قوله : ” استجبت الأم فحسن نسلك “ أو قوله : ” إني سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أهلا

استره عليه، فلا تخفّر ظنه فيك“ أو قوله : ”ولحقني السقّ : فصارت حاجتي إلى الصواب أكثر منها إلى الجماع“ .

هذه العبارات هي أنسب وأدق ما يتخبر للحديث عن مثل هذه الشؤون التي تمس الحياة الزوجية ، وهي حياة تبنى على أساس الصدق والعدل والحب الخالص من شوائب التزق والرعونة والشهوات . فمن البلاغة أن يبرّع عنها في قصد وإيجاز بعيدين من ططننة الإسهاب .

٨ — ومن التماير المختارة قوله في أحمد بن كثير القرطاني الذي عمل المقياس بمصر :

”وكانت معرفته أوفى من توفيقه لأنه ما تمّ له عمل قط“^(١) .

وقوله على لسان محمد بن موسى : ”إن قدرة الخبز تذهب بحفيظته، وقد فرغنا إليك في أنفسنا التي هي أنفس أعلامنا، وما نذكر أنها قد أسأنا، والاعتراف يهدم الأقراف“^(٢) .

وقوله في وصف حصار إقریطش : ”وأشدت الحصار ، وزرع السعير ، وتحلّق الماكول ، وشاع الجهد ، ثم زادت المكاره حتى أكل الناس مامات من البهائم جوعاً“^(٣) .

وقوله على لسان سيدة توفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات :

”فكنت أجاهد في مؤونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختي فقلت : أقرضيني كذا وكذا ، إستحياء من أن أقول لها : هي لي . ودخل شهر رمضان ، فلما مضى نصفه أشتها على صبياني حلوى في العيد ، فصرت إلى أختي فقلت لها : أقرضيني ديناراً أعمل به للصبيان حلوى في العيد ، فقالت : يا أختي تنيظيني بقولك ”أقرضيني“ وإذا أقرضتك من أين تعطيني : أمن غلة دورك ، أو بستانك؟ لو قلت : هي لي ، كان أحسن . فقلت لها : أقرضيك من لطف الله تعالى الذي لا يحتمسب ، وجوده الذي يأتي من حيث لا يرتقب . فتضاحك وقالت : يا أختي ، هذا واقع من المنى ، والمنى بضائع النوى . فانصرفت عنها أجرة رجل إلى منزلي“^(٤) .

وهي عبارات ساذجة ولكنها تؤدي ما وضعت له تأدية صحيحة تثير العطف وتبعث الحنان .

٩ - ويحانب هذا البيان الرائع توجد عند أحمد بن يوسف عبارات مقتولة باللبس والغموض، من ذلك قوله في مقدمة المكافاة :

”وقد رأيتك لا تريد من رغبت اليه فيما تحده على برك، وتحنه لما أغفل من أمرك، على نص مكارم من سلف، وترى أنه يهش الى مساجلتهم، فلا يبلغ في هذا أكثر من إحراز الفضيلة للرغوب إليه، ولا يوجد في الراغب فضيلة تحته على شفيق قصده، ولو عدلت عن مكارم من رغب اليه، الى حسن مكافاة من أنعم عليه، لكنت لك ذرائع يمت بها الراغب يوجد المرغوب اليه سبيلا الى الانعام“ .

فان الشطر الأخير من هذه الفقرة غارق في بلغة من الإيهام .

وتوجد في الكتاب عبارات كثيرة يشلب عليها الضعف، وهذا مقتل خطر لأكثر الكتاب الذين لا يصنعون أساليبهم في ثائق وحقق، فان الكتاب الذين يشلب عليهم الاستسلام لسجيئتهم ولا يتخيرون للكتابة ساعات النشاط والقوة يقعون غالبا في مهاوى الركاكة والإسفاف. ومهما قيل في تفضيل الطبع وإثارة ما توحى به النفس في غير كلفة ولا عناء، فانه لا يزال من الحق أن الطبيعة الخالصة تحتاج الى تهذيب وترتيب، وأحواض الزهر المنسقة المهذبة التي يعنى بها الجنانون^(١) في الحدائق والبساتين أفن وأروع من الزهر المبدد الذي تلقى به الطبيعة هنا وهناك وفقا لخصب الأرض وجود السماء .

١٠ - وهنا نقطة مهمة لابد من درسها بعناية: ذلك أن مؤرخي الأدب متفقون على أن البها زهير أقدم أديب ظهرت في أدبه ألفاظ وتماير وأخيلة مصرية. ولكنني رأيت أحمد بن يوسف سبقه الى ذلك بأجيال، والى القارئ البيان .

(١) الجنان: البساتين، وهي كلمة طريقة، منها من كلمة «الجنة» ثم رأينا أحد المتقدمين سبقنا اليها حين قال :

جنان يا جنان إيهن من البستان الياسمين
واترك الريحان بحمرة الرحمن للماشقين

ثم رأينا أن «الحنان» هي كذلك بمعنى البساتين في اللغة العبرية، من «الجان» وهي في العبرية كالجنة في العربية .

(١) المصريون، حتى المتفقون منهم ثقافة عالية، يقولون «ست» في مكان «سيدة» وهي كلمة مصرية قديمة أدخلها أحمد بن يوسف في لفته الفصيحة مجازاة للغة الحديث^(١١).

(ب) والذين يعيشون في الأقاليم المصرية يذكرون المنادى الذي ينادى في الطرقات قبيل العشاء ليبلغ الناس أوامر الحكومة، ويذكرون كيف يتم نداءه بهذه العبارة «والذي يخالف يستاهل مايجرى عليه» وكلمة «يستاهل» عربية فصيحة مخففة عن «يستأهل» بمعنى يستحق، وفي مثل هذا التعبير يقول ابن يوسف: «فقال أبو العباس: سيعلم مايجرى مني عليه»^(١٢).

(ج) القاعدة العامة في النحو أن الفعل يفرّد مع الفاعل المتنى والجمع، فتقول: حضر الأفضلان، وحضر الأفاضلون، ولا يثنى الفعل ولا يجمع إلا في لغة ضعيفة يسميها النحاة لغة «أكلوني البراغيث» والعباد بالله! ولكن المصريين في لغة الحديث يطابقون بين الفعل والفاعل في الأفراد والجمع فيقولون مثلاً: حضروا الثائبون. وكذلك نجد ابن يوسف يجارى أحياناً لغة الحديث فيقول: «فلما مضى نصفه اشتبهوا على صبيانى حلوى في العيد»^(١٣).

(د) اللغة الفصيحة تطلق كلمة زوج على الرجل والمرأة بدون إلحاق النساء للدلالة على التأنيث، وفي القرآن الكريم ﴿وأصلحنا له زوجة﴾ ولا يقال «زوجة» إلا في كتب المواريث، ويذكرون أن الإمام الشافعي كان يكره أن يقول «زوجة» فكان يقول «المرأة» إنا أقتضى الحال ذلك. ولكن المصريين في لغتهم يقولون زوج وزوجة مجازاة للقاعدة العامة التي تفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة من علامات التأنيث. وكذلك نجد ابن يوسف يقول: «ولو كان الذي يطلب من الزوجة حسن صورتها، انلح»^(١٤).

(هـ) ويقول أحمد بن يوسف: «فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنائير وأعتذرت إليه من تقصيري في حقّه»^(١٥) وعبارة «قصر في حقّه» لا تزال مستعملة إلى اليوم بين المصريين في لغة الحديث.

(١) أنظر ص ١١٧ و«لغة الحديث» يزيد بها لغة التخاطب ويقابلها في الفرنسية *la langue parlée*.

(٢) ص ١١٤ (٣) ص ١١٦ (٤) ص ٥١ (٥) ص ٢٢

(و) المصريون يسمون البنت أحيانا «حسنة» بضم الحاء، وكنت أحسبها تحريفا عن حسناء، ولكني رأيت ابن يوسف يقول «ملكت قلبي ملكا لم تصل اليه حسنة بحسنا» ومن ذلك عرفنا أن كلمة «حسنة» كانت تجري إذ ذاك على لسان المصريين بمعنى جميلة، وهذه الصفة مهجورة في اللغة الفصحى، وأكثر ما تستعمل في المذكر، ولكن قلبا يكون ذلك بدون إضافة، فهم يقولون فتي حسن الوجه، ويندر أن يكتفوا بالصفة من غير تخصيص .

(ز) المصريون يسمون تاء الخطاب في مخاطبة المؤنثة فيقولون «فعلتيه» بدلا من «فعلته» ويخففون التون من «تفعلين» وكذلك نجد ابن يوسف يقول : «جزاء ما قدمتيه ما تسميه مني» بدلا من «جزاء ما قدمته ما تسمينه مني» ويقول «يا أختي تقيظيني»^(٢) بدلا من «تقيظيني» وهو نوع من التخفيف في لغة الحديث أدخله الكاتب في اللغة الفصحى .

(ح) المصريون يسمون السفينة «مركبا» وكذلك يسميها ابن يوسف فيقول : «ركبت مركبا أريد القسطاط من تيس وحما في تجارة لي ما كنت أملك غيرها» . وكلمة مركب في لغته مذكورة، وهي كذلك عند أكثر البحارة في النيل، وإن كنت أرى بعض أهل الريف يمحرونها بجري المؤنث خصوصا أهالي سينترس .

(ط) المصريون يسمون الكيس الكبير جدا الذي توضع فيه الأمتعة «تليسا» بفتح التاء وتشديد اللام مكسورة . وهذه اللفظة موجودة في كتاب المكافاة حيث يقول المؤلف : «ثم دط بتليس من شعر... الخ»^(٣) .

(ي) كلمة نفر في اللغة الفصحى تستعمل غالبا بمعنى الجمع؛ ففي القرآن الكريم ﴿استمع إليه نفر من الجن﴾ . أي جماعة منهم، وفيه أيضا : ﴿وأعر نفرا﴾ بمعنى القوم والقبيل . ولكن المصريين يستعملون كلمة نفر بمعنى شخص، فيقولون خمسة أضرار مثلا، وكذلك نجد ابن يوسف يقول : «تخفرت بأربعة نفر من القيسية»^(٤) يريد أربعة أشخاص .

(١) ص ٥٢ (٢) ص ١١١ (٣) ص ٨٢ (٤) ص ٢٠

(ك) والمصريون يقولون لمن يفتق الباب من الداخل "أغلقه من عنده" وكذلك يقول ابن يوسف : "دخلت البيت وأغلقته من عندي"^(١).

(ل) ويقول ابن يوسف على لسان قابلة أولاد نحارويه بن طولون : "فكنت أجاهد في مؤونة ولدى، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى"^(٢) . وعبارة "وقف أمره" عبارة مصرية تساوى العبارة الجارية في الريف حين يقولون "وقف الحال" بمعنى ضاق الأمر واشتد الكرب . وتقابلها في اللغة السورية عبارة "مشى الحال" ومنها الأغنية المشهورة "ماشى الحال، ماشى الحال" .

١١ - وأحب أن يتنبه القارئ إلى أن ما نسميه عبارات مصرية أو سورية أو مبنية أو مغربية ليس إلا تزيينا لأخيلة عربية صحيحة وردت بجلتها في الشعر البليغ والنثر الفصيح، ولكن غلب بعضها هنا وساد بعضها هناك، بحيث صح أن يقال هذه عبارة مصرية، وتلك عبارة سورية، الخ .

وليس من المنطقى في شيء أن نسمد آذاننا مرة واحدة عن اللهجات المتفرقة في الأقطار المربية، فان اللغة الفصيحة تحتاج إلى مدد دائم من تلك اللهجات، ومثلها مثل النهر الكبير يحتاج، مع فيض منابعه الأصلية، الى المدد المستمر الذى يصل إليه من روافده الصغيرة . وقد يوجد في اللهجات العامة نوع من الحرية والطلاقة والمرونة في بعض التعابير، فمن الأوفق أن يتسرب شيء من تلك السهولة الى اللغة الفصيحة لتعود أليين وأسلس، ولتصير أقدر على التوضيح والتفهم والتبيين .

والواقع أن فصاحة الكلمات وبلاغة التعابير ترجع في الأكثر الى قبولها من ذوى الطباع السليمة، والأذواق المهذبة، ففي مقدور الكلاب أصحاب النفوذ في تكوين الملكات الفنية، والأذواق الأدبية، أن يضيفوا الى قاموس اللغة الفصيحة بعض الكلمات المختارة في لغة الحديث، حتى تصبح تلك الكلمات بعد حين جزءاً من الثروة اللغوية التي نرجو أن نستغني

بها عن الاستعانة ببعض ألفاظ الأجانب وأخيلتهم حين يعرض لنا معنى دقيق يحتاج إلى لغة أفدر وأصرح من لغة القدماء والمحدثين الذين وقفوا عند حدود ما رسمت المعاجم والقواميس .

♦ ♦ ♦

١٢ - ولكن لأي غرض وضع كتاب المكافأة ؟

يظهر أن أحمد بن يوسف المصرى كان غاية في نبل النفس ، وقوة العقيدة ، وطهارة الوجدان . كان مؤمنا أصدق الإيمان ببدل الله ورحمته ، وكان يتق ثقة مطلقة بأن المزمع جزئ بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وكان فيما يظهر قد عرف من أخيار الناس وأشراهم طوائف كثيرة مختلفة أرتة أنواعا من الجزاء على أعماله الصالحة ، فبهم الوفاء الشكور ، ومنهم الغادر الكفور ، لذلك تأصلت في نفسه الحفيظة والموجدة تجاه الجاحدين الكائدين الذين نسدى إليهم الخير والاحسان ثم تلقى منهم عادات الفسار والعقوق . ونكاد نمس في كلماته جمرات الغيظ كلما مر ذكر الناقضين للعهد والناسين للعروف ، حتى لنذكر به تلك الزفرة المرة زفرة يحيى بن طالب حين قال :

يزهدنى في كل غير صنعتُهُ إلى الناس ما جربت من قلة الشكر

وله في مقدمة كتابه عبارات حكيمة ، منها قوله :

” إن أشد على المتحن من محته ، عدوله في سعيه عن مصلحته ، وتجنبه الصواب في بغيته “ .

وقوله :

” ولم يؤت الجود من مائى هو أغمض من مفادرة حسن المكافأة ، ولو أنصمت النظر فيها لوجدتها أقوى الأسباب في منع القاصد ، وحيرة الطالب ، ولو كانت توجد مع كل فعل استحقيقا لآثر الناس قاصديهم على أنفسهم ولجروا على السن المأثور عنهم “ .

١٣ - وقد قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أقسام : الأول المكافأة على الحسن ، والثاني المكافأة على القبيح ، والثالث حسن العقبي . وقد وضع في القسم الأول إحدى وثلاثين حكاية ،

ختمها بحكاية رجل وقف بين يدي المنصور، وكان من رجال هشام بن عبد الملك ، فكان المنصور يسأله عن سيرة هشام لأنها كانت تسجبه ، فكان الرجل يترجم عند كل جارية من ذكره ، فاحفظ ذلك حاشية المنصور ، فقال له الربيع : ” كم تترجم على عدو أمير المؤمنين ؟ “ فقال الرجل للربيع :

” مجلس أمير المؤمنين ، أيده الله ، أحق المجالس بشكر المحسن ، ومجازاة المجمل ، ولشام في عنقي قلادة لا يترعها إلا غاسل “ .

فقال له المنصور : وما هذه القلادة ؟ قال : قلادتي في حياته ، وأغثاني عن غيره بعد وفاته . فقال له المنصور : (أحسنت ، بارك الله عليك ، وبمحسن المكافأة تستحق الصنائع ، وتزكو الموارف) .

ثم أدخله في خاصته .

واستطرد المؤلف فقال : وقد مثل بعض الفلاسفة الحسن المكافأة بالحسام الصقيل الذي يحدث له وقوع الشمس عليه أنبعاث شعاع منه يحلو غياهب الأمانة المظلمة ، ويكون وفور شعاعه على حسب صقالته .

ووضع في القسم الثاني إحدى وعشرين حكاية ختمها بحكاية شيخ كان يعرفه في أيام نهارويه ، حلو النادرة ، مليح الألفاظ ، يعرف بالدقاني ، وكان معاشه من التوصل بكتب الولاية الى معاملهم ، فحتمه أنه خرج بكتب الى الشرقية فالتقى مع رجل في ذي بعض المساوية من الأطباء ، فنداه المتطبب الى مؤاكلته وأخرج رغيفين مشطورين أعطاه أحدهما ووضع الآخرين بيده . ثم أخذ كوزا معه ومضى يسعى به ، فشرهت نفس الدقاني الى الرغيف الذي كان بين يدي المتطبب فأقبله برغيفه ، وجاء المتطبب بالماء وأبتدأ الأكل ، فابتلع المتطبب لقمة حتى شخص بصره وتمدد ، الى آخر القصة ^(١) .

ومهد المؤلف للقسم الثالث بهذه العبارات الفلسفية إذ قال :

” وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافاة على الحسن والقيح ، ما رجونا أن يكون ذلك عونا للاستكثار من مواصلة الخير، وتطلب العارفة في الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر، وإبعادها عن سورة الانتقام في القبيح، وقد قالوا : الخير بالخير، والبادى أخير، والشر بالشر، والبادى أظلم، رأيت أن أصل ذلك، حفظك الله، بطرف من أخبار من آتت فصر، فكان ثمرة صبره حسن العقبي . لأن النفس اذا لم تمنّ عند الشدائد بما يحثد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها، وقد علم الانسان أن سفور الحلالة عن ضدها حتم لا بد منه، كما علم أن انجلاء الليل يسفر عن النهار . ولكن خور الطبيعة أشد ما يلزم النفس عند نزول الكوارث ، فاذا لم تتألم بالدواء اشتدت الملة، وازدادت المحنة، والتفكر في أخبار هذا الباب مما يشجع النفس، ويحثها على ملازمة الصبر، وحسن الأدب مع الرب عز وجل بحسن الظن في موافاة الإحسان عند نهاية الامتحان، والله ولى التوفيق^(١) .“

وقد وضع في القسم الثالث تسع عشرة حكاية، ختمها بحكاية عمرو بن عثمان اذ قال :
 ” كان لى مجلس في ديوان الإنشاء قليل الجدوى على ، وحالى حال لانهض بما يحتاج اليه المقتصد، وقد لزمته يمين لا كفارة لها في ترك التبيذ . فكان جماعة الكتاب يجلسون ما جلس الوزير، وهو يومئذ الفضل بن الربيع، فاذا أنصرف الى منزله أنصرفوا الى ما عقدوا عليه أمرهم من الاجتماع، وأقيم وحدى في الديوان الى أن يلقى، فبكرت اليه في يوم من الأيام، وجاءت مطرة تغرب الوزير فيها الى الشرب، لتشاغل الرشيد في دعوة لزييدة ، فلم يبق في ديوان الإنشاء غيرى . فافى بلالس حتى دخل الى خادم من خاصة الرشيد، فأخذ بيدي وأدخلني الى الرشيد، فلما مثلت بين يديه قال : اقرأ هذا الكتاب . فقرأته فينته وأمرته . فقال : أجب عنه بين يدي . فأجبت عنه بأحسن معان وأجود لفظ . فقال : اقرأه على ، فقرأته . فقال لمسرور الكبير ”ألف دينار“ فجاء بها . فقال : ادفعها اليه، وقل للفضل : ” يصرف اليه ديوان الإنشاء فهو أحق به من غادره “ ثم قال لى : ” خذ هذا

المال ، وسأنظر لك فى الوقت بعد الوقت ما يزيد فى أصطناعى لك ، فلا يفسد الغنى ما أصلحته الفاقة من حسن ملازمتك ، وأسترقى أزدك^(١) .

١٤ — ومؤلف المكافأة يستند أن المحن والشدائد من أجل ما يهب الله لعباده الذين يعظم التزام الأمور ، ويمثل فى خاتمة كتابه بقول بزرجمهر: "الشدائد قبل المواهب تشبه الجوع قبل الطعام ، يحسن به موقعه ، ويلذ معه تناوله " وكلمة أفلاطون : "الشدائد تصلح من النفس بمقدار ما تصلح من العيش ، والترف يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش " وقوله : "حافظ على كل صديق أهدته إليك الشدائد ، وأله عن كل صديق أهدته إليك النعمة " وقوله أيضا : " الترف كالليل لا تتأمل فيه ما تصدره وتناولته والشدّة كالنهار ترى فيها سعيك وسعي غيرك " وقول أردشير : "الشدّة كل ترى به ما لا تراه بالنعمة " .

١٥ — قلت إن أحمد بن يوسف المصرى كان قوى العقيدة ، وأضيف إلى ذلك أن قوة عقيدته لم تكن لأنه قرأ فى بعض الكتب أن الله موجود ، أو لأنه سمع من هذه القسيسين والأخبار أو العلماء والوعاظ أن الله سريع الحساب وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم . لا ، لا ، فذلك إيمان المقلدين ، إيمان الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على ملّة وإنا على آثارهم مهتدون . ولكن إيمان ببدل الله ورحمته أنبعث من نفس راضتها الحوادث على الاطمئنان الحق إلى وجود الله وحنان رفقته ، وقسوة جبروته . وآية ذلك أن الأفاصيص التى أودعها كتاب المكافأة أكثرها مما شاهدته فى عصره ، فبعضها وقع له بالذات ، وبعضها وقع لأبيه ، وجزء منها وقع لأناس عرفهم بالمجاورة والمعاشرة ، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حاشية بنى طولون . من أجل هذا نرى إيمان ابن يوسف إيمانا قويا خالصا بعيدا كل البعد عن الإيمان الرسمى الذى يحرص عليه من يعيشون باسم الدين فى أقطار الشرق والغرب ، وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون فيمن تصلهم بالدين صلات رسمية أبرار ومتقون .

فإن كان القارئ فى شوق إلى لمحة من ذلك الإيمان القوى ، إيمان الرجل الذى عرف ربه كأنه يراه ، فليقرأ قول أحمد بن يوسف فى خاتمة كتابه "ويلاك مصلحة الأمر فى الشدّة

شيطان : أصغرهما قوة قلب صاحبها على ما ينوبه ، وأعظمهما حسن تفويضه الى ماله
ورازقه ، وإذا صمد الرجل بفكره نحو خالقه علم أنه لم يمتحنه إلا بما يوجب له مثوبة ، أو يحص
عنه كبيرة ، وهو مع هذا من الله في أرباح متصلة ، وفوائد متتابعة . فاذا أشد فكره تلقاه
الخلقة كثرت رذائله ، وزاد تصنعه ، ورم بمقامه فيما قصر عن تأميله ، واستطال من المحن
ما عسى أن ينقضى في يومه ، وخاف من المكروه ما لعله أن يخطئه . وإنما تصدق المناجاة
بين الرجل وبين ربه لعله بما في السرائر ، وتأيد البصائر ، والله تعالى روح يأتي عند اليأس
منه يصيب به من يشاء من خلقه . وإليه الرغبة في ت قريب الفرج ، وتسهيل الأمر ، والرجوع
الى أفضل ما تطاول إليه السؤال ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

♦ ♦ ♦

١٦ - وبعد فقد كان كتاب المكافاة عميق الأثر في قسي ، وكان قبسا من الهداية أدفع به
ظلمات الغواية في باريس . فإل أستطيع أن أحكم بأن إعجابي بذلك الكتاب هو أيضا
مكافاة لمؤلفه رحمه الله ، وأن جهده في وضعه وتنسيقه لم يضع ، وأن حرصه على بث الفضيلة
والتنفير من الرذيلة لم يضع ، وأن إيمانه بالله عز شأنه لم يضع . وهيئات أن يضع عند الله
شيء ، هيئات ، هيئات !

كان أحمد بن يوسف مصريا ، وأنا كذلك مصري . لقد لقي في مصر بعض الظلم ،
وأكاد ألقى فيها كل الظلم . كان يحسن الى كثير من الناس ، فبني له من بني ، ويغدر به من
يفدر ، وأنا في حدود طاقتي أبذل البر والمعروف ، ثم ألقى من بعض من أحسن اليهم أشنع
ألوان المجرود ، وألقت الى أصدقائي الأوفياء أهدم فأقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، ثم أغمص
عيني من لذة الكد الوجع .

ولكن يبقى لي ذلك الكثر الذي لا ينفد ولا يفنى ، وذلك المعين الذي لا ينضب
ولا يفيض ، يبقى لي الله الذي يعاملني بأجل وأفضل مما أستحق ، يبقى لي الله الذي تلمس
يدي وترى عيني آثار رحمته وعذله ، وتكاد تصالحه يماي ، وتكاد تصالحه يماي ، ولو شئت
لمضيت في ترديد هذه الجملة ، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما في القلوب !

”ربنا لا ترخ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب .“

١٢ - عبد الله بن عبد الكريم

عبد الله بن عبد الكريم هذا من الشخصيات الخاملة لا صرف عنه أكثر مما جاء في مجموعة النحلة البية من أنه كان مطالعا على أحوال أحد بن طولون ومن المرجح أنه أدرك القرن الرابع، وقد روى حكاية مسجوعة تمثل عواقب الفقر والوفاء، رأينا أن ننبأ هنا بنصها وإن كنا لا نعتقد أن يكون دخل عليها شيء من التحوير، وأهميتها ترجع إلى تصويرها لبعض الحوادث في القصور المصرية في عهد خاضع أكثر ما وضعه من الروايات والأفانيس...

حدث عبد الله بن عبد الكريم قال :

«كان أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهنّب وتمزّس فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده الأمير أبا الجيش بخارويه به فأخذته إليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير إليه وقال له : أنت عندي بمكانة أرتك بها ولكن طادقني أني أخذ العهد على كل من أصرّفه في شيء إنه لا يخونني، فعاهده، ثم حكّمه في أمواله، وقدمه في أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوزا على المقام، حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش يحسن إليه كلما رأى خدمته متصفة بالنصح، ومساعدته متسمة بالنجح، فركن إليه، وأعتمد في أسباب بيوته عليه، فقال له يوما : يا أحمد، امض إلى الهجرة الفلانية، ففى المجلس بحيث أجلس سبعة جوهر بختي بها، فضى أحمد، فلما دخل الهجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياها مع شاب من الفرائشين ممن هو من الأمير يحل قريب، فلما رآياه خرج الفتى بلحاف الجارية إلى أحمد، وعرضت نفسها عليه ودعته إلى قضاء وطره، فقال لها : ماذا أقد أن أخون الأمير، وقد أحسن إلىّ، وأخذ العهد عليّ، ثم تركها وأخذ السبعة وأنصرف إلى الأمير وسلم إليه السبعة وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد فلا يذكر حالها للأمير، فقامت أياما لم تعجد من الأمير ما غيره عليها، ثم أخفى أن الأمير اشتري جارية

وقمها حل حظايه ، وغمرها بغطايه ، وأشتغل بها عن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ، وكان أولا مشغوبا بتلك الجارية الجائرة ، الخائنة الفادرة ، العاتية القاهرة ، القاسقة الفاجرة ، فلما أمرض عنها أشغالا بالجديدة الهيدة ، المسعدة السعيدة ، الحامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، الرشيدة المرشوقة ، العارفة المعروفة ، وصرفت لبهجة محاسنها وآدابها وجهه عن ملاعبة أترابها ، وشغلته بمنزلة رضاها عن آرتشاف ضرب^(١) أضرابها ، وكانت تلك الأولى لحسنها متأمرة على تأميره ، لا تخاف من وليه ولا نصيره ، فكبر عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك الى أحمد اليتيم ، وأطلعه على ما كان منها . فدخلت على الأمير وقد آرتدت من الكآبة بجلاب مكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : ان أحمد اليتيم قد راودنى عن نفسى ، فلما سمع الأمير ذلك أستشاط غيظا وغضباً ، وهم في الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فأنى في فعله ، وأستحضر خادما يعتمد عليه ، وقال له : اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق ذهب وقلت لك على لسانه : املا هذا الطبق مسكا ، فاقتل ذلك الانسان وأحل رأسه في الطبق ، وأحضره مغطى . ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماء انلواص وأدناهم لمجلس قربه وأحد اليتيم واقف بين يديه ، آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء ولا هجس في قلبه ، فلما ثمل الأمير وأخذ منه الشراب قال : يا أحمد ! خذ هذا الطبق وأمض به الى فلان الخادم وقل له يملؤه مسكا ، فأخذه ومضى ، وأجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء انلواص ، فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال : أنا ماض في حاجة للأمير أمرنى باحضارها في هذا الطبق . فقالوا : أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وأدخل بها الى الأمير ، فأدار عينه فرأى القتي الفراش الذى كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املا هذا مسكا ، فمضى ذلك الفراش الى الخادم وذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغسله وجعله في الطبق وغطاه وأقبل به فناوله لأحد اليتيم

وليس عنده علم من باطن الأمر . فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال : ما هذا ؟
 قصص عليه خبره وقعوده مع المختين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس مهم وما كان من
 إنفاذه الطبق والرسالة مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره . قال : أتعرف لهذا الفراش
 خيرا يستوجب ما جرى عليه ^(١) ؟ فقال : أيها الأمير ، ان الذي ثم عليه بما أرتكبه من الخيانة ،
 وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك . وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى
 له من حديث الجارية من أوله الى آخره لما أخذته لاحتضار السبيحة الجوهر ، فدها الأمير
 بتلك الجارية واستقرها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ، ففعل ،
 وأزدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه ، وضاعف إحسانه إليه ، وجعل أزيمة جميع
 ما تعلق به بيديه ^(٢) .

وقد مهد لهذه القصة بعبارة مسجوعة ، وعقب عليها بالفقرة الآتية :

^{٢٢} فانظر إلى آثار الوفاء كيف يهي من الماخطب ، ويجبى من قبضة التلف بعد إمضاء
 القواضب ، ويغضى بصاحبه الى آرتقاء غوارب المراتب ، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بمهده ،
 وهو بشر مثله وليس فى الحقيقة بمهده ، وأطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده ، دفع
 عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده . فانما كان العبد مع خالقه ورازقه وإفيا فى طاعته
 بمهده ، فكيف لا يفيض عليه من ألطافه ومواهب بره ورفده ، ويفتح له من أنواع رحمته
 وأقسام نعمته ما لا ممسك له من مهده . ويقال انه ليس شيء أوفى من القمرية اذا مات
 ذكرها لم تقرب آخر مهده ، ولا تزال تنوح طيه الى أن تموت . والله أعلم ^(٣) .

(١) لا تخس أن هذه عبارة مصرية . (٢) ص ١٩٠ — ١٩٢ من النسخة البهية (٣) ص ١٩٢

١٣ - المحرر التنوخي

أرشدنا الى هذا الكاتب المسيو ماسينيون "صديق الجميع" كما كتب إلينا في وصفه
المستشرق الهولندي الجليل الدكتور ستوك .

١ - والتنوخي هذا هو المحسن بن علي بن محمد المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ ، وكان مولده
بالبصرة سنة ٣٢٩ ، وله من التصانيف كتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب نشوار المحاضرة ، أحد
عشر مجلداً ، كل مجلد له فاتحة بخطبه ، وهو كتاب جيد ألفه التنوخي في عشرين سنة أو قليلاً
سنة ٣٩٩ واشترط أن لا يضمته شيئاً قبله من كتاب .

قال المستر مارجوليث في خاتمة نشوار المحاضرة - وقد ابتدأ طبعه سنة ١٩١٨ وفرغ

منه سنة ١٩٢١ - :

"النشوار كلمة فارسية أصلها نشخوار ، ومعناها جرة الحيوانات المحببة ، وقد استعملها
التنوخي بمعنى الحديث «طيب النشوار والأدب» «حسن النشوار راوية الأخيار»^(٢) وأما
ما ذكر من تاريخ الكتاب فيطابقه ما جرى فيه ذكره من التواريخ ، فإن المؤلف ذكر خبراً
سمعه في سنة ٣٤٩ ثم أكثر من ذكر حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثاً حدث سنة ٣٦١^(٥)
وأما ما اشترط من الاختصار على ما لم يدون في كتاب فكثيراً ما أدخل بشرطه . وقد نهى
في مواضع على ورود الحكايات في (الفرج بعد الشدة) للؤلؤ وغيره من الكتب . وأما مازم
من اشتمال الكتاب على ١١ جزءاً فيؤكده ما يوجد في بعض الكتب من حكايات منقولة عن
النشوار غير موجودة في جزءنا . من ذلك ما أورده السيوطي في المزهرة وياقوت الرومي
في إرشاد الأريب^(٧) والغزولي في مطالع البدر^(٨) وأما نحن فلم نعتز منه إلا على الجزء الأول في نسخة

(١) ص ٦٢-٦٦ (٢) ص ٨٦-١٤ (٣) ص ١٦ (٤) ص ٢١٦-٢٣٥

(٥) ص ٢٧٤ (٦) ج ٢ ص ١٦٣ من الطبعة الأولى . (٧) ج ٦ ص ٦٠-١٩٠

(٨) ج ١ ص ٩٤

مدها ٣٤٨٢ من المخطوط العربية المحفوظة في خزانة الكتب الوطنية في باريس، قد ذكر الناسخ أنه فرغ من نسخها في سنة ٧٣٠ وليس فيها ما يدل على أنها أول جزء من أجزاء عدة، وعدد صفحاتها ١٩٣ وهي كاملة الشكل كثيرة الأغلاط لا سيما في الأعلام ... وقد حذفنا حكايات ليست بكثيرة لم ترداعيا الى تحليدها .

٢ — هذه كلمة المستر مارجوليوت في التعليق على ما ذكر يا قوت . ونلاحظ أنه فاته حين تكلم عن مطابقة التواريخ أن يتنبه الى ما نقله خطأ عن يا قوت حيث دؤن أن كتاب نشوار المحاضرة صنف في عشرين سنة أوّلها سنة ٣٣٦، وهو قد ذكر أن التنوخي ولد سنة ٣٢٩ فعلى هذا يكون المؤلف ابتداء جمع أصول ذلك الكتاب في السابعة من عمره، وهو خطأ ميين ومنصحه بعد قليل .

٣ — وحدّثنا المستر مارجوليوت أنه حذف حكايات لم يرداعيا الى تحليدها، وكانوا لو نُشر الكتاب كاملا لم يحذف منه شيء، فإن التحكم في أغراض المؤلفين من الأغلاط الشيعة التي ينبغي أن يتره عنها أمثال المستر مارجوليوت، وهو قد صنع مثل هذا الصنيع في طبع إرشاد الأريب لياقوت المعروف بمجم الأدباء، فقد أذكر أنه حذف طائفة من رسائل أبي العلاء المعري اكتفاء بنشرها في مجموعة أخرى من مجموعات أ كسفورد . فكانه لا يفكر إلا في قرائه من المستشرقين .

وهذه المؤاخذة لا تحول دون الاعتراف بفضل هذا الباحث في نشر الآثار القديمة، فاليه يرجع الفضل في إحياء كثير من المراجع المهمة في الكشف عن معارف الأقدمين .

ونضيف الى ما كتبه عن نشوار المحاضرة ما أخبرنا به المسيو ماسينيون^(١) من أن مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق أخذت تنشر في أعلادها الأخيرة بقايا قيمة من أصول ذلك الكتاب .

٤ - وأهمية كتاب شوار المحاضرة تعرف من مقمته ، فان المؤلف يحدثنا أنه اتصل بكثير من الناس عن عرفوا أحاديث الملل ، وأخبار الممالك والدول ، ووقفوا على محاسن الأمم ومعائبهم ، وفضائلهم ومثالبهم ، وسمعوا أخبار الملوك والكتاب والوزراء ، والسادة والبخلاء ، وذوى الكبر والخيلاء ، والأشراف والظرفاء ، والمجاهدين والندماء ، والسفهاء والحلماء ، والمحدثين والفقهاء ، والفلاسفة والحكماء ، وأهل الآراء والأهواء ، والمتأدبين والأدباء ، والمرسلين والفصحاء ، والرجاز والخطباء ، والعروضيين والشعراء ، والنسايين والرواة ، واللغويين والنحاة ، والشهود والقضاة ، والأمناء والولاة ، والمتصرفين والكفافة ، والفرسان والأبحاد ، والشجمان والأبحاد ، والجند والقواد ، وأصحاب القنص والأسطيد ، والجواسيس والمتخبرين ، والسعاة والمهاجرين ، والوزائق والمعلمين ، والحساب والمحزرن ، والهمال وأصحاب الدواوين ، والأكرة والفلاحين ، والمتكلمين على الطرق ، والواعظين والقصاص ، وأهل الصوامع والخلوات ، والنسالك والصالحين ، والعباد والمتبتلين ، والصوفية والمتواجدين ، والأئمة والمؤذنين ، والقراء والمعلمين ، وأهل النقص والمقصرين ، والأغنياء والمتخافين ، والشطار والمتقين ، وأصحاب العصية والسكاكين ، وقطاع الطرق والمتلصصين ، وأهل الخسارة والعيارين ، ولعاب الترد والشطرنجيين ، والملاح والمتطايين ، وأهل النادرة والمضحكين ، والطفيلية والمستطرحين ، والأكلة والمؤاكلين ، والشرايب والمعاقرين ، والمغنيات والمغنين ، والرقاصين والمختنين ، وأهل الهزل والمتخالمين ، والبلة والمغفلين ، والمفكرين والموسوسين ، والمصلحة والمتبتنين ، والأطباء والمنجمين ، والكهالين والقصاصين ، والآسية والمجبرين ، والشاذين والمجتدين ، والمجودين والمحدودين ، والسعاة والمسافرين ، والمشاة والمتفرجين ، والسباح والقواصين ، وسُلاك البحار والمغازات ، وأهل المهن والصناعات ، والمياسير والفقراء ، والتجار والأغنياء ، والقواضل من النساء ، حرائرهن والإماء ، وخواص الأبحار والحيوانات ، والأدوية والعلاجات ، والأحاديث المفردات ، وطريف المنامات ، وشريف الحكايات ، وغير ذلك من ضروب أحاديث أهل الخير والشر ، والتفيع والضر ، وسكان المدر والوبر ، والبدو والحضر ، شرقا وغربا ، وبدا وقربا .

ثم يقول :

وكان القوم الذين استكثرت منهم ، وأخذت ذلك عنهم ، يحكونه في أشياء مذاكراتهم ، وفي عرض مجاراتهم... نضيا للساكنة ، واجترارا للتأفة^(١) ، وصلة للجلاسة ، وقصا للؤانسة ، وسيرا لأحاديث الدنيا ماضيها وبقاياها ، وتواصفا لسير أهلها وما جرى فيها ، وتمثيلا بين ما شهده منها ، وسمعه عنها ، وطاؤه من قلبها ، وقاسوه من تصرفها ، وأخبروا به من عجائبها ، ويوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه المحادثة ، وتبعثه المناوضة ، فأحفظ عليهم ذلك في الحال ... وأسفده في أحوال . فلبت تطاولت السنون ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن ، ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذي إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه ، مات بموته ما يرويه ، ووجدت أخلاق ملوكنا ورؤسائنا لا تأتي من الفضل ، بمثل ما يحتوى عليه تلك الأخبار من النبيل ... بل هي مضادة لما تدل عليه تلك الحكايات من أخلاق المتقدمين وضرائبهم وطبائعهم ومذاهبهم ، حتى أن من يقي من هؤلاء الشيوخ إذا ذكر ما يحفظه من هذا الجنس بحضرة أرباب الدولة ورؤساء الوقت ، خاصة ما كان منه متافقا بالكرم ، ودألا على حسن الشيم ، ومتضمنا ذكر وفور النعم ، وكبر المهم ، وسعة الأنفس ، وغضارة الزمان ، ومكارم الأخلاق ، كذبوا به ودفعوه ، وجعلوه في أقسام الباطل وأستبعده ، ضعفا عن إتيان مثله ، وأستعظما منهم لصغير ما وصلوا إليه ، بالإضافة الى كبير ما احتوى أولئك عليه ، وقصورا عن أن تنتج خواطرهم أمثال تلك الفضائل والحاصل ، أو تتسع صدورهم لفصل ما يقارب تلك المكارم والأفضال . هذا مع أن في زمانهم من العلماء المحسنين في التعليم ، والأدباء المتخصين للتأديب والتفهيم ، وأهل الفضل والبراعة ، في كل علم وأدب وجدّ وهزل وصناعة من يتقدم بمجودة الخاطر ، وحسن الباطن والظاهر ، وشدة الخلق فيما يتعاطاه ، والتبريز فيما يمانيه ويتولاه ، كثيرا ممن تقدمه في الزمان ، وسبقه بالمولد في ذلك الأوان ، ويقتصر منهم على الإكرام دون الأموال ، وقضاء الحاجة دون المنارم والأهتقال ، فلا يرضون به راسا ،

ولا ينظرون إليه إلا أختلاسا ، لتساد هذا العصر ، وتباعد حكمه من ذلك الدهر ، وأن موجبات الدهر فيه متغيرة متقلبة ، والسنن دارسة متبيلة ، والرغبة في العلم معدومة ، والههم باطلة مفقودة ، والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع .

٥ - وهذه الفقرات التي أقتبسناها من مقدمة نشوار المحاضرة تصل بنا الى النتائج الآتية :

الأولى - يظهر أن المؤلف كان قوى الحس ، دقيق الملاحظة ، فكان لذلك يتعقب الأدباء والشعراء والوزراء ، ومن عدا هؤلاء من مختلف الطبقات ، ويبي كل ما يسمع ، ويقيّد كل ما يقع له من الأخبار والأشعار والمحاورات والمحادثات ، حتى أستطاع أن يكون نسيج وحده في هذا النوع من التأليف .

الثانية - يظهر أن المؤلف كان خصبا في لفته وإنشائه الى حد بعيد ، والذي يقرأ مقدمته كاملة يرى كيف كانت مفردات اللغة ومترادفاتها تنال عليه أنثيلا ، وإنه ليدكر بالاحاط في هذا الباب ، ولا يؤخذ عليه إلا شيء يسير من الالتواء حين يباعد مثلا بين الفاعل والمفعول ببطاقة من القرائن المتعاطفة المتواصلة بحيث يضطر القارئ الى تأمل ما تقدم من التراكيب ليظهر له الربط بين أجزاء الجملة التي قد لا تتم أحيانا إلا بعد عدة مسطور ، وربما غلب عليه الإسفاف في بعض التعابير حين يعتمد السجع ، كقوله في الكلمة التي أقتبسناها آنفا :

”والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع“ .

الثالثة - لم يكن التنوع من المؤلفين الذين يفردون المتقدمين بالإجادة والإبداع ، ويظنون أنه لا جديد تحت الشمس ، وأن المتقدم لم يترك شيئا للتأخر ، ولكنه يقتر أن في معاصريه من فاقوا الأولين ، ويقول : ” فقد نخرج في أعمارنا وما قاربنا من السنين من مكنون أسرار العلم ، وظهر من دقيق الخواطر والفهم ، ما لعله كان محتاسا على الماضين ، ومعتنا على كثير من المتقدمين “^(١) .

الرابعة — لم يكن المؤلف راضياً عن الحكم والأمراء من أهل زمانه فهو يراهم من المتخلفين في طباعهم ومذاهبهم ، ويحكم على أهل عصره بالفساد ، ويرى طباع أهله متغيرة ، ورغبتهم في العلم معدومة ، وهمهم مفقودة ، ويقول :

”فتحن حاصلون فيما روى من الخبر أنه لا يزداد الزمان إلا صموبة ، ولا الناس إلا شدة ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، وما أحسن ما أنشدني أبو الطيب المتنبّي نفسه من قصيدة في وصف صورتنا :

أتى الزمان بنوه في شبيته فسرهم وأثينا على الهرم^(١)

ويقول في مكان آخر من المقدمة :

”ولهذه الحال ما أنظمت المحاسن في هذه الدول ، وردت أخبار هؤلاء الملوك ، وخلت التواريخ من مجائب ما يجري في هذا الوقت : لأن ذوى الفضل لا يفنون أعمارهم بتشديد مفارغهم وإغاق نتائج خواطرم ، مع بعدهم من الفائدة ، وخلقهم عن العائدة ، وأكثر الملوك وذوى الأحوال ، والرؤساء وأرباب الأموال ، لا يحودون عليهم فيجيد هؤلاء لم نسج الأشعار والخطب ، وحوك الرسائل والكتب ، التي تبقى فيها المسائر ، ما بقي الدهر الغابر ، فقد بخل هؤلاء ، وغفل هؤلاء ، ورضي كل واحد من الفريقين بالتقصير فيما يحده ، والنقص فيما يستمده“^(٢) .

٦ — وواضح من هذا أن المؤلف كان ينتظر من أمراء عصره أن يمنوه بالمال ويعينوه على التأليف .

وبهذه المناسبة نذكر أن اعتماد شعراء اللغة العربية وأدبائها على رعاية الملوك والأمراء والوزراء لم يكن من البدع الشاذة التي انفرد بها العرب في المصور القديمة ، بل كان سنة شائعة في الشرق والغرب . ويكنى أن يذكر المرء مثلاً بلاط فرانسوا الأول أو لويس الرابع عشر أو فريديريك الثاني ليعرف أن شعراء أوروبا وأدباها كانوا يعيشون في رعاية ملوكهم ،

ويعتمدون على معونات ووزرائهم . وقد أقطعت هذه العادة أركادات من الشرق والغرب ، وأقبض الملوك والأمراء والوزراء عن تشجيع الكتاب والشعراء والمؤلفين . ولست أنسب انقطاع هذه العادة الى تغير الطباع وفساد الزمان ، كما فعل التنوخي ، فان عصرنا غير عصره ، وإنما أنسبها الى أن الشعراء والكتاب والمؤلفين قد أخذت خلاصتهم تستقيم ، وشرعوا يفهمون أن الأدب أعلى وأرفع من أن يكون صاحبه ملحقاً بمجاشي الملوك والأمراء . يضاف الى ذلك أن هذا العصر عصر الشعوب لا عصر الملوك . وللاذنب المتفوق ، والشاعر المبدع ، والكاظم البليغ ، ميادين أخرى للشعر والإنشاء والتأليف هي أجدى وأرفع وأقرب الى الثروة والغنى والجاه من تلك الصلوات الوضيعة التي كانت تخفض رعوس أصحابها أمام سدات الملوك .



٧ — أشرتنا من قبل الى أن ياقوت ذكر أن التنوخي أبدأ تأليف نشوار المحاضرة سنة ٣٦٩ وبيننا كيف غاب عن المستر مارجو ليوث أن يحو هذا الخطأ المين ، ونعود فنذكر أن المستر مارجوليوت حين غفل عن خطأ ياقوت أخذ يؤيده ويبنى عليه أن المؤلف ذكر خبراً سمعه سنة ٣٤٩ ثم أكثر من حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثاً حدث سنة ٣٦١

وهذا كله خطأ من حيث الوضع : فان ورود حوادث وقعت بعد سنة ٣٦٩ في صلب الكتاب لا يدل على أنه ألف في ذلك الحين . والحقيقة أن المؤلف شرع في وضع كتابه بعد التاريخ الذي ذكره ياقوت وحاول تأسيسه مارجو ليوث بنحو خمس وعشرين سنة ، ولننظر ماذا يقول المؤلف نفسه :

”وأنتق أيضاً أنى حضرت المجالس بمدينة السلام في سنة ستين وثلاثمائة بعد غيبتى عنها ستين فوجدتها مغيبة ممن كانت به عامرة ، وبمذاكرته أهلة ناضرة ، ولقيت بقايا من نظراء أولئك الأشياع ، وبحث المذاكرة فوجدت ما كان في حفظي من تلك المحادثات قديماً قد قَلَّ ، وما جرى من الأقوال في معناها قد آختل ، حتى صار من يحكي كثيراً مما سمعناه يخطئ بما يجهله ويفسده ، ورأيت كل حكاية مما أنسيت له لو كان باقياً في حفظي لصلح لفتن من المذاكرة ، ونوع

من تشوار المحاضرة، فثبت ما بقي على ما كنت أحفظه قديماً، واعتقدت إثبات كل ما أسمعته من هذا الجنس، وتلميعه بما بحث على قراءته من شعر المتأخر من المحدثين، أو مجيد من الكلاب والمتأدين، أو كلام مشهور لرجل من أهل العصر، أو رسالة، أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر، ممن لم يكن في الأيدي شعره ولا قره، ولا تكرر نسخ ديوانه، ولا تردت معاني إحسانه، وما فيه من مثل طرئ أو حكمة جديدة، أو نادرة حديثة، أو فائدة قريبة المولد، ليعلم أن الزمان قد بقي من القرائح والآداب، في ضروب العلوم والآداب، أكثر مما كان قديماً أو مثله، ولكن قبيل أن باب تلك النول للأدب أظهره ونشره، وزُهد هؤلاء الأئمة في هذا الأدب غمره وسره“.

فهذه الفقرة واضحة الدلالة على أن المؤلف لم يشرع في جمع مواد كتابه إلا بعد سنة ٣٦٠ و إيراد بعض حوادث سنة ٣٤٩ لا يدل على أنه ألفه قبل ذلك كما فصل مارجوليوت تأييداً لكلام ياقوت^(١).

٨ — أما طريقة التنوخي في التأليف فتتضح من قوله :

”وأوردت ما كتبه مما كان في حفظي سالفاً، مختلطاً بما سمعته آفاً، من غير أن أجمله أبواباً مبوبة، ولا أصنفه أنواعاً مرتبة، لأن فيها أخباراً تصلح أن يذاكر بكل واحد منها في علة أما كن، وأكثرها مما لو شغلت نفسي فيه بالنظم والتأليف، والترتيب والتصنيف، لبرد وأستقل، وكان إذا قاربه على خبر من أول كل باب فيه، علم أن مثله باقيه، فقلّ لقراءة جميعه آرتياحه ونشاطه، وضاق فيه توسطه وأنبساطه، ولكن ذلك أيضاً يفسد بما في أثنائه من الفضول، والأشعار والرسائل والأمثال والفصول ... بل لعل كثيراً مما فيها لا نظيره ولا شكل، وهو وحده جنس وأصل، وأختلطها أطيب في الأذان وأدخل، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل“^(٢).

(١) الواقع أن ياقوت لم يحضّر حتى يتابعه مارجوليوت على الخطأ، فقد جاء في ياقوت أن التنوخي ابتداء تشوار المحاضرة سنة «٣٦٠» فكيف مارجوليوت «٣٦٠» وأنه على ذلك توهمه أن التنوخي ابتداء كتابه سنة «٣٣٦».

ولعل القارئ يتنبه هنا أيضا الى صنعة هذا الكاتب في إنشائه فهي تمضي به أحيانا الى التهافت والإسفاف . لا سيما اذا لاحظ قوله : "وأختلطها أطيب في الآذان وأدخل، وأخف على القلوب من الآذان وأوصل" فقد أراد أن يمانس ويوازن بين الآذان والآذان فمضى به ذلك الى الغموض، فضلا عن أنه ليس من المقبول أن يقال : "أخف من الآذان" إذ ليس من سلامة النطق أن يدعى المرء أن كلامه أخف على القلوب من كلمة "الله أكبر، الله أكبر" وهي الكلمة الباقية على الزمان . وتلك هفوة تذكر هفوة المتنبي إذ قال :

يرشفن من في قطرات هن فيه أحلى من التوحيد

والمؤلف ، في الجملة ، يسلك مسلك الاستطراد فينتقل بالقارئ من قصة الى قصة ، ومن حديث الى حديث ، بلا ترتيب ولا تبويب . وقد صنع هذا الصنيع غير واحد من تقدموه وعاصروه وخلفوه ، وهو منهج له قيمته في تسويق القارئ ونقله من حال الى حال ، بين الجدل والمزمل ، والحلو والمر ، والتقديم والطريف .

٩ — والمؤلف مع ذلك يحدّثنا أنه أراد أن يقدم لقرائه "من آداب النفس ، ولطافة الذهن والحس ، ما يفنيه عن مباشرة الأحوال ، وتلقن مثله من أفواه الرجال ، ويحسكه في العلم بالمعاش والمعاد ، والمعرفة بمواقب الصلاح والفساد ، وما يفضي اليه أواخر الأمور ، ويساس به كافة الجمهور ، ويحسبه من المكاره حتى لا يتوغل في أمثاله ، ولا يتورط بنظائرها وأشكالها ، ولا يحتاج معها الى إضفاق عمره في التجارب ، وانتظار ما تكشفه له السنون من المواقب"^(١) .

فهو إذن مقتنع باستفادة القارئ من تجارب من سبقوه ، ونحن نوافق على ذلك مع تحفظ ، إذ كما نعتقد أن المرء لا يتفهم جيدا مرامي الحوادث الماضية إلا اذا اتصلت بمجواته الحاضرة ، وزى أن الرجل الخالي للذهن من المشاكل العقلية والخلقية والوجدانية والاجتماعية يقرأ ما يقع له من تجارب الأولين بذهن خامد ، وعقل مشكول ، ولب معقول . أما الرجل الذي أصطدم بمجوات دهره ، ومشاكل عصره ، فانه يقرأ أحاديث من سبقوه

بعقل يقظ، وفكر متنبه، وقلب حساس، إذ يرى من يواجهه بحقيقة نفسه، ويحدّثه عن قلبه، ويراجع معه مشاكل وجدانه، ومصاعب إحساسه، ومن هنا نشأ ما نراه من اختلاف التقدير للأثر الفني الواحد: فكّم قصيدة وكّم رسالة وكّم قصة يبكي لما هذا ويسخر منها ذاك، والفرض هو هو لم يتغير لا في وضعه ولا في مرماه، وإنما تختلف النفوس والقلوب والمقول بحسب ما تمر به من مختلف الأحداث وشتى الظروف: فهنا قلبٌ هادئٌ وهناك قلبٌ مترددٌ وهناك قلبٌ مضطربٌ. ودليل ذلك أيضا أنك قد قرأت الرسالة أو القصيدة أو القصة فلا تحرك نفسك ولا تبيج وجدائك، ثم تعود إلى ما قرأته مرة ثانية في أحوال مخالفة، وظروف مغايرة، فترى ذلك الأثر الفني الذي لم يرك في اللحظة الأولى قد راعك وبهرك وشغلك بنفسك وقلبك حين عدت إليه للمرة الثانية. ودليل آخر هو صلاحية النفس في الشباب لآثار فنية وأدبية لا توافقها في حال الكهولة، فلشباب آداب، وللكهولة آداب، ومن الخطأ أن يظن أن قيمة الأثر الفني تقدر بصلاحيته لجميع النفوس، وقدرته على التأثير في جميع القراء من شباب وكهول، ورجال ونساء. ولا يقدر حقيقة ما نقوله إلا من خبر نفسه، ودرس مشاكل عقله ووجدانه وقلبه، وتأمل كيف يكون سكون النفس وأضطرابها، وكيف يكون شغل القلب وفراغه، وعرف أن الفرائز الانسانية أهول وأخطر وأفزع من أن يوضع لها مقياس ضابط لما تصلح له على اختلاف النوازع وفي جميع الأجيال.



١٠ - أشرنا من قبل إلى أسلوب التنوخي وصنعتة في الإنشاء، ونحب أن نعود إليه بشيء من التفصيل.

يمدّ التنوخي من كبار الكتاب في زمانه، وقد استجابت له اللغة وطلاوعه البيان، وحسبُ القارئ أن يعرف أنه أقرد من بين المؤلفين بصياغة كل ما أشتمل عليه كتابه من مختلف الأقسام والأقسام والأقسام. وتلك قدرة عظيمة أن يقصد الكاتب إلى كل ما سمعه فيدونه في عبارات فصيحة محبوكة الأطراف، لا قلق فيها ولا اضطراب. على أنه قد أعطانا نماذج من ثمره المصنوع الذي عملت فيه الروية، وصاغه التدبر، وأملأه الفن على قلبه البليغ،

وفى تلك التماذج القليلة تظهر صنعة التنوى جيدة باهرة ، تشهد له بالخلق وطول الباع ،
والى القارئ كتابه الى بعض الرؤساء :

” لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت
عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ،
وتوفاك اذا كانت الوفاة أصح لك ، بعد عمر مديد ، وسمو بعيد ، وختم بالحسن عملك ،
وبلغك فى الأولى أملاك ، وسدد فيها مضطربك ، وأحسن فى الأثرى مثقلك ، إنه سميع
مجيب ، جواد قريب^(١) .

وفى ظنى أن هذا الكتاب أغنى ما يكون عن الشرح والتعليق ، وللغارىء أن يتأمل قوله :
” لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ” فان هذه الجملة تدلنا على فهم الكتاب
لنفوس الكرام ، فانه ليس أصعب ولا أعسر من أن يضطر الكريم الى اقتضاء ثمن المعروف ،
لأنه لا ينتظر ثمن المعروف إلا لثام الناس . وأنظر بعد ذلك تعرضه فى حكمة ورفق الى الحياة
والموت . فانه لم يطلب لرئيسه ما طلب أبو نواس للأمين إذ قال :

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن
أنت تبقى والفناء لنا فاذا أفئتنا فكر

فذلك أمنية سخيفة أن يدعو الناس بعضهم لبعض بالبقاء والخلود فى دنيا لا بقاء فيها
ولا خلود .

وإذا مضيتا نعرف الى التمايز الجميلة فى كتاب التنوى وجدناها كثيرة ، فأى جمال فاته
فى قوله :

” ونعوذ بالله من الإديار ، وتغير النعم ، وإيحاشها بقلة الشكر^(١) .

وللقارئ أن يتأمل كيف تستوحش النعم بقلة الشكر ، فانه تصوير جميل ، آس الله نعمنا
بما يلهمنا من واجب الشكران .

وأنظر قوله على لسان رجل يخاطب رئيساً أتهره على البكور إليه :
 " ما العجب منك . العجب مني حين ربطت أملئ بك ، وأسهرت عيني توقعا للفجر
 في البكور إليك ، وأسهرت عيالي وغلماني ، وتحملت التجثم إليك ، وأزلت بك حاجتي ، حتى
 نلتقاني بمثل هذا ^(١) " .

وعند التنوخي ألفاظ متخيرة قلّ استعمالها اليوم ، مع أنها دقيقة الدلالة على معانيها ، من
 ذلك قوله على لسان ابن الجصاص :

" قتت البارحة في الظلمة الى الخلاء فإزلت ألتلحظ المقعدة حتى وقعت عليها ! ^(٢)
 فان كلمة " ألتلحظ " أدق من كلمة " أجلس " التي كثر استعمالها اليوم .
 وقوله على لسان بعض الخلقاء في العزم على إيقاظ رجل طالعت عطلته ، وبمحل ذكره :
 " إذا أقبلنا عليه ونديناه لهذا الأمر العظيم تجمّد ذكره ، ونظري أمره ^(٣) .
 فان كلمة " نظري " تعطي صورة جديدة ، فكان الجاه الخامل ، يماثل العود الذابل ،
 وكأن إقبال الدنيا يصنع بالرجل المحدود ، ما يصنع الماء بالعود .

وعند التنوخي مرونة في التعبير وذلك أهم ما يتحلى به صائغ الكلام . وأنظر قوله :
 " فباكرت اسماعيل حين رأيته قال : هذا وجه غير الوجه الأمسي ^(٤) " .
 يريد : هذا وجه غير وجه الأمس ، والنسبة الى الأمس قليلة في الكلام ، مع أنها أدل
 على معناها من الإضافة وأصرح في الأداء .

وأنظر قوله على لسان صديق ينصح صديقه وقد عرض عليه الوالي أن يتقلد القضاء
 فرفض :

" اتق الله في نفسك ! ... إنك تعود الى بلدك فيقول أعداؤك : طلب القضاء فلما
 شوهد وجد لا يصلح فرد ^(٥) " .

فقد جمعت الجملية الأخيرة صورا عديدة من أدق ما يكون من الإيجاز، والايجاز لا يقع مثل هذا الموقع إلا من كاتب مرن يعرف كيف يقود القلم ويسوس الكلام .
ومن مظاهر المرونة قوله :

” فلما رأى أبو جعفر أكبر ذلك وتهلل وجهه وقال : إلى عندي ياسيدى إلى عندي“^(١).

ومعروف أن « عند » تنصب على الظرفية ولا تجر إلا بن . نحو : من عند الله ،
بغيرها بالى سير إلى الحرية في التعبير .

١١ - فإذا خَلِّنا مرونته وتصرفه في الكلام جانبا وهضينا نستقصى ما أثبتته من التماير العامة وقع لدينا من ذلك شيء كثير . ويحدر بنا في هذا المقام أن تؤكد ما قلناه في دراسة أسلوب أحمد بن يوسف المصرى : ونحن نرى أن إدخال بعض التماير العامة الدقيقة في اللغة الفصيحة يزيد ثروته ، والناس لا يلجأون إلى العامة إلا حين يرونها أقرب إلى تصوير أغراضهم في بعض الأحيان . والعامة هي عنصر من اللغة الفصيحة دخل في حكم المبتذل بكثرة الاستعمال ، والمكاتب المحيد يستطيع أن يلقي عليها مسحة من الطرافة والجلدة بحيث يراجعها رونقها القديم . وسنرى في هذه الدراسة أصول التماير الجارية على ألسنة الناس ، فإن أكثرها كان فصيحاً ، فلما كثر تداوله أضيف ظلمها إلى لغة العوام وتحاماه كبار الكتاب .

(١) من ذلك كلمة « الصورة » بمعنى الحالة ، نجددها على ألسنة التجار والفلاحين فنعمدها عامة ، ولكنها في كلام التنوين كانت فصيحة ، وأنظر قوله :

” فدخلنا إليها لحين رآه أكرمته ، وبشت به ، وسأته عن خبره فصدقها عن الصورة“^(٢) .

(ب) والعامة يقولون : « فأنشه » إذا أخبره ليعرف ما عنده من سر أو كفاية ، ويقولون « كسبه » بتشديد السين إذا فتح له باب الكسب ، وقد وقعت هاتان اللفظتان في قول التنوين :

” فلزمه وفأنشه فوجده كاتباً فاستخدمه وكسبه مالا عظيماً“^(٣) .

(ج) ونحن نتبين أن نكتب « شال المائدة » بمعنى رفعها ؛ لأن القاموس لا ينص إلا على شال به إذا رفعه ، والعامية يقولون بدون تحرج « شالوا الطعام » بمعنى رفعوه . فلنتظار كيف وقع هذا التعبير منذ عشرة قرون في قول التنوخي :

” ما تسمع نفسي بطريق التشبيب على هذا الحب ، شيلوه “^(١) .

وقوله :

” وقام أبو جعفر ، وقتنا ، وشيلت المائدة “^(٢) .

وقوله : ” فشالني الجيران الى مثلي “^(٣) .

(د) والعامية يقولون : ” اخرج برا “ أي الى الخارج ، وقد ورد هذا التعبير في قول التنوخي :

” فانخرج الى برا حتى أصعد أكلك من فوق “^(٤) .

(هـ) وفي الأقاليم المصرية تكثر كلمة ” روزنة “ وهي الفتحة في السقف أو في الحائط ، وأكثر الكتاب يسمون هذه اللفظة غنا منهم أنها عامية مع أنها موجودة في كلام التنوخي إذ يقول :

” فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة في الدار الى الشارع “^(٥) .

(و) وكلمة ” بطل “ كثيرة الوقوع في لغة التخاطب ، ولكن قلما يستعملها الكتاب . وكانت قديما مستعملة في اللغة الفصيحة ، وحكاها التنوخي فقال على لسان أحمد بن محمد المدائني يحاور بعض الصوفية :

” أخبرني إذا كنت شيخا في معتك ، حلسا في ذات نفسك ، فأصاب يافوخك تقطيع يعرب خزرك على سبيل العلم ، وكنت تحت الارادة ، هل يضر أوصافك شيء من تعطفك بجبل القدرة ، يا بطل ! “^(٦) .

(١) ص ١٤١	(٢) ص ٢٣٢	(٣) ص ١٥٢	(٤) ص ٩١
(٥) ص ٩١	(٦) ص ٥٤		

(ن) والعامه يستعملون كلمة "أذيه" بمعنى إبناء، وقد وقعت في كلام التنوخى إذ قال :
" فأردت أذيه ابن الحارث " .^(١)

(ح) وكلمة "صبيه" بمعنى فتاة كانت مستعملة في اللغة الفصحى، وقد هجرت اليوم ،
وقد جاء في كلام التنوخى على لسان عربي :
" روهاتين الصبيتين الشعر " .^(٢)

(ط) وعوام مصريقولون " جرف الأموال " بمعنى آتتها ، وهى كذلك في نشوار
المخاضرة في قصة وقعت في مصر .^(٣)

(ع) والعوام يستخفون حذف نون الرفع في " يفعلون " و " فعملين " والتنوخى
يجرى ذلك في اللغة الفصحى فيقول :
" فبعثت في جمعها والرسل تكذب بالاستعجال ، والفهارمة يستبطئون " .^(٤)

(ك) وكلمة "ست" بمعنى سيدة ، كانت مستعملة في اللغة الفصحى ، وكان ظنى أنها
لم تستعمل إلا في مصر ، حيث يقدر أنها كلمة مصرية قديمة ، ولكنى رأيتها قد استعملت
كذلك في بغداد ، واليك الشواهد الآتية :
" نقلت لها يا ستى إني قد عملت أبياناً أشتى أن تصنعى فيها لحناً " .^(٥)

" كنت مملوكاً رومياً فأت مولاي فتفتنى فحصلت لنفسى رزقاً برسم الرحالة وتزوجت
بستى زوجة مولاي ، وقد علم الله أنى لا أتزوجها إلا لصباتها ، لا لغير ذلك " .^(٦)
" فقال لها يوما : بالله يا ستى غنى " .^(٧)

والسيو مرسية يرجح أن كلمة "ستى" مخففة عن "سيدتى" لا أنها منقولة عن "ست"
المصرية بدليل استعمالها في بغداد ، ولست أرى ما يمنع أن تكون أنقلت الى بغداد عن
طريق المصريين .

(١) ص ١٣٩	(٢) ص ١٣٢	(٣) انظر ص ٢٦٢	(٤) ص ١٤٣
(٥) ص ١٣٢	(٦) ص ٢٤٦	(٧) ص ٥٥	

(ل) والعوام يقولون : " ما علينا من فلان " وهي في الأصل عبارة فصيحة ، وأنظر قول التنوخي :

"فدخل عليه غلمانه فقالوا : يا سيدنا ! الوز يرجتاز في شارعنا . فقال : ما علينا منه !"^(١)

(م) والعامية يقولون أحيانا : " هاتم " في مكان " هاتوا " وقد وقعت في كلام التنوخي على لسان المعتضد :

"هاتم أعمدة الخليم الكبار الثقال"^(٢) — "هاتم فلانا الطيبي"^(٣) .
وفي موطن آخر : "هاتم فلانا الكاتب"^(٤) .

وما تريد أن نسرف في الاستقصاء ، وفيما أسلفناه ما يكفي للإبانة عن مرونة التنوخي وقدرته على التصرف في فنون الكلام ، وفي هذه الشواهد مقنع لمن يريد أن يعرف كيف تطورت التأثير ، وكيف أمتزج العامية بالفصحى .

♦ ♦ ♦

١٢ — بقي علينا أن نشير إلى بعض ما أشتمل عليه نسوار المحاضرة من طرائف الأخبار ، وهو كما قدمنا يرجع إلى عتة ألوان ، منها الحلو والمز ، والجذ والمزحل . فمن خير ما فيه من الجذ ما كتب المؤلف خاصا بالحسن بن علي بن زيد المنجم إذ قال بعد كلام :

"فكنت إذا جئت — وهو إذ ذاك على غاية الخللة وأنا في حدّ الأحداث — اختصني ، وكان يسجبه أن يقرّط في وجهه ، فأفاض قوم في مدحه ، وذكر عمارته للوقوف والسقابات ، وإدارة الماء في ذنابة المرقان وفريقه مال الصدقات على أهلها ، وذنبت بهم في ذلك فقال لي هو : يا بني ! أرباب هذه الدولة إذا حدثوا عنى بهذا وشبهه قالوا : المنجم إنما يفعل هذا رياء ، وما أصله إلا الله تعالى ، وإن كان رياء فهو حسن أيضا ، فلم لا يراون بمثل هذا الرياء ؟ ولكن الطباع خست حتى الحسد أيضا ، كان الناس قديما إذا حسدوا رجلا

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ١٤١ (٤) ص ٤٥ (٥) المرقان : نهر بخرزسان ، والذئابة بالضم وتكسر طرف الوادي . (٦) عل العوابع : ذهبت معهم في ذلك .

على يساره حرصوا على كسب المال حتى يصيروا مثله ، وإذا حسدوه على علمه تعلموا حتى يضاهوه، وإذا حسدوه على جوده بذلوا حتى قبل إنهم أكرم منه...^(١) فالآن لما ضممت الطباع، وصفرت النفوس. ، وعجزوا عن أن يحملوا أنفسهم مثل من حسدوه في المعنى الذى حسدوه عليه ، عدوا الى تنقص المبرز، فان كان فقيرا سعوا على فقره، وان كان علما خطئوه، وان كان جوادا قالوا هذا متاجر يجوده ويخونوه، وإذا كان فقرا قالوا هذا مراء...^(٢)

ففى هذه الفقرات تحليل دقيق لطباع الناس، ونرى المنجم مع حبه لحسن السمعة وبُعد الصيت يذكر أنه يعمل ما يعمل آبتناء مرضاة الله . والواقع أن الموفقين لعمل الخير قلما يسلون من حب المدح والثناء ، والطبيعة البشرية أضعف من أن تقبل على الخير المطلق ، فكل محسن يجب أن يذكر إحسانه بالجميل ، مهما أخلص لله، وعلى الجاهلين أن تفهم ذلك، وأن لا تنفن على المحسنين بمظاهر التمجيل، فانه لا شئ أقتل لنوازع الخير في نفوس الكرام من نكران الصنيع، وقد أفصح عن هذا يحيى بن طالب إذ قال :

يُرْهَدْنِي فِي كُلِّ خَيْرٍ صَنَعْتُهُ إِلَى النَّاسِ مَا جَرَّبْتُ مِنْ قَلَّةِ الشُّكْرِ

ونرى المنجم بعد ذلك يعود الى نقد طباع الناس فيذكر أنها خست وضعفت ، وأن رذائلهم كان فيها قديما شئ من النفع ، حين كان الحسد يحملهم على مباراة من يحسدون في ميادين العلم والسخاء والمال. فقد كان الحسد من البواعث على الجود والتحصيل، ثم خبت ناره، وصار علالة يتلهى بها ضعفاء العزائم وصغار النفوس .

١٣ - ومن طرائف الأقاصيص الجدية ما نقله مرويا عن وهب بن منه أنه كان في عهد بني إسرائيل حمار يسافر بحمّله ، ودمه قرد، وكان يمزج الخمر بالماء نصفين ، وبيعه بسعر الخمر، والقرد يشير اليه أن لا تفعل ، فيضربه ، فلما فرغ من بيع الخمر وأراد الرجوع الى بلده ركب البحر وقرده معه، وُخِرَجَ فيه ثيابه والكيس الذى جمعه من ثمن الخمر، فلما سار في البحر

(١) حتى قيل : كما في الأصل وظاهر أن السياق يستوجب « حتى يقال » .

(٢) عليها شنوا . (٣) من ١٢ و ١٣

استخرج القرد الكيس من موضعه ، ورقى الدقل وهو معه حتى صار في أعلاه ، ورمى الى المركب بدرهم والى البحر بدرهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى قسم الدراهم نصفين ، فساكن بحصة الخمر روى به الى المركب بفهمه صاحبه ، وما كان بحصة الماء روى به الى البحر فهلك ، ثم نزل عن الدقل ^(١) .

ونشير أولاً الى أن هذه الأقصوصة تخرج عن شرط نشوار المحاضرة ، وإن لم يشر المؤلف الى ذلك ، فإن من المؤكد أن أخبار وهب بن منبه وأكثر الامريثليات كانت دؤنت قبل القرن الرابع .

ومفدى هذه الأقصوصة واضح : فإن واضعها يريد أن يقرر في الأذهان أن فكرة الخير والشر والحرام والحلال لا تختفى على أحد ، وأنها مفهومة عند القرد ، في وقت لم يكن فيه من يرى أن القرد أصل الانسان ، أو هو إنسان فاته الترقى والنهوض ، والأقصوصة ظريفة في وضعها وفي الخيال الذي صبّت فيه ، ولا سيما اذا لا حفظنا ان عند القرد جوانب مضيفة في ذهنه ، وأن له من الشائيل الانسانية نصيباً غير قليل ، وفي الأقصوصة تسجيل لطرائق اليهود في جمع المال عن طريق المكسب الخبيث ، وكذلك يفعلون .

٤ - ومن الأخبار الدالة على قوة النفس أن أبا بلك الخرمي الماز يارقال له لما أدخلنا على المتعمم . يا بلك ! انك قد عملت ما لم يعمله أحد ، فاصبر الآن صبرا لم يصبره أحد . فقال له : سترى صبرى ! فلما صارنا بحضرة المتعمم أمر بقطع أيديهما وأرجلها بحضرتة ، فبدى بيا بلك قطعت يماه ، فلما جرى دمه مسح به وجهه كله حتى لم يبق من طية وجهه وصورة سمته شيء ، فقال المتعمم : سلوه لم فعل هذا ؟ فسئل فقال : قولوا للخليفة : إنك أمرت بقطع أربعتي وفي نفسك قتل ، ولا شك أنك لا تكونيا وتدعى دمي يتزف الى أن تضرب عني ، فغشيت أن يخرج الدم مني فتبقى في وجهي صفرة يفسد لأجلها من حضر

أنى قد فزعت من الموت، وأنها لذلك لا من خروج الدم، ففطيت وجهي بما مسحته عليه من الدم حتى لاتبين الصفرة .

فقال المعتصم : لولا أن أضاله لا توجب العفو عنه لكان حقيقا بالاستبقاء لهذا الفضل وأمر بامضاء أمره فيه : فقطعت أربعته ثم ضربت عنقه، وجعل الجميع على بطنه وصب عليه النفط وضرب بالنار، وفعل مثل ذلك بأخيه فما كان فيهما من صاح أو تآوه ^(١) .

وأما هذه الأخبار فتمسرن السرق عنف الثورات التي كانت تهتد الحكومات الاسلامية، فقد كانت هناك مطامع، وكانت هناك عزائم أقسى من الصخر وأمضى من السيوف، وفي أخبار تلك النفوس الطاغية ما يفسر لنا أيضا كيف كانت الحكومات الاسلامية تعتمد دائما على قادة من الطغاة المستبدين، فانه لا يفضل الحديد إلا الحديد، ولكل عراق حجاج !

١٥ — وفي نشوار المحاضرة أخبار كثيرة عن أربحية الوزراء ومخائهم، من ذلك ما نقل المؤلف عن أبيه أنه سمع القاضي أبا عمر يقول :

عرض إسماعيل القاضي وأنا معه على عبيد الله بن سليمان رقاعا في حوائج الناس فوقع فيها، فعرض أخرى وخشى أن يكون قد ثقل عليه فقال له : إن جاز أن يتطول الوزير أعزّه الله بهذا . فوقع له . فعرض أخرى وقال : إن أمكن الوزير أن يجيب إلى هذا . فوقع له . فعرض أخرى وقال : إن سهل على الوزير أن يفعل ذلك . فوقع له . فعرض أخرى وقال شيئا من هذا الجنس، فقال له عبيد الله : يا أبا إسحاق ! كم تقول إن أمكن وإن جاز وإن سهل ؟ من قال لك إنه يحبس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعل شيء على وجه الأرض من الأمور فقد كذبك، هات رقاعك كلها في موضع واحد . قال : فانرجها إسماعيل من كفه وطرحها بحضرته فوقع فيها . وكانت مع ما وقع فيه قبل الكلام نحو ثمانين رقعة ^(٢) .

وفي مثل هذا الخبر إن محنت تفاصيله ما يبين كيف تضعضت الحكومات الإسلامية وتداخت في زمن قليل، فقد كان الوزراء مفتونين بالمجد الكاذب والمجد المصنوع . ولا ننس أن أمثال هذه الرقاع التي كان يمضيها الوزراء بلا تردد كانت ترجع إلى الاستجداء وكان الوزراء يعرفون أن أتباعهم يستفيدون من قضاء حوائج الناس ، وفي نشوار المحاضرة نصوص تدل على أن الرشوة كانت شيئا مفهوما في مكاتب الوزراء .

١٦ - وشيوع الرشوة بين طبقات الحكام فسر لنا غوامض التاريخ الإسلامي، فقد أكثر المؤرخون القول في نكبة البرامكة مثلا وردوها إلى أصول أكثرها صحيح، ولكن أكبر الأسباب فيما أقرض هو إقبال ذوى الحاجات على البرامكة، وكان لذلك الإقبال ربح مستور يحمله بعض الناس ويعرفه الرشيد . ولهذا السبب عينه نرى كيف كان الخلفاء يستصفون أموال عمالهم ووزرائهم حين يفضون عليهم ، وكانت مصادرة أموال الحكام المضروب عليهم لا تجرد من يتفرغ لها من الجمهور الذي كان يعرف أنها جمعت من الحرام .

ونستطيع أن نفهم من هذا كيف كان فريق من ذوى الدين والمروعة ينفر من المناصب العمومية، وخاصة منصب القضاء . وأهل العصر الحاضر لا يفهمون هذا حق الفهم : لأن رقابة الجمهور عن طريق الصحافة كبحت كثيرا من جشع الحكام والوزراء، وكشفت عورات كثير من المناقبين الذين يدعون نقاء الأيدي والمرائر، واقه بما يضمرون علم !

١٧ - ومن طريف ما في نشوار المحاضرة حديث القاضي أبي يوسف مع زوجته حين كان فقيرا، فقد نقل أن أبا يوسف محب أبا حنيفة لحلم العلم على فقر شديد، فكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش، فيعود إلى منزل مختل، وأمر قل، فطال ذلك، وكانت أمراً أنه تحتال له ما يقتاته يوما بيوم، فلما طال ذلك عليها خرج إلى المجلس وأقام فيه يومه، وعاد ليلا فطلب ما يأكل، فجاءته بضاعة مغطاة، فكشفها فإذا فيها دفاتر، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع، فكل منه ليلا ! فبكى وبات جائعا، وتأخر من غد عن المجلس

حتى أحتال ما أكلوه، فلما جاء إلى أبي حنيفة سألته عن تأخره فصدقه، فقال : ألا عرفتني فكنت أمدك ؟ ولا يجب أن تنعم، فإنه إن طال عمرك فسناكل بالفقه اللوزينج بالفسق المقشور. قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد وأختصصت به قُدمت بحضرته يوما جامعة لوزينج بفسق، فحين أكلت منها بكيت وذكرت أبا حنيفة، فسألني الرشيد عن سبب ذلك فأخبرته .

وهذا الحديث من أطرف ما يتأمل به طلبة العلم الذين يرجون أن يفيهم الله بعد فقر، ويرفعهم بعد جمول .

وقد ذكر التنوخي السبب الذي اتصل به أبو يوسف بالرشيد،^(١) فأرانا أن أبا يوسف كان يتلطف بعض الشيء في فتاويه ليخرج أميره من بعض المحرجات. وهذا بالطبع جانب ضعيف من أبي يوسف ومن الرشيد، ولكن أين نحن من أولئك الناس ! أولئك قوم كانوا يشعرون بمعاني الحلال والحرام، ويتمسكون لضائرهم وسائل الهدوء في ظلال التأويلات . أما أهل العصر الحاضر فقد أنصرفوا عن استفتاء الفقهاء فيما يحزبهم من أزمات الضائر والقلوب، وصار أكثر الناس لا يبالي ما حرمت الشرائع وما حلت من مختلف الشئون، وعاد الأمر كله إلى القوانين الوضعية، بحيث لا خطر على الجاني إلا أن يؤخذ، ولا عاصم لصاحب الحق إلا أن يكون بيده عهد مكتوب !

١٨ — ويظهر من تشوار المحاضرة أن المتقدمين كانوا يستكثرون أن يكون للقضاة هوى وتشيب، فقد جاء فيه أن أبا إسحاق الزجاج قال :

” كالأيلة بمضرة القاسم بن عبيد الله وهو وزير ففنت جاريته بدعة :

أدلى فأكرم به من مدلى ومن ظالم لدى مستحل

إذا ما تمسزز قابله بذل وذلك جهد المقل

فأذت فيه صنعة حسنة، فطرب القاصم عليه طرباً شديداً، وأستحسن الصنعة والشعر، وأفرط في وصف الشعر، فقالت بدعة : يا مولاي ! إن لهذا الشعر خيراً أحسن منه . قال : ما هو ؟ قالت : هو لأبي حازم القاضي ! قال : فحجبتنا من ذلك مع شدة تقشف أبي حازم وورعه وتقضيه . فقال لي الوزير : بالله يا أبا إسحاق بكر إلى أبي حازم واسأله عن هذا الشعر وسببه ، فباكرته وجلست حتى خلا وجهه ولم يبق إلا رجل يزى القضاة عليه قلنسوة ، فقلت له : بينا شيء أقوله على خلوة . فقال : قل ، فليس هذا بمن أكرم ، فقصصت عليه الخبر، وسأله عن الشعر والسبب، فبتم وقال : هذا شيء كان في الحدادة قلته في والدته هذا (وأوماً إلى القاضي الجالس فلذا هو أبه) وكنت إليها مائلاً ، وكانت لي مملوكة وقلبي مالكة ، فأما الآن فلا عهد لي بمثله منذ سنين ، ولا عملت شعراً منذ دهر طويل ، وأنا أستغفر الله مما مضى . قال : فوجم الفتى ونجمل حتى أرفض عرقاً . وصعدت إلى القاصم فأخبرته فضحك من نجمل الابن وقال : لو سلم من العشق أحد لكان أبو حازم !^(١)

والفكرة في ذاتها مقبولة ، فإن العشق والتشبيب من ألوان المرح التي قضى العرف باستهجان صدورها من القضاة . على أن عواطف الحب كانت تحتاج كثيراً من قضاة المسلمين ، وكتب الأدب مملوءةً بأخبارهم في هذا الباب . من أجل ذلك أرجح أن عجب ذلك الوزير وأصحابه من غزل أبي حازم لم يكن مصدره أنه قاض لا يصح أن يتنزل ، وإنما كان لأن أبا حازم اشتهر بالثقي والتصون حتى صار من المستغرب أن ينسب إليه حب أو تشبيب . أما نجمل الابن فصدره فيما أظن أن أباه صرح بأن أمه كانت مملوكة له ، وأنه تزوجها طاعة للهوى .

١٩ - وفي نشوار المحاضرة أخبار يدل على أن الفناء لم يكن من العمل المقبول ، بحيث

كان القيان محتججاً إلى التوبة إن كتب الله لمن التوفيق . وفي ذلك يقول المؤلف :

” أخبرني من أئق به أن إبراهيم بن المدر قال : كنت أمتشق عريب دهرًا طويلاً ، وأتفق طبعها مالا جليلاً ، فلما قصصني الزمان ، وتركت التصرف ولزمت البيت ، كانت هي

أيضا قد أسست وثابت من الفناء وزمنت ، فكننت جالسا يوما اذ جاء بوابي وقال : طيار عريب بالباب ، وهي فيه تستأذن . فحجبت من ذلك وأرتاح قلبي اليها ، فقامت حتى نزلت بالشط فاذا هي جالسة في طيارها ، فقلت : يا ستي ! كيف كان هذا ؟ قالت : اشتقت إليك ، وطال المهد ، فأحببت أن أجده وأشرب عندك اليوم ! قلت : فأصعدى . قالت : حتى تجي ، محقي ، قال : فاذا بطيار لطيف قد جاء وفيه المحفة ، فأجلست فيها وأصعدتها الخدم ، وتحدثنا ساعة ، ثم قدم الطعام فأكلنا ، وأحضر النبيذ فشربت وسقيتها فشربت ، وأمرت جواريا بالفناء ، وكان معها منهن عدة محسنات طياب حذائق ، فتفتين أحسن غناء وأطيبه ، فطربت وسررت ، وقد كنت قبل ذلك بأيام عملت شعرا ، وأنا مولع في أكثر الأوقات بتريده وإثشاده ، وهو :

إن كان لي لك نوما لا أقضاه له فأت جفني لا تثنى لتغميض
كأن جفني في الظلماء تهرضه على الحشية أطراف المقاريض
أستودع الله من لا أستطيع له شكوى المحبة إلا بالمعاريض

فقلت لها : يا ستي ! إني قد عملت أبياتا أشتي أن تصنعني فيها لحنا . فقالت : يا أبا إسحاق ! مع التوبة ؟ قلت لها : فأحتال في ذلك ^(١) إلى آخر الحديث .

والواقع أن الفناء كان موضع خلاف عند علماء المسلمين ، ولم في إباحته وتحريمه أقاويل نجد صداها عند الفزالي مثلا في كتاب الإحياء . وكره الفناء والتحيز من مصاحبة المنين والمنيات قد تغفل في كثير من البيئات الإسلامية ، وكان في فقهاء الإسلام من يقول بتكثير آلات الموسيقى والطرب ، وقد شرحت ذلك وقدمته في كتاب (الأخلاق عند الفزالي) ويكنى أن أسير هنا إلى أن ثورة الوهابيين على الموسيقى والآلات ليس إلا مبتلا لما كان يراه كثير من فقهاء الأقدمين . فالفكرة قديمة ، وإنما تطوّر وتحوّل من وضع إلى وضع وفقّا لتطوّر الظروف وتحوّل الأذواق .

(١) أنظر ص ١٣١ - ١٣٢

١٤ - حكاية أبي القاسم البغدادي

١ - مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدي محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جدا في المجموعات الأدبية ، ولم نستطع الوصول الى معرفة أخباره في كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس (Mez) هدانا في المقدمة الألمانية التي صدر بها طبعته لهذه الحكاية الى أن الأزدي كان يعيش في صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد في الربع الأخير من القرن الثالث فقد كان في سنة ٣٠٦ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : «ولمعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة» وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية ، في الجسائين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البذور يجمعون من الحسن والخلق والطرف ، ما يفوت حدود الوصف ، هذا سوى ما كنا لا نظفر بهم ولا نصل اليهم لزمهم وحرهم ورفقائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالفناء والضرب إلا اذا نشط في وقت ، أو ثمل في حال ، وخلق العذار في هوى قد حاقه وأضاه ... الخ^(١) .

وفي مكان آخر يتحدث عن مجلس أس قضاة مع ابن المجلج وأبي عماد يعقوب وأبي الحسن بن سكرة^(٢) ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم الى سنة ٣٩١ واثلاثهم الى سنة ٣٨٥ لحكاية أبي القاسم البغدادي وضمت بلا ريب في أواسط القرن الرابع .

٢ - وليست حكاية أبي القاسم التي وضعها أبو المطهر الأزدي إلا فتونا من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان . نعم ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها مجلس واحد يطرد فيه القول من فن الى فن في دجاجة وطرف . (أبو القاسم

البغدادى) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والأحتيال والتفاق . وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندرى فى مقامات بديع الزمان : فانا نراه يدارى أهل المجلس ويناقضهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى اذا رآهم على استعداد للهزل لأهلب لاعبا متمردا عارفا بفرائب الخلاعة والمجون^(١) .

ولنمط الكلمة للمؤلف ليجتثا عن منهج كتابه :

”... بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام، أما الذى اختاره من الأدب فالحطاب البدوى والشعر القديم العربى، ثم الشوارد التى أقرعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء، والنوادر التى اخترعتها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء، هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه وأتحل به وأدعيه وأرويه من ملح ماتفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسي دوتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها . ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستحسنة، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفصحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالاتموزج المأخوذ عن عاداتهم، وكأنها قد نظمتم فى صورة واحدة يقع تحتها نوعهم، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد وأحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب، وتفاوت المنازل، ولعلى صرت فى ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ فى فصل من كلامه :

(١) وللاحظ أن شخصية أبى القاسم وشخصية أبى الفتح من الشخصيات الخرافية ، وصدرها على طريق الكنية لون من التضخيم أو التعليل، والكنية ظاهرة عربية ، ولا يشترط فيها أبوة فقد يكنى الصبي أجبانا وهو لم يمتنع أن يكون أباً ، وربما ولد له نسبه غيره ما كنى به ، وتكنية الصغير تفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد . وتكنية الكبير نظم له من التسمية باسمه ، وقد يجمل العرب الرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالة فى الفروس (راجع قد النثر ص ٤٢ و ٤٣) .

وفى معجم الأدباء لياقوت — ص ١٨٨ ج ٥ — فى أخبار الكسائى كلام صريح فى الاختصار بالكنية وعيب

الكنية فى مجالس اللقاء ، لما فى ذلك من مظاهر الزهو والتعالي.

وقد مرشنا لتكنية بكلام مفصل فى الجزء الثانى ص ٢٨٨ و ٢٨٩

”وإنا مع هذا نجد الحلاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان الجن مع مخارج كلامهم لا ينادر من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للغربي والخراساني والأهوازي والسندي والزنيجي ، نعم حتى نجد أنه أطلع منهم ، فأما إذا حكى كلام الفأفأ فكانه قد جمع كل طرفة في كلام كل فأفأ في الأرض في لسان واحد ، كما أنك تجد به بما كي الأعمى بصورة ينشأها بوجهه وعينه وأعضائه لا تتكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله ، فكان هذا الحاكى قد جمع ما هو مفترق فيهم ، وحصر جميع حكايات العميان في أعمى واحد . ولقد كان فلان^(١) يقف بباب الكرخ بمضرة المكارين فينق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم مسير ولا متعب بهير إلا نقي ، وقد يسمع نقيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك تحركته لصوت هذا الحاكى ، وكأنه قد جمع جميع النغم التي تناسب نقيق الحمار فجعلها نقيق حمار واحد ، فأرتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحير . ولذلك زعمت الأوائل أن الانسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة ، ويحكى بجمه كل صوت ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل اللحم كما تأكل السباع ، ويأكل الحب كما تأكل الطيور ، ولأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان“ .

وإذ قدمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله الى آخره ، أو ليلة كذلك ، وإنما يمكن استيفائها واستغراقها في مثل هذه المدة ، فمن نشط لسماعها ولم يصد تطويل فصولها وفضولها كلفة على قلبه ، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة بصيرنى بها ، لا سيما مع آتباتها منها الى الحكاية البدوية الأدبية التي أردتها بها ، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة في لحنها ، وحلاوتها في قصر متنها ، وحرارتها في حسن منطقتها) كلفت له من البسط جهده المتعب على غيره المتعب^(٢) له . ثم إن لى قدمة شوط أستمره وأستفيره من شعر أبى عبد الله بن الجراح وهو قوله :

(١) حرف البيان والبيان (أوردية الزنجي) ص ٣٩ ج ١

(٢) في هذه العبارة زكاة ونحوه .

يا سيدى، دعوة من شعره
لا بد أن يفصل عن لفظة
يحمرى على العادة والعرف
طريقة يأتى بها مخفى

٣ - وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة في بنداى لعهد،
وسياق الحكاية صريح في أنه قصد الى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون .
والطريف في منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته الى أن
اللقن قد يكون أصح من التفصاح في عرض الملح والفكاهات ، وأن السخف قد يكون
وسيلة الى طريف الألفاظ في بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البنداىين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية ، أعنى أنها لم تدون في المعاجم .
وأبو المطهر يقصد اليها قصدا : فهو رجل مثقف العقل يحمرى في درس اللغة على منهاج .
من ذلك ما أطلق به المحدث :

— يا أبا القاسم ، تعرف شيئا من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحمق ! يا سوادى لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن يتزع القوس !
أنا والله أصبح من الضفدع ومن التين ! أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك
ولا بط ، أعرف منها الشق والذرع والشمع والاستلقاء والتراور والشكبي والطاوس والمقربى
والمقرفض والموزون والكمال والطويل والمقيد . كانت أستاذى في جميعها ابن الطوا
والزنايرى .

وفي هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم ، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملا
في القواميس ، ولا نجد في أهل زماننا من يعرف ما لها من مداول . وقد تكون أسماء العوم
في أندية الرياضة المصرية مما يمت الى لغات أجنبية .

ولا يقف أبو المطهر عند هذا . بل يُلْطَق المحدث بألفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم ، أريد أن أعرف شيئا من ألفاظ الملاحين وأحوالهم .

فيقول :

— يحتاج أن نعرف ألوان المراكب من السفن والسميريات ، والمراكب الباليات ، والزازب ، والكندوريات ، والبالوع ، والطيطاب ، والجدى ، والجاسوس ، والورجيات ، والقوارب ، والنحيطيات ، والشاملي ، والجفريات ^(١) .

ولحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهي خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان Colin عين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فأنظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون !

ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة في بغداد ، فقد سخر من أهل أصهبان. إذ يجد السالك محال كريمة الأسماء مثل : « موضع المجنومين » و « درب الضم » و « درب العمى » ويقول : « هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والنحيطيين ، والنحيطيين ، والنحيطيين ، والزرايين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطباخين ، ومن لا يحصى عددا من الخذاق المجزين ^(٢) ؟ » .

٤ — ولأبي المطهر صور فنية يقصد إليها رغبة في الدعاية ، من ذلك قوله في وصف منافق :

« ويقبل خلال الأحاديث على من يليه من اليمين فيفاوضة ويتسمع من أحاديثه ويستش لها ويقول :

يا سيدنا ، ذا واقه ليس كلام البشر ، إنما هو سحر يؤله القلوب والأسماع ، كلام واقه كبرد الشراب ، وبُرد الشباب ، بل كالنعم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ، ما هو إلا كالشربى بالولد الكريم ، الى سمع الشيخ المقيم ، حسن النياحة ، صافي الزجاجة ، حلو المساغ ، يأتى به المريض ، ويجبره المهض ، يقود سامعه الى السجود ، ويمرر يمرى الماء

في العود، قد أتسع له بحمد الله مَشَرَع الإطباب، وأخرج عنه مسلك الإسباب، فهو ينثر الدر على الدر .

فيقول الذي على يساره : في أي شيء أتم ؟ فيمزمز اليه بعينه ويقبل عليه ويقول :
ياسيدنا ! أنا في محنة صلحاء بلا طاقة شعر ، في كلام أثقل من الجنيل، وأمر من
الحنظل ، هذيان المحموم ، وسوداء المموم ، لشلله يتسل الأنخس عن كلبه ، وبفرج الأصم
بصممه . كلام واقع يصدى الخاطر ، إن لم يُعش الناظر . كلام تتعثر الأسماع من حزونه ،
وتتخبر الأوهام من وعورته ، لاساغ له في الأسماع ، ولا قبول من الطباع .

ثم يلتفت الى اليمين فينشده صاحبه الذي يليه شعرا فيقول :
أعيذه بالله ! ما أصفى نظره ، وأنى درره ، وأغزر بحره ، وأحكم نحته ونجره ...^(٢) لو جعل
خلة على الزمان لتجلى بها مكثرا ، وتجلى فيها مفائرا . شعر واقع يختلط بأجزاء النفس ، الأذان
واقع تصير أصدافا لهذا الدر .

ولتفت عنه ثانيا الى اليسار فيقول :
ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة ، الثقيل الاستعارة ، وتلك الإشارة
الفاترة ! ياسيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة . ليس إلا إقواء وإبطاء وأخطاء . لو شعر ، أعزّه الله ،
بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثا ويأخذ في تقريره ويقول :
سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق ، المجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه ،
ما ورت المحاسن عن كثالة ، ولا ظفريها عن ضلالة . شجرة طيبة أصلها في الماء ، وفرعها
في السماء ، ثم هو بحمد الله في الكرم والجود بحر لا يظما وارده ، ولا يمتنع بارده ، لو أن البحر
قدره ، والسحاب مداه ، والجبال ذعبه ، لقصرت عما يبه ، وفي العلم البحر المجد لسبعة أبحر ،
كأنما يومٌ بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب ، وأغصانها علم ، ونعرتها

عقل، هذا بحمد الله مع خُلق كنسيم الأنوار، على صفحات الأشجار؛ في نضجات الأحجار، خلّاق
في ذكاء الخلق، وشمائل في صفاء الشمول، أدرك من حركات الريح بين الريحان، جد كملو^(٢)
الجسد، وهزل كدقيقة الورد، سبعة ناسك، وتفاحة فاك، وعشرة يكاد ماؤها يقطر،
ومصهوها من النضارة يقطر. ثم المنظر الذي تبهّر وضائه العيون، متبرقع والله يبدع الجمال،
متعوذ من عين الكمال، متخلل غمائل الأمثال. أحلى والله من الوبل، على المحل، الخلق
وضى، والخلق رضى، والفضل مضى^(٣). محاسن أنا والله منها في روضة وغدير، بل في جنة
وحسري.

ويُفتت إلى من يليه ويقول على العادة في التفاق والخبث :

ذا والله سخنة عين، عصارة لؤم، في فؤاد خبث، كالنكأة لا أصل لها ثابت، ولا فرع
نابت، لو قُنف والله الليل بلؤمه لطفت أنوار نجومه. لا يبيض حجره، ولا يثمر شجره، حجة
لا تروى، وزند لا يورى، قالب جهل مستور بثوب، يستر في عنان جهله، ويساقط في ذبول
نُوقه، صخرة خلقاء لا تستجيب للرتقى، وحية صماء لا تنسمع إلى الرقى، كأني إذا ناظرته أسفر
منه عوداً، وأهر طوداً، قليل الطلعة، بغيض التفصيل والجملة. يحكي نقل الحديث المعاد،
ويمشي على العيون والأبصار، هو والله في المين قذاة، وبين النمل والأنحاص حصاة. كأن
وجهه على الحقيقة هول. المطلع النحس يطلع من جبهته، والخل يقطر من وجته. وجه يشق
على العين، وكلام لا يسوغ في الأذن، ما كنت أدري والله أجمدت أم يحدث، مدخل أكله
أمدّر من مخرج ثقله، لا يفرق والله بين محساء ومفساء... الخ^(٤).

وأول ما يلاحظ في هذه الصورة كثرة القسم. وكان ذلك لعهده المؤلف من طبيعة
البغداديين. والصورة عادية من حيث السياق: فليس فيها تحليل لطبيعة المنافق غير هذا
الوضع البسيط وهو التلون والتقلب، والظهور ويوجهين، وتلك أظهر ما في شيم المنافقين.

(١) الخلق يفتح الحاء الطليب. (٢) في الأصل (نظر) بالثين المسحبة. (٣) نغى. ونغف للبع.

(٤) أهدر: أعبث، وبضعة مقرة: فاسدة (٥) راجع ص ١١٣ و ١١٥.

وليس لأبي المطهر يد في تلوين هذه الصور : فهي جملة من المحامد والمقايص جمعها من ألفاظ معاصريه ، وكنا أشرنا في النص الفرنسي الى أنه آتتسبها من كتب التعالي ، ويظهر لنا الآن أن التعالي هو الذي أعتمد على أبي المطهر في نظم هذه الصورة الفنية .

• — ومن هذا الباب ما كتبه في وصف التقييل :

« يا أول ليلة الغريب ، اذا بعد عن الحبيب ، يا طلعة الرقيب ! يا يوم الأرباء في آخر صفر ،
يا لقاء الكابوس في وقت السحر ! يا خراجا بلا غلة ، يا سفرا مقرونا بلة ! يا أخاق من طيلسان
ابن حرب ، يا أشام حل نفسه من ضرطة وهب ! يا أبض من قدح اللباب في كف المريض ،
وأنكر من نظر المغلس في وجه الغريم البغيض ! يا آتن من الكنيف في صحر الصيف ، وأنقل
من طلعة البغيض على الضيف ! يا وجه المستخرج في يوم السبت ، يا إقطار الصائم على الخبز
البحث ! يا أبرد من الشمال في كانون ، وأوضح من فراش الحرب المبطون ! يا أقدر من ذباب
على جعس رطب ، وأقمر من قلة في أذن كلب ! يا أقدر من جفنة الدباغين ، وأتمن من ريح
القضاين ! يا أبعد من حضيض الحمام ، وأتمن من حانوت الحمام ! يا أقدر من طين السماكين !
يا أوحش من شخص الظالم في عين المظلوم ، وأكره من صوت اليوم اذا صك سمع المحموم !
يا أبرح من غم الدين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين ! يا ليلة المسافر في كانون
الآخر ، على أكاف بأس ، وبرد قارس ! يا أذل من ناصح برد ، ودانيج جلد ، وراكب قرد ،
وسائس عرد ! يا أنقل من طفيل يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الفناء ، ويتشهى بعد
أكل الفداء والعشاء ، ألوان الصيف في الشتاء ، مجننا للساق ، قاطعا على المعنى ، يواشب
ويذنى .^(٢) يا أشد على الأحرار من تطلول المجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء المنجاب ، وسوء
المقلب والإياب ! يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشع الحاسد ،
وأكرب من الاستماع الى المعنى البارد ! يا أكره من هجرات الصديق ، ومن النظر الى زوج
الأم على الرقيق ، ومضيق الطريق ، بل من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ،

(١) الجعس : الرجح . (٢) في رسائل الخوارزمي : « يذنى » .

وحسد القرباء ، وملازمة الغرباء^(١) ، وخيانة الشركاء ، وملاحظة الثقلاء ، وملابسة السفهاء ، ومسايلة البخلاء ، ومعاداة الشمرء^(٢) .

وقد شرنا في النص الفرنسي الى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة الخوارزمي ، ونرجح الآن أن الخوارزمي هو الذي حاكي أبا المظهر في وصف التثقل ، لأن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣ وأبو المظهر كان شابا ماجنا في سنة ٣٠٦ فن المستبعد أن يكون عاش طويلا بعد منتصف القرن الرابع^(٣) .

وقد عدنا فوزانا بين الرسالتين : رسالة أبي المظهر ورسالة الخوارزمي فوجدناهما تتوافقان في ألفاظ وتختلفان في ألفاظ . وفي العبارات المتقاربة تظهر الدقة في جانب الخوارزمي ، فأبو المظهر يقول :

”يا أتن من الكنيف ، في مصر الصيف“

والخوارزمي يقول :

”يا كنيف السجين في الصيف“

وهي عبارة أقدر وأشنع .

ورسالة الخوارزمي طويلة جدا ، ولكن هيات أن يصل الى ما وصل اليه أبو المظهر من الإغشاش والإقذاع فانه ترأهاجيه في كتابه ثر الشوك . وهذه الأهاجي البشعة من مظاهر الحضارة في بغداد ، ونعبد الفارئ أن يدهش من ذلك ، فان الحضارات تقتضي فنونا من المناقب والمثالب لا تستطيعها البداوات . ويعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورجال الترفين ومساوي المومنين لا تُعرف إلا في الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجي أبي المظهر عنوانا على قوة الحضارة في بغداد .

(١) في الأصل (القرباء) . (٢) راجع ص ١٢٠ .

(٣) وقد ورد وصف التثقل على هذا النحو أيضا في تربع ازمان (أنظر القامة الديارية ص ٧٩ ، ٨٠ طبع استانبول) .

وهل يستطيع البدوي أن يفهم كيف تكون الفذارة في جفنة الدباغين، وريح القصاين،
وطين السماكين ؟ هيئات ! فلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون !

٦ — ومن طريف الصور ما جرى به قلبه في وصف الجمال ، وهو كأهل عصره
يتحدث عن جمال النساء وجمال الثملان، ففى الفن الأول يقول :

”وذكاه البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يذكر، فناظلك بخرعوبة
من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحه، والفطنة مع الصياحه ... قد أطر الفناء^(١) شاربها،
وزوى الإباء حاجبها ، ورخم الفاظها ، وقتر النعم الحافظها ، وأرهف الطرف أعطانها،
وألانت النعمة أطرافها ، ولد للراشف مقبلها، وأغص بالبرنى غفلها، وأطرده ماء النعم
بين رياض وجنتها، وتفرق جريال الشباب على صفحاتها، وتورد من صبح الحياء خدها،
وأهتر من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها، وأرثجت من الشحم روادفها،
وتشرت أنوار الحسن سوافها، ثم أحييت ساخطة على محبها، وقد قطب اليه جبينها،
وشمخت النخوة بمرينها، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة، وتأبى قبول معاذيره
المزعرقة، حتى إذا انتهى عاشقها فى الاستكانه والخضوع، وبلى أكمامه بسوارب الدموع،
أقرت متمسمة عن شتيت الدر، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الحرى والحمر . ثم أقبلت
نرجسها تدمعان رحمة لماشفها المبلى، قترى واقه حجاب الدموع، أوجمر الحبل، ونفسا
تموت فتحيا بزد من القبل، وتجشمت بعد ذلك زيارة فى ملاءة من الظلام، وواقه وهو
سادر فى ساعة الأحلام، وقد سرى أمامها أرج المسك الفتى ، وصبق إلحوق منها برآ الراح
العتيق، وأتنت متمايلة وقد بلّ البهر غلائلها، وقتر الأين مفاصلها، وأرعد الوجد فرائصها،
ومغز المشى أنحاصها، وجعلت تتمن عليه بلسامها، وتدعى فضل غرامها، وتتاسمه من

(١) الفتا : طراوة السن ، قال الشاعر :

إذا عاش النفسى سجين ماما * فقد ذهب البشاشة والفتا

وفى الأصل (الفتا) وهو تحريف . (٢) الأين : النصب .

أحاديثها بما هو أفر لئنه، وأشهى الى نفسه، من طول بقائها، وبلاغ نعماتها، تدوى بالمحاطها، وتدوى بالفاظها، تردى بمقلتها، وتحيى بقبلتها^(١)... الخ
وفي الفن الثاني يقول :

”كم تشغلني يا أبله، وتسألني عن الأباطيل، وقطع كلامي بما لا يفيدك؟ ما أرى والله على رأس أحدكم غلاما تظليفا غنج الحركات، حلو الشائل، خنت الأعطاف، بائى-الطرف، يمشي بنحصر دقيق، وردف ثقيل، غنت عليه المناطق، ودل على حسن صنعة الخالق، خده جلتار، وعينه نرجس، وشاربه زمرد، وشفتهاء مرجان أو عقيق، وثغره دروريه رحيق كأنه دينار متقوش، أو جرعة حسل... لو جذب عضومنه آفطر، أرق من نسيم الهواء، وألد من الماء بعد الظما، كأنه طاقة ريحان، أو غصن بان، أو قضيب خيزران، أو طاقة آس ريان، كأن جبينه هلال، وكأن حاجبه خط بقلم، كأن عينيه عينا جؤذر، وكأن أنفه حد سيف، وكأن وجنته الخمر، أو لون الراح، أو حمرة التفاح . أحسن من نور زهر الربيع الباكِر على الفصن الروى . أحسن من الروض المطور . كأن شاربه طراز بنفسج على ورد جنى... كأن شاربه زهيران الحز الأخضر، وعذاره طراز المسك الأذفر، على الورد الأحمر، إذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق، عن الدر الأبيض... كأن فيه حلقة خاتم، وكأن ثغره البرد، أو أخوان تحت غمامة . كأن فاه الخمر، نبت فيه الدر، كان عقه إبريق فضة... كأنما لبس بدنه قشور الدر، كأنه فضة قد مسها ذهب، كأن بطنه قبطية، وساقه بردية، وقدمه لسان حية . كأن وجهه الشمس، وكأنه دارة القمر، وكأنه المشتري، وكأنه الزهرة، وكأنه الدرة، وكأنه النمامة . أظهر من الماء الزلال، وألد من معاهة الخيال، وأزهر من النار، وأزكى من الأرض التي تبت البفسج،... كالظلي الغرير، والقمر المنير، والفصن النضير، والمهاة على الفدير... الخ“^(٢).

(١) (ص ٧٦، ٧٧) . (٢) الجلتار : زهر الزمان، وهو تاريس مربوب .

(٣) ص ٦٥، ٦٦

وهذه الصورة أيضا منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذي يجمع بين أوامر الإنشاء المتين . فهي أوصاف حشرت حشرا ، ولم تكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأبحاج ، بحيث يصعب التمييز بين ما نقله وما أبدعه . وإن كنا نحمد جودة القصص في مثل قوله يصف غلام أبى عرس :

”كان اذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا وأستفتحوا ، فاني ولديكم ، بل عيديكم ، أخدمكم بغانى ، وأساعدكم على رخصي وغلاني ، من أرادنى مرة واحدة أردته ألف مرة ، ومن أحبنى رياء أحبته إخلاصا ، ومن مات لى مت عليه . لم أبخل عليكم بحسنى وظرفى ؟ ولم أتمسركم عليكم ؟ وانما خلقت لكم ! ولم أتعاول عليكم ؟ وانا غدا مضطر اليكم ، اذا بقل وجهي ، وتدل سبالي ، وتولى جلالى ، وتكش خدى ، وتقوج قذى . حاجتى والله اليكم غدا أشد من حاجتكم الى اليوم . لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطبايع ، وقلة الرأية والحفاظ ... الخ^(١) .

٧ — وقد وصف الخمر فى أماكن متفرقة من حكاياته أظهرها ما جاء فى صفحة ١٠٩ و صفحة ١٣٢ وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لرفضها فى هذا الفصل ، ونشير الى أننا استطرفنا وصفه للخمر بأنها ”أرق من دين أبى نواس“^(٢) ! وهو مأخوذ من قول أبى نواس نفسه فى وصف الصبياء :

عنت فى الدن حتى * هى فى رقعة دينى

٨ — وقد يلقاك أبو المظهر بنظرات فلسفية يعلى بها غلبة المجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان اذا سمع غناء تفرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، وأستمر ، وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لكمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون :

(١) ص ٥٨ . (٢) وجاء فى ١٣٢ »نشاط الشراب يطوى على ما فيه من الخطأ« نشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و »نتيجة الأجلال ، ترك الشيخ كالأطفال« والأجلال ، محرة والصواب (الأرطال) ر » يأخذ من تقاهم ، ويضحك من عقاهم « و (تقاهم) محرة ، والصواب (تقاهم) .

— يا أبا القاسم ! كل هذا يجري لسبب غناه ؟

فيقول :

— هذه صورة اذا استولت على أهل مجلس وجلت لما علوى لامتلك ، وغاية لاندرك :
لأنه قل ما يغلو الانسان من صبوة ، أو صباية ، أو حصرة على فائت ، أو فكر في ممتنى ، أو خوف
من قطيعة ، أو رجاء لمتنظر ، أو حزن على حال . فالتاس كأنهم على جديلة واحدة في هذه
الحال .

٩ — وقد عرض لفكاهات البغداديين ونواديرهم في غير موضع ، وهي في الأكثر
فكاهات ماجة لا تحسن روايتها في هذا الكتاب ، ولا بأس من إيراد هاتين النادرين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لمرج كان بها فقالت : ان كنت تريد
جملا تحج عليه فما أصح لك ، وان كنت تريد جارية للتمعة فالمرج لا يمكنك من ذلك ^(٢) .
وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتي ! فقالت : نعم ياسيدي ، مع ثلاثة أنر ! ^(٣)
أى اذا كان على الجنازة .

وفي الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مفنهم وقيانهم ، وأوصاف
سابقة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنهم . ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يعمل الفارغين على
تسبي اللهو والمجون . وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعا لأكثر المعاني الهزلية ،
فلم يترك بابا من أبواب الدعابة إلا طرقه ، ولم يدع معنى من معاني الخلاعة إلا ألم به .
وأحسبه حشر في كتابه أقدر ما روى من الشعر المساجن الخليج .
ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج اليه النفس
في ساعات الملل .

١٠ — وفي الكتاب ألفاظ لا تزال حية على ألسنة عوام المصريين ، كقول شاعر

في وصف ثقيل :

ياكل شيء ^(١) ويسهل مهول
 يارأس ختير ووجه غول
 والشاهد في (شيء وحش) .

وقول آخر :

ياسفل الناس وأوباشهم
 من بين صفعان الى ضارط ^(٢)
 والشاهد في (أوباش) وهي مقلوبة عن (أوشاب) .

وقول أبي القاسم :

”ياسفل العالم ! اذا أسكرتوني فن زنى حيثذ بأم هذا الديوث الذى أنا فى داره“ .

وقول شاعر :

وليك سقى كلينى
 قبل أن أبصر مثله ^(٣)

وعوام المصريين يقولون : ”فلان عليه حنة لسان“ ينون أن له لسانا طويلا ، أى
 ثثارا . ومثل هذا التعبير ورد فى بيت ماجن تقيح روايته فى مثل هذا الكتاب .

١١ — وجملة القول ان كتاب أبى المطهر الأزدى مخيف ، ولكنه مع مخفه ظريف ،
 والمؤلف خليف بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخٌ مخيفٌ ولكن
 يأتى بسخيفٍ مليح

وهناك قصيدة رائية لأبى دلف الخزرجى من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة
 الساسانية ^(٤) وهي فى الشعر تحكاة أبى القاسم فى التراكيب تصف أخلاق الأوباش وتعكى
 ألفاظهم . ومراجعة هذين الأثرين مفيدة لمن يسيه أن يعرف ما أهملت المعاجم من ألفاظ
 الجماهير السوقية . وبكل مدينة أحياء ماجة تنفرد بالفاظ وتمايز تمثل ما فيها من شواذ
 الأخلاق ، وفى القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كتابات وإشارات لا يفهمها
 الخواص ، كالذى يقع لأهل (Belleville) من أحياء باريس .

(١) ١١٩ ص (٢) ١٢٤ ص (٣) ١٢٦ ص

(٤) تجد هذه القصيدة منشورة فى مجلة المهرج ٣ ص ١٧٦ — ١٩٢

(١)

الفهرس المفصل

نقد النثر الفنى

صفحة	صفحة
الرسائل والخطب فى واحد أوفنان	عناية القاد بالشعر وأنصرافهم عن النثر ... ١٧
٢٣	كيف سُفل التقاد بنثر القرآن ... ١٧
الموضوعات هى التى تحدّد الصياغة الفنية	طائفة من الكتب الخاصة بالنثر وقده ... ١٨
٢٥	الموازنة بين الشعراء والكتاب ... ١٨
تقد رأى المسيو مرسيه فى فهم خطاب	مظاهر إيتار الشعر على النثر فى البيئات
٢٥	العربية ١٩
معاوية	المفاضلة بين الشعر والنثر ... ١٩
الجمع بين الشعر والنثر وفقا لموجبات	تقد رأى التمالجى ٢٠
٢٥	رأى ابن المعتدل فى حياة الشعراء ... ٢٠
المعانى والأغراض	وصية أبى تمام للبحترى ودلالاتها على
كلمة حاسمة فيما يصلح للشعر وما يصلح	أحوال الشعراء النفسية ... ٢١
٢٦	رسالة الشاعر الى العالم ... ٢١
للنثر	تقد رأى ابن رشتيق ٢٢
غلبة الشعر على كتاب القرن الرابع ... ٢٦	أثر النزعة الشخصية فى أحكام القاد ... ٢٣
نماذج من شعر صاحب وآبن العميد	تقد رأى أبى هلال العسكري ... ٢٤
٢٧	
وبدع الزمان	
٢٨	
تقد رأى الفلقشندي	
٢٩	
خلاصة القول فى الشعر والنثر ... ٢٩	
دواعى الشعر لا تزال تزخر بها الحياة ... ٢٩	
الغرض من تأليف هذا الكتاب ... ٣٠	

(١) ليس الغرض من هذا الفهرس استقصاء موضوعات الكتاب، ولكن الغرض إرشاد القارئ الى أهم الموضوعات التى عرض لها المؤلف بالنقد والتحليل .

الباب الأول

تطور النثر من عصر النبوة الى القرن الرابع

صفحة	صفحة
أين نضع القرآن من عهود النثر في اللغة	١ - النثر الجاهلي
العربية ؟ ٣٩	هل كان للعرب ثرفى في عصور
سر اللغة هو في طريقة الأداء لا في أعيان	الجاهلية ؟ ٣٣
الألفاظ ٣٩	تقد رأى الأستاذ خليل مطران ٣٣
عرض القرآن لما كان في عصره من	تقد رأى المسيو مرسيه والدكتور طه
المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية	حسين ٣٣
ليس القرآن مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها	خطب أهل الجاهلية ٣٤
المسلمون وأن أشقل على سور قصيرة	كان لجاهلين ثرفى ولكنه ضاع ... ٣٤
مسجوعة للدعاء والابتهال ٤٠	تقد حديث خنافر الجيرى ٣٥
خلق القرآن من الشعر الموزون ٤١	خطبة قس بن ساعدة موضوعة ... ٣٦، ٣٥
نظام الآيات يخالف نظام النثر المرسل	خطب وفود العرب عند كسرى موضوعة
ونظام السجع ٤١	هل كان كسرى يتكلم العربية ؟ وهل
القرآن يسوق القصص وقد يكرر القصة	كان عند النعمان ديوان إنشاء ؟ ... ٣٧، ٣٩
الواحدة ٤١	المحاورات المنسوبة الى أهل الجاهلية ... ٣٧
تبتدى بعض السور بألفاظ غير مفهومة	ما حفظ من الشعر أكثر جدا مما حفظ
اختلف في تأويلها المفسرون ٤١	من النثر ٣٧
رأى المسيو بلانشو في فواتح السور القرآنية	ضياح خطب الاسلاميين أقسمهم لقلة
نظم القرآن نظما غائيا وكان ترتيله ملحوظا	السدوين ٣٧
في أوضاعه النثرية ٤٢	القرآن من شواهد البلاغة الجاهلية ... ٣٨
القرآن لا يلزم السجع ٤٢	خطا المسيو مرسيه والدكتور طه في دعواهم
الابتداء بالسلمة ٤٢	أن ابن المقفع أول كاتب في اللغة
الأسلوب يختلف بين السور المكية والمدنية	العربية ٣٨
تصوير القرآن لما كان يعرف الجاهليون	خطا من ظن أن القرآن لا هو شعرو ولا
من الحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية	هو شر ٣٨

صفحة
الحياة الأدبية والاجتماعية لعهد النبي لم
٤٩ تصور بصورتها الحقيقية الى الآن ...
كيف ضاعت آثار الوثنيين والنصارى
واليهود ٥٠، ٤٩
كيف ضاعت آثار حزب المعارضة لعهد
الرسول ٥٠
ضياع أكثر آثار النبي وأصحابه ... ٥٠
كان للعرب في عصر النبوة أدب يمثل
طور التحول والاستقال ٥٠
كان للعرب أدب يقرب في أسلوبه
وروحه من أسلوب القرآن وروحه ٥١
تسمية العصر الذي سبق القرآن «بالجاهل»
تسمية دينية فقط، وإلا فهو عهد
معرفة ونور ٥١
كيف أمسك العرب المسلمون بأهداب
الأدب الجاهلي وعدّوه وحده المرجع
في ضبط أساليب اللغة العربية ... ٥١
كيف كان الأدب الجاهلي يصنع ويباع
في الأسواق ٥١
الجاهليون في رأينا هم سكان الحواضر،
وكانت لهم آداب وعلوم وفنون ... ٥١
الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين
في المكاتب الشرقية والغربية آثار جاهلية
لم تدرس الى اليوم ٥٣
كيف وأد المسلمون بعض آيات الأدب
الجاهلي ٥٤، ٥٣
تساقط الخلفاء من رواية طائفة من الأدب
الجاهلي ٥٤

صفحة
كان للعرب أثر في قبل أن يتصلوا بالفرس
واليونان ٤٣
٢ - نشأة النثر الفني
يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفني
وصل الى العرب من الفرس ويرى
الدكتور طه أنه وصل اليهم من
اليونان، وهذه مدرسة قديمة ترجع
الى رينان ٤٤
تأثر العرب بالفرس في حياتهم الأدبية ... ٤٥
القرآن يفيض بالصنعة والزخرف ... ٤٥
من الواجب أن يجعل ميدان النضال
عصر النبوة لا العصر النبامي ... ٤٥
كيف يتعذر في الوقت الحاضر درس
القرآن دراسة تحليلية ٤٥
القرآن أثر عرري صرف لم يتأثر بالفرس
ولا باليونان ٤٦
الزخرف طابع أصيل في اللغة العربية ... ٤٧
هل كانت اللغة الأدبية التي سبقت
الاسلام تخالف كثيراً لغة القرآن ... ٤٧
نشأة العلوم العربية ٤٧
كان البديع موجودا وتطور على السنة
الشعراء ٤٨
لم يكن العرب أميين بالدرجة التي يصوّرهم
بها أكثر الباحثين ٤٨
كان الجاهليون يعرفون النقد الأدبي ... ٤٨
كان الاسلام ناجا لهضة علمية وأدبية
وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية ٤٩، ٤٨

صفحة

- ٦٠ قد رأى الأستاذ أحمد الزيات
عبد الحميد بن يحيى أول من نقل تقاليد
٦٠ الفرس الى الكتابة العربية
هل كانت شخصية عبد الحميد بن يحيى
٦٠ خرافية؟
السجع لم يلزم في الشعر الاسلامي
٦١ جهد واصل بن عطاء ودلائله على
إجادتهم للشعر
٦١ احتام الكتاب بسط المعاني وتأكيدها
رسالة الحسن البصري الى عمر بن
٦١ عبد العزيز
٦٢ مشاورة المهدي لأهل بيته
٦٢ نقد أسلوب الجاحظ
٦٣ الخيال في كلام الخطباء والكتاب
٤ - أطوار السجع
٦٤ خطأ المسيو مرسية والدكتور طه حسين
٦٤ السجع من مميزات البلاغة الفطرية
٦٥ شواهد من السجع في اللغة الفرانسية
شواهد من السجع في أسماء المشهور عند
٦٥ الفرنسيين والمصريين
٦٥ السجع من خصائص اللغة القرآنية
تشابه صور الترتيل عند المسلمين
٦٦ والنصارى واليهود
٦٧٠٦٦ أمثلة من سجع القرآن
٦٨٠٦٧ السجع في الأحاديث النبوية
٦٨ السجع في خطب الخلفاء

صفحة

- شاهد من الأدب المصري الحديث الذي
٥٤ تناساه الناس عامدين
ليس أبو الأسود أول من وضع النحو
كما يعتقد الأزهريون، وليس النحو
أثرا من اتصال العرب بالسرمان والروم
كما يظن المستشرقون
٥٥ رأى ابن فارس في قدم العروض
٥٦٠٥٥ رايه في معرفة القدماء بأصول التصريف
٥٦ ليس ابن المعتز أول من وضع علم البديع
٥٦ ٣ - الشعر الفني في العصر الاسلامي
كيف أيقظ الاسلام العرب وأحيا أدبهم
٥٧ الخلفاء بين المهاجرين والأنصار وقيام
الأحزاب السياسية أثرا في النهضة الشعرية
٥٧ عمق الشعر بفضل اتصال العرب بالأدب
الأجنبية
٥٧ حرص أمراء العرب على تربية أبنائهم
تربية بدوية
٥٨ كيف كان النبي وأصحابه يتدثرون الرسائل
٥٨ أثر القرآن في إحياء البلاغة العربية ومناقشة
رأى المسيو مرسية في دعوى تجنب
العرب محاكاة القرآن
٥٨ الإيجاز والإطناب ومراعاة ظروف
الخطاب
٥٩٠٥٨ لم يكن الكتاب والخطباء جميعا موثقين
الى ترك الفضول
٥٩ رأى ابن قتيبة في الإيجاز والاطناب
٥٩ كتاب يزيد بن الوليد
٦٠

صفحة	مفحة
٨١ رسالة كتوم بن عمرو العنابي ...	٦٩ قد رأى المسيو ديموبين في نهج البلاغة
٨١ ظهور السجع في الكتابة والتأليف ...	٦٩ رسالة على اسان عمر يناط بها أبا عبيدة
٨١ كتاب في ذم أحمد بن الحصب ...	٧٠ السجع في خطب خلفاء بني أمية ...
... .. كلمة ابن المعتز في مدح مدينة سر من رأى السجع في لغة الزهاد والنسك في العصر
٨٢ ودم مدينة بغداد ...	٧٠ الأموى ...
٨٣ شواهد من كلامه المسجوع نقد ما رأى المسيو مرسية من كراهة
٨٣ السجع في عناوين فصول كتاب الزهرة معاوية للسجع ...
٨٤ السجع في عناوين الكتب ...	٧١ ابن المقفع كان يسجع، وكذلك عبد الحميد
٨٤ السجع في بعض كتب ابن المقفع ...	٧٢ شاهدان من أثر عبد الحميد ...
٨٥ السجع في عناوين كتاب الموشى ...	٧٢ شلهد من الكلام الموزون عند ابن المقفع
٨٥ شاهد من صحيح الوشاء في كتابه ..	٧٣ ميل الأذواق العربية الى إثارة السجع ...
٨٦ أجمع على فصوص الخواتم ما وضع من الأحاديث على ألسنة
٨٦ السجع في الغزل والوصف والهجاء ...	٧٣ الأعراب ...
٨٧ السجع في كلام الجاحظ ...	٧٤ الترام السجع في وصايا الآباء للأبناء ...
٨٧ ما هو المزدوج ...	٧٤ وصية عبد الله بن شداد وعقصة بن ليبيد
٨٨ دفاع الجاحظ عن السجع ...	٧٤ زعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع
٨٩ الحقائق المستخلصة من كلام الجاحظ ...	٧٤ العجاج في حضرة عبد الملك بن مروان
٩٠ رأى الخفاجى في السجع صعصعة بن صوحان في حضرة معاوية
... .. القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم	٧٦ ابن أبي سفيان ...
٩١ وعادتهم ...	٧٧ كان السجع من وسائل الفاقة والمجتهدين
... .. شاهد مسجوع من كلام قطري بن	٧٨ بديع الزمان أقبس طريقة السائلين ...
٩١ الفجاءة وآخر نطيط من آل صوحان	٧٩ أعرابى يلاحى أحد الفتيان ...
... .. كان الكلام يوضع على ألسنة الرواة	٧٩ أعرابى وقف على قوم فنعوه ...
٩٢ مسجوعا ...	٨٠ رأى الرقائى في إثارة السجع ...
٩٣ دفاع أبي هلال العسكري عن السجع خطأ صاحب (الريمان والريمان) في الخلط
... .. رأى الحريرى في الإتياع، وشيء من بين الخطب والموزون ...
٩٣ شواهد في اللغة العامية عند المصريين	

صفحة	صفحة
السجع في بعض ما ترجم المتقدمون من	السجع في الشعر وهو التصنيع ... ٩٤
الفارسية واليونانية والعربية ... ٩٩	دفاع ابن الأثير عن السجع ... ٩٥
درس السجع ضروري في بناء هذا الكتاب	السجع من أسرار الإعجاز في القرآن ... ٩٦
السجع يعطل حركة الفكر والعقل في كثير	القرآن لا يكاد شئ يخرج منه عن السجع
من الأحيان ... ١٠٠	والموازنة ... ٩٦
السجع في العصر الحاضر ... ١٠١	هل كان عصر الجاحظ بريئا من السجع؟
رأى ابن أبي الحديد ورأى شوقي	شواهد من سجع الجاحظ ... ٩٧
في السجع ... ١٠١	رأى قدامة بن جعفر في السجع ... ٩٧
	رأيه في سجع أهل القرن الرابع ... ٩٨

الباب الثاني

خصائص النثر في القرن الرابع

٢ - السجع والازدواج	١ - خصائص نثرية
طرائق الكتاب في إظهار السجع والازدواج ١١٣	هل في القرن الرابع خصائص نثرية ... ١٠٥
الطائفة التي تلتزم السجع ... ١١٤	إظهار البديع ... ١٠٥
شواهد من سجع الصاحب وآبن العميد ... ١١٤	التزام السجع في جميع الرسائل حتى المطولة
التوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة ٢١٥	تضمين الرسائل أطبايب الشعر ومختار
شاهد مطول من نثره في وصف نكبة	الأمثال ... ١٠٦
أبي الفتح بن العميد ... ١١٦-١٢١	الكتابة في الموضوعات التي كانت خاصة
تحليل بعض فقرات هذه الرسالة الطويلة ١٢١	بالشعر كالنزل والمديح والمجاء والفخر
أسلوب الشريف الرضى ... ١٢١	والوصف ... ١٠٧
أسلوب أحمد بن عبد ربه ... ١٢٢	رسالة بديع الزمان في ذم أحد القضاة ... ١٠٧
حرية النثر عند آبن مسكويه وإخوان	وسالته الى شاب عاد يستميل فؤاده بعد
الصفاء ... ١٢٢	أن عزل وضاع صباه ... ١٠٩
موازنة بين أسلوب التوحيدى	عدم التقيد بصيغة خاصة في بداية الكتب
وآبن مسكويه ... ١٢٣	شواهد مختلفة ... ١١١
شاهد من نثر آبن مسكويه ... ١٣٤	خصائص النثر في القرن الرابع ليست إلا
	فنونا تطورت على الزمان ... ١١٢

صفحة	٥ - التسبب	صفحة	شاهد من تراخوان الصفاف وصف الرسول
	التسبب فن قديم وجدت منه شواهد	١٢٤	تقد هذا الشاهد
١٤٧	في القرآن	١٢٥	ابن حزم والفارابي والاشارة الى الفرق
	القصص الفسرامى فى عصر بنى أمية	١٢٥	بين الكتابة العلمية والكتابة الأدبية...
١٤٨٠١٤٧	وبنى العباسى	٣ -	تصوير الحياة العقلية
١٤٨	أقصصة غرامية		قوة حزب الشيعة ورسالة أنخوارزمى
١٤٩	وصف المخطوبات		فى مناصرتهم... ..
١٥٠٠١٤٩	وصف الهوى والنساء	١٢٦	تفسير أمثال هذه الرسالة لنوامض التاريخ
١٥١	رسالة تسبب حدث بها غارق المغنى...	١٢٧	اختلاف الفرس والعرب
١٥١	وصف أبى العتاهية لمخارق	١٢٨	تصوير الكتاب لنعيم العقل والحواس...
١٥٢	كلمات غزلية لعل بن عبيدة الريحاني...		راى التعالي وأبن قتيبة فى الأدب
	رسالة تسبب كتبها لإسحاق بن إبراهيم	١٢٩	المكشوف
١٥٢	الموصلى	١٢٩	خصومات الكتاب
	كتاب غلام من ولد أنوشروان الى رفيق	١٣٠	رسالة بديع الزمان الى أبي نصر بن المرزبان
١٥٣	له بالديوان	١٣٠	الخصومة بين الهمدانى وأنخوارزمى ...
١٥٤	جواب ذلك الرفيق	١٣١	خصومة التوحيدى لابن عباد وأبن العميد
١٥٥	كتاب شوق أرسله الجاحظ الى أبى المدر		٤ - الفكاهات
	كتاب حب أرسلته معشوقة لابن المعتز		الفكاهة فن قديم أزدهر فى القرن الرابع
١٥٦	وجواب أبى المعتز على ذلك الخطاب	١٣٢	تحليل المقامة الثمانية... ..
١٥٧	كتاب شوق لابن العميد	١٣٢	تحليل المقامة المضيرية
١٥٧	خطاب وجدد لقابوس بن وشمكير ...	١٣٣-١٣٩	وصف حمل هزبل لأبى الخطاب
١٥٨-١٦٠	فقرات فى محاسن النساء والغلمان ...		الصباى
	خطاب المذكر أسهل من خطاب المؤنث		أبو إسحاق الصباى يعزى عن ثور
١٦٠	فى توجيه الضمائر والإشارات	١٤١٠١٤٢	أبيض
	غزل المذكر نوع من الثورة على التقاليد		عهد التطفل للصباى... ..
١٦١	الأديسة	١٤٢٠١٤٢	

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
١٨٠	ماهو المبتذل وماهو الطريف ؟	١٦١	الحاضر
١٨٠	رأى المسيو ديمومين	١٧٢	موقفنا موقف المؤرخ للظواهر الأدبية
١٨٠	توجد المبتذلات في جميع اللغات	٦ - الاخوانيات	
١٨١	نماذج من المبتذلات (الكليشيات)	١٦٣	قدم هذا الفن في اللغة العربية
١٨٢	تعاير تبثذل لسبب غير كثرة الاستعمال	١٦٦-١٦٣	فقرات من الاخوانيات
١٨٣	انتقال المبتذلات من عصر الى عصر	٢٦٦	انتهاج كتاب القرن الرابع لمعاني المتقدمين
١٨٣	تعاير تحيا على السنة اصحابها فقط	١٦٩-١٦٦	الاخوانيات عند التوحيدى
١٨٤	أنواع المبتذلات	١٧٠-١٦٩	الاخوانيات عند بديع الزمان
	في اللغة العربية تعاير تفيض قوة وحياة	١٧٠	الاخوانيات عند العتيبي
١٨٥	ولكن أنصرف عنها الكتاب	٧ - الوصف	
	تعاير توجبها الضرورة اللغوية وتمحيها	موضوعات الوصف عند كتاب القرن	
١٨٦	الصور الفنية	الرابع	
	«الكليشية» لا يوجد في اللغة العربية إلا	١٧١	فقرات مختلفة في الأوصاف
١٨٧	قليلا	١٧٢	إغارة توفيق البكري على كتاب القرن الرابع
١٨٨-١٩١	نماذج من التعاير الحلية	١٧٣	إغارة كتاب القرن الرابع على معاني من
١٩١	كلام سعيد بن حميد وتوفيق البكري	١٧٤	سبقهم من الكتاب والشعراء
١٩٢	إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة	١٧٧	نظرية الفن للفن
١٩٢	رأى أبي العلاء في حلاوة القرآن	١٧٥	فهم المعاصرين لفن القرن الرابع
	البلاغة كالموسيقا يزيدها التكرار قربا من	١٧٥-١٧٨	صور فنية على السنة أرياب الصناعات
١٩٢	الفن	١٧٨	وصف البلاغة
	عناية كتاب القرن الرابع بمخلاق أنصار من	١٧٩	قيمة الزخرف عند كتاب القرن الرابع
١٩٣	الخواص		

الباب الثالث
كتاب الأخبار والأقاصيص

صفحة	
٢١٦-٢١٩ ...	ألفاظ شعرية
٢٢٠-٢٢١ ...	القدماء والمحدثون من الشعراء
٢٢١ ...	رأى بديع الزمان في آراء المعتزلة
٢٢٢ ...	الحجون في بغداد
٢٢٣ ...	فكاهة الحسام
٢٢٤ ...	نصائح بديع الزمان
٢٢٥-٢٢٦ ...	أخلاق بديع الزمان في مقاماته
٢٢٦ ...	أهمية المقامات

٣ - أحاديث ابن دريد

٢٢٧ ...	حياة ابن دريد وشاعريته
٢٢٨ ...	حياته في بته ونظراته الى الحسن المنوية
٢٢٩ ...	خفة روحه وحلاوة نكته
٢٢٩ ...	جرأته في بته ودرسه
٢٣٠ ...	أحاديثه القصصية
٢٣١ ...	ظرفه في تصوير رج أبي نواس
٢٣١-٢٣٢ ...	اهتمامه بتصوير الشائل العربية
٢٣٢ ...	تصويره لشجوان العرب وأجوادهم
٢٣٢ ...	وصفه لأعيان الجاهلية
٢٣٣ ...	حديث المرأة التي عاشت بجوار قبور أهلها
	٤ - روايات الأغاني
٢٣٤ ...	حياة الأصفهاني
٢٣٤ ...	أثر أخلاقه الشخصية في أعماله الأدبية

صفحة	
	١ - المقامات
١٩٧ ...	القصص في البيئات العربية
	هل كان بديع الزمان هو المنشي الأول
١٩٨ ...	لفن المقامات
١٩٧ ...	رأى الحريري
١٩٨-١٩٩ ...	ابن دريد هو مبتكر هذا الفن
٢٠٠ ...	أحاديث ابن دريد
٢٠١ ...	ما هي المقامات في كلام ابن المذبر
٢٠١ ...	طريقة ابن دريد وطريقة بديع الزمان
٢٠٢ ...	مقامات ابن نباتة السعدي
٢٠٢ ...	مقامات الحريري
٢٠٢ ...	فن بديع الزمان وفن الحريري في المقامات
٢٠٢-٢٠٣ ...	شيوخ هذا الفن في الأقطار العربية
	انتقال هذا الفن الى الفارسية والعبرية
٢٠٣ ...	والسريانية
٢٠٤ ...	فن المقامة غير فن القصيدة
٢٠٥ ...	أهمية ابتداء بديع الزمان
	٢ - مقامات بديع الزمان
٢٠٦ ...	كانت مقاماته خمسين ولم تكن أربعائة
٢٠٦ ...	شواهد من المقامات
٢٠٩ ...	وقوف بديع الزمان عند شخصية واحدة
٢٠٩ ...	شغفه برسم السموات
٢١١-٢١٦ ...	الوصف في مقامات بديع الزمان

صفحة	ما نقله ابن دريد عن السجستاني ...	٢٥٢
	حديث عامر بن الطرب العدواني وحمة	
٢٥٢	ابن رافع الدوسي
٢٥٣	هل كان الجاهليون يفكرون في البلاغة ؟	

٦ - حكايات ابن الأنباري

٢٥٤	هل كان ابن الأنباري يضع القصص ؟	
	قصة السفينة الذي كان يجمع بين الرجال	
٢٥٤	والنساء في مكة وعرفات
٢٥٥	لغة ابن الأنباري
٢٥٥	قصة سوار

٧ - التوايع والزوايع

٢٥٨	معنى التوايع والزوايع
٢٥٨	رأى الدكتور أحمد صيف
٢٥٩	متى كتبت رسالة التوايع
٢٦٠	التشابه بين رسالة التوايع ورسالة الغفران	
٢٦١	مطلع الرسالة والاتصال بزهير بن نمير الجني	
١٦٢	هل كان الخطباء والكتاب شياطين ؟	...
٢٦٢	شعر البغال والحمير في عالم الجن
٢٦٣	حكم ابن شهيد بين بطل وحمار
٢٦٤	بنلة أبي عيسى
٢٦٤	فهم ابن شهيد لعالم الطير
٢٦٤	وصف الأوزة
٢٦٥	ملاحظة الأوزة لابن شهيد
٢٦٥	مذهب الجاحظ في الكتابة
٣٦٦-٣٦٥	رأى ابن شهيد في أهل الأندلس

صفحة	تعقبه لحفوات الشعراء ...	٢٣٥
٢٣٥	منهج كتاب الأغاني
٢٣٦	نموذج من أخبار ابن أبي ربيعة
	اهتمام الأصفهاني بالجوانب الطريفة من	
٢٣٧	الأخبار
٢٤٠-٢٣٧	قصص ابن أبي ربيعة
٢٤١	نقد الأصفهاني لبعض الأخبار
	أخبار ابن أبي ربيعة وضعت تفسيراً	
٢٤١	لشعره
٢٤٢	لم يختزع الأصفهاني كل أحاديث عمر	
	أفايص من حياة الأصفهاني	
٢٤٥-٢٤٣	الشخصية

٥ - أخبار ابن دريد

٢٤٦	من هو عبد الرحمن بن أنس الأصمى
٢٤٧	اختلاف ابن دريد
٢٤٧	بعض النواحي العقلية من ابن دريد
٢٤٨	قصة لقمان بن عاد
٢٤٩	حكايات ابن خالويه
٢٤٩	روح المصروع
٢٤٩	أبو عمر الزاهد وتقفاقه
٢٥٠	تحليل أخبار ابن دريد
٢٥٠	وصف الزوج المنشود
٢٥١	الأخبار التعليمية
٢٥١	قصة الفقي العاشق
	تحليل الكلمة التي قالها عبيد بن الأبرص	
٢٥٢	وهو مختصر

صفحة

٩ - أخبار التوحيدى

- ما هو عمل التوحيدى فى الأقاصيص ... ٢٨١
 نقل فلسفة اليونان عن اللغة السريانية ... ٢٨١
 محصول العرب من الوجهة الفلسفية ... ٢٨١
 واضح حديث السقيفة ... ٢٨٢
 خلاصة هذا الحديث ... ٢٨٣
 يوادى الشر الذى كان يبتدئ كان المسلمين ... ٢٨٤

١٠ - قصص البيغا

- طرف من حياته ... ٢٨٦
 القصص القراى عند العرب ... ٢٨٦
 قصة طريفة فيما قليل من المحون ... ٢٨٦-٢٩٣

١١ - أحمد بن يوسف المصرى

- رأى مؤلف هذا الكتاب فى أسرار البلاغة ... ٢٩٦-٢٩٩
 كتاب المكافاة ... ٢٩٧
 اللصوص الشرفاء ... ٢٩٨
 أسلوب أحمد بن يوسف ... ٢٩٩
 نموذج من دقة الإشارة ... ٣٠٠
 قصة الفتاة الدمية التى تزوجت من رجل كريم ... ٣٠١-٣٠٤
 تعابير جيدة ... ٣٠٢
 بعض المآخذ فى أسلوب ابن يوسف ... ٣٠٣
 تعابير مصرية ... ٣٠٤-٣٠٦
 المرفى فصاحة الكلمات ... ٣٠٦
 الفرض الذى وضع لأجله كتاب المكافاة ... ٣٠٧
 أقسام الكتاب ... ٣٠٨

صفحة

- كان ابن شهيد مبتلى بمجد معاصريه ... ٢٦٦
 غرام ابن شهيد بمعارضة كتاب المشرق ... ٢٦٧
 اصطدامه بشيطان أنف النافة ... ٢٦٧
 زهو ابن شهيد ... ٢٦٨
 رأيه فى البيان ... ٢٦٨
 رأيه فى شعره ... ٢٦٩

٨ - الانسان والحيوان أمام محكمة الجن

- تأثر كاتب الرسالة بكتاب كليله ودمته ... ٢٧١
 قصة الخصومة بين الانسان والحيوان ... ٢٧١
 وصف جزيرة صاغون ... ٢٧٢
 روح الفكاهة فى الرسالة ... ٢٧٣
 تأثر الكاتب بنظرية المثال ... ٢٧٤
 أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ... ٢٧٤
 زعماء الوفود يصفون أمهم وينقدونهم ... ٢٧٤-٢٧٦
 وزير الجن ... ٢٧٦
 تعابير تعين أذواق الشعوب ... ٢٧٦
 اللغة العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس ... ٢٧٧
 الطبيعة يأكل بعضها بعضا ... ٢٧٧
 النقل بالرياءات ... ٢٧٧
 التشابه بين الكلب والانسان ... ٢٧٨-٢٧٩
 أصل العدواة بين الإنسان والجن ... ٢٧٩
 دور القرآن ... ٢٨٠
 السبب فى كثرة الملوك عند الانس ... ٢٨٠
 نتيجة المحاكمة بين الانسان والجن ... ٢٨٠

صفحة	الحن والشذائد من أجل ما يجب الله ... ٣١٠
٣١٠	قوة العقيدة ... ٣١٠
٣٣٥	فضل كتاب المكافاة على مؤلف هذا
٣٣٥	الكاتب ... ٤١١
٣٣٦	١٢ - عبد الله بن عبد الكريم
٣٣٧	شخصيته ... ٣١٢
٣٣٧	قصة وقعت في قصر ابن طولون ... ٣١٢-٣١٤
١٤ -	حكاية أبي القاسم البغدادي
٣٣٨	حياة أبي المطهر الأزدى ... ٣٣٨
٣٣٨	النرض من هذه القصة ... ٣٣٨
٣٣٩	شخصية أبي القاسم البغدادي وشخصية
٣٣٩	أبي الفتح الاسكندري ... ٣٣٩
٣٣٩	منهج أبي المطهر في قصته ... ٣٤٠
٣٤٠	حكاية شمائل العميان والحيوانات ... ٣٤١
٣٤١	وصف المحبون في بغداد ... ٤٤١
٤٤١	ألفاظ السباحة والملاحين ... ٣٤٢
٣٤٢	أسماء الشوارع في أصبهان ... ٣٤٢-٣٤٥
٣٤٥	صورة فنية في وصف مناقق ... ٣٤٥
٣٤٥	وصف الثقيل ... ٣٤٥
٣٤٥	موازنة قصيدة بين رسالة أبي المطهر
٣٤٦	ورسالة الخوارزمي ... ٣٤٦
٣٤٧	وصف جمال النساء ... ٣٤٧
٣٤٨	وصف جمال الغلمان ... ٣٤٨
٣٤٩	وصف غلام ماجن ... ٣٤٩
٣٤٩	تعليل المحبون ... ٣٥٠
٣٥٠	فكاهات البغداديين ... ٣٥١
٣٥١	تماثيل بغدادية تحيا في مصر ... ٣٥١
٣٥١	رأية الخزرجي في ألفاظ الماجنين
٣٥١	أوباش بغداد ... ٣٥١
صفحة	الحسن التنوخي
٣١٥	نشوار المحاضرة ... ٣١٥
٣١٦	موضوع هذا الكتاب وما حلف منه ... ٣١٦
٣١٧	أهمية هذا الكتاب ... ٣١٧
٣١٩	قوة الحس ودقة الملاحظة وخصب اللغة
٣١٩	عند التنوخي ... ٣١٩
٣١٩	المقدمون لم يتفردوا بالابداع ... ٣٢٠
٣٢٠	ثورة التنوخي على أمراء عصره ... ٣٢١
٣٢١	الوقت الذي وضع فيه كتاب النشوار ... ٣٢٢
٣٢٢	طريقة التنوخي في التأليف ... ٣٢٣
٣٢٣	نقل آداب الناس ... ٣٢٣
٣٢٤	درس النفوس ... ٣٢٤
٣٢٤	لغة المؤلف ... ٣٢٥
٣٢٥	خطاب من ثر المؤلف ... ٣٢٦
٣٢٦	تماثيل جميلة ... ٣٢٦
٣٢٧	كلمات حية ... ٣٢٧-٣٣٠
٣٣١	نقد طباع الناس ... ٣٣١
٣٣١	فرد يفهم فكرة الخير والشر ... ٣٣٢
٣٣٢	بإك الخرمي وقوة النفس ... ٣٣٣
٣٣٣	أرمنية الوزراء ... ٣٣٤
٣٣٤	شيوخ الرشوة عند الحكام الأقدمين ... ٣٣٤

(١)
تصحیحات

مفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٧٧	٦	الْقَوْل	الْقَوْل
٨١	١٤	من عمك غيره	من عمك خيره
٨٣	١٧	من اغتفر	من اغتفر
٨٤	١	خطيرة	حظيرة
٩٧	١٩	عيوب	عيوب
١٠١	٢٣	ولن يصيرها	ولن يضرها
١٢٠	١٢	كتابه	كتبه
١٣٩	٦	يعلق	يعلق
١٥٦	٧	أنى	انى
٢١٣	٢١	كوته	كوته
٣٠٧	١٣	في كل غير	في كل خير

(١) صحح هذا الكتاب بمثابة شديدة . ولكن ذلك لم يصل به الى المصحة من الخطأ ، وقد رأينا تصحيح ما رأيناه من الأغلط . وان كان على ثقة من أن القارئ الفطن لن يفتب عنه الحق لكثرة يتقصها إجماع أو يشوبها تحريف . وقد نظرنا في الجزء الثاني فلم نجد فيه إلا أغلطا يسيرة جدا يدركها القارئ بدون تحويف ، فلم نرموجها لاتبائها هناك .



كَمَل طبع الجزء الأول من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"

بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢

(أول فبراير سنة ١٩٣٤) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

الأخلاق عند الغزالي

قدّم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدًا » ولقب دكتور في الآداب .

يقع هذا الكتاب في ٤٣٤ صفحة ، وبه كثير من الرسوم التاريخية التي تمثل طائفة من المعالم القديمة ، وبه مقدمة بدیة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمي . وهذا الكتاب ضروري جدا لمن يجب الوقوف على فلسفة الأخلاق ، وعلى العصر الذي عاش فيه الغزالي ، والمصادر التي استقى منها آراءه الفلسفية ، والفرق بين الخير والشر ، والكفر والإيمان ، والشك واليقين ، والجبر والاختيار ، وما الى ذلك من المباحث الهامة التي حار في فهمها الباحثون ، وخبط أكثرهم فيها خبط عشواء .

وفي هذا الكتاب باب ممتع في الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحدثين ، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت ، وبسكال ، وهوبس ، وبولتر ، وكارليل ، وسينوزا ، وجسندى ، ومالبرانش . . وفيه كذلك صورة لأراء علماء العصر في الغزالي : كالدكتور منصور فهمي ، والشيخ علي عبد الرازق ، ومحمد بك جاد المولى ، والأستاذ عبد خير الدين ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والكونت دى جالارزا ، والشيخ عبد الوهاب التجار ، والشيخ حسين والي ، والشيخ عبد الباقي سرور ، والشيخ يوسف النجوى .

وقد قامت حول هذا الكتاب حقبة عنيفة ، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كنه ما فيه من آثار حرية الفكر والرأى .

مؤلفات زكي مبارك

- ١ - الأخلاق عند الغزالي .
- ٢ - La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire
- ٣ - البدائع .
- ٤ - Étude sur La Lettre Vierge شرح الرسالة العذراء
- ٥ - حب ابن أبي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة) .
- ٦ - ديوان زكي مبارك .
- ٧ - الموازنة بين الشعراء .
- ٨ - مدامع العشاق (الطبعة الثانية) .
- ٩ - ذكريات باريس .
- ١٠ - تحقيق نسب «كتاب الأم» .

إصلاح أشتغ خطأ في تاريخ الشريعة الإسلامية

كِتَابُ الْأَمْرِ

لم يؤلفه الشافعي وإنما ألفه البرطي وصنفه الربيع بن سليمان

ببحث وتحقيق

بقلم

الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكتبات الشهيرة وثمن النسخة خمسة قروش

(طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢/٦١/٣٠٠٠)

التبشّر الفنى

فى القرن الرابع

تأليف

زكى مبارك

دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس وتوقش أمام الجمهور فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
وتال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جداً]

الجزء الثانى

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

تحت الطبع :

- ١ - مرائر الروح الحزين .
 - ٢ - أكواب الشهد والعلم .
 - ٣ - أسماء وأحاديث .
-

(١) فهرس

الباب السادس

كتاب الرسائل والمهسود

صفحة	
١٩٣	أبو الفضل بن العميد
٢٠٢	ثرآبن العميد
٢١١	أبو حفص بن برد
٢١٨	أبو المنيرة بن حزم
٢٢٦	أبو الفرج البينا
٢٣٣	ثرأبن الفرج البينا
٢٤٣	الصاحب بن عباد
٢٥٩	أبو بكر الخوارزمي
٢٧٧	قابوس بن شمشير
٢٩٠	أبو إسحاق الصابي
٢٩٦	رسائل الصابي
٣٠٢	أبو طاهر بن شهيد
٣١٠	ثرآبن شهيد
٣١٩	أبو الفضل الميكالي
٣٢٥	بديع الزمان
٣٥١	ثر بديع الزمان
٣٥٧	عيد العزيز بن يوسف
٣٦٣	الفهرس المفضل
٣٧٣	فهرس الأعلام
٣٩١	المساجح

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

صفحة	
٧	أبو الحسن الجرجاني
١٧	نقد كتاب الوساطة
٢٧	ابن فارس
٣٧	نقد آراء ابن فارس في فقه اللغة العربية
٤٨	النقد الأدبي عند ابن شهيد
٥٩	أبو بكر الباقلاني ونقد آرائه في إعجاز القرآن
٨٢	أبو القاسم الأمدى
٨٩	ابن صاحب أبي تمام وصاحب البحرى
٩٤	أبو أحمد العسكري
٩٦	أبو هلال العسكري
١٠٣	نقد كتاب الصناعتين
١١١	أبو على الخاتمي
١٢٠	أبو عبد الله المرزبانى

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٣	أبو حيان التوحيدى
١٤٥	أبو على بن مسكويه
١٥٢	الأخلاق عند ابن مسكويه
١٥٩	ابن نباتة الخطيب
١٦٦	أبو محمد بن حزم وآرائه في الحب
١٧٩	أبو منصور الثعالبي

الباب الرابع

كتاب الفقه الإسلامي

١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي تحثت عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"^(١) . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزاة وأغلال الوفاة : رجلٌ طليق العقل، حيّ الإحساس، حر الوجدان يلقي إلى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزء بها الآداب العربية لو توفّر هذا الرجل وترهب وألّى بنفسه في تيار الجمود ! وأى خطر كان يحمدق بالقضاء لو أصمّ هذا القاضي مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغضض عينه عما في هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاء بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أول صفات القاضي فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل، وأماني النفس، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدبّر له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن علي بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وكذلك قال السيوطي في بنية الزعامة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت لعهد من عُرِفَت بهم من كبار الباحثين مشهورة بالصناعة المتينة ، والقواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذي لا يستعمل صبغه ، والذي كان يجعل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزواير ، والظباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بانجر ، وفيها يقول ابن خريم ، أو الأحمش اليربوعي — تردد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصباء جرجانية لم يطف بها	حنيف ولم ينفر بها ساعة قِدرُ
ولم يشهد القس المهيم نارها	طروقا ولم يحضر على طبخها حبر
أتانى بها يحيى وقد نمت نومة	وقد لاحت الشعرى وقد جتجعت النسر
فقلت أصطبجها أولنرى قاسقها	فأنا بعد الشيب ويحك وانخر
تعففت عنها في العصور التي مضت	فكيف التصابي بعد ما كلاً العمر
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتي حياءً ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى	وإن جرأسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فإنه ناقص المرومة^(٢) .

ونرى أن لوفرة ما كان يجرجان من القواكه ولشهرتها بانجر تأثيراً فيما كان لأهلها من وقعة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة المقتنة في تسليق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تقدمه من الكاتين في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقيم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .

قال : وقد استعفيت يوماً من فرط تحقّيه بي وتواضعه لي فأتشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمته من فلك الحسن

(١) كلاً السر : انتهى الى آخره وأقواء . (٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأموال .

فالمعز مطلوب ومتمسك وأعزّه ما نيل في الوطن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في العينية . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صينعى *

قال : والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلنى من المكرين ﴾^(١) . ورغبة الرجل في أن يكرم في وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء في مختلف الاجيال .

قال الثعالبي : "وكان في صباه خلف الخضر في قطع عرض الأرض وتدوين بلاد العراق والشام وغيرها وأقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً ، وفي الكمال عالماً ، ثم عرج على حضرة صاحب وألتي بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلا بعيدا في رفته ... وتقلد قضاء جريان من بده . ثم تصرفت به أحوال في حياة صاحب وبعد وفاته بين الولاية والمظلة . وأفضى محله الى قضاء القضاء بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله^(٢) . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ — وحمل تابوته الى جريان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل المارضى راجلين . فيما ذكر ياقوت^(٣) .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجاني في الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه في الفقه فلم يصلنا منه شيء . وقد جاء في طبقات الشافعية أنه صنف كتابا في الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضي الأديب أن ينظم التشريع . وأما تأليفه في التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبي بأنه (تاريخ في بلاغة الألفاظ وحصة الروايات وحسن التصرف في الاستقادات)^(٤) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبي حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منحنى هذا الرجل في دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ ميم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٣ بنية (٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ بنية .

فهو يبين في الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازي رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولأين ، وفي أي وقت جاهر وكاشف — ويبين في الفصل الثاني أنه يرى بكتابيه إلى غرض ديني وغرض دنيوي : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الإسلامية . واستفاد التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينحو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلا ميلٌ خاص إلى بعض الأحزاب الإسلامية . ولهذا أثره المحترم في كتاب يوضع بينته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترى إليه : فطالما آعرت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطيرة على التاريخ .

أما تأليفه في الأدب فقد بقي لنا منه "كتاب الوساطة بين المتني وخصومه" وسنعود إليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي عنتنا في تصوير نفس ذلك القاضي الأديب .

٥ — كانت نفس القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني نفسا غالية : فلقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية المزينة ، التي حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والألفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإيعادا للروعة عن مواطن الابتذال . وسيرى القارئ حين نقدم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية ، ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاء له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية في سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيقتل ما تكتب عن هذه النفس إلى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزت نفس قاضي القضاة وأسرفت في التصون ، إن كان في التصون إصراف ، وما زالت به تصدته عن مواطن الشهات ومظان الرّيب والظنون حتى زينت له العزلة والافتقار . وشعره في هذا المعنى مثال من

الأمثلة العليا التي يترجمها كاتبها كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك
العزيز الأنوف :

يقولون لي فيك انقباض وانما
أرى الناس من دانا هو هان عندهم
وما زلت متحازا بصرضي جانبها
إذا قبل هذا مشرب قلت قد أرى
وما كل برق لاح لي يستغنى
ولم أقض حق العلم ان كان كذا
ولم أبذل في خدمة العلم مهجتي
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانوا ودأسوا
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :
على مهجتي تجني الحوادث والدهر
كأنني ألاقى كل يوم ينوبني
فان لم يكن عند الزمان سوى الذي
وقالوا توصل بالخضوع الى النفي
وبني وبين المال بابان حرما
إذا قبل هذا البسر طابت دونه
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم

رأوا رجلا عن موقف الذل أجمها
ومن أكرمه عزة النفس أكرما
من الدم أعتد الصيانة مغنا
ولكن نفس الحسرت تحمل الظما
ولا كل أهل الأرض أرضاه منعا
بدا طمع صيرته لي سُلما
لأخدم من لا قيت لكن لأخدما
إذن فأتباع الجهل قد كان أحرما
ولو عظموه في النفوس لُعظما
مُجَّاه بالأطالع حتى تهجما

في هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المذبذبة التي قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان .
وأشرف ما وصف به ذلك التفاضل حظه من العزة تصويره للطيات تُعرض عليه عرضا
فيأبأها إشارته للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحشر تحتمل الظن
وقوله :

• إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه موافق خير من وقوف بها العسر
وقوله :

وبني وبين المال بابان حرمًا على الفنى : نفس الأبية والدهر
ويرحم الله من يعانى ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ - وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبي الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا يحيط على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يستنذر من اتقياضه عن أخويه ، وكيف يلمح برقى ولطف اللى ما طوى عنه إياؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سجيبة فطر عليها منذ قضى الله أن يلقى به فى ظلمات هذا الوجود ، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهم عهدي	ودم لى وإن دام البعاد على الود
ولى خلّق لا أستطيع فراقه	يفوتنى حظى ويمتنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة	بعد جفاء والوفاء لم وكدى
غذيت به طفلا فان رمت هجره	تأبى وأغرتنى به ألفة المهد
كما ألفت كفاكا البنل والندى	فأعياكا أن تنمنا كف مستجدى
على أنقى أقصى الحقوق بنقى	وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
ويمحسهم قلبى وودى ومنطقى	وأبلغ فى رعى الذمام لم جهدى
فإن أتما لم تقبل لى عنده	والزمتانى فيه أكثر من وجدى
فقلوا لطبى أن يزول فاته	يرى لكما حق للموال على العبد

٧ - كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المفرمين بالتفريد على أثنان الجمال .
وشعره في وصف الملاحه ذو أفتانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما
فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله - في الخلد الموزد والطرف الكحيل - :

أشر على ختّى من وردك أودع في يقطعه من خذك
ارحم قضيب البان وأرقق به قد خفت أن ينقذ من قذك
وقل لمينيك بنفسى هـا يحققان السقم عن عبدك

وقوله - في مغازلة النديم - :

أفدى الذى قال وفى كفه مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع فى وجتى قلت فى بالثشم يحنيه

وقوله - فى فتنة الألفاظ - :

من ذا الفزال الفائن الطرف الكامل البهجة والطرف
ما بال عينيه وألفاظه دائبة تعمل فى حنى
وأهاً لئلك الورد فى ختّه لو لم يكن ممنع التطف
أشكو الى قلبك يا سيدى ما يشتكى قلبى من طرف

وقوله - فى اختلاس التقييل - :

وغنج عيليك وما أودعت أجفانها قلب شمع وامق
ما خلق الرحمن مخاضاً خذيك إلا لقم العاشق
لكنى أمتع منها فـا حظى إلا خلسة السارق

وقوله - فى القسم بجنود الجمال - :

لا وجفوت يفضها العذل عن وجنات تذيبها القُبسل
ومهجة للهوى معرضة تعبت فيها القسود والمعل
ما غاب من غاب عن فراك وان أخسرمقات يومه الأجل

وهذه القطع التي آخترناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضى العُرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب فلتطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جملة يختلق الأسباب ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولنتنظر كيف يتصتت عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَنْ طافَ من زمن ظالم	ليس بمسحوق ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه	فعل المولى بالدنف المائم
كأنما أصبح يرمي محو	عن جفن مولاى أبى القمام

وفي تصيد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول في تغذية حبيب نال من دمه مبضع الطيب :

يا ليت عيني تملت الملك	بل ليت نفسي تقسمت سقمك
وليت كف الطيب إذ فصدت	عرقك أجرت من ناظري دمك
أمرته صبح وجنتيك كما	تسيره إن نلت من نثك
طرفك أمضى من حد مبضمه	فألحظ به العرق وأرتجز الملك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما في الجمال من نعيم الحواس ، ويهود إلى بكاء ما ذهب من أنسه في أيامه السوائف ، ولياليه اللحوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد يتفرد برقة الحنين . ولنتنظر كيف يذوب روحه وهو يتأجى التسم :

يا تسم الجنوب يا لله بلع	ما يقول التسم المستهائم
قل لأحبابه فداكم فؤاد	ليس يسلمو ومقلة لا تسام

وكيف يقول في خطاب الديار، ديار الأتس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يسكى	بك في تمضحك الرياض غمام
ربّ يش هبته فيك غص	وجفون الخلوب عا نيام

في ليالٍ كأنهنَّ أمانيٍّ من زمانٍ كأنه أحلام
وكان الأوقات فيها كزُومٍ دائراتٍ وأنسهنَّ مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ وصولٌ ومنى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقاءكو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فاضحت معانيه كأنها خيال في خيال . اليس
يذكر أن عيشه النض كان :

في ليالٍ كأنهنَّ أمانيٍّ من زمانٍ كأنه أحلام

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون
الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحين إلى ليالي بغداد :

أراجعك تلك الليالي كهدها إلى الوصل أم لا يُنجي لي رجوعها
وصحبة أقوام ليست لفقدهم ثياب حداد يستجد خلعها
إذا لاح لي من نحو بغداد بارق تجافت جنوبي وأستطير هجرها
وإن أخلفتها الفاديات وعودها تكلف تصديق الفمام دموعها
سقى جانبي بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لواحظها أن لا يُدأوى صريعها
بها تسكن النفس الثغور ويقتدى بأنس من قلب المقيم زريعها
يمن إليها كل قلب كأنما تشاد بجبات القلوب ربوعها
فكل ليالي عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودني على حكمها مستكرها فاطمئنها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلب النظر في شأيا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك
اللوحة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان إلى الكلف بمظاهر الحسن ، والظما إلى معاهد

تلك الظباء التي تحافت لحاظها أن لا يداوى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكي في ظلالها
قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجلال ! .

وما أحب أن يففل القارئ عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد
تلك الظباء :

بها تسكن النفس القصور ويفتدى بآنس من قلب المقيم زعيمها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بمجات القلوب ربوعها^(١)

والعجيب في هذا الشعر أن تُصوّر نفس المحب في غربته ونواه وهي تأنس بديار
الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك .
وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكري من نشوة الأمصباح
بوجوه الملاح ؟ ومن يدري لعل من أنس بهم هذا الغريب أعاتهم غربة النوى على نسيان
المهود !

رويدكم لا تبقيوا بقطيعي صروف الليالي إن في الدهر كافيا
أفي الحق أنى قد قضيت ديونكم وأنت ديووني باقيات كما هيأ
فوالسنى حتام أرى مضيا وآمن خونا وأذكر ناسيا
وما زال أحبابي يسيثون عسرى ويحفوننى حتى مذرت الأعاديا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجاني بحمد القارئ . في أخباره بالتيمة — ج ٢ — ومجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

١ - «الوساطة بين المتني وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتني وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في النقد لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه ومصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . قلا عن نسختين مخطوطين إحداهما بمصر وأخرها بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزء .

٢ - ذكر التعالي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوى المتني عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتني وخصومه ^(١) .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب في المتني فتنين : فئة تطعن في تقريره وتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل ، وفئة تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهي أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق في الفصل بين المتني وخصومه المفسرين . ويقول في الحرص على الأواصر الأدبية : « وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يترك . ولا حرمة أولى بالنهاية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكرم دونها عرضه ويتمن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذي هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومناز اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عظم مرتبته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياته تجب حياة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البر ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقبح ومما من عقوق من ناسبك إلى أكرم آبائك ، وشاركك في أغر أنسابك ، وقاسمك في أزين أوصافك ، ومث اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك إلى الفخر ^(٢) » .

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ نية . (٢) الوساطة ص ١٠

وهذا الحرص على بقوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجاني على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول في ذلك :

”وكما ليس من شرط صلة رحلك أن تحيف لما على الحق أو تبيل في نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تصدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه إلى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل وكيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتتصف تارة وتعتذر أخرى، ويجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك إذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للجهة إذا قامت محتجا عنك إذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المتحرفة، وأكثر استقالة للنفوس المشتمرة، من توقفك عند الشبهة إذا عرضت، واسترسالك للجهة إذا قهرت“^(١) .

وأخوة الأئمة هذه عرفت قبل هذا القاضى الأديب في شعر أبى تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر في الجزء الثالث من زهر الآداب ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطل النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضى الجرجاني لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء في الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة في رقة الشعر وجفافه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحترى وجريرو أبى نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصنيف والتقسيم . ثم أخذ في الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تحلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل في الاعتذار عنه . وقد جرته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس في التشبيهات ، وتفاوت الشعراء في صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم في أخذ الألفاظ والمعاني الى غير ذلك مما كان يوجبه الأئس بالاستطراد عند المتقنين .

ونريد في هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لمصاحب الوساطة وأن نبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تمنعهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني ، أو كاد ، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف والمحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم حقوة أو تحسب عليهم سقطه . وكان من الناحية من يئس نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شذيع الأخطاء ، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لا تسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه وإعراجه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم وأعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والجهة لوجدت كثيرا من أشعارهم مصيبة ومستزلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجليل والاعتقاد الحسن ستر عليهم وقي الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في اللبّ عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » .

وهو يستذكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشربُ غير مستحقب^(٢) إنما من الله ولا وأغل^(٣)

وإسقاط النون لنير إضافة ظاهرة في قوله :

لها متتان خطانا^(٤) كما أكب على ساعديه التمس

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتجب إليهم إذا اكتسب كأنه شيء محسوس حله (مباح) .

(٣) الواوالمستر — غل في الشجر وغولا توارى فيه ، ودخل على القوم وأغلا ، وقصده هنا غير مستر .

(٤) الخطأ : المكترة من كل شيء .

وقول الأسدى :

كما نزعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع
وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسا وابنا نزار فأنتم بيضة البلا
وحذف النون في قول طرفة : قد رفع الفخ فإذا تحذى
ورفع ما يجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف
وخفض ما يجب رفعه في قول امرئ القيس :

كان نبيرا من عرائن^(١) وبله كبير أناس في يباد^(٢) مزلف^(٣)

وقد أطال الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصنع ما تكلفه
التحويون لشعره الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات
ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة ، وتثبت ما راموه في ذلك من المرامى
البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدة إعظام
المتقدم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألغته النفس .

٥ — ونحن لانبأ أن نكتفى بما أشار اليه الجرجاني من تصف المناخين عن شعراء
الجاهلية ومن قاربهم من المخضمين والأمويين فقد لا تنفى هذه الاشارة . وانما نذكر ما قالوه
في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحتا" تبعا للحنى لأن المراد أنه لم يبق
من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرائن وهو الأنثى . وعرائن القويل : أول الخمر . (٢) الجباد : كساء غطط بلبه العرب .

(٣) مزلف : أى ملف في ثوبه . وكان يجب رفعه .

على أطروقا باليات الخيام إلا التمام وإلا المعنى^(١)
نصب التمام لأنه استثناء من موجب ورفع المعنى حملا على المعنى. وكذلك قول الآخر:
غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عيطات السدائف والنمر
رفع النمر على توهم رفع العيطات لأنه اذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي، الى آخر ما يتأول
النحا !!

نأمل هنا أيها القارئ، وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم نصبوا
الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثاني وفقا للمعنى؟ أكان الهذلي والفريديقي يحسبان حساب
النحا في مثل ذلك التأويل؟ لا شيء من ذلك وإنما أنصب النحا أنفسهم كلفا بنصرة ما سبق
إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن صريح: فالتنا ترتيب
في سلامة الأعراب من اللحن والغلط وزى أنهم قد يلحنون كما يلحن المؤلفون وأن من انحطأ
إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ^(٢)... وهذا المذهب في استقراء أغلاط القدماء
خير من التورط في النفع عنهم بما لا يعني ولا يفيد . فقد كان الفراء يذكر أن من العرب
من يقول في "أنظر" أنظور - وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في ظفنتنا يوم الفراق الى جيراننا صوري
وأنى حيث ما يثنى الهوى بصري من حيث ما سلكوا أروفا فانظور^(٣)

وهذا لحن لا ينبغي أن يتحمل له الصواب . فان دياجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله
من قبيلة مهجورة تسبغ هذا التعبير .

٦ - وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه وهو يرى أن
للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أمره وصلابة معجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع المفضل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلي والأموي كان يجري على قواعد من
النحو تأخذ صفة نهائية في التجديد والترتيب، كما اتفق ذلك في العصر العباسي، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست
أغلاطا بالقياس إلى لغتهم، وإنما هي أغلاط بالاضافة إلى اللغة التي حددت قواعد النحويين .

(٣) أنظر الصاحي ص ١٢

وعذوبته وسلاسته من الوعورة والجفاء ! ومن هنا كان شعر عدى وهو جاهل أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما أهلان : للضرورة عدى الحاضرة وبعده عن جلالة البدو وخشونة الأعراب^(١). وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المتخّل اليشكرى وهو جاهل صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك، ولنتنظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد خلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر فل في السمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشى القطة الى الندير
وثبتها فتغصت كتغص الطيبي الغرير
فدنت وقالت مامد خذ بل ما يجسك من حرور
ما شف جسمي فخرجه لك فاهدني عني وسيرى
وأحبها وتحبني ويحب ناقها بسيرى

٧ — وأظرف ما تنبه اليه الجرجاني إشارته إلى أن الطبع وللحظة أثرا في رقة الشعر فان وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودمائه الكلام بقدر دماثة الخلقة . ويقول :
” وأنت تجدد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونتمته وفي جرحه ولحيته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك “ .

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تنقيد بعض المعاني أثرا لا تنوء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

واجبا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو فنى بما لم يستطعه وهو كهل .
وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لمائة الشعر ورقته :
هو نفس الشاعر حين يتيمة الحب ويأسره العشق . ولم يذكر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاء
بوضوح الفكرة ، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الحيرة الغادين من بطن وبرة غزال تحيل المقتنين ريب
فلا تحسب أن الغريب الذى نأى ولكن من تأين عنه غريب
وقول الآخر :

فيأرب إن أهلك ولم تروها متى بليل أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن ألك عن ليلى سلوت فأنما تسليت عن يأس ولم أصل عن صبر
وإن بك عن ليلى غنى وتجدد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث
وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته ، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقي
وانحط عن البدوى الوحشى . وهو لا يوصى بأجراء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم
الألفاظ على رتب المعانى فلا يكون النزل كالنقص ، ولا المدح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ،
ولا المزل كالجند ، ولا التعريض كالصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح
باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من
الأمرين نهج هو أمملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك
فى هذا الباب بمقصود على الشرود الكتابة ولا يختص بالنظم دون الشعر ، بل يجب أن يكون
كذلك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشويق والتهنئة واقتضاء المواصلة ، وخطابك إذا
حذرت وزجرت أنغم منه إذا وعدت ومئيت . فاما المجهود فالبغى ما جرى مجرى المزل
والتهافت ، وما أعترض به التصريح والتعريض ، وما قربت معانية وسهل حفظه وأسرع
طوقه بالقلب ولصوقه بالنفس » ^(١)

فأما التذنب والإفخاش فهو سبب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « ويلاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والمنف به . ولست أعني بهذا كل طبع . بل المذهب الذي قد صقله الأدب ، ونحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردي والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والتقيع » .^(١)

٩ — والذي يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبوفا في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الأفكار تصرف المالكين أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمده به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللغاري أن يرجع إلى صحيفة بشرين المعتمر ووصية أبي تمام للبحرئى فسرى عناصر هذه النظريات التي يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان.^(٢) ولكنه سيرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك رأيه ، وأقرب إلى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يجب ممن ينقص المتنبي ويفض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من في رشقات هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

وأهـر آيات التهلـى أنه أبوكم وإحدى مالكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إصراف أبي نواس في مثل قوله في اتهام الذات والشك في عذاب
الآخرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والخبير .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أول .

فدع الملام فقد أطلعت غوايتي ونبذت موعظتي وراء جداري
ورأيت إشار اللذاتة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحرى من تتظر أجمل ظننى به رجم من الأخبار
إنى بساجل ماترين موكل وسواء إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولو جب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبير واضراهما من تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكاء خروا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين يعمزل عن الشعر" .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضي القضاة" وسيد الفقهاء فى الرى وجرجان : نعرف الى أى حد كانت التزعة الفنية سيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تماير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وانما الشاعرية روح يتزود به الشاعر فيهن نفس القسارى أو السامع هزا عنيقا يحمله على أن يؤمن وهو طامع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزين الاثم والبغى أو تقييح النى والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجن :

لما نظرت إلى عن حلق المها وبسنت عن متفتح الشوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وككيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائما وعزمت فيك على دخول النار

أو من ذا الذى لا ينشع لعظمة الفضل والوفار فى قول معن بن أوس :
 لعمرى ما أهويت كفى لربة^(١) ولا حملنى نحو فاحشة رجل
 ولا قادى سمى ولا بصرى لها ولا دلتى رأيت طيبا ولا عقل
 وأعلم أنى لم تصبى مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فى قبل
 ولست بمأش ما حيث المنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثل
 ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوتر ضيغى ما أقام على أهل

والشاعر الواحد قد يرضيك جده وهزله ، ويروك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان
 نفسه ، ويتحدث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف
 ذوقه وإحساسه : فإن الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراعى صورها المختلفة فى لوحة الشعر
 الجليل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أن تريدون أن تعلموا الأحكام العرفية
 على الكلاب والشعراء والفنانين لتلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم
 ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يئون العالم كل يوم بلون جديد
 وتفتن يده الصنّاع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر
 والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر
 أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تصوّره
 بحاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدهم فرقان وانجيل .

♦ ♦ ♦

تلك نواح كشفنا عنها وبنّاها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طلباً للزبد .
 فليس التقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

(١) الرية ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ - ابيه فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسب ابن الأنباري إلى المكان الذي مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازي . والرازي نسبة شاذة إلى الرى . ويقول ياقوت في معجم الأدباء^(٢) : « واختلفوا في وطنه فقيس : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القرين مرارا ولا خلاف أنه قروي . حدثني والدي محمد بن أحمد وكان من جملة حاضري مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :
بلادها سُكَّتْ على تَمَامِي وأقل أرض مس جلدِي ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرّى في صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضي القضاة على بن عبد العزيز الجرجاني .

٢ - ذكر السيوطي في بغية الوعاة^(٣) أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلى بن إبراهيم بن سامة القطان . وذكر ابن الأنباري أنه أخذ عن أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبي عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبي عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه^(٤) " وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنباري شاهدا على ذلك الحرص تكفي بالإشارة إليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : هجيت فلقبت بمكة ناسا من هذيل بخاريتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكنني رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحاً وأشدنى :

إنّا لم نحظ في أرض فدعها وحث اليميلات على وجأها^(٥)

ولا يفردك حظ أخيك فيها إذا صفوت يمينك من جدأها

(١) طبقات النعاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النعاة ص ٣٩٢

(٥) اليميلات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيحا وخل الدار تحزن من بكائها
فانك واجد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم صاحب بن عباد وبديع الزمان المهناني . أما حاله مع صاحب فقد ابتدأت بوفاق ، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى صاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفية في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسبة الى صاحب . وحتى مدح صاحب ابن فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف ^(١) » ثم انعرف صاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل المعيد وتعصبه لهم فأنفذ إليه من همدان كتاب الحجر من تأليفه فقال صاحب « رد الحجر من حيث جارك » ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلته . وكان صاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء يعرض أحيانا لابن فارس فيذكر أنه رأى « بعض الجهال يصحف ويقول . وأما حاله مع بديع الزمان المهناني فكانت فيما يظهر غاية في صفاء الوداد . نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد إليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لترى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الاسلامية ، وكيف كان يحذر قلب النفس الانسانية التي تجلّ غورها في قصائد الشعراء ، وصحائف الأنبياء . ولنتعرف كيف يقول « نعم أطال الله بقاء الشيخ الامام إنه الحما المسنون ^(٢) ، وإن ظلت الفنون ، والناس ينسبون لأدم ، وإن كان الهد قد هدام . واربتكت الأضداد ، واختلط الميلاد . والشيخ الإمام يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسممنا أولها ؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها لا تكسح الشول بأغبارها ؟ أم الستين الحربية ^(٣) .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحما المسنون : الطين المختبر . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأخبار جمع خبر وهو بوجبة الجنب ، والكسح هو ترك بقية من اللبن في أخلاف الفاقة . المعنى : لا تنزل عينك وإحلبها لأضيائك فانك (لا تحدى من التامح) كما في بقية البيت . (٦) نسبة إلى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

(١١) والبرخ يركو في الكلى
وميت حجر في القلا
(٢) والسيف يغمد في العلى
والحارثان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : ليت العشرة منك برأس من بنى فراس ؟ أم الأيام الأموية والتغير إلى انحياز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات المدوية وصاحبها يقول : وهل بعد البزول إلا النزول ؟ أم الخلافة النينية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نائة الاسلام ؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتي يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم في الجاهلية وليبد يقول :

ذهب الذين يماش في أكافهم وبقيت في خلف بكلمة الأجر
أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نجبها إذ الناس ناس والزمان زمان
أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تفريت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ وما فسد الناس ، وإنما اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذة والمطف عليه فقال :

« ولعمري لئن كان كرم العهد تخابا يرد ، وجوابا يصدر ، إنه لقريب المثال ، وإنى على توبيخه لى لغير إلى لقائه ، شقيق على لقائه ، منتست إلى ولائه ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره ، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها الله نارا ، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت لكاتبى موقعا من قلبه لاغتنمت خدمته به ولرصدت إليه سور كاسه ، وفضل أنفاسه . ولكنى خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردت

(١) الكل جمع كلية وكلمة بالنم . (٢) الل بالضم الأحاق جمع طلبة أو طلابة .

الينا) وله أبده الله العبي، والمودة في القربى، والمرباع، وما ناله الباع . وما ضمه الجلد، وضمنه المشط . وليست رضاي ولكها جل ما أملك .
إلى آخر ما قال :^(١)

ولو وجدنا نص الكتاب الذي بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه، وألوان قلبه :
فإن لأزمات القلب، وبطحات النفس، دلالة كبيرة على المناحي التي يمنح اليها الكتاب والشعراء
والباحثون^(٢) .

٥ - كان ابن فارس وسطا في شعره وثره : فلم يكن يُسَفَّ حتى يصل الى وصمة الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل الى جودة البيان . وثره في جملة بين واضح مقبول . يجنبني منه قوله - في تفرج رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب - : « وقد كان الناس قديما يمتحنون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجاوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نها قال (ما ندرى ما الأعراب وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بنا يساء به اللبيب ! ولقد كُلمت بعض من يذهب بنفسه ويرأها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه ؟ من أى شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

«فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدري ما هو ونسود بالله من سوء الاختيار !» .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل الكاتب الى ما يرى اليه من التهمك اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعاني

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ - من رسائل البديع . (٢) التي في رسائل بديع الزمان أن هذه الرسالة جلت جوابا عن كتاب ورد اليه من ابن فارس في ذم الزمان . وفي نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع الزمان ذكر في مجلس ابن فارس فقال ما سئاه : إن البديع قد نسي حتى تحلبنا إياه وعتنا وشنع بأفقه عنا فأخذ الله على فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجملته الألفاظ . وفي هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ - أما شعرا بن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله - وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يفنه علمه - :

سقى همدان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرع
وما لي لأصغى الدعاء لبلدة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيبت الذي أحسنه غير أني مدين وما في جوف بيتي درهم^(١)

وقوله في كثرة همومه وتعزيه بالهرة والكاتب والمصباح إذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج^(٢)
نديمي هرتي وأنيس نفسي دفاتر لي وممشوق السراج

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضنون به يسخر الحق لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لفناء قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حفلى منها فلس إفلاس^(٣)
قالوا فما لك منها قلت تخملي لما ومن أجلها الحق من الناس

وقد يستجاد قوله في التفاضل عن هفوات الصديق :

عنت عليه حين ساء صنيعة وآليت لا أمسيت طوع يديه^(٤)
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت إليه

ومن ظريف الإشارة الى ضعف حجج النعاة قوله في فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تمي لستركي^(٥)
ترنو بطرف فاطر فائن أضعف من حجة نحوي

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من النية - (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعنينا هو (الصاحبي) الذي قدمه الى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٢٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً قلا عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشقيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشقيطي "وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد وقه الحمد" .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقيلة : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سني حياته العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جداً بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو في "الصاحبي" رجل حليز هبوب يحسب سارية العقل جرعة ، ويمتد التكبير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالفيرة والحمة لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب "الصاحبي" كلها جهود وكلها ذهول . وقد يصحوا أحيانا فيرى بالقول السديد . وحسب القارئ في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه "علم العروض الذي يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتجرح به الناسيون أنفهم الى التي يقال لها الفلسفة"^(٢) .

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ نجيب فيما نظن قوله في ريسان "ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف" .

وحقا إن الفلسفة لا تريد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » وريتان لا يزيد عن أنه " الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف " وسبجان من أغناثا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك " وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو " ^(١) ثم يقول " وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آخفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وأدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن " ثم يقول في وصف الصروض " ومن عرف دقائقه وأسراره وخفائيه علم أنه يرى على جميع ما يتبعج به هؤلاء الذين يتعلمون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والمخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترقى الدين وتنتج كل ما نمود بأفقه منه " ^(٢)

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقنين في العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا في درس حقائق الأشياء ؟

٩ — ترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما توحى به العقول . وانتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية ففراء يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفتين مختلفتين . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقنون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابتاع والتجديد في عالم الآداب . ويكنى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا اكتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

كانت تفكك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدتها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره للمبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد ” ألهك الله الرشاد؛ وأصحبك السداد؛ وجنبك الخلاف، وجب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي المعجل تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك وأمله لو فعل حتى يصيب الفرض الذي يريده ، ويرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، وغنائه وريخه ، كثيرا مما فات الأول . فما ذا الانكار ولم الاعتراض ؟ ومن ذا حذر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال ” ما ترك الأول للآخر شيئا “ وتدع قول الآخر ” كم ترك الأول للآخر “ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا زلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يميز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباهة وحرمت حلالا وسدلت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حييب) الا واحد من المسلمين له ما لم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يمارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحو في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يميز معارضة أبي تمام في كتاب شد عته في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرك قدره !!

ولو أقصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام
 ناقية، ولكت السن لسنة، ولما توشى أحد خطابة ولا سلك شعباً من شباب البلاغة
 ولجأت الأسماع كل مردد مكرراً، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحام لا يسأم
 (لو كنت من مازن لم تستعج إلى) وإلى متى "صفحنا عن بني نعل" — إلى أن قال "وهلا
 حثت على إثارة ما غيبته الدهور وتمديد ما أخلفته الأيام وتدوين ما تخبته خواطر هذا
 الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو راحه رائم لأنبيه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن
 درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروك، واستنباط يعجبك، ومزاج يلهيك^(١) .

١٠ — تلك هي الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارئ تختلف
 عن سابقتها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءاً كبيراً من هذه الرسالة فليرجع إليها من
 يطلب المزيد. ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لمهد ابن فارس
 وكانت تضيق به نفوس الرجعيين إذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف
 بالماندى وكان من أهل قزوين :

عج مثلى زيارة الخمار	واقثنائى المقار شرب المقار
ووقارى اذا توقر ذو الشيد	بة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالى اذا المدامة دامت	عذل ناه ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليل	ما به كوكب يلوح لىارى
قد طويناه فوق خشف كميل	أحور الطرف فائن سحار ^(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ ينية .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس مع اختلاف قليل، وربما كانت مما أضيف إلى شعر أبي نواس .
 لاتصالها بغيره المعروف في النزل والشراب ، وهي في الديوان طويلة تصل إلى خمسة عشر بيتاً آخرها هذا البيت
 الحكيم :

قى يخلع القفى وهو إن را ح يسكر وان غدا فى نمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في البجى قم عليه طيب أودانه لدى الزبلاء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ماشيت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت فحل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التحريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في قفه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ - نقد آراء ابنه فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقه العلم بالشيء والفهم له واللفظنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم واللفظنة . وفي الحديث (من أراد الله به خيراً فقهه في الدين) وقضت فلانا كذا وأقضته آياه فهمته فقهه وتفقهه . وقال عمر بن الخطاب بن عبد الله كنت سيداً في الجاهلية وفيها في الإسلام . قال الزمخشري وتقول فلان بين القراة : في أبواب الفقه . وظل فقيه عالم بنوات الضيع ونوات الحمل .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعبرة " فقه اللغة " لم يكن يتفق القدماء على إفرادها بمذلول خاص . وإنما نجد فيها في تمايز الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لآعلى وجه التمييز . والتعالى يحدسنا بأن كتابه (فقه اللغة) إنما سمى بهذا الاسم وفقاً لاختيار الأمير الذى أهدها إليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه في تأليفه لم يكن جرياً على خطة اتفق عليها الباحثون في ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) في العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدي في محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ أن كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصاً لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . ففهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو وقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب إلى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوها . وإذا جمع هذا فمن الممكن أن يدخل في دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والمروى وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تكوينه في الجامعات والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتآليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية “ .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح « الفيلولوج » مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التقدن عند شعب من الشعوب ، وإلى تأمل العلاقات التي كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكتفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الإيرانية بل عليه أن يطيل النظر في كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من المفائد والديانات .

هنا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب ، وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث في هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقتر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذاك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن تقتر أن كلمة “ فقه اللغة ” التي اختيرت لترجمة كتاب التالمي لم يتم بها قائلها من غير أن يكون لها في نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة في فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال “ هذا الكتاب الصاحب في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها ” وهو بالطبع كان يعرف ما ترى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون في علوم اللغة العربية لذلك المهيد قد فكروا في فن جديد غير ما عُرِف من علوم البلاغة وما اصطُلع عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يحد من يُعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وانما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة يتقنها الترتيب والتفصيل

ويسوزها النقد والتميز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى أن أهم ما يؤخذ على المؤلفين في فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء في الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب التعلاني أن " الارتكاض " حركة الحنين " والنوس " حركة الغصن بالريح " والتدليل " حركة النى المتدلى - " والترحج " : حركة الكفل السمين والفالودج الرقيق . و " النسج " : حركة الريح في لين وضعف . و " الذماء " : حركة القليل . و " النودان " حركة اليهود في مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنوع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة " النودان " مثلا وأن يبين أعربية هي أم عبرية .

وجاء في الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذى يوجب الحد فهو سكران . فإذا زاد امتلاء فهو سكران طالع . فإذا كان لا يتماك ولا يتمالك فهو ملخ . فإذا كان لا يعقل شيئا من أمره ولا ينطق لسانه قيل سكران بات وسكران ١٠ يت^(٢) . وكان من الواجب أن يذكر لنا التعلاني شيئا عن أصول هذه التماير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طالع) وكيف وقعت : فى شعر أوفى ثر . وإذا كان مصدرها الشعر فن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلا فى صيغها بصيغة التأكيد . وكل ما عمله التعلاني أن دلنا على أن كلمة (ملخ) مقولة عن الإخمى وأن (سكران بات وسكران ما يت) كلاهما عن الكسائي ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روى فيها حصر الأوصاف والنموت . فإن أكثر ما جرى عليه التعلاني فى " فقه اللغة " وآبن سيده فى " المخصص " وآبن الأجدابى فى " كفاية المتحفظ " لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان القرض منه جمع الأشياء والنظائر فى الصفات والأسماء .

٣ - قلت لك إن المتقدمين لم يفردوا هذا العلم بموضوع خاص ، ولأن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما يتبد من الألفاظ والتعابير ، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما أقلب في الألف عن الياء مما أقلبوا فيه عن الياء ولا يحلون الموضع الذي انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لفتان . وذلك بجنب وجبذ . ويش وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمونه غير مهموز مما أصله المهمز على ما ينبغي أن يعتقد منه تحفيظا قياسيا ما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع ^(١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جني في "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جني أراد أن يسمو على ما شغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه . وهذا وذاك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جني وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي مهدت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتسقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ - في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في ساذجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الفروق وجد

كل قوم كتاباً فكتبوه فأصاب اسماعيل الكاتب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فاما أن يكون مخترع اختراعه من تلقاء نفسه فشئ » لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح ^(١) .

وبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم " هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحرار وأشياء ذلك " ويقول فى سذاجة " ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأناء الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فان تعمل اليوم لذلك متمعل وجد من تقاد العلم من ينفيه ويرده " وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه خطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . " إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول " ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا رأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وأن لم يسط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ - وقد عُني ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كتب كنف شاة فيها "لم يتسن" و"فأمهل الكافرين" و"لا تبديل للحلق" فدعا بالدواة فحما إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" وعا "فأمهل" وكتب "فهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

وقتل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلى من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إت» هذين لسأحران» ولست أجتري على ذلك قرأ «فأصدق وأكون» فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .
وكان على ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغير في رسم المصحف وأن يبين إلى أى حد يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضا نكتفي بالإشارة إلى هذا البحث الخطير^(١) .

٦ - المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ إلا في الاسلام : فالنحو من وضع أبي الأسود الدؤلي . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . إلى آخر ما يهجمس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس إلى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شاكك أظمان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجده قوافها كلها عند التزم والإعراب تجمي . مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها في حركة واحدة آتفا من غير قصد لا يكاد يكون^(٢) .

(١) ص ١١٠ و ١١١
الأدب الجاهل والأمرى ، ولغات العالم كله تعترف بما يسمى "النحو التاريخي" ونحن في حاجة إلى ذلك النحو لترجيحه بعض ما يبدو شاذاً من تعابير القرآن . (٢) ص ١١٠ و ١١١

وهنا يجب أن نشير إلى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل النبوة والتحليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جتدهما هذان الإمامان" .

وهي هذا أن النحو الذي نعرفه علم مجدد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا في ضبط لغتهم منذ اليهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مما تلا ما عرف بعد الاسلام . لأن النحو الذي نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" في عبارة ابن فارس تحتاج إلى تحديد .

٧ - ولابن فارس رأى في التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخرج عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب في الاغراء (كذلك كذا) وما جاء في الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذلك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو عدوني وعللوا بي الأرض والأقوام قردان موطبا

وقول الآخر:

كذب العقيق وماء شت بارد انت كنت سائلي غبوقا فاذهي

ونحن نعلم أن قول (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك في الأرض "عنك شيئا" وقول الآفوه :

عنكمو في الأرض إنا مذبح ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أحمد من سيد قتله قومه" أي "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأعد من قوم كفاهم أخوهو صدام الأعدى حين قُلت نبوها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفيثا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذي لم يفسر بعد . وقول أبي ذؤيب :

مضب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبي ربيعة مسجع

قال ابن فارس : فقوله "مسجع" لم يفسر حتى الآن تفسيرا شافيا .

ومن هذا الباب قولهم "ياعد مالك" و "ياهي مالك" و "ياشي مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و "ويك" و "إنيه" ولا قول القائل :

* بنائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذي لا يفهم موضعه فكثير كقولهم "نسى" و "نسى هلا" و "وعين ما أرينك" في موضع عجول . و (هـ) و (هـا) و "دع" و "دعا" و "لما" للماثر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهر مطية حرج تمي مل عثار بدعدع

ويروى عن النبي أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعل . ولكن قولوا اللهم ارفع واقع" قال ابن فارس : فلولا أنب للكلمتين معنى مفهوما عند القوم ما كرهما النبي . وكقولهم في الزجر "أخر" و "أخرى" و "دعا" و (هلا) و (هاب) و "ارجحي" و "عد" و "عاج" و "ياعط" و "يماط" وينشدون :

وما كان على الجنى ولا الهى امتداحيكا

وكذلك "أجد" و "وأجدم" و "حدج" .

قال ابن فارس : لا نعلم أحدا فسر هذا .

تأمل أيها القارئ في هذه التعابير المجهولة وأذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هذه التعابير متصلة في لغة قريش لقيت معروفة المدلول . وهنا تشير الى أنه لا بد من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرِف في عصرهم جُهل وما استعمل ثم تجاهاه الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يمامون شنيع !

٨ — وقد تنبه ابن فارس الى التعابير التي لا يمكن الوصول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه مماتص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و(البحر) و(الأوان) فانك لا تدري اذا قال الحالف «واقه لا كلمته حينا أو زمانا أو دهر» الى أي حد يتصل الإعراض وكذلك «بضع ستين» مشبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حد معلوم ومن هذا الباب على رأي قولهم في الفتي والفقر وفي الشريف والكريم والثلثم اذا قال «هذا لأغنياء أهلى» أو «فقرائهم» أو «أشرافهم» أو «كرامهم» أو «لثامهم» وكذلك إن قال «امنعوه سفهاء قومي» لم يمكن تحديد السفه .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتمل فقلت وما السبب في حجره عليه ؟ ف قيل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفه . فقرأ على القاضي قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح مكلّين تملوهن بما علمنكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم» . فامسك القاضي عن الحجر على المكتمل .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها افرحت بالبيان : لقوله جل ثناؤه «ولأنه لتزِيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين» .

ثم أعقب هذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لفته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليفاً .

”وان أردت أن سائر اللغات تبن إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر السيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك؟ وأين سائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟“^(١)

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب في البلاغة والبيان! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم، وللأسد خمسمائة، وللمية مائتين، وما شاء الله كان! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره أن سأل الرشيد الأصمعي عن شعر لابن حزم المكي ففصره فقال الرشيد :

يا أصمعي! إن الغريب عندك لغير غريب! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً“ وكان من آثاره أيضاً أن أفرد صاحب ابن عباد هذه المترادفات بـ”كتاب!“

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) في درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل لإسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثراً من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التى كان

يرى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاترة والتعجيز ثم لا يتخرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللمية مائتين .

فن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ اليسوا في أنفسهم كل من أقلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون أننا حين نذكر لغة العرب لا نزيد غير لغة قريش التي نزل بها القرآن؟ أفستطيعون أن تتبثوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندرى كم تعدون من الأسماء؟

١٠ - وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب - لما نشأ به أسماعهم وأبصارهم - فضلا تطول به لفتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قولهم (رحب العطن، وغمر الرداء، ويخلق ويفرى، وهو ضيق الحجم، قلق الوضين، وهو ألوى بيد المستمر، وهو شراب بأنقع، وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، وعى بالاستاف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجماد، وأنه من المقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن ينفخوا لأنها وقعت على غير ما يلقون .

٥ - النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وسقوده على المطين في قرطبة — مذنب الجاحظ في قلم البيان — كيف تكون ملاحظة النحو وضاعة الغريب — الأنساب والقرابات بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالمعاني — كيف كان الشرع يجمع المجتهدين عند البقائين والقضاة بين — هل في مقدور كل بلغ أن يصل إلى كل غرض — البلاغة ميسرة فنية من المتكلم للخطاب — أثر الطبع في البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدماعته من أهل النقلة والحق ؟ — كيف وزن أقدار الرجال ؟

١ - أشرنا عند الكلام على رسالة "التواضع والزواج"^(١) إلى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نقعة سماوية ولا صصلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن نص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقيق جماعة من اللغويين والنحويين الذين طاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء . وقد اجتهد في أن يخفي علينا تعامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصنع أحكامه بصفة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريد من التخصيص، ولكنه غلب على أمره فصيح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وقسطنهم عليه وإسرافهم في ثلبه . فلنتفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لنذكر أن أقواله مشربة بالفضن والحدق وأنه لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف وأشتقاق: لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنع طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحطيل رسالة التواضع والزواج في باب « الأنساب والأقاصيص » من الجزء الأول .

٢ - يحتل ابن شهيد أن قوما من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يمتحنون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، إلى فطن حمئة، وأذهان صدفئة، لا تمتد لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في نور البيان، سقطت الهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد الجاني من الرقص على الايقاع والزمير على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصرف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالجمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لندو رؤسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لجمار أن يفنى :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضارب على الأوتار، ويرنى الوتر في مجرى السبابة والبصر فيبيل بنشيدته، ويولول في ضربه، وكذلك حال المعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد^(١).

٣ - وفي موطن آخر نراه ينتقد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكزة ثم يقول :

”وما علم من خلق هذه المصابة اذا تحتنا أبصارهم قابلونا باللق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فاذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس، تراهم اليينا مبصبين، وعن الأخذ في شيء من تلك الممانى واقفين، وانما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، اذا اصطكت الركب وازدحمت الحلق، واستجبل المقال ... الخ“^(٢).

٤ - ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات في تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

”إننا اذا أكثرنا من يعلم صبياننا النحو والفريق فتح منا بعشرين درهما في الشهر، ولو أكثرنا من يعلمهم البيان لما فتح منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه ”عن وجه التعلم وصور كيفية التدريج“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتزليل البيان،

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائدته ، وضمن بما عنده خيرة على العلم ، وشحا بجرة الفهم " لأنه عرّف « أن النفع كثير والشاكر قليل » ولذلك كان كتابه في البيان موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الإطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على مآراه في كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وإنما يفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن ، ومن كلام الى كلام ، جريا على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتنيات الجاحظ حتى يتم بالترتيب والتبويب ، وإنما تشمله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفهم أن يدقوا ما يسمعون أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا ، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أبلغ النحو وأفصح الغريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة اللغوية ، فان البلاغة في الواقع تنحى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الفلظ حين يراد وزنه بالموازين النحوية ، وإنما هو التركيب الذي يستوفى الدقائق المعنوية التي يتم بتقليدها علماء المعاني . أما فصاحة الغريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الغريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولنتظر كيف يقص طينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الإسرائيلي وكان أفهم نليذ مرّ بي وأنا أوصي رجلا عزيزا على من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرايات تبدو في الكلام . فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر، وطابت المحابر، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قلت له : وللغريبة إذا طلبت ، وللقصيدة إذا التمت ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار ملجح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار ملجح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لمعرك لاني يوم بانوا فلم أمت	خفانا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة	ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها	لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفانا) موقعا لذينا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، ومرى (غصن يراح مطير) مسمى لطيفا ، فقلت له : أرجو أنك تسمت شيئا من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : « وكان ذلك اليهودي سائحاً بي ما أقول فعدا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبي بالجبال
في أبيات تشبه وجاء اليهودي فأنشدني :
أيسم ركبانهم منعجا وقد ضمتوا قلبك المودجا

وأستمر إلى آخر القصيدة فأنى بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتلذّب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبته ، ثم تفتح زهره ، وضاح عبقه . ورآني أستعمل وحشي الكلام

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فاستعمل شيئا منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال : تجل على به ! وعرضه على ابن الإخيل فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه في موضعه وهو أدرب منك ^(١) .

وهذا كلام جيد ، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنسابا وقرابات تبلى في الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصبغة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا صاحب في مقدمة كتابه عن مساوي المتنبي أنه لم يحذف من مصحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز قد الأبيات إلى قد الحروف والكلمات ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتغيير القافية والوزن ^(٢) » .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني ، فليس كل وزن يصلح لكل معنى ، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أخصم من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعاني اللطيف أو أبجل من بعض ، وفطنة الشاعر وال كاتب هي التي تؤلف بين المعنى وبين لؤوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ - ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لغفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقي إلى جميع الناس في جميع الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك : « وربما لا بدنا المستطعم باسم الشعر من يحيط العامة والخاصة بسؤاله فيصايف منا حالة لا تنسح في كبير مبرة فنشاركه ونعتزله ، وربما أفداه بأبيات يعتمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فإذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلهم ، وألحلت عقلمهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من السيرة . (٢) مقدمة كشف مساوي المتنبي .

(٣) الخطب : السؤال ، من غبط الشجرة شذها ثم قض ووقها تسقط منها الفرة .

ذلك البأس في عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز ففاح يصب في فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها إليه ^(١) .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصبايين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات . والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبي عامر حين طلب منه كشف السر الذي حرك العامة بغادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

”وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشمد لا نستطيعه : لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان“ ^(٢) .

٨ - وأبن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بلنج أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يمسرحونهم الى البذل بحيث لا ينجح فيهم تقريظ ، وإذ ذاك ”يحتاج الى أنقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه المعصاة لا يمكن لدى النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويضا فانك تجدهم يتدرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهذه بيان هؤلاء صعب“ ^(٣) .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج الى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البلنج وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لو تاملنا اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن في تلك المواطن وحدها يحتاج الى بيان الكاتب والخطباء

والشعراء، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في ذلك ما يتعسر على سواد المنشئين، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبت ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشع والكنود، وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغا من الكلام فيها، وميثوسا من فائدة السواد إلى شرحها وتفصيلها، فإن المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الحق جَوَّ بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مرقد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحول المسائل الظاهرة إلى مشا كل عقلية وروحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم إلى جواء من البحث والتفكير ويفهم موقف الحيرة والتردد بين الخير والشر والبر والمعقوق.

فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف، ولكن البليغ هو من يحول الموضوعات العادية إلى شئون جدية طريقة لتحلل فيها عزائم أهل الشع أو تنهض ضمائر أهل الجود. وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمحاول محطمة من الهجوم القبيح.

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس إلى مكان من الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقنون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، في كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان.

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السيامة النفسية، ومن السامية من تكون نظراتهم أشد خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شراً مستطيراً على المعاندين ممن يخاطبهم أو يرأسهم أو يحاورهم في جد أو في هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا قتل ما في الروح من حب أو وحقد، أو عتب، أو ملام، وصب ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكتأب من عدو أو صديق. وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التقظ والقوة، وفي أقصى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفسنا شواظا يتلظى حين نهجم

ونفك ، ونسبا يتأرجح حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام في ذهول ومن غير درس
لأنفس المخاطبين فهو التي استعاذ منه الخطباء ، والإغغام الذي تيب عواقبه الشعراء .
ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفقه أن سر البلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع
الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البناء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت
تركيب أفهامهم :

” فمن كانت نفسه مستوية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطبع صور الكلام والمعاني
في أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستويا على نفسه من أصل تركيبه كان
ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الروق .

” فمن كانت نفسه هي المستوية على جسمه فقد أتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ
القلوب وتمتش النفوس ، فإذا قشست لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه ،
وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تورثها من أذرعنا وأهلها يثيرب أدنى دارها نظر على

فهذه السباجة إذا تطالبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لما من التماق
بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى^(١) .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى
ذلك أنه قد يتفق لنا أن نحب بفقرة من الشعر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لما
أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع الى ما طبع به الكلام من شرف الطبع وسمو
الروح . والجانب الثاني عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبَوس لا قِوام
له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصي الناقد بأن ” يفتش عن شرف المعاني ، وينظر مواقع البيان ،
ويحتمس من حلاوة خدع اللفظ^(٢) ” .

ويقترأن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقعم بحور اليان، وتعتمد كرائم المعاني" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمطى الفصل ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبق بعد موة"^(١).

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة، وهي مع ذلك خلون من غرائب المعاني؟ فنعرف الآن أن السرف في إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه إلى الطبع والروح. ونحن نستطيع تحليل ذلك بدرس من عرف من الناس، فهناك أفراد غناؤهم قليل، وعصوبهم ضئيل، ومع ذلك تُفق بهم أحيانا وزاهم أهلا للعب والإعجاب. وهذا هو سر ذبوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فطر سليمة، وطباع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدى ذلك إلى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله في المعلمين بقرطبة: "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخلافة لآلات الفهم، الباعثة لريق الدم في الشريان إلى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وقصانها عن المقدار الطبيعي، وما يبعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، وتسوء القمحودة^(٢)، والتواء الشدق، ونحر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعذ بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أكبادنا"^(٣).

وهذه الأحكام متصلة أوتق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء، فليس من شك في أن الجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى في صورته. والصور المقبولة تبحث في أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تحليلا لفحوات الغطاء: فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين طافية البدن وشباب الروح.

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحودة: عظم الرأس بما يجيل إلى القفا. (٣) ص ١٧٢

١١ - وابن شهيد وفي لمبدته في ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمله ذلك على النيل من الجاحظ والنقص من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحق . وقد خطأ أبا القاسم الأنطيلي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المثلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إنما أن يكون لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط المهمة ، أو لأن إفراط جموح عليه قعد به : لأنه لا بد لذلك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه، وأنف ذكي لا تتهم أغفاسه عند مقارنته له . ولذلك استحسنوا من الكتاب أن يكون طيب الرائحة، سليم آلات الحواس، نقي الثوب، ولا يكون ومخ الضرس منقلب الشفة، مكمل الأنف، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التعامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

”رأى أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة قليل : وأى أداة قصت الجاحظ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالما غير عاقل، وجدليا غير حصيف، وفقها غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر من ينسبه إلى الجاحظ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا ، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة ، ناهضا في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال، في صفة غراميل البغال، وغير الكلام في الجردان، وبنات وردان، ولعل أن بين العالم والكاتب فرقا“^(١) وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك، وبمقدار نجاح الكاتب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قصدت به كما قصر ابن شهيد نفسه نقل ميمه، وكما تختلف صاحبه الأنطيلي لورم أغفه . وإذا ذاك يكون للجاحظ عنده المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا في تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن للمقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو إليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب في أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات . فليس من العيب أن يتم بالصفاثر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون : يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . ويا ويل أهل الفضل إن قيسوا أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ - أبو بكر الباقلاني^(١)

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه « إعجاز القرآن » وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دلائل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه في إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه في موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حاسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في إعجاز القرآن وكان في ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحنون في الحواضر الاسلامية . وإنه يمثل لنا الأزمة العقلية التي أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبينهم برهانا ، ولمعجزته ثبنا وحجة . لا سيما والجهل بمدود الرواق ، شديد النفاق ، مستول على الآفاق . والعلم الى غفاء ودروس ، وصل خفاء وطموس ، وأهله في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشنيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبيله . فالتناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشيد ، وآثر مصدود عن نصرته مكشود في صناعته ، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ وكان من كبار أهل السنة . ورواه بعض معاصريه بقوله :

أنتظر الى جبل تمشي الرجال به
وأنتظر الى صادم الاسلام متقدما

وأنتظر الى القبر ما يحوي من الصلف
وأنتظر الى دوة الاسلام في الصدف

والباقلاني : نسبة الى الباطل بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تعجده في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما حاضوا فيه عند ظهور أمره : فن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ^(١) .

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الإنسانية التي يجدها المطلع في أكثر ما ائرع القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثر من التبرع بمعاصريهم ووصفهم بالزيف والاحلاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف ، وفي هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ — ونحب في بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا في درس كتاب الباقلاني عن الإعجاز . ونقتر — في صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وإنما يهنا أن تبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم في وزن الكلام البليغ . فكأن الباقلان في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار إليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أحسن من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كورخين للأدب يهنا أن نستقصى جهد الطاقة ما سائرنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فإن ذلك في جملة يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدثنا الباقلاني أنه نُقل إليه أن من خصوم القرآن من (جعل يمدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه)^(٢) — ففي

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغي أن نقيد أنها وقعت في القرن الرابع، ولو أن الباقلائي بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازات لاستطعنا أن نعرف إلى أي حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبي، ولكن ما صنعه الباقلائي نفسه في نقد امرئ القيس والبحترى يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد: فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت إلى امرئ القيس وهي المعلقة فنقدنا بيتا بيتا بعد أن أشار إلى أنه لا يرتاب في جودة شعر امرئ القيس ولا يشك في براعته وفصاحته وما أبدع في طرق الشعر من أمور أتبع فيها ذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذي أحدثه والتاميم الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي يصادف في قوله والوجوه التي يتقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة . ولم ينقد الباقلائي معلقة امرئ القيس إلا لبيان للفارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في الجودة والرداءة والسلاسة والانقياد والسلامة والانحلال والتمكن والتسمل والاسترسال والتوحش والاستكراه: فهي على ذلك كلام ينجح من الصخر تارة ويذوب تارة . ويتلون تآلؤن الحرباء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذي يصفه بأنه "قول يجرى في مسبله على نظام، وفي وصفه على منهاج، وفي وضعه على حد، وفي صفاته على باب، وفي بهجته ورواقه كل طريق مختلفة مؤلفة، ومؤلفة متحدة، ومتباعدة متقاربة، وشارده مطيع، ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن" .

٤ - نتيجة هذا - من وجهة تاريخية - أن الباقلائي ومعاصريه رأوا أنه في الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن، وإن لم يحدد الموضوع. وسبيل ذلك أن تين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمردول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التي توازيها في الكمية ليظهر ما في السورة من المحاسن التي لم يشنها ضعف ولا تهاقت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يستمد من المحاولات البارعة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يابون إلا الوصول إلى شواهد يحكون لها بالفضل . والباقلاني كان يعمد إلى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً إلى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك يا سعاد بحسن فيا أناه ولا الجمال يحمل
وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بجاية حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وقفا أجمل

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هنا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهيج وجده وفي تهيم قلبه . وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب .

هـ — هذا كلام الباقلاني . وهو كلام مقم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟ إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستمداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لنا قد يرى من هم أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس عاسنها أو يتجاهلها أو يفض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يبحث في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستطيع لنفسه التفكير في وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريج ما هموا به قديماً من الموازنة بين أثريين : أحدهما من الشعر، وتانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالنوراة والإنجيل والصحف الرمانية .

ويجب البافلاني بأنه لا شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالنيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن^(١) .

ومعنى ذلك أن البافلاني يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنع تلك الكتب المزية التي منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع البافلاني أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته في فهم القدماء خطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التي كتبت بها التوراة والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز . وإنما يقع فيها التقارب في البيان^(١) .

فإن سأل الفارئ : أكان البافلاني يصرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل في وجوه الفصاحة ؟ فإنا نجيب بالنفي .

وهو نفسه يحننا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب^(١) .

٧ — وهنا يتطوع البافلاني بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

«ويمكن بيان ذلك بلنا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية^(١)» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

«انا لو احتجنا أن نبرهن عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر السيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء الممماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك وأين لسان اللغات من السعة ما للغة العرب» .
والفكرة في ذاتها مخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الترواح الضائعة التي لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل .
والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجرى الى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ - ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية بغاء أخيراً وطعن لفتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « مائعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات^(٢) .

. والمسيو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهم جمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التي كان منها تحسون اسما للحجروماتة للسيف ونحوها ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لفتنا العربية وانما هي كلمات «تصيدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المبالغة والإغراب .

فن يبلغ الباقلاني وابن فارس ان ما كان غرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمور ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبي ص ١٢

(٣) كان ذلك في خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التحمل من جانب البلاغاني ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ماقد اتفق في العربية وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ — وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلنتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الانجليزية والفرنسية والألمانية مثلا « وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فـ أعجب ما يشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام البلاغاني له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنما نجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يحثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان^(١) .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني فلما منهم أن في شعر امرئ القيس مثلا غنى من شعر هوميروس . ومن منافع أنه أعراهم بالاعتزاز بشعرهم وفهمهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفردت بالتصرف في الاستعارات والإشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا في هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وإنما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والعقول .

ونؤمن بأن في اللغات ضروبا من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكلما لم تنقل من الشعر الأجنبي شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

كثير من شباننا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يفيض .

ووقف المجتهدون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحرئى والمتني ، ولا هم في طبعهم فرنجة يحيدون محاكاة يرون وجوت ولا مرتين .

١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام العرب ؟

فما هي حجة الباقلاني ؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك ان جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة الى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل الى الرسول طمعا في أن يأتي أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة ((حم . السجدة)) من أولها حتى انتهى الى قوله : ((فان أعرضوا فقل أنذرتكم ضاعقة مثل ضاعقة عاد وثمود)) .

فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلاني " فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى بلجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون " لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يمتد بلجوابه " (١) .

ذلك ما قهره الباقلاني . وما نحسب أحدا يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فانه لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والفصاح .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يبين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولنتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : ((ولو جعلناه قرآنا أعجميا

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي وعربي))، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحلّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فمجزوا عنه وجبت الحجة عليهم^(١) .

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي قبلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما نرى صفحة فللباقلا في صدره حين غاب عنه هنا ما أثبت هناك . فخلاصة الفقرة الأولى ان القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خضع له بدون أن يستطع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية ان القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب: فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية. وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تطلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لا نفهمها لأن ألفاظها غير عربية. ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لأنه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلا في من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من أي القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمقول ويناقض ما من به القرآن على منكره من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - بقي نوع آخر من وجوه التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفى أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :
كأنتا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذى يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصديق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البليغات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفى أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريقا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريظ بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تسبح إلى	بنو القبيطة من ذهل بن شيبانا
إذنت لقام بنصرى مشرُش	عند الحفيظة ان ذلولثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لم	طاروا إليه زرافات ووحدا
لا يسألون أخاهم حين ينلهم	في التلثبات على ما قال برهانا
لكن قسوى وإن كانوا ذوى مدد	ليسوا من الشرفى شيء وإن هانا
يعزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إسائة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق نخشيتيه	سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهمو قوما إذا ركبوا	شقوا الإغارة فرسانا وربكانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقي في العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يزل غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا في التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجماعها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخيير الألفاظ تخيرا يحملها تحتل مع المعنى كلمة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدا

هذا البيت يمكن رجح طرائقه الى كلمة "أبدى ناجذيه" وكلمة "طاروا" وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرفى شئ وإن هانا

فقوة هذا البيت ترجع الى قوله "وإن كانوا ذوى عدد" وقوله - "وإن هانا" وفيهما أيضا يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم في قوله :
 كأن ربك لم يخلق خلشيتة سواهمو من جميع الناس إنسانا

١٤ - وقد تجدد من الشعر ما تحلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصل به الى أسنى غايات الإبداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية :

أزلى الدهر على حكمه	من شاخ طالى الى خفيض
ونغالى الدهر يوفر الغنى	فليس لى مال سوى عرضى
أبكاى الدهر وإربما	أضجكنى الدهر بما يرضى
لولا بنات كزغب القطا	رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والمرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لا تمتعت عني عن النفض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا إلى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الاجتماع والأمثال فبهزم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الاجتماع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يتسلون بجاء القرآن بجمع بين السجع والترسل في نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه بقاء القرآن فاجأهم بلون من الأدب جديد^(١) .

١٥ — وهنا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فترى أن هذا عليه السلام اجتنب العرب لأنه نبي ولم يمتدبهم لأنه فنان . فالتقن الكلامي لم يكن جديدا عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التي كانوا يأتفون . ولو رجعا الى حزب المعارضة لمهد الرسول لرأيائه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعرض مطلقا لجا به من ألفاظ وأساليب . فالمحركة كانت تدور رحاها حول ما في القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراده بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذي يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بمض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا سمح للفقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :
”لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس“ .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

”أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وأمرؤ القيس إذا طرب . وعمرو ابن كلثوم إذا غضب“ .

وهذا كلام دقيق جدًا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذلك أفصح إذا شَبَّ . وذلك أخلل إذا تمحس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع الى المعاني والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع في فرنسا مثلاً بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعاً حول الفكرة .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبد العزيز جادو ش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدًا بين الحديدي والتقديم كان نزاعا حول فكرة . وما تحسب أحدا ممن هاجموا المفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتون وتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فإذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يسبر عن معاني وديعة يلهم أمثلها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . وإذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمع اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أبعد هذا البيان يدعش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والتموض كلها صور للنفس الانسانية التي تنصح عما يطيف بها من معاني وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه والقوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعناه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فأن قيل : ولم تمذر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فأن يجيب بأن القرآن نفسه فصل

في هذه المسألة حين قال ﴿فأتوا بشر سور مثله مقتريات وأدعوا من آستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

فلتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ما وصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ - وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعاني : لأن المعاني في رأيهم يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

• ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما علمت لإفهام المعاني فقط . لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الافهام وإن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل في جملة المستهجن المفلوظ^(١) .

١٩ - أما نحن فنطلق العجم والقرويين جانباً ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين . ثم نقدر أن الألفاظ ملك للجميع يحدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعاً للجهد والعمى أو العبقرية إلا المعانى والأغراض . ومن البعث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المتاورات اللفظية . فإن هذا إسراف في تقدير الزنرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقاً هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزناً للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تحيى أولاً ويحيى الودق ثانياً كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلاني "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقررُوا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لمجوزاً عجزاً ميئاً ، لأن الأسلوب في رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وروحه وفكرته ومرماه، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدّد الأسلوب تحديداً منطقياً يجمع خصائصه ويمنع ما يتطوّل إليه من غريب الأوصاف، أو أن يدلّنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فإن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبین لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح. فان أراد أحد شاهدة على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضاً بدون تحيّر ثم نقل آيات لنسأله أن يبين ما جله فيه غريباً عن الأساليب العربية. ولنختار خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء: ﴿أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم وأمروا النجوى الذين ظالموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفأنون السحر وأنتم تبصرون. قال ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا أضغاث أحلام بل اقراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾.

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات إلى المعنى والروح؟ أترونها تمتاز بالسجع؟ وكيف والسجع كان معروفاً قبل القرآن؟ أترون ألفاظها متخيرة متفاهة؟ هو ذلك. ولكن كيف بدور اختيار الألفاظ؟ أترون لاختيار الألفاظ مداراً غير موجبات المعاني والأغراض؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى الفارئ شواهد أخر من القرآن المجيد. يقول الله عز شأنه: ﴿ولا يحرمنكم شتان قوم على أن لا تعدلوا﴾.

وأنا أشهد صادقاً أنى ما فكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصيح النبيل. فأين يكون جمال هذه الآية؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلائي؟ هيئات! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشيء عن غيره من التركيب.

ولكن الجمال هنا في المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إيتار العدل في جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشتان. وقد راجعت صديقاً ادبياً في هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفنى في كلمة (ولا يحرمنكم) فان صح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى أقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

(ولا يحرمنكم شتان قوم على أن لا تمدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

الأترون إن أنصقتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) تقل في قوتها عن كلمة (ولا يحرمنكم شتان قوم على أن لا تمدلوا) ؟ فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تنفرد في رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتصير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى يكر لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأئمة . على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل شانه (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) . هذه من غرر الآيات القرآنية : فإين يقع منها الحسن ؟ أترونها في اللفظ ؟ أترونها في الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يحدها من يريد في أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكائنين . ان الجمال هنا في الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم في نار الجحيم .

٢ - تترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من الثرائيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابي يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله في يدي !

تأملوا عبارة " لله في يدي " تروا انها من نواذر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذى ضربت بيلاغته الأمثال، فلنذكر به القراء :

”ثاني هذا كتاب معنى بن كتب له ، واثق بن كتب إليه ، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والثبات . والسلام “ .

أقرون هنا جديدا في لفظ أو في أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تتحصر في المعنى لو ستظرون . وكتب أحد الأمراء يوصي بعض قواد الجيش :

”وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك “ .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فإين يكون جماله ؟ أترونه في شيء غير المعنى ؟ وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري :

”عُد مرضى المسلمين ، وأشهد جنازتهم ، وياشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أنقلهم حلا “ .

وهي نصائح عادية وأبلغها جميعا قوله ” فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أنقلهم حلا “ .

أقرون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، في شيء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أناذنون لصب في زيارتك فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادي لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السمع والبصر) ألا ترون أنه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت ؟ ألا ترون أن لفظة ” شهوات “ لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتمحاشت ما عداها من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذريح :

الى الله أشكو فقد بُني كما شكا الى الله بعد الوالدين يتم

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته في غير مماته ؟ أليس كل ما هنا من روعة

يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الزعم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبني	يميني ولو عزت علي يميني
لأعطيها ما جاء يميني رسولها	وقلت لها بعد اليمين سلمي
سلمي مالي يا بئس فائما	بين عند المال كل ضنين
فألك ما خبر الناس أني	أما بظهر الغيب لم تسلمي
فأبلى عذرا أو أجيء بشاهد	من الناس عدل أنهم ظالموني
لما الله من لا ينفع الود عنده	ومن حيله إن مد غير متين
ومن هو ذلونين ليس بدائم	على ثقة خوان كل أمين

وقد يقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة
إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمره لمشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن
الرقة والحزالة هي صفات للمعاني تمثل في أشباح الألفاظ !

٢٢ - ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يحصلون المعنى أساس
الصورة بحيث يعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البيهت :
أترجو كليب أن يميني حديثها بخير وقد أعيا كليا قديمها
أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يميني صفارها . بخير وقد أعيا ربيعا بكارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المنح إلى الهجاء ومن النسب إلى الرثاء
وهي كثيرة جدا ، ومع ذلك تنبه النقاد إلى أنها سرقة ، وتنبه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن
الأخطل أنه قال : " نحن معاشر الشعراء أسرق من الصباغة " (١) .

٢٣ - وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأماليب فليست أنكر أن
الشعراء والكتاب والمخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية ، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل: فالسيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان، ولكنه في يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد . والخيال هي الخليل، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا إذا اعتلى صهوة فارس مغوار، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هي المرأة، ولكنها بين يدي الرجل الغزل أنضر منها في حضرة الرجل البليد ! والكاتب المحيّدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتاً شديداً: فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان، وهم في أيام آخر يُسْقَوْنَ ويَهْتَفُونَ . فما سبب ذلك؟ السبب معروف فإن روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه وتأثرًا بليفاً . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليفاً في جميع أحواله، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائفة للكاتب في كل لحظة، ولا الروح القوى بمواتية في كل حين . أيهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب؟ أيهمون الآن أن القرآن يمثل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سر إعجازه راجع إلى روحه ومعانيه؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلا في قوله بنفى السجع من القرآن، وهو يتاج في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه، ويعارض جمهوراً كبيراً من أهل العلم والأدب، منهم من سبقه ومنهم من عاصره، وجمحة مخالفه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجانس التي يقع بها التفاضل في الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اعتقوا على أن موسى أفضل من هارون، ومع ذلك قيل في موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"^(١) .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول ، ومن أمثله : ﴿ والسما ذات الرجح ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ^(١) 》 .

ومن أمثله أيضا : ﴿ والسما ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخنود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ^(٢) 》 . وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرَت ، وإذا البحار عُطِلَت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البهار هُمِحَّتْ ، وإذا النفوس زُجِجَت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزيلت ، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على التيب بضنين ^(٣) 》 .

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة ، ففى السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ - والمهم أن نعرف ما هى حجة الباقلاني على قى السجع من القرآن لنقدر وزنه للحجج والبيانات ، وهو يقول :

” لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو يجمع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألّف الكهان من العرب ، وفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من قى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوة ، وليس كذلك الشعر “ ^(٤) .

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود في القرآن ، ولكن الزجل يأتي أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والاعجاز في رأيه يختصر في الأسلوب ، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساويتا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندري كيف اتفق الباقلائي وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم القيم ولا ندري كيف صح له أن يحتم قى السجع من القرآن قياسا على نفي الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفي السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يلجأ اليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير ، ولم يندب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية . والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الإعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم في أبجل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلائي ، ولكني أرجح أن الشعر لمهد النبوة لم يكن من تقاليد الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويهتم الشعراء باللفو والفضول والميلام في أودية الخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لمهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المسائل الدينية والاجتماعية التي أطال في شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تنحى الشعر لئلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلائي وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلائي لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع في فهم

السجع فيقول :

”والذي يقدرُونَ أنه جميع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن جميعاً ، لأن ما يكون به الكلام جميعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينظم الكلام في نفسه بالفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجاباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى“^(١) .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون جميعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار إلى ذلك غير واحد من كتبنا في فنون البيان ، ونحن إذا تأملنا السجع في القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا للمعنى ، وزرى القرآن في مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع في سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلمون حين يضحجون بالمعنى في سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

”لو كانت الذي في القرآن على ما تقدرونه جميعاً لكان مذموماً مردفولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلقت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به التكلم أوقع الخلل في كلامه ونُسب إلى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج من الوزن الممهد كان مخطئاً وكان شعره مردفولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه جميعاً بتقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يتدنى حتى يتضاعف طولها عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود“^(٢) .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ؛ ونعرج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن الترام السجع باب الى الملو والإغراق ، ولم يقبح السجع على السنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم في الترين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقفوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين قاه على الاطلاق^(١) .

(١) يحسن نقارى أن يرجع الى الفصل الذى بسطنا فيه «أطوار السجع» في الجزء الأول .

٧ - أبو القاسم الأصبى

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الأمدى شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولا ندري متى - وأنه انتقل إلى بغداد فخلق النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد إلى البصرة فكتب لأبي الحسن أحمد وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المنثى . وكتب بعدهما للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لم يبق له بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ^(١) .

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يبين مذهبه في الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التي أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء . وكتاب ثمر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري . وكتاب في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما في عيار الشعراء لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر . وكتاب معاني شعر البحتري . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فملت وأملت^(٢) .

وهذه المجموعة تبين اتجاهات ذهنه في حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر وقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص بدرس البحتري وأبي تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل إلى شيء كبير من المعارف الأدبية التي كان يملكها رجال القرن الثالث والربع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته في سيم الأديب . ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٢

الى اى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وفقاً لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصاً على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما قل إليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ — وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهراً بالتشبيهات — كما قال يا قوت — ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوبه يتقصه الرواة . من ذلك قوله :

يا واحداً بان فى الزمان	من يحاربه أويديانى
دعنى من فائل جزيل	يسجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحاً	ولا أحمأ طامعاً ترائى
وهب اذا كنت لى وهوباً	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى طالع تمام :

لا تنظرن الى سئمته اذا	رام الكلام ونفظه المتعاص
وانظرا الى الحكم التى يأتى بها	تشفيك عند تطلق وخلاص
فالدر ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفاس النواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رايت قلنسوة تستغيث	ث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلت فهى طوراً تيم	ل من عن يسار ومن عن يمين
فطوراً تراها فويق القفا	وطوراً تراها فوق الجبين
فقلت لها أى شئ دهاك	فردت بقول كئيب حزين
دهاناً أنى لست فى قالبى	وأخشى من الناس أن يصبرونى

وأنت يعيشوا بمزاج معي وإن ضلوا ذلك بي قطعوني
 ققلت لها من تعرفين من المنكرين لهذا الشأن
 ومن كان يشق إما رآك ويخرج من جوفه كالزئير
 ومن كان يصفع في الله لا يمل ويشتد في غير لين
 ويبلغ ملائكة كبل التمام إما على صحبة أوجنون
 فصارها ذلك الانزعاج وعادت إلى حالها في السكون

٤ - وأهم ما بقي من آثار الأمدى هو كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" وهو كتاب يضعه في الصف الأول ويقدمه على كثير من النافدين .

وأسلوبه في ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاه وأبعدها من اللغو والفضول، وآراؤه في نقد الشعر آراء جيدة سديدة تسبج لها اليوم أشد العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ - وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل - على بعد العهد - معرفته لنفسية الأدياء أدياء الأدب والبيان : فهو يقرر أن الناس يعتقدون أن الشعر متفرد من بين سائر الأشياء يجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذي يعرف منهم من النخب والفضة والرقق والخليل والصلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يهتم نفسه في المعرفة بالشعر تهتمه إياها في المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحه سيده، واستدارة كفله ، وبريق شعره، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة، ولكنه لا يقدم على اتباعه حتى يشاور في أمره أصحاب البهرية . ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه، وصفائه، وصفاء حديدته ، ولكنه لا يعنى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاهه . ويريد اتباع ثوب الوثن فيروقه منه حسن طرزه، وكثرة صوره، وبديع قوشه، واختلاط ألوانه، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رفته وصحة نسجه وصحة إبرسمه . ولكنه لا يجري على هذه القاعلة في الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أودقة معانيها أو ما أشققت عليه من مواظ وأذاب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه في مواضعها ، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة ^(١) .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحتمل أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فهما سائر علامات المتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة ، وتكون الجاريتان بارعين في الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يصل في الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درسته وطول ملاحظته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحدا ، وأيها أجود في معناه إن كان معناه مختلفا ^(٢) .

٧ — وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سبق إليها ولكنه أستغلها أحسن استغلال . وأجمل ما جاء في هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلي : "قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النعم وبينها لي — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤدبها الصفة" .

قال : "وسألتني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : احقرا أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان" . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال تردّ الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :

"إذا قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافك قول غيره إنه جيد" ^(٣) .

ولكن كيف السبيل إلى كسب الذوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

هنا يجب الأمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر في الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابس له والاقطاع إليه، والانتكاب عليه، والحد فيه، والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ .

٨ — والأمدى مع هذا يقتر بأنه ليس في مقدور كل إنسان أن يصل إلى كسب النوق الأدبي بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلاً لهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذي تسأله ليس في وسعه أن يعطيك في العلم بالصناعة كنهسه . ولا يجد سبيلاً إلى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك في ذلك بعلة قاطمة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذي لا يستقر في الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابس لا يمكن أن ينتقل إلى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مخنقات الأجناس والجواهر، بحيث يعطيك مشاهداً لها كلها في لحظة واحدة، طالعاً بكل علة، محيطاً بكل حجة .

”وبعد فعمل الذي غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عتة من دواوين الشعراء تُصَفِّحها أحياناً وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تقتر هذا الاعتراض بما يتعلق بباب بدك، وأثمت بذك، وطرق نفقتك؛ لأننا لانراك نتاع وشيا ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع إلى من يعرف ذلك دونك قسطين به على حاجتك مخافة أن تفجع فيمالك. فكان خليفاً بك أن تسلم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع في عقلك. ومصيبة الغبن في العقل أكبر من مصيبة الغبن في المال“^(١).

٩ — والأمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل إلى وحشي المعاني والألفاظ، وإن كان ذلك ما يروى ويستجد

للأعراب "لأن الأعرابي لا يقول إلا على قريحته، ولا يتعمق إلا بخاطره، ولا يستقي إلا من قلبه . وأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ويخضع على أمثلة ويتعلم الشعر تعلمها ويأخذ تلقفها فن شأنه أن يتجنب المذموم ، ولا يتبع من تهمته إلا فيما استحسّن منهم واستجيد لهم واختير من كلامهم ... فان الشاعر قد يعاب أشدّ العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالإبداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف الى سوء التكلف وشدة التعمّل . ولكل شيء حدّ إذا تجاوزته المتجاوز سمى مفرطاً . وما وقع الافراط في شيء إلا شأنه ، وأعاد الى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهائه » .

وخلاصة هذا الرأي أن الأعراب يفرّ لهم ما لا يفرّ للشعراء المثقفين لأنهم محذون على غير مثال، وهذا أحلى في النفوس، وأشهى إلى الأسماع، وأحقّ بالاستعادة مما يورده المحذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ما روى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جمهورته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون ، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هي أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين في الصقل والتجميل .

فاننا نرى للأعراب حرية في الحذف والإيصال لا نجد لها ظلاً عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية في الحذف والإيصال هي أخص سمات اللغات الحية . وفي اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة في كتاب الموازنة أن الامدى يريد بالذات مسألة التعمّل والتكلف والإغراب بإثارة وحشّ المعاني والألفاظ . فهذا يُقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة، ويُرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو الى تهذيب اللغة وتصفيها وتحليصها من عنجهية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضاً أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأني والتخير

في المعاني والألفاظ والتأثير . فالشاعر الحضري لا يُقبل منه التوهم لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجري فيه على طبيعته ، فكان الفطرة هي الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل في أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمُر طويل لأنه وافق هوى في أخص الحضريين وبعضها هجرات لقلة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضل الأمدى البحرى على أبى تمام : لأن البحرى كان يعتمد حذف الفريـب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يتدسه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لما . وكان من أمره في ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تبنى أبا الحسن لينزل العنجهية والأعرابية ويساوى في مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية إلى أهل النباهة والكاتب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراح شعره في البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فإنه حضري تشبه بأهل البدو فلم ينطق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والأمدى لا يستبعد الفن بل يقر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء في أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحرى من مخالفة المقائيس والبعـد عن الصواب قد جاء كثير مثله في أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء " .

والواقع أن الفن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبايع الشعراء والكاتب دخلا في ما أثر عنهم من الفن : لأن لبعض الأنفـاء طرائق خاصة في التعبير قد تمتع انحرافا عن الصواب . في حين أنها تفصح عن أغراض أصحابها أتم الانصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تبصيرهم مادة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفي القول كما في الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحرى

اخترع الآمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحرى . وهى مناظرة طويلة يحدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لآن الثر وعُدب على قلم الآمدى وهو يصوغ هذا الحديث :

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحرى أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحرى — أما الصلبة له فما محبه ، ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك انلخر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحرى بقصيدته التى أولها :

• أأفاق صب من هوى فأفقا •

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحرى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير واقف ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرضه ، ويصف معانيه ، ويذكر محاسنه ، ولم يقطع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفان كلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إتيان هذه الصفحات بما أورده المرحوم معطى لعلى المغلولى فى غناراته . ومن أراد الشواهد لطريح إليها فى صدر كتاب الموازنة فهو هناك أمق وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتأمله له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا بمناع أن يكون البحرى أشعر من أبى تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه، فإنا رأينا أحدا قال إن جيلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحرى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدى » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحرى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحرى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا ويخط انحطاطا قبيحا . وأن البحرى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسَفُّ أفضل ممن يسقط ويُسَفُّ .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرى عن مثلها البحرى .

صاحب البحرى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وأخذنى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن التبع المعروف، والسُنن المألوف، بل إن مساما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أفسد الشعر بجاء أبو تمام على أثره واستحسن منهجه، وأحب أن يعمل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، وأستكره الانقراض

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتياجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحرى فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . وتفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلامه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لبقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد واللباء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحرى — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزازي من الشعر ومترلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتهم مذهبهم في أبي تمام وأندراهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلاثة مسروق ، وثلاثة صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنتور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : أن كان هذا شعرا فكلام الصرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دقن له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبل كان يثنا^(١) أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لقراءة مذهب ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكروا على هذا القياس .

(١) يثنا : يثنى .

صاحب البحرى — لا يجب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحبة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحتى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحرى — كان الخليل بن أحمد عالم شاعرا ، وكان الأصمى شاعرا عالما ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحتى فلم يقصد هذا ولا أعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علما ، بل كان يرى أنه شاعر لا بدّ له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالقرىب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحنا يضيق العذرية ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسا نترك أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر تتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يساع في سهوه ويتجاوز له عن خطاه . وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الفلط والميب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الفلط والخطأ والحق أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندلل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجهود الفضل بل عفى إحسانهم على إساءتهم، وتجويعهم على تقصيرهم .

صاحب البحرى — أما أخذ السهو والنظ على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو مُحِيلاً أو ماذلاً عن السنن أو مستعيراً لاستعارة قبيحة أو غلطاً للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام — إنكم تتكبرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحرى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحرى — لم لا يفعل البحرى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمتكبر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، ويحمله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعفى فى تأييده من التقرىظ والوصف وبجميل الذكر أضاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام — كيف كان الأمر لا تستطيعون أن تندفوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيداً مثاله . وإننا كان جيد بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديته وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحرى واحد منهم . صاحب البحرى — إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لندرته ووقوعه فى تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحرى يكيد أبي تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

٨ - أبو هزل العسكري

١ - في الأدب العربي رجلان باسم العسكري يشتهان كثيرا على الباحثين، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكري . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام"^(١) فأزخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني منها شيء غير أنني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجي زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبي أحمد .^(٢)

والعسكري نسبة إلى عسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذي تنسب إليه مكرم الباهلي وهو أول من اختطها، كما يقول ابن خلكان .^(٣)

٢ - وكان أبو أحمد العسكري من رجال اللغة والرواية . وكان صاحب ابن عباد يؤد الاجتماع به ولا يجد إليه سبيلا ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج إلى كشفها بنفسى، فأذن له في ذلك، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكري فلم يزره . فكتب صاحب إليه :

ولما أيتم أن تزوروا وقتلتمو ضمعتا فلم تقدر على الوخدان^(٤)

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣ (٣) وفیات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سمة الخلد، كالوخد والوخيد .

أتيناكم من بعد أرض تزوركم . وكم مترا بكرا لنا وعوان
نساكنكم هل من قري لتريكم بملء جفون لا بملء جفان
وكتب مع هذه الأبيات شيئا من التبرجاء به أبو أحمد عن التبرجاء بمثله، وجاوبه عن
الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتي تمؤذ أعضائي من الرجفان
فصنعت بيت ابن الشريد كأنما تصمد تشبيهي به وعناني
"أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والتروان"

فلما وقف صاحب حل الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت
أنه يقع له هذا البيت لما كتبت إليه على هذا الرأى » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقنع صاحب وانه لا بد من الجمل على النفس، فركب
بضلة وقصده فلم يتمكن من الوصول إليه لاستيلاء الحشم، فصعد تلعة ورفع صوته بقول
أبي تمام :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زالك فأدخلها

فناداه صاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر إليه أحبابه فخلوه
حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادقت ! فقال صاحب : يا أبا أحمد !
تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : تفاطلت عن السقوط بمحضرة مولانا .
وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢^(١)

وانما كتبت هذه الكلمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذ أبي هلال، ولترشد القارئ إلى
أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فانه لا يريد رجلا سواه . ومن

كتاب الصناعتين يعرف شيئا كثيرا عن أبي أحمد العسكري من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان، واختار شذوات من شمه تمثله من أوساط الكتاب^(١).

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لما أثر عظيم في اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والنثر وتعب مذاهب الشعراء والكتاب.

كان أبو هلال أبن النفس، قوى القلب، يترفع عن الدنيا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه ادعاء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف إلى الأمراء والرؤساء. وقد رأينا أن أساتذته وخاله أبا أحمد العسكري كان قدوة له في ذلك، إذ كان صاحب يستدعيه إلى حضرته فيعتذر بالضعف والشيوخوخة فرارا من أن يحضر في زمرة الأتباع وطلاب المغام وأرباب الغايات.

كان أبو هلال يتجبر في الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل^(٢)، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسى في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأناام قروء
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويسظم فيهم نفلم ويسود
ويهجروهم عنى رثاة كسوى هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط السجم^(٣) وحالى فيكم حال من حاك أو يحسم
فأين انتفاعى بالأصالة والنجى وما رجحت كفى على السلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يصير حالى فلا يلحن القرباس والخبر والقلم^(٤)

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأني متصل الحبل بالصاحب بن عباد، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صانعين - (٢) ص ١٢٥ ج ٣ باتوت - (٣) العم : النوى -

(٤) ص ١٢٦

والشعراء ، ولكني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك
مظهران :

الأول إشارات بأدب صاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي
كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد إلى النيل منه والوقوع فيه ، والنقص
من شعره ،

أما إشارات بأدب صاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع
والازدواج : ” ومثله قول صاحب : لكنه عمد إلى الشوق فأجرى جواده غرا وقرحا ،
وأورى زناده قدحا قدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدك ، وتظلمه
كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تخليته نفسه ،
ويخجز وعد الثقة في فك حبسه ^(١) .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : ” روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس
رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيرانتا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض
واحدة فإن خواطرم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضاربة ... وأنشدت
الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فضدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعل هذا جائز ما يدعى لم ^(٢) .

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي هلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من التعم التي قد يجها الله للناس !

ونراه في باب الفصل والوصل يقول : " وهكذا يفعل الكتاب الحنّاق، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له : فات حثت فيما حلفت ، فلا خلوت لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سعت الى مقام نفع، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليقين التي لو سمعها طاهر بن الطرب لقال هي الغموس^(١)، لا القسم باللات والعزى ومئة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا في آخر رسالة : وأنا متوقع لكاتبك ، توقع الظمان لساء الزلال ، والصوام للال شوال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تجسيم مولاي الى هذا المجمع ، ليقرّب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس الشمس بفرته .
فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع، ولفظ شريف^(٢) .

هـ — وأما تحامله على المتنبّي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففي باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الجعري :

أيارب إني لم أرد بالذي به مدحت عليا خير وجهك فارحم
ثم يقول : " فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانته، ليس كمن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا يحفخون بها بهم شيم على الحسب الأغبر^(٣) دلائل
فاشمت عدوه بنفسه .

(١) اليقين الغموس بالعين المحبة التي تنفس صاحبها في النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفي باب الكأية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكأية قول بعض المتأخرين :

إني على شغفى بما فى نحرها لأعف عما فى سرها ويلها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ » .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته

فى الكشف عن مساوى المتنبي ^(١) .

وفي باب الترضيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من الحساء وقولهم دع ما نراك ضعففت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه » ^(٢) .

وفي باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طلبك من نسل الجدليل وشدقم كوم عقال من عقائل كوم ^(٣)

٦ — وتعامل أبى هلال على المتنبي هو المطنن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع

أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك

خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعمى عن معانيه الجيدة ، وخياله

الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المفرضين الذين كفوا بالبحث عن عيوب المتنبي ابتغاء

مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أخط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويمدثر أبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يترجم السجع ،

والتعبير المشرق القاصح من أظهر مميزاته ، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) غطوة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجدليل وشدقم لخلاق

كانا للبيان .

يحوطها اللبس ، وإنما يعنى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعترها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية . فإذا كان المعنى ^(١) سريا ، ورصف الكلام وديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرصعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فاتقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفًا لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيرها منها وصرفها عن وجوها وتغير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها ^(٢) .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه البقرة إلا الكتاب المتفوقون . وانظر أيضا قوله :

”البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليضا ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة ^(٣) .

(١) السبى ، هاء ، سماء الجيد ، والسبية : الفرة . (٢) ص ١٢٠ الصائغين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاءى العرب والعجم ضمن مجموعة المتخفة البنية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول ، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة ، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بفير ذلك ، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته ، إذ كان تنوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصدافة الروحية لأسرار الكاتب والشعراء . وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُدّاق إلا بطول السماع ، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها ومدوها من عبث الرطاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدّرها إلا الغربيون ، ولو سمعها الشرقيون لسدّوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجم !

٨ — وكان أبو هلال يحمي الشعر ، ويضع شعره في طبقة أشعار المفلقين ، فينشده في الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحرّي ، أو النابغة وامرئ القيس ، ومن إليهم من القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المحيدين ، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدي	وهو يقصيني جهده
ولمن ترضاه مولا	لك ولا يرضاك عبده
أملحٌ بملح الش	كل أن يخلف وعده
أم جميلٌ بجميل ال	وجه أن يتقض عهده
ما الذي صدك عني	ليت ما صدك صد ^(١)

ونستعيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلّص روعي	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد	سرق البرد من جوائح غلّو

ريحه تلمس الصلور قشنى	وغماماته تصوب فتروى
لست أننى منه دماءة دجن	ثم من بعده نضارة صحو
وجنوبا يشر الأرض بالقطد	ركبا بشر العليل يهرو
وغيوما مطر زات الحواشي	يوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السماء عُراها	جمع القطرين سفلى وعلو
وهى تعطيك حين هبت شمالا	برد ماء فيها ورقة جؤ
وليل أطلن مئة درسى	مثلا قد مددن فى عمر لموى ^(١)

(١) ص ١٣٨ ج ٢ ياقوت .

٩ - كتاب الصناعتين

١ - أجل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صناعة الكلام ثم نظمته ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتمييز الكلام جيده من رديشه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهي فكرة كثيرة الذبوع عند المثقفين : فعلوم اللغة العربية في عر فهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن إلى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل النصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء . وقد أشار أبو هلال إلى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لمعهده قليلة وأن أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو في رأيه كتاب جم المنافع لما أشغل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والقصص المثبوتة في تضاعيفه : فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصنيف الكثير .

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرأه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإننا نراه يقول بعد أن شرح نوت البلاغة ووجوه البيان والقصص : « ولم يسبقنى إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما أقصر من كان قبلى على ذكر تلك النوت طرية مما هي مفترقة إليه من إيضاح غامضها ، وإثارة مظلمها ،

فكان المتفعة بها العالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز ، فسقطت عنه معرفة كثير منها ، وأنت أيك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك ؛ وتأتى بما شرحه منه ، وتستدل به على ما ألفتيه من جنسه اذا عثرت به ، لتستغنى عن جميع ما صنف فى البلاغة ، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة ، إن شاء الله ^(١) .

وزاه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : « وقد أتيت فى هذا الباب على الكفاية ، ولا أعلم أحدا ممن صنف فى سرق الشعر قتل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى يذهبون على مواضع السرق فقط ، قس بما أوردته على ما تركته ، فاني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد ^(٢) .

٣ - وأول ما يلاحظ فى كتاب الصنائع أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد ، فان المؤلف يتهمز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البلج ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد ، وإنما يدفع فيقتل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة ، ومن بيت جيد الى قطعة مخزنة . وقد نرى كتاب الصنائع لذلك مرجعا لأجل ما أتيحت القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البلج قد يسندر أن نجدها فى كتاب سواه ، واليك هذه الدرة التى نقلها عن كثير ابن هرامسة فى وصية ابنه :

” يا بني ! إن من الناس ناسا يقصونك اذا زرتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتمهم ، ليس لرضاهم موضع تقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحمزه ، فاذا عرفت أولئك بأعينهم ، فأبد لهم وجه المودة وآمنهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بمحرمهم ^(٣) “ .

٤ - ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد ، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص ، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية ، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة ، ومن أمثلة

استطاعه أنه أراد أن يضرب مثلا للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك؟ قال : كونه! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك؟ فقال : ما حال من يفنى ببقائه ، ويسقم بإسلامته ، ويؤتى من مأمته . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابى بعد محبة وحسبك داء أن تصح وتسلما
وقال آخر :

كانت فتاى لا تلبس لثامن فالأهبا الإصباح والإسماء
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحنى فاذا السلامة داء
وقال ابن الرومي :

لمررك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاءها
وقريب من ذلك قول محمد بن علي : مالك من عيشك إلا لثة تردلف بك إلى حمامك ، وتقربك من يومك . فآفة أكلة ليس معها غصص ، وشربة ليس معها شرقي؟ فتأمل أمرك . فكلنا قد صرت الحبيب المفقود أو الخيال المحترم . وقال أبو العنابية :
• أسرع في نقص امرئ تمامه •

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب في الجاهلية إذ قال :

يود التقي طول السلامة والفنى وكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد التقي بعد اعتدال ومحنة ينوء اذا رام القيام ويحمل
ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك شيئا من غنار شعره في هذا المعنى .

(١) في الأمل «الجيب» وهو تعريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة المصنف .

(٢) راجع ص ٢٧ - ٢٩

٥ - وما يؤخذ عليه أبو هلال أنه جعل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم الى أخ له^(١) "أما بعد فإن المرء ليسه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوء فوت ما لم يكن ليذكره، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود اليه، فلا تفعل، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقطار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يفضض منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المهرقة، وأن الله تعالى لا يفر أن يؤثر المرء على نفسه ويفر ما دون ذلك لمن يشاء!"

٦ - ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية، وصلنا به الى الجهل المطبق يتميز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة الى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعاني والألفاظ والأساليب.

٧ - وسر البلاغة عند أبي هلال يرجع الى الألفاظ "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروى والبدوى، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه"^(٢) ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطيب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإيهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإيهام. ودليل آخر عنده أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا وبهتاء وسطا دخل في جملة الجيد، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا - والفاتر شر من البارد - كان مستهجنًا ملفوظًا، وبمذموما مردودًا^(٣).

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جعلت كل خُرزة منه إلى ما يليق بها وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً ، وإن اختل نظمها فنصمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتصمته العين وإن كان فائقاً ثميناً .

وقد عرض في باب التميم إلى قول الخنساء :

وإن محضاً لتاتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ويبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتُدَفِّنُ منه الصالحات وإن يُبْنَى يكن ما أساء النار في رأسى كجبا

إلا أنها أخرجه في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ” وهذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة ^(١) “

٨ — وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيها أجيد لفظه إذا تخلف معناه . ^(٢) والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجوده مطالعته واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنثور في حسن وصفه وتأليفه ، وكال صوغه وتركيبه . وهو يفضل الكلام السهل ، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاظم ^(٣) . وهذا حق : فإن سهولة الكلام تحتاج إلى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعاً بما يفهمون في لغة سهلة تجسرى إلى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، وللمعاني الشرفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسمل المنتع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكوب ما حلّ بي من صد هذا التائه المحجّب

إن قال لم يفعل وإن سيل لم ينزل وإن عوب لم يُعتب

صبّ بصمياني ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البعري :

أيها العاتب الذي ليس يرضى ثم هنيئا فلست أطمع غمضا
إن لي من هوائك وجدا قد استه ملك نوى ومضجما قد أفضا
بخفوني في عبيرة ليس ترقا وفؤادي في لوعة ما تقضى
بأبي شادن^١ تعلق قلبي يخفون فواتر اللفظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب يتلنى تلى النص غضا
واعتذاري إليه حين تجافى لى عن بعض ما أثبت وأغضى
واعتلاق تصاح خديه تقيي لا ولثما طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفت القلب فأنصرفا ولم تسرع الذى سلفا
وبنت فلم أذب كمدا عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النا من ممن مله خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شيء آخر غير اللبونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل
الى الراحة والانشغال ردى^(١) .

والكلام الجزل يحى بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا
سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها^(٢) . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة
وتقطع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه .
والجزالة عند أبى هلال شيء آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول
سعيد بن حميد :

”وأنا من لا يماحك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا ياتمس رضاك إلا من جهته ،
ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بي عنك غيرة الحداثة، وردتني إليك الحفكة، وبعادتني منك الثقة بالأيام ، وأدنتني إليك الضرورة. فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجسد النعمة بأطراح الحقد، فان قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طاللت قصيرة، والمثمة بها وإن كثرت قليلة، فلت^(١) .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
” أجذب بنا الحناب، وأحزن بنا المقل، واستحلنا الحذر، واكتلنا السمر، وأصابنا فتنة لم تكن فيها بررة أحمياء، ولا بفرة أقوياء“ ففقا عنه^(٢) .

ومع اهتمام أبي هلال باللفظ نراه ينص في مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى، وأن المعاني تحمل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة^(٣) . وهنا يناقض رأيه الأول، فضلا عن ضعف تشبيه المعاني بالأبدان والألفاظ بالأنثواب، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعاني بالأرواح . وفي رأيه أنه يجب أن يفرق بين المعنى والفرض، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت في الشعر، وعلى وحدة الفاصلة في النثر، مع أنه يجب التفكير في وحدة الفرض الذي سبق من أجله الكلام، وبذلك تنقل النقد إلى أفق أوسع، وتكون المعاني الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم النقد من حبات الجمان^(٤) .

وهناك أبواب في كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل، وإن لم تكن في جملتها من مبتكرات أبي هلال . ففى باب الالتفات شواهد بديعة مسندة إلى الأسمى إذ قال :
أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتسى إذ تودعنا سليمي بعود بئامة؟ سئى البشام

(١) ص ٤٩ (٢) استحلنا الحذر : اتخذناه حلسا . والحلس بالكسر كساء . على ظهر العير تحت البرذعة

ويوسط في البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢

من كتاب (الموازاة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟
وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقتي ^(١) لازلت في علل وأيك ^(٢) ناضر

وفي باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس مملك من العقل شيء، بل بمقدار ما يوجب
الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها إليك ؟ وكلا ليس منك ^(٣) قليل

وفي تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من ثمره هو — طيب الله تراه — إذ يقول
« سمعت بورود كآبك، فاستفزني الفرح قبل رؤيته، وهز عطفي المرح أمام مشاهدته،
فأدري أسمعتم بورود كآبك، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور،
أم روض ممطور؟ وكلام مشور، أم وشى منشور؟ ولم أدر ما أبصرت في أشائه : أبيات
شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيت حل بوادي ظلمان، أم غوث سيق الى لطفان ^(٤)»
وقد يلاحظ أن أبا هلال يتألى أحيانا في قده، فيؤاخذ مثلا أوس بن حجر في قوله :
ولست بجاني أبدا طعاما حذار غد، لكل غد طعام ^(٥)
لما تكرر فيه من لفظ غد .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب في كل أحكامه، فذلك مطلب عسير، وإنما يكفي
أن نقول إن كآبه يضع القارئ في حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له ، فقد قرأته أكثر
من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت إليه بأنه كآب جديد يُقرأ لأول مرة، وذلك أقصى
ما يطلب من الكتاب النقيس .

(١) العال، بالتحريك، الشرب به الشرب تبا . (٢) ص ٢١٠ (٣) ص ٣١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو على الحاتمي

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صبايات كافية تميّط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأئمة لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة المخمور الذي ينظر حواله فتراه له صور وأشياح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوروبيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمي تشمه بأن من المنجل أن يُنسب مثل هذا الرجل في عصر زعمناشوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكري المجيد .

٢ - ألف أبو على الحاتمي عدة كتب في اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضح في مساوى المتنبي ، والملبجة في صناعة الشعر ، وسر الصناعة في الشعر أيضا ، والحال والعاقل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضا ^(١) . وهذا الإلماح في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر وقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجه ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكى الحسرة في أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق في دلالاته على تقابة الذهن ، ومثانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولنسارع فندفع للقارئ كلمة حفظت في " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمي لوحدة

القصيد إذ يقول :

”مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، ففي انفصل واحد عن الآخر وبانيه في صحة التركيب ظنن الجسم ذا عاهة تفتنون محاسنه ، وتعنى معامله . وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال احتراسا يمنهم شوائب نقصان ، ويقف بهم على محبة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمدحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجهة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجو دارسه . فاما النحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين فذهبهم التامل من كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعق والنجابة والنجاة ، وأنه امتطاهم فأدّرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يختص به الى غرض لم يتمده ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه في الشعر المستقيم ، نضا بتاره ، وأوقد بالقاع ناره . فن أحسن تخلص شاعر الى معتمده قول الثابتة الديباني :

فكفكت غنى عربة فردتها	على التعر منها مستهل وداع
على حين عاتبت المشيب على الصبا	وقلت ألما أجمع والشيب وازع
وقد حال هم دون ذلك شاغل	مكان الشغاف بتغية الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه	أثاني ودوني راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب بتقتضى أوائله وأخيره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتروا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزا عجبا ، فكيف يجاهل بدوى إنما يفترق من قلب قلبه ، ويستمدّ غفو هاجسه^(١) .

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد النور في قديم الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه إلى أدق ما وصل إليه النقاد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف إلى ذلك جرأته في رمي الجاهلين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توفقت خواطرمهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عدنا ذلك جرأة لأن الرأي الغالب في تلك الأيام كان يميل إلى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر ورمي من ملهمم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمي لم يفته أن يقرّر أن البدوي الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمدّ عفواً حاجته فيأتي بالمعجز الذي يمزج أحياناً على العارفين بأسرار البيان .

٣ - ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقي للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيراً في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تحليل ذلك؟ إننا نفترض أن تحول الحاتمي يرجع إلى انصراف الناس عنه لصلفه وكبريائه وذغابه بنفسه إلى أبعد غايات الزهو والتخلياء، وقد حقّقنا يا قوت أنه كان مبغضاً إلى أهل العلم فهجاءه ابن الجراح وغيره بأهـاج مرة . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير اسراف الحاتمي في العُجب ودعواه التفرد بالحذق واللوزعية والذكاء . والحذقة من أخطر ما يُرْزأ به العلماء والأدباء وهي تجلب إلى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما ينهب بما لهم من وطيد المحبـد وكرم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغـلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع إلى هدمهم وتهوين أقدارهم في أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدره بحذقة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقدّمة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطائه ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بي سنة الصبا وتقاد بي أريحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلفاً به طليفاً علاقة المنعم

(١) مسم الأبداء ج ٦ ص ٥٠١ (٢) يا قوت ج ٦ ص ٥٠٣

بأهله، متعباً عن أسرارهم . وُوزِنَتْ في مجلسه تكمة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تسفر خدائهم عن عذاريهما — بأبي علي الفارسي وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة، وأبى عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائق في علوم العربية تصرفاً في أنواعه، وتوسعا في معرفة قواعده وأوضاعه، وأبى الطيب اللقوي وكان كما قيل حنف الكلمة الشرود حفظاً وتيقظاً، وتازعت العلماء ومُدحت في مصنفاتهم، وعُدَّت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وصلى بن عيسى الرمانى وأبو سعيد الملقى، واتخذت بضاً ممن كان يقع الإيحاء عليه مخفوة، وأنا إذ ذاك غزير الفزارة، تميد بى أسرار الممرور، ويسرى على رضاء الأقبال، وأختال في ملاءة المزى بلهنية من العيش وخفض من التعميم، وخطوب الدهر راقدة وإيامه مساعدة» .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمي كان مفتوناً بنفسه أشد الفتنة، ومسرفاً في الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه وعامده ما يشاء حين يرى الجمهور يصعد فضله، ويطمس محاسنه، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائماً أنهم مقبونون، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطلم كبرياء الحاتمي بكبرياء المتنبي، وكانا متعاصرين يضمركلاهما لصاحبه أقم ألوان البضياء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان إلى أشنع صور التعامل والدوان، ولا سيما إذا أصطبقت الخصومة بصيغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها الحزب الشيع . وهذا هو الذى وقع في خصومة الحاتمي للتنبي : فقد كان الحاتمي صديقا أوتبعاً للوزير المهلبى، وكان المهلبى يفيض المتنبي بنضاً شديداً لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء، وكذلك تربص الحاتمي وأتظر قدوم المتنبي إلى بغداد لينأظره ويؤلب العامة عليه ويذهلهم في شره، قم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ - ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي تلاقيا فيه لأول مرة ، وهي رسالة مفرضة بالطبع ، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضايق المتنبي ، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر ، لأن كل معول يؤثر في كل بناء ، والناقد يستطيع كل شيء . متى استباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير في الغالب جبناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأجد الأعمال ، ويأتي على أرفع الأقدار . وبعض هذا الوهم صواب .

ولترك الحاتمي يتحدث قليلا لنرى خيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبير ، وأذال ذيول التيه ، وصعّر خده ، ونأى يجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا مذرويه ، رافلا في التيه في برديه ، يتخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يفترق غير مائه غيره ، وروض لم يرع ثوراه سواء ، فدل بذلك مديّة ... حتى تخيل أنه القريع الذي لا يقارع ، والترع الذي لا يحارى ولا ينازع ، وأنه رب القلّب ، ومالك القصب ، وثقلت وطائنه على أهل الأدب بمدينة السلام فطاطا كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه ، تخيل أبو محمد المهلب أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتبعه بشيء من مطاعنه . وساء معز البولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون في مملكته أحد يناقله في صناعته ويساويه في منزله ، نهدت حينئذ متبعا عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفيا ناره ، ومهتكا أسرارها ، ومقلما أظفاره ، وناشرا لمطاويه ، وممزقا جلباب مساويه ... الخ »^(١)

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال ، وهي تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومنهجه في النقد ، وفيها قهرات قوية ، كقوله يجيب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) القدوران بالكر أطراف الآلية ، بلا واحد ، أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيتاه ، ومن القوس ما يقع عليها طرف الورق من أعلى وأسفل - وجاء بنقض مقدويه بأغيا مبددا (قاموس) .

(٢) باقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

في تناقل ونفور : "أنا بخير ، لولا ما جئيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المسير إلى مثلك"^(١) وتقدمات الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرقات الشعرية وسوء التعبير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبي ومعر الدولة بهزيمة المتنبي ؛ وهي كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه والتخليه .

٦ — أما الرسالة الثانية فهي أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي ، وهي رسالة ردّ فيها حكم المتنبي إلى أصولها من كلام أرسططاليس ، وقد وضع لها مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في قسده عفّ نزيه إذ حتّثنا أنه يدافع عن المتنبي "حين أثّمهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومباني منطقية"^(٢) لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي "عن إخص ونظر وبحت فقد أغرق في دوس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة"^(٣) وهو في الجالين على غاية من الفضل ، ونهاية من التبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبتا نال من المتنبي باللفظ ما لم يناله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعقبها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يفضح المتنبي فضيحة شتاء . وفي الحق أن هذا العمل كان غاية في اللؤم من جانب الحاتمي ، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأقل وهلة ، وذلك سر صحتها في أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن إلى ما قلّت عنه من كلام أرسططاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالمقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسد

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التي أخذ عنها في قول أرسططاليس "يسير من ضياء المحس غير من كثير من حفظ الحكمة"^(٤) .

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتابى الطباع على الناقل
يسدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يُفصح تنافرو حين يُنظر إلى أصله في قول
أرسططاليس "روم قل الطباع من ردئ الأطلاع شديد الامتناع"^(١).

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تمارقهم فالراجلون هم
أقل عمقا من قول أرسططاليس :
"من لم يردك لنفسه فهو الثأى عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فانت
قريب منه وإن تباعدت عنه"^(٢).

وقول المتنبي :

أصل عيبك محمود حوائبه فربما سحت الأجسام بالعلل
أقل وضوحا من قول أرسططاليس :
"وقد يفسد المضو لمصالح أعضاء كالكي والفسد للذين يفسدان الأعضاء لمصالح غيرها"^(٣).

وقول المتنبي :

وما التيه طيبي فيهمو غير أني بفيض إلى الجاهل المتعاقل
أقل تليلاً من قول أرسططاليس :
"إن الحكيم تربه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه
قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس"^(٤).

وقول المتنبي :

ومن يفتق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل القفر
منقول من قول أرسططاليس :

"من أفنى مده في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم"^(٥).

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة قد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهي كما أشرنا طلعة نجلاء بهون بجانبها كل ما لقي المتنبي من خصومه المبرزين .
 ٧ - ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رمى به المتنبي من سرقة معاني أرسططاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .

قول المتنبي :

إذا اعتاد الفتي خوض المنايا فاهون ما يميز به الوحول
 أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :
 "من آسمرت عليه الحوادث لم يالم بملوئها"^(١) .

وقول المتنبي :

إنهم ولّد فلأُمور أوانسُر أبدا كما كانت لهم أوائلُ
 معنى عادي : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس :
 "كل ما له أول تدمو الضرورة إلى أن له آخر"^(٢) .
 وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نناف ما لا بدّ من شربه
 أفضل في النفس من قول أرسططاليس :
 "كره ما لا بد من كونه عجْز في صحة العقل"^(٣) .

٨ - ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد، حتى استطاع الحاتمي أن يرجع إليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويُشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرمون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : "ليس جمال الإنسان بتأفقه له إذا كان بيت الحس من العلم" .

ثم إداره في نفسه وما زال به حتى أغرقه في لجة من الشعر حين قال :

لا يعبث مَضِيًّا حسن بَرِّه وهل يروق دفينًا جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية الخاتمة أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي، وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر: بدليل قوله في أوّل المراجعة "قال المتنبي رحمه الله ! " .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الخاتمة كتب رسالته الثانية وقد اكتمل وغلب عليه الوفاق وفارقه الترقى الذي ساد في رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدّمة الرسالة الثانية :
"أما بعد فإن أحق ما أحسّكت إليه نفوس أولى النظر، واتقادت إليه آراء أهل الفكر، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفّحين، وأمضت به عزائمها قلوب المعتبرين : العدل ، فإنه سنخ^(١) العقل، وحليف النهى، وصنو الفهم، وعدو الهوى " .

١٠ — هذا وكان الخاتمة متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذى يقول :

لى حبيب لو قيل لى ما تمّنى ما تمديته ولو بالمنون
أشتهى أن أحلّ فى كل جسم فأراه بلحظ تلك الميون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور ختته قصرًا كما راض البرق فى أفق الدجى برقًا
قد كاد يشر أولاه بآخره وكاد يسبق منه بخره الشفقا

وهو القائل فى وصف الثريا :

ويلل أتنا فيه نُعمل كأسنا إلى أن بنا للصبح فى الليل عسكرُ
ونجم الثريا فى السماء كأنه على حلة زرقاء جيبٌ مدنرُ

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعرا أثبت له صاحب اليتيمه عدة مقطوعات فيرجع إليها القارئ هناك^(٢) .

١١ - أبو عبد الله المرزبانى

١ - المرزبانى هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان — كما ذكر ابن النديم^(١) — وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالبابل ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقتدر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد^(٢) .

ولد في بغداد سنة ٢٩٧ وتوفى سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزبانى إلا تُشف يسيرة، وأظهر أخباره أنه كان رجلاً غنياً كريماً يُفَضِّل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشامون . ولم يكن يؤخذ عليه من المفوات إلا إيمان الشراب . وكان من عادته في ذلك أن يضع بين يديه زجاجة خمر وزجاجة نمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تأمله حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين فارورتين؟! » يعنى فارورة الخمر وفارورة الخمر .

٢ - وكان في حياته العقلية يؤثر منهج المعتزلة : فقد صنف في أخبارهم كتاباً كبيراً . وكان المعتزلة في تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية في الأقطار الإسلامية . وقد أخذ عليه صاحبه الله شيء من التسامح في رواية الحديث .

وكان في جملة حاله معرفاً بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدمه على الملاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المفرضين عليه كابى حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) التهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢

لم يجمع ورواية وليس لم يجمع قط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلجام^(١). ولوبقت كتب المرزباني كلها أوجلتها لاستطعن أن زن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا الترد القليل. غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد المفتون. وابن النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حملنا أنه رأى كتاب المرزباني عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين. وقد أثبت في هذا الكتاب مختار أشعارهم وبين أنسابهم وأزمانهم. وأن له كتاباً آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر بكنية ابنه أو عرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال. ويشتمل الفصل الثاني على ما روى من قوت الشعراء وعيوبهم في أجسامهم وصورهم كالسودان، والعمور، والعميان والعمش والبرصان، وماثر ما يؤثر في الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضواً. ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والتمهين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر في الجاهلية تكبراً وفي الاسلام تدنياً، ومن ترك المديح ترفهاً، والمهجاء تكراً، والفتل تمقفاً، ومن أخذ شعره في معنى واحد كالسيد بن محمد الحميري والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما. وله كتاب آخر اسمه «الرياض» ذكر فيه أخبار المتيمنين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وأتهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين.

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزباني ففى مقدور القارئ أن يرجع إليه في الفهرست^(٢)، ولكن سمنا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزباني تدور حول نقطة واحدة هي تنظيم الثقافة الأدبية.

فقد عني الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع
لجاهلين كتاباً، وللحديثين كتاباً، وعني كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون
الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والخز والبرد والقيوم والبرق والرياح
والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في جعلها من أوصاف الربيع والخريف . وكتبه عن الزهد
والزهاد والمجاجة والمجباب والمدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من
مدح وذم ، وكتابه عن الأنوار والثمار الذي ساق فيه طرفاً عما قيل في الورد والزرجس وجميع
الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار . وكتابه في نسخ العهود إلى القضاة
وكتابه عن أشعار النساء ، الخ .

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة
آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتاً لكل من تحدث عنهم من الشعراء . فمن الذي يعرف اليوم هذا
المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزباني
لم ييتر منه غير خمسة قرون ؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً
سماه "تفقيح العقول" في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدين الاطلاع عليه
مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك^(١) .

٤ - ولم طبع من مؤلفات المرزباني - فيما علمنا - غير كتاب الموشح الذي نشرته جمعية
نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف في مقدمته أنه
اهتم بذكر ما أُنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التي سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن
يحتجوا بها ويدعوا عنها . وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب
الشعراء التي نه عليها أهل العلم وأوصحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإبطاء والإقواء والإكفاء
والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسخ وغير ذلك من سائر
ما عيب على الشعراء قديمهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معانيهم التي استقصاها في كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف عاقبته ومنافعه ومضاره وأوزانه وعبوره ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتآديب قائله ومنشديه والبيان عن منحوه ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض^(١).

• — وقد راجعنا كتاب الموشح عدة مرات فلم نظفر للؤلؤ بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعتز بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبت لا نجد اليوم في غير كتابه. وإن كنا ننتز على أصوله مبعثرة هنا وهناك. فأت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواده معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها في شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظهر مجموعة ما قاله النقاد القدماء عن الأخطى أو جرير مثلا لما استطعت أن تجد لها منظمة على نحو ما تجدها في هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيرا ما تظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلا في نقد قول الطائي :

وقد سدت مندوحة القاصما • منهم وأمسك بالناقصا

"ولم نسب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاور بألفاظها ولا تنقيح أشكلها. فكانها تشكو الغربة في كلامهم"^(٢).

ومعنى هذا أن الغريب الوحش قد يحسن استعماله إذا أطرده في كلام متأدب غريب. أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحش من الكلام يفهمه الوحش من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق. والتفاهم عند المرزبان والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ، إذ كانت الناس لا يقولون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يلقون.

٦ - ولا يخلو المرزباني - على فضله - من تحامل : فقد رأيتُه ينص من قيمة غنارات أبي تمام إذ يقول :

«وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألّفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقتنوا باختباره لم فتني عليهم سرقاته . ولا يسخر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو يسع له بذلك معنى يقض به ما يتقدمه ولا يقتض به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير إليه^(١) .

ففي هذه الفقرة تجرّ شديد على أبي تمام وإذراء بإحسانه في تأليف غناراته . وما أحسب الخاطر الذي مرّ ببال المرزباني مرّ ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الأشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدبين بغناراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استجبد من شعره ...

ولا أدري كيف يصح هذا من المرزباني إلا أن أرجّح أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقطع مجده من جذوره وترى به في هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أشملت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخفق انحصوم خلقا وترى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترئ في خلقها إثمًا ولا جناية . حتى صمغ لآلِ المرزباني على نزاهته أن يتهمة بسوءالنية في تأليف المختارات مع أن في الخامسة باين لم نجد لها مثيلا في مجموعة أدبية وهما باب المرائي و باب النسيب .

٧ - وينظ على المرزباني أن يسوق المأخذ بدون أن يتعقبا بنقد أو تمحيص ، وأخيانا يضيف إليها كلمة صغيرة تبين زايه . من ذلك أنه هل الكلمة الآتية بسندها عن

بعض معاصره :

”دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما . فلم أني قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أتركه أعلم بهذا مني ؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتهي أن يموت . ولهذا العلة ما وقع مثل هذا في أشعار الناس^(١) .“

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . ”قال مقال الشاعر : قلت لأبي تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الرديء ! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعشى فلا يجب أن يموت“ وفي التعقيب على هاتين الفقرتين المبرزتين بأن يقول . ”وهذه حجة ضعيفة جدا“^(٢) .

وأحيانا قليلة يسطر القول ببعض الشيء في النقد والمقابلة كما فعل في نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

نقد بين أن أفضل منه قول الطرماح بن حكيم :

بل إن للعنين في الصبح راحة لطرهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال ”فأحسن في قوله وأجل وأنى بحق لا يدفع، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الم بالليل وذهابها بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد الحبيب وتقييد المخطط عن أقصى مرأى النظر الذى لا بد أن يؤدي الى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يطلب عليه فينسى ما سواه“^(٣) . ولرزباني ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارئ المتصفح ويستجدها المتأمل كقوله في التعقيب على قول أبي التماهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فإنا كل الشهد إلا بسم

فالغنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلاً لبؤس الدنيا المازج لنعيمها . ولكن يلاحظ المرزباني أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحداً أكل شهياً بسم . وأجود من هذا البيت لفظاً وأصح معنى قول ابن الرومي :

وهل خلة ممسولة الطعم تجنى من البيض الإحاث وإش يكيدها
مع الواصل الواشي وهل تجنى يد جنى النحل إلا حيث نحل يزودها^(١)

وتلك ملاحظه دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرني عن قولك :

كأن بني نهبان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

أردت أن تصف حسن حاله بعده أو سوء حاله ؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حاله لأن قهره قد ذهب . فقال المعترض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا لم يكن معها قمر .^(٢)

٨ — وقد أشار المرزباني في غير موضع الى وحدة البيت فقد تحدثت عما أخذ على امرئ القيس في قوله يصف الليل :

قلت له لما تملى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا في البيت الثاني . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتاج البيت منه الى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض الى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقية الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت . على أن في هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف الخ . وأجود من هذا قول النابغة الذبياني في اعتذاره الى النعمان :

ولست بمستيق أخا لا تلبسه على شعث، أى الرجال المذهب

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المذهب) لا اعتذار أو غيره لآتى بكلام مستوف لا يحتاج الى سواء .

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة ، وإن ظن ناس غير ذلك ، فان الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت ، ولهذا قيمة فى الزنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشد الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض ، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بنجم القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقى الشعرية ننقل له قطعة لابن العتابة خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا ، ولتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما	واقه لو كلفت منه كجا
كلفت من حب رقيم لما	لمت على الحب فذرنى وما
ألقي فاني لست أدري بما	بليت إلا أننى بينا
أنا بياض القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بسهام فبا	أخطأ بها قلبي ، ولكنا
سهما عينا له كلما	أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا تزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمانوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للآلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تحكم فى قدرها الأذواق .

٩ — وفي الموشع عبارات تصديه تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف ولتأمل القارئ ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوي :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بقطته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط^(١) . وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجانه قول بعضهم في النحافة :

فلو أن ما أقيمت منى معاق بصود ثمام ما تأود عودها

وقال الآخر بصف سرعة ناقته :

• ويمتها من أن تطير زمامها •

لأن في الإزراء بمثل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تخاف الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها النوق لدلالاتها على ما وهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كنى يسمى نحولا أخى رجل لولا غنا طيسى إياك لم ترفى

وعده غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولدين :

عادنى مرمى فلم ير منى فوق فرش السقام شيئا يراه

قال لى أين أنت قلت التمسنى فبكى حين لم تجدنى يده

ولسا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيع للصورة التي قدمها الشاعر في وصف آثار التحول .

١٠ — والمرزباني يتم بتقيد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في شأيا كلامه نزع الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحلول أن يصبح كلامه بصيغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهابى البحرى تحفقاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس وطماعهم وأنها تجمع بين

مطابقة اللفظ وهلهة النسخ والبعد من الصواب ، وأنه قد حجا نحواً من أربعين رئيساً من مدحهم منهم خليفتان : هما المتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك تنبؤ عن سوء المهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائمه لجماعة توفر حفظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحهم أقل ما مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزباني في التقييد على هذه المثالب :

”ولم أذكر حاله في ذلك على طريق التعامل مع اعتقادي فضله وتقديمه ولكني أحبت أن أبين أمره لمن لعله استرعه وحسبنا الله ونعم الوكيل“^(١) .

وظاهر هذه الكلمة تزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزباني مشكور على أي حال : فمن أمثال هذه الهفوات تتكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! قلل الناس يعيشون في رذائلهم أضما ف ما يعيشون في فضائلهم ، ولست أريد بهذا كية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فإن النفس لا تتجانب البساطة السوية إلا وهي نائرة . والنفس في لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه في هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزباني قدر أنه قد يحى من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحتري بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحتري لمن لعله استرعه ! وما الذي كان يقع لو ظلت صناثر البحتري مستورة وظفر بلسان صدق في الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول في نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسي وبين رجال اللغة كالأصمعي وابن الأعرابي ، فإن ذلك

يمثل التراع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجسد على اختلاف
المصور .

وفيا رواه المرزباني طائفة من الطرف والمكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب ،
ولكنا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة
الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .
والموضح مطبوع يستطيع الرجوع إليه من يريد المزيد ^(١) .

(١) من أطرف ما نقل المرزباني من أخبار النزاع بين القرويين والشعراء ما جله في ص ٢٩٦
«حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعي يقول : "حضرنا مأدبة وأبو محمد خلف الأحمر وابن مناذر معنا
فقال له ابن مناذر : يا أبا محمد ! إن يكن امرؤ القيس والنايسة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخددة ، فقس شعري الى
أشعارهم : قال : فأخذ صحيفة مملوءة مرثيا فقرأ بها عليه !»

البَابُ الْخَامِسُ

كِتَابُ الْإِسَاءِ وَالْمِزْهَبِ

١ - أبو حيان التوحيدي

١ - لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالي لا يقع إلا متأثراً بما طفتين اثنتين : الحب أو الحقد . ولن نجد في تاريخ الاداب العربية كاتباً مجيداً أو شاعراً بليغاً أو خطيباً منطقياً خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرف عبقرية البهيمى مثلاً يرجع إلى قوة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السرف في عبقرية ابن الرومي يرجع إلى تطهيره وحققه على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السرف في تفوق عبد الحميد ابن يحيى إلى صرويته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل في فصاحة النجاشي إلى ما كان يضطرم في صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على التآثرين من أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدي الذي نريد أن نفيض في الحديث عنه رجل خلقت له البأساء ، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب وإجلاله . ولن تجسده في صميم أدبه إلا رصداً يزعم كلما مر ببياله خاطر الفنى والفقر ، والتعم والبؤس ، والنهاية والخلول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطعم في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسي الأصل ، وأنهم تركدوا بين نسبه إلى واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش في القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص في كتاب الصداقة والصدق على أنه كتبه في سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء في تاريخ شيراز أنه توفي سنة ٤١٤^(١) وفي هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس غريب أن يكون هذا حظ التوحيدي في تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس في مولد الشيخ محمد عبده في مصر مع أنه (١) حدثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة في السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة في مصر من ذلك الكتاب .

نشأ في عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا النموض في حياة التوحيدي قيمة في فهم جده العائر، وحظه المتكود، فلو كان رجلا مجدودا في دنياه لثلقت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحدا عني به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتاب والشعراء .

٣ - قلت إن نبوغ أبي حيان التوحيدي يرجع إلى حقه وثورته على الحياة والأحياء ، فلاذكر أن تلك الثورة شبت في مفتتح حياته ومستهل صباه ، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجري بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بظلاله حيناً ، ثم تحول إلى ظلال ابن عباد ، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينفع فته ، ويعطى صده . هنالك انفجر بركان غضبه وتحول إلى أن تون متسمر يرى باللهب المسحق والشواظ المبيد . وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين ^(١)) أنه لما قدم على الصاحب قدم إليه نجاح بن سامة ناظر خزائنه كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا انسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدي وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التي لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لا يقبل أن يعصى له أمر ، أو يراجع في قول . ثم كانت أيام التوحيدي عنده أيام إهمال ونسيان ، فرحل عنه وأصله نيران الفحش والسياب . ولنتنظر كيف يقول :

”ماذني، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ! على أني قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم القواحش ، وبث القضايح، وذكر ما يسمع مسموعه ، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتني من حديثه ، فاني فارقت سنة ٣٧٠ هـ“ .

”وماذنبى إن ذكرت عنه ما جرعته من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحلى طيه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كفى خُصصت بنصاسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى“^(١).

٤ — وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وميل من سبل الفنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ نهمسين حولاً ما على يد لأجنتى ولا فضل لذى رحم
الحمد لله شكراً قد قنعت فلا أشكولنيا ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قننا بقسمنا لكفانا
ما لنا نعبد الأنام إذا كان إلى الله فقرنا وغنا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

”اللهم صبر وجوهاً باليسار، ولا تبطلها بالإقتار، فسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، وتبلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولئى الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء“^(٢).

وهذا نص فى أنه كان مشغولاً برزقه، وأنه كان لذلك معنى بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلباً للآل، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والشورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الفنى والجاه والملك، ومن هنا قلت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإيحاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الآخرة والشح والفضن والجحود .

(١) باقوت ص ٣٩٦ ج ٥ (٢) باقوت ص ٤٠٤ و ٤٠٥ ج ٥

٥ — وما زال التوحيدي يقدّم إلى نفسه وقود النبط والحفيظة حتى ظبه طبعه الجلاع في أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تخيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدّثنا في تلك الرسالة بما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الفنى والجاء إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولمقدد الرياسة بينهم ، ولمدد الجاه عندهم ، خربت ذلك كله» .

وفي تلك الرسالة فقرات مُرة موجعة تثير المطفئ على ذلك الرجل الذى شق كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صوّر بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرّج جماعتهم بهذا المييب ؟

”بقواي لك : أن عياني منهم في الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد المات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما سمع لى من أحدهم وداد ، ولاظهر لى من لإنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرتت بينهم بسد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروعة ، وإلى تماطى الرء بالسمة والفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحرأنى يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسالك وصباحك . وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة ثبعتك ونزغك ، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فلتته وأيتهت بما قمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطوئته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقليل “ .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تشمور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدي وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ماهو الضمير ، وماهى

مناة الخلق، وماضي الكرامة، وماملول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشي فوق تلك الأسسوالك : أشواك الملقى والمداخنة والرياء ، فشئ مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضمة والهووان والصنثار مما يضرهم في نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا يتال فيض ما لنسهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ - وفي تلك المعركة الدامية التي خرج منها التوحيدى وهو زين الكلاب أجهى وأخشن من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص، قيل في جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترف ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : في حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استنوار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبي حلال :

جلوسى في سوق أبيع واشترى دليل على أن الأثام قرود
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .
ودليل ذلك ما حكاه في كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شئ : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا - يعنى ابن العميد - في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطلال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إني أسألك عن شئ واحد فأصدق فانه لا مدب للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضاعفه ، أكنت تخيله في نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد، أو شئ آخر من جنسه، وأنت تدعى

الحكمة ويتكلف في الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فأظن لأمرك، وأطلع على شرك وشرك^(١) .

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ في درس القرائز ونقد الطباع، فإذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق، وأسبغ على خصاله وشماله أثواب الرضا والاعجاب .



٨ — هذا الذي قدمناه عن التوحيدي جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: الشخصية الأولى شخصية الأديب الذي يمحشأ عن نفسه وعن أشجائه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذي ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه اليها رجلا فهم التراتب الفلسفية والأخلاقية والأدبية، ثم صوّرها لنا تصويرا يقرب من الإيمان في كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا في مصر طبعا متقنا معناه به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلا، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفاسفة الاسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لهذه، وإن كنا نرى في ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكي الملاحظ في أسلوبه الفلسفي والأدبي فيترك السجع وقبيل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التي تقبلها الناس في ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين في ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف، فإذا حاولوا

الاجابة والتعليل ظهورا ضعفاء عاجزين . وهذه ظاهرة تجدها حيث تصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم يتح لهم التغلب عليها ، وكان من أثرها أن كثرت الشك والارتباك والالحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدى في إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

”ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح ؟ أما تضيق صدورهم . أما يكلّون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشكلة لحال البهيمة ؟ أما يأتفون ؟ أما يضجرون^(١) ؟

وفى الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة عملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعم الجنة بالعقل لا بالهوس ، وأن العقل لا يعتره الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يسه القنوب . وعلى ذلك بنى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التى يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهى الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتمثل هذه الشخصية الرائعة فى رسائله الوجدانية ، وفى استطراداته الممتعة التى جرى بها قلمه فى كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوّن ونشأ فى هجير الغافة واليؤس ومعاينة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياه وسواد لياليه . واثق لثرى له وتبكى لشكواه حين تراه بطالمك بأمثال الكلمة الآتية :

”وسمعت الخوارزمى أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البلخي يقول : (اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمننى حتى يبور الجهول ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم ” وأقول : ” اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخلفاء ، وغلب الجفء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ” والخوارزمي^(٢)

هذا الذى يعجب به التوحيدى ويتحدث عنه ويتألمى به رجل طانى فى دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدمون عليه بدع الزمان وهو لدن العود غصن الالهاب، فلا عجب أن يردد "التوحيدى" شكاته وأنيته وهو الذى رأى كيف تهدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد.

١٠ - ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديقى فاليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بفترة واتهى بفترة . ابتدأ بالكلمة التى قلناها آنفا عن الخوارزمى، واتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بداه وأعدته، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك، وما يصغر منها يتقذك يكبر بسقك . والله أسأل خاتمة مقرونة ببنيمة، وعاقبة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل مالم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديقى كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمس رأس الحائط كما قال ، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج ثمرة من أدب التوحيدى . وليس يهمننا فى هذا المقام ما أشتمل عليه من الفقرات الجبلية، والمقطوعات البدئية، والأخبار الطريفة، إنما يهمننا بنوع خاص مامر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من التماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسيمات .

١١ - والصور التى يقيمها التوحيدى تمر غالبا على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنى اللغة قوى الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شيء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

”وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو وليّ أو خليط . كما لا يخلو أيضاً من عدو أو كاشع أو مدبّاح أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو متابذ أو معاند أو مزبل أو مضل أو مقل^(١)“ .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى مدّة صوفى الصداقة والحب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المرومة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأزهر عن آثار الطبيعة، وأشبه بنوى الشيب والكهولة، وأرى الى حدود الرشاد ، وأخذ بأهذاب السداد ، وأبعد من عوارض الفرارة والحدائث ، فأما العلاقة فهي من قبيل المشق والمحنة والكلف والشغل والتيم والتهم والهوى والصباية والتدانف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كلال أمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتال منهم وتلكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواظب ليفيخوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط^(٢)“ .

وقل في موضع آخر أنه سمع ابن ماثويه القسى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك تفزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق الى المعشوق^(٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يمن الى والده للتمز به ، لأن الوالد عضد وركن يماذ به ، ويؤوى اليه ، ويترع الى الوالدة لشفتقتها ودمائها الذي لا يصرح الى أمة مثله ؛ ويشناق الى أخته للصيانة لها والترقيح لها ؛ وإلى ابن عمه للانتصار به ،

ولابنة عمه لأنها لم على وضرم، ويصبو إلى عشيقه لأن ذلك شيء يحده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي الجيون جواد راكض. ثم قال: أما الصديق فوجدني به فوق شوق إلى كل من ننته لك، لأنني أبأته بما أجل أبي عنه، وأجبا من أمي فيه، وأطويه عن أختي نجيلا منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفا من حسد يققا ما بيني وبينه. فأما المشيقة فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغظلة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زياره، وتحفة من حديث. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى واتساهم إلى دون الصديق الذى حرمي له مباح، وسارحى عنده مراح، أرى الدنيا بيبه إذا رنوت، وأجد فائتي عنده إذا دنوت، إذا عززت له ذل لي، وإذا ذلت له عز بي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، وإذا تصامتنا نتاجينا بلسان الثقة، لا يتوارى عنى إلا حافظا للغيب، ولا يترأى لي إلا ساترا للغيب^(١).

وقد عرض التوحيدي للصدافة والحب والعشق في آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع إليه من شاء.

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التي قسمها إلينا التوحيدي حين قال:

”قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي مازجة نفسية، وصدافة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواناة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني! اختلطت تقى به بقتة بي فاستفدتا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يولوان بالقهر. ومع ذلك فيينا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة، حتى أنا نتقى كثيرا في الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات. وربما تزارونا فيحدثني بأشياء جرت له بعد اقترافنا من قبل فأجلها شبهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأنى هو فيها أو هو أنا. وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها قراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل“.

وقال بعد كلام : فقلت هل تجد عليه في شيء ، أو يجد عليك في شيء ؟ فقال : وجدى به في الأول قد مجبني عن موجدتى عليه في الثاني ، على أنه يكتفى مني فيما خالف هواي باللمعة الضئيلة ، واكتفى أنا أيضا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة . وربما تماثلنا على حال تعرض على طريق الكفاية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا في ذلك مقنع ، وإليه مفرغ ، وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفى ، ولا نلت عن صدرى الى لفظى ، وذلك للصفاء الذى تنساهمه ، والوفاء الذى تتقاسمه ، والباطن الذى تتفق عليه ، والظاهر الذى ترجع اليه ، والأصل الذى رسوخنا فيه ، والفرع الذى تشبثنا به . والله ما يسرنى بصداقة حُرِّ النعم . وإذا كنت أعشق الحياة لاني بها أحيا كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها ، وجلب الى روحها ، وخطب بى طيها وحلاوتها^(١) .

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب ، وما عسانا نجد فى الانقصاص عن جمال التمييز مثل قوله ” وقلما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفى ، ولا نلت عن صدرى الى لفظى “ .

هيئات هيئات ، تلك لمحات من بحر البيان لا يوفق إليها إلا المهتمون .



٤١ — وينبئ أن تسير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا ، ولكنه كان يستتر اهتماما لسخن الجمهور ، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة ، كقوله : ” الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء ، والأتباء يطبون المرضى حتى لا يترايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحها حتى لا يعتريهم مرض أصلا . وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجما والطبع قابلا والطبيب ناجما — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

الفضائل وفرغها لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الخلال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقاً للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هي الخلود والديمومة^(١).

١٥ - وهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت في القرن الرابع وهي من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدي كان بينهم. أما لغتها فليست من التراث الفنى الذى كلف به مشاهير الكتّاب في ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتّابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجاهل ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم في مثل لغة الصابى وابن العميد. فلم يكن لهم بد من أن يغيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية في بعض الأحيان^(٢).

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات. (٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليفة بأن تدرس درسا مفصلا في هذا الكتاب. ولكن رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا، ورأينا من ناحية ثانية أن التراث الفنى فيها قليل. على أننا لم ننفلها جملة، بل كتبنا فضلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية في باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع «الإنسان والحیوان أمام محكمة الجن» في الجزء الأول. وراجع كذلك الشواهد التي أثبتناها هناك في فصل (السجع والازدواج).

٢ - أبو علي به مسكويه

١ - لما أصل إلى التثيت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلي صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فاثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندي أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه في شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بني بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب في ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك إلى أخريات عمره . يدانا على ذلك قوله يهني عميد الملك باتفاق الأمضى والمهرجان في يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	اسعد بميدك عيد القرمس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغلام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلأني خُبْرَت في ككل صالحة	فلودعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرح شباب لنت أذكره	بعدا ، ورْدَ على العمر من كتب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمسرس بى خيم تمصب لى	وإن أساء إلى الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى	وكُلَّ غرْبى واستأنست بالنوب
إذا تملأت من غيظ على زمنى	وجدتنى نائفا في جذوة اللهب

٣ - شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدي، فقد غمزه في كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء"^(١) واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأطلق بعض محادثة بهذه الجملة "يا غيبا لرجل صعب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمائي الرازي بمملوك المهمة في طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزائنه كتبه. هذا مع تقطيع الوقت في الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائفة؛ والحركات دائمة، والفرص بروق تألق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتمترق. ولقد قطن العاصري إلى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا العصاب والعقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكي حسن الشعر نقي اللفظ.

وقد أوقع التوحيدي بمهاجمة ابن مسكويه ورماء بمدح الجلود باللسان وإثارة الشغ بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف في الأخلاق. ولنتظر كيف يقول في كتاب الوزيرين.

"جرى بيني وبين أبي علي مسكويه شيء: قال لي مرة: أما ترى إلى خطأ صاحبنا - وهو يعني ابن العميد - في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق. فقلت بعد ما أطال الحديث وقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شيء واحد، فأصدق فإنه لا مدب للكذب بيني وبينك: لو غلط صاحبك فيك بهذا المعطاء وأضاعه وأضاعف أضاعفه أكنت تحيله في نفسك غمظا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فإن كان

الذى تسمع على حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شئ آخر من جنسه ، وأنت تدعى الحكمة ، وتكلف فى الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار منها المختار ، فاطنن لأمرك وأطلع على شرك وشرك^(١) .

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجبودين من أهل زمانه ، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء ، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومثانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين أبتلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا الترفل والتودد الى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريبا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب مشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موثق مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا زعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه ، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حد مذهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل ، ولهذا زاه حين يسترحمله على ابن مسكويه لا يبعد غير هذا الثناء الهزيل إذ يقول :

وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقي اللفظ^(٢) .

• — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن زاه ممدحا يتلقه ثناء الشعراء والكتاب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمداني رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص ؛ وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليل اللسان ، لا يتبرف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يتر به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصر على بث ما كان يتلج فى صدره من حزازات وعداوات

(١) مرت هذه الكلمة فى الفصل السابق ص ١٣٧ (٢) يا قوت ج ٢ ص ٩٠

وأضغان وأحقاد، وقد اتصل بابن مسكويه حيناً، ثم سعى بينهما الواشون فكندوا ما كان ينتظره البديع من طيب الصلوات، فكتب إلى صاحبه الرسالة الآتية :

وباعزّ ان واش وشى بى عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلا
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا ترحح لا قريبا ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قبضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ، ولا الصديق ظهوره، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله أن أقولها ، وأستجيز معقولها . بل قد كان بينى وبينه عتاب لا يترع كفه ، ولا يميز أهله ، وحديث لا يتعدى النفس وضميرها ، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعريضة كمريدة أهل الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة ، كذناء محظطة ، فسبحان من ربى هذا الأمر حتى صار أمرا ، وتأبط شرا ، وأوحش حرا ، وأوجب عذرا ، بل سبحان من جعلنى فى حيز العذر أشيم بارقه ، وأستخيل صاعقته ، أنا المساء إليه ، والمجنّى عليه ، والمستخف به ، لكن من بلى من الأعداء كما بليت ، ورمى من الحسدة بما رميت ، ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكارة ما وصفت ، اعتذر مظلوما ، وأحسن ملوما ، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد ، وأولاد العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سماية أو نكاية ، لضن بشرة غريب إذا بدر ، وبعيد إذا حضر ، ولصان مجلسه عمن لا يصونه عما رقى إليه . فهبنى قلت ما حكى له ، أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا من الأستاذ نفسا لا تستغز ، وجلا لا يهز ، وشوا إليه بما أرتوا به ناره . ورد على ما قالوه فإليت أن قلت :

فان يك حربٌ بين قومى وقومها فانى لها فى كل نائبة سلمٌ

فليعلم الشيخ الفاضل أن فى كيد الأعداء منى جرة ، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة ، وقصاراهم نار يسبوننا ، أو عقرب يديبوننا ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر لإقرار بما

قبل، وأكره أن أستقبل، بسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أتمارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الآيات :

مولاي إن عدت ولم ترض لي	أن أشرب البارد لم أشرب
امتط خدي وأتمتع ناظري	وصد بكفى حمة العقرب
بأنه ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن غلب
فالصقو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيب
أن أجتن الغلظة من سيدي	فالشوك عند الثمر الطيب ^(١)

ثم انتظر من ابن مسكويه أن يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد النياحة :
 "أما البلاغات التي أومأ إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبتني عن هذه الطريقة وما أبعدني عنها ! وقد نزه الله لساني عن الفحشاء، وسمى عن الإصغاء ، وما يتخذ العدو بينهما مجالا"^(٢) .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من المتبوع . والمصادر لا تميزنا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وإن كانت عبارة بأقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شنف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ في آثاره ظللا كثيرة لآراء سقراط وجالينوس وأرسططاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء فافقني مناهج اليونان في عرض الآراء وتهد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كانت يكتفي بها الصوفية

والناسكون والزاهدون، بل سائر العقل وصاحبه وأنس به واطمان إليه، ثم اتخذ أساما للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى في عرف المتبتلين، وما زال يدور حول المعقولات في نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يمتنع الشر لأنه نهى عنه، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لاطمان إليه عقله وأمر به وجدانه في حدود الفهم والمنطق والنطق، وإلى القارئ وصيته - أودستوره إن شاء - في نظام السلوك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهد عليه أحد بن محمد ربه وهو يومئذ آمن في سيره، معاف في جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن، ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة : عاهد على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفوه أن يقتصد في مأرب بدنه حتى لا يحمل الشره على ما يضر جسمه أو يهلك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعي نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب في غير موضعه، وعلامة حكمته أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويحتمد في القيام بها والعمل بموجبها وهي خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل في الاعتقادات، والصدق على الكذب في الأقوال، والخير على الشر في الأفعال، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه، والتسك بالشرعية وزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى يميزها، وأولى ذلك ما بينه وبين الله عز وجل، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال، وعجبة الجليل لأنه جميل لا لغير ذلك، والصمت في أوقات حركات النفس للكلام حتى يستنار فيه العقل . وحفظ الحال التي تحصل

في شيء شيء حتى تصبح ملكة ولا تفسد بالامتثال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ،
والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من
الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد
لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ،
وذكر المرض وقت الصعبة ، والمهم وقت السرور ، والرضا عند النضب ليقبل الطغي والبغي ،
وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال ^(١) إليه .

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الاغتراب عند ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير الخلق : لأن الخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لأراء القدماء في أصل الخلق ، فين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بحالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لا تقمع إلا بالتأديب " وأن منهم آخرين " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه " ليس شئ من الأخلاق طبعيا للانسان " وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثرفيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الأراء ، ومزيمته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا " وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشاهد وتعين فيهم وخاصة فى الأطفال ، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فلكا كما يفعله الرجل السام الذى انتهى فى نشوئه وإجلاله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الخيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تصرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوائم والمتنع ، والمهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير^(١) .

٢ - والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهي محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكررت عليه بسبب حيرته في تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع أرسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم في كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سببا في أكثر الأحوال ، لأنه لا يمضي الى غاية معينة يسوق في سبيلها الحجج والبراهين . وقد يختطب أحيانا في ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردى والطيب والخبيث . ولهذا انحبط قيمته عند من يريدون تبين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت في أذهان كثير من الناس صورة للغباء الذى يشور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة بجماعتها فلسفة اليونان بزوايج وأعاصير أطارت ما كان أستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتي من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموها من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلهم في ذلك مثل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يتبدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسططاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستيق لعقله وروحه ما فيها من تنقيف للعقل وتهذيب للحس وتهويم للوجدان . ونحن نشهد في عصرنا شواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له في كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلمذ لمدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لم في توافقهم وتتألفهم تابع أمين ، وقد يكون في المساء صدى لكاتب قرأه في الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرنا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويمس وهو حر العقل والنوق والاحساس .

٣ - رمم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي القصد إلى تنقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بآرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر — فيما يظهر — بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتباب ، لهذا نراه يهتم أولاً وقبل كل شيء بإثبات وجود النفس وجوداً مستقلاً عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون — وما أكثر ما يضلون ! — إلا لياهم من خلود النفس الإنسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ - وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئناً إلى أنه متى صححت المقدمات حققت النتائج . فلنختبر ما صنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر "أنا لما وجدنا في الإنسان شيئاً ما يضاد أفعال الأجسام بحسبته وخواصه وله أيضاً أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشترك في حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام اجساماً والأعراض أعراضاً حكنا بأن هذا الشيء ليس يجمع ولا جزء من جسم ولا عرضاً ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص" ^(١) .

ومعنى هذا أن الإنسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعاً للتراع إلا النفس وهي عنده تضاد الأجسام في الحدود والخواص .

”وبيان ذلك — كما شرح في كتاب تهذيب الأخلاق^(١) — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة . مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلاً من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلاً آخر من التربع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شيء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وطلاتها البتة . فان بقى فيه شيء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداها على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول“ .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثانى أيضاً تاماً كاملاً ، ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبداً دائماً من غير أن تضعف أو تقصر في وقت من الأوقات عن قبول ما يريد ويطراً عليها من الصور“ .

• — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه في استقلال النفس ، وكلامه في هذا الباب كلام الواثق من محبة ما يقول ، وليته تذكر أئسا حين يؤمن بوجود شيء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشيء على النحو الذى تتصوره وزراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف في عموما يحك في الصدور من الرب في استقلالها

عن الجسم وتفرد بها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما آدماه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا قص" فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والخلود، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف النوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكييف ما ينتج بصدوره من ألوان المودات والمداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظم أو الجوع ، فليس من السهل الانتفاع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وبما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يفتيان في كشف ذلك السر الذي لم يحاول كشفه القرآن .

٦ - فإذا تكأ الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأيناه في أكثر الأحوال من الموقفين ، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول "الإنسان مدني" بالطبع "فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه" أنه لم يتخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطير وحيوان الماء ، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفياً بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره ، بل قد أزيحت علته في جميع ما تتم به حياته خلقه وإلهاماً . أما الخلقة فلا أنه مكتمل بما يوافقه من وبر ووصف وشعر وريش وما أشبه ذلك ، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لاحظ حب

فتقار، وإن كان آكل عشب فشفير وأسان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فانياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشناه ، ويسد مصالحه كلها من القوت ولكن بشر تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه ، فكل واحد منها مكنت بذاته في حياته التي قدرت له . فأما الإنسان فانه خلق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاوين حتى يكونوا عدة كثيرة وجماعة وافرّة، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الإنسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاينات التي تم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك في الناس وبراً ومدراً أو على رأس جبل^(١) .

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى الترهّد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ، فهو يطلب معاونتهم ثم لا يماونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المترهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون "وإن كان لا يشعر بذلك"^(٢) .

وهذه دقة في فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذي قرأ في ضوئه ، ونظام البيت الذي نأوى إليه ، والكتاب الذي نهتدى بهديه ؛ والشرائع التي نميش في حماها ؛ كل أولئك جزء من جهود إنسانية عديدة

منها القريب ومنها البعيد، وتلك الجهود تظننا ونحن أجنّة في بطون أمهاتنا، وترطانا حين نولد، ثم تظن تلاحقنا ببرها طول الحياة، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت. فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل.

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذي عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو في هذا مسبوق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين، ولكنه بسط القول في الصداقة بسطاً شافياً ينساب إلى النفس انسياب الماء إلى الأشجار الظلاء، وهو في ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المحزّب الذي صادق وعادي وعرف كيف تكون مرارة المداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الكثرون. وقد تقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألف الصديق ليس من الاحتفاظ بالصديق. وتلك مسألة في غاية الدقة: فطالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن في الصداقة ما يفنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق.

٤ - ابنه نبأ الخطيب

١ - اشتهر ابن نبأ في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نبأ الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤ ، والثاني محمد بن محمد بن نبأ المصري الشاعر وصاحب "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نبأ الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته للصالح الصفدي وهي مذكورة في خزنة الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨^(١)) والثالث عبد العزيز بن نبأ السعدي أحد الشعراء المحيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ - وابن نبأ الخطيب الذي نحن بصدده رجل موفق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته . وقد أهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وعرض له ابن الأثير صاحب المشل السائر في عدة مواطن في آباءه ، وأهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبري (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف الفيلوي المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كتب عنه أن الرجل كان قد فنى في الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوقا بما يطعمه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتخلى لو يرى الرسول في المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندي باسناده المتصل الى الخطيب بن نبأ أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامى كأني بظاهر ميفارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نبأ لظاهر الجزائر ومقدمة ديوان ابن نبأ لبشتكي . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبابة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لي قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرأى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوما إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر ألبسة ، أن لا يحصل لهم الى دار الدنيا كرامة ، كأنهم لم يكونوا للعبون قرة ، ولم يعتوا في الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذي أطقهم ، وأبأدهم الذي خلقهم ، وسيجتدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يمد الله العالمين خلقا جديدا ، ويعمل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومات عند قولي تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، ويقولون شهيدا الى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

فقال لي : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهي وقبله وتقل في في وقال : وفعلك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منتهى ابن نبأة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرأي واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له في نومه لم يتحدث إلا بما يجب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نبأة مغربا بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجه الرسول اهتمامه في المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتهيبه إياه ثم تغله في فقه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهي مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التي ترصد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نبأة وسمته دفعت من بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت في بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربي : رأيت

الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا واليوم أضى لك أمانات
والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جاني

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة ، فالفه عن شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر ، وفيها بيتان من الشعر . فالرائى صور له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على النجاسة . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفلى بقولى :

تكثر ما استطعت من الخطايا فانتك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت في كتاب الأخلاق عند الفزائى الى المنامات التى رآها أنصار الفزائى وخصومه بعد موته ثم قلت في التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الفزائى من أصحاب الكرامات ، كما توه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلا على ما وصلت إليه منزلة الرجل في قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء في منامه صلة قوية بما يلحج به في يقظته ، وهؤلاء الذين جلدوا في منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الفزائى وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين في تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق في عالم الأحياء ^(١) » .

٤ — هذا الجؤ الذى أحاط بابن نباتة ، جزؤ التقى والصلاح والزهد ، أثر في خطبه أبلغ تأثير ، فافاض في ذكر الموت والبعث والحشر والميزان ، وأطال فيما سلقى المحسنون من الثواب ، وما سيمانى المسيئون من العقاب . وهناك جزؤ آخر أثر في خطبه وأعطاها صبغة قوية رهيبة ، فلهذا ذلك الجؤ هو اتصاله بسيف الدولة بن حذان ، وكان سيف الدولة كثير الفزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد لبعض الناس عليه ويحتم على نصرة سيف الدولة .

٥ - ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حدثنا صاحب المثل السائر أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يغمون بها ويكونون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوى مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعد ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، ويحبسه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء ، فهو أسرع تأثيراً في الجماهير التي لا تظن إلا إلى الظواهر البراقة من حليسة البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التي عرفت عن الكهان ، والكهنة هؤلاء كانوا رجالاً يؤدون في البيئات الجاهلية ما يؤديه الخطباء الواعظون في البيئات الإسلامية ، والجماهير واحد أمام الفريقين : فهو دائماً عامة الناس الذين يمدون فيما تحتوى السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيراً لما لا يدركون من التزعات الإنسانية الكامنة التي يبعثها النغم والإيقاع .

٦ - وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما يهتم به الحريصون على التفوق في الصناعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكمت فيهم طماعة التخليد ، واستولت عليهم رفاهية التمهيد “^(٢١) .

وهو في هذه الكلمة قابل بين ” طماعة “ و ” رفاهية “ وبين ” التخليد “ و ” التمهيد “... وقوله :

” ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا ، وطال بهم العفاء فأخلقوا “^(٢٢) .

فقد قابل بين ” صال “ و ” طال “ وبين ” القضاء “ و ” العفاء “ وبين ” أطرقوا “ و ” أخلقوا “ .

وكذلك قوله : ” فسلم عباد الله الى محاسبة النفوس ، قبل مواساة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غرض الرعوس ، وفض الطروس “^(٢٣) .

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

(١) ص ١١٨ (٢) ص ٦٠ من ديوان الخطيب النباتية . (٣) ص ٦١ (٤) ص ٦٢

ومما يحمده ابن نباتة تضمين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية في سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له له ابن الأثير العبارات الآتية :

” فيأبها الفعلة المطرقون ، أما أتم بهذا الحديث مصنفون ، فإلهم منه لا تشفقون ، فإلهم السماء والأرض إنه لخلق مثل ما أنكم شفقون “ .

وقوله في ذكر يوم القيامة :

” هناك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالتفاح سرايا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا “ . وقوله أيضا ” هناك يرفع الجباب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب “ .

وهذه التضمينات كثيرة جدا في خطبه ؛ وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يحكى في هذا النوع .^(١)

٧ — ويحانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فن آخر لابن نباتة هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد في أمثال تمايره المثقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ، لأن رواد المساجد والمابدين يقولون عليها غالبا بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخيل البارعة قوله يتحدث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الجباب في عرفات :

” يحنون إلى حنين الطير إلى أوكارها ، ويفسدون على من بفاج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء ، خواضا لجح الرضاء^(٢) وأنا يعجيني الخيال في قوله ” أنضاء على الأنضاء “ يريد الجحاج الذين أنضاءهم التقى والخوف على المطايا التي أنضاءها السير والسرى . وقوله

”خواضا بلج الرمضاء“ فيه أيضا خيال جميل ، وإن كنت لا أستعيد إضافة البلج الى الرمضاء ، لأن أيام البلج لا تكون دائما في القبط الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله في بعض خطب الجهاد .
 ”قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعنا الدنيا إطاع السراب ، تهاوش على حطامها تهاوش الكلاب ، وتلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، تنظر الى المعسوف نظر الخنزير الغضاب ، ونسكن الى المتكر مسكون الباني بالخلود الكعاب ، وقد أطلنا من العدو صحاب ممتدة الأطناب ، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب “^(١) ؛

وقوله في خطبة أخرى : ”إن للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، ومساخته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غفمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات في معترك القتال ، ومدخله من مشرمة الصوامر والنبال “^(٢) .

٨ — أما من الوجهة العقلية فإن نباتة يقف دائما في حدود الأفكار السطحية ، فيبدئ ويبيد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أول السنة ويبين فضل يوم عاشوراء ، ثم يخطب في فضل رجب ، ثم يودعه ليستقبل شعبان ، ثم يودع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التي تهيم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح الملهته والرأى السديد . وهي دائما دون خطب علي بن أبي طالب التي كانت يحفظها ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقف الخطابية . ومن الصعب أن نجد في خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : ”فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء “^(٣) وقوله : ”واستشعروا السكينة إذا كشفت الحرب قناعها ، وأطار الإقدام قناعها ، وأحرق اللطام ضرابها ، وأمر الحسام شرابها ، وزنّم للجهاد متزلا قد أشرعت إليه إلفنة أبوابها ،

وطالمت الحور الحسن منه أحبائها، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خطابها ،
 وصرخ الشيطان بظغام أعوانه، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه، وهول باحتشاد عبدة صلبانه،
 وضمن لهم ما هو مخفر في ضمانه ؛ وجاء الحق وبطل التفاق ، وانسدت بمجيش المدوّج لهات
 والآفاق ، فأنحدوا هنالك بصواعق العزمات رجمه ، وأبطلوا بصواديق الحملات مجبهه ،
 وأضربوا بيض الصفايح شجبه، وأركبوا ببذل الأرواح بجبهه، وانهبوا بالموت الصراح مهجه^(١) .
 ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه، وعرف كيف
 تساس العامة وكيف تفرس في صدورهم بذور التقى والإياء، واستطاع أن يؤدى الأغراض
 المرجوة من مثله في تعابير نصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت
 مثلاً في براعة الانشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق في مخاطبتها
 عتي، والتدلى في إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

(١)

٥ - أبو محمد بن حزم

١ - كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة. ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التي تاصلت جذورها عند علماء المسلمين. وكتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .
ويعد ابن حزم أنصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه والتشريع .

ولكن تين أخيرا أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حل راية الحب في زمانه واستهدف على عظمته للقليل والقال . وأوّل ما عرف ذلك كان في دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" في لندن سنة ١٩١٤ بتأية المأسوف عليه الأستاذ يتروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عتيقة جدا في أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل . وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتابا ألف في "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لا في اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة، لأن أوروبا في القرن العاشر لليلاد كانت معارفها قليلة جدا في الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقا أن يكتشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والحيام في تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماما من أئمة الدين، ومثالا يُحتذى في أدب النفس، وكرم الطبع، ومثانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليقا بأن يكتب في ترجمة حياته فصل خاص ، ولكنا راعينا أن نخصيه بطفية وقهية قبل أن تكون أدبية ، ولولا كتابه في الحب لما عرضنا لثروة الفنى في هذا الكتاب . ولد أبو محمد على بن حزم سنة ٣٨٣ قرقطة . وتوفى سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وامن مكانا ضاق عن لفتيق * عل أنه فيح مهاهه مهب
وامن رجلا ضيقوني لضج * وإن زمانا لم أتل خصه جديب

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على قده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم : جولد زيهر ، ودوزي ، وبروكلمان ، والدكتور سنوك هوجزنيه ، والمسيو مرسيه . وتسابق المستشرقون الألمان والنمسيون والهولنديون والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون إلى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون ويعيدون حتى جاء المسيو مرسيه فوضع بحثاً هاماً جداً بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو في باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق الحمامة فراجعها مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين أراد أن ينطق بالقول الفصل في تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمت تلك التصحيحات إلى جامعة باريس فأقرها المسيو دى مومبين والمسيو ما سيون .

٢ - في كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يحذش بأنه كانت له صبيوات في عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأمل نار على القلب تالفحُ ودمع على الخدين يهيم ويسفحُ
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففي القلب داء للغرام مبرح^(١)

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمسك الأتس . ويقول في ذلك :

”وإنى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة . وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهرًا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو والوق : فما نسيت لى ودًا قط . وإن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليفتنى بالماء ، ويشرقى

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما ملكت شيئا قط بعد معرفتي به ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت . لا أقول في الآلاف والأخوان وحدهم . لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق مذ ذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يتادنى وولوع هم ما ينفك بطرفي . ولقد نفّس تذكري ما مضى كل عيش أسأفنه . وإني لقتيل المهوم في عداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعرا منه :

حبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياذ زانداها
ولكن على مهل سرت وتولدت	لطول امتزاج فاستقر عمارها
فلم يدن منها عزها وانتفاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا زرى كل نشأة	ثم سرعا عن قريب فسادها
ولكنني أرض عزاً أصليية	منيع إلى كل الفروس اقتيادها
فما فذنت منها لئلا عروها	فليست تبالي أن يموت عهادها ^(١)

٣ - ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب . وله في ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها في شعر ولا نثر . وأنظر كيف يقول :

”إني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سرعا . ولقد بلغت من التمكن بين أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستريدا . ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمة ولا رهقني قرة . ولقد فني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجعل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل لبانة من لبائتي ، ووجدتني كلما ازدت دنوا ازدت تلبدا ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي . فقلت في ذلك المجلس :

(١) طرق الحماة ص ٢٣ ، ٢٤ (٢) التمدد : لتنهف والحيرة .

وددت بأن القلب شقٌ بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدرى
فأصبحت فيه لا تحلّين غيره إلى متقضى يوم القيامة والحشر
تعيّشين فيه ما حيت فان أمت سكنت شفاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تصل عمين إذا عدما الرقباء ، وأمتا الوشاة ، وساما من اليبس ، ورغبا عن المهجر ، وبدا عن الملل ، وفقدنا المذال ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في المحبة ، وأتاح الله لها رزقا دارزا ، وعيشا قارزا ، وزمانا هاديا . وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال^(١) .

٤ - وكان ابن حزم مغرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين من عاصروه وبخاصة الكتاب والشعراء والوزراء . وكان يحد في ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التي عرفها بنفسه أو نقلت إليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدث عن الواقع لا عن الخيال . وقد تنقّط كثيرا من محاسن العشاق ومساوئهم ودون في كتابه أخبارا غريبة عن أهل الشق وأهل العفاف ... ومن ذا الذي لا يستطيع قوله :

” وإني لأعلم من نأت دار محبويه زما ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم وأستيفائه حتى دعت نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفي ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حين إذا انقضى زمان النوى بالقرب عدت إلى البعد
فلم يك إلا كرة الطرف قريبكم وطودكم بعدى وطودنى وجدى
كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه رأى البرق في داج من الليل مسود^(٢)
فاخفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لا تنفيد ولا تجدى

ولننظر بأي دقة يتكلم عن رسائل الحب - وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين في أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس - :
” وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يادرون بقطع الكتب ومجلها في المساء ويجو أثرها قرب فضيحة كانت بسبب تخاب . وفي ذلك أقول :

عزيز على اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطع
فأثرت أن يبقى وداد ويمتحي مداد فان الفرسع للاصل تابع
فكم من كتاب فيه مينة ربه ولم يدركه اذ تمقته الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب اللطيف الأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحيان : إما لخصر في الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم حتى أن لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يمجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويمانه . ولمهدي بعض أهل المحبة عن كان يدري ما يقول ويمسح الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويمجد النظر ويدقق في الحقائق لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصول ، قريب الدار ، دافئ المزار ، ويمحكي أنها من وجوه اللذة . وأما سقى الحبر بالدمع فأعترف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقى الحبر بالريق . وفي ذلك أقول :

جواباً أتاني عن كتاب بعثته فسكن مهتاجاً وهيج ساكننا
سقيت بدمع العين لما كتبت فقال محب ليس في الود خائنا
فما زال ماء العين يحو سطره فيأما عني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعي أول الخط يينا وأضحي بدمعي آخر الخط بائنا

ولقد رأيت كتاب محب الى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم وأسند منه وكتب اليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصيغ الك^(١) .

٥ - وفي هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التي كان يحياها أهل الأدب والفلسفة وبعض رجال الدين في تلك المصور .

وفي اهتمام ابن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب في الأندلس كانوا ينظرون الى الحب في القرن العاشر بنفس العين التي كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمان الى الحب في القرن التاسع عشر .

(١) ص ٣١ و ٣٢ والك بالفتح بات يصح به وبالهمزة أوحاربه .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وإنما كانت معروفة عند العرب في الشرق . ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الإسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربي بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب كتاب الزهرة الذي ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأفلون . والناس يحسبون الكلام في الحب لونا من العبث . لأنهم يفلون عن طبائع النفس الإنسانية التي لا تخلو من صبوات في كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكره قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها إلى علم النفس ثروة عظيمة لا تخاطر لكتاب الشرق في بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم إلى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلا أن الحسن يتلون وفاقا لأفقتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر : لأن الفتاة التي أحبا لأول عهده بالحب كانت شقراء الشعر . وفي هذا يقول :

”ولقد شاهدت كثيرا من الناس لا يهتمون في تمييزهم، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا تقصير في حلدهم قد وصفوا أحبا بالهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال فصارت هجيرا لهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما يسألوا أو يبين أو يهجو أو بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بأن عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخلقة ولا مالوا إلى سواها . بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم إلى أن فارقوا الدنيا . وانقضت أعمارهم حينئذ منهم إلى من فقدوه وألفه لمن محبوبه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون في طي عقولهم غيره . وإنى لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص^(٢) فما

(١) في الأصل (الخلقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر المتى .

استحسن أغيذ ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية ماثلة الى القصر
فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية في فيها قوة لطيف فلقد كان
يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصي المخطوط
في العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا في الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية .
دعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لى شقراء الشعر فاستحسننت من ذلك الوقت
سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، واني لأجد هذا في أصل تركيبي
من ذلك الوقت لا تواتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى الى أن وافاه أجله^(١) .
ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليل قليلا مله القارئ ان شاء . ولعلم
أن هذا منهج جميل في علم النفس ويمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة
في تقييد ألوان الطباع والفرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم في طبيعة المرأة لنرى ما فطرت عليه في علاقاتها مع الرجال
فقد شق الناس قبلنا في فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم المخطوط في خبث ولؤم ويقضى
بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفى ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل في صور مختلفة بعضها كريمة وبعضها
مقبول، وفقا لما تتلون به من غدر أو وفاء، وهى في حالها سم حلو المذاق ، فهى سرما تلقى
في دنياها من رشد وغى، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عوناً على فهم المرأة
فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل في مثل هذه الدراسات أنها
تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدفقت في الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل
الأمثال بين رجال الوجدان .

ولاني لأعترف بأنى أرى — حين أدوس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير في تلوق المرأة وأن المرأة لم تتغير في حبها للرجل وطنبائها عليه . فنحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية في الأدواق والأحاسيس ، وأن الزمن باعد بين القدماء والمحدثين في فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمع ما قال الأسلاف في صدق وإخلاص ، نجد الطبيعة الانسانية هي هي لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر في تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون "القديم" لو أن لغويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف المصور متقاربا جدا في شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة، ولننظر قوله :

"لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرة : لآتى ربيت في مجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب أو حين تبطل وجهي . وهن علمنني القرآن ، وروينني كثيرا من الأشعار ودربني في الخط . ولم يكن وكدي وإعمال ذهني مذ أزل فهمني وأنا في سن الطفولة إلا تعرف أسباهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليا وسوء ظن في جهتهن فطرت به فأشرفت من أسباهن على غير قليل^(١) .

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء في الأندلس في أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء في منازل الوزراء — كما هو الحال في جميع بقاع الأرض — كانت تسمع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتعلمهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يماثر من النساء .

ولم تخف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التي كان يتلقى فيها الدروس ، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها "نعم" وكانت أمتية المتحنى ، وظاية في حسن

الخلق والخلق . وقد بفضته فيها الأقدار واخترمتها الليالي وسنه دون العشرين وكانت هي دونه في السن وفي بغيته بها يقول :

”لقد أملت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتري دمة على جلود عيني وقلة إسماعدا . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لغديتها بكل ما أملك من نالده وطارف، وما طالب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حي لها على كل ما قبله ورحم ما كان بعده“^(١) .

٨ - تحلّت ابن حزم كثيرا عن وفاء المرأة وغدرها، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير الطباع والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

”أدركت بنت زكريا بن يحيى التيمي، وكانت متروجة بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى ابن إصحاق فاجلته المنايا وهما في أغص عيشهما، وأضر سرورهما . فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات . وجعته أتر العهد به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها“^(٢) .

وهذه قصة تستثير السمع، وفيها أبلغ معاني الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجزة قوله في كلمة ثانية :

”وأنا أخبرك عن أبي بكر أخى رحمه الله وكان متروجا بماتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر . وكانت التي لا مرمى ورامها في جمالها وكرم خلاصها . ولا تاتي الدنيا بمتلها في فضائلها . وكانا في حد الصدا وتمكن سلطانه . ينضب كل واحد منهما للكلمة التي لا قدر لها . فكانا لم يزالا في تفاضب وتمايب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحطها شدة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسم، لا يلعبها من الدنيا شيء، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها اتقاقه معها، وسلامته لها، إلى أن توفي أخى رحمه الله : فما انضكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بهام

في اليوم الذي أكل فيه هو تحت الأرض عاما . ولقد أخبرني عنها أمها وجميع جوارها أنها كانت تقول بعده : ما يقوى صبرى ويمسك رمقى في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم الخلاق به^(١) .

٩ - والمرأة - كما عرفها ابن حزم - أكثر مواساة وإسعاداً في الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على مر الحب والتواصى بكتباته ما ليس عند الرجال . ويقول في ذلك :

”وما رأيت امرأة كشفت سر محتاين إلا وهى عند النساء مقبولة مستغلة . وإنه ليجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما عمن على سبيل التغير، وهذا لا يكون إلا في الندرة . وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فأنصرفن الأشفاق محضا الى غيرهن .

وإني لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جوارها أنها تعشق فتى من أهلها . ويشقها، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جارىتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فاذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... وإني لأعلم امرأة جليسة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكباب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان في غير ملكها فصرفته الأمر فرام الإنكار فلم ينهيا له ذلك . فقالت له : مالك؟ ومن ذا الذى عَصِم؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلعت على سركا أحدا أبدا، ولو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل إليها فيه ولا يشعر بذلك أحد^(٢) .

وهذه الفقرة تشمرنا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح !

١٠ - وقد فكر ابن حزم في تقليل هذا الخلق وهو يرى أن السر في تمكن طبع المواسة من النساء أنهن مغرقات البال من كل شيء إلا من الحب ودواحيه، والغزل وأسبابه، والتأليف وجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملاقة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معاني المواسة والإسماع . ومن هنا يمتدنا ابن حزم أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون ان المرأة انا بقيت بغير شغل إنما تشوق الى الرجال .

وهذا الذي يشير اليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصل في فساد النساء . وهو كذلك الأصل في فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحلة لا تنفع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللاتي ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما يتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التعجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهم أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فان تلك الصلات أساس المجتمع ، وهي كذلك أصل الحياة ومنها تخرجت البنات والأمهات . وإنما المراد أن تقضي بالرياضات المقسولة على الترقق والطييش والاسراف في الشهوات . وملاك الأمر في هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ - ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء في الضعف . وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان ، ولا امرأة دحاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وإن طال الزمان .

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعا معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم في هذا المعنى فإنه خير ما قرأت في الأدب القديم والحديث :

”ولست أجد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجودا وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإن رأيت الناس ينطون في معنى هذه الكلمة — أعني الصلاح — غلطا بعيدا . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هي التي إذا ضُبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الخيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض للتأثر بالخالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يماشر أهل النقص وينثر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة . ويتعمد للشاهد المؤذية ، ويجب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكائنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء“^(١) .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرما بدروس المرأة، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته في البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتان فكان يطلعه على غوامض أمورهن : فأطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبهن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فإن تحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى التوايه . ولكن اسمع ما يقول في ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به عليا أني برئ الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الجبزة^(٢) . وإن أقسم بالله أجل الأقسام إنني ما حلت مئردى على فرج حرام قط ولا يحاسني ربي بكيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المأمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى^(٣) » .

(١) ص ١١٦ (٢) المجزة، بالفم، مفق الإزار، ومن السراويل موضع النكة . (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يحسد حرجا من الكتابة في الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يتهمون به بالميل إلى الإثم والفسق . فجاء يقسم بالله أنه يرى الساحة سليم الأديم .
حلفت فلم أترك لنفسك ريسة وليس وراء الله لروء مذهب

وقد يهزأ من أكافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته في درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس . ومن هنا استبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يتم بمثل هذه الأبحاث إلا الفاسقون . وكان ابن حزم من أئمة الاسلام : فلا يعقل في ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهذا الغلط يرجع إلى حقيقة ثابتة : فإن الفسق حجاب كثيف يحول دون فهم الحسن والعشق . وأكثر الناس لا يمتلكون الحب إلا موصولا بالفسق . وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحز مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته . فإن الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسرارها من يسومونه الهوان حين يطعمون في الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تتقضى في درسه أعمار الأئمة وعظماء الباحثين فإنه أشرف وأغنى ما في الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو أنصرف الباحثون إلى درس ما في وجوههم من دمامة ، وما في طباعهم من عوج ، وما في عقولهم من آثواء . إنما مثل الجمال كتل النور المشرق الوهاج لا يثبت في مواجهته إلا أصحاب العيون . فلا يحسب قوم أشأ ترتاب في عني بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدروس أسرار الجمال !

(١)

٦ - أبو منصور الثعالبي

١ - كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات في عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان في وقته راعي تلمات العلم ، وجامع أشات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الأيل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب ، طلوع النجم في الفياهب » .

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذي يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذي يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت قيمة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفي سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فراء قبل أن يظهر أدبه ويعلم بحجته ، ويعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك في عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالي ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ - كان الثعالبي شاعرا وكتابا ، وإن لم يكن شعره في الطبقة العالية . وقد يستجاد قوله في النسب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي وأمعنت نار شوقي في تلهبها
ولم أجد حيلة تبقى على رمقي قبلت عين رسولك إذ رآك بها

(١) كان مكان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبي آئین من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكنا لاحظنا أن له اتجاهاً قسماً تحريه من كتاب هذا الباب . (٢) ص ٢١٥ ج ١ وفیات -

أما ثره بغيره، يظلب عليه السجع ، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض . وانظر قوله في وصف عيد الله الميكال: « ومن أراد أن يسمع سر النظم، وبحر الثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده، وأقره على فكره، من ملح تمترج بأجزاء النفوس لتفاستها، وتشرب القلوب لسلامتها ... وآيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاعتباس من نوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار الجهد والسؤدد تنثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عبالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألقاطه، وآتبت فرائد الفوائد من ألقاطه، إلا تذكرت ما أشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بغير وزآباد ، إحدى قراء برستاق جوين ، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبل الفطر ! فانها كانت بطلته البدرية ، وعشرته العطرية ، وآدابه العلوية ، وألقاطه التلؤية ، مع جلاله إنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة ، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعياها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وعد المتقون . فاذا تذكرتها فى تلك المراجع التى هى مرايع النواظر، والمصانيع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الدياح الخسروانى، ونفى معها الوشى الصنعانى، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قلبه، وأزهار كلبه، تذكرت صحرا وحيا، وخيرا عيما، وإرتياحا مقيا، وروحا وريحانا ونعيا^(١).

٣ — أهمية التتالي من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس، وشبهوات القلوب، وزروات الرؤس، وثورات العقول . وإن كان يظهر من شيا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية، وعرف ما تزعأ به من بلايا الحب والبغض، والرغبة والاشفاق، والطمع والاختناق، وتمرس بأحوال الاقبال والادبار، والغنى والفقر، والتسمم والبؤس، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين، والهدى والضلال .

(١) (انظر مقدمة هذه الفتة) .

وإنما هــ كتاب شغل يتدوين الفنون الأدبية واللغوية ، فقدم لأهل عصره ولفظه العربية في مختلف الممالك وعمل اختلاف الأجيال غذاء قويا للمقول والمشاعر والأنواق ، ووضع أمام قرائه صورا مختلفة للقرائح والمبقرات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها ، أو قرأ آثارها ، حتى يمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يحيى أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين .

٤ - — للتعالي مؤلفات كثيرة . منها كتاب الكايات ، وضمه للكاية عما ينتهجن ذكره ، ويستفح نشره ، أو يستحيا من قسمته ، أو تطير منه ، بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى ، وتغنن القبح ، وتلطف الكثيف ، فيحصل بها المراد مع المدول عما ينبو عنه السمع ، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يسبق بتأليف مثله . وهذا إن صح كان دليلا على تفوقه في الابتكار . ولكن رأيت أحمد بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨٢٤ يذكّر في مقدّمة كتابه في الكايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يسبق إليه ، ولم يُراعَ من قبل عليه ، مع أن التعالي سبقه بنحو ثمانين سنة ، ألا يمكن أن يكون التعالي أيضا يدعى سبق أدعاء ؛ وأن المؤلفين من قبله قد نحووا ذلك المنحى في جمع أنواع التعريض والكايات ؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به ، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما أدعاء الجرجاني من الابتكار مع أنه مسبق .

كتاب الكايات كتاب جيد ممتع ، لا تمل معاودته ، ولا تنصرف النفس عن الرجوع إليه . وهو يمثل براعة العرب واقتنائهم في التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يستحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكايات المستملحة التي أودعها التعالي كتابه مع الاعتراف بأننا نخبرنا أقل ما فيه روعة ، إثارة للتحفظ والوقار .

حكى الصولي عن المكثي في حديث له قال : مهترت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنت فمت . قال : فقنا له : واقه ما سمنا بأحسن من هذه الكاية قط . فقال : واقه ما سممتا قبل وقى هذا وإنما ساقها اللفظ .^(١)

(١) ودعا السهر كاية عن النكاح وعن السكر .

وكتب الصاحب : إن سيدى أمتلى الأثمب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار
فكيف شاهد جريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف، أفى سعة أم ضيق ؟
(وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكااية عن أخذ العذرة ما قرأته في أخبار بشار بن برد حين قال له
يزيد بن منصور في دار المهدي : يا شيخ ما صناعتك ؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى الصاحب
أخذ منه قوله لأبي العلاء الأسدي وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا فقل لنا هل تُثقب الدرُّ
وله يقول أيضا :

قلبي على الجمرة يا أبا العلاء فهل فتحت الموضع المفضلا
وهل فككت الكيس عن ختمه وهل ككت الناظر الأحوال
ولابن العميد في هذا المعنى :

أتم أبا حسن صباحا وأزدد بزوجتك آرتياحا
قد رُضت طرفك خاليا فهل آستنتك له جماحا
وطرقت منطلقا فهل سنى الإله له أنفتاحا

وأنشد أبو الفضل الميكال لنفسه في مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصدف وهل إذ رميت أصبت الهدف
وهل جيت ليلا بلا حشمة لهول السرى سُدفا في سُدف

قال الثعالبي : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس لمخصوم حتى ينال من الطعام
والشراب ولم بأهله احتياطا على دينه وتنفقا بالجلال عما عساه لتوق نفسه اليه من الحرام
إذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى
فصلا في هذا المعنى يعينه من كتاب عهد سلطاني لبعض الفضاة تجبت من حسن عبارته ،
ولطف كاايته ، وهو :

(ر) العذرة : الكثرة .

”وأمره أن يجلس في الصوم وقد نال من الطعام والمشرب طرفاً يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به إلى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئلا يعلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيجعلان عن رشد، ويحولان بينه وبين سعادته“^(١).

٥ - ومن مؤلفات الثعالبي « كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » وهو كتاب بناء على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يتخلل بها ، ويكثر في النظم والنثر وعلى ألسن الخاصة والعامة استعمالها ، كقولهم غراب نوح ، ونار إبراهيم ، وذئب يوسف ، وعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وحمار عزيز ، وكقولهم كثر النطف ، وقوس حاجب ، وقرطاً مارية ، وصحيفة التماس ، وحديث خرافة ، ومواعيد عرقوب ، وجزاء سمّار ، ويوم عبيد ، وعطر منثم ، ونسر لقمان ، الخ .

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية . ولغة الثعالبي فيه تمتاز عن لنته في سائر كتبه بالخلو من السجع ، والجري على السجية السمحة بلا تعسر ولا التواء . وقد جمع الثعالبي في كتابه هذا أكثر ما عرف لمهده من الطرف والنادر والفكاهات والأقاصيص . وهو يصور علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير . ولهذا الملاحظة قيمتها ، فليس كل ما في كتاب ثمار القلوب حقائق ثابتة ، وإنما هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التي قبلها معاصروه ، وعدوها من العلم الصحيح .

فن أغلاطه الكلام عن ثمانين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ : الثمانين لا تكون إلا بمصر والبا حوّل الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام . قال ثعالب : (قالني موسى عصاه فإذا هي ثمان ميين) ، يعني أنه حولها ثعباناً . والثعبان عجيب الشأن في إهلاك بني آدم ، فليس له عدو إلا الثمس وهي إحدى عجائب الدنيا ، وذلك أنها دوية متحركة ، فإذا رأت الثعبان دنت منه فيتناوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحتبس في بطنها ريثما ،

(١) أنظر ص ١١ و ١٢ و ١٣ (٢) طبعه للمرحوم محمد بك أيرشادي سنة ١٣٢٦ هـ .

وتزفر زفرة فتقتد الثعبان قطعتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أنفع لأهلها من القناخذ لأهل محبستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة في مصر وفي غير مصر . وليس للثعابين في مصر كل هذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وإن كان في فطرة الأهالي عداوة الثعبان ومهاجرته حيث وجدوه ، وهى فطرة الناس في جميع البلاد .

وقد عرض الثعالب لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين في النقش والتصوير إذ قال : «وأهل الصين غثصون بصناعة اليد والحلق في عمل الطُرف ، يقولون : أهل الدنيا ما عدا أنا عُنى ، إلا أهل بابل ، فأنهم عُور . ولهم الإغراب في نحرط التماثيل ، والابداع في عمل النقوش والتصوير ، حتى أن مصوِّرم يصوِّر الانسان ولا ينادر منه شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوِّره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك التجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيصوِّر صورة في صورة^(١) .

وهذا الذى يراه الثعالب غربيا من أهل الصين عادى لا غرابة فيه عند الأمم التى تُتقى بالتصوير ، ولكن عذر الثعالب وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا مما يحارب به رجال الدين ، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات في نمار القلوب أنها ترينا فهم العرب لكثير من الطباع الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخلال) فإن العرب تقول : عرق الخلال لا ينم . يريدون أن عرق الخلال أتزع من عرق العم . قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر وأنها على الشبه أظب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشرين من يمينك وعشرين شمالك وعشرين خلفك وعشرين أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك في الابل

والبقر والشياه . وهم يملئون ذلك بأن الولد لا يتخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطئة أو البصقة ثم يتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضرا ، والأم منها الرحم وهو القالب الذي يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب في القالب . فاذا وقع ماء الرجل وماء المرأة في القالب وفي قرار الرحم فامتزجا تشمب خلق الولد على قدر تشمب الرحم ، ثم لا ينتضى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا ينجب إلا من الأجزاء التي فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام في جوفها . فاذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطباء في أن اللبن دم استحال عند خروجه ، فهي تنفذه بلبنها مرتين ، وتزيد في خلقه من أجزائها دفعتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال .

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم في بعض تفاصيله ، ولكنه في جملة يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد تفنى الشعراء في الجاهلية وفي صدر الإسلام بفضل الخلال وعدوه من جملة الآباء .

٧ — وفي ثمار القلوب إشارة إلى كتيبٍ للثعالبي اسمه (حشو اللوزينج) يبين غرامه بتصيد دقائق الأساليب . وحشو اللوزينج يضرب مثلا للشيء يكون حشوه أجود من قشره . وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبه به الحشو في الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر في كلام العرب ، ومن أشهره قول عوف بن محم :

إن الثمانين وبلغتْها قد أوججت سمى إلى ترجان

فقلوه (وبلغتْها) حشو مستغنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن من جملة . قال الثعالبي : سمعت أبا الفرج يعقوب بن إبراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوما على أبي الفضل بن العميد فقال لي : إمض إلى أبي الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلغتْها) ثانيا في كون الحشو أحسن من المحشو ؟ قال : فسرت إليه وبلغته الرسالة فقال : سألتني عنه محمد بن علي بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

فقال سألت عنه ثعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدوى بن زيد لابنه زيد بن عدوى في حبس النيمان :

فلو كنت الأسير - ولا تكنه ! - . . . اذنت علمت مَعْدُ ما أقولُ

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنه في الحسن نظير (وبلغتها) .

واستطرد الثعالبي فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليعلى بن أكرم : هل تنديد اليوم؟ فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين ! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها ! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين ، لكان أشبه بالدهاء عليه لاله ، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاضرة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرا من وقوع التشبه . وكان صاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في حدود المرد الملاح .

وعناية الثعالبي بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب وامتخ الدلالة على شغفه بأسرار البيان ، لا سيما وقد أطال التنقيب عن دقائق التمايز التي وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالي وأنطوارزي ويدعي الزمان .

٨ - وفي ثمار القلوب تفسير رواي لبعض الأمثال ، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للداهية . وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسقى وبهتة تلقاء وجهه فنظر فإذا رجل قد غارق امرأته يقبلها ، فأخذ العصا وأقبل مضربا ، فلما رآته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع ، فنظريئة وبسرة فلم ير شيئا ، فنظر في الأرض فلم يصر أحدا ، فكذب بصره وكر راجعا . فلما كان الورد الثاني قالت المرأة : هل لك في أن أكفيك السقي وتسورع اليوم؟ قال : نعم إن شئت . فأقام في البيت ، وانطلقت تسعى ، وتحينت منه غفلة ، فأخذت العصا وأقبلت حتى طلت بها رأسه ، فقال : ويلك ! ما دحك؟ قالت : أين المرأة التي رأيتك معها معاظما لها ؟ فقال : والله ما كان عندي امرأة ! قالت : بل أنا . نظرت إليها بعيني وأنا على الماء . تخمألما . فلما أكثرت قال : إن تكوني صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق .

وفي كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأفاصيص . وهي فكاهات اخترعها الكتاب تفسيراً للأمثال التي جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوها في الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبي "بَيْتَةُ الدَّهْرِ" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من طاصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر في تحريره والإضافة إليه عدة سنين ، فكان يبنى فيه وينقص ، ويحج ويثبت . وصار مثله فيه كمثل من يتأنق في بناء داره التي هي عيشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقص أركانها ، ويبعد بنيانها ، ويستجدها على أنحاء عدة وهيآت مختلفة ، فإن مات فيها مغبوراً له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :

القسم الأول في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثاني في محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونواديرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .

والقسم الثالث في محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وخراسان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والفزنية والطائرين على الحضرة ببخارى من الأفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والغرباء الطائرين عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبي في البيعة يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا في أحوال قليلة ، ولكن مجمعه على كل

حال مقبول .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فلذا بدا له أن يصل ويحلل وينقد
فصل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تحليله قوله في تفضيل شعراء الشام وما يقارنها على
شعراء سائر البلدان .

”والسبب في تميز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريتهم من خطط العرب ،
ولأسيما أهل الحجاز ، وبمدحهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الغياد العارض لألسنة
أهل العراق بماورة الفرس والبط ومداختهم أيامهم“^(١) .

وفي بعض الأحيان يطيل في ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يمرض
لمن أكثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل ، كالمتنبي والمصاحب وأبي فراس .
وفيا هذا ذلك يلم المصاحف قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر في نصف صفحة .
وذلك جانب من الضعف في ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالي في النيمة مفتون بالاسراف في إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير
الرجال . وله في ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو علي الزوزني
الكاتب ”ينرس النر في أرض القواطيس ، وينشر عليه أجنحة الطولويس“^(٢) .
وأبو الفرج البيهقي ”ظرف الظرف ، وينوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من
الياقوت بل حب الغلم“^(٣) .

وأبو القاسم الاسكافي ”لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدتها وأوحدتها في الكتابة والبلاغة
ومن لم يخرج مثله في البراعة والصناعة“^(٤) .

وبديع الزمان ”نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء
القرينة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء النحن ، وقوة النفس“^(٥) .
وعبد الرحمن الشيرازي ”روضة مجد وشرف ، وسديقة فضل وأدب“^(٦) .

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٤ (٣) ص ١٧٣ ج ١ (٤) ص ٢٩ ج ٤
(٥) ص ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٢

١٢ - ومع أن التعالي يميل إلى البطئنة في التعريف بالكاتب والشعراء فإنه لا يلتزم هذه الخطة وإنما يعود إليها في الحين بعد الحين، ويطلب على ظني أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدة لتنميق الإنشاء، وإذا ذلك لا يكون مشغولاً بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وإنما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف في فنون الكلام، فتارة يقول في ابن نباته السعدي "من لحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور عبيدهم وأفرادهم، الذين أخذوا برفاق القوافي، وملكوا رق المعاني، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممر النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرماض غب القطر، وفقر كالفني بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأصحار وشكوى الأحباب"^(١).

وحينا يقول في محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، ويؤلف بين أشنات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفى أقسام الحسن، وتركز الورد، ونظم كنظم الدر"^(٢).

وآنا يقول في المتنبي "نادرة الفلك، واسطة عقد الدهر، في صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بضبعه، ورفع من قدره، ونطق شعر شعره، وألقى عليه شمع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشد، والأيام تحفظه"^(٣).

١٣ - ولنفيد هنا أن التعالي كثير الاستغلال لألفاظ معاصره، فهو لا يملك كل ما في ثره من الاستعارات والتشبيهات. وله عذره في ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى لم يكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق إليه من حيث لا يحتسب، وأن كلاً لا نبره من قصد المروعة ونية الاتهاب^(٤).

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) أنظر مقدمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب.

١٤ - وأخيرا نذكر أن من أقتل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يتدر أن يذكر مؤلفه في أى عام مات من يحتشأ عنه، وفي أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبي عني بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ - ومن أهم مؤلفات الثعالبي كتاب "فقه اللغة" وهو كتاب جيد في ثلاثين بابا رتبت فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة في جملته من صنع الثعالبي، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والخوازمي وأبي الحسن الجرجاني، وابن الأعرابي . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التي نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا في كتابه . وهو يذكر في الفصول التي ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصيح أكثرها أو قارب الصحة .^(١) وقد يجد مؤلفا وضع في تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه ما يراه أصح لكتابته .^(٢) وفي الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية .^(٣)

وبلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر في موضوعه، وأنه خال من الشواهد، بحيث يظن أن المؤلف حكم فيه هواه، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التي رعى الى تحديدها في كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة، وكان متعة لا تملها النفس، وأساسا لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير.^(٤)

ونحن - بعد ما وجهناه من النقد الى الثعالبي - نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرا كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق، وهو لذلك عميق الأثر في نشر ما عرف لهذه من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ - ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .

البَابُ السَّادِسُ

كِتَابُ الرِّسَالَةِ وَالْعُمُومَةِ

١ - أبو الفضل بن العميد

١ - أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع، وأعرف الوزراء لعهد سياسة الملك، وبنية المجد، وكان معاصروه يسمونه "المحافظ الثاني" لتوسعه في العلوم العقلية والتقليدية، وأطلعه على ما دون الأقدمون في الأدب واللغة والفلسفة والتشريع. وما أحسب سموه بالمحافظ الثاني في الكتابة، لأنه أكتب من المحافظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ.

٢ - وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبي الفضل بن العميد : فتحدثت عنه الثعالبي^(١) وياقوت^(٢) وابن خلكان^(٣) بنى من التفصيل، وعرض له التوحيدي في غير موضع، ولكن أجل ما قرأنا في ترجمته هو الفصل المنع الذي عقده للكلام عنه أبو علي بن مسكويه في كتاب (تجارب الأمم) بعد أن لازمه ليل نهار في محبة دامت سبع سنين.

٣ - كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره، وأحفظهم للغة والغريب، وأكثرهم توسعاً في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار، وأفندهم سهما في الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والآليات.

ولا يحسن القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا. فقد كان ابن العميد خصب النعم جداً، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل في الدرس والتحصيل وتدير الأمور، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة من عرفوا بسعة العلم ودقة البحث، وإنهم ليدكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) بنية النهر ص ٢ - ٢٥ ج ٣ (٢) في مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب).

(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٦٦ (٤) ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٨٢

للملاحظ على أن بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده في بعض الأيام وقد ترع نسله فأخذه كلب في الدار وأبعد عن موضعه، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره، وطلبه فلم يجده، فرأى ابن العميد أن يقيم إليه نمل نفسه؛ فعَدَّ ناس ذلك إسرافاً من ابن العميد، فلما بلغته هذه المأخذة قال: كيف أُلَام على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتاً من (الطبايع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها حتى ينتهي إليه. ولقد كنت وغيري تهم أبا عثمان بالمحافظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه ... ألما يستحق من هذه الصفة صفة هذه الكرامة اليسيرة في جنب هذه الفضيلة الكبيرة^(١)؟

ولهذا انلخر قيمته الأدبية فضلاً عن قيمته الخلقية، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وبره بالعلماء، ولكنه من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع في كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف.

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذي يقدر بالمكيال، بل كانت في غاية من الدقة ولطف الجوهر: فقد حدثنا صاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز قد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" إلى أن قال: "وسمعت — أيده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر، ويبدأ النسيج، لأن حق الشاعر أن يتأمل النرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استقراراً ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراد"^(٢).

وهذا كما يرى القارئ فهم دقيق، وسمو بالتقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعاني والألفاظ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تنصل بوزنه وقافيته ولفظه ومعناه

(٢) أنظر رسالة صاحب بن عباد عن المعنى ص ٨

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٠٠٩

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنده القوافي والأوزان باختلاف المعاني والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية، ولكنني وقفت عنده طويلاً : فقد ذكر يوماً أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادني في قد الشعر ما لم يكن عندي : وذلك أنه جاءني يوماً باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل في مرتضى الشعر فأعجب من إيرادها لها واختياره لها فأسأله عنها فقال : لم يقل في معناها غيرها فاختارها لانفرادها في بابها^(١) .
فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة في تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك في طباع الناس ، فكان "قليل الكلام" ، زرع الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه : فانه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متضرة ، ومعان دقيقة ، لا يجيب فيها ولا يتلثم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، وزهاده نفسه ، إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه^(٢) .
وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس في صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعاني السلبية ، بل تعداه إلى الجراءة الفاهرة والإقدام الغلاب "فأنا حضر المعارك وبارز الحروب فأنا هو أسد في الشجاعة لا يصطل بنازه ، ولا يدخل في غباره ، ولا يناوئه قرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحضور رأي ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة السالك والجوش ، ومكابدة الحروب" وكان إلى هذه الخلال حسن التدبير إلى حد الإعجاز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم غلبهم الجند على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعباً للفتن والدسائس وميداناً للفضوى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة استقام الأمر ،

(١) معجم الأدباء ، ج ٥ ص ١٠

(٢) رابع تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور ويضبط الأعمال "ويوسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف الى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترخى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ - وكان ابن العميد من الوزراء المدحجين، قصده الشعراء من كل صوب ، وساقوا اليه جياذ المدائح، ولتني فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشر هنا إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالرى وأتمدحه بقصيدته التي أولها^(١) :

برح أشتياق وإدكار	وليب أنفاس حرار
ومدامع عبراتها	ترفض عن نوم مطار
لله قلبي ما يحزن	من الموموم وما يوارى
لقد أهضى مكر الشبا	ب وما أهضى وصب الخمار
وكبرت عن وصل الصفا	ر وما سلوت عن الصغار
سقى تغليبي إلى	باب الرصافة وإبتكارى
أيام أخطر في الصبا	نشوان مسحوب الإزار
حجى الى حجر الصرا	ة وفي حدائقها اغتارى
ومواطن اللذات أوطأ	في ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلد	سوى معاقرة العقار
أحيا بالخان قمر	تُ بين ألحان القمارى
وإذا استهل ابن العميد	تضاءلت ديم القطار
نرق صفت أخلاقه	صفوا السبك من النضار
فكانما زفت موا	هبه بأمواج البحار

وكان نشر حديثه نشر الخزاي والبرار
وكانت مما تشرق راحتاه في تار
كلُّ بحفظ السر تحسب صدره ليل السرار
إن الكبار من الأمور تسال بالمعم الكبار
وإلى أبي الفضل اتبعُ هو اجس النفس السواري

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقعة حاله التي ورد عليها الى بابة فتوصل الى أن ادخل عليه يوم خميس وهو في مجلس حافل بأعيان الدولة وتمتدّى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار اليه بيده وقال :

”أيها الرئيس ! اني لزمك لزوم الظل ، وذلك لك ذل النعل ، وأكلت النوى المحرق انتظارا لصلتك ، والله ما بي من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء : وهم قوم نصحنو فأغششتهم ، وصدقوني فاتهمهم ، فباى وجه ألقاهم ، وباى حجة أقاومهم ، ولم أحصل من مديح بعد مديح ، ومن تريم بعد نظم ، إلا على ندم مؤلم ، وبأس مسقم . فان كان للتباج علامة فاين هي وما هي ؟ إلا أن الذين تحمدهم على ما مدحوا به كانوا من طيبتك ، وأن الذين هجوا كانوا مثلك ، فزاحم بمناجك أعظمهم شأنا ، وأتورهم شعانا ، وأمدحهم باعا ، وأشرفهم بقاعا “ .

فأرشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستراحة ، وعن الإطالة مني في المفترة ، وإذا تواهنا ما دفعنا اليه استأفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه فتنة مصدور منذ زمان ، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر . والغنى اذا مطل لثيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خالق الله تعالى ؟ ... ولست ولى نسة فأحتملك ، ولا صليحي فأهني عليك ، وإن بعض ما أقررت في مسامي ينقص مرة الحليم ، ويبدد شغل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكباب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك
تقرىظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكباب، ولا استدعيتنى برسول،
ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقرىظك، ولكن جئست فى صدر ديوانك بأبيك، وقلت
لا يخاطبني أحد إلا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة،
وزعيم الأولياء والحضرة، والقيم بمصالح المملكة، فكأنك دعوتنى بلسان الحال، ولم تدعنى
بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضبا وأسرع فى محض داره الى أن دخل حجراته، وتقوض المجلس،
وماعج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى محض الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشى
على الجراهمون من هذا ! فلن الله الأدب إذا كان بألمه مهتلا له، ومشتريه مما كسا فيه !
فلما سكن غيظ ابن العميد وقاب إليه حلمه آتمسه من القدر ليمتد إليه وزيل آثار
ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد
الى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه
وهو ابن خلكان عاده قد ثبنا انه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسويين الى غير
ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفيه هذه القصيدة وانه وجدها فى (مثالب
الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرزاق بن الحسن البغدادي وهذه المخاطبة
لشاعر من أهل الكرخ .

ويحس نأسفٍ مر الأسف على أن لم يتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين)
ونحن نأسى أن يكون ضاع أبد الأبدى، مع أنه كان موجودا بالآستانه منذ ثلاثين عاما،
ولو أتبع لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستعلمنا نمطه ابن خلكان، فاننا نجزم جزما قاطعا
بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفا من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن السبب لم يصح بطريقة

علمية ، فانا نعرف التوحيدى معرفة قوية لطول ما صاحبهنا وطاشرناه ، ولو ألتيت جملة من كلامه فى أ كداس من الأوراق لميزناها لأؤل نظرة . فليكن الشاعر من يكون ، وليكن الخطاب من يكون ، فان واضح المجلس هو التوحيدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميد لا على غيره ، لأن هذه الحفيظة من التوحيدى ما كانت لتور فى هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثله وتجريعه حيناً من الزمان .

٧ - وكان لأبن العميد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فأهتم بتأديبه وأحضره كبار الأساتذة ، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقافته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرض عليه بضمهم أنه أشتغل ليلة بما يشغل به الأحداث من عقد مجلس مسرة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه ، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شراباً فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشوم ، فدىس أبن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فلذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

” قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدي ومولاي رقدة من عين الدهر ، واشتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابي فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينا النظام ، باهداء المدام ، عدنا كبنات نكس والسلام “^(١) .

فاستطير أبن العميد فرحاً بهذه الرقعة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعته ، ووقفت بحرية فى طريق ، ونيابته منابى . ووقع له بالكى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلاً ، لأن ذلك الوليد أخذ يعم فى أسباب الزهو والخيلاء فكان يحمل رؤساء الجند وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقالة ليساموا له الرئاسة . ” حتى لا يأنف أحد من تقبيل الأرض بين يديه والمشي قدامه إذا ركب ، مما لا يؤثرو

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يظله وينهاه عن هذه السيرة ، ويصله أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه « .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يطرهم ولا يخرجهم إلى الحساد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أو سطهم حالا ، وإن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يتمتعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الفرة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت^(١) » .

ولكن تلك المظالم لم تكن شيئا في تقويم ذلك الفتى ، فكان أبوه يأخذه معه في أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا في تمييز ركن الدولة على وزيره . واتفق أن خرج أبو الفضل في إحدى سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريق — وكان يركب الماريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط حيلة القوس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير في موكبه أحدا ، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمسارته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح إلى الصيد . قال ابن مسكويه : « فاستشاط من ذلك وساءه أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو في وجه حرب ، ولم يأمن أن يستمر هذا القشت من المصكر فتم عليه حيلة . فدعا أكبر حجابيه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصي التقباء بمنع الديلم من مسارته ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيخضع منه وينهى المسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى إلى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه إلى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يظلمهم من الخلع والالطاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا ، ولم يحب أن يفرق هبة نفسه بإظهار ما في قلبه ، ولا أن يبالغ في الانكار وهو في مثل ذلك الوجه فيفسد عسكرو ويطمع فيه عدوه ، فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك إلى زيادة في مرضه حتى هلك

بهذان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعني ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلتني إلا جرع الفيظ التي تجرعتها مني^(١) .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والقرص يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا في بستان يأكل خبزا يبصل ولبن وقد أمتع فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكارا أكل ما أشتى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تحارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣٠

٢ - نثر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"^(١) وهي مبالغته تذكر بما قيل في ذلك العهد : "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بأمرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه وتلك من المبالغات التي تجري على ألسنة المترلفين من الحواشي والأنتباع ، فقد كان لابن العميد أشياء يقولون بإمامته في النثر كما كان لأبي فراس أشياء يقولون بإمامته في الشعر . وكلنا الكلتيين على ما فيها من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفاضل الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يمزج على من رأمه ويطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، ولكننا لا ننكر أن عبد الحميد كان إماماً لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب وتعايير وتقاليده لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماماً لكاتب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هي إعزاز القلم ورفعته الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظيمة عقلية يجر لها الجبايرة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالع بفته ، كما كان يفعل معاصروه ، وإنما يطالع بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً براقة يلهو به ولا ثروة لغوية يكثر بها الكتاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الملاك ، وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل ، وهو في رفته وجزالته ، وغضبه وحنانه ، عبقرى لا يعبث برجع الحديث المعاد ، وإنما يمتد بأبداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ - لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن شرف فكرة قريبة من الصواب . وثمة باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين في شرف لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابئ مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن ملكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصا إخلاصا قويا يحول مشاكل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى مضلات شخصية تنور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولنتنظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

”كتابي وأنا مترج بين طمع فيك ، وأمس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بمحدث غلول وخيانة ، وتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويحقق كل ما يرى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل طبعك ، أقدم رجلا لصدمك ، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأخفى ثانية لاستبقاتك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يشوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو “ .

وفي هذه المقدمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي وبقفه موقف المتردد بين يومه وأمه ، وحاضره وماضيه ، ثم يمرض عليه وجوه حاله في الطاعة والعصيان فيقول :

”وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطرها ، فغشدتك الله إلا ما صدقني عما سألتك : كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم طيل ، وريح بيليل ، وغذاء غذي ، وماء روي ، ومهاد وطى ، وكفن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد النلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعصرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ فقيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما صدقت ، واتخلف بما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفست منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظلل ذو ثلاث شمع ، لا ظليل ولا يننى من اللمب ؟ قل نعم كذلك !“.

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلبه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : ”أأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، وألصق جسدك وأنظر هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ وقشش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك أن تنظر بفوت مريح ، أو موت مريح^(١) ؟“ .

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك المهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طلائع السيوف . وهذا في الواقع متابعة موقفة لذلك العرف الذي سته كتاب الدولة الأموية وأقره كتاب الدولة العباسية ، وهو أسلوب في الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، هي قصائد متنوعة في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحملت اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تحول في قلبه الى عشق ، لأنه في عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس عن روح الصديق . وهو في عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يشور فيها ثورة جارية فيرى بإخاء من يعاتب في حجم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والهباء :

”وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفناء الزمان في ابتدائك ، وتصفحى حالات الدهر في اختيارك ، وبعد تضييع ما غرسته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا ، وجوا غديا ، وماء رويا ، لم يرح زكاؤه ، ولم يمر ماؤه ، ولم تنفتح أزهاره ولم تهن ثماره ، ولت شعري كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل على ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان ، وهى مازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، وما وصلتنا حال جمعتنا على اتسلاف ، وحمنا من اختلاف ، ونحن في طرفى ضدين ، وبين أمرين متباعدين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد والنجاد ، وأبعد مما بين اليباض والسواد ، وأيسر ما بيننا من التفار ، وأقل ما بيننا من التضار ، أكثر مما بين الليل والنهار ، والإعلان والإصرار“ .

وهذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهم القارئ أن هذه العبارات الجافية تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق : هيئات ! فنحن نعرف ما تشير اليه أمثال هذه الثورات : فان المرة لا ينضب مثل هذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا زاه يعاتبه في الرسالة نفسها معاتبه المغلوب فيقول :

”ولو بقيت من الصبر بقية لسلوت ، ولو وجدت في أثناء وجدى غرجا يظله تجلبد لأمسكت ، قديما ليست الصديق على علاه ، وصفحت له عن هتاه ، ولكنى مغلوب على العزاء

ماخوذ على عاداتي في الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتال جفاء، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حالي بفعله هباء، وتولى على قبح فعلك في هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الوري وأفيض على البشر لا مثلاً ل صدورهم ... انخ^(١) .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبري هذا، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيراً أن يتوهم أنه تمزى عنه فكتب اليه في جواب خطاب:

”وصل كتابك فصادفني قريب المهدي بإطلاق، من عنت الفراق، ووافقني مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكة المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعنتني من غثائك عقلاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب دركاً ولا استثناء؛ ونزع من عني ربيعة الذل في إخالك، بيدي جفائك، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلهب في صدرى من الوجد ماء الياس ، ومسح أشتار قلبي فلا تم فطورى بجمل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغفلت في مسالك أنفاسي ففوض عن النزاع اليك زووما عنك ، ومن النهاب فيك رجوما دونك ، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصري ، ورفع عني غيايات ما سدله الشك دون نظري ، حتى حذر النساب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك ، فلم أجد إلا منكراً، ولم ألق إلا مستنكراً ، فوليت منها فراراً وملكت رعباً . فأذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ، ورددت إليك ذم عهدك^(٢) !“ .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمهها على جدث الود المفقود ؟ إن الناقد ليرى ابن العميد أقتبس أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفاً كيف اتصلت هذه المعاني بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسلّة قلبه وكأنها فيض الفطرة وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيها من آثار الاقتباس .

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقي حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التعالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذني نبذ النواة، وطرحني طرح القذاة، ولم تفلظني من فيك، وتجنني من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرنى ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تعجبكم مكتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن غاطبة . وأحسب كتابي سيرد عليك فتذكره حتى تثبت، ولا تجمع بين اسم كتابه وتصوّر شخصه حتى تُنذرك، فقد صرت عندك من عا النسيان صورته من صدرك، وأسمه من صحيفه حفظك . ولساك أيضا تتحجب من طمعي فيك وقد توليت، وأستأثني لك وقد تأيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أفسى منك قلبا فيعود الى الوصال . وآخر ما أقوله أن ودي وقفُّ عليك، وحسب في سبيلك، ومتى عدت إليه وجدته غضا طريا، يفرّبه في المعاودة فإنه في المود أحمد“^(١) .

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الفضة في صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فلوزراء كسائر الناس جوانب وجدانية تلقى على حياتهم ظللا من الرقيق والحنان، خصوصا إذا تمذكنا أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع في الكتابة من المؤهلات الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — وما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبري كتاب نصيح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتيا بعد أن اتصل بالملك والرؤساء . والطبري

هذا هو صديقه الذى حدثاك آنفا عن معانيه إياه فى قطعات وجدانية تم عن ودقيق ،
وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتوزع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

”وأركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الإثارة والإفلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تقضى من قريب . ولكن كلامك جوابا تحترز فيه من الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفرك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لما فانها عطفة للجاه ، فان اضطرت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فان وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ماني نفسك غير محقق ، ولا توهم أن عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، ولكن انطلق وجهك إذا دُفعت من حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك ^(١) .

وهذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسه الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من مجازجة الطبع ، وموافقة الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علامة يؤهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ود ذلك الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

” لكن ما بقى أن يصغولى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرى مع خلوى منك ، ويسوغ لي مطعم أو مشرب مع افرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم لشملى أنسى ، وقد علمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام ^(٢) ؟ “

٧ — وما أمتاز به ابن العميد لإجادة الرسائل الاخوانية ، وهو فن برع فيه كتاب القرن الرابع وصيروه ستة مجرى عليها الأصفياء والألأف . وقد تأملت فرايت معانى ابن العميد صارت

وردا سائفا لمعاصريه كالميكال واليفا و بديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفي أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نحب نحيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنَى مزارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

حتى رأينا ممتلا أوضع تمثيل في قول ابن العميد :

”قد قرب — أيدك الله — علك على تراخيه ، وتصاقب مستترك على تنائيه ، لأن الشوق يملك ، والد كرخيلك ، فنحن في الظاهر على أقرار ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعافت الأرواح^(١) . وهو معنى جيد آتبه اليفا في إحدى رسائله الاخوانية^(٢) .

ولا يقف ابن العميد في ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأق في وصف كتبهم اليه فيقرظها في حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

”وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتمهيدك ، فأرتمت لكل ما أوليت ، وأبهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل الى نظائره التي وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فلكني العجب به ، ويهزني العجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : في تشبيهه بمستحسن من زهر جنى ، وحلل وحلى ، وشذور القرائد ، في نحور الخرائد :

والمذاوى غنون في الحلال البيض وقد رحن في الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلاً ، ولا أرضى ما عدته له مثلاً ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخيلك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيك لبيهم ، ورب مع إحسانك إليهم^(٣)”

(١) زمر الأداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأضي ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُطَبَّ على أمره فيختم خطابه بكلمة تعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة
لإعزازة للكاتب، كقوله في خاتمة خطاب :

”وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداك — فأملت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل
تصرفك في لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك
مدوح في ضميري وعقدي ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فإن كان
كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري^(١)“ .

هذا ولابن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله
الإخوانية أوثق اتصال، وله في التهانى رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر شعر قوية
محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع وإطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان ،
وما تحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) زمر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ - أبو حفص به برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفنى في القرن الرابع، توفي بسرقة سنة ٤١٨ هـ كما في النخبة^(١) وإرشاد الأريب^(٢)، لاسنة ٤٢٨ هـ وقع خطأ في كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب في الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء في الأيام العاصرية .

٢ - ولم نجد على كثرة البحث ما يعين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التي لا تحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان "كاتباً بليفاً"^(٣) وذكر ابن بسام أنه كان في زمانه "واسطة السلك، وقطب رضى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العمى إبداعا وإحساناً"^(٤) وذكر صاحب المطمع أنه "غذى بالأدب، وعلا إلى اسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بلغ القلم واللسان" وأنه "مليح الكتابة، فصيح الخطابة"^(٥) ونفر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب إليه فقال :

من شاء خُبري فأنا ابن برد	حد حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى	من نظم الأنماط نظم العقد ^(٦)
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدى الأسد

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد في آنفس من قراء له، وكتبوا عنه، ولكنها لا تعين متناه في مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩

(٥) أنظر فتح اللب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) النخبة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجموا لأبن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن
 بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب عن فضائله ،
 وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر^(١)
 وابن برد الأصغر . فانا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم إلى ابن برد الأكبر ،
 وينسبها ياقوت إلى ابن برد الأصغر - والأبيات الآتية :

لما بنا في لازور دى الحرير وقد بهر

كبرت من فرط الجبا ل وقلت ما هذا بشر

فأجابني لا تحكرن ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح إلى ابن برد الأكبر^(٢) . ونسبها ياقوت إلى ابن برد الأصغر^(٣) .

٤ - تولى ابن برد رئاسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكني ، وكتب
 كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتولييه رئاسة ديوان الإنشاء أثر قوي في حرصه على أدوات
 الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم
 كتابا خاصة فيما يجب أن يراعى الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "رسالة العذراء" وأنا
 لنجد ابن برد يكتب عن المظفر بن أبي طاهر رقعة وجهها إلى القواد والكاتب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يمتري عليه بعض خدمتنا من نبد عهودنا . ولا أحسب الذي
 غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت محبة غالبية ،
 وخليفة لازمة ، قرب شيع تحت غيل النمل ، وكتم غصص في شتى الغذاء ، ومن شرق في نير
 الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبخ باستكتاب الجهلة ممن قلت معرفته ،
 وأنضمت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنته ، ويميز
 الرق فيحسن اختياره ، وعززه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الفخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع فتح الغلب ص ٢٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢

(٤) فتح الغلب ص ٢٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والمال، من كان منهم كاتباً فيكتب بيده، ومن لم يكتب فيخط كاتب معروف بالخط عنه، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة بالخطوط، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد إليه كتاب اعتراض عمل في رق ردىء، أو خط فيه لحن، أو كتاب على بشر في عدد، أو رسم مالم يخفف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بمقوبة العزل^(١) .

ولم يكتب بذلك، بل مضى يقول :

”وإن قوما منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في دنى الرقوق، رقة من همهم ودناءة في اختيارهم، وجهلاً بأن الخط جاء الكتاب، وسلك الكلام : به ينظم متوره وتفصل شذوره، ونبله من نبل صاحبه، وهجته لاحقة بكتابه، إلى ما أقرّفوه من المصيان، وأقدموا عليه من خلاف السلطان، وأنا أعطى الله عهداً لئن ارتفع إلى بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة واتتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو ممداد أو خط لأقرب لصاحبه بما قدّم إليه من الوعيد“^(٢) .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

هـ - وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصوّر ما كان من التزاع بين العرب والبربر في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين المتصرّين من الالتقن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسى ، ولما كذلك تقع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون «المبيد» أحياناً في لغة ابن برد، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأننا لا نعرف عصبة ناوأت العرب في الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدّة رسائل الى من سماهم ابن بسام ”جماعة المبيد“ جاء في إحداها :

” ولم تزل الأئمة مقبلة على موالها مختصة لسيدها تقدمهم في الثقة، وتحزبهم بالمودة، وتعتمد حوادث الأمور، وتحذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسما ذكركم، ونسبوا إلى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم ... وقد أفضى الأمر إليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخلقكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لحنه، ومولى القوم منهم، ملمون من أنتهى لغير أبيه، أو ادعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام . وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يميزو أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتصحبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من مواليسهم، فإن قمتم حالا فزقت الشمل، أو لقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التي يعق فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالك من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم . وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار : لا تؤثر عليكم، ولا تنق إلا بكم، فإن يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين آبي آدم فن بعدهما من ذريته فقد آن أن توب الخلووم : فتعود السيوف في أعينها، والنبال في كائنها . ونحن نعهد الله أن لا تؤاخذ أحدا بذنب، ولا تناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نغفو ونصفح ^(١) .“

ونجد في رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر إلى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مدامات إلا بطبقته، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يثني عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقته لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم في الدين وأستقدمهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطفتهم وتوه بهم بالتصرف في الخدمة، إلى أن يقول :

”وأقسمت على أن من حسنه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأني لكم ذلك ؟ وإنما أتم مدبرون مسوسون، وأتباع مربوبون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى ظنكم عن عبد ثرب على مولاة فأطلع، أو سمعتم بمجد شغب على مدبريه فأنتجح، وأفقه تعالى ودينه وخلائفه في غنى عن عند عليه وحاقه، وأنجر في الاسلام وشافه، ونخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وأستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملاكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وإن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظريقم الأود، ويعمل الميل... وأعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فأقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم القيب، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا يتام عن مصالحكم ولا يني في منافكم، ولا يسعى إلا فيما يرذ القتم، ويجمع كلمتكم“^(١).

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالاته على قوة ابن برد النفسية؟ إنه كلام كسائر مأسطر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه في الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

”إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحها وفسادها متصلان، ونماؤها وقصانها متظان : إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادة الجباية، وفيها قوام الملك وعن السلطان، وورق الأجناد التي بها يقاتل المدق، وينصر الدين، ويحمي الحرم“^(٢).

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سبق إليه في مثل هذه الشؤون .

٦ - وقد اقترن اسم ابن برد في تاريخ الأندلس بكتابة العهد : عهد الخليفة المؤيد باقر هشام بن الحكم الأموي، وكان لهذا العهد صدى في كتب المتفكرين : فتحدث عنه ابن إسحاق والمقري والمقري^(٣) والقفشندي وابن خلدون . وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

فيه من الدلالة على صولة السامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والتغسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام أنه " بعد أطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأحفظ الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليّه عهده ، ويفوض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزبه وتقافته : من المأمون الغيب ، الناصح الجليب ، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم ان ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قطان يسوق الناس بمصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التبريح " فى الوضع والتأويل !

٧ - ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المفطرحين قتل وزيره عيسى بن سعيد ^(١) وهو كتاب فاجر جالت فيه هذه الكلمات :

" أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة طيه بالمخاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لاقتراح منزل ، أو لاقبال شغل ، فيعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأندك ، فرفعنا خسيسته ، وتممنا قبيصته ، ونحولناه صنف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يبق له بحق ، ولا قابل لإحسانه بصدق ، ولا حامل رغبنا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أطل بالماضى ، واستذل الأعزّة وذوى المروءة ، ونافروهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبد عهودنا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأثر ، وتنادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره باله الفرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهذ ركن الخلافة والأمانة ، بما آحتج من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، لحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سريته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدرة ، وأخذاه الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيره " .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرايه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن إسام لكان ذلك الوزير من صرعى النقام والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية، وكان من كبار الكتاب في دولة العامين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً، والتزلف إلى الباطل أحياناً. وكان لا يعرف ما يأتي وما يدع: لأنة ظروف السياسة لمهده لم تكن تمكن كتاباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وظاهر الوجدان. وكان ابن برد كتاباً ووزيراً، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبنى عند من تقوهم منافع العيش، وتفضلهم بأبطال هذه الدنيا القور.

٩ — وهذا الجانب النضى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسمه من ابن برد، لأن من ترجوا له لم يحدوا فيها يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكتبتين في صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السامى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب في تلك الأيام، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس، ودقائق الأحاسيس، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم الشعر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رفاق الإغراء والوعيد. وكذلك استندل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين: فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم، وإنما كان في الأغلب صدى لجلجلة الاستبداد والظلم والظلمة. وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش في صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين.

٤ - أبو المغيرة بن حزم

١ - في الأصل القرنى فصل عن أبي دامر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكتاب ، لأن ابن شهيد من الأعلام التي لم يتنبه إليها المستشرقون الفرنسيون . أما الرجل الذي أتحدث عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه إليها أحد من الباحثين ، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل ، وهو ابن حزم ! وهنا يلتفت القارئ باسمًا بسملة السخرية : لأن ابن حزم معروف ، طَبَّقَ صيته الشرق والغرب ، فلنعارض إذن بتقريماً هذاننا إليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب، وهما من بيت واحد وأبنا عم، ويمكن الحكم بأن أولها ألقبه وأعلم، وثانيهما أكتب وأشعر .

٢ - لم أجِد من المصادر ما يفي في تحديد الزمن الذي عاشه أبو المغيرة بن حزم، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع وبُغِر القرن الخامس ، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام ، وربما كان السبب في نحوله أنه اعتبط شاباً "ولو طال به مداه، لم يذكر معه سواه" كما قال ابن بسام، يضاف إلى ذلك أن شخصية ابن عمه أبي محمد بن حزم طفت عليه فأغرقت في لجج من النسيان. ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا النحول، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب إليه أبو محمد يقول :

كفاني بذكرى الناس لى ومأثرى ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (فتح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء في الفتح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم فارسي الأصل وليس من « بن حزم » وهي أسرة عربية أندلسية .
(٢) قال القرطبي في الحديث عن المستظهر : " وكان قد دفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبي دامر ابن شهيد التميمي في بطلانه ، وأبي محمد بن حزم المشهور بالرد على البلاء في مقاله ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزالي القرطبي في حقه " فتح الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) احبط بالبناء للمجهول : مات .

عدوى وأشياى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضار
ومالك فيهم من عدو فيتنى ولا لك فيهم من صديق يكائر
وقولى مسموع له ومصطفى وقولك منبت مع الريح طائر
وانى وان اذيتنى وعققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر
وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لازمة نكتفى منها بهذه الأبيات:

وغاصب حق أو بقتله المقادر يذكرفى حامي الرمح شاجر
غدا يستير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلغ ظاهر
ألم تعلم يا أخا الظلم أتى برغمك ناه منذ عشر وآمر
تنزل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأثبت فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أنو فى أرض فأنى سائر وإن أنا عن قوم فأنى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ - والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصرفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

”نسيت أبا محمد حاشيتك وشيئتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ، تحمشم عما كان فيهم من العبر، وتحبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر، فتارة عن السامرى والمجل، وتارة عن القمل والتمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بفرائب الزواحف والدواب^(١) .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأذواق، بل يحدّثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبي محمد في حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان .

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطايب الحياة، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الأتس تذكر بأدباء الشرق كالميكال وابن العميد، ولتنظر كيف يقول :

"فالأرض قد نشرت ملامها، وصحبت ردامها، ولبست جلبابها، وتقلدت محابها، وبرز الورد من كمامه، واهتز الروض لشريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شمسها، وأماطت عبوسها، وكأني بها قد أطلمت من كل ثمر ضروباً، وأبدت من جناها منظراً عجيباً، وإن كالأ نشارك في تلك إلا باللسان لا بالبيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصف من أصفاء الشهوة :

شهدنا إذ رأيناهم بأننا
على اللذات في الدنيا شهود^(١)

٦ — على أنه كان — كسائر من تفويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لا تكشف طبائعهم إلا لمن يأنس إليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشرّبة بالتحفظ والكتّان، ويقرر أن الاحتياج حسم الداء، وأن لا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول :

"وليس في الحيوان أخبث من الإنسان، فالاحتباس كل الاحتباس، والمعاشرمة الجميلة للناس، لا تُلدغ من جحر مرتين، وإذا كر المثل السائر في الملاعب بين وتدين، والماعل من حمله كل بلد، وحق عند كل أحد، وأغل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبي متكف، إلى قريب غير منصف، ولم يغتفر إلا إلى ربه، ولم يأنس إلا بنور له".

وهذه الفقرة تمثل كآحكم الحكماء لو كانت الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعضون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تطوى عليه صدور الأصحاب والألآف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لثيمة تبسج كل شر ، وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفياه ولا يحنى الشوك إلا حيث يقرس الأزهار والراحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحينئذ اليهم ، وعطفه عليهم ، فراه يقول في بعض رسائله :

”وما أعلم نائبة كفرافك أهد لتي ، ولا نازلة كتنايك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربك لو كان لي الخيار ، أو أبرح متلك لو سامحتني الإقدار“ .

ويقول من رسالة ثانية :

”وان رأيت نائيسى بكآب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النحور ، ودرر النور ، وأجتنى ثمر السرور ، وأرتع منه في رياض العلوم ، ما بين مشور ومنظوم ، نفست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، متفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخلة إلا كفام المسيح بين اليهود“

وللغبارى أن يلاحظ أن ما اختارناه من الرسالة الثانية يصرح بضجر أبى المنيرة وبمره بالوجود ، إذ يعيش متفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية في البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وضوبة الوفاء .

٨ — وقد حمله مخجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربة قومه في الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

”لقد نادينا لو أسمعتنا، وطربنا لو وقفنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يملن، يتعب أحدنا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه، والزمان بمضائه، وتناجح فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعوا ربية طاروا بها فرحا، وإن وأوا فضيلة وجها لها ترعا“.

ونارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانكاس الزمان، انكست أمثال البيان، كما روى عن الفقي المذعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكباب من صاحب البريد بخبر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحةا ”الحمد لله خالق الأنام، في بطون الأنعام“ فغذب الرقعة من يده وبالق في إجرال صفده . وإذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لي مع فلان أقبلت الخطبة فصارت ”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ وكما قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوائه، وما زالت معروفة، لإخبارا عنه، وتحذيرا منه، وأعلاما بما يستر ذيله، ويشتمل عليه ليله، من قبائح يحلها العار، ويكتبها الليل والنهار» .

وأصرح من هذا قوله في وصف خدرات الأيام :

”لحين شبح بالظفر ألقى، واهتر لنيل الأمل عطفى، والدهر يضحك سرا، ويتأبط شرا، وقد أذعنني الجذل عن سوء ظني به، وأوهمني نزوعه عن ذميم منهجه، أتت ألوانه، وفسا ظريباته، ونادى ليمن قعد، ويتنبه من رقد، انما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وممحت لك مرة، لتذوق عليها كاسا مرة، فرأيت وقد غطى على بهري، وعقلت وكنت في عياء من ظفري، وقلت هو الذي أعهد من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كابهم القطا، فياله من قادر ما ألام قدرته، ونائج ما أحذ شفرته“ .

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع في الهباء. وله في الزم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أحاجيه بهذه العبارة "قيح الله زمانا يقرب الى اللثيم حصانا، وإلى الكريم أانا" وربما كان أقبح أحاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدا الأستان، وانطق كضخات الأكفان، وأعراض لا مدب فيها لسهم مقرطس، وأعلام لا وضح فيها لصبح متنفس، ورطانة تمجها الأسماع، وتجبو بها الطباع، فوقفت متبدلا، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا، فقلنا أيا الانسان، لست بالنبي سليمان، متى وعدناك أن تفهمك كلام النحل، وسررار النمل؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغل؟ ألم تسر في صحرائه فأوغلت؟ ألم تجل في ميدانه فسبقت؟ ألم تسر في طلباته فاشرقت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالعمود، على ترائب الفتاة الرود، وتثرت كالنجوم، في صفحة الليل البهيم، فقلت: بلى! قلنا: فأعرض عن رطانة الزط، وصغير البط، ولا تصح على طلال باند، ودار قد آتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرفنا طاعنين، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فاعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه! كذب بنى على الظلم المبقرى، والبهتان الجلى، ومكابرة العيان، ومداغمة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عواريه، بغاء كالقلاء القوراء: لا ماء ولا شجر، والليللة الظلماء: لا نعيم ولا قر^(١).

وهذا التهاجى بين أبناء العلم لا غرابة فيه، فإن الأدب العربى يزخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء: لأن نائرة الحقد أشد ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشد الحوافز لإيقاد ما تحمد من جنوات النفوس والعقول. ومن هنا نرى أحاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقضى من أحاجيه لغيره، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاؤه لغيره عن المزاح الثقيل، كقوله في التهمك

(١) الأخيرة ج ١ ص ٧٨ وفي قبح الطيب ج ١ ص ١٢٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، يطرح اليها القارئ إنت شاء.

بعض المتطيين : "وأشرح لي خبر فلان، وأين بلغ من تكسبه، وحيث انتهى من تطيبه، وكيف ظروفه وخزائنه، ولمواقفه ومماجنه؟ وهل ينفذ طبعه، وينفق حبه؟ وصف لي ما يقوله على النساء، ويديه من الأدوية، وأهد إلى ما يتقنه من المقال، على الكبد والطحال، ويرقشه من الكلام، في الفالج والزكام، فالحمد لمن قرن له ذلك إلى القيام، بشريعة الإسلام، والتهمر في الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، والفلج عند انحصام^(١)".

١٠ - ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ الثرأداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالنزل والمدبح وهو في ذلك يحاكي بدیع الزمان الذي يحرص أشد الحرص على أن يؤدي بالثركل ما يؤدي بالقصيد . وإنما خصصنا بدیع الزمان بالذات لأننا نرى في قرأبي المغيرة نغمة همدانية . ويكاد الرجلان يقتسبانها، لولا جزالة ابن حزم ورقة بدیع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت مسرعة إلى الأندلس، وأطلع عليها المتأدبون هناك، وإلى القارئ رسالة لأبي المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

"فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه، وقهر أست في يياه، إلى عواء ذئابه، لأمر إلا بالنص المستلب، ولا ألقى غير الخارب المنتهب، والشعار عند الثأب ألقاها فأنقضهاها، والنائلة أراها فأنقضهاها، قول أبي الطيب :

فان أسلم فما أتقى ، ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

وأنا أقرب من الزمان صنيعه، وأتوقع من الحمام وقوعه، وهو يذهب بي إلى قبلة الآمال وأنا لا أصتق، وبسوقي إلى عطف الرجل وأنا لا أحقق، ويؤم بي البحر الذي لا تمحي فرائده، والغيث الذي لا يجذب رائده، حتى أداني إلى الحضرة العليا، والمحلة الشاه، فكبرت لي بكارا لما صرت إليه، وهلت إعظاما لما سقطت عليه، وعلمت أنني في الحرم الذي لا يضار جناحه، ولا يطار غرابه، ولا يخضد شجره، ولا يمنع ثمره، ولم ألبث أن نزلت باليفاع الحبيب، وتمكنت من الرشاء والقلب^(١)".

(١) القسمة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل، والقلب البئر .

ولم يقف تأثره ببدء الزمان عند محاكاته في المذهب والأسلوب ، بل تعداه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الحمذاني رسالة شائقة في إنسان جمع بين الذم والجلال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاغر ين ، وهي رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آنحرم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاوئش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية :

”ورد كتابك يشد ضالة ودنا ، ويرقع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفانته جريرتك الينا ، وذهبت به جنائيك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نحمد رسولا اليك إلا نظرة تخرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم متاد الضلوع ، فإن رما شكوى ينفث بها مصدرونا ، ويستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سد ، وأقبح صد ، وأقبح زند ، وأبرج رد ، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وأتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلاك كسوفنا ، وقلبت ديباجتك صوفنا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وهجم ضياك ضياك ، فصار عرسك مأتما ، وعاد وصلك محزما :

وبت مداما تسر الترفا فأصبحت تجمرع خلا قيفا

وصرت حجازا جديب المحل وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تسلس الينا لو اذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجنابة ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألقاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نصا ، فالآن نلقاك بدمع قد جف ، ووجد قد كف . وعزاء قد أبد ، وصبر قد غار وأنجد ، وتنتظر منك الى روض قد صوح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومهم قد صرح ... الخ“ .

١١ — ترأى المغيرة في جلته متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح العمل ، ودمامة التكلف ، وهو في الأغلب مسجوع . وفي الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممض ، نكتفي بالإشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص . ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

٥ - أبو الفرج البغا

١ - البغا هو عبد الواحد بن نصر الخزومي . وأما لقبه بالبغا للثقة ظريفة كانت تزين لسانه، نشأ في نصيبين وأتصل بسيف الدولة في شبابه، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد، فتادم الملوك والرؤساء، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى، حتى وافاه حمامه ثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ قال الثعالبي : "وأحرما بلغنى من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى يورده من ذكر ثقائه معه عند صدره من الجح وحصوله ببغداد في سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا على السن ، متناول الأمد، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح الثقة ، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته، ولم تأخذ من ظفره وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد بيجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبى الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع^(١) ."

٢ - كان البغا من أركان الحياة الأدبية في زمانه، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفى لتعيين اتجاهاته الأدبية، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يمين بعض صفاته، لأن المؤلفين يهتمون في الأظب بتقيد ما يصل إليهم من أخبار المشايخين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب شامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المذنب كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . وبمجموعة

ما وصل اليها من شعر البيضا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل المصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .
وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ — وإنا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب القافه والإملاق ، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي تقضى به تليل لصفاء شعره الوجداني، فقد كان شعر البيضا يُغنى به وكان من مُتّع السامرين في الشام والعراق، ولنتظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه وزجسه مما دعى حسنه ورد
أراقت دمي ظلمنا محاسن وجهه فاضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كأنه حتى كأنما سقى عينه من ماء تور يده اتخذ
لئن أصبحت رمداً مقفلة مالكي لقد طال ما استنشفت بهما مقل رمد^(١)

ولنتظر كذلك كيف يقول في محبوب فصدّه مبيض الطيب :

بأبي الثائب الذي لم ينب عنى فأشكو اليه هم المنيب
باشرتُه كف الطيب فلونا ت الأمانى قبلت كف الطيب
فعلت في ذراعه ظبة المي ضح أفعال لحظه بالقلوب
فأسالت دما كأن جفوني عصفرته بدمها المسكوب
طاب جدا فلو به سمع الده ر لأمنى عطرى وأصبح طيب^(١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمتالها من شعراء الوجدان .

وإنما لتأمل في شعره فتجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب :

زمن الورد أطرف الأزمان	وأوان الربيع خير أوان
أدرك الترجس الجنيّ وفزنا	منهما بالحدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهر	فصل فيه أشرف الإخوان
وأجل شمس العقار في يد بدرال	حسن يخدمك منها النيران
وأدركها عذراء وأتتهز الام	كان من قبل عائق الإمكان
في كؤوس كأنها زهر انلش	مخاش ضمت شقائق النبلان
وأخذتها عند البزال بالفا	ظ المشائي ومطربات الأغاني
فهى أولى من السرائس إن زفّ	ت بعزف النايات والعيان ^(١)

وللقارئ أن يتأمل اختفاء الشاعر بالصبياء ودعوته إلى أخذها كما تختدع العروس بالنأي والعود .

٤ — وما يؤكد أن أطاع البياض من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تمدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الدل إلا تحمل المنز	فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على السير فما العد	ة في عتينا على الزمن ^(٢)

وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبت الدهر في سهل وحزن	وجربت الأمور وجربتني
فلم أرمذ عرفت محل نفسي	بلوغ متى يساوى حل من
ولم تتضمن الدنيا لحظي	منال مسرة إلا بحزن
وليس عليّ غير الجسد فيما	صحت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لجز	وان ألبخ ففسي بلغني ^(٣)

(١) ص ١٩٩ ج ١ نيفه . (٢) ص ٢٠٠ ج ١ نيفه .

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخي يحدّثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة:

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آيات وسُدّت مشارعُ
فقلت إلى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع^(١)

وحرص البيضا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوائف ولياليه الخوالي.

٥ - وخلص البيضا من مشاكل دنياه مكنه من أن ينظر إلى أهل الأدب بنظر العطف والإيحاء. ومن شواهد ذلك شوقه إلى رؤية أبي اسحاق الصابى، وقد اضيق له أن زار بغداد والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه، ولكنه شغل عن معاودته فكتب إليه الصابى :

أبا الفرج أسلم وأيق وأنم ولا تزل يزيدك صرف الدهر حظ اذا قص
مضى زمن تسم وصل غالبا فأرخصته والبيع غال ومرخص
وآستنى في محبى بزيارة شفت كذا من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كسوة طائر فواقا كما يستفرص السارق الفرس
وأحبك آسوحشت من ضيق محبى وأوجست خوفا من تدرك القفص
كذا العكوز^(٢) السالح ينجو بنفسه اذا حاربت الأشرارك تصب للقفص
فحوشيت يا قفس الطيور فصاحة اذا أنشد المنظوم أو درس القصص^(٣)
وقد أجابه البيضا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالبيضاء قدما ملقبا فكلم لقب بالجوهر لا العبد محترص
وبعد فإخنى تقص جارح وقلبك لى وكرورأيك لى قفص^(٤)

٦ - وما أحب أن تشغلنى الرغبة في الإيحاء عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والبيضا من المراسلات، ولا أكشف بما كان بينهما من وصف "البيضاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ شوارالمحاضرة . (٢) الكرز، ضم الكاف، للمقرر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ نية . (٤) ص ١٨٨ ج ١ نية .

بالبغيا للثغته استطاع الصابي أن يحاوره محاوره طريفة في وصف البغيا فهو مثلا يتذرع عن إهماله الرجوع إليه لزيارته في السجن بقوله :

وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسي وأوجست خوفا من تذرك الففص
وللنظر كيف يقول في وصف البغيا :

أنتها صبيحة مليحة	ناطقة باللغة الفصيحة
عُدَّتْ من الأطيّار واللسانُ	يوهمني بأنها إنسانُ
تُهِى إلى صاحبها الأخبارا	وتكشف الأسرار والأستارا
مكّاء إلا أنها سميمة	تبيد ما تسمعه طبيعة
وربما قُتّت العضبة	فتفتدى بليدة سفية
زارتك من بلادها البعيدة	وأستولنت عندك كالقعيدة
ضيئ قِراء الجوز والأرزُ	والضيف في أبياتنا يعز
تراه في مقارها الخلوقي	كلؤلؤ يقطع بالمعيق
تنظر من عيني كالقصين	في النور والظلمة بهاصين
تمس في حلثها الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء
نريدة خدورها الاقفاص	ليس لها من حبسها خلاص
تحبسها وما لها من ذنب	ولما تحبسها للحب
تلك التي قلبي بها مشغوف	كنت عنها وأسمها معروف
نترك فيها شاعر الزمان	والكاتب المعروف بالبيان
وذلك عبد الواحد بن نصر	تقيه قسي عاديات الدهر ^(١)

وقد أجاب البغيا على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها

إلا قوله في البغيا :

ترهى بدوآج من الزمرد ومقلعة كسبح في عسجد
وحسن مقار أشم قات كأنما صيغ من المرجان
صيرها اقترادها في الحبس بنطقها من فصحاء الانس
تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لحد أو لعب
غذاؤها أزكى طعام رعدا لا تشرب المامولا تحشى الصدى
ذات شئ تحسبه ياقوتاً لا ترتضى غير الأرض قسوتا
كأنما الحبة في مقارها حباة تطفو على عقارها
إقدامها بياسها الشديد أسكتها في قفص الحديد^(٣)

٧ - وهذا الوصف وصف البقاء الذى أجاد فيه الشاعر ان أتاحته لنا لغة أبى الفرج التى أبدع في وصفها الصابى حين قال :

وما مجنت منك المحاسن لثقة وليس سوى الانسان تلقاه أثنا
أتمسرفها فيما تقلم خالبا لغير اذا ما صباح أو جمل رعا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منه بالكال مسؤغا^(٤)

والثقة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى وان كانا لا ترتضى بقية التمثيل .

٨ - ولا يفوتنا أن نعيد هنا أن شعر أبى الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه في الشعر أشد اتصال، وهو وإن لم يستطع مصالوة لحول القرن الرابع كلرضى والمتنبى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لئده في طبيعة الشعراء . ولننظر كيف تسدق الحياة في قوله يصف قتل الحرب :

فركتهم صرعى كأنك بالظبا عاطيتهم في الزوع كأس مدام

(١) الفراج على وزن رمان وغراب الخاف الذى يلبس (فاموس) . (٢) الشى كهدى خصل الشعر المشعان ، والشعرانة الجفة منه (فاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ بقية . (٤) ١٩١ ج ١ بقية .

متهاجرين على الدوق كأنما ^(١) أقت رؤوسهم عن الأجسام

وقوله يناطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بنى كلاب وعفوه عنهم :

إذا استلّك الجانون أغمذك الحلم وإن كفك الإهواء أنهضك العزم

ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبه لفرط عسوه — إذا ما جنى — الإنصاف أدبه الظلم

إذا العرب لم تجز أصطناع ملوكها بشكر تعاون في سياستها العجم

أعدوا الى عادات عقوق عسنا كما عودتها قبل أبائك الشم

فإن ضاق عنها العذر عندك في الذي جته فإ ضاق التفضل والحلم ^(٢)

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعاني الموصوف، من ذلك قوله في وصف ممصرة :

وممصرة أنث بها وقرن الشمس لم يقب

نقلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب

وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أعين العنب

وجاش عباب واديا بمنهل ومنسكب

ويا قوت المصير بها يلاعب لؤلؤ الحب

فيا عجا لعاصرها وما يفنى به عجمي

وكيف يعيش وهو ينو ض في بحر من اللهب ^(٣)

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بيد قرب الحين نحوه سلاهلك الجرد الخفاف قريب

تباثر أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخافقين هبوب

تماشى بفتيان كأن جوسهم خلفتها فوق السروج قلوب ^(٤)

(١) ص ١٦١ نشوار الحاضرة (٢) ص ٥٦ نشوار (٣) ص ١٩٥ ج ١ بقية .

(٤) ص ٢٠٢ ج ١ بقية .

٦ - ثرأبي الفرج البينا

١ - يمتاز ثرالبينا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب في ميوله الدوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة ثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يس الكتّاب من حيث هو رجل مودات ومجاملات ، وقيل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتّاب القرن الرابع . ولذلك قرأ ثرالبينا في طمانينة وسكون تراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفتدة وتتصاول في حماه العقول .

٢ - وأول ما يطالعنا من ثرالبينا هو رسائله الإخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه إلى أصحابه والآله وإخدايه ، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

”شوق المملوك إليه شوق الظمآن إلى القطر، والسارى إلى غرة الفجر“^(١) .

أو يقول :

”شوقى إليه شوق من قد بالكه سكته ، وفارق بالضرورة وطنه“ .

وقد يحاول تحليل صبره على بعد مودوده فيقول :

”ولولا أن المملوك يجد نار الاشتياق، ويرد أوار الفراق، بالتخيّل المثل لمن نأت عنه، والتفكر المصوّر لمن بسدت شقته، لألمبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وحمّت دموعه ، وأتقصت ضلوعه . واقه المحمود على ماوقع له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشياء“^(٢) .

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجي المحيين :

”إن ترأيت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن نزلت الأشخاص وبعثت ، فقد دنت الأنفس وقاربت ؛ فلا تُمضُ الفرقة وتُؤلم ، وتنص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجي الضائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرعى“^(١).

ونحن نقهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالي عيشا لانجده في وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والودّ ود القلوب .

٣ — وفي رسائل البينا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيدها عرف عن العرب من بعض الخلل ، من ذلك رسالته في التهينة بمولودة : فهي تأكيد لما درج عليه العرب والمهتود من بغض البنات . ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهني ، فيقول :

”لو كان الإنسان متصرفا في أمره بإرادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وأستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له إلى الوجود من العدم ، فيما أرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وشأى عقله ، وحيطة فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يجهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة إليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد اتصل بي خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أملها فيها ، وما كانت من تغيره عند آتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك وأسكنه ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر في مثله عليه . وقد علم

مولانا أنهم أقرب الى القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهم بالترتيب فقال جل من قائل (يحب لمن يشاء إنانا ويحب لمن يشاء الذكور) وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى، وبجسن التقبل أخرى، ولكم نسب أفدن، وشرف استحدثن، من طرق الأصهار، والاتصال بالأخيار، والمتمس من الذكر نجابته، لا صورته وولادته، ولكم ذكر الأئني أكرم منه طبعاً، وأظهر منه نفعا، فولانا يصور الحال بصورتها، ويحشد الشكر على ما وهب منها، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته، والأولى بمثله، ان شاء الله تعالى^(١).

ويظهر أن هذا النوع من التهاني كان من الموضوعات المحفوظة في القرن الرابع، فقد عقد له الحصري فصلاً في زهر الآداب. ومن طريف ما جاء فيه تفضيلاً للأئني على الذكر قول بعض الكتاب :

”الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها، والتار مؤنثة والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية، والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم التواقب، والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان، وملاك الحيوان، والحياة مؤنثة ولولاها لم تنصرف الأجسام، ولا عرف الأنام، واللجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون“^(٢).

ويتصل بهذا المعنى ما أقرحه سيف الدولة على البيها من الكتابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تزوج أمهاتهم كرها شديداً. وقد آفق لعمر بن مسعدة أن سأل سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه! وهذا دليل على أن كتاب القرن الثاني كانوا يمتدنون ذلك من فنون الانشاء. أما في القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهراً أشد الظهور، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب: فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه، ويستحسن عمله، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه، وأنه عرف من تزوجت أمه

(١) صبح الأضنى ص ٦١ و٦٢ ج ١ (٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .

(٣) صبح الأضنى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه ، وأفرد عن أودائه ، وتوارى عن أصفياه . حياة من لقائهم ، وكرها لتنتهم
أو عزائهم . ثم بين ناذج ما يكتب في مثل هذه الحال . وإلى القارىء نص رسالة البينا التي
اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

”من سلك اليك — أعزك الله! — سبيل الانسباط ، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيا
يحسن الاقتباس عن ذكر مثله . وأتصل بي ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة
بعد نسيك اليها اليك — وفراقه صياتها — في اختيارها ما لولا أن الأنفس تنناكره ، وشرع
المروءة يحظره ، لكننت في مثله بالرضا أولى ، وبالأعتداد بما جده الله في صياتها أخرى ، فلا
يسخطك من ذلك مارضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يقع
وياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام“ .^(١)

ولا يفوتنا أن نذكر أن البينا تأثر في رسالته هذه خطوات ابن العميد في نفس الغرض ، ولكن
رسالة ابن العميد أكثر وحشية وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن
وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

”وهناك الله الذي شرح للفقوى صدرك ، ووسّع في البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم
بمشيئته ، والرضا بقضيته ... وجعل الله تعالى حده ما يحجزه من أنف ، وكظلمته من أسف
معدوداً يعظم الله عليه أجرك ، ويميز به ذنرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لقلعها ،
المتظر من آرمعاضك لدفنها ، وعوضك من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل ما ينعم عليك^(٢)
بعدها من نعمة ، معزى من نقمة ، وما يوليكَ بعد قبضها من منحة ، مبرا من محنة“ .

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذي نعيش فيه ، ولو خلونا إلى
فطرتنا لرأينا ابن العميد يبرع في نوازع إنسانية ، ولا نقول شرقية ، لأن الغيرة على الأمهات غيرة
فطرية لا يسلم منها إنسان ولا حيوان ، فلتقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة التزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكرة النبات إلا لظهور ذلك في أديمهم ظهوراً قوياً ، وإلا فقد استجبنا الناس من جميع الأجناس فرأيانهم يؤثرون البتين على النبات . وما نحن على الفطرة الإنسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحي الطريفة في ثرايبها رسائله في استهزاء الشراب . وكان هذا القرن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولم فيه فقرات حسان تدل على قوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفي طي ذلك الاستهزاء معنى لطيف : فقد كان المستهذى يشير غالباً إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يوصى إلى أن لديه (عجبوا) أسعده زيارته وأنه يجب أن لا يكون المجلس محروماً من قعة الصبياء . وأنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسباً ، ولتلك الفتوة قطباً ، لم تنزع القلوب من المم إلا إليه ، ولم تعول الأنفوس في استمالة المسائر إلا عليه . وقد طرقتني من إخوائي من كان الدهر يماطلي بزيارته ، وينفخ عليّ^(٢) قربه ومشاهدته ، فصادفتني من المشروب معسراً ، ووجدت الانبساط في التماسه من غيرك عليّ متعذراً ، وإلى فضلك تنفزع مروءتي في الاسعاف منه بما لم شمت الألفه ، ويجمع شمل المسرة . ويعلنا لك في رق الاعتداد بالمنة ، ويقضى غنى بتفضلك حقوق المودة"^(٣) . وفي المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"ألطف المنن موضعاً ، وأجلها من الأنفس موقفاً ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض المم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفه ، وأدى إلى اجتناء ثمرة اللذة . وبذخائك من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حُر الشكر ، ويمرر قصب السبق إلى الثناء وجمل الذكر ، فإن رأيت أن تعجب بالممكن منه مروءتي ، على قضاء حق من أوجب عليّ المنة بزيارتي ، فعلت"^(٤) .

(١) ينض العرب النبات معروف وقد سجله القرآن ، أما ينض الهنود النبات فكيف في بيانه قول مؤلف كلية ودعة "ركان يقال : إن السائل يدأ يريه أحداً ، والأخوة رفاقاً ، والأزواج أقفاء ، ولينين ذكراً ، واليات خصاء ، والأقارب غرماً ، ويدقه فريداً" . (٢) ينش : محمد . (٣) صبح الأضنى ج ٩ ص ١٢٣

(٤) صبح الأضنى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة - كما عبر أبو الفرج - في السهرات الاخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يحده الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وانما كان مما يذخره المترفون ، حتى أستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينفقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول^(١) .

٥ - وهناك استهداء أنظر وأشرف : وهو استهداء الدواء والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفس الكتاب . وقد استهدى البيضا دواة فقال :

”أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً ، والصناعة والحظوة سبباً ،
وبالدوى تجنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب دُرُ الكتابة ، وقد أوحش الملوك الدهر مما كنت
أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فان رأى مولانا أن يبط
ببعض ما يستخدمه من حالها أو عاظها سمة عطلة الملوك ، ويسمح بإهدائها الى أهل
تصرفه ، ويقابل بالتجح والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى“^(٢) .

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس - أيدك الله ! - في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور
النعمة ، والتخبر لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فاسائر الدوى سواء فيما تصدره الأقلام عنها ،
وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلائها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف بالتخبر بالضرورة
إليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ، ومادة الافهام ، وشرب الأقلام ...
ولا معدل بي عن استماعة خزائلك - عمرها الله ! - المتكمن من جيده ، فان رأيت أن تستنقذ
دواتي من تحول العطلة ، وتزهر قلبي عن ظلمة الغلة ، وتكشف عنها سمة التقصان والتخلّة ،
فعلت إن شاء الله تعالى“^(٣) .

(١) في هذه اللفظة شيء من الحق ، وكل ما بين الكلتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج اليه المحزون كالطعام
وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج اليه المترفون في أفراسهم وإن كانوا قراء . (٢) صبح الأضنى ج ٩ ص ١٢١

وللاحظ أن البيضا لا يستهدى دواة كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، ويستهدى مدادا (جيذا) يتره قلبه عن ظمأ القلعة، وهذا تعبير ينتفس عن شعر بليغ. وأختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضاع الدلائل على أذواق الكتاب. وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا في بث نشاط الكاتب. وكذلك تفعل الأقلام الجيدة. وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارئ هناك.

٦ — وقد لاحظنا أن البيضا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف. من ذلك رسائله في التهته بالزواج^(١) والتهته بولاية عمل^(٢) والتهته بالقدوم من سفر والتهته بالمواسم والإعياد.

وهذا كله طبيعي ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهته بالصرف عن الولاية، فقد فهم أن هذا المرء بولاية عمل، ولكنا لا نفهم كيف يهنا بالصرف، وما نكر أن يقع ذلك، ولكنه في رأينا من التكلف المنجوج، وإن كان يدل على لباقة وذكاء. ولنتنظر كيف يحتمل البيضا في مثل هذه الحال :

”من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرئاسة والتبيل، كان معظما في حالي الولاية والعزل. لا يقدح في قدره تغير الأحوال، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تغل الأعمال، إذ كان استيحاشها للفتات من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره“^(٣).

”لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما أختصك به من كمال الفضل، ومأثور التبيل، لحاذرتا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

- (١) ولقارئ أن يراجع كذلك ما أتبعه صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والفن والاعلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية .
(٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩
(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ص ٣٤ و ٣٥ ج ٩
(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر زاهتك وصيانتك، ... فالأسف فيما سطر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما سقلبه بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهناً مسروراً، كما كنت في الولاية محموداً مشكوراً^(١) .

٧ — وهذا الاستطراف لا يفارق البيضا : فقد كتب عدة رسائل في التهئة بالشفاء من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى . ويسجنا من ذلك قوله :

”ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك ، الى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالي الألم والصحة ، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذى شرف طبيعى بمناسبتك، وجعل خلقي بملاصتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ما خصنى به من كمال عافيتك، وصبروخ سلامتك، وسرعة إقبالك^(٢)“ .

ولكننا نبتسم حين نراه يهين صديقها بالمرض فيقول :

”في ذكر الله سبدي بهذا العارض — أما طله الله وصرفه ، وجعل صمة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظاً له من سنة النفلة، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام، وتيسيه العظاات، غير الصفوة من عباده، الخيرة من أوليائه، فهناك الله الفوز بأجر ما يعانیه، وجعل عنه بالطفاه تقل ما هو فيه^(٣)“ .

ولكن لا نجيب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتاج الى التلطف فى المواساة، وإخراجها مخرج التهئة فيه طرافة تفرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للبيضا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضوع واحد كقوله فى التمزية :

”اتصل بى خبر المصيبة : بفقد الحسرة ، وسكب المبرة، وأضرمت الحرقه، وضاعف اللوعة^(٤)“

فراه بعيد هذه التعابير في كلمة ثانية فيقول :

” اتصل بي خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدمعة“^(١) .

وله في هذا عذره : فإن اللغة محدودة ، وبعض المعاني يعسر الاقتان في تلويها أحيانا .
على أنه استطاع أن يخفي فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال
(قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وإن كان كرر (سكب العبرة) بلفظها في الراسيتين .

وكذلك كرر المعنى والمباراة في قوله تعزية لصديق :

” أحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من قتن المصائب بصيرته“^(٢) .

وقوله :

” وحرس يقيك من اعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل العسر هدايتك ، وتولى من قتن المحن رمايتك“^(٣) .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار والتهنئة بالمتزل الجديد^(٤) ، وإن كان في هذا يكرر المعاني أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل البيضا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها الفلقشندى غير موضح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجمه بترجم لرسائله فيقول :

”فصل في بيان غرر من رسائله الموصولة بحاسن شعره“

لهذا نرجح أن يكون الفلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على ثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . وإلى القارئ نموذجاً من رسالة له في مدح سيف الدولة^(٥) .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣

صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب الياسة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

«الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ إذا نطق ، وينطق
المجد إذا اقتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف إليه ، نهض بما قعدت الملوك
عن نقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين
جديدا ، وضمم الأيام حميدا ، بحق أوضعه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا أترع الله الهدى عز بأسه ولا أترع الله الوغى عز نصره

وأحسن عن حفظ النبي وآله ورغبي سوام الدين توفير شكره

فما تترك المتأاح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام وثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسرمنة تفوت المبالغة في جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكر القارئ بأن فضل البينا في رسائله لا يقاس الى

فضله وبراعته في ثره المرسل الذى دمج به قصصه الفرامية ، وقد حُفِظَ له منها شاهد يعز
على من رامه من أئدى الكتاب قلما وأسماء^(١) بيانا .

(١) محمد هذا الشاهد في باب «الأخبار والأقاصيص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب به عباد

١ - في ذي القعدة سنة ٣٣٦^(١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوین وأبهر - في بيت معروف بالعلم والفضل ، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولستأ تعرف من بداية ابن عباد شيئا كثيرا^(٢) ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شابا ذكيا أعد نفسه لما نزل العظيمة والجبروت . حدثت عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريسان شباني ، فلما تقوض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي وأستقيحت إغفاله الأمر بتغطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قلت يوما مقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها ، وكانت يصالاته ومصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(٣) .

٢ - وأول ما تعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبي الفضل بن العميد ، فقد كان يخدمه خاصة ، ثم ترقّت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأدباء ، وفي بنية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦) . (٢) في بنية الوعاة أنه كان في الصغر إذا أراد المضي إلى المسجد ليقرأ عليه والده ديناراً في كل يوم ودرهما ويقول له تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه إل أن كبر وصار يقول للقراش كل ليلة : اطرح تحت المهرج ديناراً ودرهما تلتا تنساء .

(٣) ص ٣٦٦ ج ٣ بنية المهر .

يومئذ أمير، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان أستورز ابن عباد وحكّه في أمواله، وكان لقبه الصاحب في حياة أبيه أنسابه . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب نحر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى السامانية بخراسان — وملكه البلاد، فأقر الصاحب بن عباد على أمره، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدم كلمته على كلمة نحر الدولة الى أن مات في ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطي في بغية الوعاة^(١) : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه نحر الدولة ، وهو أوّل من سمى الصاحب من الوزراء لأنه محب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فقلب عليه هذا اللقب، ولم يعظم وزيراً مخدومه ما عظمه نحر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطي أن نحر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره آتقاء لشهره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ؛ وحلّت وقعد للإملاء ، وأزدهم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين^(٢) . أرسل إليه في السمرنوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويستمدد لوزارته ويحكمه في ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتنر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعمائة رجل^(٣) . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظاً في دقة الفهم وبراعة القول وسعة الأطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريماً ولكن كرمه كان يغا ينصب لشياطين الشعراء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

(١) ص ١٩٦ ج ٣ من قيمة الفهر .

(٢) بغية الوعاة ١٩٦

(٣) ص ١٩٦

القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم، وابن عباد أكرم ويدعى العقل، وهما في دعواهما كاذبان^(١).

وكان صاحب مقتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه إلى حق . قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكنت الجماعة، فقال ابن الباري :

* يزدحم الناس على يابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متجرجا جاهلا، أما كان لك بالجماعة أسوة ! . وورد إلى صاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تقرأ عندهم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي . وغمره أحد جلسائه ليقول رسائل صاحب فلم يفتن ، وراه صاحب فقال : تمنع حمارا لا يحبس^(٢) ! . وكان صاحب يحب الفخر وأتحمال الفضائل التي ربما قصر عنها، كذلك يقول ياقوت، ويذكر في تأييد ذلك أن صاحب حدث أنه عند دخوله إلى بغداد قصد القاضي أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتناقل في القيام له ، وتغفرت تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ صاحب بضبعه وأقامه وقال : نعمين القاضي على قضاء حقوق إخوانه ! ففعل أبو السائب وأعذر إليه . والقصة وقعت لغير صاحب ولكنه اتحلها لنفسه وحكاها في مجلس أنسه فشاعت عنه^(٣).

وسمى صاحب يقول : ما بق من أوطاري وأغراضي إلا أن أملك العراق وأنصتر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب غني وأغير عليه^(٤) . وهي شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان . والشواهد على ضعف عقل صاحب وخلفه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ باقوت . (٢) ٣٠٠ ج ٢ باقوت . (٣) ٣١٥ ج ٢ باقوت .

(٤) ٢٣٨ ٢٣٩ ج ٢ باقوت . (٥) ٣٢٧ ج ٢ باقوت .

فارقني لي، وزالني عقل، وانشرحت مفاصل، وتخاذلت عرى قلبي، وذهل ذهني، وحيل بيني وبين رشدى . فيتהל وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضعك عجباً وجهلاً . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني أبيه ^(١) وعمه .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : " ومن يتفزع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . وبالصبيان الضعاف أمثل " ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد في مثل هذا الضعف انطلق ، فان الرؤساء كثيراً ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية ، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويميلون خبثاً أو جهلاً على التحدث بمواهبهم والإشادة بما يزعمون أنهم آفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاه الجنان . ولكن العجيب حقاً هو هذه الصورة التي وضعها التوحيدى للتملق السخيف المردول الذي يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ - ومن الصور التي وضعها التوحيدى لفرور ابن عباد القصة الآتية :

" ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت في إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودى فيه طويلاً حتى أحتد وكاد يتقد ، فأحتال اليهودى في مخائنه وقال :

أيها صاحب ! لم نتقد وتستشيط وتتهب وتخلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البناء فيما تدعى عنه عاجزين وله مدعين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفكرك وما تؤلفه وتباد به نظماً وثراً هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظفر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعمل عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فترنحد وسكن عن حركته وقال : ولا هكنا يا شيخ ! كلامنا حسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حظاً وافراً ، ومن اليباس نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له

المزية التي لا تحجل، والشرف الذي لا يخل، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهذا كله يقوله وقد خبا حيه وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح غالب قد دب في أسارى وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهل الملل شيئا بالقرآن^(١) .

فهذه أيضا صورة جميلة من صور التوحيدى، وليس يضيرها أن تكون مختلطة . فقد تكون صور الواقع أنقطع من صور الاختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي نراها غالبا في الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه يتفدع ، وقد يتفدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه ، وفنائهم فيه ، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يثنون عليه راغبين أو راهبين ، ويبت لهم من الحقد والفضينة والكيد ما قد يتكشف عن قاصمة الظهر أو مُندية الجبين . وأمثال هؤلاء صفار في أنفسهم، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين، فيظنون لموانهم على سرائرهم أن ما يوجه اليهم من المدح ليس إلا ضربا من ضروب الخلل والخلداع .

٧ — وللتوحيدى مقتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب ، وقد أراد التوحيدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة، في شؤون كثيرة، بعضها مما لا تصلح روايته، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصحابنا لأبن عباد : لو كان القرآن مخلوقا لجاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ، ويقول : لا حياة لي بعدك ، ولا نصلي التراويح ونستريح^(٢) ! “ .

وهذه الفكاهة تمثل روح الارتباب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر .
 والتوحيدى هنا متسامح مع صاحب لأنه يريد أن يصل عن طريقه الى نشر هذه النكتة
 برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال في كلمة : لو مات القرآن في آخر شعبان بماذا
 كنا نصلى التراويح في رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شيء في الاسلام ، وانما أراد
 الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شيء ثقیل ،
 هجاء من بينهم بدیع الزمان وأبو الفصل بن العميد .

٨ - ومن دلائل عظمة صاحب أن المؤرخين أطلوا الخلاف في تقرير فضله ، فبينما
 التوحيدى يلح في ثلبه وتنقصه والزبابة به ، والإنهاء عليه ، يقوم الثمالی من جانب آخر
 فيقول فيه :

” ليست تخضرنى عبارة أرضها للافصح عن علو محله في العلم والأدب ، وجلال شأنه
 في الجود والكرم ، وتفرد به بآيات المحاسن ، وجمعه أشنات المفاسر ، لأن همه قولى تخفض
 عن بلوع أدنى فضائله ومعاليه ، وجهده وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساغيه ، ولكنى
 أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج
 في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق ، وكانت أيامه
 للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ،
 وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائمه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وإنعام يحثده ، وفاضل
 يصطنه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارد في البلاغة ، وواسطة
 عقد الدهر في الساحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول
 فصل ، وصارت حضرته مشرعا (روائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه
 مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعجز عن السحر ،
 ويكاد يدخل في حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ،
 واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يرى عندهم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب التوفيق، وملك رق المعاني، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. (١)

وهنا مضى الثعالي يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كآبي الحسن السلاحي، وآبي بكر الخوارزمي، وآبي طالب الماموني، وآبي الحسن البيهسي، وآبي سعيد الرستقي، وآبي القاسم الزعفراني، وآبي العباس الضبي. الخ. الخ. (٢)

٩ - ونحن لو تمقنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم في كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا في عصرهم وفي تلاء من المصور المبلغ تأثير، ول هؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتعامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقري يهف حواسه ومشاعره، ويوقف ما غفا فيه من كريم الشائل، وسي الطباع. والإنسان في جملة مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامي والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلبا تظهر بحاسن الناس ومساوهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذي يعيش عبثة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فإنه يظل مستور النعائز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فأولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرى له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفها توقعا، وقد تواترت الأخبار بوقع التوقيع فيها. فرضها على آبي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان في الرقعة: "فان رأى مولانا أن ينم بكذا فصل" فأنبت الصاحب أمام «فصل» ألفا، يعني «أفصل» (٣).

(١) ص ٢١١ ج ٢، قيمة ٠ (٢) انظر ص ٢٢٢ (٣) ص ٢٨٨ ج ٢، قيمة ٠

وكتب بعض المال رقعة اليه في آلتاس شغل ، وفي الرقعة : ” إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله “ فوق تحتها : ” من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي “^(١) .
ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى الصاحب في ظلامه لم مترجمة بالضرايين
فوقع تحتها : ” في حديد بارد “^(٢) .

١٠ - وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب في معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من
شئون العقل والوجدان . قال العالي : ” سمعت أبا جعفر الطيب المعروف بالبلاذري يقول
إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعينها
إن كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت وأستبعدت ما حكاها
من تطلب الصاحب ، ونسبته في نفسى الى التريد والتكثر الى أن ظفرت في نسخة الرسائل
المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحه
البلاغه ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر
في علمه وقوة المعرفة ب دقائقه “^(٣) .

والمهم في هذا هو آرتياب العالي فيما نسب الى الصاحب من التطيب وظنه أن ذلك قد
يكون من التريد والتكثر . ففى هذا اشارة الى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه
الأقاول . أما أنا فأرجح أن رسالة الصاحب في التطيب لم تكتب الا معارضة للخوارزمي
في رسالة كتبها الى أحد تلامذته في نفس المعنى ، وفي هذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن
اتصل به من الكلب كما أثر فيهم .

١١ - وهنا ملاحظة لا بد منها : ذلك أن الخوارزمي والصاحب حين كتبوا في الطب
استطاعا أن يقبا البرهان على أن الكلب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة
تفيض بالمدونة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع
والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة الصاحب الى صديق شكا اليه علة ألت به :

”قد عرفت ما شره مولاي من أمره، وأنا عنه من أحوال جسمه، فدلتنى جلته على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التقية، والرفق بالتقصية . فأما الذي يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت أقام لم ينق فتفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفات، ولزت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يطغى ويندئ، ثم يمكن بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأقراص في آخر الحيات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذي وجدته مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها، والبلدة التي وردتها، فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقياً من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طوّل هذا التطويل ... الخ . وهي رسالة طويلة“^(١).

واليك قطعة من رسالة الخوارزمي الى تلميذه له وقد ظهر عليه الجدرى :

”هذه العلة وان كانت موجعة، وفي رأى العين فظيمة شتعة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصده، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد المرض والمعالج تصل اليها، وإنما هي قرح نهته الطبيعة، ودم آثاره الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كائنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طباً ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنما تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر خيار، ومن المنة الى المنة صروف وأقدار ... الخ“^(٢).

ولخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب، فتهنئ منها الفقرات الآتية :

(١) أنظر الصفحات ٤٢ - ٤٤ ج ٢، ص ٢٢٢.

”... الحرب حكمة مادتها يوسه وحرارة ووقود والتهاب، زندهما الذى يقتبس من طعم^ك وشراب، وفضلة فذقتها الطيبة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء بمدته القذارة، وتهزمه الطهارة، وتسقص منه البرودة والرطوبة، كما تريد فيه اليوسه والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطاً وراء النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبتوثة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلى داويتا ظاهرا فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد ، وهى تتوقد في باطن الكبد ... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع حرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون في أوسط طبقات الرطوبة، وفي أعدل موازين البرودة، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فاما القول فيجب أن لا ترى ولو في المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسلك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية... وهذه علة تكسب صاحبها خزاية وحياء، وثورته تجملا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويقتصر عنهم كستر المحب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون،... ولولم يكن من دقائق آفاتهما، ومن عجيب هناتهما، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمي، وأعجميا وليس بأعجمي، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جذيرة أن يحشد لدوائها، وتبذل الرغائب في فئاتها، ثم هى رجع من أرباع الخلدان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعطاك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والحرب^(١)

١٢ - ولو أن تلك الرسائل أُرِخت لاستطعنا أن نعرف أى الكلتين أسبق الى الكتابة في المعاني الطبية التى ظنها التعاليم بعيدة عن متناول الكتاب . والصلة بين الصاحب والحوارزمي

كانت قوية تسمع لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وإن كانت ضعفت بعد ذلك ،
حتى كتب الخوارزمي الى الصاحب يعاتبه :

”...ولقد كانت أياي بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلى بها نهارا ، وساعاتي فيها أمحارا ،
كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ ليال ، واني بعد صبري على فراقه لجلد على وقع
سهام الهجر ، واسع المجال في ميدان الصبر...“ الخ .^(١)

١٣ - ولم يقف الصاحب في الإغراب عند حد معقول ، وإنما مضى يترب في الصنعة
شعرا وثرا ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف ، وهي أكثر الحروف دخولا
في المنظوم والمشور ، مطلعها :

قد ظل يصرح صدرى من ليس يملوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة ، واستقر الصاحب فعلم عتة قصائد كل واحدة خالية من
حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معرة من الواو ، فأنبى أبو الحسين
الهمداني وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب في أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبايب لما بدا فالدمع ساكب

أمدامى منهلة هاتيك أم غرر السحاب

نسرت لآلى أدمع لم يقرعها كف ثاقب^(٢)

وقد أخطأ المسيو ميّس (Mez) حين ظن أن الهمداني الذي صنع هذه القصيدة هو
الهمداني صاحب المقامات . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذلك بديع الزمان أحمد بن الحسين .
والصاحب مسبوق في هذا النوع من الانشاء ، سبقه وأصل بن عطاء الذي تجنب حرف
الراء في خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك اللف في الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا
لذلك ، إذ كان ألغ ، أما الصاحب فيمضى في هذا الفن صنعة وتكلفا ليكابر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل - (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ بقية .

(٣) ترجمة المسيرورث الفرنسية التي تفضل فأحاطا نسخة منها قيل أن طبع .

الكتاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أهمل به ديوان اللزوميات .

١٤ - قلت إن صاحب كان شديد الرغبة فى استبعاد الكتاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتننى استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب إليه . فأسرها صاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتاب ضده ويجهلهم على مهاجمته والنيل من قدره . ويمكن الحكم بأن الحملات التى هوجم بها المتننى وهو حى كان أكثرها يتعرض صاحب والمهلبى، وكلاهما كان يطمع فى اغتيال المتننى إليه . وقد اشترك صاحب بنفسه فى مهاجمة المتننى فكتب رسالة قد بها شعره . وهى رسالة يغلّب فيها التهامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقدّمها أنه كان يذكر بعض المتأدبين فسأله عن المتننى، فأجاب صاحب : انه بعيد المرى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربما يأتى بالفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة الموراء . فهاج عبادته وانزعج، وأدعى أن شعر المتننى يمتز النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحدها فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتصفحه العيون، وتسبك العقول .

قال صاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلب العثرات من شتى، ولا تتبع الزلات من طريقى . وقد قيل : أى عالم لا يهفو، وأى صارم لا يبنو، وأى جواد لا يكبو، وإنما فعلت ما فعلت لهذا بقدر هذا المعترض ائى ممن يروى قبل أن يروى، ويخبر قبل أن يخبر، فأسمع وأصت، وأعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيرا . وقد لبينا بزمن يكاد الملسم فيه يلو الغارب، وميتنا بأعيار أغمار اغتروا بملاح الجبال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفوايقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فوق الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهون أنهم يعرفون فإذا حكوا رأيت بهائم مرسته، وانعاما^(١) مجفلة .

وهذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير .
فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الحائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يقولون !

١٥ - وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعد للنقد عدته : بفالس الشعراء ، وكأثر الأدباء ، وباحت الفضلاء ، عشرين سنة ، وأخذ عن رواية المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن يحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتغيير القافية والوزن " ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه وبين ابن العميد في نقد الشعر ، الى أن قال : "وسمعت أيداه الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويتبدأ النسخ ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الفرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمرارا ، ومع أي القوافي يحصل أجمل أطراد ، فيركب مرّا لا يحشى انقطاعه وألبانه عليه" (١) .

ونحن نستعيد رأى ابن العميد في تجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، وزجج أن ابن شهيد الأندلسي تأثر بهذا الرأي حين قال : "إن للحروف أنسابا وقربايات تبدو في الكلام ، فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة" (٢) .

١٦ - وليس بهما أن تلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله في نقد قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجاً لبقية المآخذ . قال الصاحب :

"ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكاً في أمه بقوله :

• رواق المز فوقك مسبطر •

ولعل لفظة الإسبطرار في مرآتي النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة
يظن المتحصبون له أنها من شعره بمثابة «وقيل يا أرض أبلي مأك» من القرآن و «أصدع
بما تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طراً لأول ميتة في ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تردده في انتهاك السر .

ولما أبدع في هذه المراثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة . فقلت : صدقت ؟ ولكنها استعارة حداد
في عرس !

ولما أحب تقريرظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ،
واستخرج زبد شعره، فقال :

ولا من في جنازتها تجمار يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمانته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليحفوا قبره عن عدوه فطُيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

« شلت وشلت ثم شلت شليلها »

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأبلغ من فقدنا من وجدنا قيل الفقيد مفقود المشال

فالمصيبة في الرأي أعظم منها في المرنى^(١) .

١٧ - وخلاصة القول أن المصاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره، وأكتب أهل

زمانه . وقد بقي من رسائله جزء في المكتبة الأهلية بباريس^(٢) . وفي زهر الآداب ونهاية الأرب

(١) ص ١٢ (٢) في دار الكتب المصرية نسخة توغرافية من هذا الكتاب .

وينجمة الدهر ومسجم الأدباء قطع غنائة من وسائله . وهو يلتزم السجع أو يكاد ، وفي أكثر الأحيان يبدو ثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزنوف يستهلك معانيه ويهوى به في حضيض القموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردى . ومهما أحتال خصومه في الحط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات في القرن الرابع ، وأنه رفع مجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدين كانت تمضى طعمة الفقر والجهول ولم يسما يمنه وإقباله ولم تعتمد على بره الوافر وساعده المتين^(١) .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . ونأرى كتابنا يجد في غير هذا الفصل جوانب أخرى من الصاحب تم شخصيته التاريخية التي كانت من أظهر الشخصيات في القرن الرابع .

٨ - أبو بكر الخوارزمي

١ - وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي وشغلت الناس عدة أجيال . والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذي يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمتلكها كاتب سواه . وكذلك كان الخوارزمي فهو في ثمره عقل قوى يمتاز من العقول التي سبقتة أو عاصرتة . وليس معنى ذلك أنه يفوقها جميعا . فهو دون ابن العميد في سمو الغرض ، ودون بدیع الزمان في حلاوة التعبير ، ودون التوحيدى في وفرة المحصول ، ولكتنا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال — والنبوغ الأدبي هو ذلك : فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ . ولكن يكفي أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيض النخيل . وقد كان الخوارزمي شاعرا ، ولكن ديوانه ضائع . ولم يبق من شعره إلا القليل ، فن الصعب أن نعطى القارئ فكرة عن حياته الشعرية ، وإن كان من السهل أن نجزم بأن نحوله في الشعر كان أمرا مقضيا ، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار ، منهم الشريف الرضى والمتنبي والمعري وأبو فراس . على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره ، وأن شعره ليس يجيد وإن لم يكن برديء ، من ذلك قوله في بعض الأصنفاء :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندها مقيا وإن أعسرت زرت لما
فأنت إلا البدر إن قل ضومه أعب وإن زاد الضياء أقاما
وقوله فيمن يطلب الصبأ وهو بخيل :

يامن يحاول صرف الراح يشربها ولا يشك لما يلقاه قرطاسا
الكاس والكيس لم يقض أملاؤهما فترغ الكيس حتى تملأ الكاسا^(١)

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمي غير رسائله فلنكتف بها في درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ - لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمي، أما موته ففيه خلاف، فمن قائل أنه توفي سنة ٣٨٣ ومن قائل أنه توفي سنة ٣٩٣^(١) وسُمي الخوارزمي لأن أباه من خوارزم . وقد أقام بالشام مدة وسكن بناوحى حلب ثم انتقل الى نيسابور فأقام بها الى أن مات . وكان الخوارزمي معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم يذكرون أنه قصد صاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجاجه قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحاجب فأعلمه فقال للصاحب قل له : قد ألزمت نفسي أن لا يدخل عليّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر : ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال ، أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال للصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي^(٢) .

٣ - ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت محتاج الى قد : أفكان ممكنا حقا أن يجد الخوارزمي عشرين ألف بيت من شعر النساء ؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عُرف بكثرة المحفوظ ؟ الظاهر ان في هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) الى أن علماء اللغة ورواتها لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى ان الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه في ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لأمراة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم ينج فيها بواحدة لأمراة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لأمراة مجهولة من بني حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار في الوقت نفسه الى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

المرزباني جمع أشعار النساء في كتاب حافل يوجد منه الجزء الثالث في دار الكتب المصرية بخط أندلسي قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة . وفي هذا دليل على أن الرواة سُخِّلُوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وإن كان لا ينكر أن حظ المرأة في الشعر العربي ضئيل ، حتى يمكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما إلى منافسة الرجل في الشعر ، وها نحن أولاء نعيش في عصر من عصور النهضة في اللغة وفي الأدب ، فأين الشواعر المجيدات ، وكم عدهن في هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شيء فقد كان لما حفظه الخوارزمي أثر كبير في أدبه قوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال .

٤ - أما حياته فأظهر ما فيها أحداثا : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد بفسر لنا غرامه بالنيل من المتنبي والنض من شعره ، فهجومه على المتنبي لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحدوه إلى كشف عيوب المتنبي ومساوئه . ولكنه اندفع في ذلك رغبة للصاحب ابن عباد الذي كان يعتقد على المتنبي لترفعه عن مدحه ولإشادته بابن العميد . وأشد ما عرف من هجاء الخوارزمي للتنبي قوله في الرسالة التي كتبها إلى الحاجب أبي إسحق لما نكحه الوزير ابن عباد :

”ونظرت إلى أبي الطيب وإلى تناقض حكمه ، وتفاوت طرق فعلته ، حيث قال في سيف الدولة :

لا تطلبن كرمًا بعد رؤيته إن الكرام بأخفافهم يدا ختموا
ثم قال في كافور الإخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقي

فلقد باع من الوفاء علقا خطيرا ، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا ، وسال ضباب الحرص والرجاء ، بينه وبين العهد والوفاء ، وكان يضاق نفسه في اختبار المتاع ، ويسامحها في اختيار

المبتاع، ويطلع خلفة من نظمه تساوى بدرة، على عرض من لا يساوى بكرة، ويزن كريمة من كرائم شعرة، الى من لم يتم عنده كريمة، ولم تعرف له قيمة، لو رأى الطمع في حجر فادخله، ولو اتاه الدرهم من آست كلب لما غسله، فلا جرم أن الناس كما استحسوا قوله، استقبحو فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من غدرة، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يبرح شهادته، ويعطى ثم يسترجع عطيته. وكمن حرفضه ثم ثلثه؟ وكمن عرض كساه ثم سلبه؟ وكمن صحفة أكل منها ثم بصق فيها^(١).

هـ — وهذه الكلمة نص في أن الخوارزمي كان يحب بشعر المتنبي ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال الى حال، وقد جره ذلك الى التنفي بخلفه هو، واحتفاظه بالود، ووفائه بالمهد، فقال "ولكن في قبص أبي بكر رجلا انا أعطى لم يرجع، واذا طلق لم يراجع، واذا بنى لم يبد على بناءه بالهدم، واذا مدح لم يبطأ على عقب مدحه بالندم، واذا طيب فكيه بالمدح لكريم، لم يلطخهما بمدح للثم، واذا زوج كرائمه كفؤا حجبين أن يتبرجن الالديه، ويمتلين غير عينيه، وإنا القدر من أخلاق النساء، فن تلاق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران، وجنبا الى شق النسوان^(٢)."

فالتنبي مؤث الخلق لأنه قادر، والخوارزمي مذكر الطبع لأنه وفي! هكذا حكم الخوارزمي لنفسه بالنيل، وحكم على المتنبي بالهتاسة، لأن المتنبي يتغير ويقتل، أما الخوارزمي فلا يتلون ولا يحول.

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمي على بفيه الأثم: فسامت الصلوات بينه وبين ابن عباد فتحوّل عنه وشغل بذمه وقدمه بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه، وأستطاع أن يرى ممدوحه يمثل هذا المسموم:

لاجمد ابن عباد وإن هطلت يده بالهود حتى أجمل الديما
فإنها خطرات من وماوسه يعطى ويمنع لا يخل ولا كوما

وجرى في الناس ذكر الخوارزمي بالقلب والتحول حتى قال فيه أحمد بن شبيب :

أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته اذا دامت نحل فمن وقت الصباح الى المساء
وأشد الصاحب حين يلفه خير موده :

أقول لركب من خراسان قافل أمانت خوارزميك قيل لي نعم
قلت اكتبوا بالحص من فوق قبره ألا لمن الرحمن من كفر النعم !

وقد اتصل الخوارزمي بكثير من الرؤساء ، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن استقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ - أما الحوادث الثاني فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشهور قضى عليه ، ويرجع السرفية الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه ، والراغبين في إسقاطه^(١) والى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال في غرارة الصبا ، وغفلة الحداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يهودون الجماهير في ذلك الحين ، وهو غلوهم في التشيع فأتطرق بيكي القتل من أهل البيت ، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك أجمع على الخوارزمي كيد أعدائه في نسابور ولوم مناظرته ومكره ، فعاد وهو مقهور " وأنخذل أنخذلا شديدا وانكسف باله وأنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره " كما قال ياقوت^(٢) .

وقد ثبتت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكتاتين مجرى العتاب ، وهي رسائل جسيمة تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يمدّ الحملة ويتأهب للقتال ، وكان الخوارزمي يقابل عتبه بأرق من النسيم في بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن " أما قبسه فلأنه طاب بريثا ، ونسب الى الإساءة

من لم يكن مسيئا، وأما حسنه فلا تفسد ظله القدر، ومعانيه التي هي كاللدر، فهي كاللديا
 ظاهرها يضر، وباطنها يضر، وكالمرعى على دمن الثرى، منظوره جي، ونخبه وي "وربما
 أنشده :

يأبدع القول حاشا لك من هو بديع
 ويحسن القول عوذ لك من سوء الصنيع
 لا يصب بعضك بعضا كن مليحا في الجميع

وقد مضى الخوارزمي يلائن بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية ، وأن
 ثياب به اذا قبلها ضافية « هذا ما لم يكدر الشريعة بتعته وتصعبه، ولم يخرق الثياب بتعجه
 وتسجه» وهناك يذكر الخوارزمي أنه لا يقول :

وإني لمشتاق الى ظل صاحب يرق ويصفون إن كدرت طليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان، والاخوان اخوان، وحسن العشرة سلطان ،
 ولكنه يقول : وإني لمشتاق الى ظل :

رجل يوازئك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
 فإذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

٧ - على أننا اذا تجاوزنا هذين الحادتين وأخذنا تتلمس شعور ذلك الرجل بإعياه الحياة
 وجدناه يمشي مثل الظاهر بطائفة من التكاليف تدل لها نفسه ويمرح بها كبريائه، الاستازاه
 يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا في به ، فيكون هذا عند ظنه ،
 فيكتب اليه رسالة تجمع فيها هذه الفقرة التي تمثل يؤسه أبشع تمثيل :

"ومن أهدأ أناسا من الفقر، وأنقشله من مغالب الدهر ، وفقه من إसार العسر ، فقد
 أعقته من الرق الأكبر، ونجاه من الموت الأحمر، والرق رقان : رق الملك ورق الهوان،
 والأسر أسران : أسر العدو وأسر الزمان^(١) ."

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل، فكتب الخوارزمي كتابا جاء فيه :

”وأظن أني لو لقيتك عيلا لأتصرفت عنك ، وأنا أعلم منك ، فاني بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائي، غير جلد على أوجاع أصدقائي، ينبو عني سهم الدهر إذا رماني، وينفذ في إذا رمى اخواني، فأقرب سهامه مني، أبعد سهامه عني، كما أن أبعدا عني، أقربها مني“^(١) وهذه الفقرة تمثل جُلدا صبوراً ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور بابعاء الحياة أنطقه بالحكمة في تحليل الحزن ، فهو من أسبق الكتاب الى الإفصاح عن علل المواقف والشهوات ، وانه ليجتثا بأن الانسان حين يحزن للصيبة تحمل بغيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينه أن سيكون له مثل ذلك المصير، اذ كانت المآسى الانسانية كاسا تدور على الجميع . ولنتنظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء في شقيق له :

”ورد على“ خبر وفاة فلان فدارت بي الأرض حيرة، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة، وملأ^(٢) الوله والوهل قلبي وسواسا وفكرة، وتذكرت ما كان يجمعني وإياه من سكرى الشباب والشراب، فعلمت أنه شرب بكاس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها، فبكيت عليه بكاء لي نصفه، وحزنت له حزنا لتعسى شطره“^(٣) .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التي كان يعانيها الخوارزمي بين احداث زمانه جعلته يتشامم من مصيبة من يقاسون إيدبار الأيام^(٤) ، ويتفاعل بالتمرف الى من ينعمون باقبال الزمان ، وهو يرى ”أن من تعلق بذيل القبل أقبل“ ويرى كذلك أن ”أيام المحنة موج من تطاها له تخطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الإيدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته“^(٥) وعنده أن ”الاقبال يستر العيوب، والدولة تجعل البعيد قريبا ، والحمد يرى المظلم مصيبا، والمجدود يمس بيديه، ما لا يراه المحدود بعينه“ وكلتا الإقبال والإيدبار

يحددهما القارئ في رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوساً من هذه الناحية . وفي هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكَم من عقل ضائع ، وكَم من عبقرية أُنحِدت وأُفِلت ، باتصراف المفكر العبقرى الى مناصرة فئة تحتضر ، أو الدفاع عن فكرة تهيم بالأفول . وفهم الخوارزمي للحياة على هذا النحو الدقيق أُملى عليه الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين ، من ذلك قوله في سياسة النفس : ” ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمة ، وانقطع عن ربة الانسانية ، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل ، وكفى بالمرء عارا أن يكون صريح ما كَله ، وقتيل أنامله ، وأن يحنى ببعضه على كَله ، ويعين فرعه على أصله ، فكَم من لقمة أُلْفت نفس حر ، وكَم من أكلة منعت أكالات دهر ، وكَم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكَم من عذوبة خلفها بشاعة الفسوت . وكَم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها الصاكر ، وقطعت جسدا كانت تنبؤ عنه السيوف البواتر ، وهدمت عمرا هدمت به أعمار ، ونحرت بخسرا به بيوت بل أمصار ... والمشتهى غاش لنفسه ، قليل البقا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه ، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤمن على من لا يمازعه ، من لا يؤمن على بعض منه “^(١).

٩ — ولننقل بعد أن أُلْمنا بشيء من حياة الخوارزمي ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكنون سره ، الى فنه الذى عرف به فى اعادة الانشاء ، ولنذكر أولا أنه دلنا على فهمه لسر البيان ، اذ قال فى احدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

”واذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جاذ ، وفى مدحك لاعب ، وأنى فى الشهادة عليك صادق ، وفى الشهادة لك كاذب ، فانظر الى تهاوت قولى اذ لايتك وجاملك ، وإلى اصابتى النرض وحزى المفصل اذ كاشفتك وصدقتك ، وذلك أن الصادق مُعانٌ وماخوذ بيديه ، والكاذب مخذول مضروب عليه “^(٢).

فسر البلاغة عند الخوارزى رجع الى الصدق، وهذا دليل على أنه كان مأخوذاً بفنه مفتوتا به، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر اليان الا اذا صدق، وفى الصدق وحده سر المبقره والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكفين من الكائب والشعراء الذين سحرُوا أعلامهم وعقولهم، وابعوا سمارهم ونفوسهم، ورضوا بأن يكونوا أبواقاً تردد أصوات الأمرين والناهين من أر باب الملك وأصحاب الجاه . وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جنوة خالصة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعواطف والأحاسيس على مر القرون وتتاج الأجيال، واذ ذاك لا يقوم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجليل، وإنما يقاس نبوغ الكائب وتوزن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور، وما تحمل من عناصر القوة الخالدة التى تجعل رها أبا وأخا وأستاذنا وزميلنا لكل من يمر من بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه وبينهم ظروف الزمان والمكان . فالصدق هو المهادى الأمين الذى يسير بنا فى اودية الغرائز الانسانية، فلا نعرف شر الزيف ولا نقاسى ضر الضلال، وحين نصدق ونفنى فى الصدق نتفنى وادعين بأحلام الانسانية المبثوثة فى ضمير الوجود، فلا يفلق عنا سمع، ولا يمزف عن أغانينا أحد من الموقفين، وإنما تفتح لنا صدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيها ما صدقنا فى الإيمان به من أصول الشر والخير، والظلمات والنور، والبر والفجور . فان الحياة كما تعلم، مجموعة من حلم الانسان وجهله، وضلاله وهدهاء، والكائب الانسانى هو الذى يصدق ويفنى فى صدقه حين يواجه ما فى الانسانية من مشا كل عقلية، وأزمات روحية، وثورات نفسية، ثم يتفنى بما فى الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة ورفق وجمال، أو يصرخ مما فيها من شر ولؤم وجور وطفان .

فانا لا أريد اذن بصدق الكائب أن يكون مشغولاً بالخير وحده لا يتفنى إلا به، ولا يتحدث إلا عنه، وإنما أريد أن لا يتكلم الكائب أو الشاعر إلا صادقاً، يتفنى بالخير حين يؤخذ به، ويتفنى بالشر حين يفتن به، وفى صدقه السر كل السر فى فتح ما أغلق من

سرائر النفوس وضمائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا خفي ، وإن شرا فشر ، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكتاب المتناقض فقصيره الى فناء ، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق ، ولا يتناقض إلا الضعيف المخبول الذي لا يشعر لنفسه بوجود خاص ، ومن فقد شخصيته وأطمأن الى الاعتماد على سواء بخديربه أن يياس من أن يروى له قول ، أو يوزن له رأى ، أو يرجى لبهرجه بقاء .

١٠ - ونعود فنذكر أن الخوارزمي يضعف حيناً ويقوى أحيانا ، يسمو ويحقق حين يصدق ، ويهوى ويسف حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول ، لأنه يلتمس الصنعة والزخرف والسجع ، فيبدو شره الضعيف ثقيلاً مجوجاً كالمرأة الفانية حين تتزين وتحتال . ومن ذا الذي يسبق قوله في وصف رجل :

”إذا ناظره العربي صار أعجمياً ، وإذا ناظره الأعجمي صار عربياً ، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره ، وفارق نفقه ، فهو رفيق الجود وخليه ، وزميل الكرم وزيله ، وغرة الدهر وتمجيله ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لا بل حضرة الأفعال والأعمال ، لا بل حضرة الرجال ، تنصب إليها موارد الرغبات ، وتنشد فيها خيول الطلبات“ .

وأقول من هذا ورود الجناس في قوله من كتاب إلى محمد العلوي :

”أذكرك وإن كنت لا أنساه ، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه ، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، وأستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة ، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة“ .

والحرص على السجع في مثل قوله : ”لا تؤثر عمل اليوم إلى غد ، ولا تمهل نفسك في شغل السبت إلى الأحد“^(٢) فإن كلمتي السبت والأحد لم تقعا هنا إلا ابتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة في مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمي أنه حمل نفسه ما لا يطبق من التزام الصنعة والسجع في جميع رسائله ، حتى في الموضوعات التي لا تحتمل التكلف ، فكان من الحتم أن يقع في مهاوى الضعف والإسفاف .

١١ - والخوارزمي حين يحمّد يسمو سمو عظيمًا، ويقدم من صور الجذ والمزل ما يمتع النفس ويضطرب الروح . وقد نراه يمزج فيستخفنا الطرب وقيل عليه بنفس لعوب . وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يفتري شوارع القاهرة على ظهر حمار، فقد أتفق الخوارزمي أن شكّا وروده إلى بعض النواحي بعد ما فاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر إلى الآخرة وهو في الدنيا. قال "وأول ما صر بي سوء الدخول على ظهر الحمار، ومعاشرته الحمار، على أن الحمار أيضا حمار، إلا أنه قصير الأذنين، يمشى على رجلين، وكأني كنت بين حمارين، إلا أنني كنت بين جنسين" (١) .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرّ على ناظره، ومتنفس خاطره، وبحال بصره، ومدار فكره، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس، ونام في حاقها وجه صبيح، وتقلب في أطرافها قد ملّح . إلى هنا يمضي الكلام فتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد، ولكن الخوارزمي يفاجئنا بأن بستانه ليس بذلك، ثم يقول "وإنما أذكر بقعة طولها باع، وعرضها ذراع، أعني باع البقعة، وذراع النرة، وأقل من لا، وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ، لو طارت عليها ذبابة لنطقتها، أو دخلتها نملة لسدتها، تسقى بالمسقط صباحًا، وتكت بالخلال مساءً، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين، وأنهارها خمسون إلا تسعة (٢) وأربعين" .

١٢ - ولكن أمثال هذه الفكاهات تمزج كالطيف فيما ترك ذلك الكاتب المحيد، فذلك فقرات تصيدناها من رسائله، وهيئات أن يكون لثله طبع مرح وهو الذي قضى حياته يتمتع بين أحداث البؤس والهووان، فالفكاهة حين تقع تحت سنّ قلبه لا تزيد عن عبث الالفاظ، وتظل نفسه خاملة لا تطرب ولا تمجذل ولا تعرف سرّ الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا في كلام أبي الفتح بن السعيد إذ قال : « وردت رقة الشيخ أصغر من عفة بقة، وأصغر من أملة نلة » (ص ٣٣٥ ج ٥ يا قوت و ٣٤٦ غمار القلوب) . وقال المكال : تنابك أصغر من بقة، وأصغر من بقة، وأخون من ذرة، وأخفى من ذرة (ص ٢٥٥ ج ٤ بنية) . (٣) ص ١١

نسقت أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدم لقراءنا صورا من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأهجاتنا وأحزانتنا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحروين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمي لم يكن من هؤلاء ، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيق ، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء ، وأما مهنة التعليم التي احترفها واكتوى بناورها وكابد ما تقضى به من التجميل والتوقر والاستعجاء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التي جرت بينه وبين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم في الأغلب قوم ممن بسط الله لهم في الرزق ، واستطاعوا أن يغفلوا عنق ذلك الرجل بشيء من المال يقدمونه إليه ثمنا لعلمه وفضله . وتلك محنة نتصورها خطيرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأثقالها أثرا في كبت ذلك الروح وجسه في حدود الحد والزمانة ، وحرمانه من نسائم اللهو المباح .

١٣ — فإذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا إلى جد الخوارزمي وجدناه جديا رصينا يني عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأول ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجهه لأن يراه مما ينال اللثام ، وإنه ليدكر أن "البخل بالسلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله" وأنه يغار على الأدب الكريم ، من المتأدب اللئيم ، وينشد في ذلك :
وأرثي له من موقف السوء عنده كبريتي للطرف والعلاج راحكه

ويود أن يكون الأدب في جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر في أنياب الأسود ، وتجنى لو بيعت الورقة بدينار ، أو كسب الدقتر بقطار ، فلا يتأدب إلا شجاع كى ، ولا يحرز الدفاتر (١) إلا جواد محقى .

وفي مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يلقى آلاما كثيرة من معاصره ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده إلى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة إلى قلقة من بعض الطبائع الدينية التي يورثها العلم والأدب ألوانا من العظمة البغيضة والكبرياء المحقوت ،

وهذا الصنف من المخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير « لا تعلموا أولاد السفلة العلم » وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون الى التحرش بالشخصيات الكبيرة ليم لهم ما يفتنون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجون النابضين والبقرين طمعا فى أن تدبج أسمائهم ويعرفوا بصحة تفهم، وقوة التقد، وسعة الاطلاع .

١٤ — ويظهر أن الخوارزمى ما زال يهاجم حتى وقع فى رُوعه أنه مغلوب . فله فقرات تشعير بجهله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه فى الجواب :

”طلب الشيخ نسخة من رسائل فرجبا بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصهر كرم أختانه ، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت بلحلت الورق من جلدى ، بل من محن خذى ، والقلم من بنائى ، والمداد من ماء أجفائى ، ولأملت هذه النسخة على السفرة البهرة ، ليكتبوه بيد العصمة ، ويخلدوه فى بيت الحكمة ، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه ، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه ، لحاسبت عليه بقلبي ولسانى أدق حساب ، وطلبت شيطانى بتهذيبه وتقيمه أشد طلاب ، ولقلت لحاطرى دقق طرزك، وجود برك، فإن المبتاع كريم، والثمن عظيم، وقد قيل : الراوية أحد الشاعرين، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين“^(١) .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يروج به وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبي محمد العلوى : ”إن قوما أنا أصغرهم لكبار ، وإن أمة أبو ذر شراً لخيار“^(٢) . ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأى اتبيننا أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

ووزن فضله؛ وهو في ذلك معذور لأنه كان يعيش من فيض قلبه وهي حالة جعلتنا نرى المتني في عظمته وكبريائه يبدو في بعض الأحيان وكأنه تابع ذلول .

١٥ - والخوارزمي صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضاً بشعاً رهيباً، مثال ذلك قوله في وصف بعض الولاة :

”ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمانة، وسكاري سكر الثروة، ومتكون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدرهم، ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السُّور في الفار، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار، حتى أقفر الأغنياء، وأتكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته، ومجد صاحب الغلة غته، وحتى نشف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسل، وحتى أحرب البلاد، بل أحرب العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وجب الفقر إلى أهل الغنى، وحتى لقب بالجراد، وكفى أبا الفساد، وحتى صار الدرهم في أيامه، أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أضر من السداد في أماله . فليت إذ أوحش الرجال، حصل المال، وليته إذ ضيع المال، أرضى الرجال، ولكنه حرم الأئتين، فأفلس من الجهتين . وواقع ما الذهب في الغم بالقياس إليه إلا من المصلحين، ولا السوس في الخبز في الصيف عنده إلا من المحسنين، ولا الجحاج بن يوصف الضغنى في أهل العراق إلا أول العادلين، ولا يزدجرد الأئيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلا من النبيين والصديقين، ولا فرعون بن بنى إسرائيل إذا قابله به إلا من الملائكة المقربين^(١) .“

١٦ - وفي الخوارزمي يظهر جيداً في هذه الصورة، فقد وازن بين الحالين : حال الأمن وحال الخوف، وقابل بين الخطتين : خطة العدل وخطة المسف، فأشار إلى أنهم كانوا قبل ورود ذلك الوالى في سكر الغنى وغبوة الأمان، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين، فلما قدم ذلك الوالى أفلم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفي قول الخوارزمي ”حتى أقفر

الأغنياء، واكتشف الفقراء“ دقة بالغة، فإن انكشاف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياة. وسين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غنى افتقر، وإلى فقير ذل وخنق، فهناك اليأس الجائر، والهول المبين . وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان في الشكوى من قاض ظالم “وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود“^(١) . وفي مثل هذا التوافق دليل على أن كتاب ذلك المصير يبالغون في بعض التمايز، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بموالم الحشرات والنبات والحيوان . وقوله “حتى صار الدرهم في أيامه أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أضر من السداد في أنماله“ من المبارات الجميلة لولا أنه تريد لما وقع من مثل هذه المقابلة في شعر الهجاء . وذكر الجحاج ويزجرد وفرعون في الحديث عن الظالمين ليس يحمدهم، ولكنه ورد في صورة مقبولة تشربانه كان يحسن استغلال ما ورد على ألسنة الأقدمين .

١٧ — ولحوارزمي رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح، ولكتنا نجد فيها كلمات قلقة نابية هي أثر الصنعة والتكلف والترام السجع، كقوله في خطاب تلميذه :

”كتابي هذا ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أنعرت، لما أمضى فينا الفراق حكمه، ولا أنفذ فينا سهمه، ولا تقنا جميعا أو رحلنا معا . واني لأظلم الفراق اذا شكوته، وأتمنف البحر اذا هجوته، ويبدى ضرياني، ومن سحى ربياني . فانا كالقاطع يده بيده، والفاجع نفسه بنفسه، ومطرق الفراق الى قلبه، ومتجرع غصص الين وكربه“^(٢)

والفقيرتان الأخيرتان تكرر تقبيل . والمعنى كله ماخوذ من أبيات حووها الخوارزمي :

ومى في الأصل الذى أئبته القالى :

تطوى المراحل عن حبيك دأباً وقطل تبكيه بدمع ساجم
كذبك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم

(٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمي.

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان .

أَلَا أَقْبَلْتُ وَلَوْ عَلَى جِمرِ الغَضَا قَلْبْتُ أَوْ حُدَّ الحِسَامِ الصَّارِمِ

ويقول الخوارزمي في هذه الرسالة يصف الأيام الماضية : " كانت أرق من حاشية البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند، بل من القند، وأعقب من الورد، وما أردت إلا ورد الخلد، بل من المسك والتند، وأطيب من القرب بعد البعد، ومن الوصل في أثر الصدة، بل كانت أرق من نسيم الزهر، في السحر، ومن قضاء الوطر، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكاري، أو نهار الحياري^(١) " .

وهذه نماذج كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ - بقی آن فسال هذا السؤال : هل للخوارزمي في جده وهزله فلسفة خاصة يقف

عندها الباحثون ؟

الظاهر أن فهم الخوارزمي للحياة كان واقفا عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه الشخصية . وكان فنه وقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه ، فليست رسائله في جملتها إلا شذرات من المدح والتاب والاستعطاف والمجاء . وهذا أخطر مقتل في تلك الرسائل التي تعد من ذخائر الأدب العربي ، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير من المتأدبين ، فانه لم يهب شطرا من مثوره في الدفاع عن فكرة فلسفية ، أو نزعة وجدانية ، ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص ، ولم يسم به الى سماء من سموات الفن الخالص الذي ينسبنا أعمار المادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمي أنه أشعرا بوجوده ، ووقفنا بجذبه أمام شخصية قوية لها في الحياة مطامع وأهواء ، ولها في عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا ، ولكننا لا نكتفي به . فان الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق والجمال .

١٩ — ولقد أنحاز الخوارزمي الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه . وفي صف هذا المذهب وقف وقفة مخيفة دللتنا على أنه رجل جليل وفضال، ولكنه لم يشعرنا بحب ذلك المذهب، ولم يسكب في روحنا قطرة من الحنان نحو من يكلمهم من الشهداء : لأنه كان يشوب تشييعه بالحقد الأسود على بنى أمية وبنى العباس . ونستطيع أن نقول إنه في هذا الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لما قيمتها في الحياة الاسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحترق في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطلاقة في العورات والهتات حين عرض للخطباء في الفاظ متكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكاري في أرحام القيان^(١) .

ومن الحق أن نقدر أن الرسالة المطولة التي بعث بها الى الشيعة في نيسابور تبدو لمن يقرأها وكأنها صاعقة تصب على رموس من عادي من الرؤساء، وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي وهو أزرق الناب مسموم اللعاب، كالحية التضناض . وفيها كذلك يبدو طيبة وخبثه، وكرمه ولؤمه، وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن مبتل خاشع صبور حين يقول : ” فان أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعودناه، وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد آتتظنناه، وعندنا بمجد الله تعالى لكل حالة آلة، ولكل مقامه مقالة : فنند المحن الصبر، وعند النعم الشكر^(٢) ” . وهو تارة متحزب حقود يعتد آتام الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ويذكر ما آتتظنوا من الجرائم في تقريب المئين، وإقصاء الفاطميين، وله في ذلك لذات مسمومة يعف قلبنا عن تفصيل ما آتتظن عليه من خيبت النعم وفاحش الهباء .

٢٠ — ولا يفوتنا أن نشير الى أن تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة : فقد لوح الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على ألسنة المجاهلية معارضة لأشعار المسلمين، ورواها مثل الواقدي ووهب بن منبه التيمي ومثل الكلبي والشرق بن القطامي والهميم بن عدى، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت للخط من علي بن أبي طالب، وعرفنا

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَنْ قُطِعَ لسانه ومُزِقَ ديوانه فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البرقي فصار لذلك من الشخصيات المجهولة في تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البختري ومروان بن أبي حفصة الأموي وعبد الملك ابن قُرَيْب الأحمسي وبكار بن عبد الله الزيري وأبا السمط بن أبي الجون الأموي وابن أبي الشوارب المبشمي؛ هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتحامل على آل أبي طالب ^(١) .

وهذا كلام ليس جليلا في ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم، ولكن وروده على لسان الخوارزمي مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لما أهميتها في تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين، ويدعو الى الاعتراض مما نسب الى كثير من المتقدمين .

٩ - قابوس بن وشمكير

١ - في سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتابا صغيرا اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربية ببغداد، فمن الواجب في رأس هذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتي القاضيين نعمان الأعظمي ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ - أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شملت أرفع مكان بين كتاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عثمه ابن شهيد ضربها لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطامع قه "شمس المعالي" . ولكن فتنة نشأت في الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيه نغر الدولة في السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أد أنهزم نغر الدولة وبلغا الى قابوس فأكرمه ورعاه ، فاحفظ ذلك عضد الدولة الذي أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ ونز قابوس لاجئا الى خراسان . وبعد سنتين استطاع نغر الدولة أن يعود الى ملكه وكانت بلاد قابوس في جملة ، ففكر قابوس في الاستفادة من هذا الظرف ، ولكنه موطن لنية كان يخفيها الوزير ابن عباد . فلما توفي نغر الدولة سنة ٣٨٧ أعاد قابوس حمتين عسكريتين واسترد ملكه سنة ٣٨٨ ، ولكن عصره كان مملوءا بالفلاقل والاضطرابات فاتهى الأمر بجلعه وتولية ابنه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذي أكرهه على الفرار الى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ - كان قابوس من الملوك الأدباء ، وكان للظروف القاسية التي عاناها في حياته السياسية أثر بالغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذي يغلب على شعره وثره . وهو يذتر بالمعتمد بن عباد الأندلسي ، فكلامها بكى ملكه وحظه ومجده ، ولنتظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجته منها حائرا كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى وأصبح جمى فى ضمان التضرقى
 فقد بقيت لى همة ما ورامعا منال لراج أو بلوغ لمترقى
 ولى نفس حر تائف الضيم مرىبا وتصكره ورد المنهل المترقى
 فارت تفتت قمى فله دزها وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدين وقد وصلت الى أظب الجملهير لىناية
 المؤلفين بأختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف البحر صيرنا هل حارب البحر إلا من له خطر
 أما ترى البحر تسلفوقه جيف وتستخر بأقصى قاعه الدور
 فان تكن نشئت أبدى الزمان بنا وثالنا من تئادى بؤسه الضر
 فى السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمعر

وله أيضا هذه القطعة يمرض بمن رقتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

باقه لا تهضى يا دولة السفلى وقصرى فضل ما أرخت من طولك
 أسرفت فأقتصدى ، جاوزت فأنصرفى عن التهور ، ثم أمشى على مهل
 غنمون ولم تخلم أوائلهم غولون وكانوا أرذل النسل

وبمناسبة شعر قايوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستخير مودقى فأحسن منها فى الفؤاد ديبى
 لا عضولى إلا وفيه صباية فكان أعضاى خقرن قلوبا .

٣ - أما ثر قايوس فأعجوبة من أعجيب فن الانشاء . هو ثر مصنوع صنعة دقيقة

جدا لا يدرك كتبها إلا الفحول . وقد عنى بدراسة من المتقدمين عبد الرحمن الزيدادى الذى
 اختار من رسائله ما سماه " كمال البلاغة " ودراسة الزيدادى لثر قايوس جدية بأن يعود اليها
 الأدباء بالنقد والتحجيس ، لأنها مكحلة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواعا لم يكن وجعلها

قدامة بن جعفر فيا فقتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من النعوت، وهي أربعة عشر نوتا . منها المجمع كقوله :

”صام عن جواب ما نفذ إليه، ونام عما لزمه في حق الاعتماد عليه“ .

وسماه مجنبا لأنه شبهه بشيء له جناحان من قيل أن في أوله مجبعا وفي آخره مجبعا وبينهما واسطة . فكلمة (صام) في أول القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) في أول القرينة الثانية . ومنها الممثل كقوله :

”ولا يسجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول“ .
وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

”أين الطبع الذي هو للصدود صدود، ولتألف ألوف ودود“ .
وسماه كذلك لأن اسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود وصدود من جنس واحد، وتألف وألوف من جنس واحد .
ومنها مشابهة الصور كقوله :

”أنا خالف، فأحسبه قد خالف، وإذا أعار، فأحسبه قد أعار“ .
وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات في الخط : خالف وخالف في صورة واحدة ، وكذلك أعار وأعار .

واليزدادى مفتون فتنة مطبقة بثر قابوس، وأنظر كيف علّق على قوله :

”قد خلد ذلك في بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار“ .

فانه يقول : (هذا كلام لا أعرف في جودة صناعته وغرابة معناه كلاما : لأنه مثل سواد الليل بالمداد، وبياض النهار بالقرطاس، وهما شيان ليس لهما نظيران في البقاء، وهذه القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع في تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمع به

طبع الكتاب ونهى به قرائعهم ، فإني قد أجلت الفكر في عدة ألفاظ رائية الأوانرظم أجدها منها ما يقع موقعه في الوفاق . وكان ما أتى وحضر في غاية النور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع ^(١) .

وفي مكان آخر يقول :

”وأنا إن رمت العبارة من بدائع هذه الرسائل عيت به لإعجازها ، ولأنه كلام مبين ، في الفصاحة والمعنوية والبدعة والإيجاز ، للكلام المهود الجاري على ألسنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولأن المعرفة البشرية ، والأدراك الطباعي ، بل هو إفاضة القوة العلوية“ ^(٢) .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقاً من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق الزيدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوحاً من البديع لا توجد في كلام غير كلام قابوس . فهى في جملة ما تريد للصنعة التي عرف بها المتقنمون . وكل ما تمتاز به هو شدة الأسر ، وأطراد الفن في جميع أجزائها بحيث يمكن أن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هي أن هاد الغرب اليوم يأخذون على تنخاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة في الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا ما يجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلاً قول التمايلي في الزوزنى الكاتب :

”يفرس الدر في أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“ .

فإن هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حلت ما فيها من استمارة لأعيانك الأمر وضاق بك المجال . وهى في جملة شعوذة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية في الحسن والرواء .

وقول التمايلي أيضاً في أبي الفرج الليث :

”له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت ، بل حب التمام“ .

فان الانتقال من هذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عند الكاتب أنه مرض ما مرّ
بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن ننقد رسائل قابوس من هذه الناحية وجدناه يخلق أحيانا
ويستف حينا . فن المستجاد له هذه العبارة :

”ولا يبغي أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، وياذن لطوالع معاليه بالأفول“ .
فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن أنظر قوله في وصف ثرابن العميد :
”ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسم ، لما قابلت بصغيري
زيمره ، وما ساجلت ببعيث جريره“^(١) .

فان الربط بين هذه الصور صعب ، لأنه قابل بين المنسم والسم ، ثم أنتقل فقابل بين
الصغير والزير ، وأبعد من هذا انتقاله في قوله ”وما ساجلت ببعيث جريره“ فان القارئ يحتاج
إلى تأمل وتفكير في تصوّر هذه القرينة الأخيرة ، الى أن يتاح له من يفهمه أنها إشارة إلى
البعيث وجرير من بين الشعراء .

ويستجاد قوله :

”حتى يثر ما أزهى من القول ، ويمطر ما أنشأ من سحاب الفضل“^(٢) .
لأن الزهر والتمر والمطر والسحاب مما ينطب الجمع بينه في عالم الوجود . ولكن أنظر قوله :
”الدنيا شجرة ثمرتها النوائب ، وبيضة مضمونها العجائب“ .
فان الانتقال من الشجرة الى البيض شطط غير مقبول .
ويستجاد قوله :

”أمن محر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميله الإعتاب ، أم
من صفاقة الدهر يحنّ نبوه فقد بنا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إياه فقد
أبى على كل علاج“^(٣) .

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات، ولكن أنظر قوله :

”فأما ذلك الملمح فما أحرأه بأن يلجم فيه مسرح وعده، ويتج بالبحج ماضته نسج يده“^(١).
فإن هذه الأخيصة قليلة الاختلاف .

٧ — ومن الحق أن أقدر أنني أجد صعوبة في البحث عن مقاتل هذا الكاتب الفنان،
فأكثر صوره وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التألف والانساق . ويسجني قوله :
”فن أين للضباب، صوب السحاب، وللغراب، هوى المقاب“^(٢).

وقوله :

”ولم لا يستدّ عازب الرأي فيعلم أنه ما لم يعاود الصلة مأفون، ويستعيد غائب الفكر
فيفهم أنه ما دام على الفرقة مقبون، أظنه يقدر الاستغناء عنى هو الغنى والفناء، ولا يدري أن
الأكثواء على هو الليل والبلاء، ويمثال أنه مكثف بجباهه وعرضه، ولا يشعر أنى كل لبضه،
وطول في عرضه، وأن قوة الجناح بالقوادم والنفوف، وعمل الرماح بالأسنة والموالى“^(٣).

وله أحيانا مبالغات يظهر فيها الفلو والإسراف، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليها
نسمة من القبول . وإليك قوله :

”بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء، وجسم المياه، وفصل تراكب السماء، وألف
بين النار والماء، وأكد ضياء الشمس والقمر، وكفاهما عناء السير والسفر، وسد مناخر
الرياح الزمازع، وطبق أجفان البروق اللوامع، وقطع ألسنة الرعد بسيف الوعيد، ونظم
صوب الفهم نظم الفريد، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل، وقضى بما يراه على القضاء
النازل، وعرض الشيطان بمعرض الإنسان، وكلل الحور العين بصور التيلان، وأثبت
العشب على البحار، وألهم الليل ضوء النهار“^(٤).

(١) ص ٨١ (٢) ص ٧٧ (٣) ص ٥٦ (٤) ليل الصواب (مثل) بالتشديد .

(٥) ص ٥٥

٨ - وهذه القطعة التي نمدحها من المبالغات والتهويلات، ألا تدلنا على شيء؟ إنها تدلنا على أن الانسان كان يعلم منذ أجيال بالتحكم في الأرض والسماء، والماء والهواء. إن هذا الكلام الذي نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس، أو قاله ملك إنجلترا اليوم، لما رأى الناس فيه شيئا من الغلو والاسراف. فقد أستطاع الانسان في هذا الجيل أن يكبد ضوء الشمس والقمر، وأن يسخر الهواء، وأن يؤلف بين النار والماء، وأن يسد مناخر الرياح، وأن يطبق أجفان البرق، وأن يسدل الطابع من حال إلى حال. وقد ألبس الليل ضوء النهار، ولم يبق إلا أن ينبت الشب على البحار.

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة عجيبة من أحلام الانسانية. فهذا الطيران الذي أصبح قوة القوّى في هذا العصر كان حلما يتردد كثيرا في أخيلة الأقدمين؛ فقد تصوروا لسيان بساط الريح، وقدروا أن سيكون في الجنة طيارون، ولم يتخلوا الملائكة إلا مجتمعين، لأنهم كانوا يرون القوة الكاملة في أن يطير الانسان من أفق إلى أفق، ومن قطر إلى قطر، كلما بعثه الدواعي وأهابت به الظروف.

فما نراه مبالغة في كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الانساني الذي قدّر ما ينتظر له من اليأس والقوة في عالم الوجود. ولنتنظر كيف يقول في نفس الرسالة التي اقتطفنا منها القطعة السالفة :

”كيف يُزهد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده، وتبع مراده، ينظر أمره ليمتثل، ويرقب نيه فيعتل؟ وكيف يُجبر من تضاءلت الأرض تحت قدمه، وصارت في الاقياد له تكفمه؟ إذا رأت منه هشاشة أعشبت، وإن أحست منه بحفوة أجبدت؟ وكيف يستغنى عن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره الليالي والأيام، فن هرب منه أدركه بمكائدها، ومن طلبه وجده في مراصدها؟ وكيف يُمرض عن مُرض رفاة العيش بإعراضه، وتقبض الأرزاق بأقباضه، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل، وأهلّ هلال الجد إذا تهلل؟ وكيف يزعم على من تحقر في عينه الدنيا، ويرى تحته السماء العليا، قد ركب عتق الفلك، وأستوى على

ذات الحُك، فبرجت له البروج، وتكوّنت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة،
وأثّرت بمآثره أوضاع الثرى^(١).

وإني لأنتظر أن يحقق الإنسان الحاضر جميع الخيالات التي مرت بذهن الإنسان الغابر،
فقد كان الإنسان يضيف إلى الجن جميع القوى التي تميز عن إدراكها وسائله المادية،
ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، ترى أن
الإنسان كان يضيف إلى الجن أعمالاً غريبة معقدة هي اليوم أيسر ما يأتي به الإنسان في أعوام
الحروب. وستبدل تبعاً لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان،
فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتسمى أكثر المبالغات تماير عادية لا شطط فيها ولا جموح.
وسيتظر أن يكون للإنسان الحاضر أوهام جديدة، وخیالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه
من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التي
يتصورها الإنسان الحديث. ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود،
فقد تشبّث الإنسان بهذا الحلم في جميع أدواره التاريخية، وعز عليه أن تكون أيامه في هذه
الدنيا هي كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تنازع الأرواح الذي تملق بأهدابه
الأفئدة إلا تعزية لهذا الإنسان القاني الذي يزعمه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات.
وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الإنسانية فقرّرت في ثقة مصحوبه بالرفق والعطف
أن سيكون للإنسان حياة أخرى هي أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأن سيكون له جنة ونعيم،
وروح وريحان. ولا أكنم القارئ أنني أعجب كيف يعيش الناس في بعض أنحاء الصين
في ظلال المعتقدات الخافتة التي تنذر بأن لا حياة بعد الموت، وأن لا رجعة للإنسان بعد
فراق دنياه.

إن الإنسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الآثار المادية والمنعوية التي يفتني الناس
فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود. والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاعهم في أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخبير والبر الى ملكوت السموات ، عليهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إني لأذكر ، وأنا أكتب هذا ، أن دنوتريو شاعر ايطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تحلق في الأجواء ، ولم ذلك ؟ لأنت الشاعر الذي يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التي حولت الأحلام الى حقائق ، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هي الأمنية الباقية التي يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفة من المخترعات التي يتمتع بها الناس والتي صارت مألوفة لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وإن كشف أسرار الكهرباء لبشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية ، فقد يكون ما وصلنا اليه قشورا من المعارف الأولية في هذا الباب . فليت شعري كيف يحيا الناس بعدنا ؟ بل ليت شعري كيف عاش الناس قبلنا ، وكيف كانت علوم الفراغة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟ .

في اللحظة التي أكتب فيها هذه الملاحظات أفاسي بعض الألم في الأمعاء ، ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت في قصر حياتي على طائفة من الأعمال الأدبية التي لا تقدم الانسانية إلا بمقدار ضئيل ، وتريد وحشيتي كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبدأوته ، ويعرف كيف فضل السلام ، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إفناء . وليس أمامي إلا هذا الأمل الصغير : وهو أني سأعود الى العالم عن طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلني به ، وشغل معي جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونعود بعد هذا فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة في أكثر ما يكتب ،

حتى في الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة متقلة بالسيح والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه في العالم ، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذي يفضي بالإنسان الى الفناء ، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم الغافى الى عالم خلود . وأنظر كيف يقول :

”إننا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ... ولو لم يكن لنا هذا التدريب والممارسة للشاهدات ، ثم القياس بها على المغيبات ، لكنا نأبى قبول قول واصف الحيوان بما على صورة مخالفة لمعهودنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التي شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه ان كون ما وصفه جائز ، وغير مدفوع ان تأتى القدرة من البارى بحيوان لم نشاهده في صورته الخاصة به . بفائز على هذا القياس أن تحدث قدرة البارى جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول في الشرف والكمال ، فلا توجد في شيء من أحواله حال تناق الاستقامة ، وتباين الحكمة ، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء ، ممترا عن الزوال والافتضاء“^(١) .

وفي رأى قايوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة البارى عز شأنه ، ولا ينبغي أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأثر منها على متقدم منزلة وشرف ، وفضيلة كمال : ”هلا فعل ذلك في الأول ؟“ لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف ، والآخر خيرا مما سبق ، كان أدل على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع .

١ . — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فتأمل تقلبات السوالم المختلفة منذ نشأتها البعيدة الى وجودها الحاضر . ولكن رويدا ، فانا أكتب هذا في غرفة مفلكة النوافذ ، مسدولة

الستائر، لا يهين فيها غير الكلاب والمصباح، وليس لدى من وسائل التحقيق غير الخيال .
ومع هذا فليسمع القارئ ان شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هي قارة ، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت ، فإن هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقيا في عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدري القارئ في كم مليون من السنين كوت الطبيعة بوناز موزنيق ؟ وهل يعرف في كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكون لمدغشقر وجودا خاصا بحيث تنفرد في حيوانها ونباتها عن أفريقيا بعض الاقتراق ! إن مدغشقر تخصص بنوع فذ من أنواع الغراب ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر ، أبيض الصدر ، كأنه يستعد لحفلة ساهرة ! قى كم جيل شاب ذلك الغراب الذى جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أبيض أهللى وصار القار كاللبن الحليب

الا يمكن أن يكون هذا التطور البطئ جدا الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المتراعى الأطراف ، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحول بها الموجودات من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، في مدى ما لا نعرف ولا نفرض من طوال الأجيال .
اذن فلنسمع للانسانية أن تعلم بأن سيكون من نتائج هذا التطور أن تظفر يوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود ، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ - وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هي تقديره لنفس الحيوان ، فمنده أن قوة الفكر والتمييز كامة في جميع الحيوانات ، وما من أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه في طلب المعاش ، والاحتراز من المضار والآفات . وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى آتياه منه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا الى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة ، ثم ما كان مكفيا بحوله وقوته في دفع المضار عن نفسه وحريمه ، ومستغنيا في تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أصدق وفاء وخلة لما عرفه

وشاهده، وألفه وأعاده، ثم ما كان يجيئه وخلقه نظيفا لا يحتاج إلى الاغتسال بالماء، ولا إلى الترين بزينة متخذة من خارج، وإنما يفتنه حسن شعره في مختلف ألوانه، وأنوار ريشه. في صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المحبوب، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمدّه على طبع واحد: لا يتبدل حالا بحال، ولا يتغير بين غدوّ وأصال ... وما أبعد نظر قابوس اذ يقول :

”كل هذا الذي ذكرته من الأوصاف الجميلة، والخصال المرضية، في سائر الحيوانات موجود، وفي الانسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة ، ومعرفة أفلاطون وأرسططاليس ، وفيثاغورس واثينافليس ، وأرشيدس وبلبيوس ، وهرمس واليس ، فلا العالم به ينال من العمر مزينا، ولا الشقي يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم ، أن يبر الظباء طب لهذا الحكيم العالم ، وما يتولد في أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف في الناس معدوم“ .

ولقابوس آراء في الفلك والنجوم هي صورة لمعارف أهل عصره في هذا العلم ، يضيئ عن تفهدها المجال ، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك ، والعلم يحضى بأقدام راسخة في تحقيق أوهام الأولين ، وفوق كل ذي علم عليم^(١) .

(١) أنظر ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما في آراء قابوس إنكاره للتكنية : فهي عنه منقعة للآباء . ومن رآه أن التكنية رسم حدث في أيام ملوك السعديين إذ كانت عنهم روائع العرب فكان يقال إذا زار أحد الآباء أبيه : جاء أبو فلان وأبو فلان ، أي أن هذا والد فلان وذاك والد فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه ، فلا يترض الاشارة فيه ، فلا دارت الأيام على ذلك ، صارت هذه النسبة رتبة لأولئك) ويضيف قابوس الى هذا أن التكني ”ترتب برتبة أهل القصة ، واستعمال رسوم تلك الأمة . وقيح جميع المسلمين ، أن يكونوا بسماهم منسحين“ أنظر ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى نكاد نخزيم بأن لكل كاتب تكنية ، والتكنية هي التي ميزت بين الحسن بن عبد الله السكري والحسن بن عبد الله السكري فهما متناويان في النسبة وتفرق بينهما التكنية : فأحدهما أبو أحمد ، وثانها أبو هلال .

= ومن المعتدل أن يكون رأى قابوس صحيحا في أصل التكنية ، ولكن لامية في أنها صارت عادة عربية . فان الملاحظ
يحدثنا أن كل من اسمه على صار يكنى بأبي الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبي حفص (الحيران ص ١٥٩ ج ١)
ويحدثنا ابن النديم أن عبد الله بن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكنى بأبي محمد (المقهور ص ١٧٢)
وابن أبي الحديد يفتبر أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بني ساسان لم يكنوا أحد من رعاياها قط
ولا سماها في شعرو ولا خطبة وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة وأن بخافة العرب لسوء أديها ونظمت تركيبا كانوا اذا أتوا
النبي صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .

والكنية مألوفة في شر العرب . قال القرزوقي :

وقد تبنى الأسماء في الناس والكنى كثيرا ولكن ميزوا في انشلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له . من ذلك قول أبي صفير الخليل :

أبي القسلب إلا حبا عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد الناس في العصر الحاضر ، وأهل مصر يكتنون الرجل أحيانا باسم أبيه لا باسم ابنه فيقال
(أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التشريف في مصر : فكان السيد أحمد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مردييه في ليلة من
ليالى رمضان في غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرسون بكاهم ألين الفسح ، وهو تقليد يدل على أن
الكنية كان لها في ذلك البيت معنى من معاني التشريف .

فان صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الله فان انتفاها الى الجزئ الاساسى في هذا الوضع
الشريف دليل على أن التقدير قادر على قلب المعاني في كل شيء . وما أكثر ما تلونت الألفاظ والأوضاع باختلاف
الأجيال !

١٠ - أبو اسحاق الصابي

١ - تلك شخصية جذابة أمّحت بالحوادث، وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان. فقد كان من حظ الصابي أن رأى الأيام في إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان اليأس أضعاف ما شهد من ألوان النعم : فكان لتلك أثر في صفاء نفسه، ودقة حسه . والحظ الذي يعطى ثم يأخذ بالتمثال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ المواتي الذي تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابي صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة ببغداد واعتقله في سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدي القيلة لولا شفاعة الشافعين، وظل يعاني أحداث الأيام الى أن توفي في شوال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ - وأول ما بلغت النظر من أخلاق الصابي انه كان رجلاً ألوفاً حلوا الشئام بلين التأثير في أنفس معاصريه . كان صابئياً ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فأمتنع ، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل - والصابئون يحرمون الفول والحمام^(١) - ولكن حرصه على دينه لم يحمل بينه وبين التحل بأكرم الخصال في رعاية الاسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلته . وفي هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم النوق، كريم الطبع، نجافته نفسه عن معاداة الاسلام وترفع قلبه عن إضمار البغض للمسلمين . وفي حفظه القرآن كفاية لعصمة روحه من وضر الشرك وقبح الريغ ، فأن القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية في حل حافظه على الأتس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الايمان . والصدافة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

(٢) من ٢٢٦ ج ١ باقوت .

(١) من ٣٢٤ ج ١ باقوت .

روحا إسلاميا عاليا يسمو بطلفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم في ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة الى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن جمالة الصابي للسامين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبيل النفس ، وعظمة الروح . فليس باليسر أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التي يوجبها اختلاف العقائد ، وليس من السهل أن يصل الرجل الى حقيقة المظلة الروحية حين يرى القرآن أجل من أن يعادى و يراه لذلك جدرا بالحفظ والإجلال .

٣ - وقد جوزى الصابي على هذا الرفق أجمل جزاء، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف في عصره، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدرنا الظروف التي جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابي وأقترضا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسي الذي جعل من الصابي نصيرا للشريف^(١) فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابي وكرم تحيزه وطهارة قلبه أكبر الأثر في التوفيق بين تينك النفسين الماليتين ، ويكنى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابي حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا، وهي في طولها بحكمة النسيج، جيدة السبك، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق . ومن الخير أن نشير الى أن الرضى صور في تلك القصيدة جانين من أهم الجوانب في بكاء مثل ذلك الفقيد : الأول حزنه لفقده ، والثاني نكبة الأدب في ذلك القلم البليغ . ولننظر كيف صور حزنه وتضجعه في قوله :

بُعداً ليومك في الزمان فإنه	أقضى العيون وقت في الأعضاد
لا ينفد الدمع الذي يبكي به	إن القلوب له من الأمداد
أعزز على أن أراك وقد خلت	من جانبيك مقاعد العواد
أعزز على أن يفارق ناظري	لمعان ذاك الكوكب الوقاد
أعزز على أن تزلت بمنزل	متشابه الأجداد والأوواد

الى أن يقول :

يأيت أنى ما أقتيتك صاحباً	كم قُتية جلبت أمى لفساوى
برد القلوب لمن تحب بقاءه	مما يجر حرارة الأكباد
ويقول من لم يدركتهك إنهم	تقصوا به عندنا من الأعداد
هيئات أدرج بين برديك الردى	رجل الرجال وأوحد الآحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والآساب :

الفضل ناسب بيننا أن لم يكن	شرفى مناسبه ولا ميلادى
أن لم تكن من أسرقى وعشيقى	فلأنت أعطهم يدا بودادى
لولا لم يكن على الأصول فقد وفى	شرف الحدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحين الى أيامها الخوالى، وضيق الأرض بالبأكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التناث بيننا بمعاود	أبدا وليس زماننا بمعاد
ضاعت على الأرض بعدك كلها	وتركت أضيقها على بلادى
لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه	ومن الدموع روائح وغواوى
سلوا من الأبراد جسمك وأنثى	جسمى يسلى عليك فى الأبراد
إن الدموع عليك غير بمجيلة	والقلب بالسألوان غير جواد
سؤدت ما بين القضاء وناظرى	وغسلت من عيني كل سواد
رى الخسود من اللدامع شاهد	أن القلوب من الغليل صواد
ما كنت أخشى أن تضن بلفظة	لتقوم بمسلك لى مقام الزاد ^(١)

وفى هذه القطع التى اخترناها بيان لتلك الألفة الوثيقة التى كانت بين ذينك الرجلين،

وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة ، واستكثر الناس عليه فى دينه وجهه أن يبكى رجلاً^(٢)

(١) محمد بن القصة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان -

صابتا بمثل هذا الشعر الحزين، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسب الشريف الرضى منزلة الدين والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته ، ولنتنظر كيف يقول :

وصحائف فيها الأرقام كمن
مرهوبة الإصدار والارباد
تدعى طوائفها اذا استعرضتها
من شدة التحذير والإبعاد
حمر على نظر المدق كآنى
بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطل
أن ينهزم من هزائم الأجناد
وتكون سوطا للحرور إذا وفى
وعنان عنق الجراح المتماذى
ترقى وتلدغ فى القلوب وإن يشأ
حط التجوم بها من الأبعاد

٤ — وما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأحداث ورفعة شأنه بين النبهاء من معاصريه ما وقع بينه وبين المتنبي . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار، فقال أبو الطيب :

” قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علىّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبه ، وأنا ان مدحتك تنكر لك الوزير — يعنى المهلبى — وتغير عليك ، لأشئ لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك الى ما التست ، وما أريد منك مثالا ، ولا عن شعري عوضا“ .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم^(١) فكان المتنبي بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمنزلة الصابى فى صدر رجل كالمتنبي وإشارة الى ما كان يسمو إليه من التطلع الى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

٥ - وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت ، وطعم الصاحب ابن عباد فى استقدامه إليه تشوقاً أو تشرفاً ، ولكن الصابى أحتمل عدوان زمانه وظلم أيامه ، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال .

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استبعاد الكتاب والشعراء ، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتاب الدنيا فى عصره . وفى أخبار الصاحب اعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب .

تلك الحواوب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيثارة إنسانية كثيرة الريح والحنين . لقد عرف حلو العيش ومره ، فكان له بذلك أصدقاء أدانهم منه النعم وأقصاهم عنه البؤس ، وتلك أزمة يعانها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتبديل النفوس . ولنتنظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء :

” لو حملت نفسى على الاستشفاع والسؤال ، لضاق علىّ فيه المرتكض والجهال ، لأن الناس عندنا ، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم ، طائفتان : طائفة مجاملة ترى أنها قد وفقت خيرها ، إذا كففتك شرها ، وأجزلت لك رفقها ، إذا أجنبتك كيدها ، ومكاشفة تنزى إلى القبيح تزو الجنادب ، أو تدب ديب المقارب ، فان عوتبوا حسموا قناع الشقاق ، وإن غولطوا تلمسوا بئام التفاق ، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام :

أيارب كل الناس أبناء علة	أما تعثر الدنيا لنا بصديق!
وجوه بها من مضمر القتل شاهد	ذوات أديم فى التفاق صديق
إذا اعترضوا عند اللقاء فانهم	قذى لعيون أو شجا لحلق
وإن أظهروا برد الوداد وظله	أسروا من الشحنة حرق
اخروحدة قد آنسنى كأننى	بها نازل فى معشر ورفيق
فذلك خير للفنى من نوائه	بمبعدة من صاحب وصديق

٦ - وبمناسبة هذا الشعر قُتِر أن الصابي يتناز بين معاصره من الكلاب برقة الشعر وعذوبته ، ويكاد يتر على أنه شاعر فحل ، ولهذا أهميته في تقدير كفايته الثرية ، إذا لاحظنا أن النثر الفني الذي أُعْهِم به معاصروه ذو ثر شعري ، لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن وفي بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله في التقدير الشيق يشبه بالفنن الرطيب :

إن نحن قسناك بالفنن الرطيب فقد خفنا عليك به ظلمنا وعدوانا
الفنن أحسن ما نلقاه مكسبا وأنت أحسن ما نلقاه عرياناً
وقوله في أثر العناق :

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى بيجارية أُمى بها القلب يلهجُ
إذا أمتجت أنفاسنا بالترامنا توهمت أن الروح بالروح يمزج
كأنى وقد قبلتها بعد هجمة ووجدى ما بين الجوانح يلمع
أضفت إلى النفس التي بين أضلى بأنفاسها تنسا إلى الصدر توج
فإن قيل لي اخترأيما شئت منهما فإني إلى النفس الجديدة أحوج

وبدع الزمان في المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ ، فهو عندهم : " من لم يقصر نظمه عن ثرد ، ولم يزر كلامه بشعره " ^(١) وكذلك كان الصابي : فهو يجيد في الصناعتين إجادة لم تتفق لغيره إلا قليلا .

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابي

١ - أما تر الصابي فهو في الأظلم موضوعي، لأنه في أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التي يخدمها، ويندر أن يتحدث عن نفسه . وهي مهمة دقيقة لا يوفق إلى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتاب الفحول . وأقول ما يروعننا من تر الصابي فناء روحه في البيئة الإسلامية التي يعيش فيها ، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدث بلغته ، وتجري تأييره وأخيلته وكأنما تستمد وحيا من القرآن ، وهو في هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : ^١ لا تحمدہ الصفات، ولا تحوزہ الجہات، ولا تحصرہ قرارة مکان، ولا یسیرہ مرور زمان، ولا تتسلہ العیون بنواظرہا ، ولا تحفیلہ التعلوب بنواظرہا، فاطر السموات وما تظلل، وخالق الأرض وما تھقل، الذی دل بلطف صنتہ، علی جلیل حکمتہ، وبین بجلی برہانہ، عن خفی وجدانہ، وأستغنی بالقدرۃ عن الأعوان، وأستعل بالعرۃ من الأقران ، البعید عن کل معادل ومضارع، الممتنع علی کل مطاول ومقارع، الدائم الذی لا یزول ولا یحول، العادل الذی لا یظلم ولا یجور ، الکرم الذی لا یضن ولا یغفل، الحليم الذی لا یسجل ولا یحیل، ذلکم اللہ ربکم فأدعوہ مخلصین لہ الدین^(١) .

٢ - ولو أننا قارنا هذه المبارات بأمثلها مما تكلم به الشريف الرضي على لسان علي بن أبي طالب لرأينا الصابي يستقي من نفس المنبع الذي استقى منه الشريف ، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب ذلك المصركاوا يميلون إلى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأتباعه خصوصا في المواطن التي يناطون فيها الجاهير . وفي ذلك دلالة على أن الروح الدینی كان لا يزال حافظا لبعض صوره الأول يوم كان فصل ما يشاء بالباب الرجال .

٣ - وورود تر الصابي في شئون ادارية ومشا كل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله ومهوده مما تنبؤ عنه ميول القراء في العصر الحديث . فان الكتابات التي تعنى بمشا كل اليوم الحاضر وتشغل بالمتازعات اليومية يكون حظها في الأغلب حظ مقالات الصحف التي تصف الأزمات الوقية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا، وانما يقف نفعا على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابي كذلك لا تنفع في جعلتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهي صريحة في أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وانما يستبد بالأمر من يملك باسهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التي وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

”وأمر المؤمنين بعلكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها ، وعدته التي يعول عليها ، وأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين للمهد في ذلك عليكم عهد البيعة الحاصلة في أعناقكم ، وجعلكم في أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو المخاطلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا منالكة ولا معاملة إلا مع طاعته والاخلاص له سرا وجهرا وقولا وفعلًا ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعملوا عليه واعتمدوه وانتهوا إليه“ .

٤ - فلما تركا ما تنبئ عنه المهود التي كتبها الصابي على السنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا نتلمس الحقائق الباقية من آراء الصابي وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية في يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينه
وكتبه الكافي السديد الموفق
أأأزره فميا غمرا وأمهده
برأى يريه الشمس والليل أغسق
يمجد بي نهج العبلا وهو دارس
ويفتح بي باب الهدى وهو مغلق

فيمتأى يمتأه ولفظي لفظه وعيني له عين بها الدهر يرمق
 ولي فقر تضحي الملوك فقيرة اليها لدى أحداثها حين تطرق
 أرذ بها رأس الجموح فيثني وأجملها سوط الحرون فيمق
 فلان حاولت لطفاً فاء مروق وإن حاولت عفا فنار تألق^(١)
 وقد أشار الرضي في رثائه له الى هذه الناحية من قوته فقال :

من للوك يحز في أحداثها بظي من القول البالغ حداد
 من للعالم لا يزال يدها بسداد أمر ضائع وسداد
 من للصفائل يستدل رماحها ويرد رعلتها^(٢) بغير جلال
 من للوارق يسترد قلوبها بزالزل الإبراق والإرداد^(٣)

٦ - وفي الحق أننا لانجد في رسائل الصابي ما يلتفت النفس اليه إلا بعض الفقرات الوصفية التي تشبه لنا رجلاً فناناً يحكم القول، ويمجد الوصف، وهذه الفقرات قليلة أيضاً، وهي غريبة في الحجج إسهابه وتطويله هنا وهناك، فمن ذلك ما جاء في رسالته عن المعركة التي دارت في آمد آخر رمضان سنة ٣٩٢ بين المسلمين وبين الروم :

”وتلوم أصحابنا بها (أي بآمد) ريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال، ومرة تجم بهم الأوجال، ثم تداني الفريقان، والتقت حلقتا البطان... فثبت الطغاة اعتاراراً بوفور عددهم، وبحماسة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالحق، وصدقهم القتال في المعترك الضيق، فلما استمرت الملحمة، وعلت الضمعة، ودارت رحى الحرب، واستحز الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصابحت بيض الصفاق، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور؛ فنكسوا على أقدامهم مجدين

(١) البنية ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرقة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشرف الرضي . (٤) البطان الحوام يهمل تحت طين البحر، ويقال التقت حلقتا البطان لأنهم إذا اشتد

في الهزيمة، وأغتنموا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، وأستلحمتهم السيوف ، واجتكت فيهم الختوف، وأخذ المسلمون منهم النار، وعجل الله بأرواحهم إلى النار^(١).

٧ - وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلاً، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة : هي أنه كان خيراً بنفوس أهل عصره ، وكان لذلك موقفاً في الوصول إلى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء ، وإرهاب من يكتب في زجرهم من العصاة والتأثرين، وكان يعرف ما يصح أن يسمى " سياسة القول " يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه " لغة المنشورات الرسمية " فيما كتب عن المطبع لله إلى الوزير المهلب سنة ٣٥١ :

" وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها ، وتجهله العامة بقصور أذهانها .

وكانت أوامره - يريد أمير المؤمنين - فيه خارجة اليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله ، والذين يكتبون بالإشارة ، ويحترقون بنسب الإبانة والعبارة ، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحد الذي يلحق المتأثر بالمتقدم ، ويجمع بين العالم والمتعلم ، ولا سيما إذا كان ذلك مما يتعلق بعلامات الرعية ، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية ، دون البواطن الخفية ، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة ، إلى الرسوم المتغيرة ، ليكون القول المشروح لمن برز في المعرفة مذكراً ، ولمن تأخر فيها مبصراً ، لأنه ليس في الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورهم ، ولا أن يقتصر على اللغة الدالة في مخاطبة جمهورها ، حتى إذا استوت الاقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به ، وقفه ما دُعوا إليه ، وصاروا فيه ، على كلمة سواء ، لا يعترضهم شك الشاكين ، ولا استربة المسترئين ، اطمانت قلوبهم ، وأنتشرت صدورهم ، وسقط الخلاف بينهم ، واستمر الاتفاق فيهم ، وأستبقوا أنهم موسسون على استقامة في المنهج ، ومحروسون من جرائر الزيغ والأعوجاج ، فكان الاقياد منهم وهم دارون طالمون ، لا مقلدون مسلبون ، وطامعون غتارون ، لا مكرمون

مجبورون .

٨ - على أن في الرسائل التي كتبها عن الخلفاء فقرات تتحوى الرسائل الاخوانية، وتجري فيها المعاني طليقة رقيقة كأفاس العتاب، فقد كتب عن الطامع لله الى عضد الدولة يقول :

”أما بعد فإنك من المتزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإناقة بك إليها، ألا يصبر منك على حدوث قطعة، ولا ينفى لك على اعتراض جفوة، ولكنه يوجب في الحقوق بينه وبينك، والأواصر المتهدة عنده لك، أن يحم صفة الحال عما يشوبها، وينفيها مما يبيها، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمة طبعك السلام، وسنك المستقيم، ويستقد أنك منه كالعين الناضرة التي تصان عما يقضيها، واليد الباطشة التي تحفظ عما يدويها“ .

غير أني ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومي في العتاب :

لا أجازيك من غرورك إياي غرورا وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا لك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عني وليس من حق عني غص أجفانها على الأقضاء

ومن المعاني الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد قلت ابنته المزوجة بعدة الدولة أبي تغلب إليه بالموصل :

”قد توجه أبو النجم بدر الحرمي وهو الأمين على ما يلحظه، الوفي بما يحفظه، نحوك ياسيدي ومولاي أدام الله عزك بالودعة، وإنما قلت من وطن الى سكن، ومن مفرس الى معرس، ومن أوى بر وانعطاف، الى متى كرامة وإلطف، ومن منبت دوت لها نماء، الى منشأ يحود عليها سماؤه، وهي بضمة مني أفضلت إليك، وتمرة من جني قلبي حصلت لديك، وما بان عني من وصلت جيله بمجلك، وتغيرت له بارع فضلك، وبؤانه المنزل الرحب من جميل خلافتك، وأسكتته الكنف التسيج من كرم شمالك وطرائفك، ولا ضياع على ما تضمه أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك“ .

وقد لاحظ مؤلف اليتمة أن الصابي استمد روح هذا الخطاب عما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابه عن المعتضد الى ابن طولون في ذكر ابنته قطر الندى المقولة إليه ^(١).

٩ - ومما لاحظناه على الفقرة السائفة وما لاحظته التعالي على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابي كان يجهد في استغلال ما ترك الأولون من بديع المنظوم والمشور بطريقة ساحرة خفى بها على أكثر معاصريه ما أخذه من روائع الأدب القديم .

١٠ - وبالرغم من المؤاخذات التي واجهنا بها اثر الصابي فإننا نعتف بأنه نجح في ناحيتين :

الأولى - ظهوره بمظهر التفوق في لغته الفنية الزائفة التي وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى فيها قلمه ، فإنا لا نكاد نجد يكرر معنى أو يعيد لفظا إلا في أحوال قليلة تقتصر لكاتب يحمل على القول ويساق الى اليان ، وكتابتة مع ما فيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع .

الثانية - سعة حيلته في التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من العسير تحديد ما يصلح في التخاطب بين تلك القوى المختلفة التي كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشرار ، وكان يزيد في حرج الصابي ودقة موقفه أنه كان مسئولاً عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسؤولية أثر قوي في رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلزمه في جميع الظروف : فقد وقعت في إحدى رسائله لفظة عتفا عضد الدولة تعريضا به ، وأسرعا في نفسه الى أن ملك العراق فخره وأستصفى أمواله ^(٢) . وقضى لذلك بقية أيامه في عسر دائم أنساه ما مر به من طيات الحياة .

١٢ - أبو عامر بن شهيد

آل شهيد - حياة أبي عامر وصداقه - خبره من المرض - وما ياء الحزنة

١ - "ابن شهيد" اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس ، يتسبون الى شهيد بن عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البرابر ، وقيل إنه رومي^(١) . وأشهر بنى شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموي ، وكان ابن شهيد الوزير معروفاً بالنعاء وحسن التدبير ، وكان كذلك من أبرع الشعراء ، وهو الذي يقول :

ترى البدر منها طالما فكأتماً يحول وشاحها على لؤلؤ رطب
بيدة مهوى القرط غطفة الحشى ومفعمة الخليل مفعمة القلب^(٢)
من اللأى لم ير حل فوق رواحل ولا من يوماً في ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهم المدام للنشوة وشدوكا تشدو القيان على الشرب^(٣)

٢ - ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقدّر له أن يظفر بما ظفروا به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك ، لأن تحمل سمه حجه عن الاتصال بالملك والوزراء ، ولكنه أقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطوته وطبعه ، فجاء شعره وقته في أهل درجات البيان .

(١) قمع الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع لين .

(٢) قمع الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والضم بالقاف من الضم بالتحريك ، وهو كما نص القميرد زابدى ميل وارتضاع في الألبين ، والمراد هنا وصف السوار بالفضيق لا مثلاً للماسم . (٤) في هذا البيت إشارة الى أن الحرائر

ما كنّ يجهن على الشراب . (٥) أنظر الأخيرة ص ١٢٢ ج ١

٣ - كان هم أبي عامر أن "يعيش" ولذلك أجمع من عرضوا لذكركه على وصفه بالتهتك^(١).

والعيش في عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والنمر والأدب؛ فالحياة عنده وجه أصبح، أو كاس مترعة، أو رسالة أنيقة، أو قصيدة بدعية، فإن خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفضول، وعيش الأديب فيها عبء ثقيل.

وما ظن القارئ رجل بيت في الكائنات لينعم بما فيها من النمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول في وصف التيسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شمت بديره	نهر الصبا مزجت بصرف عصيره
في قبة جعلوا السرور شعارهم	متصاغررين تحشماً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا	يدعو بمود حولنا بزوره ^(٢)
يهدي لنا بالراح كل مخفر	كالخشف خفّره التاج خفيه ^(٣)
يتناول الطرفاء فيه وشربهم	لسلانه والأكل من خنزيره ^(٤)

أو يتعرض للجارية من أهل قرطبة ذهب للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يرح في كاس) فتصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيقبها ويقول :

وما ظنرة تحت طي القناع	دعاها إلى الله بالخير داعي
سعت خفية تبسني مترا	لوصل التبتل والانتقاط
بغامت تهادى كمثل الرؤم ^(٥)	تأغي غزالا بروض اليقاع ^(٦)
وجالت بموضعتنا جولة	فحل الريسع بتلك البقاع

(١) وصفه صاحب قمع الطيب (بالمتهتك في جلالة) ص ٣١٩ ج ١ وتحدث عنه صاحب الفخيرة فقال: (أبو عامر ابن شهيد قتي الطرائف، كان قرطبة في يومه وبراعة غرض خليها المتهتك في جلالة، وأعجب الناس تقارنا بين قوله وطلعه، وأحلمهم في هوى نفسه، وأحكمهم لمرضه، وأجرام على خالقه) ص ٢٦ ج ١ (٢) المخفر: المنوع، والخشف بالثبث وله التلبس. (٣) راجع قمع الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الرعم: التلية الألوفا. (٥) والبقاع ما ارتفع من الأرض.

أنتنا تجتر في مشيها غلت بواد كثير السباع
وريت حذارا على طفلها فناديت يا هنه لا ترأعي
غزالك تهرق منه اللبوث وتصاع منه كفاة المصاع^(١)
فزلت وللسك في ذيلها على الأرض خط كذيل الشجاع^(٢)

٤ - وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلخال حتى لثراه أشرف الناس إذ يقول :
إن الكريم إذا نالته منحصنة^(٣) أبدى الى الناس شبا وهو طيان
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا والوجه غمر بماء البشر ملآن

أو حين يقول :

ألت بالحب حتى لو دنا أبلى^(٤) لما وجدت لطم الموت من ألم
كلا الندى والهوى قدما ولعت به^(٥) ولى من الحب أو ولى من الكريم

وذكر ابن حيان أن أبا عامر (كان من أجمع الناس رأيا لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته ، وأشدهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له في الكرم والجلود أنهماك مع شرب وبطالة حتى شاورف الإملاق) .

ومن العجيب في تشابه الحظوظ أن العقاد الفرنسيين يصفون (لافوتتين) بهذا الوصف؛ فيذكرون (أنه كان من أجمع الناس رأيا لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب في سوء الحال !

- (١) الكفاة جمع كفى وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف . (٢) الشجاع : الذكر من الحيات .
(٣) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفي رواية أخرى (ربا وهو طيان) : أنظر هامش الضح ص ٤١٠ ج ١
(٤) وفي رواية : أخرى « كلت بالحب » . (٥) وفي رواية أخرى « وفادى كرى من ولت به »
وهي أوضح من الرواية الثالثة « وفاقى كرى » . (٦) القنبرة ص ٢٩٤ ج ١
(٧) استطاع J. Pontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكمه في شمره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل في طلبة الحكمة على اختلاف الأجيال ، ولكنه عجز عن التفكير باستقامة الخلق في حياته الشخصية : فلم يكن زوجه ولا ولده من رعايته نصيب . وسيمان من تهزده بالكآل !

٥ - قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا ، وكان يرى العيش كل العيش في معاقرة الجمال والصبياء ، فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن^١ شعر معاصروه جميعا بألمه وأمتعاضه وتهاككه على التثبث بأذيال الحياة .

قال ابن بسام : " ولما طال بأبي عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا قلب ، وكان يمشي الى حاجته على عصا مرة ، وأعتادا على أنسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار مجبرا لا يروح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه ^(١) " .

فلتصور قسوة المرض التي تحمل رجالا كابن شهيد على التفكير في الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله في ذلك :

أنوح على نفسي وأندب نبلها	إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله في كل حالة	صلّي وأحكما تيقنت عدلها
أظل قيد الداء تجنبني العصا	على ضعف ساق أو هن السقم رجلها
ألا رب خضع قد كفيت وكرية	كشفت ودار كنت في المحل وبلها
ورب فريض كالجريض ^(٢) بعته	الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الغتيان أن أخاهمو	أخو فتكة شماء ما كان شكاهو
عليكم سلام من فتي عضه الردى	فلم ينس عينا ثبتت فيه نبلها
بين وكف الموت يطلع نفسه	وداخلها حب يؤن نكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عتف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصنفى قال :

(١) القسوة ص ١٦٥ ج ١ (٢) المريض بالجيم الرق ، ومعنى في نسخة القسوة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت علة التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن شكوت له تخني بعض إخواني عليّ وفارقه عني، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائي لذلك المتجنّي مع بعض إخواني وأعزهم عليّ ، فلما رآني موليا عن ذلك الصديق أنكر عليّ - وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا في مشيئتهما حتى لحقاني، وعزّز عليّ في تكليم صاحبي، وتعاثنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظما، حتى جثنا دار أبي عامر، فلما رأنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فاطرق مايا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بيني وبين من أهوى
أرسلت من كبدي الهوى فندري كيف تدأوى مواضع البلوى
ولى حقوق في الحب ظاهرة لكن إلني بعد ما دعوى^(١)

وحديث المصنف أيضا قال : دخلت عليه يوما في تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره ، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه ، فقال له ذلك الغلام : هجوتني يا أبا عامر دون أن تثبت في أمري ، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال : عليّ تكفيره بما يحويه من القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا إليه فأنشدنا :

ألا بأبي زائر في الغم بوجه يحلّي سواد الظلم
تكمّ بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتم
أتى يستجير اليّ به كما جاور البان وطب الغم^(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبي محمد ابن حزم هذه الأبيات :

(١) القصيدة من ١٦٢ ج ١ (٢) القصيدة بقية طريفة يجدها القارى في النشرة من ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولَّى برأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمتبت أنى ساكن فى عبادة بأعلى مهيب الريح فى رأس شاهق
خليل من ذاق المنية مرة فقد ذقها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان أرتحالى ولم أفز قديما من الدنيا بلهجة بارق
فن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى يدا فى ملباتى وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق وحسبك زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأييني اذا ما فقدتني وتذكر أياي وفضل خلاقي^(١)

٦ - وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل^٢ لأن يبكى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كآلت وجوههم وجوه مصابيح النجوم الزواهر
اذا ذكرونى والتزى فوق أعظمى بكوا بعيون كالسحاب المواتر
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى أقبلوا فقدما مات أبناء عامر
هو الموت لم يصرف بأجراس^(٣) خاطب بليغ ولم يعطف بأفاس شاعر
ولم يمتنب للبطش مهجة قادر قوى ولا للضعف مهجة صابر
يحمل عرى الجبار فى دار ملكه ويغفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيبا أن تدانت منقى يصلق فيها أقوى أمر آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحي هوى كشرار الجمرة المتطاير
يمحركنى والموت يحفر همتى^(٤) ويهتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقاً عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولنتظركيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفاقر المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الايات فى ص ١٦٦ ج ١ من القسيرة .
(٢) الخاطب :
الخليب وهى قفلة طيلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .
(٣) يحفر : يقلع .

أقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخصَّ عمراً بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصاً على وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه البالي "بالف" غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيباً وحاشا بحبي فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حاك الله تقديمي
عشنا رفيقين في بر الهوى زما حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشئت نوب الأيام ألفتنا قسراً ولم ينهنا طبعي وتجمي

وحسب الفارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودع
إخوانه ومحبوه آخر وداع :

أستودعُ الله إخواني وعشرتهم وكل حرق^(١) إلى اليلاء سباق
وقبة كحجوم الغرب نيرهم يهدى وصايهمو يردى بأحراق
وكوكباً لي منهم كان مغربه قلبي ومشرقه ما بين أطواق
الله يعلم أنى ما أقارقه إلا وفي الصدر منى حرمشتاق
فان أعش فلعل الدهر يجعنا وإن أمت فسيفيه الردى الساق
لا ضيع الله إلا من يضيحه ومن تخلق فيه غير أخلاق!
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يشلم الحب آدابى وأعراف
إنى لأرمقه والموت يضغطنى فاقضى فرجة ترند أرماف

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره في لوح رخام
هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ عظيم أتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك
ابن شهيد المذهب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

(١) الخرق بالكسر : السخى أو الطريف في سخاوة ، والفق الحسن الكريم الخليفة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا “ .

ويكتب تحت هذا الترهذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجود!
فقال لي : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نمنا في ظلها والزمان عيد
وكم سرور همي علينا صحابه نرة تجود
كلُّ كان لم يكن تقصّي وشؤمه حاضر عيّد
حصّله كاتب حفيظ وضحه صادق شهيد
يا ويلنا إن تكبتنا رحمة من بطشه شديد
يارب عفوفا أنت موّلي قصر في شكره العيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السّوق ، فيسرّ الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهب نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يُشهد على قبر أحد ما تُشهد على قبره من البكاء والمويل .

١٣ - نثر ابن شهيد

١ - اتفق من ترجوا لابن شهيد على وصفه بالبراعة في الانشاء، فقال ابن حيان :
 "كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنته ، وكيف يمر
 في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والملاحظ في إبانته ، والمعجب منه أنه كان يدعو
 قريظته لما شاء نظمته وشره في بدئته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء
 لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني
 بعد موته - كتاب يستعين به على صنته ، ويشخذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك
 في عجائبه ، وإعجاز بدائمه ، وكان في تقيق المزمل والنادرة الحاتمة أقدر منه على سائر ذلك .
 وشعره عند أهل التقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة
 في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها
 في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ،
 وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه^(١) .

وقال الضمالي : " فثره في غاية الملاحه ، وشعره في غاية الفصاحة^(٢) " .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ،
 ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحيل له الوقور حُباه ، ويمن معه
 الكبير إلى صباه^(٣) " .

وقال الحنط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والإيجاز حكمة ، وخواطر الألياب سهام
 يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شاعراً بأنفه ،

(١) القفيرة ص ٩٤ ج ١ (٢) اليتمه ص ٣٩٤ ج ١ (٣) القفيرة ص ٩٤ ج ١

ثانيا من عطفه، بخلاف أنه أحرز سبق في الآداب، وأوى فصل الخطاب، فهو يستصغر
أساتيد الأدباء، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن اللبون اذا ما لُزَّ في قرن^(١) لم يستطع صولة البزل القناعيس^(٢)

وهذه الآراء التي نقلناها عن ابن حيان والتمالي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين
في ابن شهيد، وتدلنا على أنه شغل الناس حيناً من الزمان. ولو انتقلنا الى رأيه في نفسه لرأيناه
مفتونا أشنع الفنون بما أعقده من إجادة النظم والشعر، والتفوق البالغ على كتاب المشرق
والمغرب . وقد آن أن يوزن ثره بعميار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعري رأيه في شعر ابن هاني، الأندلسي فأجاب : ”رسمي تطعن
قرونا“ وهو جواب حذق وذكاء، فضلاً عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن
يكون الأمر كذلك في ثراين شهيد، فهو في الأكثر جمجمة وقعقة وقلقلة في غير رفع
ولا غناء . ويسوءنا واقع أن يكون ذلك مازاه في ثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم،
ورقة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا ثره على وجوهه، وراجعنا ما بقى منه
أكثر من عشرين مرة، فلم نزد إلا اقتناعاً بأنه كان في إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذي نشهده في ثراين شهيد غرام الرجل —
كان — بمقارعة كتاب المشرق، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه
بريق يعشى العيون . وكان الثر في ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية، وأستطاع
ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل عبرة موشاة، تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى
القائض في عالم الشعر، فوقع له مع الافيللى والحناط وغيرهما منافرات كان لها في مجالس
المغرب دوى شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء، وكان يستطیع أن يقارع
خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يجيب به عهد الأخطل والفرزدق وجبرير

(١) الفخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البير يبلغ تسع سنين، والقناعيس جمع قنساس بالكسر وهو العظيم
من الإبل، ومن الرجال الشديد المنج .

من شعراء المهجاء ، ولكنه أراد أن يبيح في بلاده معارك ثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي وبيديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه أخذ بالثرائي موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فإن المهجاء كما تسميها الطبيعة العربية لا يؤدي إلا باليت السائر أو الكلمة الشروء .

٤ - ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فإنه يفرى الفارئ بالبحث عما فيه من نتائج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال قلبه أكادس الخزف والتراب حتى يصل إلى بعض ما ينشئ من الذهب المذفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتحم قمرطبة ، ويرقع أبا القاسم الافليل فلم يقل شيئا ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الافليل :

”ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نعمته نعمة شاعر“^(١) .

٥ - غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله مخاطب أحد الأمراء :

”من عز يز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار ، جد جكا ، وحسام نبا ، وآمال تنزقت أيدي سبا . كلمات أثمرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كما قبل أن ترى بنا النوى مراميا ، وتلقى علينا الخطوب مراسيا ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنا الليالي ركضا ، تربى صحبة ، وخليق صبوة ، قد تخلىنا عن الأساب ، وأنسبنا إلى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والملقى كشب ، والزمان غير ، وحواصلنا صفر ، تترنم ترنم الحسام ، على زرق الجسام“^(٢) ثم ألقت الأيام علينا بكل كل فنشترنا بكل في عميق ، وأفق محيق ، ونفحت

(١) الفقرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الجمام : المياه الكثيرة ، والمقرد يم ، وهو في الأصل الكثير

عليك رياح السد ، وجادتك المني من تامة ونجد ، وامتنطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدّة العواء^(١) ، وكما دعيت للتزال والمراك ، ترست بالتريا وطعنت بالسّياك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضريت عن المكتبة ، خشية أن يكون كئنا عليك ، ورغبنا فيما لديك ، وهيبات ! يا بى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل الرؤساء ، ويمحاذب العظماء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم ، فانطويت على ود ، وثبتت على صحة عهد ... الخ^(٢) .

وهذا ثم مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوسع قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

” لما قدم زهير الصقلي قتي بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألم ضي وقال : وجها عنه ، فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محليّ تهيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعا إلى ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساجدا لذيل لم ير أحد يحبه قبله ، وهو يزعم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن في أنفه نمرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمسحكم النظام ، فرأيت أصحابي يصبخون إلى ترنمه ، فسألته عن ذلك فقال الحناط — وكان كبير الإنحاء على — جالبا في المحافل ما يسوء إلى — : الوزير حضره قسم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أني المراد ، فأنشده ، وهو :

مرشّس الجفون وثمنّة في المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديها :

مرض الحفون ولثنة في المنطق شيطان جرا عشق من لم يشق
من لى بالغ لا يزال حديثه يذكر على الأجداد حجرة محرق
ينبى فينبو في الكلام لسانه فكانه من حمر عينه سقى
لا ينش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مَهْرَق

ثم قت عنهم فلم ألبث أن وردوا على، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديهة : وسألوني أن أحمل مكاوى الكلام على اختياره، وذكروا أن إدريس هجاه وألغش، فلم أستحسن الإلغاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول^(١).

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدثنا في "التوايع والزوايع" أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والحطب، ورسالته فى الحلواء، وكلماته فى وصف جارية، ونعت الماء والتغلب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل فى جملة ما تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأقداد من شعراء المجاز والشام والعراق!

وأجود ما وقع له فى تلك الرسائل "المستجادة" قوله فى وصف ماء صاف :

"كأنه عصير صباح، أو ذوب قرلياح"

وقوله فى وصف البعوض :

"نقض الزاتم وهى منقوضة، وتمجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خلقته"^(٢).

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيرهم لقيه فى المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «أضطرب به الألم، وأستخفه الشره، فدار فى ثيابه: وأسأل من لعابه، وأزور جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا هو أيضا إلغاش لم تر روايته لأثنا لانستعيز برواية الهجاء القبيح الذى يجرح الأدب والنفق. وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من القصيدة ج ١ (٢) البقية ص ٣٩٢ ج ١

وخفي شاربہ » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا ، قال فالودج
 ”بحاجة الزاير خالطها لباب الحبة ، بغاء أطيب من ريق الأحية“ والخليص ”جليد سماء
 الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تجرحه المحطة ، وتدميه اللفظة“ ، ثم يقول ابن
 شهيد بعد كلام : ” فأمرت الغلام بإتياع أرطال تجمع أنواعها التي أنطقته ، وتحتوى على
 ضروبها التي صرعت ، فجاء بها فوضمها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها
 بجرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويمحش بفخذه ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك
 حكما ، فجعل يقطع ويلع ، ويوجرفاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا
 عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو
 يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جماهرها ، وألقى أولها بآخرها ، فهبت منه ريح عقيم ،
 قرن إقبالها بالعذاب الإليم ، نثرنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شجر بفر ، فالتجعتا منه
 الظريان ، وصدق فيه الخبر العيان ^(١) .

وعندى أن ابن شهيد في رسالة الحلواء عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية ، والنكتة
 في الرسائل متشابهة ، فهي عند ابن شهيد سخريه من فقيه أ كول ، وعند بديع الزمان استهزاء
 بفلاح منهوم ، ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ، ولننظر كيف يقول
 وقد استدوج سواديا بالكرخ ^(٢) :

”قلت : فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق تشتري شواء ، والسوق أقرب ،
 وطعامه أطيب ، فاستغزته حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ،
 ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسائل جودابه مرقا ، فقلت : أبرز لأبي زيد من
 هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، وآخر من تلك الأطباق ، ونصد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء في السخيرة ص ١٣٦ و ١٣٧ ج ١ وفي البنية ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفي السخينة
 اختلاف شديد ، ومنها كذلك كثير من التحريف . وال فقرات التي اخترناها مأخوذة مما سمح لنا نظمها على اختلاف
 النسخين . (٢) الكرخ محلة كانت في الجانب الغربي من بغداد . (٣) الجوداب : خبز يوضع
 في التوروم مع طائر أو لحم .

وشيثا من ماء الدماق^(١)، ليأكله أبو زيد هنيئاً، فألقى الشواء بساطوره، على زبدة تنسوره،
 فجعلها كالكمال سحقاً، وكالطين دقا، ثم جلس وجلس، ولا تبس، ولا تبس، حتى استوفيناها
 وقتلت لصاحب الحلواء : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فانه أجرى في الحلق، وأسرى
 في العروق، وليكن ليلي- العمر، يومى- النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤى- الدهن،
 كوكبي- اللون، ينبوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئاً . ثم قعد وقعدت ،
 وجرود وجردت، وأستوفيناها . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا إلى ماء يشمع بالطلع،
 ليقمع هذه الصارة^(٢)، ويفتأ هذه اللقم الحارة^(٣) ! إجلس، أبا زيد، حتى آتيك بمقاء، يحينا
 بشربة من ماء . ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت
 عليه قام السوادى الى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال :
 ما أكلته إلا ضيفا . فقال الشواء : هاك وآك، متى دعوناك ؟ زن يا أبا القعبة عشرين،
 وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادى يبكي ويمسح دموعه بأرذائه ، ويميل عقده
 بأسنانه، ويقول : كم قلت لذلك القريد، أنا أبو عبيد، وهو يقول : أنت أبو زيد ! “ .
 وإنما أفترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه ، لأنه كان مشغوقا بأدبه
 ومعنيا بمعارضته، فقد حدثنا في ” التوايح والزوايح “ أنه قابل بأرض الحلق (زبدة الحقب)
 صاحب بديع الزمان، وجررت بينهما مصاولة انتصر فيها ابن شهيد . وهذا يدل على أن
 رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، ففعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك،
 وأن ابن شهيد كان بها من المعجيين .

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد ، وقدمه كذلك الى شعراء الحلق
 فاستجاده، فهو رسالة فيها فقرات تم عن قلب غزل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات
 تلحج بمفامير الفتك والمجون، وكانت جاريته ” أخت نعمة ، ووريدة نعمة ، كأن شعرها على

(١) السابق : حب أحمر صغير شهيد الحوضه شجرة يشبه الزمان . (٢) الصارة : السلس .

(٣) يفتأ : يسكر .

غرتها الغزاة، غراب يسفد حمامة بيضاء... تكلمك بألحاظها، وتأسوك بألفاظها، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بترجسة، كأنما تغرها من جوهر، وشقتها خيط حرير أحر، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان، وتقتل عليك بكفل مانج، كأنه كتيب عالج... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر قاة، إن علوتها تدفعت اليك، أو علك تداركت عليك، وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت حمرة أو رضاب، أو أجاعك عراكمها أطمعتك من لسان، يصل اليك ووصول الإيمان^(١) .

٨ - ورسالته عن النار والخطب تمثل فرع أهل الأندلس من البرد، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح، وهي رسالة مهداة الى صديق فصح بأحمال من الخطب الجزل - والخطب مما يهدى في تلك البلاد لما يعاني أهلها من قسوة الشتاء - ولنتنظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود :

”حسنتا اليوم خيل البرد مغيرة... فجعلتُ يحنيّ خطبا دل على نفسه، وتشظي من يسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها بنات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركه طويلا، فكان لها عجيبيج، وله من حرها خبيبيج، ثم خز لما صرعا، وأستولت عليه صعبا منيحا، فبددت شمله وألفت شملها، وأستعالت حبة لا نستلذ قتلها، ترمي بالوان، وتتهدد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكرته على فؤاده نكرة، خر لها على جبينه، ومات بها من حيث^(٢)“ .

٩ - وبعد فان ثرا بن شهيد - على ما فيه من مأخذ وعيوب - دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن زاه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أشد الاختلاف. والنثر الفني كالشعر، له دقائق قلما يتفق في تذوقها الناقدون. وكان للرجل في حياته نجاح مرموق، فقد وصل شره وشعره الى الشرق على عصر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء، وفي هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه وأستولى بقوة على عرش البيان .

ولا ننس أن ثرأبن شهيد لم يصل إلينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذى طرب له كلب الصنعة فى المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تنصر وقد تطول . ولو وصلت إلينا جملة صالحة من نثره الذى جرى فيه على سلفته وفطرنه ، وأنماز فيه إلى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة إذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس دياجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، إذا مضى يشرح مزائق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يتمتع من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فإن جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا نتقد ونتقص ، فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفضوا أعلامهم بين أعم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحيةً وسلام !

١٤ - أبو الفضل الميطلي

١ - أسرة الميكالى أسرة قديمة المهدي بالمجدي في المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسطان في القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد، ونفياً ظللم أبو بكر الخوارزمي ؛ وبديع الزمان الهمداني، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة في الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة في يتيمة الدهر وزهر الادب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والأزدواج في رشاقة وصنوبة وآساق . وفيه يقول النعماني في مقدمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم، ويحرق الثرى، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذبب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستش ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمه على فكره، من ملح تترج بأجزاء النفوس لنفاسها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وأيم الله مامن يوم أسفنى فيه الزمان بواجهة وجهه، وأسعدنى بالآقتباس من نوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجدي والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالاً على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من أحواله، وأتتهبت فرائد الفوائد من ألقاظه، إلا تذكرت ما أنشدني أدام الله تأييده لأبن الروى :

لولا عجايب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بغيروز أباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبيل القطر ! فانها كانت بطلته البدرية، وعشرته المطرية، وألقاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفضاله التى يعيا بها الواصفون، أعوذجات من الجنة التى وعد المتقون، فانذا تذكرتها فى تلك المراتع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الديباج الحسرواني، ونثني معها
الوشى الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه، وأثار قلبه، وأزهار قلبه، تذكرت سحرا وسما، وخيرا
عميا، وأرتياحا مقيا، ورؤحا وريثانا ونعيا“ .

٢ — وأظهر الفنون التي كان يبيدها الميكالي هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى
أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

واليك قوله من رسالة :

”أيام ظلّ العيش رطب ، وكفّ الهوى رطب ، وشرب الصبّ عذب، وما لشرق
الأنس غرب^(١)“ .

وقوله من رسالة ثانية :

”إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وبلغ باكثر مما مع، وأوحش فوق
ما أنس، وعنف في نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق،
ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادونا رهن التلهف والأشتياق^(٢)“ .

وليتأمل القارئ رقة الحنين في قوله من كلمة ثالثة :

”أنا أسأل الله تعالى أن يرد عليّ برد العيش الذي فقدته، وفسحة السرور الذي عهدته،
فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للقاء حكمه ويده، ويرجع ذلك العيش الذي رقت غلاته،
وصفت من الإثداء مناهله، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .
فإن ترجع الأيام بعد الذي مضى بذى الأثل صيفاً مثل صيفي ومربعي
شدت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إنب جاذبتها لم تقطع

وما على الله بمن يزأن يقرب بعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق
الأشتياق أسيرا^(٣)“ .

ومع أن صلته بأبي منصور التتالي كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجل ما يوحى الرقى والحنان فيقول :

”كأني، وأنا أشكو إليك شوقا لو عابله الأعرابي لما صبا إلى رمل عاجل، أو كبده الخلى لاشئى على كبد ذات حرق ولواجع، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوى رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخجل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قامى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه وأستجبد، وأتظنى غيظا عليه وأتشد :

متى وصى يثنى الزمان عثائه بعثرة حال والزمان عثوره
تدرك آمال وتفضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا! فإلى الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هى أقدار تجري كما شاء مجريها، وتنفذ كالسهم إلى مراميها، فهى تدور بالمكره والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن فى تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجالح، فيعود الانس للقاء الإخوان كأنهم ما لم يزل معهودا، ويقتد للذكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملقى به والقادر عليه^(١) .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البأسون من الكئاب والشعراء، فعراه يقول :

”يا أبى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرده، ونظام أنس يبتده، وغلب ظلم يحمده .
ولو أنبسط فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جناحه، ولكنه الحية الصباء لا تستجيب لراق، والداء العضال لا يشفى منه طيب ولا واق^(٢) .

ولنتنظر قوله يتوجع لرفيق طليل :

”لو أستطعت خلعت عليه سلامتى سر بالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتهنا بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه^(٣) .

(١) زمر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ بقية . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ بقية .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

”أنا في مفاضة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محوم بخير صائب^(١)، وتذكر الاجتماع معك كما اهتر من صرف المدامة شارب ، وفي تكلف الصبر عنك كطالب جدوى حُلة لا تواصل وفي التلق لفرارك كطائر جَوّ أعلقتة الحياثل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرقي ، وبياضها جلدة بين عيني وأخي ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أ كباد وقلوب ، وكانت بيني وبين النوى شئون وخطوب . أنا في مفارقتك كبنات المساء نضب عنها الغدير ، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسى فيك أشواقها ، حتى تهارق الحمام أطواقها“ .

٤ — وأهتمام الميكالي بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام في وصف الكتب يتباهىها الأصمّداء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاي وسيدى أبداع الكتب هواذى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، خسبت ألقاظه در السحاب ، أو أصنى قطرا وديمة ، وممانيه در السحاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتاملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف ، فائرة بقداح الحسن والظرف ، مالمكة لزمام القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقير والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يتمه بما منعه من هذه القرر والأوضاع ، كما أطلق فيها ألسنة الثناء والامتداح“ .

٥ — ويحانب هذه البراعة كان الميكالي كريم الأخلاق ، وما ألفت ما يقول التعالي فيه : ”وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت في أكثر أوقاتي على مجلسه ، وتعلّطت ببنار موكبه ، فبالحق يمتاكنت غيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرقا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيت به أعتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطلع سلطان

(١) ملبت الحى دامت واشتقت .

الغضب في الحضر، أو تصلى بنار الضجر في السفر، أو بطش بطش المتجر، ولا وجدت المآثر إلا ما يعطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه .

٦ - ونعود فنذكر أن صلة الميكالي بأصدقائه وألأفه آتتهت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجوع أدبه الى المعاني النفسية التي توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسم بين كتاب شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب اتعضاء، أو مالكة تهتة، أو نعيمة شاء . والظاهر من كلام عمر المطوعى في كتابه عن الشعراء أن الميكالي كان يبلغ الأثر في أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بإرشاده وفي ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق : لأن الميكالي فيما يظهر من شعره وثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية، ولكن ينبغي الاحتياط في فهم هذه الفكرة : فقد كان الميكالي غنيا ، وكان بينه ملجأ الشعراء والكتاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس له لمكانته من العلم والفنى والجلاء .

٧ - صنعة الميكالي في شعره أظهر منها في ثره ، فهو حين ينثر سهل الخليفة، فإذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، وإلى القارئ قوله :

شأفه كفى رشاً بقبيلة ما شفت
فقلت إذ قبلها ياليت كفى شفتى

وقوله :

من لى بشمل الأتس أجمعه بشادن حل فيه الأتس أجمعه
ما زال يعرض عن وصلى فأخذعه فالآن لى لأن بعد الصد أخذعه^(١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل مجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذكره لا طول مدته ومومه خزيه لا يومه الدانى

(١) الأخدع : شبة من الوريد ، والجمع أخدع .

وقوله :

كم والد يحرم أولادهُ وخيره يحظى به الأبدُ
كالمين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجملة القول أن الجيد من شئ أكثر من جيد شئره ، وهو في كلا الفئتين صانع اليد
ذكي-الجانان .

٨ — وسلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الفنى ولا العلم مما يكفى
لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة
الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستعبد
طائفة من أحرار القلوب والعقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة التريخة ، وطهارة
الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في نثره وشعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد أنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطننا لأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن ينظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمي بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فأستطاع بديع الزمان بسرعة بديته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، ففُلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى في الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحل ثراء، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمي حزنا ومات قبل أن ينقضي الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمي خلا الجوّ لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار ينتقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن استقر في هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية طجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد استيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب النوث ، ولكن الناس لم ينتبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لجنته بيده ومزق كفته، ولكنه مات من الرعب والفرع حين يئس من النجاة .

٢ - اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول التماي في يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همدان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء
 الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونبته، ومن
 لم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وبمجره، فانه كان
 صاحب عجائب، وبدائع وغمائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي
 أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يجرم حرفا ولا يخل معنى،
 وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهتد بها
 عن ظهر قلبه هدا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى
 بدیع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب
 الكتاب المقترح عليه فيتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء
 وأملحه^(١)، ويوئخ القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر،
 ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه
 كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يلبسه، ونفس
 لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارة القلم، ومساوقة اليد، وجرات
 الحسنة، وثمرات المدة، ومجادة الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم ما يقترح
 عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين
 الإبداع والإسراع، إلى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا
 كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف
 النفس، كريم المهدي، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق هذان سنة ٣٨٠
 وهو مقبل الشيبة، غض الحداثة، وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع
 ما عنده، وأستفد علمه، وأستترف بمجره . وورد حضرة صاحب قنود من ثمارها، وحسن
 آثارها . ثم قدم جربان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكثافهم، والاعتباس

(١) انظر شاهد هذا فيما سنعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم، وأختص بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعهم، وتوفر حفظه من عادة
المعروفة في إساءة المعروف والإفضال على الأفاضل . ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور
أعانه على حركته، وأزاح غله في سفرته، فوافاها في سنة ٣٨٢ ونشرها بزه، وأظهر طرزه،
وأمل أربعائة^(١) مقامة نعلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس،
وتلد الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسمح رشيق المطلع والمقطع كجمع
الحمام، ووجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول . ثم شجر بينه وبين أبي بكر
الخوارزمي ما كان سببا لhibوب ربح الهمداني وعلو أمره، وقرب نجهه، وبعد صيته، إذ لم
يكن في الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكُتاب والشعراء ينبري لمباراته، ويمتدري
على مجاراته، فلما تصدى الهمداني لمساجته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات
ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وظن هذا
قوم وذلك آخرون، وجرى من الترجيع بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين، والقرنين
المتصاولين، طار ذكر الهمداني في الآفاق، وأرتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت
أمارات الإقبال على أموره، وأدرك له أخلاف الرزق وأركبه أكثاف العز . وأجاب الخوارزمي
داعى ربه نفلا الجول للهمداني وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق في بلاد
خراسان ومجستان وغزنة بلدة إلا دخلها، وجنى ثمرتها، وأستفاد خيرها وميرها، ولا ملك
ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا أستقطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففال برغائب النعم،
وحصل على غرائب القمم، وألقى عصاه بهراة وأخذها دار قراره، وجمع أسبابه ... وخار الله
له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشاعي ... فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره،
وتصرفت القرة في عينه، والقوة في ظهره، وأقضى بمعونته ومشورته ضياعا فائرة، وعاش عيشة
راضية . وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨
فقامت عليه نوادب الأدب، وأنتلم حد القلم ... الخ^(٢) .

(١) راجع محققاه من عند المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) البتية ج ٤ ص ١٦٧ - ٣٦٩

٣ - وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع في كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصري البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة ما يفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات في نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمي في ذلك الحين ، وهذا يعين أن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان^(١) .

وتاريخ إنشاء المقامات الذي نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله في المقالة القزوينية "غزوات الثغر قزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ - أما المناظرة التي أشار إليها الثعالبي والتي استفاض ذكرها في كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهي وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس إذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة في القرن الرابع ، ومن أشهر من أهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحشاً أن تنقيد تلك المناظرة كان مما أقترح عليه ، وأنه سيمسوق صدر حديثه مع الخوارزمي الى العجز ، كما يساق الماء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام في الشاء على من وجه إليه الحديث :

"نمود للقصبة نسوقها ، وأولها أنا ووطننا خراسان فما آخرتنا الا نيسابور داراً ، وإلا جوار السادة جواراً ، لا جرم أنا حططنا بها الرجل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديماً كما نسمع بحديث هذا الفاضل فتشوقه ، ونخبره على المنقب فتتمشقه ، وتقدر أنا لو ووطننا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في المشرة ، عن القشرة ، وفي المودة ، عن الجلدة ، قد كانت لمة الأدب جمعتنا ، وكلمة القرية نظمنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

فأخلف ذلك الفن كل الإخلاف، وأخلف ذلك التقدير كل الاختلاف، وقد كان أنفق علينا في الطريق من العرب اتفاقاً، لم يوجهه استحقاق، من بزة بزوها، وفضة فصوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة، وكبس أخل من جوف حمار، وزى أوحش من طلبة المعلم^(١) بل أطلاعة الرقيب، فسا حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطننا إلا عتبة داره. وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها. فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أول دنه، وأجئنا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشرطه، وقيام دفع في صدره، وصدىق استهان بقدره، وضيف استخف بأمره. لكنا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذب، وشربناه على كدورت، وإبسنناه على خشونت، ورددنا الأمر في ذلك الى زى استغته، ولباس أسرته، وكاتبناه نستمد وداده، ونسلمس قياده، ونستميل فؤاده، وتقيم متاده.

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح عله في سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال، وفكر عند وصوله في الاتصال بأبي بكر الخوارزمي، ولكن الخوارزمي لم يكرم زيارته، وظن بديع الزمان أن تلك الخفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث، ولباس رث.

أما المراسلات التي سبقت المناظرة فهي خطاب من البديع وجواب من الخوارزمي.

ولنتنظر كيف بدأ البديع يفرس بذور الشحاء :

«الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه ! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة، في أطلل الغربية، فاعمل في رتبته أنواع المصارفة، وفي الأهترزله أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام، عن التمام،

(١) يريد أن طلبة المعلم وحش الطفل لأنها تنقله من الحب الى الدرس، وماذا الله أن تكون «طلبة المعلم وحشة»

في جميع الأحوال ! !

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تريته صحرا، وأحتمله وزرا ، وأحضسته نكرا، وأبطلته شرا، ولم آله عبدا، فان المرء بالمال، وثياب الجلال، ولست مع هذه الحال، وفي هذه الأسمال، أنقزز صف النعال، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يمحرون المطارف، ولا يمتنون المعارف .

وفيهـم مقاماتُ حسان وجوههم وأنديـهٌ ينثابها القول والقـسلُ

ولو طوّحتُ بأبي بكر أيدـه الله طوائـح الغربـة ، لو جد مـغنى البشر قـريبا ، وعطـ الرحـل رحيـا ، ووجـه المـضيـف خصـيبا . ووجـه الأستاذ أبـى بـكر أيدـه الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفقٌ إن شاء الله تعالى .

فأجاب الخوارزمي :

”وصلت رقصة سيدى ومولائى ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السكاج ، وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه! أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وقفته حقه أيدـه الله سـلاما وقـياما ، على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جده الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل، وانصراه التأويل والتفريـل، والبشـير به جبرائـيل وميكائـيل . فأما القوم الذين صدر سيدى عنهم فكأوصف حسن عشرة ، وسداد طريقة، وكـلال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فأحمدت المراد، ونلت المراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهلـهُ فما عهد نـجـدٍ عندنا بـذيـمٍ

وانه يعلم نبقى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى بلغت إليه ما فى الفكره، وجاوزت مسافة القدره ، وإن قطع على طريق عـشرى بالمـعارضه ، وسوء المـؤاخـذه، صرفت عـنائى عن طـريق الاختيار، بيد الاضطـرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوا معينا

وبعد فبذا عتاب سيدي إذا أستوجبتا عتابا ، وأقترنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العريضة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن آحتماله . ولست أسومه أن يقول استغفرنا إنا كنا خاطئين ، ولكني أسأله أن يقول لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء ، وأقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمي « ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالي ، وتطاوت المدة » ومشى الواشون بالسوء ، ودعائس الى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمي وهش بديع الزمان ، ثم ركب الخوارزمي في جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال ، ولترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة^(١)

” ... فتركاه على غلوائه ، حتى إذا نفّس ما في راسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفتا عليه فقلنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وأسترناك وقصدنا غير المناوشة ، فلتبدأ ضلوعك ، وليفرخ روعك ، وما آجتمعا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتلن فورتك ، ولا ترقص لتغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملا المجلس فوائد ، وتذكر أبياتا شوارد ، وأمثالا فرائد ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسالنا قسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبني الالتقاء بك ، والاجتماع معك ، والآن إذ سجل الله ذلك فهل الى الأدب تنفق يومنا عليه ، والى الجدل تنجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافه وله لافه على عقبة فريق من كتاب ذلك العهد ، ولتين كيف أسطاعت اللغة الملتفة بالزئرف والسجع أن تودي نوما من القصص في تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة الأدبية فرارا من التطويل .

فأسمع خيرا وأسمعا مثله، ولتبدأ بالنفن الذى ملكت به زمانك، وقُفّت به أفرانك، وملكك به عنائك، وأخذت منه مكانك، فطار به أسمك بعد وقوعه، وأرتفع له ذكرك عقب خضوعه، وألحمت به الرجال حتى أذعن العالم، وقلد الجاهل... بخارنا بفرسك، وجُد لنا بنفسك.

فقال : وما هو ؟

قلت : الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن اخترت، والبدئية إن نشطت .
فهذه أبوابك التى أنت فيها أبن دعواك، تملأ منها فاك .

فالخم عن الحفظ رأسا، ولم يحل فى الشرقيّنا . وقال :
أبادحك .

قلت : أنت وذاك !

فقال الى السيد أبى الحسين يسأله يتا ليجيز . قلت : يا هذا أنا أكفيك، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه، وأسهر له جفنه، وأجال فيه فكره، وأنفق عليه عمره، وأستزف فيه يومه، ودوّنه فى صحيفه مآثره، وجعله ترجان محاسنه، وعبر به عن باطنه، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا، وساقون كل بيت بوقفه، وأنظم كل معنى الى لِقْفه، بحيث أصيب أغراضه، ولا أعبد ألفاظه، وشرّطتلى أن لا أقطع النفس، فان تبأ لواءحد، أو أمكن لناقد، ممن حضر، يريد النظر، أن يميز قوله من قولى، ويحكم على البيت أنه له أو لى، أو يرجح ما نظمه بنار الروية، على ما أمليته على لسان النفس فله يد السبق، أو يكون غيرها فإغفاء عن هذه المقاومة، ويتنحى لنا عن أرض المسائلة، ويحلى الطريق لمن يبنى المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمتنا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشائه الان ؟

فقلت : أقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا إلى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق^(١) ، وتستقر المحجة ، وتستقل الشبهة ، وتتطرد فيعرف الحال من العاقل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا في هذا العنان ، ومال إلى السيد أبي الحسين يسأله بيتا ليجيز فتبعنا رأيه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفه ، وأخذ دواته وقلبه ، فأجزنا البيت الذي قاله ، وكلمنا أجزائه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تصف فتك	وبروكه عند القريض برك ^(٢)
متسرع في كل ما يتأده	من نظمه متباطئ عن تركه
والشعر أبعد منها ومصاعدا	من أن يكون مطيعه في فكه
والنظم بحرٌ والخواطر ممبرٌ	فانظر إلى بحر القريض وفكه
فتى توفى في القريض مقصر	عرضت أذن الامتحان بعركه
هذا الشريف على تهكم بيه	في المكرمات ورفعته في محكه
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرنين السوء إن لم أنكه ^(٣)
وإذا نظمت قصمت ظهرها ناظري	وحطمت جارحة القرنين بدكه
وؤدبت منه أديمه وتركته	نهج الأديم بديفه وبدكه
أصبغو إلى الشعر الذي نظمته	كالتر رصع في مجرّته سلكه
فتى عجزت عن القريض بديه	فدى الحرام له إراقته سفكه

وقال أبو بكر أيانا جهدنا به أن يفرجها من الغلاف ، ويبرزها من الخفاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجمل يتركها ويفرّكها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالوله لناجله ، فإليك

(١) الزرق جمع أزرق و مراد به الأعمى . وفي القرآن (ونحشر الجحيم يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك فتح فسكون : الصدور . (٣) من التكاية وهي الإحاطة .

تعق أبنيك وتضيئه ؟ أبرزها للميون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون
الهزة أعقل منه لأنها تحدث ففقطي ، فلم يستجري أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه
للبدية نفسا دون أن يكتب . قلنا : أنت وذاك . وأقترح علينا أن نقول على وزن قول
أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق على أرق ومثل يأرق	وجوى يزيد وعبرة تفرق
وأتندر أبو بكر أيده الله إلى الإجازة ولم يزل إلى الغايات سباقا فقال :	
وإذا أبدعت بدية يا سيدي	فأراك عند بديتي تتلقى
وإذا قرضت الشعر في ميدانه	لا شك أنك يا أنى تشقى
إني إذا قلت البدية قلها	عجلا وطبعك عند طبعي يرتق
مالي أراك ولست مثلي عندها	متموها بالترهات تمخرق
إني أجزع على البدية مثل ما	تريانه وإذا طلقت أصدق
لو كنت من مخير أصم لهاله	منى البدية وأغشى يتلقى
أو كنت ليثا في البدية خادرا	لرئت يا مسكين منى تفرق
وبدية قد قلها متفسا	فعل الذي قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يتندرو ويقول : إن هذا كما يحىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكنني
أراك بين قوافي مكروهة وقافات خشنة كل قاف بكبل قاف ، منها تتلقى وتشقق وتمخرق
وتخرق وتطلق وتعلق وتبرق وتفرق وأحمق وأخرى إلى أشياء لا أكثرها السدد ، نخذ الآن
جزءا عن قرضك ، وأداء لقرضك ، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق	فانريس فإن أخاك حى يرزق
دعني أهرك إذا سكت سلامة	فالقول يجعد في ذوبك ويعرق
ولفائك فكأث سوء فيكم	فدع الستور ورامعا لا تحرق
وأظن لأشنع ما أقول وأدعى	أله إلى أعراضكم منسلق
يا أحقا وكفالك ذلك نزية	جربت نار معرقى هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفتح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحمق لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف . فقلنا : يا هذا لا تقطع فإن شمر إن لم يكن عيبة عيب فليس بنظر ظرف، ولو شئت لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سيلا اليك . وأما أحمق فلا يزال يصفمك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا يجوز لك . فلم يدركف يحجب عن هذا الموقف وهذه الموافقة، وكيف يسلم من هذه المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزيت أم جرحت ؟ ففيه شيان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت نفاطيت يا سيدى، والثانية أنك عطفت فقلت لتتلقى وهما لا يركضان في حلبة ولا يخطان في خطة . ثم قلت له : خذ وزنا من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفى حظنا ، ثم إنى أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ على أنفاسى ووافقنى عليها فإن عجزت عن اختلافها حفظتها لك، فسلى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبى الطيب المتنبي :

أهلا بدار سيباك أغيدها أبعد ما بان عنك نرحدها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بنحى البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرجع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى حمد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه برأ وفرا ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لره لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك ؟ والهمد بيننا أن تسكت وتسكت حتى تم وتم، ثم نبحث ونفحص، فنبيذ الأدب وراء ظهوره وصار الى السخف يكلنا بصاعه ومُده، وينفض فيه حمة جهده، وأفضى الى السفه يشرف علينا غرقا، ويستقي من جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللتأخرة حضرا لا للتأخرة، فان فضت من هذا السخف يدك، وثبتت عن هذا السفه قصبك، وإلا تركت مكالك. ولو كان

فی باب الاستخفاف شیء اعظم من الاحتقار، وإنکار الخیع من ترك الإنکار، بلغته منك . فأخذ
 بعضی علی غلوائه، وبعین فی هرائه وهذائه . فاستلئت الی المسند، ووضعت الید علی الید،
 وقلت استغفر الله من مقالک وقضیتها قائمة معه . وسکت حتی عرف الناس، وأیقن الخلاص،
 أنى أملك من نفسى ما لا یملک، وأسلک من طریق الحسلم ما لا یسلک، ثم عطفت علیه
 وقلت : یا أبا بکر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمی، وتعجبوا من فضلی، وبقي الآن أن یعلموا
 أن هذا السکوت ليس عن عی، وأن تکلفی للسفه أشد استمرارا من طبعک، وغربی فی السخف
 أمتن عودا من نبهک، وستقرع باب السخف معک، ونفتزع من ظهر السفه مفترک .
 فتکلم الآن . فقال لی : أنا قد کسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قتلہ فما الذى أفدت
 أنت بعقلک مع غزارته ؟ فقلت أما قولک أهل همدان فما أولانى أن أجب عنہ ولكن هذا
 الذى نمدح به ولتبجح وتنتشر وتختلف من أنك شخصت فأخذت ، وسألت فحصلت،
 وأجندیت فأقتنیت، فهذا عندنا صفة ذم یا عافاک الله ! ولأن یقال للرجل یا فاعل یا صانع
 أحب اليه من أن یقال یا شحاذ ویا مکدی ! وقد صدقت، أنت فی هذه الحبة أسبق، وفى هذه
 الحرفة أعرق، ولعمرك أنت أشحذ، وفى الکدية أضذ، وأنا قریب المهد بهذه الصنعة،
 حدیث الورد لهذه الشرعة، مرمل الید فی هذه الرقة . فاما مالک فعندنا یهودی یمائک
 فی مذهبه، ویزیدک بذهبه، ومع ذلك لا یطرقنى إلا بعین الرهبة، ولا یمد الی إلا ید الرغبة، ولو کان
 الفنى حظا لأخطاه مثل هذا العقل، ولو کان المال غنما لما أدرك غنما بهذا السی . ولكن عرفنى
 هل کنت فیما سلف من زمانک، ونبت من أسنانک، إلا هاربا بذماتک، مضرجا بذماتک،
 مرتهنا بقولک بین وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهذومة، وخدود ملطومة . ومتى
 صفت مشارک، وأخصبت مرابک، إلا فی هذه الأيام القذرة؟ واستعرف غدک من بعد،
 وتکرک أمسک، وتعلم قدرک فی غد، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقه بذکرک، ولسانا
 دنسته باسمک ! ولملت الی القوال فقلت أسمعتا خیرا فندفع القوال وغنى أبیانا منها :

وشبهنا بنفسج عارضیه بقایا العلم فی الخلد الرقیق

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَحْسَنُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي أَحْفَظُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ وَهُوَ لَا يَسْرِفُهَا ، فَقُلْتُ :
يَا عَائِظُكَ اللَّهُ أَعْرِفُهَا وَإِنْ أَنْشَدْتُكَهَا سَاعَكَ مَسْمُوعُهَا ، وَلَمْ يَسْرِكْ مَصْنُوعُهَا ، فَقَالَ : أَنْشُدْ !
فَقُلْتُ : أَنْشُدْ وَلَكِنْ رَوَيْتُ تَخَالُفَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ وَأَنْشَدْتُ :

وَشَبَّهْتُ بِنَفْسِ عَارِضِيهِ بِقَايَا الْوُثْمِ فِي الْوَجْهِ الصَّفِيقِ

فَاتَتْهُ السَّكَنَةُ ، وَأَصْغَرَتْهُ النُّكْتَةُ ، وَأَنْطَفَأَتْ تِلْكَ الْوَقْدَةُ ، وَأَخْلَتْ تِلْكَ الْعَقْدَةُ . وَأَطْرَقَ مَلِيًّا
وَقَالَ : وَاللَّهِ لِأَضْرَبْتُكَ وَإِنْ ضُرِبْتُ ، وَلَا تُشْتَمُّكَ وَإِنْ شُتِمْتُ ، وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ، وَلَتَعْلَمَنَّ
أَيْنَا الضَّارِبُ وَأَيْنَا الْمَضْرُوبُ ! فَقُلْتُ : يَا أَبَا بَكْرٍ مَهْلًا فَإِنَّكَ بَيْنَ ثَلَاثَةِ فُصُولٍ لَمْ تَحْفَظْهَا مِنْ عَمْرِكَ
وِثْلَاثِ أَحْوَالٍ لَمْ تُعِدْهَا فِي أَمْرِكَ ، وَأَنْتَ فِي جَمِيعِ الثَّلَاثَةِ ظَالِمٌ فِي وَعِيدِكَ ، مُتَمَدٍّ فِي تَهْدِيدِكَ ،
لَأَنَّكَ كَهْلٌ وَأَنْتَ شَاعِرٌ ، وَكَنتَ شَابًّا وَأَنْتَ مُقَامِرٌ ، وَكَنتَ صَبِيًّا وَأَنْتَ مُؤَاوِجٌ ، فَتُنَاطِقُ الْقُدْرَةَ
فِي الْفُصُولِ الثَّلَاثَةِ ضَبِيقٌ عَنْ هَذَا الْوَعِيدِ ، لَكُنَّا نَصْفَعُكَ الْآنَ وَتَضْرِبُنَا فِيمَا بَعْدَ ، فَقَدْ قِيلَ الْيَوْمَ
قَصْفٌ ، وَغَدًا خَسْفٌ ، وَقِيلَ الْيَوْمَ نَحْرٌ ، وَغَدًا أَمْرٌ ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهِ لَوْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ ،
وَاتَّخَذْتُ السَّنَدِسَ وَالْإِسْتَبْرَقَ جُنَّةً ، لَصَفَعْتُ ! فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ قَفَاكَ غَدَاً فِي دَرَجٍ فِي نَجْرَجٍ
فِي بَرَجٍ لَأَخَذْتُكَ مِنَ النَّعَالِ مَا قَدَّمَ وَمَا حَدَّثَ ، وَشَمَلْتُكَ مِنَ الصَّفْعِ مَا طَالَبَ وَخَبْتُ ، وَأَنْشَدْتُ
قَوْلَ ابْنِ الرَّوْمِيِّ :

إِنْ كَانَ شَيْخًا سَفِيهَا يَفْسُوقُ كُلَّ سَفِيهِ

فَقَدْ أَصَابَ شَيْهًا لَهُ وَفُوقَ الشَّيْءِ

ثُمَّ لَمَّا آتَتْ نَفْسُ الْعَقْلِ وَزَالَ سَكْرُ الْفَيْظِ تَمَثَّلَتْ بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَأَتَرْتُ طُولَ النَّوَى دَارَ غَرِيبَةٍ إِذَا شِئْتَ لَا قِيَتَ أَمْرُهَا لَا إِشَاكَلَهُ

أَحَاقَهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيئَةً وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَاقَلَهُ

وَدُعِيَ الْقَوَالُ فَبَدَأَ بِأَيَّاتٍ ، وَلَحَنَ بِأَصْوَاتٍ ، وَجَعَلَ النَّعَاسَ يَنْفِي الرُّؤُوسَ ، وَيَمْنَعُ
الْجُلُوسَ ، فَغَمَمْنَا عَنِ اللَّيْلِ وَهُوَ بِحِمْرٍ مَائِلٍ النَّعْنَ إِلَى مَا وَطَّنَ مِنْ مَضْجِعٍ ، وَمُهَّدٍ مِنْ مَهْجَعٍ ،
وَلَمْ يَكُنْ النَّوْمُ مِلًّا الْجَفَوْنَ ، وَلَا شَغْلُ الْعَيْنِ ، حَتَّى أَقْبَلَ وَقَدْ الصَّبَاحُ ، وَحِيلَ الْمُؤَذِّنُ بِالْفَلَاحِ ،

ونذب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى الى أم
 مشواه وأويت الى الحجر وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما، ويسكى على ماجرى دما ودما،
 فانه إذا سمع بحديث همدان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل ، والألف آفة، والنون
 نداء، وأنه إذا نام هاله منا طيف، وإذا أتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترازمون بما
 جرى ويتناضون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تفاوض العواد بفعل
 يحلف للناس بالعتق، وتحرير الرق، والمكتوب فى الرق، إنه أخذ قصب السبق، وإنه ينطق
 عن الحق، والناس أكياس لا يقنهم عن المدعى يمين دون شاهدين ! وسعوا بيننا بالصالح
 يحكمون قواعده ومعاقد، وعرفنا له فضل السن قصبته معتذرين اليه فأومأ بإيماء مهيضة،
 وأهتر أهتازة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف صحبها على الهواء صحبا، وبسطها فى الجو
 بسطا، وعلمنا أن لاقمور أن يستخف ويستين، وللقامر أن يحتمل ويلين، فقلنا إن بعد
 الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها، وطرق
 فى الخلطة نسلكها، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت، وأجمل
 أجمل كما علمت، وسنشارك هذا العنان . وعرض علينا الإقامة عنده صحابة ذلك اليوم، فاعتلنا
 بالصوم، فلم يقبل الصدر وألح فقلت : أنت وذاك قطعنا عنده، وأخذنا ذندانُ مزده ،
 وخرجنا والنية على الجليل موفورة، وبقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمده، ولا نتقل
 إلا بذكره، ولا نتد إلا بوجه، لا بل ملائنا البلد شكرا، والأسماع نشرا، وبتنا نحن من الحال
 فى أعذبا شريعة ، ومن الثقة فى أطيها جرعة ، ومن الظنون فى ألمحها فرعة، ومن المودة
 فى أعزها بقعة، وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقاتته، مؤذيان لرسالته ،
 ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار، فى أنك قهرت وأنى قهرت
 ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل، قبله العقل . ولا بد
 أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فتتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك
 لم آمن عليك تلامذتى أو تهر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فنجبت كل
 العجب مما سمعت، وأجبتة فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قهرت وأن ذلك عن

جهتي صدر ومن لسانى سمع فباقة ما أتمدح بقهرك ، ولا أجيح بقسرك . وإن لنفسك عندك
 لشأنا إن ظننتى أقف هذا الموقف ، أنا إن شاء الله تعالى أبعد مرتقى همة ومصعد نفس
 أسأل الله سترًا يمتد وجهها لا يسود ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت
 على الناس لخطت أفواههم ، ولقبضت شفاههم ، فبا الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوصل ،
 أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواتر ، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك التستار ، فإن كان قد ساءك
 فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفًا فيه خير
 لك من أن يتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتبهج هذا الساكن فأراك موقفا .
 فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحي أجمع وجوارحى كلها فلم تشد إلا بيت القائل :
 وعيدٌ يخرج الآرام منه وتكره نية الغم الذئب

فكم تتكوبك تلامذتك ويتسكرون ، ويتعشش أصحابك ويتجمعون ، ولست أراك إلا بين
 ثنتين : أحدهما تروح الى أتى وتسدو الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك
 بمسلمات . فإن كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفر من القدر المتاح ، رزقنا الله
 عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بعلش ! قلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا
 لم نحسبها ، ووصلت موقفا لم نرتقبها ، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما ، وعن البخل
 لوما . فلما ورد الجواب عليه وسع من الفيض فوق ملئه ، وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال :
 قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أمرك . وسترى فى يومك ، وتُعرف فى قومك !
 ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالسبل ،
 فانفتحت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت
 الطرف من ذلك السيد فى عالم أفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التبل تبذلا
 والى الترفع تواضعا ، ونطق فودت الأعضاء لو أنها أسمع مصغية وأسقع قتمنت الجوارح
 لو أنها السن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن
 يزيق^(١) وكنت أول من حضر وانتظرت مليا حضور من ينظر وقدم من يناظر ، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر إذا أخرج ما فى أسماحه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه، والإمام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحي والمحتجى بفناء النبوة والضارب في الأدب بعرقه ، وفي التعلق بمحذقه، وفي الإنصاف بحسن خلقه، فحشم الى المجلس قَدَم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه، وحديث كان شبه لديه، وفطنت لذلك فقلت: أيها السيد أنا إذا سار غیری فی التشیع برجلین، طرت یمناحین، وإذا متّ سوى فی موالاة أهل البيت بالعدة دالة توسلت بقرة لائحة، فإن كنت أبلغت غیر الواجب فلا يحملك على ترك الواجب . ثم إن لی فی آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتی البر والبحر، وركبت الأنواء، ووردت المياه، وسارت فی البلاد، ولم تسر زائد، وطارت فی الآفاق، ولم تسر على ساق، ولكنی أنسوق بها لديکم ولا أتفق بها علیکم، وللاخرة قلتها للهاضرة، وللدين أذخرتها لالدنيا . فقال أنشدنی بعضها فقلت :

يالملة ضرب الزمان على مُمرِّها خيامه

فه درك من تُخزا می روضه عادت قُغامه

لرزية قامت بها للدين أشرط القيامه

لمضرج بدم النبوة ضارب يد الإمامه

متقم بظبا السيو ف مجرّع منها حمامه

مُنيع الورود وماؤه منه على طَرف القمامه

نصب ابن هند رأسه فوق الوري نصب العلامه

ومقبل كان النبي بثمه يشفى غرامه

فرع ابن هند بالقضيب عذابه فرط استقامه

وشدا بنفتمته طيه ه وصب بالفضلات جامه

والدين أبلغ ساطع والمدل ذوخل وشامه

يا ويح من ولّى الكا ب قناه والدين أمامه

ليضر من يد الندامة مة حين لا تقنى الندامة

وليدركن على الفرا	مة سوء عاقبه الضرامه
وحى أباح بنو أمية	مة من طوائهم حرامه
حتى أشغوا من يوم بد	ر وأستبدوا بالزعامة
لنوا أمير المؤمنين	ن يمثل إعلان الإقامة
لم لا تحزرى يا سما	، ولم تصبى يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا	ل ولم تشولى يا نمامه
يا لعنة صارت على	أعتاقهم طوق الحمامه
إن العمامة لم تكن	للقيم ما تحت الممامه
من سبط هند وأبها	دون التبول ولا كرامه
يا عين جودى للبق	ع وزرعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو	ع وأرسل بندا نظامه
جودى بمكنون الدمو	ع أجده بما جاد ابن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما أعتقدت، انخلت له العقدة وصار ساما يومنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظرى بعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضي أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شجة من شجته، والصدق مقتضى همه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيداه الله وهو الرجل الذى يحبه للألوه ولودعيته من أن يذال بن أو من الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء، وركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يحذمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيداه الله.

”وما منهم إلا أغر نجيب“ .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبي الحسن الماسرجسي :
 ”وكلُّ إذا عدَّ الرجال مقدَّم“

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبي عمر البسطامي وهم في الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمداني وله في الفضل قدحه الممل، وفي الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسيلة المسيلة، والأسوكة المرسلة، رجال يلمن بعضهم بعضا فصاروا إلى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم في نحرهم وأقيموا بالنمال إلى صف النعال، قفلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمي، فلما أخذ المجلس زعره بمن حضر، وأستظر أبو بكر فتأخر، اقترحوا على قوافي أثبتوها واقترحات كانوا يتونها، فما ظنك بالخلفاء أدت لما التار من لفظ إلى المعنى نسقته، وبيت إلى القافية سقته، على ريق لم أبلعه، ونفس لم أقطعه، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجب مما أشتت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن تؤمن لك حتى يقترح القوافي وتعين المعاني وتنص على بحر فإن قلت حيثئذ على الروي الذي أسومه، وذكر المعنى الذي أرومه، فأنت حق القلب كما عهدناك، منشرح الصدر كما شاهدناك، شجاع الطبع كما وجدناك، وشهدنا أنك قد أحسنت، وإن لاقى إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى أرتفعت الأصوات بالهيلة من جانب والحققة من آخر وتمجبوا إذ أدتهم الأيام، ما لم ترم الأحلام، وجادهم العيان بما يجل به السماع، وأنجزهم الفهم ما خلفهم الوهم، ثم التفت فوجدت الأعناق تثفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته وهب بجملته، بأوداج ما يسعها الزمان، وعيين في رأسه تران، ومشي إلى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله قفلت : يا أبا بكر تزحج عن الصدر قليلا إلى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأخر على الزواير ! قفلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرني والمناظرة أشتقت إما من النظر أو من. النظر، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . فقضت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وأنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصاً على اللقاء، سريماً إلى الهجاء .

”ولو زينتك الحرب لم تترمرم“ .

ففي أي علم تريد أن ننظر؟ فأومأ إلى النحو، فقلت : يا هذا إن اليوم قد منع . والنهار قد أرتفع، والظهر قد أرف، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه، فما ذا يخرج الناس، فعلا هتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدري المحيب . فإن شئت أن أناظرك في النحو فسلم الآنلى ما كنت تدعيه من سرعة في البديهة وجودة في الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ في الترسيل . ثم أنا أجاريك في هذا، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظرك في غير هذا، وأرتفعت المضاجعة واستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر إليه فقال : أيها الأستاذ أنت أديب نواسان وشيخ هذه الديار وهذه الأبواب التي قد عدتها هذا الشاب ، كما تنقد لك السبق والحذق، وتتأفك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم، وأضطره إلى «نازلة» أو نزول عنها ومقاراة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ، فأشدت قول القائل :

ومستلتم كشف بالرمح ذيله أفت بهضب ذي شقاشق ميله
بلغت به في ملتقى الحى خيله تركت عناق الطير تحبل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا في الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان، ولم نضع وقتاً من الزمان، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضاً مع الترسيل حتى نفرغ للنحو الذي أنت عليه أكبر واللغة التي أنت بها أعرف والعروض الذي أنت عليه أجراً، والأمثال التي لك فيها سبق والقدم والأشعار التي أنت فيها تقدم، فقال : ما كنت لأسلم الترسيل ولا سلمت الحفظ، فقلت : الراجع في شيء، كالراجع في قيته، لكنا ثقيلك عن ذلك السباح فهات أنشدنا نحسين بيتاً من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلي عشرين مرة، فلم أن دون ذلك خوط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً ، كما سلمه بادياً ، وصرنا الى البدية ، فقال أحد الحاضرين هاتوا
على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضٍ ورعى مسواد قرويه بياضٍ

فأخذ أبو بكر يعضد ، ويحصد ، مقدراً أنا نفعل عن أنفسه ، أو نوليّه جانب وسواسه ،
ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نواقفه عليها ، فقال :

يا قاضياً ما مثله من قاضٍ أنا بالذي تقضى علينا راضٍ

فلقد لبست ضفية ملبومة من نسج ذاك البارق الفضفاض

لا تمضين إذا نظمت تنفساً إن النضا في مثل ذاك تناض

فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض

ولقد قرضت الشعر فاسمع وأسمع لنشيد شعر طائفاً وقراض

فلا تظنّ بدية يلبقى ولأرميت سواده بياض

قلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية ملبومة وما الذي أردت بالبارق الفضفاض فأنكر
أن يكون قاله قافية ، فواقفه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى
قولك ذئب غاض ؟ فقال : هو الذي يأكل النضا ، قلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وأقبلت
القوس ركوة وصار الذئب جملًا يأكل النضا ، فما معنى قولك إن النضا في مثل ذاك تناض
فإن النضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء ، فقال : لم أقل النضا ، قلت : ما قلت ؟ فأنكر البيت
جملة ، قلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك ، وتنبأ منه وهو يلحق بك
فقل لي : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدراً من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت
الحسو الى القافية كما سقته ؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل
الرئيس أبو جعفر والقاضي أبو بكر الحاربي والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقه من الأفاضل مع
عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة ، قلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

(١) الكال! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله في الفضل قدم وقدم وفي الأدب هم وهم وفي العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أديعت عليه أبيات أنكرها فدعوني من البداية على النفس وأكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا بروق مائه	فانظر لروعة أرضه وسماؤه
فالترب بين ممسك ومعتبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصنل ومكفر	في حسن كدره ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صواح	مثل المغنى شاديا بفنائيه
والورد ليس بممسك رياه إذ	يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر	وجلوت للرائين خير جلائه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
يجي أمر عجز وندى أضر	محجل في خلقه ووفائه
يشو إليه المختوى والمجتدى	والمحتوى هو هارب بذمائه
ما البحر في ترخاره والفيث في	إمطاره والبحو في أنوائه
بأجل منه مواهباً ورضايا	لا زال هذا المجد حلف فثائه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متمدحون بمدحه وشثائه

فقال أبو بكر تسمه أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين اقواء وإكفاء ، وإبطاء ، فردنا عليه بعد ذلك عشرين رداً وتقدينا عليه فيها كذا نقداً ، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وقيه وأديب : أراءتم لو أن رجلاً حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون أمراءه عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آتقد على فيا نظمت ، وأحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت الكذا وإنما يقال : نظرت إليه ، فكفنتي الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكال الى
ميب يوقيه من المين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شواذى الطييار ، تحت ورق الأشجار ، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات مثل المعنى ، فقلت : هن فى الخلد كالمحصنات والمعنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أريج متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أدنيا لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ، وأى المخلصين أقدر ، وأى البهيتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فأسقوني على الظفر . فقالوا : كفاك ما سفاك ! ثم ملنا الى الترس ، فقلت : اقترح على غاية ما فى طوقك ، ونهاية ما فى وسعك ، وأختر ما تلبسه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترس فان سرت فيها رجلين ولم أطربحاحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبة ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتابا يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتابا على المعنى الذى أقترح لك وأنظم شعرا فى المعنى الذى أقترح وأفرغ منهما فراغا واحدا ، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك اكتب كتابا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل ولا تناقل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ، هل كنت تفوق لهذا الفرض مهما ، أو تهيجل قدحا ، أو تصيب نجحا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتابا ، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا . هل كنت فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد؟ أو قلت لك : اكتب كتابا فى المعنى الذى يقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهية ولا يهيم فيها قلبك ، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك : اكتب كتابا خاليا من الألف واللام تصب معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تهف من ذلك موقفا ممدوحا أو يبعثك ربك مقاما محمودا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا يخلو من الحروف العواجل ،

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبلى لهائك بناطل؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً أوائل سطورهِ كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تفلو فى قوسه غلوة، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا قرئ معرجاً وسرد معوجاً كان شعراً هل كنت تقطع فى ذلك شعراً؟ بل والله تصيب ولكن من بدتك، وتقطع ولكن من ذكك! أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا فسر على وجه كان مدحاً وإذا فسر على وجه كان قدحاً. هل كنت تخرج من هذه المهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً إذا كتبه تكون قد حفظته، من دون أن لحظته، هل كنت تتق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده، بل آست البائن أعلم؟! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة، فقلت : وهذا القول طرمة! فى الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أباحتك على مكنونها، وأكاثرك بمخزونها، وأشبرفها قلمك، وأسبرفها لسانك وفك، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتناول لكل قلم، المتناول بكل يدوم، ولا تحسن هذه الشعبذة؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الجبل وأناضلك بهذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك، ويعارض إنشائى بإنشائك. وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأقطاعاتها والأسعار وغلاتها .

فكتب أبو بكر بما فسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

”الدرهم والدينار من الدنيا والآخرة، بهما يتوصل الى جنات النعيم، ويخلد فى نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصلِّ عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشدَّ الإكثار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتمعننا فى ذلك ما يرجع للناس فى الزرع والضرع، ويسود اليه أمر الضر والنفع.“

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

قلت : إن الإكبار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعم ونار الجحيم والزرع والضرع
أجماع قد نبت في المبد ، ولم تزل في اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطلبك بمثل
ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقى وبقيت الجماعة وبهت وبهت الكافقوا قالوا لى :
أقرأه ، فخلعت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتعلأ المتأبر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها
وتتمشق الحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، في تأييده الله أدام
الأمير جرى فإذا المسامين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحط أن
في اليه تنضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والتقود صيافة ، أجمع الناس صار فقد كرمنا
نظرا لينظر شيه ، مصاب واتجهنا كرمه ، بارقة وشيناهمه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ،
وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بشنا فقد نظره بجمل يتداركا أن ونعاه تأييده وأدام بقاءه الله
أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار^(١) .

فلما فرغت من قراءتها أقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا
فلنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللزة التي هددتنا بها وحدتنا عنها وهذى كتبنا وتلك
مؤلفاتها تغذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت إن
نشطت وبجل اللغة إن اخترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، وأقترح على أى

(١) هذا الخطاب في ظاهره منق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعاه ، أن يتداركا بجمل نظره ، فقد بدنا إليه وفود آمالنا ،
وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على همه ، وشنا بارقة كرمه ، واتجهنا مصاب شيه ، لينظر نظرا كرمنا ،
قد صار الناس أجمع صيافة ، والتقود زائفة ، والتجارب واقفة ، ونحن تنضرع اليه في أن يحط هذا الكل عن أهل
الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ،
كانت آثارا ترشق لها بطون الحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المتأبر ، وتعلأ بها صدور المحاضر
إن شاء الله .

باب شئت من هذه الكتب حتى أجهله لك نقدا، وأسرده عليك مردا ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أساءه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار نصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسالك عما عداه ، فوقف حمارة ، ونجحت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بالقابها وأبياتها وعلاها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد خجر الناس وقاموا عن المجلس فدونني بالأهمات والأب ، ويشيمونه باللحن والسب ، وقام أبو بكر فنشئ عليه وقت إليه فقلت :

يمز عليّ في الميدان أني قتلت مناسي جلها وقهرا

ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك فلم أطلق ياليت صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جفتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة ؟ وتفرق الناس وحسنا للطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقنا على الخوان ، كرم في الجفان ، وأسرت الى الرغفان ، وأمنعت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضا ، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرى ويفيض عن نفس ملاي ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك منة وفيك مسكة :

يا قوم اني أرى الأموات قد تنسروا والأرض تلفظ موتاكم إذا تهبوا

فأخبرني يا أبا بكر لم عشى عليك ؟ فقال : لحى الطبع وحى الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حى الطبع وحى الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجد والمزل تغلبه ، فقلت : لا تغلموه ولا تطعموه طعاما يصير في بطنه مغصا ، وفي عينه رمصا ، وفي جلده برصا ، وفي حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أصحاج كنت حفظتها فقل كما أقوله : بصير في عينك قذى ، وفي حلقك أذى ، وفي صدرك شجي ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: فبك البراء، وعلى هامك الثرى، ولا أطمعك الخ... إلا من وراء، كما ترى فقال: أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الي وقالوا: ملكت فأصبح! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفذها، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها، فقال: والله لأتركك بين الميأت، فقلت: ما معنى الميأت؟ فقال: بين مهزوم ومهزوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم، فقلت: وأتركك بين الميأت أيضا بين الهيام والصدام والجلذام والجمام والزكام والسام والبرسام والهام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متموس محسوس معروس وبين الخلاآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ وبين البآآت فقد علمتني الطعن وصكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومنضوب. وإن شئنا كلنا بهذا الصاع، وطاولنا بهذا الذراع، وعرضنا عليك من هذا المتاع، وكأنتك بهذه الأنواع، ثم خرجت واحتجر فقد كان اجتمع الناس وغلث الكروش، ولما خرجت لم يلقوني إلا بالشقاء ثقيلًا، وبالأفواه تجيلا، وأنتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بمنوده وخلع الظلام عليه فروته.

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله.

١٦ - بُدِيعُ الزَّمَانِ

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفس الانسانية . وإذا كان هناك كتاب يخاطبوك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزمالك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتماقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولنتنظر كيف يقول :

”فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهري البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصالحت يدى النفع والضر، وضربت إبطى العسر واليسر، وبلوت طعمى الحلو والمر، ورضعت ضرعى العرف والنكر، فما تكاد الأيام تربي من أفعالها غربيا، أو تسمعى من أحوالها عجيا . ولقيت الأفراد، وطرحت الأحاد، فما رأيت أحدا إلا ملأت حافى سممه وبصره، وشغلت حيزى فكره ونظره“ .^(١)

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهي مضطربة متأججة ، فزى في كتاباته صورة نفسه وهي تتوذب كما تتوذب ألسنة النجم ، كقوله في خليفة أبى نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة، بل الحقيقة، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن أستطعت أن ترائى عجانا فاستطع

« أن أراك محتاجا إليك ، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لمثلك ! » وليتأمل القارئ
« ان استطعت أن ترى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا إليك » فانه غاية في التهمك اللذاع .

وفي مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لمي حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت
طعاما لكنت الأكلة التي تمنع الأكلات ... ومن شتمني من خلف ، بغزائه مائة ألف ، وإذا
انتهت الدعوة إلى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق في ولايته إلا قليل ، والله ما يصلح لمي للقييد ،
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه ليأبى في المضغ ، وينشب في الحلق ، ويقلق في البطن ، ولا
يخرج من المي إلا مع الأعماء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وإن كانوا شهاوى » .^(٣)

٣ — وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبي بكر الخوارزمي ، وكان لذلك مغرما بالليل
منه والوقوع فيه . ومرض الخوارزمي ، فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهنئه بمرض عدوه
فغضب لذلك ورأى في هذه التهنئة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا ينفرد مثله بنسبه ، وقذف
صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

« الحر ، أطال الله بقاءك ، لا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف أحواله صفقي ،
إذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانى ، فإن وجدت فهي عواري ، وأن
عن الزمان وإن مطلقت فستفقد ، وإن لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالهنة من لا يأمنها
في نفسه ، ولا يطمعها في جنسه ؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ،
وما أقيح الشئامة ، بمن أمن الإمامة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة .
والدهر غرنا طعمه الخيار ، وظلمان شره الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم
يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا القاضل شفاء الله وإن ظاهرناه بالمدواة قليلا ، فقد باطناه
ودا بجلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم يتقاد ، وعند الشدائد تذهب

الأحقاد، فلا تصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقاى سماع السوء فيه، بحوله ولطفه .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى عامر الضبي يعزیه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

” أحسن ما فى الدهر عمومہ بالنوائب، وخصوصه بالزغائب، فهو يدعو الجحلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أظلمت، فله أن يشمت، ولينظر الالسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عونا على تصويره، أم لعمله قد دأب لأمله، أم لجليه، تأخيرا لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا، خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويهلك صبرا . وليتأمل المرء كيف كان قبلا، فان كان العدم أصلا، والوجود فضلا، فليعلم الموت عدلا . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماسا لينهب ماضر بما نفع، وإن أحب أن لا يميزن فليظفر بمنة، هل يرى إلا محنة، ثم ليمطف بسيرة، هل يرى إلا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس من حفظن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لتعيمها صدرا لا يملؤه فرحا، ولؤوسها قلبا لا يظلمه جزا، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للجنة حدا، وللعارية ردا . ولقد نعى الى أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت على آمالى قعودا، وأمانى سودا، وبكى والسخرى بما يملك، وضحك وشر الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمتيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد صرفا، والدنيا قد تكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها واضمرت حتى صار أسير غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ “ .

٤ — وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا العوبة صغيرة فى يد القدر يضعها حين يشاء، ويرى بها فى الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وإنما يمضي فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حوالبك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرج، وقلبا لا يطيئه الجزع، وتلك هي السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع في هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أمحكه الحزن وأبكاه، وحذثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحرفي رد العزير المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات التحليل حين حذثنا بأن الدنيا أہممت حتى صار الموت أظهر مافيه من العيوب . وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه علو فاجر لا يتنى ما لديه من الشؤم والميئ والشر المستطير .

٥ — لكن هذه السباحة النفسية ليست سمة غالبية في بديع الزمان، فهو في أكثر الأحوال رجل ما كرخيئت، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هي السخرية من العالم وأقتناص ما يملكون بشئ الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففي المقامة الأصغانية يحثال أبو الفتح الاسكندري فيحتجز المصلين في المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول في السخر من أولئك المتصدقين :

الناس مُهْرٌ بَغْوُزٌ وَأَبْرَزٌ عَلَيْهِمُ وَبَرَزُ

حتى إذا نلت منهم ما تشتهي فقرو

وفي المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بنيه وقد تماهى طلبا لال :

أنا أبو قلوب^(١) في كل لون أكون

إختر من الكسب دونا فان دهرك دون

زج الزمان بحسب إن الزمان زيون^(٢)

(١) أبو قلوب توب روي من الأبريسم يظهر المين في ألوان مخففة بساته . (٢) الزيون : الناقة التي

تدفع بجنات رجلها عند الحلب .

لا تكذبَ بققل ما العقل إلا جنون
وفي المقامة القزوينية يسترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالي من الزما ن كحالي من النسب
نسي في يد الزما ن اذا سامه آهلب
أنا أسمى من التيب ط وأخفى من العرب
وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم
الحق فيه مليح والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولكن حول اللثام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقه على الأغنياء، ورميه الى أن كل غنى لثيم ، ومثل هذا قوله في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللثا م لكل ذى كرم علامة
رغب الكرام الى اللثا م وتلك أشرط القيامة^(١)

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه من الكتاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولا يمكن أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف المطبق في البحث عن أسباب النفي والجهاء . ومن دلائل حقه وبنيه أن واليا عزل وكتب اليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب اليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المشوق الذي اقتضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأمله غير مرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير ضروريا من الحق «لا يقع بها ذو عقل باقة بقل» وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والتهب وأن الأدب لا يمكن زده في قصة ، ولا حره في زمن ملعة ، الخ .

"تناسيت أيامك إذ تكلمتا نرزا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسرق إليك النظر، ونهتر للكلالك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع قسد، ودوله عرضت، وأيام آتقت :"

وعهد تفاق مضى وخطب كساد نزل
وخد كان لم يكن وخط كان لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثمر فاض مائه فلا يرشف، ووريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وشن لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحاظها، وشقة لا تخنق الحاظها! وقد بلغت الان ماأنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق، في الفسق... وإفناك لتلك الشعرات خفا وحصا . وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا يصاد ولا يثمود
ولا يفرعون إذ عصاه ما يعقل الشعر بالخلود^(١)

وهي رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم في المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأنلسي^(٢) وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز .

٧ -- ولو كان لبديع الزمان غرض يرى اليه في مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا تعرف كتابا التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والمذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساسا لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشي أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هي صورة الاستبداء، ثم التزم منها واحدا لا يختلف إلا قليلا بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستتهى اليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فظن يمكن نكوان ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصمال اللؤم والتفاق والضعفة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء ، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة وقصص الأحياء .

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق» وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه^(١). وكان الصاحب بن عباد يقول: كُتِبَ الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابئ، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه^(٢).

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكُتَّاب.

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبي إسحاق الصابئ عند عضد الدولة في ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعيوا لإخراج الصابئ من السجن فقال عضد الدولة «قد سَوَّغْتُه نفسه: فإن عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابئ في عهده في تأليف كتاب في أخبار بني بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض الكُتَّاب وتسويده فسأله عما يعمل فقال: أبا طيل أنتمها، وأكاذيب ألقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة - ودانس الأصدقاء كثيرة يعانها الأحرار في جميع الأزمان! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابئ تحت أرجل القيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفون إليه في أمره حتى أمر بأَسْجِيائِهِ^(٣).

٣ - والظاهر أن صلته بالصاحب والصابئ كانت صلة وداد، ورسائله إلى الصاحب كثيرة، ولكن تقلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق^(٤). أما رسائله إلى الصابئ فتفيض بالمطف والحنان.

(١) البنية ج ٢ ص ٧٦ (٢) البنية ج ٢ ص ٨٧ (٣) باقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) باقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في البنية ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

وأنظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بما قرب الىّ جنا، وبعد علىّ مداه، من عاسن لفظه ونظمه، ومبارّه التي ما يزال يؤثّرني فيها بالرفائب، ويصفيني منها بالعقائل . فوقفت منه بين اعتبار واقتباس، واعتذار وأغتباط، وأستبصار في موضع التفضيلة، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنح الجزيلة، ووجدت خطابه مفتتحاً بشكوى الأيام في انحرافها، ومكاره أحداثها، فاستوحشت منها لاستيعاشه، واستعدت عليها لاستعدادته . وشايست المهجّتين لاثارها، والزارين على أحكامها، لاعتراضها دون آماله، وقدحها في أحواله، ولم يسبق الجمال لنفسه والفضل لأهله، دهر^(١) أناخ على مولاي بصرفه، وأختره دون واجب حقه . »

٤ - وتماز رسائله في الاخوانيات برصيعها بحبات شعره، فقد أبتدأ إحدى رسائله

الى صاحب بهذه الأبيات :

كتب^(٢) لو أن الليل يرى مثله لألفت يدا في محبته دُكاه
تهادى بأبكار المصاني وعونها وأعيان لفظ ما هن كفاء
شواهد لولا أنهن أولاف ضرائر إلا أنهن سواء
لبنا بها نعى وألبست الربا نحائل روض جادهن سماء
بنان أبى عباد تطلين نومه وما صوبه إلا حياً وحياء

وثلاث كتب تناظرت في الحسن والاحسان، وتقابلت في البر والإتمام، لا زالت أياديه قلائد الأعناق، ومراميه مضامير السباق، ولا أفحكت عين الله حامية له، وكافلة به .

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية :

« وقفت على الأبيات التي أعجفني بها سيدي، وتكلفت لجوابها على ظلم في خاطري لطول السفار، وأتصل حالى بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور، ويسنر

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) سطوف على (حيا وحياء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب في وصل الشعر بالنثر في سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأخفا على التصغير في جواب ما يأتي من أمثاله ، مادمتا في ملكة أهواجر ، وتب البكر
والأصائل»^(١) .

٥ - ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الاخوانية ؛ كقوله في وصف رسالة للصابي :

«عرفت كيف تنظم فرق البلاغة ، وتلقى طرف الخطابة ، وترى اشخاص البيان ،
وتقابل أعطاف الحسن والاحسان ، وقرأت لفظا جليبا ، حوى معنى خفيا ، وكلاما قريبا ،
رمى غرضا بعيدا ، وفصولا متباعدة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتراج صيغة
المضاربة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثاني ، وتعلق العجز فيها بالهادي ،
أولاد أرحام مبروزة ، وذوات قرين موصولة ، تتعاطف عيونها ، وتناصف أبكاها وعونها»^(٢) .

٦ - وعند تأمل رسائله نجد يحسن الوصف . كقوله من خطاب له الى الصاحب في فتح عمان وإبادة الزوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المقائم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة أشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم ،
وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتقلون بينهم اذا شربوا بكف الناس ، وسأل مولاي
عن هذا النمل الغريب فحكى لي عنهم أنه لا شيء في الانسان ألد من كفه وبنانه ، وكان
في ذلك اليوم الذي شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن
طوائف من أولئك الكلاب فكجا بعض الغلمان دابته فأختلوه وأقتسموه بينهم وأكلوه
في الوقت ، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر
من عبثهم ومعرتهم ، فأقاد أهل جبال عمان باخمين بالطاعة ، معتصمين بزمة الجماعة ، وتمت
نعمة الله على مولانا في هذا الفتح ، وجملت له منافع الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية
وفيها فيل صينير بقصد الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف . منه ، وفي الغنائم كل ما تشتهي

الأنفس وتلذ الأصب . والله تعالى يحني مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا،
بمنه وكرمه . آمين ” .

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من خطاب
عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

”فانت وعضد الدولة — كلاً كما الله ! — يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويذر ، وناظراه
فيما يقرب ويبعد، بكا أترش مهاد الملك بعد إفضاضه، ورفخ مثار الدين بعد أنقضاضه، فأبشرا
من الله تعالى بالحسن^(١)، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ” .

ومن خطاب عن عضد الدولة في عود الطائع الى بغداد والتفائه معه :

”ولما ورد امير المؤمنين بالنهروان أنهم بالاذن لنا في تلقيه على الماء، فامتلناه وتقبلناه
وتلقانا من عوائد كرمه، وضحات شيعه، والمخائل الواعدة بجبيل آرائه، وعواطف أنجائه،
ورعاية ما كنفنا بمنه، وشايصنا عزه، الى أن وصلنا الى حضرته البهية، في الجسد يديه، التي
استقبلت منه بسبليل الملك، وقعيد الخلافة، وسيد الأمان، والمستنزل بوجهه در الفهم، فتكفأت
علينا ظلال نوره وبشيره، وغزرتنا جهات تفضله وقضله، وقرب علنا سنن خدمته، وأفاننا
شرف القعود بين يديه، على كرمي امر بنصبه لنا عن يمينه، وأمام دسه، وأوسعنا من جميل
لقياه، وكرم نيمواه، ما يسم بالعرز أغفال النعم، ويضمن الشرف في النفس والعقب، ويكفل
من الفوز في الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا في الوصول اليه، والقعود بين يديه،
في مواقع الحاطله، وموارد القضاظه، مراتب لم يعطها أحد فيا سلف، ولم نجد الأيام بمثلا
لن تقدم ” .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه
وأخلاقه، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة وصين الأسلوب، والى القارئ هذه
الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التي أعفاها الزمان من الضياع .

- ”وأجنهم الليل قادرعوه مقتادين بنزائم أنوفهم، الى مصارع خروفهم“ .
- ”سار الى سدة دار الخلافة والسعود تشايحه، والميامن نواكبه، وطلائح الآمال تشرف عليه، وفقر الاسلام يتسم اليه“ .
- ”وقد كان الفضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأفلقتة عن بجائمه المكاييد والكثائب، تطوع الى بلاد الشام ينقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يصعدا معام، يروم أتمعاشا والجد خاذله، ويبني آتياشا والبنى طالابه“ .
- ”ولما ضاق عن هذا المخذول حلتا باتساع غوايته، ووصر الطريق الى استبقائه، استخفنا الله تعالى في استرجاع ما ألبسته من النعم“ .
- ”إن الله سائلك عن الخفورة والخفطة، والخفلة واللفظة“ .
- ”أدرع من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك“ .
- ”احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم“ .
- ”التقوى هي العدة الواقية، والجئنة الواقية، والتجارة الرابحة، والسعادة السانحة، والجللاء للشبهة، والضياء للغمه“ .
- ”سيعيض الله من حرّ الهواجر برد الظلال، ومن قلق الركاب، نصح الإياب“ .
- ”أيقظوا قلوبكم من سنة الخواطر، وأحبسوا ألسنتكم عن محظور المناظر“ .

الفهرس المفصل

الباب الرابع كتاب النقد الأدبي

صفحة	صفحة
أثر الخلقة الطبيعية ٢٢	١ — أبو الحسن الجرجاني
ما هو الجزل وما هو الرقيق ٢٣	القاضي إنسان له عواطف وأهواء ... ٧
إشارة إلى ما نقله عن السالفين من النقاد ٢٤	وصف جرجان وما كان بها من نعيم ... ٨، ٧
الفرق بين الشعر والدين ٢٥، ٢٤	وفاء أبي الحسن لجرجان ٨
رأى مؤلف هذا الكتاب في حدود	أسفاره وأعماله ٩
الشاعرية ٢٦، ٢٥	مؤلفاته في الأدب والفقه والتاريخ ... ١٠، ٩
٣ — ابن فارس	إبائه وعزته ١٠
مولد ابن فارس ومذهبه وأشياخه ... ٢٧	نماذج من شعره في التصون والمغاف ... ١١
ما وقع بينه وبين تلميذه بدیع الزمان ... ٣٠-٢٨	اعتذاره من الانقباض عن الناس ... ١٢
مؤثره الشعرية والتربة ٣٠	تفريده على أفنان الجمال ١٣
نماذج من شعره ٣١	وصفه لنعيم الحواس ١٤
كتاب الصاحي ٣٢	حبيته إلى ليلى بغداد ١٥
حياته العقلية بين التحزور والجود ... ٣٣	رقه الشوق ١٦
إنكاره أن يكون للفلاسفة شعر وإعراب ٣٣	٢ — نقد آراء الجرجاني
الجانب المشرق من حياته العقلية ... ٣٤، ٣٣	كيف ألف كتاب الوساطة ١٧
نماذج مما استباحه من شعر المحدثين ... ٣٦، ٣٥	أخوة الأدب وحقوقها المفروضة ... ١٨، ١٧
آراء ابن فارس في فقه اللغة	أغلاط الجاهليين ١٩، ١٨
نقد رأي السذور جويدي ٣٨، ٣٧	التصنف في الدفاع عن أشعار الجاهلية ٣١، ٣٠
ما هو فقه اللغة في رأي التماحي وأبن فارس ٣٩، ٣٨	أثر المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه ٣٣، ٣١

صفحة	مفصلة
٥٧	رأى ابن سيدة وابن جنى ... ٤٠
٥٨	أول من كتب بالخط العربي ... ٤٠
	رأيه في التوقيف والاصطلاح ... ٤١
	رسم المصحف ... ٤٢
	رأيه في نشأة العلوم العربية ... ٤٢
	رأيه في جاهل أصله من التاير ... ٤٤٤٤٣
	تقد هذا الرأي ... ٤٥
	الألفاظ المبهمة المدلول ... ٤٥
	خصائص اللغة العربية ... ٤٦٤٥
	تعلي ما عرف من كثرة المترادفات ... ٤٦
	تاثير الأقاليم في اللغات ... ٤٧
	٤ - التقى عند ابن شهيد
	الفرق بين البيان وبين النحو والتصرف ... ٤٨
	التنديد بالنحاة والمعلمين ... ٤٩
	كلمة الجاحظ في معلم النحو ومعلم البيان ... ٤٩
	تقد رأى الجاحظ وابن شهيد ... ٥٠
	محاوره ابن شهيد لتلاميذه من العرب واليهود ... ٥١
	الأنساب والقرايات بين الحروف ... ٥٢
	اختلاف البلاغة باختلاف أقدار المخاطبين ... ٥٢
	الشعر الذى يوضع للجندين ... ٥٣
	هل في مقدور كل بلغ أن يصل الى كل غرض ... ٥٤٥٣
	البلاغة ضرب من السياسة النفسية ... ٥٤
	سر البلاغة يرجع الى الطبع ... ٥٥
	هل الأجسام من صور النفوس ؟ ... ٥٦
	كيف حرم الجاحظ من شرف المتزلة وكيف سبقه ابن الزيات وإبراهيم ابن العباس ... ٥٧
	تقد رأى ابن شهيد في ذلك ... ٥٨
	٥ - أبو بكر الباقلانى
	حياته ... ٥٩
	تصويره لما كان في زمانه من أزمة عقلية ... ٥٩
	موقفنا من درس إعجاز القرآن ... ٦٠
٦١٦٦٠	الموازنة بين القرآن وبين غيره من الكلام
٦١	نتيجة هذا البحث ... ٦١
٦٢	تقد رأى الباقلانى ... ٦٢
٦٣	الفرق بين القرآن وبين غيره من الكتب الربانية ... ٦٣
	لماذا لم يصف الله التوراة والإنجيل بالاعجاز ؟ ... ٦٣
٦٤	شرح أسرار تحفوق اللغة العربية ... ٦٤
٦٤	تقد رأى الباقلانى ورأى المسيو مرسيه ... ٦٤
٦٥	بين اللغة العربية واللغات الأجنبية ... ٦٥
٦٥	أثر الضرور القومى ... ٦٥
٦٦	ليس القرآن من جنس كلام العرب ... ٦٦
٦٦	تقد هذا الرأي ... ٦٦
٦٧	رأينا في الفوارق بين اللغات ... ٦٧
	سر البلاغة والفصاحة يرجع الى ما في المني من قوة وروح ... ٧٠-٦٨
٧١	بين القديم والجديد ... ٧١
	تقد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع الى المعانى ... ٧٢

صفحة	صفحة
٩٢ تجنب البحرى للفرىب	٧٤٧٣ شواهد من القرآن بلاغتها فى معانيها
٩٣ السهو والغلط عند المتقدمين	٧٦-٧٤ شواهد من كلام العرب وأشعارهم
٧ - أبو هلال العسكرى	٧٦ مناقشة بعض السرقات الشعرية
٩٤ تحقيق تاريخ وفاته	٧٧٧١ أهمية الألفاظ والأساليب
٩٥٩٤ أبو أحد العسكرى	٧٧ الباقلانى ينفى السجع من القرآن
٩٦ إباء أبى هلال	٧٩-٧٨ خطأ هذا الرأى
٩٦ شعره فى التوجع لحظ الأديب	٨١٤٨٠ غلط فى فهم السجع
٩٦ صلته بالصاحب بن عباد	٦ - أبو القاسم الآمدى
٩٨٩٧ دفاعه عن أدب الصاحب	٨٢ حياته ودمعه فى الأدب
٩٩٩٨ تحامله على المتنبي	٨٣ نماذج من شعره
٩٩ ثر أبى هلال	٨٤ معرفته لنفسية أدعياء الأدب والبيان
١٠٠ نماذج من ثره	٨٥ رأيه فى الحاسة الفنية
١٠١ نماذج من شعره	٨٦ هل يمكن كسب النوق بكثرة المران
٨ - كتاب الصناعتين	٨٦ إيتار الشعر المطبوع على المصنوع
١٠٣ الناية من علم البلاغة	يفتقر للأعراب ما لا يفتر للشعراء
١٠٤١٠٣ جودة كتاب الصناعتين	المثقفين
١٠٥١٠٤ غلبة الأدب على هذا الكتاب	مسألة العمل والإغراب بإيتار وحشى
١٠٦ إسماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب	المعاني والألفاظ
١٠٦ سر البلاغة عند أبى هلال	دخل هذا الاتجاه فى أعمار الألفاظ
١٠٧ حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى	الحن لا يعرى منه أحد من الشعراء
١٠٧ السهل الممتنع	بين صاحب أبى تمام وصاحب البحرى
١٠٨ الكلام الجزل	اجتماع أبى تمام والبحرى لأقول مرة
١٠٩ المدار على إصابة المعنى	التحليل والإسفاف عند هذين الشاعرين
١١٠١٠٩ أطايب من الأدب	هل أبتدع أبو تمام مذهب البديع
	غربة شعر أبى تمام وحسد معاصريه

صفحة	٩ - أبو علي الحاتمي	صفحة
١٢٠	حياته وأدبه	١١١
١٢٠	مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال	١١٢
١٢١	بعض أجزاءه ببعض	١١٢
١٢٢	القدماء والمحدثون	١١٢
١٢٢	براحته في نقد الشعر	١١٣
١٢٣	السر في محمول الحاتمي هو صلفه وكبرياؤه	١١٣
١٢٤	اصطدامه بالمتني	١١٤
١٢٧	وصفه لفطرسة المتني	١١٥
١٢٨	الرسالة الحاتمية	١١٦
١٢٨	مناقشة هذه الرسالة	١١٧-١١٩
١٢٨	١٠ - أبو عبد الله المرزباني	
١٢٩	حياته وإدماؤه على الشراب	١٢٠
١٣٠		

الباب الخامس

مكتاب الآراء والمذاهب

١ - أبو حيان التوحيدى	صفحة
أسرار المبقرية	١٣٣
مولد التوحيدى ونحول نشأته	١٣٣
ثورته على الحياة والأحياء	١٣٤
اتصاله بالصاحب ونروجه عليه	١٣٤
ثورة نفسية	١٣٥
إحراقه لكتبه وغضبه على الناس	١٣٦
هجاؤه لمعاصريه	١٣٧
حديثه عن ابن مسكويه	١٣٧
شخصيته الفلسفية	١٣٨
رأيه في حياة أهل الحق	١٣٩
حياته الوجدانية	١٣٩
كتاب الصداقة والصديق	١٤٠
براعته في تصوير الصداقة والحب	١٤١
تحليل العواطف والأهواء	١٤١-١٤٣
صورة فنية لمودة صديقين	١٤٢-١٤٣
رأيه في الثرثرة والفلسفة	١٤٣
إخوان الصفاء	١٤٤

صفحة	
١٦٢	القيمة الفنية لخطبه المنبرية
١٦٢	اهتمامه بالسجع والأزدواج
١٦٣	تضمينه لآى القرآن
١٦٣	كلفه بالخيال
١٦٤	وقوفه عند الأفكار السطحية... ..
١٦٥	سياسته لعامة الجماهير
٥ -	أبو محمد بن حزم
١٦٦	حياته وكلفه بالكتابة عن الحب
١٦٧	كتاب طوق الحمامة
١٦٧	الحبة لا تصح إلا بعد طول الأتس
١٦٨	دوام الوصل لا يذهب بالحب
١٦٩	إغرامه بشيخ أخبار العشاق
١٧٠	وصف رسائل الحب
١٧١	دراسة الحب جزء من علم النفس
١٧٢	رأى ابن حزم فى طبيعة المرأة... ..
١٧٣	غرامه منذ الطفولة بدرس المرأة... ..
١٧٤	شاهد محزن من وفاء المرأة
١٧٥	المرأة أكثر مواساة من الرجل... ..
١٧٦	المرء فى تمكن طبع المواساة من النساء... ..
١٧٦	المرأة والرجل فى الضعف سواء
١٧٧	ما الصلاح وما الفساد فى الرجال والنساء
١٧٧	عفاف ابن حزم
١٧٨	الجمال أهل للدرس
٦ -	أبو منصور الثعالبي
١٧٩	حياته وشعره
١٨٠	مواهبه الشعرية

صفحة	
٢ -	أبو على بن مسكويه
١٤٥	تحقيق اسمه وإسلامه
١٤٥	انصالة بابن العميد
١٤٦	نظرية التوحيدى من اشتغاله بالكيمياء
١٤٧	سرحامل التوحيدى عليه
١٤٨٠ ١٤٧	بديع الزمان يتوكد اليه
١٤٩	شغف ابن مسكويه بالفلسفة اليونانية... ..
١٥٠	وصيته ودستوره فى نظام السلوك
٣ -	الأخلاق عند ابن مسكويه
١٥٢	تعريف الخلق
١٥٣	سيرته بين الفلاسفة القدماء
١٥٤	اهتمامه بتنقيف النواص
١٥٤	نقته بالمنطق
١٥٥	الجسم والنفس
١٥٦ ١٥٥	نقد رأيه فى خلود النفس... ..
١٥٦	جهوده فى الفلسفة العملية
١٥٧	تحدد آرائه الأخلاقية
١٥٨	آداب الصداقة ورعاية الصديق
٤ -	ابن تباته الخطيب
١٥٩	أبناء نباته فى الأدب العربى
١٥٩	حياة ابن تباته الخطيب
١٦٠	خطبة المنام
١٦٠	ولوعه بالأخبار المنامية
١٦١	تليل هذه الأخبار
١٦١	أثر الزهد والصلاح فى خطبه

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
١٨٧	قيمة الدهر	١٨٢	طرائف من الكتابات
١٨٨	غرام التمايلي بإطراره من يتزجم لهم من	١٨٣	كتاب ثمار الصلوب
١٨٩	الشعراء	١٨٤	ثماين مصر في كلام الجاحظ
١٩٠	استغلال الصلبي لألفاظ معاصره ...	١٨٤	النقش والتصوير عند الأمم القديمة ...
١٩٠	إغفاله لتاريخ الوفيات	١٨٥	عرق الخلال
١٩٠	كتاب فقه اللغة	١٨٥	حشوا اللوزينج
		١٨٦	ماء عناق

الباب السادس

كتاب الوسائل والمهود

١ - أبو الفضل بن العميد	٢ - أبو المغيرة بن حزم
١٩٣ حياته ومواهبه	٢٠٨ ما يجب أن يحصل به الرجل في الحياة
١٩٤ إجلاله لأبي بكر الخياط	٢١٠-٢٠٨ الرسالة
١٩٤ طريقته في نقد الشعر	٢١١ الرسائل الإخوانية
١٩٥ أدب النفس	٢١٢ ٣ - أبو حفص بن برد
١٩٦ رائية ابن نباتة السعدي ..	٢١٢ حياته وأدبه
١٩٧ ما وقع بين ابن العميد وبين السعدي ...	٢١٢ ضياع رسائله
١٩٨ عمل التوحيدى في هذه المحاورة ...	٢١٢ خطابه الى القواد والكتاب
١٩٩ أبو الفتح ابن العميد ونزواته في صباه ...	٢١٣-٢١٥ صور النزاع بين العرب والبربر ...
٢٠٠ توجع أبي الفضل من سيرة أبنه	٢١٥ قيمة ابن برد الأدبية
٢٠١ مرض ابن العميد وعماقه	٢١٥ عهد للمزيد بن هشام
٢ - ثر ابن العميد	٢١٦ كتاب ابن برد عن المظفر حين قتل
٢٠٢ عظمت الثرية	٢١٦ وزيره عيسى بن سعيد
٢٠٣ خطاب وعيد	٢١٧ الجانب القصى والوجدانى عند ابن برد
٢٠٧-٢٠٤ رسائله الوجدانية	٢١٨ ٤ - أبو المغيرة بن حزم
	٢١٨ حياته ونحوه
	٢١٨ ما وقع بينه وبين أبي محمد بن حزم ...

صفحة	
٢٣٧	استهزاء الشراب
٢٣٨	استهزاء الدواء والمداود
٢٣٩	الموضوعات المكررة
٢٤٠	تهنئة بالشفاء من المرض
٢٤٠	تهنئة بالمرض !
٢٤١-٢٤٠	تكرير العبارات والألفاظ
٢٤٢-٢٤١	رسائل المرصعة بالشعر

٧ - الصاحب بن عباد

٢٤٣	بداية أمره
٢٤٣	اتصاله بابن العميد
٢٤٤	ولايتة الوزارة
٢٤٤	مدته العلمية
٢٤٤	أخلاقه بين الكرم واللؤم
٢٤٥	رغبته في استكتاب الصابي
٢٤٦	ما أختلقه التوحيدى على ابن عباد
٢٤٧	صور من غرور الصاحب
٢٤٨	مفتريات التوحيدى عليه
٢٤٩	رأى التعاليى فى الصاحب
٢٥٠	من قصد الصاحب من الشعراء والكتاب
٢٥١-٢٥٢	إغرابه بالكتابة فى الطب
	رسالة الخوارزمى الى تلميذ ظهر عليه
٢٥٢	الجسدى
٢٥٣	كلام الخوارزمى عن الجرب
	إغراب الصاحب بنظم قصائد خالية
٢٥٤	من بعض الحروف

صفحة	
٢١٩	تخريجه من الدراسات الفقهية
٢٢٠	دقة حسه فى اختيار أطايب الحياة
٢٢٠	سوء ظنه بالناس
٢٢١	حنينه الى إخوانه
٢٢٢	غربة أدباء الأندلس
٢٢٢	حديثه عن بلائه بالناس
٢٢٣	إقناعه فى الهجاء
٢٢٤	محاكاته لبديع الزمان
٢٢٥	معارضته لإحدى رسائل بديع الزمان
٢٢٥	غلبة التكلف على شعره

٥ - أبو الفرج البيهقا

٢٢٦	حياته ونموه
٢٢٧	دورانه حول أغراضه النفسية
٢٢٧-٢٢٨	نماذج من شعره
٢٢٩	مودته لأبى إسحاق الصابى
٢٣٠	وصف البيهقا
٢٣١	وصف الصابى للغة البيهقا
٢٣١-٢٣٢	غلبة اللغة الوصفية على البيهقا

٦ - نثر البيهقا

٢٣٣	اهتمامه بالإخوانيات
٢٣٣-٢٣٤	نماذج من إخوانياته
٢٣٤	رسائله فى التهنئة بمولودة
٢٣٥	تفضيل الأثنى على الذكر
٢٣٥	"تهنئة" من تزوجت أمه
٢٣٦	رسالة ابن العميد فى الموضوع نفسه

صفحة	٩ - قابوس بن وشمكير
٢٧٧	نشأته وأدبه
٢٧٨	شعره في محته
٢٧٨	صنعتة في ثره
٢٧٩	ما أبدته من فنون البديع
٢٨٠	الجمع بين الصور المختلفة في الجملة الواحدة
٢٨٢-٢٨١	تقد رسائل قابوس
	دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة
٢٨٥-٢٨٣	عجيبة من أحلام الانسانية
٢٨٨-٢٨٦	هل كانت لقابوس فلسفة؟
٢٨٩-٢٨٨	نشأة التكنية عند العرب
	١٠ - أبو إسحاق الصبائي
٢٩٠	حياته وأخلاقه النبيلة
٢٩٠	تأثره بالروح الاسلامي
٢٩١	صداقته للشرىف الرضى
٢٩٣-٢٩١	قصيدة الشرىف في رثائه
٢٩٣	رغبته في أن يمدحه المتنبي
٢٩٤	تأبى الصبائي عن الاتصال بالصاحب
٢٩٤	توجهه من الحياة
٢٩٥	رقعة شعره وعذوبته
	١١ - رسائل الصبائي
٢٩٦	فناء روحه في البيئة الاسلامية
٢٩٦	استقاؤه من منبج على بن أبى طالب
٢٩٧	ثره تطلب عليه الصبغة الادارية
٢٩٧	ضعف الخلفاء لمهدده

صفحة	تحميل الصاحب على المتنبي
٢٥٥	...
٢٥٦	إعجابه بمنهج ابن العميد
٢٥٧-٢٥٦	شذرات من رسالته عن المتنبي
٢٥٨	قيمتة الأدبية
	٨ - أبو بكر الخوارزمي
٢٥٩	نبوغه بين معاصريه
٢٦٠	حياته وأسفاره
٢٦٠	كلمة عن أشعار النساء
٢٦١	اتصاله بالصاحب
٢٦١	تحميله على المتنبي مجاملة للصاحب
٢٦٢	فساد الصلات بينه وبين الصاحب
٢٦٣	اصطدامه بالهمذاني بديع الزمان
٢٦٥-٢٦٤	شعوره بأجاء الحياة
٢٦٥	تساؤله من محبة من يمانون إدبار الأيام
٢٦٦	فهمة لأسرار البيان
٢٦٧	مر البلاغة يرجع الى الصديق
٢٦٩-٢٦٨	الخوارزمي بين التحليق والإسفاف
٢٦٩	المرح والفكاهة
٢٧٠	الجوانب الجدية
٢٧١	شعوره بهزيمته في الحياة
٢٧٢	تصويره لبعض من عرف من الظالمين
٢٧٣	شاهد من صميمه المتكلف
٢٧٥-٢٧٤	هل كانت لخوارزمي فلسفة خاصة؟
	إشارته الى ماوضع بعد الاسلام على السنة
٢٧٥	المجاهلية

صفحة	
٣١١	غرامه بمقارعة كلب المشرق
٣١٢	خفته في هياج الاقليل
٣١٢	نموذج من تهر الجيد
٣١٣	وصفه لاحدى المتأففات
٣١٤	فتته ببعض رسائله
٣١٤	وصف البموض ووصف الحلواء
٣١٥	رسالة بديع الزمان في وصف ما عند الشواء
٣١٦	وصف جارية
٣١٧	رسائله عن النار والخطب
٣١٧	قوته في اللغة العربية
٣١٨	ترأبن شهيد لم يبق منه إلا القليل ...

١٤ - أبو الفضل الميكالى

٣١٩	أسمرة الميكالى
٣١٩	رأى الثعالي في أبى الفضل
٣٢٠	الاخوانيات عند الميكالى
٣٢١	كتابه الى الثعالي
٣٢١	شكوى الزمان
٣٢٢	وصف رسائل الاخوان
٣٢٣	صلته بأصدقائه وألأفه
٣٢٣	فته في تهر وشعره
٣٢٤	سلطانه على معاصريه

١٥ - بديع الزمان

٣٢٥	حياته وأسفاره
٣٢٦	رأى الثعالي فيه
٣٢٨	يوادر الشريته وبين الخوازمي ...

صفحة	
٢٩٧	نظاره بمواجهه الأدبية
٢٩٨	فقرات وصفية
٢٩٩	أثر الحكمة قليل في تهر
٣٠٠	كتابه عن الطائع الى عضد الدولة ...
٣٠٠	كتابه عن عز الدولة وقد زوجت أبنته
٣٠١	تفوقه وسعة حيلته

١٢ - أبو عامر بن شهيد

٣٠٢	آل شهيد
٣٠٢	غرام أبى عامر بالفتوة والصبوة ...
٣٠٣	عيشه في القصف والتهتك
٣٠٤	كرم نفسه
	فساد رأيه في شئون نفسه وسداد رأيه
	في شئون غيره ، وما آتق للشاعر
٣٠٤	الفرنسي لافونتين في هذه الحال ...
٣٠٥	شعوره بكراهة الموت
٣٠٥	نوحه على نفسه حين فكر في الانتحار ...
٣٠٦	ظرفه في مرضه
	نماذج من شعره المومج حين أحس دق
٣٠٧	الموت
٣٠٨	شعره في إخوانه ومحبيه
٣٠٨	ما أوصى أن يكتب على قبره
٣٠٩	وفاته رحمه الله

١٣ - ترأبن شهيد

٣١٠	براعته في الإنشاء
٣١١	مظاهر الانواء في تهر

صفحة	صفحة
٣٥٠ مناقشات لفظية	٣٢٩ المراسلات التي تقدمت المناظرة ...
١٦ - ثر بديع الزمان	٣٣٠ جواب الخوارزمي ...
٣٥١ تصويره لألوان النفوس ...	٣٣١ صورة المناظرة ...
٣٥١ قوة نفسه وخطابه عن خليفة الميكالي ...	٣٣٢ المباراة في نظم الشعر ...
٣٥٢ خطابه الى من هناه بمرض الخوارزمي ...	٣٣٣ قصيدة بديع الزمان ...
٣٥٣ خطاب في التعزية ...	٣٣٤ قصيدة الخوارزمي ...
٣٥٤ تحليل هذا الخطاب ...	٣٣٤ جواب بديع الزمان ...
٣٥٤ مخبريته من الناس ...	٣٣٥ مناقشة أدبية ...
٣٥٥ حقه على الأغنياء ...	٣٣٦ ملاحاة ...
٣٥٦ خطاب الى انسان ولّى صباه ...	٣٣٧ ملاحاة أشنع ...
٣٥٦ نقد الأخلاق ...	٣٣٨ هدنة تعقبها حرب ...
١٧ - عبد العزيز بن يوسف	٣٣٩ تمحرس وسفه ...
٣٥٧ حياته وأخلاقه ...	٣٤٠ قصيدة في التشيع ...
٣٥٧ صلته بالصاحب ...	٣٤٢ استئناف النضال ...
٣٥٨ نماذج من رسائله الاخوانية ...	٣٤٤ نقد قصيدة الخوارزمي ...
٣٥٨ ترصيع الثر بالشعر ...	٣٤٥ وصف الربيع ...
٣٥٩ وصف الرسائل الاخوانية ...	٣٤٦ ملاحاة ...
٣٥٩ فتح عمان وإمادة الزوج ...	٣٤٧ مباراة في التمرسل ...
٣٦٠ الرسائل السلطانية ...	٣٤٧ رسالة لخوارزمي في التجارات والأسعار ...
٣٦١ فقرات من شمه ...	٣٤٨ رسالة لبديع الزمان تقرأ معكوسة ...
	٣٤٩ هزيمة الخوارزمي ...

فهرس الاعلام

أحمد بن الحسين - ج ٢ ص ٢٢١ (واقف الخنق).
 أحمد بن الحسين - (انظر بدع الزمان).
 أحمد بن الخطيب - ج ١ ص ٨١
 أحمد زكي باشا - ج ١ ص ٢٩٧
 أحمد بن صالح - ج ١ ص ٢٩٧
 أحمد ضيف - ج ١ ص ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٦٠
 أحمد بن طولون - ج ١ ص ٢٩٧
 أحمد طارف الزين - ج ٢ ص ١٧
 أحمد بن عيدر به - ج ١ ص ١٢٢
 أحمد عبد الخالق السادات - ج ٢ ص ٢٨٩
 أحمد بن كثير الفرغاني - ج ١ ص ٣٠٢
 أحمد بن يوسف المصري - ج ١ ص ١١٣ ،
 ١٥٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤
 الأحنف بن قيس - ج ١ ص ٨٩
 الأحوص - ج ١ ص ٢٣٩
 الأغشيدى (كافور) - ج ٢ ص ٢٦١
 الأخضرى - ج ١ ص ٦٤
 الأخطل - ج ١ ص ٧٦ ، ٨٧ ، ٢٥١ ج ٢
 ص ١٢٢ ، ٢٣١ ، ١٢٣ ، ٣١١
 الأخفش - ج ٢ ص ٨٢
 ادريس - ج ١ ص ١٢٧ - ج ٢ ص ٢١٤

حرف الألف

آدم (عليه السلام) - ج ١ ص ١٨٢ ، ٢٤٧
 ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١
 أبان بن أبي عياش - ج ١ ص ٨٩
 إبراهيم بن زيد - ج ١ ص ١٢٧
 إبراهيم بن العباس - ج ٢ ص ٥٧
 إبراهيم مصطفى - ج ١ ص ٢٩
 ابليس - ج ١ ص ١٢٧
 ابن الأجرى - ج ١ ص ١٦٨
 أبي بن كعب - ج ٢ ص ٤٢
 ابن الأثير - ج ١ ص ١٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ج ٢
 ص ١٥٩ ، ١٦٣
 الأمدى - ج ١ ص ١١٣ ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ،
 ٨٦ ، ٨٨
 ابن الأجداني - ج ٢ ص ٣٩
 أحمد بن إبراهيم بن علي - ج ١ ص ٢٤٣
 أحمد أمين - ج ١ ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٦
 أحمد بن أيمن - ج ١ ص ٣٠٠
 أحمد بن بندار - ج ٢ ص ٢٦
 أحمد بن حاتم - ج ١ ص ٢٤٦
 أحمد بن الحارث - ج ١ ص ٢٤٢

الخرجاني (عبد القاهر) - ج ١ ص ٢٢٢، ج ٢ ص ٢٧،

٤٢

الخرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) -

ج ١ ص ١٨٠، ٢٦٠، ١١٣، ج ٢ ص ٢٧، ١٠٠،

١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩،

٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ١٨١، ١٩٠،

جزير - ج ١ ص ٧٨، ٢٧٠، ٢٢٠، ج ٢ ص ١٨،

١٠٩، ١٢٣، ٢٨١، ٣١١

جزير بن عبد الله - ج ٢ ص ٢٧

الجزيري (طاهر) - ج ٢ ص ١٥٩

الجزيري (محمد إبراهيم) - ج ١ ص ٥٥، ٥٤

الجلعي (النايفة) - ج ١ ص ٢٨

جعفر بن محمد بن ثوبة - ج ١ ص ١٧، ج ٢ ص

١٤١

جميل - ج ١ ص ١٦١، ٢٣٩، ٢٥١، ج ٢ ص ٩٠،

جنان (ممشوقة أبي نواس) - ج ١ ص ٢٤١

ابن جني - ج ٢ ص ٤٠

جوت - ج ٢ ص ٦٦

ابن الجوزي - ج ١ ص ٢٠٢

جولد يزهر - ج ٢ ص ١٦٧

جويلدي - ج ٢ ص ٣٨، ٣٧

حرف الحاء

أبو حاتم السجستاني - ج ١ ص ٢٥٠، ٢٧٧

الحاتمي (أبو علي) - ج ١ ص ١١٣، ج ٢ ص

١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩،

الحارث بن شمر النساني - ج ١ ص ٤٨

أبو حلمد المروزي - ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣

التوحيدي - ج ١ ص ٢٦، ٢٦٩، ٢٧٠، ١١٣،

١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٣، ١٣٠، ١٣١،

١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ٢٥٢، ٢٨١،

٢٨٢، ٢٨٥، ج ٢ ص ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥،

١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢،

١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٩٠، ١٩٣،

١٩٨، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،

٢٤٩، ٢٥٩

حرف الشاء

الشمالي - ج ١ ص ١٧، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٥٥

٨٤، ١١٣، ١١٤، ١٢٩، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦،

١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ٢٨٦،

ج ٢ ص ١٧، ٢٧، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٠،

١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤،

١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٣، ٢٢٦،

٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٦،

٢٨٠، ٢٨١، ٣٠١، ٣١١، ٣١٩، ٣٢١،

٣٢٥، ٣٢٨

حرف الجيم

جابر بن حيان - ج ٢ ص ١٤٦

الجاحظ - ج ١ ص ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٢٦، ٢٧،

٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥،

٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١،

٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧،

٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣،

٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩،

جاليوس - ج ٢ ص ١٤٩، ١٥٣

جيريل - عليه السلام ج ١ ص ٩٩، ١٠٠

جيريل القرداسي - ج ١ ص ٢٠٣

الخرجاني (أحمد بن محمد) - ج ٢ ص ١٨١

الحطيفة - ج ١ ص ٤٥٥ ٤٥٦ ج ٢ ص ٤٢

حماد بن إسحاق - ج ١ ص ٢٤٢

حمزة الأصفهاني - ج ١ ص ٢٣٠

حمزة بن رافع - ج ١ ص ٢٥٢

حميد الدين البلخي - ج ١ ص ٢٠٣

حميد بن ثور - ج ٢ ص ١٠٥

الحميري (السيد) - ج ٢ ص ٤٩٨ ٤٩٩

الحناط - ج ٢ ص ٣١٠ ٣١١ ٣١٢

ابن حيان - ج ٢ ص ٣١٠ ٣١١ ٣١٥

الحميري (أبو زكريا) - ج ٢ ص ٢٤٤

حرف الخاء

خالد الخزيت - ج ١ ص ٢٣٨

خالد بن عبد الله القسري - ج ١ ص ٧٣

ابن خالويه - ج ١ ص ٤٢٤٩ ج ٢ ص ١١٤

الخبرأزوي - ج ١ ص ٢١٧

الخزرجي (أبو دلف) - ج ١ ص ٣٥١

الخضمي - ج ١ ص ١٢٠

أبو الخطاب (الصائبي) - ج ١ ص ١٢٩

الخفاجي - ج ١ ص ٨٩ ٩٠ ٩١

ابن خفاجة الأندلسي - ج ١ ص ١٧٣

ابن الخلال - ج ٢ ص ١٢٠

ابن خلدون - ج ٢ ص ٢١٥

خلف الأحمر - ج ٢ ص ٨٥ ٩٢ ١٣٠

ابن خلكان - ج ١ ص ١٣١ ١٣٢ ١٣٤ ج ٢ ص ١٧

٩٤ ٩٥ ١٢٠ ١٥٩ ١٦٠ ١٩٣ ١٩٤

١٩٦ ١٩٨ ٢٦٠ ٢٢٨

حافظ إبراهيم - ج ١ ص ٢٠ ٤٤٣ ٥٤ ١٧٣

الحجاج - ج ١ ص ٤٤٧ ٤٦٢ ج ٢ ص ١٣٣

٢٧٢ ٢٧٣

ابن الحجاج - ج ١ ص ٢٣٨ ٢٤٠ ج ٢ ص ١١٣

ابن أبي الحديد - ج ١ ص ٦٩ ٩٦ ١٠١

٢٨٢ ٢٨٣ ج ٢ ص ١٥٩

الحري (أبو بكر) - ج ٢ ص ٣٤٤

الحريري - ج ١ ص ٩٣ ١٩٨ ٢٠٣ ٢٠٤

٢٠٤ ٢٠٦ ٢٩٤ ج ٢ ص ١٦٢ ٢٢٢

الحريزي (يهود ابن شلومو) - ج ١ ص ٢٠٣

ابن حزم (أبو المغيرة عبد الوهاب) - ج ١ ص

٤١١٠ ج ٢ ص ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢

٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥

ابن حزم (أبو محمد) - ج ١ ص ١٢٥ ١٢٦ ج ٢ ص

١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٧٠ ١٧٢ ١٧٣

١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ٢١٩٠

٢٢٠ ٢٢٣ ٢٠٦ ٣٠٧

ابن حزم (أبو بكر) - ج ١ ص ٢٦١ ٢٨٣

٢٨٤ ج ٢ ص ١٧٤

حسان - ج ١ ص ٢١٧

الحسن بن علي - ج ١ ص ١٢٧

حسين مخلوف - ج ١ ص ٢٩٤

أبو الحسين (السيد) - ج ٢ ص ٣٤٠

الحسين بن محمد الخشاشي - ج ٢ ص ٣٢٧

الحصري (أبو إسحاق) - ج ١ ص ٢٤ ٢٧

٢٧١ ١٢٦ ١٩٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٤٧

ج ٢ ص ١٨ ٢٣٥ ٢٣٩

ابن الخصب - ج ١ ص ٨٢

دعبل بن علي — ج ٢ ص ٩١
 دكين (من حيدر الجبل) — ج ١ ص ٢٦٣
 دوزي — ج ٢ ص ١١٧
 ديك الجبل — ج ١ ص ١٧٣ ج ٢ ص ١٨٠
 ديمومين (Demombynes) — ج ١ ص ٦٩
 ١٨٠ ١٨٧ ٢٠٠ ج ٢ ص ١٦٧

حرف الذال

الذبياني (الناصفة) — ج ١ ص ٦٥ ج ٢ ص ٧٠
 ١٠١ ١١٢ ١١٣ ١٢٦ ١٣٥
 ابن ذريح (قيس) — ج ٢ ص ٧٥
 أبو ذر — ج ٢ ص ٢٧١

حرف الزاء

رؤبة — ج ٢ ص ٢٢
 الرازي (أبو الحسين بن فارس) — ج ٢ ص ٢٧
 الزافي (مصطفى صادق) — ج ١ ص ١٦٢
 زبيعة بن حذار — ج ١ ص ٨٩
 زجاء (أبو سعد) — ج ٢ ص ١٨٥
 الزمعي (أبو سعيد) — ج ٢ ص ٢٥٠
 ابن رشد — ج ١ ص ٢٨٢
 الرشيد — ج ٢ ص ٤٦ ٢٥٠

ابن رشيقي — ج ١ ص ١٨ ١٩ ٢١ ٢٢
 الرضي (الشرقي) — ج ١ ص ٢٠ ٢٦ ٦٩
 ١١٣ ١٢١ ٢٨٣ ج ٢ ص ٢٣١ ٢٥٩
 ٢٩٦ ٢٩٣ ٢٩٢ ٢٩١
 الرقاشي (عبد الصمد بن الفضل) — ج ١ ص ٨١
 ٩٣ ٨٩
 الرقاشي (الفضل بن عيسى) — ج ١ ص ٨٠ ٨٩ ٩٢

الخليل بن أحمد — ج ١ ص ١٨٤ ٢٦٩ ج ٢ ص ٩٢ ٤٤٤ ٤٤٣
 خنافر الجيري — ج ١ ص ٢٥ ٣٦ ٥٦
 الخلفاء — ج ٢ ص ١٠٧
 خواجا — ج ١ ص ٢٤٩
 خوارزم شاه (مأمون بن مأمون) — ج ٢ ص ١٧٩
 الخوانساري (أبو بكر) — ج ١ ص ١٨ ١٩ ٢٦
 ١٠٥ ١٠٦ ١١١ ١١٣ ١١٤ ١٢٦
 ١٢٧ ١٣٠ ١٣١ ١٣٤ ١٣٥ ج ٢
 ص ١٣٩ ١٤٠ ١٨٦ ١٩٠ ١٩٤ ١٩٥
 ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٩
 ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥
 ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١
 ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٩٤
 ٣١٢ ٣١٩ ٣٢٥ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٣٠
 ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٤٢ ٣٤٣
 ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٩ ٣٥٢

الخياط (أبو بكر) — ج ٢ ص ١٩٤ ١٩٥

حرف الال

ابن الالري — ج ٢ ص ٢٤٥
 الالولي (أبو الالأسود) — ج ١ ص ٤٥٥ ج ٢ ص ٤٤٥
 ٤٣
 الالانوتيرو (شاعر إيطالي) — ج ٢ ص ٢٨٥
 ابن الالود — ج ١ ص ٨٢ ٨٤ ٨٥ ج ٢ ص ١٧١
 الالدار قطني — ج ١ ص ٢٤٧
 ابن الالدرستويه — ج ١ ص ٢٦٩
 ابن الالدريد — ج ١ ص ٧٣ ١١٣ ١٩٨ ١٩٩
 ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩
 ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٥١
 ٢٥٢ ج ٢ ص ٨٢ ١٩٠ ٣١٩

ركن الدولة — ج ١ ص ١١٦ ١٩٥٠ ٢٠٠٠ ٢٠٣٠
ج ٢ ص ٢٤٤ ٣٦٠
الرواني (علي بن عيسى) — ج ١ ص ٤٨٩ ج ٢ ص ١١٤
ذو الرمة — ج ١ ص ١٨٢ ٢٠٧ ٢١٦ ٢٠٨
٢١٧
روش (Ruch) — ج ٢ ص ٢٥٤
الروزباري (أبو بكر بن علي) — ج ١ ص ٢٨٦
ابن الرومي — ج ١ ص ٢٠ ٢٠٠ ٢١٦ ج ٢ ص ١٠٥
١٢٦ ١٣٢ ١٣٧ ١٨٠ ٢١٦ ٢١٩
٣٠٠
رينان (Renan) — ج ١ ص ٤٤٤ ج ٢ ص ٣٢ ٣٣
حرف الزاي
زبدة الحقب (شيطان بدیع الزمان) — ج ١
ص ٢٦٧
أبو زيد الطائي — ج ١ ص ٢١٥
ابن الزبيري — ج ٢ ص ٢٥
الزبير بن بكار — ج ١ ص ٢٤٢
الزبيري (بكار بن عبد الله) — ج ٢ ص ٢٧٦
الزجاج — ج ٢ ص ٨٢
الزحالي (أبو الوليد) — ج ٢ ص ٢٠٨
الزركلي (خير الدين) — ج ٢ ص ١٤٥ ١٩٤
ابن زكريا — ج ٢ ص ٢٥١
بنت زكريا بن يحيى التميمي — ج ٢ ص ١٧٤
الزنايري — ج ١ ص ٢٤١
أبو زكريا — ج ٢ ص ١٤٦
الزغفراني (أبو القاسم) — ج ٢ ص ٢٥٠
الزوزني (أبو علي) — ج ٢ ص ١٨٨

الزوزني (الكتاب) — ج ٢ ص ٢٨٠
زهير بن نمير (من الجن) — ج ١ ص ٢٦١ ٢٦٢
زهير — ج ٢ ص ١٣٠
ابن الزيات — ج ١ ص ٤١٨ ج ٢ ص ٥٧
الزيات (أحمد) — ج ١ ص ٦٠
زياد بن أبي سفيان — ج ١ ص ٤٧ ٤٦٣ ٩٢
زيدان (جوزجي) — ج ١ ص ٢٣٤ ج ٢ ص ٩٤
أبو زيد — ج ١ ص ٧٧
ابن زيدون — ج ١ ص ١٨ ١٨٠ ٢٢٩٤ ج ٢
ص ١٥٩ ٢٠٩
زيد بن عدى — ج ٢ ص ١٨٦
زيد بن علي — ج ١ ص ١٢٧
أبو زيد القرشي — ج ٢ ص ٢٦٠

حرف السين

السجستاني (أبو سليمان محمد بن ظاهر) — ج ٢
ص ١٤٢
السجستاني (أبو حاتم) — ج ١ ص ٢٥٢
سبحان — ج ١ ص ٢٧ ٢٩ ١٣٩
ابن السراج — ج ٢ ص ٨٢
سعد باشا — ج ١ ص ٥٤ ٥٥
ابن سعدان (أبو عبد الله) — ج ١ ص ١٢٣
ابن سعد (أبو الحسين) — ج ٢ ص ١٨٥
السعدى (ابن نباتة) — ج ٢ ص ١٥٩ ١٩٦
١٩٧ ١٩٨
سعيد بن حميد — ج ١ ص ١٩١ ج ٢ ص ١٠٨
سقراط — ج ٢ ص ١٤٩ ١٥٣

أبو الطيب (الامام) - ج ٢ ص ٣٤٠، ٣٤٢

أبو الطيب اللغوى - ج ٢ ص ١١٤

أبو الطيب - ج ٢ ص ٢٢٤ (وأنظر الخنى).

حرف العين

عاتكة بنت قند - ج ٢ ص ١٧٤

العارض (أبو الفضل) - ج ٢ ص ٩

عامر بن الطفيل - ج ١ ص ٩٤

عامر بن القزب المدوائى - ج ١ ص ٢٥٢

العامرى (المظفر أبو عامر) - ج ٢ ص ٥٢

٢١٢، ١٤٦، ٥٣

أبو عامر النجدى - ج ١ ص ١٦٧

ابن عباد (الصاحب) - ج ١ ص ١١١، ١١٣

١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٠، ١٣١، ١٣٢

١٧٤، ج ٢ ص ١٧، ٢٨، ٣٢، ٩٤، ١٨٢

١٩٤، ٢٢٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦

٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤

٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١

٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٧

العباس بن الحسين (أبو الفضل) - ج ١ ص ١٦٧

ابن عباس - ج ٢ ص ٤١، ٨٧، ٩٧، ٣١٣

٣١٤

أبو العباس (كاتب محمد بن إبراهيم) - ج ٢ ص ٢٧١

أبو العباس (عبد الله بن المعتز) - ج ١ ص ٥٩

أبو العباس بن سابور - ج ١ ص ١٣٩

أبو العباس - ج ١ ص ١٣٧

العباس بن الأحنف - ج ٢ ص ٧٥، ١٠٧

١٢١

المبشمى (ابن أبي الفوارس) - ج ٢ ص ٢٧٦

الصولى (إبراهيم) - ج ١ ص ١٧، ١٨، ٢ ج

١٨١ ص

الصولى (أبو بكر) - ج ١ ص ٥٦، ٢٤٩

الصيمرى (أبو جعفر) - ج ١ ص ١٦٧

حرف الضاد

الضبي (أبو العباس) - ج ٢ ص ٢٥٠

الضبي (أبو عامر) - ج ٢ ص ٣٥٣

ضمرة بن ضمرة - ج ١ ص ٨٩

حرف الطاء

الطائع لله - ج ٢ ص ٢٦٠

الطائى (أبو تمام) - ج ٢ ص ٨٩، ١٢٣، ١٢٦

ابن طاباطبا - ج ٢ ص ٨٢

ابن أبي طاهر (أحمد) - ج ١ ص ١٧

الطبرى (أبو عبد الله) - ج ١ ص ٤٤٩، ٢ ج

٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٥ ص

الطنبى - ج ٢ ص ٢١٣

طه حسين - ج ١ ص ١٨، ٣٣، ٣٤، ٣٧

٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٦٠، ٦١، ٦٤

١٦١، ١٧٣، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٣٤

٢٤٦، ج ٢ ص ٤٦

طرفة - ج ١ ص ١٧، ٢٢٠، ٢٢٢، ج ٢ ص ٢٠

الطرواح - ج ٢ ص ١٢٥

ابن الطواء - ج ١ ص ٢٤١

ابن طوق (مالك) - ج ١ ص ٨١

ابن طولون - ج ١ ص ١٧

أبو الطيب الرازى الكيفى - ج ٢ ص ١٤٦

- العبد (في عرف أهل الأندلس) - ج ٢ ص ١١٣
 أبو العاتية - ج ٢ ص ١٠٥، ١٢٥، ١٢٧
 عتبة بن أرقم (شيطان الجاحظ) - ج ١ ص ٢٦٥
 عتبة بن عبيد - ج ٢ ص ٢٤٥
 عتبة بن مرداس - ج ١ ص ٨٧
 عمدة الدولة - ج ٢ ص ٣٠٠
 عز الدولة - ج ٢ ص ٣٠٠
 العسكري (أبو أحمد) - ج ٢ ص ٩٤، ٩٥، ٢٨٨
 العسكري (أبو داود المتكلم) - ج ١ ص ٢٢١
 العسكري (انظر أيرملان)
 عبد الحميد المبادي - ج ١ ص ١٨
 عبد الحميد بن يحيى - ج ١ ص ٦١، ٦٣
 ١٣٣، ١٣٠، ١٣٩، ٢٦٢، ج ٢ ص ١٣٣
 عبد الرحمن الشيرازي - ج ٢ ص ١٨٨
 عبد الرحمن بن عبد الله ابن أبي الأصبغ -
 ج ١ ص ٢٤٩، ٢٤٦
 عبد الرحمن بن هشام - ج ٢ ص ٢١٨
 عبد الصمد بن الفضل - ج ١ ص ٧٩، ٨٨
 عبد الصمد بن المنزل - ج ١ ص ٢٠، ٢١
 عبد العزيز البشري - ج ١ ص ١٨٥
 عبد العزيز (أبو الحسن صاحب ديوان الرسائل) -
 ج ٢ ص ٢٦٤
 عبد العزيز جاويز - ج ١ ص ٥٤، ج ٢ ص ٧١
 ٢٢٥
 عبد العزيز بن يوسف - ج ١ ص ٢٦، ٢٦٥، ج ٢
 ص ٢٥٧ - ٢٦١
 عبد الله بن خلف - ج ١ ص ٢٤٠
 عبد الله بن شداد - ج ١ ص ٧٤
 عبد الله بن عبد الله - ج ٢ ص ١٨٦
 عبد الله عفيفي - ج ١ ص ١٦١
 عبد الله بن عمار البرقي - ج ٢ ص ٢٧٦
 عبد اللطيف بن يوسف البندادي - ج ٢
 ص ١٥٩
 عبد الملك بن مروان - ج ١ ص ٩١
 ابن عبد الواحد (أبو الحسن بن محمد) - ج ٢
 ص ٨٢
 ابن عبد الواحد (القاضي أبو جعفر) - ج ٢
 ص ٨٢
 العتيبي (أبو نصر) - ج ١ ص ١٧٠
 أبو عبيدة - ج ١ ص ٦٩، ٢٥٢، ٢٨٣، ٢٨٥
 عثمان بن إبراهيم الخاطمي - ج ١ ص ٢٣٨
 عثمان بن عفان - ج ١ ص ٥٨، ٦٩، ١١٢
 ٢٢٨، ج ٢ ص ٤٢
 عثمان بن مظعون - ج ٢ ص ٦٦
 عثمان بن يوسف القليوبي - ج ٢ ص ١٥٩
 السجاج - ج ١ ص ٧٤
 السجل (محمد بن علي) - ج ٢ ص ٣٤
 عدي بن زيد - ج ٢ ص ٢٢
 العذري - ج ١ ص ٢٣٨
 عصمة بن بدو القزاري - ج ١ ص ٢٠٦، ٢٠٧
 عضد الدولة - ج ١ ص ١١١، ١١٩، ١٢٠
 ١٢٣، ج ٢ ص ١٢٠، ١٤٥، ٢٤٤، ٢٥٧
 ٣٦٠، ٣٥٩

محمد لطفى جمعه - ج ١ ص ٢٠٥
 محمد نجيب النرايلي باشا - ج ١ ص ٢٩
 محمد بن منصور (أبو سعد) - ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩
 محمد المولى - ج ١ ص ١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
 محمد المهدي - ج ١ ص ٢٥٨ ، ٢ ص ٢٦٠
 محمد بن موسى - ج ١ ص ٣٠٢
 محمد هلال بك - ج ١ ص ١٧٤
 محمد هيكلك بك - ج ١ ص ٣٢
 محمد بن يوسف الثغرى - ج ٢ ص ٨٩
 المهلبى (أبو محمد) - ج ١ ص ١٦٧ ، ١٨٢
 ابن ميمون (العباس) - ج ٢ ص ١٣٠
 المرزبانى (أبو عبد الله) - ج ١ ص ١١٢ ، ج ٢
 ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٦١
 ابن المرزبان (أبو نصر) - ج ٢ ص ٣٤١
 مرسيه (Marçais) - ج ١ ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٦١
 ١٩٩ ج ٢ ص ٦٤ ، ١٦٧
 المرقش - ج ١ ص ٤٨
 مروان - ج ١ ص ٦٠
 مروان بن أبى حفصه - ج ٢ ص ٢٧٦
 المستعين - ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ج ٢ ص ١٢٩
 أبو مسلم - ج ١ ص ٧٠
 مسلم بن الوليد - ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٤٨ ، ج ٢
 ص ٢٥٧ ، ٢٩٠

الذى راسله الخوارزمي) - ج ٢ ص ٢٧١
 محمد بن أحمد - (انظر أبو المهر الأزدي) -
 محمد بن أحمد - ج ٢ ص ٢٧
 محمد بن أرمك - ج ٢ ص ٣٤١
 محمد بن اسحاق - ج ١ ص ٨٤
 محمد بنجيت - ج ٢ ص ٣٢
 محمد بن جامع الصيدلانى - ج ٢ ص ١٧١
 محمد بن جعفر - ج ١ ص ٢٤٦
 محمد بن حامد - ج ٢ ص ١٨٩
 محمد بن حبيب - ج ١ ص ٢٤٢
 محمد بن الحسين (ابن أخت الفارسي) - ج ٢
 ص ٧
 محمد بن خلف - ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠
 محمد السباعى - ج ١ ص ١٧٤
 محمد بن سعيد الكاتب - ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٤
 محمد بن سلام - ج ١ ص ٢٧
 محمد بن سليمان - ج ١ ص ٢٩٧
 محمد بن صالح الفورى - ج ١ ص ٢٩٨
 محمد بنجده - ج ١ ص ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ج ٢ ص ٧١ ،
 ١٣٢
 محمد بن عبد الرحمن المستكنى - ج ٢ ص ٢١٢
 محمد بن على - ج ٢ ص ١٠٥
 محمد بن عمران المرزبانى - ج ١ ص ٢٤٧
 محمد بن عبد المطلب - ج ٢ ص ٢٦٩
 محمد بن فريد - ج ١ ص ١٨١

ابن مسكويه - ج ۱ ص ۱۱۳، ۱۱۲، ۱۱۳، ۱۲۳
 ۱۲۴، ج ۲ ص ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۴۵
 ۱۴۶، ۱۴۷، ۱۴۸، ۱۴۹، ۱۵۰، ۱۵۲
 ۱۵۴، ۱۵۵، ۱۵۶، ۱۵۷، ۱۹۳، ۱۹۶
 ۱۹۸، ۲۰۰

ابن مصعب (عبد الله) - ج ٢ ص ٢٧٦
 أبو المطهر الأزدي - ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٤٢ ،
 ٣٥١ ، ٣٤٩

المطبعة - ج ٢ ص ٢٩٩

معاوية - ج ١ ص ٢٥، ٥٧، ٧١، ٧٥، ٧٦،
٧٧، ١٢٣، ٢٥٢؛ ج ٢ ص ٢٨

ابن المعتز - ج ١ ص ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩
المعتصم - ج ١ ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧

المعتضد - ج ١ ص ١٧

المعتمد بن عباد — ج ٢ ص ٢٧٧

المعري (أبو العلاء) - ج ١ ص ٢٦، ١٩٢٤
٢٥٨، ٢٦٠، ج ٢ ص ٢٥٥، ٢٥٩، ٣١١

معز الدولة — ج ١ ص ٢٤٤

معن بن أوس - ج ۱ ص ۱۶۶ ج ۲ ص ۲۶

معين الدولة - ج ١ ص ١٤٢

المقري - ج ٢ ص ٢١٥، ٢١٨

ابن المقفع - ج ١ ص ١٨ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٦١ ،
٧١ ، ٧٢ ج ٢ ص ٢٨٩

المكتفى - ج ٢ ص ١٨١

المتادى (يوسف بن حمويه) - ج ٢ ص ٣٥

این متاثر — ج ۲ ص ۱۳۰

المشعر - ج ٢ ص ١٢٩

المنخل الشكري - ج ٢ ص ٢٢

المنصور (الخليفة) - ج ١ ص ٢٠١

المتصور بن أبي عامر - ج ٢ ص ١٧٤

المفلوطي - ج ١ ص ٤١٨٤ ج ٢ ص ٨٩٦٧١

المهدي - ج ١ ص ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠ ج ٢ ص ١٨٢

المهلبى (أبو محمد) - ج ١ ص ١٦٧ ج ٢ ص ٢٥٥،
٢٩٢، ٢٩٩

مومى عليه السلام — ج ۲ ص ۷۷، ۱۸۴

موسیٰ بن جعفر - ج ۱ ص ۱۲۷

الموصلی (اسحاق) - ج ۲ ص ۸۰

میتس (Mez) ج ۱ ص ۳۳۸ ج ۲ ص ۲۵۴

ابن ميادة — ج ۱ ص ۱۸۴ ج ۲ ص ۴۴

الميكالى (أبو نصر) - ج ١ ص ١١١ ج ٢ ص ٢٥١

المیکالی (أبو الفضل) - ج ۱ ص ۱۱۲، ۱۷۰،

٦٢٢٠ ٦٢٠٩ ٦١٨٦ ٦١٨٢ ج ٢ ٦١٧٨

6722 6723 6724 6725 6726 6727

حرف النون

النابعة - ج ١ ص ٢٢٠

ابن ناقلیہ - ج ۱ ص ۲۰۲

ابن نباتة الخطيب - ج ١ ص ٤١١٣، ٤٥٨ ج ٢
ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥

ابن نباته المصري - ج ٢ ص ١٥٩

ابن نباتة السعدي - ج ١ ص ٢٠٢

نجاح بن سلامة - ج ٢ ص ١٣٤

نجبة بن علی - جر ۲ ص ۲۴۴

أبو النجم - ج ١ ص ١١٧

اليقوي (أبو محمد) - ج ١ ص ٢٢٨	اليروي (أبو الأقيشر) - ج ٢ ص ٨
يموت بن المزروع - ج ١ ص ٢٤٦	اليزدادي - ج ٢ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
يوسف عليه السلام - ج ١ ص ٤٩٩ ، ١٠٠	يزدجرد - ج ٢ ص ٢٧٣
يوسف بن إبراهيم - ج ١ ص ٢٩٧	يزيد بن معاوية - ج ١ ص ٢٥١
يوسف الاسرائيلي - ج ٢ ص ٥١	يزيد بن الوليد - ج ١ ص ٦٠
أبو يوسف (القاضي) - ج ١ ص ٢٣٤	يعقوب بن إبراهيم (أبو الفرج) - ج ٢ ص ١٨٥
	يعقوب بن أبي شيبة - ج ١ ص ٢٤٢



جمع مواد هذا الفهرس فضيلة الأستاذ علي عبد الحميد مبارك، ورتبه.
حضرة سليمان فهمي مبارك افندي : فلهما من المؤلف أجرل التناء .

المراجع

الفرض من هذه المراجع هو تحديد الطبعات التي اعتمدنا عليها عند تحرير الشواهد أو قد بعض الآراء ليستطيع القارئ الرجوع إليها حين يشاء، ولم زد استقصاء كل ما رجعنا إليه عند تأليف هذا الكتاب وإنما اكتفينا بما لم يكن بد من الإشارة إليه في معرض البحث والتحقيق^(١).

إحياء علوم الدين — الفزائى — القاهرة — ١٢٧٨

الأخلاق عند الفزائى — زكى مبارك — ١٩٢٤

الأدب الجاهل — طه حسين — القاهرة ١٩٢٨

أدب الكتاب — ابن قتيبة — القاهرة ١٩٣٧

أدب الكتاب — الصولى — القاهرة ١٣٤١

أدبيات اللغة العربية — عاطف بركات — القاهرة ١٩٠٩

إرشاد الأديب، إلى معرفة الأديب (هو معجم الأديباء) .

أسواق الذهب — أحمد شوقي .

الأغانى (٢١ جزء) — الأصبهانى — طبع دار الكتب المصرية وطبع السامى .

الأمالى — القالى — طبع بولاق ١٣٢٤

بنية الوعاة — السيوطى — القاهرة ١٣٢٦

بلاغة العرب فى الأندلس — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢٤

اليان والتبيين — الجاحظ — القاهرة ١٣٣٢

تاريخ الأدب العربى — أحمد الزيات — ١٩٢٠

(١) راجعنا فى تواريخ الطبقات ما أئجه الناصرون، والقارئ لا يصعب عليه تمييز السنة الهجرية من السنة الميلادية.

- التحفة البية — الاستانة — ١٣٠٢
- تجارب الأمم — ابن مسكويه — طبعة مرجوليوت .
- التفضيل بين بلاغة العرب والمعجم — أبو هلال العسكري (ضمن مجموعة التحفة البية) .
- ثمار القلوب — الثعالبي — القاهرة .
- تهذيب الأخلاق — ابن مسكويه — ١٣٢٩
- حب ابن أبي ربيعة وشعره — زكى مبارك — الطبعة الثالثة .
- حكاية أبي القاسم البغدادى — أبو المطهر الأزدى — طبع هيدلبرج .
- جواهر الألفاظ — قدامة بن جعفر — الطبعة الأولى .
- الحیوان — الجاحظ — القاهرة .
- الخصائص — ابن جنى — الطبعة الأولى .
- خطب ابن نباتة — بيروت ١٣١١
- درة النواص — الحريرى — الطبعة الأولى .
- دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني — القاهرة ١٣٣١
- ديوان أبي نواس — طبعة دمشق .
- ديوان الشريف الرضى — طبعة بيروت .
- الذخيرة — ابن بسام — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البية) .
- رسائل اخوان الصفا — القاهرة ١٩٢٩
- رسائل يدبع الزمان — بيروت .
- رسائل البغواء — كود على — القاهرة ١٩١٣
- رسائل الجاحظ — القاهرة ١٣٢٤
- رسائل الخوارزمى — القاهرة ١٢٧٩

- رسائل الصابي — القاهرة
- رسالة القرآن — المعري — القاهرة ١٩٢٥
- الرسالة العذراء — ابن المدر — طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ (شرح زكي مبارك) .
- زهر الآداب — أربعة أجزاء — المحصرى — ١٩٢٥
- نهر البلاغة — الثعالبي — دمشق .
- سر الفصاحة — الخفاجي — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- شرح نهج البلاغة — ابن أبي الحديد — القاهرة ١٣٢٩
- الصاحي — ابن فارس — القاهرة ١٩١٠
- طبع الأعشى — القلقشندي — طبع دار الكتب المصرية .
- الصدقة والصدق — التوحدي — القاهرة ١٣٢٣
- الصناعتين (في مجلدين) — أبو هلال العسكري — ١٣٢٠
- صهاريج التؤلؤ — توفيق البكري — القاهرة ١٣٢٠
- ضمي الاسلام — أحمد أمين — ١٩٣٣
- طبقات الشعراء — ابن سلام — القاهرة ١٣٣٢
- طبقات النحاة — الأنباري — القاهرة ١٩٢٤
- طوق الحمامة — ابن حزم — لندن ١٩١٤
- المقد الفريد — ابن عبد ربه — القاهرة ١٣٢١
- عيون الأخبار — ابن قتيبة — طبع دار الكتب المصرية .
- غول البلاغة — توفيق البكري — القاهرة ١٣١٣
- الفرائد والغرائب — الثعالبي — ١٣١٧
- فقه اللغة — الثعالبي — القاهرة ١٩٢٧
- الفوز الأصغر — ابن مسكويه — الطبعة الأولى .

- الفهرست - ابن النديم - طبع القاهرة .
 كتاب الكتاب - ابن درستويه - بيروت ١٩٢١
 كلية ودمتة - ابن المقفع - القاهرة ١٣٢٧
 كمال البلاغة - اليزدادى - القاهرة ١٣٤١
 الكايات - الثعالبي - القاهرة ١٩٠٨
 المثل السائر - ابن الأثير - بولاق ١٢٨٢
 محاضرات الراغب الأصفهاني - الطبعة الأولى .
 مصارع العشاق - جعفر بن أحمد - القاهرة ١٩٠٧
 معجم الأدباء (سبعة مجلدات) - ياقوت - طبعة مرجوليوت ١٩٢٣
 معجم البلدان (ثمانية مجلدات) - ياقوت - القاهرة ١٣٢٤
 المقابسات - التوحيدى - القاهرة ١٩٢٩
 المكافأة - أحمد بن يوسف - القاهرة ١٩١٤
 مقامات بديع الزمان - بيروت .
 مقامات الحريري - طبع الحلبي .
 مقامة ابن خلدون - القاهرة ١٣٢٢
 من غاب عنه المطرب - الثعالبي - طبع الآستانه .
 مختارات المغلولي .
 الموشح - المرزبانى - القاهرة ١٣٤٣
 الموشى - أبو إسحاق الوشاء - لندن .
 الموازنة بين الطائفتين - الأمدى - بيروت .
 الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك - القاهرة ١٩٢٦
 ثر النظم ، وحل المقد - الثعالبي - القاهرة ١٣١٧

- المخصص — ابن سيده — الطبعة الأولى .
 نشوار المحاضرة — التونسى — طبعة مرجولوث .
 نفع الطيب — المقرئ — طبع ليدن .
 نقد الشعر — قدامة بن جعفر — الآستانه ١٣٠٢
 نقد النثر — قدامة بن جعفر — القاهرة ١٩٣٣
 نهاية الأرب — التويرى — طبع دار الكتب المصرية .
 نهج البلاغة — علي بن أبي طالب — ١٩٢٥
 الوساطة — أبو الحسن الجرجاني — صيدا ١٣٣١
 الوسيط — أحمد السكندرى ومصطفى عتاني — ١٩٢٩
 وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٢٩٩
 يتيمة الدهر — الثعالبي — طبعة دمشق .

Encyclopédie de l'Islam

- Huart. — Littérature Arabe. Paris 1923.
 Marçais. — Origines de la prose littéraire arabe (Revue Africaine 1^{er} trimestre 1927).
 Mez. — La Renaissance de l'Islam (traduction inédite de M. Ruch).
 — Abulkasim. (Heidelberg 1920).
 Mubarak. — La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire.
 — Paris 1931.



كَمَل طبع الجزء الثانى من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"
 بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢
 (أول فبراير سنة ١٩٣٤) م
 محمد نديم
 ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

دولاب زكى مبارك

مقتطفات من بعض مقالات الكّاتب والشعراء الذين تقدوا هذا الديوان

نوصى قراءنا بالاطلاع على مقدّمة هذا الديوان ، بل بالامعان فيها ، فقد أزعج فيها صاحب الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفة خاصة ، ولولا ضيق المقام لآثرنا نشرها برمتها فهي غودج من الشرّ الفنى الرقيق الجميل ... الدكتور زكى مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظه موسيقى كصوته المعروف لخلافته . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها . سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظماً بدل حصرها فى نثره الفنى لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن ... وشعر ديوانه صور شتى من عواطفه . وخواطره هى مرآة نفسيته ونظراته الى الحياة ، وهو أمين بقطره فى تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه ، وكفى بهذا الصدق المطبوع فى التعبير نفرا لآى شاعر ، فان هذه هى الصفة الخالدة التى لا يقال عنها أى نقد ، والتى تستنكر يجانبها المقارنة والتفضيل .

مجلة أبولو الشعرية



لعل المقدمة التى كتبها الدكتور زكى مبارك خير ما يكتب فى تحليل شعره : فقد تجرد تكافد من ذاتيه وعمد الى ما يعلمه عن نفسه بفعله أساسا لتلك النظرة التقديرية التى وصف فيها شعره ونفسه . قال عن نفسه : (فان الشاعر نفسه يجتثنا فى مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يحهل قلبه كل الجهل) وأشار فى الموضوع نفسه الى رسالة كان كتبها فقال : (وأعيد عليك يا صديق أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب فقد فهمت كل

شيء، وبقي قلبي كالغابة المجهولة في ضمير الظلماء) وكلامها قول شاعر ... وإنك لترحب إذ تقرأ
أشعار هذه المجموعة بإشراق دياجتها وجرسها ، والإجادة في اختيار ألفاظها . ومن غرر
الديوان قصيدة (غريب في باريس) .

محرم المقتطف



نقلنا من هذا الديوان صفحة يحاطب فيها المؤلف أهل أسبوط وهي مثال حسن لسائر
القصائد والمقطوعات . وأحسن ما في الدكتور زكي مبارك أنه يذكر المدن المصرية ويصف
مغاني الطبيعة على ضفاف النيل .

محرم الحجلة الجديدة



لعل الكثيرين من قراء العربية لا يجهلون الأديب النابغة الدكتور زكي مبارك ، ولعل
الكثيرين يعرفون أنه جمع بين كثير من المواهب والصفات، فهو كاتب وشاعر ومن متخزجي
الأزهر والجامعة، ومن أبناء ستريس وباريس، ومن رجال التعليم والصحافة أيضا . وعلى
الجملة هو من الشبان الذين اعطوا حكمة الكهول وتدقيقاتهم وتحقيقاتهم، ومن الكهول الذين
لم نشاط الشبان وثورة الشباب ... جمع في هذا الديوان كثيرا مما فاضت به عاطفته وجادت
به قريحته الخصبية من قصائد في الحب والمجد والشباب والجمال ، وأهداء تحفة متممة لقراءه
العربية بتصفحونها فيرون فيها نفوسهم كما يصورها الخيال الصادق والشعور الفياض والأحلام
اللذيذة، ويقرأون فيها نوعا من الشعر جديدا بخياله وأفكاره وصوره، قديما بنسجه العربي ،
وأسلوبه الأدبي، ونسجه المحكم الذي لم يفسده شرود عن القواعد ولا تجن على أصول اللغة
بدعوة الابتكار والتجديد .

محرم الهلال



ديوان زكي مبارك مجموعة من حالاته النفسية في الفراق والبعد والشكوى والحنين وذكر
الديار والأحباب . وفي شعره الطابع العربي الصميم، وهو نتيجة حفظه ثلاثين ألف بيت .
في حياته من الشعر القديم .

محرم الحديث



أهدانا الأستاذ زكي مبارك مجموعة من شعره ، سماها بالعربية "ديوانا" وبالفرنسية "قصائد غرامية" والتسمية الثانية أحق أولى ... وإن قارئ قصائد الأستاذ مبارك يدرك من أول وهلة أنه تأثر بالأدب الغربي الى حد بعيد ، ولا غرو فالأستاذ أديب في الفرنسية كما هو أديب في العربية .

محرر جريدة الهدى



الدكتور زكي مبارك عالم وأديب وقد طالع له القراء فصولا رائمة في مختلف الصحف والمجلات . ولكن الدكتور زكي مبارك لا يكتفى بمثل هذه الأبحاث العلمية المحضة ، بل يعنى كذلك بأدب الخلق والابتداع والنقد وله فيه مؤلفات مشهورة ككتاب (حب ابن أبي ربيعة وشعره) وكتاب « ذكريات باريس » . وقد أخرج هذه الأيام ديوان شعر يدل أبغ الدلالة على إحساس فياض وشعور قوى وشاعرية متقدة تنعكس فيها شتى العواطف الانسانية ويمتاز شعر الدكتور زكي مبارك بشيء من تعادل قوى العاطفة والعقل فيه فهو ليس بالشعر الخاف الناتج من العقل وحده وليس بالشعر المفكك الصادر عن العاطفة المشوشة ولذلك تلجج فيه أثر الأسلوب المتين والصياغة الحلوة والنظام والتناسب والانسجام . وفي وسعنا أن نقول إن ديوانه جهد عظيم للتوفيق بين نزعات الشعر المصري القائم على قوة الملاحظة والتحليل والشعر العربي القائم على قوة الخيال وبلاغة العبارة .

مجلة الأسبوع ابراهيم المصرى



كان همى حين تصفحت هذا الديوان أن أتخمس من روح الشعر : هل اسحر فيه أو هو محمّ عليه على قرب أو بعد ، أو أنه لم يعمره أبدا ولم يطل عليه من قرب أو من بعد . وقد فرحت لمسدينى الوفى الدكتور زكي مبارك حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويتسع فيه الحركة ويميل فيه الحياة ... قرأت في هذا الديوان قصائد قد بلغت الغاية في حسن

النظم وقوة المعنى وجمال الأسلوب . ذلك الى إحكام في ربط المعاني بعضها ببعض وبراعة في حسن السياق مما لا يتبأ ذلك كله إلا للفحول من الشعراء .

محمد خالد

الاهرام



مزينة شعر الدكتور زكي مبارك التي تبدولى هي حسن السبك وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيه بعد طي الديوان ولم يعلق بنفسى منها أثر ولم يستقر في ذاكرتى لما طيف . ولكن الدكتور زكي مبارك أديب كبير وبجامة له آثاره المشهورة ودراساته المصروفة وعالم من كبراء العلماء، وله في ذلك فضل غير منكور لا يزيده أن يكون شاعرا ولا ينقصه أن لا يكون .

إبراهيم عبد القادر المازني

البلاغ



شعر زكي مبارك يطرد فيه الماء، دياجة مشرفة وكلام منسجم ولفظ متضد، شعر منبجس من نبع البحرى ومنحدر من جتاه ... ثم ان هنالك ما يبعث على أن أوتر شعر الدكتور زكي مبارك على قصائد لبعض الشعراء المحدثين . ذلك بأنك لا ترى في قوافيه قلعا ولا نفورا ولا عيبا ولا تراها مستكرمة على مواضعها ... وإنما لتراه يعيد الشعر حين يستلهم صوته . والذي يؤخذ من هذا أن في دخيلة نفس زكي مبارك ميلا شديدا الى الفك، ولقد أطاعه قليلا فأجاد وعصاه كثيرا فبكا .

بشر فارس

الاهرام



لقد أزدحمت مكتبات الأدباء بمؤلفات الأديب الممتاز النابغة الدكتور زكي مبارك وها هو ذا يخرج ديوانه للناس . ومهما حاول الكاتب أن يقول عن شعر زكي مبارك فحسبه أنه لا يقول شعرا لمجرد أن يلا صفحة أو صفتين ولكنه يقوله عند ما يمتلئ قلبه رغبة في أن يقول الشعر، فشعر الدكتور زكي مبارك وحى هذا القلب الكبير الباسخ الذي غمرته الأيام بمحادثاتها

وصهرته في أتون تجاريها وأخرجته لصاحبه قطعة من الاحساس السامى الدقيق ... تقرأ
ديوان الدكتور زكى مبارك من الألف للياء فتحس له في نصيك راحة وتتشعر بلذة وتذكر
ما ذا عسى أن يريد قوله ، أهو جاذ أم عابت ، أهو ضاحك أم باك ، أهو متحمس أم متريث ،
أهو عاشق أم هو مدنف ؟ أنت تقف على هذه الخواطر وتذكرها بنفسك ، وأنت تصف
هذا الشاعر الذى ينشد بقلبه أغايد سامية في هذه الحياة . وثمة عقيدة تخامرك هي أن هذا
الشاعر الفنان قد خلق ليعيش في عزلة عن الناس وأن يحيا بعيدا عن ضوضاء الحياة ومعه من
قلبه قيثارة عجيبة ، وإن كان ضنينا بشعره كما تفضن الحياة بالنبوغ .

الصباح محمد على غريب



كان لا بد من أن يصدر الدكتور زكى مبارك ديوان شعره بعد ما اتخف الأدباء بطائفة
طيبة من ثمره وأبحاثه وتعليقاته على الكتب الأدبية ، وكان موفقا في نظمه كما هو موفق في ثمره
وخطبه ، لأن الدكتور زكى مبارك استطاع أن ينشئ نفسه نشأة أدبية ممتازة ساعده عليها
استمداده الفطرى وما أحاط به من ضروب شتى . وفي الديوان مجموعة طيبة من الشعر
المصرى النقيس . وهو يلبس شعره دياجة بدوية ، ورقة حضرية . وللديوان مقدمة بديعة
كتبها الشاعر بنفسه ولم يسبق إليها فيما أعلم .

المقطع محي الدين رضا



للدكتور زكى مبارك مكانة محبوبة بين الشباب ، لأنه يكتب بروح الشباب وينظم
بصوافف الشباب ، ويرى بين آمالهم وأحلامهم . وهو في الحياة عصامى وفي الأدب يكاد
يكون عصاميا ، ولذلك كان لا يكتبه وينظمه رونق ممتاز يختص به . وقد أصدر أخيرا ديوانا
من الشعر الطريف ، الذى يجمع بين حسن الديباجة ومثانة الأسلوب وبين الافكار المبتكرة
والخواطر الفذة والصور النفسية الجذابة . فنهى " الدكتور زكى بهذا الديوان ، ونهى " التواء
بهذه الهدية التى يهديها اليهم .

المصور طاهر الطناحي

(طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢/٦١/٣٠٠٠)





